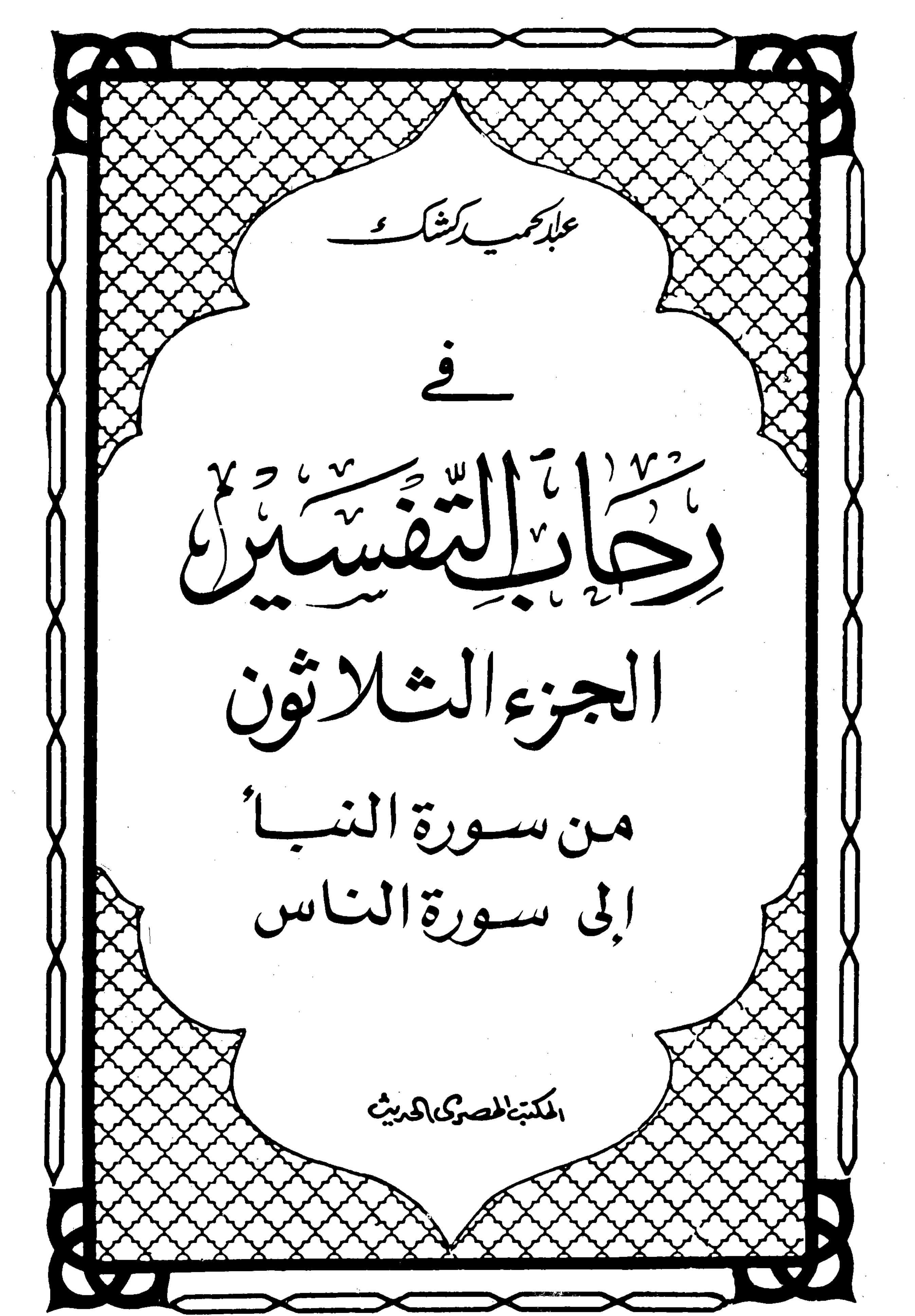


عبد الحميد كشك

في رحاب التفسير

الجزء الثلاثون

من سورة النبأ إلى سورة الناس

المكتب المصري الحديث

تفسير سورة النبأ

مقدمة عن السورة الكريمة :

قال صاحب البصائر :

السورة مكية .

عدد آياتها : أربعون آية .

وكلماتها : مائة وثلاثة وسبعون .

وحروفها : ثمانمائة وست وعشرة .

فواصل آياتها : (منا) وعلى الميم (العظيم) .

ولها اسمان : عم يتساءلون لقوله (يتساءلون) ، والنبأ ، لقوله (عن النبأ العظيم) .

مقصود السورة .

معظم مقصود السورة : ذكر القيامة ، وخلق الأرض والسماء ، وبيان نفع الغيث ، وكيفية النشر والبعث ، وعذاب العاصين وثواب المطيعين من المؤمنين ، وقيام الملائكة فى القيامة مع المؤمنين ، وتمنى الكافر المحال فى قوله (ياليتنى كنت ترابا) .

المتشابهات :

قوله : ﴿ **كلا سيعلمون ثم كلا سيعلمون** ﴾ قيل : التكرار للتأكيد .

وقيل الأول عند النزع ، والثانى فى القيامة .

قوله ﴿ **جزاء وفاقاً** ﴾ وبعده (جزاء من ربك عطاء حسابا) لأن الأول للكفار ، وقد قال الله تعالى : ﴿ **وجزاء سيئة سيئة مثلها** ﴾ فيكون جزاؤهم على وفق أعمالهم . والثانى للمؤمنين وجزاؤهم وافيا كافياً . فلهذا قال (حساباً) أى وافيا .

مناسبة السورة لما قبلها من وجوه :

١ ـ اشتمالها على إثبات القدرة على البعث الذى ذكر فى السورة السالفة أن الكافرين كذبوا به .

٢ ـ أن فى هذه وما قبلها تأنيباً وتقريعا للمكذبين ، فهناك قال (ألم نخلقكم من ماء مهين) وهنا قال (ألم نجعل الأرض مهاداً) .

٣ ـ أن فى كل منهما وصف الجنة والنار وما ينعم به المتقون ، ويعذب به المكذبون .

٤ ـ أن فى هذه تفصيل ما أجمل فى تلك عن يوم الفصل ، فهناك قال (لأى يوم أجلت ليوم الفصل وما أدراك ما يوم الفصل) وهنا قال (إن يوم الفصل كان ميقاتا) إلى آخر السورة .

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢﴾ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ مُخۡتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ ﴿٥﴾ أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا ﴿٦﴾ وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادٗا ﴿٧﴾ وَخَلَقۡنَٰكُمۡ أَزۡوَٰجٗا ﴿٨﴾ وَجَعَلۡنَا نَوۡمَكُمۡ سُبَاتٗا ﴿٩﴾ وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا ﴿١٠﴾ وَجَعَلۡنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشٗا ﴿١١﴾ وَبَنَيۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعٗا شِدَادٗا ﴿١٢﴾ وَجَعَلۡنَا سِرَاجٗا وَهَّاجٗا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡمُعۡصِرَٰتِ مَآءٗ ثَجَّاجٗا ﴿١٤﴾ لِّنُخۡرِجَ بِهِۦ حَبّٗا وَنَبَاتٗا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلۡفَافًا ﴿١٦﴾ إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ كَانَ مِيقَٰتٗا ﴿١٧﴾ يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأۡتُونَ أَفۡوَاجٗا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ أَبۡوَٰبٗا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلۡجِبَالُ فَكَانَتۡ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتۡ مِرۡصَادٗا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابٗا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرۡدٗا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمٗا وَغَسَّاقٗا ﴿٢٥﴾ جَزَآءٗ وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمۡ كَانُواْ لَا يَرۡجُونَ حِسَابٗا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابٗا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ كِتَٰبٗا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمۡ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾

معانى المفـردات

(عم يتساءلون) أى : عن أى شىء يتساءلون .

(النبأ) الخبر الذى يعنى به نهتم بشأنه ، والمراد خبر البعث من القبور والجزاء يوم الحساب .

(كلا) كلمة تعيد رد ما تقدم من الكلام ونفيه .

(المهاد) (بكسر الميم) والمهد : المكان الممهد المذلل .

(الأوتاد) وأحدها وتد ؟ وهو ما يدق فى الأرض ليربط إليه الحبل الذى تشد به الخيمة .

(الأزواج) واحدها زوج ، ويطلق على الذكر والأنثى .

(السبات) (بضم السين) قطع الحركة لتحصيل الراحة .

(اللباس) : ما يلبسه الإنسان ليستر به جسمه ويغطيه .

(معاشا) : أى : وقتا لتحصيل أسباب المعاش والحياة .

(سبعا شدادا) : أى : سبع سموات قوية محكمة لا فطور فيها ولا تصدع .

(السراج) : ما يضىء وينير .

(الوهاج) : المتلألىء والمراد به الشمس .

(المعصرات) : السحائب والغيوم إذا أعصرت أى حان وقت أن تعصر الماء فيسقط منها .

(الثجاج) كثير الإنصباب عظيم السيلان ، والمراد به المطر .

(الحب) ما يقتات به الإنسان كالحنطة والشعير .

(النبات) ما تقتات به الدواب من التين والحشيش .

(الجنات) واحدها جنة ، وهى الحديقة والبستان فيه الشجر أو النخيل ، والجنات الألفاف : الملتفة الأغصان ، لتقاربها وطول أفنانها ، ولا واحد لها كالأوزاع والأخياف .

(يوم الفصل) هو يوم القيامة ، وسمى بذلك لأن الله يفصل فيه بحكمه بين الخلائق .

(ميقاتا) أى : حداً تنتهى عنده الدنيا .

(الصور) فى الأصل البوق الذى ينفخ فيه فيحدث صوتا ، وقد جرت عادة الناس إذا سمعوه أن يهرعوا إليه ويجتمعوا عند النافخ .

(الأفواج) واحدها فوج وهو الجماعة .

(وفتحت السماء) أى : انشقت وتصدعت .

(وسيرت الجبال) أى : زالت من أماكنها وتفتت صخورها .

(سرابا) أى : كالسراب ، فحص بعد تفتحها ترى كأنها جبال وليست بجبال ، بل غباراً متراكما .

(المرصاد) موضع يرتقب فيه خزنتها المستحقين لها .

(للطاغين) أى : للذين طغوا فى مخالفة ربهم ومعارضة أوامره .

(والمآب) المرجع .

(لابثين) أى : مقيمين .

(أحقابا) واحدها حقب ، وواحد الحقب حقبة : وهى مدة من الزمان .

(والبرد) برد الهواء ، وقد يراد به النوم ، ومن أمثالهم « منع البردُ البردَ » أى أصابه من شدة البرد ما منعه النوم .

(الحميم) الماء الحار المغلى .

(غساقاً) أى : قيحا وصديداً .

(وفاقاً) أى : وفق أعمالهم السيئة .

التفسـير

قوله تعالى : ﴿ **عم يتساءلون . عن النبأ العظيم ، الذى هم فيه مختلفون كلا سيعلمون ، ثم كلا سيعلمون** ﴾ .

يقول تعالى منكرا على المشركين فى تساؤلهم عن يوم القيامة انكاراً لوقوعها (عم يتساءلون عن النبأ العظيم) أى : عن أى شىء يتساءلون من أمر القيامة وهو النبأ العظيم يعنى الخبر الهائل المفظع الباهر . قال قتادة : (النبأ العظيم) البعث بعد الموت وقال مجاهد هو القرآن قال ابن كثير والأظهر الأول لقوله تعالى : ﴿ **الذى هم فيه مختلفون** ﴾ اختلفوا فى أمره ، فمن قائل إنه مستحيل كما حكى الله عنهم (هيهات هيهات لما توعدون ، إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين) . ومن شاك فيه بقوله : ﴿ **ما ندرى ما الساعة إن نظن إلا ظناً وما نحن بمستيقنين** ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ **كلا سيعلمون** ﴾ أى ليس الأمر كما يزعم هؤلاء المشركون الذى يذكرون البعث بعد الموت ، ثم توعدهم بأنهم سيعلمون إذا ما عاينوا بأنفسهم حقيقة ما كانوا ينكرون . قال تعالى : ﴿ **ونفخ فى الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون** ﴾ وقال تعالى : ﴿ **فإنما هى زجرة واحدة فإذا هم ينظرون ، وقالوا يا ويلنا هذا يوم الدين ، هذا يوم الفصل الذى كنتم به تكذبون** ﴾ ثم أكد هذا الوعيد .

بقوله تعالى : ﴿ **ثم كلا سيعلمون** ﴾ وفى تكرير الزجر مع الوعيد إيماء إلى غاية التهديد .

ثم شرع سبحانه يبين عظيم قدرته وآيات رحمته التى غفل عنها هؤلاء المنكرون .

فقال تعالى : ﴿ **ألم نجعل الأرض مهادا ، والجبال أوتادا ، وخلقناكم أزواجا ، وجعلنا نومكم سباتاً وجعلنا الليل لباسا وجعلنا النهار معاشاً** ﴾ .

﴿ **ألم نجعل الأرض مهادا** ﴾ أى فكيف تنكرون أو تشكون أيها الجاحدون فى البعث والنشور وقد رأيتم ما يدل عليه من قدرة الله التامة وعلمه المحيط بكل شىء وحكمته الباهرة التى تقتضى ألا يكون ما خلق من الخلق عبثا ﴿ **أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون** ﴾ من ينعم بهذه النعم لا يمكن أن يهملها ، ويتركها سدى ، أنظروا إلى الأرض التى جعلها الله لكم ممهدة ، وموطأة الأكناف للناس والدواب ، يقيمون عليها ، ويفترشونها ، وينتفعون بها وبخيراتها ﴿ **قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين فقضاهن سبع سمٰوات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم** ﴾ .

ألا ينظرون إلى عظمة هذه الأرض ، التى منها خلقوا ، وفيها سيعودون ومنها سيخرجون تارة أخرى شاءوا أم أبوا ؟ ألا ينظرون إلى أسرار التربة التى فى هذه الأرض ، وما فيها من عجائب صنع الله جعل

لكم الأرض مهداً ، وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى كلوا وارعوا أنعامكم إن فى ذلك لآيات لأولى النهى منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى .

قوله تعالى : ﴿ **والجبال أوتادا** ﴾ أى جعلنا الجبال للأرض كالأوتاد كى لا تميل بأهلها أو تميد وتضطرب بسكانها ، ولولا الجبال التى خلقها الله بحكمته لكانت الأرض دائمة الاضطراب لما فى جوفها من المواد الدائمة الجيشان ، والمعادن المختلفة الأشكال والألوان

قال تعالى : ﴿ **وجعلنا فى الأرض رواسى أن تميد بهم وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون** ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ **وخلقناكم أزواجاً** ﴾ أى وجعلناكم أصنافا ذكورا وإناثا ليتمتع كل منكم بالآخر وليتم الائتناس والتعاون على سعادة المعيشة وحفظ الحياة بالإنسان والتوليد وتكملها بالتربية والتعليم قال تعالى ﴿ **ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون** ﴾ .

ثم قال تعالى :

﴿ **وجعلنا نومكم سباتا** ﴾ السبات الموت والمسبوت الميت ، من السبت وهى القطع ، والنوم أحد الموتتين ، وهو من نعم الله الكبرى على الناس قال تعالى ﴿ **ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون** ﴾ فإن نوم بضع ساعات فى اليوم يربح القوى من تعبها وينشطها من كسلها ويعيد إلى الجسم ما فقد منه من حيوية ونشاط ، ولو لم يكن النوم موتاً واليقظة بعثاً لم يتم هذا التجديد لقوى الإنسان بل لفقد الإنسان الطاقة على العمل . فالمراد قد يعين على الزاد والشراب أياماً ولكنه لا يطيق الصبر على السهر . والسهر ينضى الجسم ويبليه فالله تبارك وتعالى جعل نومنا فى الليل قطعا للحركة وايقافا للعمل لتحصل الراحة فى فترة النوم من كثرة الترداد والسعى فى المعاش فى سحابة النهار .

ولقد شبه الرسول ﷺ الموت بالنوم واليقظة بالبعث والنشور فكما أننا ننام ولا ندرى كيف نمنا ونستيقظ ولا ندرى كيف انقضت تلك الساعات الطوال فإننا كذلك سنموت ولا ندرى كيف متنا ونبعث وكأننا استيقظنا بعد غفوة طويلة قال النبى الكريم فى هذا التشبيه البليغ « والله إنكم لتموتن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون ولتسألن عما كنتم تعملون ، ولتجزون بالإحسان إحسانا وبالسوء سوءا وإنها لجنة أبداً أو نار أبداً » .

سبحان الله الذى جعل النوم سباتا وجعل الليل سكنا ولباسا وجعل النهار نشورا ، وله الحمد فى السموات والأرض وهو بكل شىء عليم .

ثم قال تعالى : ﴿ **وجعلنا الليل لباساً** ﴾ أى غطاءً وسترة يستر كل شىء بظلمته وسواده ، ويغشى الناس بظلامه ، وسواده كما قال تعالى ﴿ **والليل إذا يغشاها** ﴾ .

قال قتادة ﴿ **وجعلنا الليل لباساً** ﴾ أى سكناً .

والليل ساتر للناس والأجسام يغطيها كما يغطى اللباس الجسم ويستره وللناس ساتر للناس فى هذا الستر فوائد اللباس ، فكما أن اللباس يقى الجسم من الحر والبرد ويستر العورات عن النظر ، فكذلك

الليل يستر الانسان فيه عن الناس ، ويبعده عن الأعمال الشاقة المجهدة وبالظلام ينام نوماً عميقاً هادئاً يحفظ جسمه من التعب والنصب ولولا هذا اللباس من الظلام لما نام الإنسان هذا المنام ، ولما أصابه هذا الهدوء ، ففى الظلام تستريح الأعصاب . ويستريح النظر ، ويتجدد الفكر ، وينمو العقل ويتعمق المرء فى التفكير الرقيق والنهار ﴿ إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار ﴾ . ﴿ وهو الذى جعل الليل والنهار خلقة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا ﴾ ﴿ ذلكم الله فأنى تؤفكون فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ قوله تعالى ﴿ **وجعلنا النهار معاشاً** ﴾ إن الله تبارك وتعالى كما جعل النوم فى الليل موتاً أصغر وقطعا للحياة جعل النهار يقظة ، وحياة ، وقت معاش ، وحركة ، يستيقظ الناس فيه ويتقلبون فى حوائجهم ومكاسبهم ، والله سبحانه جعل النهار مشرقاً نيراً مضيئاً تنبعث منه الحياة وتدب فيه أصولها ، ليتمكن الناس من التصرف فيه ، والذهاب والمجىء للمعاش والتكسب والتجارات والصناعات والزراعة وغيرها فلله الفضل والمنة .

فلو جعل علينا الليل سرمداً إلى يوم القيامة فمن يأتينا بنهار غيره عز وجل ومن من الناس يستطيع أن يحرك هذه الشمس الجبارة من مكانها أو ينقلها فى سمائها وعليائها لتنقل لنا الدفء والضياء وتبعث فى الكون الحياة والنشاط قال تعالى ﴿ **قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون ، ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون** ﴾ والشمس آية النهار ، كما أن القمر آية الليل ﴿ **ومن آياته الشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون** ﴾ .

قوله تعالى ﴿ **وبنينا فوقكم سبعاً شداداً ، وجعلنا سراجاً وهاجاً ، وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجاً ، لنخرج به حباً ونباتاً ، وجنات ألفافا** ﴾ وقوله : ﴿ **وبنينا فوقكم سبعاً شداداً** ﴾ وهذه آية كبرى من آيات الله البينات أو براهينه الساطعات ، النيرات ، وهى السموات السبع التى بناها الله جل فى علاه فوقنا ، وهى فى عظمتها واتساعها وارتفاعها وإحكامها وإتقانها وتزيينها بالكواكب المختلفة الثابتة منها والسيارة . وهذه السموات السبع محكمة النسج قوية البنيان لا يؤثر فيها كر الغداة ولا مر العشى ، ليس فيها تصدع ولا فطور فارجع البصر هل ترى من فطور ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير .

قال تعالى ﴿ **تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير ، الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور ، الذى خلق سبع سموات طباقا ، ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور . ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير ، ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين وأعتدنا لهم عذاب السعير ، وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير** ﴾ .

ولولا هذا البناء المحكم الشديد لهذه السموات السبع وأن الله جعلها سقفا محفوظاً ، وظلا ممدودا ، فلولا لطف الله لهلك من فى الأرض كلهم أجمعون بسقوط نجم واحد من أنجمها الزاهرة وهبوط كوكب

واحد من كواكبها الباهرة وأصغر كوكب من كواكبها يفوق الأرض حجماً ووزناً واتساعا فلله الفضل والمنة أن بنى فوقنا السموات السبع بناء محكماً شديدا سبحانه إذ أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين . قال تعالى ﴿ **ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه إن الله بالناس لرؤوف رحيم** ﴾ .

وقوله تعالى ﴿ **وجعلنا سراجاً وهاجاً** ﴾ أى الشمس ، فالله تبارك وتعالى خلق هذه الشمس العظيمة ، وجعلها منيرة مشرقة على جميع العالم وضوءها يتوهج لأهل الأرض كلهم أجمعين ويقال توهجت النار إذا تلمظت فتوهجت بضوئها وحرها ، ومعنى الوهاج المتلألىء الوقاد ، وقد جعل الله سبحانه وجلت قدرته الشمس سراجاً للعالم ، وقادا متلألئاً بالنور يستضيئون به ، وينعمون بنوره ، والنعمة فيه عامة لجميع الخلق قال مقاتل : جعل فيه نوراً وحراً ، والوهج يجمع النور والحر ، والنور والحر سران من أسرار الحياة الإنسانية ، ونعمتان من نعم الله العظمى . أودعهما الله فى هذا الكوكب ليطرد بهما الأمراض ، وينقى بهما الأرض ويطهرها ومن عليها من الناس والدواب ، وينبت بهما النبات ، ويخرج بهما الحب ، والزيتون والنخيل ومن كل الثمرات ولعظمة هذا الكوكب الذى يجرى بحسبان ويسجد تحت عرش الرحمن فقد أقسم الله به ليلفت إلى عظمته الأنظار فقال تعالى ﴿ **والشمس وضحاها ، والقمر إذا تلاها ، والنهار إذا جلاها والليل إذا يغشاها** ﴾ وقال تعالى : ﴿ **الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون** ﴾ وقال تعالى الخالق العظيم : ﴿ **والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم** ﴾ وقال عز من قائل : ﴿ **هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون ، إن فى اختلاف الليل والنهار وما خلق الله فى السموات والأرض لآيات لقوم يتقون** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجاً** ﴾ .

وهذه نعمة أخرى من نعم المولى سبحانه وتعالى التى لا تعد ولا تحصى إذا أنزل عز وجل بقدرته وبفضله من السحب والغيوم المتكاثفة كالجبال والتى تتحلب بالمطر أنزل منها ماء كثير الانصباب عظيم السيلان تجرى به السيول والوديان ، وحيث يرسله الله إلى البلد الميت فيحييه ويحيى به أهله .

وألثج شدة الانصاب قال قتادة : الثجاج هنا المتدفق المنصب . والمراد هنا تتابع القطر من المطر حتى يكثر الماء فيعظم به النفع لسائر المخلوقات فى الأرض .

ومن معنى المعصرات الرياح التى تعصر السحائب فيتنزل المطر وهى رواية عن ابن عباس رضى الله عنهما قال تعالى ﴿ **الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه فى السماء كيف يشاء ويجعله كسفاً فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون** ﴾ وقال تعالى ﴿ **وهو الذى أرسل الرياح بشراً بين يدى رحمته وأنزلنا من السماء ماء طهوراً لنحيى به بلدة ميتا ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسى كثيرا** ﴾ . ثم بين سبحانه عظيم نفع الماء وجليل فائدته فقال تعالى :

﴿ **لنخرج به حبا ونباتاً ، وجنات ألفافا** ﴾ أى لنبدل بوساطته جدب الأرض خصبا ، فتخرج من الأرض حبا يقتات به الناس كالحنطة والشعير ، ونباتا تقتات به الدواب ، وحدائق ذات أغصان ملتفة .

وقد جمع الله سبحانه فى هذه الآية جميع أنواع ما تنبته الأرض ، فإن ما يخرج منها إما أن يكون ذا ساق أولاً ، والأول إذا اجتمع بعضه إلى بعض وكثر حتى التف فهو الحديقة ، والثانى إما أن يكون له أكمام فيها حب ، وإما أن يكون بغير ذلك وهو النبات ، وقدم الحب لأنه غذاء أشرف أنواع الحيوان وهو الإنسان ، وأعقبه بذكر النبات ، لأنه غذاء بقية أنواع الحيوان ، وآخر الحدائق لأن الفاكهة مما يستغنى عنها الكثير من الناس .

ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ **وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون** ﴾ .

قال تعالى : ﴿ **إن يوم الفصل كان ميقاتا ، يوم ينفخ فى الصور فتأتون أفواجاً ، وفتحت السماء فكانت أبوابا وسيرت الجبال فكانت سرابا إن جهنم كانت مرصادا للطاغين مآبا لابثين فيها أحقابا** لا يذوقون فيها بردا ولا شراباً إلا حميما وغساقاً جزاء وفاقا إنهم كانوا لا يرجون حسابا وكذبوا بآياتنا **كذابا ، وكل شىء أحصيناه كتابا فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا** ﴾ .

بعد أن بين الله سبحانه وتعالى للناس بهذه الدلائل المشاهدة قدرته الباهرة وعظمته القاهرة ليلزمهم الحجة ، فى أمر البعث والنشور ، حتى لا يجدوا سبيلا إلى نكرانه وجحوده ، هددهم أشد التهديد ببيان أن الساعة آتية لا محالة ولا ريب فيها ، وفيها فصل الخطاب بين الحق والباطل والحساب والجزاء لكل عامل فقال تعالى : ﴿ **إن يوم الفصل كان ميقاتا** ﴾ أى أن يوم القيامة كان فى تقدير الله عز وجل وحكمته حداً فاصلاً به فى الدنيا أو حداً للخلائق ينتهون إليه ، وكان ميقاتا لما وعد الله من الثواب والعقاب وهو ميقات لكل الخلائق يجتمعون فيه فى فصل الحكومات وقطع الخصومات وهو يوم القيامة مؤقت بأجل معدود لا يزاد عليه ولا ينقص منه ولا يعلم وقته على التعيين إلا الله عز وجل كما قال سبحانه ﴿ **وما نؤخره إلا لأجل معدود** ﴾ والحاكم المطلق فيه رب الأرض والسماوات وعالم السر والنجوى من لا تغيب عنه غائبة فى الأرض ولا فى السماء ﴿ **إن الحكم إلا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين** ﴾ ثم بين سبحانه هذا اليوم وزاد فى تفظيعه وتهويله فقال تعالى : ﴿ **يوم ينفخ فى الصور فتأتون أفواجاً** ﴾ أى يوم ينفخ فى الصور فتأتون زمراً زمراً كل أمة مع رسولها بدليل قوله تعالى ﴿ **يوم ندعو كل أناس بإمامهم** ﴾ ونحو الآية قوله تعالى ﴿ **ونفخ فى الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون** ﴾ وقوله ﴿ **يوم يدع الداع إلى شىء نكر ، خشعاً أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر ، مهطعين إلى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر** ﴾ والنفخ فى الصور فى هذه الآية هو النفخة الأخيرة التى عندها يكون النشر والحشر .

وقوله تعالى ﴿ **وفتحت السماء فكانت أبوابا** ﴾ أى طرقاً ومسالك لنزول الملائكة كما قال تعالى ﴿ **ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوما على الكافرين عسيراً** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **وسيرت الجبال فكانت سراباً** ﴾ أى أن الجبال لا تكون فى ذلك اليوم على ثباتها المعروف بل يذهب ما كان لها من قرار ، وتعود كأنها سراب يُرى من بعد فإذا قربت منه لم تجد شيئاً لتفرق أجزائها وانبثاث جواهرها .

أحوال الجبال يوم القيامة

وقد ذكر الإمام الرازى رحمه الله فى تفسيره أحوال الجبال فقال : اعلم أن الله تعالى ذكر فى مواضع من كتابه أحوال الجبال على وجوه مختلفة ويمكن الجمع بينها على الوجه الذى نقوله وهو :

١ ـ أن أول أحوالها الاندكاك وهو قوله ﴿ **وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة** ﴾ .

٢ ـ الحالة الثانية لها أن تكون ﴿ **كالعهن المنفوش** ﴾ وهو قوله ﴿ **يوم تكون السماء كالمهل وتكون الجبال كالعهن** ﴾ .

٣ ـ الحالة الثالثة : أن تصير كالمهل وذلك أن تنقطع وتتبدد بعد أن كانت كالعهن وهو قوله ﴿ **إذا رجت الأرض رجا وبست الجبال بسا فكانت هباء منبثاً** ﴾ .

٤ ـ الحالة الرابعة : أن تنسف لأنها مع الأحوال المتقدمة تفارق مواضعها والأرض تحتها غير بارزة فتنسف عنها بإرسال الرياح عليها وهو المراد بقوله ﴿ **ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفاً فيذرها قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجا ولا أمتاً** ﴾ .

٥ ـ والحالة الخامسة : أن الرياح ترفعها عن وجه الأرض فتصيرها شعاعاً فى الهواء كأنها غبار فمن نظر إليها من بعد حسبها لتكاثفها أجساماً جامدة وهى بالحقيقة مارة إلا أن مرورها بسبب الرياح بها صيرها مندكة متفتتة وهى قوله ﴿ **وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب صنع الله الذى أتقن كل شىء إنه خبير بما تفعلون** ﴾ .

ثم بين أن تلك الحركة حصلت بقهره وتسخيره فقال ﴿ ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً ﴾

٦ ـ الحالة السادسة : أن تصير سراباً بمعنى لا شىء فمن نظر إلى مواضعها لم يجد فيها شيئاً . كما أن من يرى السراب من بعد إذا جاء الموضع الذى كان يراه فيه لم يجد شيئا والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ **إن جهنم كانت مرصادا للطاغين مآبا لابثين فيها أحقابا** ﴾ .

أى : إن دار العذاب وهى جهنم مكان يرتقب فيه خزانتها من يستحقها بسوء أعماله ، وخبث عقيدته وأفعاله .

روى ابن جرير وابن المنذر عن الحسن أنه قال : لا يدخل أحد الجنة حتى يجتاز النار ، فإن كان معه جواز نجا ، وإلا احتبس .

وقوله ﴿ للطاغين مآبا ﴾ أى إنها مرجع للذين طغوا فى البلاد وأكثروا فيها الفساد . ﴿ **لابثين فيها أحقاباً** ﴾ أى أنهم سيمكثون فيها دهورا متلاحقة يتبع بعضها بعضا فكلما انقضى زمن لهم تجدد لهم زمن آخر كما قال تعالى ﴿ **يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم** ﴾ .

ثم بين سبحانه أحوالهم فيها فقال :

﴿ **لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا ، إلا حميما وغساقا . جزاء وفاقا** ﴾ أى : لا يذوقون فى جهنم برداً يبرد السعير عنهم . إلا الغساق ولا شرابا يرويهم من شدة العطش إلا الحميم ، فهم لا يذوقون مع شدة

الحر ما يكون فيه راحة من ريح باردة ، أو ظل يمنع من نار ، ولا يجدون شرابا فيسكن عطشهم ، ويزيل الحرقة من بواطنهم ولكن يجدون الماء الحار المغلى ، وما يسيل من جلودهم من الصديد والقيح والعرق ، وسائر الرطوبات المستقذرة قال الربيع بن أنس : الحميم فهو الحار الذى قد انتهى حره وحموه ، والغساق هو ما اجتمع من صديد أهل النار وعرقهم ودموعهم وجروحهم وقال ابن جرير ومثل المراد بقوله ﴿ **لا يذوقون فيها برداً** ﴾ يعنى النوم .

وقوله تعالى : ﴿ **جزاء وفاقا** ﴾

أى : أن هذا الحال الذى صاروا إليه ، وهذه العقوبة التى نزلت بهم ما هى إلا نتيجة أعمالهم الفاسدة التى كانوا يعملونها فى الدنيا وقال مقاتل : وافق عذاب النار الشرك لأنهما عظيمان فلا ذنب أعظم من الشرك ولا عذاب أعظم من النار .

والوفاق الجارى على المقدار ، فالجزاء وفاق لأنه جار على مقدار الأعمال فى الاستحقاق ، والعقاب من جنس العمل فلم ينزل الله بهم أليم عذابه وشديد عقابه إلا لأنهم أتوا بخسيس المعاصى ، وارتكبوا عظيم الآثام وكبير الذنوب والإجرام .

قوله تعالى : ﴿ إنهم كانوا لا يرجون حسابا وكذبوا بآياتنا كذابا وكل شىء أحصيناه كتابا فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً ﴾

بعد أن بين ـ سبحانه ـ على طريق الإجمال أن هذا الجزاء الذى أعده لهؤلاء الآثمين . وأنه تعالى جعله وفق إجرامهم وكفاء أعمالهم المنكرة شرع هنا جل وعلا بتفصيل أنواع جرائمهم فقال تعالى ﴿ **إنهم كانوا لا يرجون حسابا** ﴾ .

لقد فعلوا ما فعلوا من المنكرات ، وارتكبوا ما ارتكبوا من الموبقات وأتوا ما أتوا من المعاصى . واجترحوا ما اجترحوا من السيئات لأنهم كذبوا بيوم الحساب ، وما كانوا يتوقعون أن يقفوا ذلك الموقف الرهيب بين يدى رب العالمين فيجازيهم بأعمالهم ، وقد أمضى كل شىء عليهم ولو آمنوا بهذا الحساب لخافوا الله وحسبوا لهذا اليوم حسابه ، وأعدوا له عدته . ولكنهم كذبوا به فرتعوا فى الباطل ، وغاصوا فى الغى والضلال . ومن أمن العقوبة أساء الأدب وانتهى إلى سوء المنقلب .

وقوله : ﴿ **وكذبوا بآياتنا كذابا** ﴾ أى أنهم مع تكذيبهم بيوم الحساب فقد كذبوا بجميع حجج الله ودلائله على عظيم خلقه التى أنزلها على رسله وأنبيائه عليهم الصلاة والسلام . وكذبوا بكل البراهين الدالة على التوحيد والنبوة والمعاد . وأنكروا ما جاء به القرآن الكريم فهم كفرة فجرة ، لذا عقابهم شديدا موافقا لما أتوا به من الكفر والضلال وعظيم الآثام .

وقوله تعالى : ﴿ **وكل شىء أحصيناه كتابا** ﴾ أى إنا علمنا جميع ما عملوا علماً ثابتاً لا يعتريه تغيير ولا تحريف ، فلا يمكنهم أن يجحدوا شيئا مما كانوا يصنعون فى الحياة الدنيا حين يرون ما أعد لهم من أنواع العقوبات ، لأنا قد أحصينا ما فعلوه إحصاء لا يزول منه شىء ولا يغيب ، وإن غاب عن أذهانهم ونسوه كما قال تعالى ﴿ **أحصاه الله ونسوه والله على كل شىء شهيد** ﴾ وقال تعالى ﴿ **ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون ياويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا** ﴾ .

وبعد أن بين قبائح أفعالهم لكفرهم بالحساب وتكذيبهم بالآيات ـ رتب عليه هذا الجزاء فقال تعالى ﴿ **فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا** ﴾ أى فذوقوا ما أنتم فيه من العذاب الأليم ، فلن نزيدكم إلا عذابا من جنسه كما قال تعالى ﴿ **وآخر من شكله أزواج** ﴾ روى قتادة عن عبد الله بن عمر وأنه قال : لم ينزل على أهل النار آية أشد من هذه الآية ﴿ **فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا** ﴾ قال تعالى ﴿ **ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيرا ، ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا أإنا لمبعوثون خلقاً جديداً** ﴾

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾

معانى المفردات

(مفازا) : أى : فوزا بالنعيم والثواب

(حدائق) : أى : بساتين فيها أنواع الثمر والشجر .

(أعنابا) : واحدها عنب .

(كواعب) : واحدها كاعب ، وهى التى نهد ثدياها وتكعبا .

(الاتراب) إحداهن ترب ، وهى التى سنها من سن صاحبتها .

(والكأس) : أناء من بلور للشراب .

(دهاقاً) : ممتلئة .

(اللغو) : الباطل من الكلام

(حسابا) : أى : كافيا لهم .

(الخطاب) : المخلصة والمكالمة .

(الروح) : جبريل عليه الصلاة والسلام .

(المآب) المرجع .

(الانذار) : الاخبار بالمكروه قبل وقوعه .
(المرء) : الإنسان ذكراً كان أو أنثى .
(ما قدمت يداه) : ما عمله فى حياته الأولى .

المناسبة واجمال المعنى

بعد أن بين حال المكذبين ، أردفه ما يفوز به المتقون من الجنات التى وصفها ووصف ما فيها ، وذكر إنها عطاء من الله تعالى ، وفى هذا استنهاض لعوالى الهمم بدعوتهم إلى المثابرة على أعمال الخير ، وأزديادهم من القربان والطاعات ، كما أن فيها إيلاما لأنفس الضالين المكذبين ثم أتبعه بأن هذا اليوم حق لا ريب فيه ثم عاد إلى تهديد المعاندين وتحذيرهم من عاقبة عنادهم ، وأنهم سيعلمون غداً ما قدمته أيديهم وحينئذ يندمون ، ولات ساعة مندم ، ويبلغ من أمرهم أن يقولوا : ليتنا كنا ترابا لم نصب حظاً من الحياة .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **إن للمتقين مفازا . حدائق وأعنابا . وكواعب أترابا . وكأساً دهاقا لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا . جزاء من ربك عطاء حسابا** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **إن للمتقين مفازاً** ﴾ .

فالفوز بالكرامة فى دار المقامة ، ونيل الثواب فى جنة النعيم ، جعله الله عز وجل جزاء من صدق مع الله واستحيا من الله حق الحياء واتقى محارم الله وخاف عقابه ، وتزود بالتقوى ، وخير الزاد التقوى ، وقد لبسوا فيها جلبابا سابغا أنجاهم الله‍يه من النار . وكتب لهم الفوز بالجنة .

وقد بين الله تبارك وتعالى صفات المتقين فى كتابه العزيز لتعليم من لم يكن يعلم من هم المتقون الذى يعنيهم القرآن فى العديد من آياته البينات والقرآن يفسر بعضه بعضاً .

قال تعالى من سورة البقرة : ﴿ الۤمۤ . ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون ، أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة و آتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ، الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على

ما فعلوا وهم يعلمون أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد ، هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ ، من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب ، ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود ، لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ إن المتقين فى جنات وعيون . آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين . كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون . وبالأسحار هم يستغفرون . وفى أموالهم حق للسائل والمحروم ﴾ .

فالمتقون هم الفائزون بروضات الجنات المستحقون هذا الفوز بفضل من الله وبرحمة منه فوهبهم ومنحهم هذا الفوز جزاء تقواهم لله عز وجل .

ثم فصل الله تعالى هذا الفوز وبين طرفاً مما سيصيب هؤلاء الأطهار الأبرار من النعيم المقيم فقال تعالى :

﴿ حدائق وأعناباً ﴾ أى : بساتين من النخيل والأعناب ومختلف الأشجار لها أسوار محيطة بها ، وفيها الأعناب اللذيذة الطعم ، مما تشتهيها النفوس ، وتقر به العيون .

ثم وصف سبحانه ما فى الحدائق والجنات فقال تعالى :

﴿ وكواعب أتراباً ﴾ أى : وحورا كواعب لم تتدل ثديهم ، وهن أبكار عرب أتراب .

والتمتع بالنساء على هذه الشاكلة مما يتمثله المرء فى الدنيا على نحو من اللذة ، وإن كنا لا نعلم كنهه فى الآخرة ، وعلينا أن نؤمن به وأنه متمتع يفوق ما هو مثله من لذات هذه الحياة ، وأنه يشاكل أحوال العالم الأخروى .

وقوله : ﴿ وكأسا دهاقاً ﴾ أى : وكأساً من الخمر مترعة ملأى متتابعة على شاربيها لا يصدعون عنها ولا ينزفون فهى لذة للشاربين .

وقوله : ﴿ لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا ﴾ أى : ليس فيها كلام لاغ عار عن الفائدة ، وليس فيها كذب وبهتان ولازور وعصيان .

قال تعالى : ﴿ لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيما الا قيلا سلاماً سلاماً ﴾ بل هى جنة الرحمن برئت من كل عيب ونقصان .

أن هؤلاء السعداء الذين أكرمهم الله بجنة الخلد سوف لا يسمعون كلاماً فاسداً باطلا أو مشوشاً مخلوطا بالزور والبهتان وستكون النعم الواصلة اليهم صافية خالية من زحمة أعدائهم أيضا . وعن سماع كلامهم الفاسد وأقوالهم الكاذبة الباطلة وسيبعثون فى الجنة إخواناً على سرر متقابلين ، لا لغو ولا رفث ولا حقد ولا ضغينة ولا حسد قال تعالى :﴿ ونزعنا ما فى صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين ﴾

الكل يرتع فى جنة الله والكل سعيد بفضل الله والكل يجد ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ، وليس هناك ما يكدر صفة المحبة ولا يعكر نقاء القلوب الطاهرة التى تعلقت بالله واتقت الله فحظيت بالنعيم المقيم فى الجنة التى عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ، جعلنا الله منهم والمسلمين أجمعين .

وقوله تعالى : ﴿ **جزاء من ربك عطاء حساباً** ﴾ أى : هذا الذى ذكرناه جازاهم الله به وأعطاهموه بفضله ومنه وإحسانه ورحمته عطاء حساباً أى : كافيا وافيا سالماً كثيراً .

قوله تعالى : ﴿ **رب السموات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطاباً ، يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا** ﴾

يخبر تعالى عن عظمته وجلاله وأنه رب السموات والأرض وما فيها وأنه الرحمن الذى شملت رحمته كل شىء الملك الحق المبين .

وقوله ﴿ **لا يملكون منه خطابا** ﴾ أى : لا يقدر أحد على ابتداء مخاطبته إلا بإذنه كقوله تعالى : ﴿ **من ذا الذى يشفع عنده الا بإذنه** ﴾ وكقوله تعالى ﴿ **يوم يأت لاتكلم نفس إلا بإذنه** ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ **يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا** ﴾ .
اختلف المفسرون فى المراد بالروح ههنا ما هو؟
على أقوال (أحدها) أنهم بنوا آدم ، الثانى : أنهم خلق من خلق الله على صور بنى آدم وليسوا بملائكة ولا بشر وهم يأكلون ويشربون (والثالث) هو جبريل ويستشهد لهذا القول بقوله عز وجل (نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين ﴾ قال ابن كثير والأشبه عندى والله أعلم أنهم بنو آدم .

وقوله تعالى : ﴿ **الا من أذن له الرحمن** ﴾ كقوله تعالى : ﴿ **يوم يأت لاتكلم نفس إلا بإذنه** ﴾ وكما ثبت فى الحديث الصحيح « ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل » .

وقوله تعالى : ﴿ **وقال صوابا** ﴾ أى : قال حقاً وصواباً وعدلا ، من الحق لا إله إلا الله . وقوله تعالى : ﴿ **ذلك اليوم الحق** ﴾ أى : الكائن لا محالة « فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا » أى : من شاء من العباد تاب وأناب ورجع إلى ربه ويدنيه من كرامته وثوابه ، ويباعد بينه وبين عقابه وأليم عذابه فإذا اتخذ المرء عند ربه مرجعا ومآبا فقد فاز ونجا وتعلق بأسباب الرجاء .

وقال ابن عباس المراد : فمن شاء الله به خيراً هداه حتى يتخذ إلى ربه مآبا .

قوله تعالى : ﴿ **إنا أنذرناكم عذاباً قريباً يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتنى كنت تراباً** ﴾

لقد أنذرهم الله عز وجل فى هذه الآية من عذاب يوم القيامة . إن هم مضوا فى كفرهم وضلالهم ، ولم يثوبوا إلى رشدهم ، ولم يعودوا إلى ربهم ، تائبين خائفين من عذاب هذا اليوم الذى سيقع حتماً ، ولتحقق وقوعه صار قريبا وكل ما هو آت آت كقوله تعالى : ﴿ **كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها** ﴾ .

وإنما سمى الله هذا التخويف انذاراً لأنه تعالى بهذا الوصف قد خوف ، منه نهاية التخويف وهو معنى الإنذار . وإنهم سيجدون مقدمات هذا العذاب إذا فارقت الروح الجسد ووسد المرء فى صدع من الأرض بقبر غير موسد ولا ممهد ، وقد خلع الأسباب وفارق الأصحاب وواجه الحساب ، عندها ينكشف له ما كان ينتظره ، ويرى نعيم القبر أوعذابه ، ولا يزال منه فى ألم إلى أن يلاقى ربه عز وجل .

وقوله تعالى : ﴿ يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ﴾ أى : سيرى وينتظر جزاء ما قدمت يداه ، فإن قدم الطاعة انتظر الثواب ، وأن قدم المعصية انتظر العقاب ، وطوبى له إن قدم عمل الأبرار ، وويل له إن قدم عمل الفجار .

غداً توفى النفوس ما كسبت ويحصد الزارعون ما زرعوا
فإن احسنوا أحسنوا لانفسهم وأن أساءوا فبئس ما صنعوا

قال ابن كثير : (يوم ينظر المرء ما قدمت يداه) أى يعرض عليه جميع أعماله خيرها وشرها وقديمها وحديثها ، وكقوله تعالى : ﴿ ووجدوا ما عملوا حاضراً ﴾ وكقوله تعالى : ﴿ ينبأ الانسان يومئذ بما قدم وأخر ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ ويقول الكافر يا ليتنى كنت تراباً ﴾ .

إن شدة ما يلقاه الكافر فى ذلك اليوم العسير عليه وهو ما سيراه حين يرى عذاب الله ونقمته وبطشه وينظر إلى أعماله الفاسدة وإلى سيئاته وقد سطرت عليه بأيدى السفرة ، الكرام البررة ، بحيث لم يغادروا صغيرة ولا كبيرة الا سجلوها وسطروها فى كتاب أعماله الذى سيعرض عليه ويقال له (اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً) ويقول : « مالهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحداً » .

إن كل هذا وغيره من الأهوال التى سيراها الكافر ستجعله يقول : ﴿ يا ليتنى كنت ترابا ﴾ فيود أنه لو كان ترابا فى الدار الدنيا ولم يكن خلق ولا خرج إلى الوجود ، ويقول : ليتنى لم أبعث للحساب وبقيت كما كنت ترابا ، وهو كقوله تعالى : ﴿ ياليتها كانت القاضية ﴾ وكقوله تعالى : ﴿ يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثا ﴾ قال ابن كثير : وقيل بينها بحكمة العدل **الذى لا يجور حتى أنه ليقتص للشاة الجماء من القرناء . فإذا فرغ من الحكم فيها قال لها كونى ترابا فتصير ترابا فعند ذلك يقول الكافر** (يا ليتنى كنت تراباً) أى : كنت حيواناً فأرجع إلى التراب ، **وقد ورد معنى هذا فى حديث الصور المشهور وورد فيه أثار عن أبى هريرة وعبد الله بن عمرو وغيرهما .**

اللهم يا رحيم يا ودود ، ويا حميد ، يا مجيد ، يا حى ، يا قيوم ، نسألك أن تجعل خير أعمالنا أواخرها ، وخير أعمالنا خواتمها ، وخير أيامنا يوم لقائك ، ونسألك أن تجعل القبور بعد فراق الدنيا خير منازلنا ، وافسح بها ملاحدنا ، وارحم فى موقف العرض عليك ذل مقامنا ، وثبت على الصراط أقدامنا ، ونجنا من كرب يوم القيامة ، وبيض وجوهنا يوم تبيض وجوه ولا تسود وجوهنا يوم تسود وجوه .

عقيـدة المؤمن فى الإيمان باليوم الآخـر

يقول الشيخ أبو بكر الجزائرى فى كتاب عقيدة المؤمن تحت هذا العنوان « الركن الخامس من أركان الإيمان الإيمان باليوم الآخر » .

تعريف :

ما المراد باليوم الآخر ؟

إن المراد من اليوم الآخر أمران : الأول : فناء العالم وانتهاء هذه الحياة بكاملها . والثانى : إقبال الحياة الآخرة وابتداؤ ها . فدل لفظ اليوم الآخر على آخر يوم من أيام هذه الحياة وعلى اليوم الأول والأخير من الحياة الثانية ، إذ هو يوم واحد لا ثانى فيها البتة فالإيمان باليوم الآخر مقتضى للتصديق بإخبار الله تعالى بفناء هذه الحياة الدنيا ، وبما يسبقه من أمارات وما يتم فيه من أهوال واختلاف أحوال ، كما هو مقتض كذلك لتصديق الله تعالى فى أخباره عن الحياة الأخرة ، وما فيها من نعيم وعذاب ، وما يجرى فيها من أمور عظام ، كبعث الخلائق ، وحشرهم وحسابهم ، ومجازاتهم على أعمالهم الإرادية الاختيارية التى قاموا بها فى هذه الحياة الدنيا .

إمكان الفناء ممكن ؟

هل الفناء ممكن ؟

والجواب : نعم . الفناء ممكن ، لأن العالم ليس أزلياً أبداً ، وما لم يكن أزلياً فهو حادث ، وما كان حادثاً فالفناء من صفاته اللازمة له ، التى لا تنفك عنه بحال ، وطروء الفناء على الحادثات مشاهد فى هذه الحياة لا يحتاج إلى دليل . إنه قد ثبت بالبراهين العقلية والمادية معاً حدوث العالم ، إن التغير الجارى ، والمستمر على العوالم دال على حدوثها ، وإن حدوثها دال على فنائها ، كما أن قانون الطاقة المتاحة وهى نظرية علمية فى غاية الصحة وقد أثبتت حدوث العالم وبالتالى قد أثبتت وجود الله تعالى الأزلى ، الموجد لكل موجود ، وكما أثبتت حدوث العالم أثبتت إمكان فنائه أيضاً إذ حقيقة هذا القانون العلمى الهائل هى أن الحرارة تنتقل دائما من وجود حرارى إلى آخر غير حرارى ، واستمرار هذه العملية سيترتب عليها أن تتساوى حرارة جميع الموجودات ، وحينئذ لا تبقى أية طاقة مفيدة لاحياة والعمل ، فتنتهى العمليات الكيماوية الطبيعية ، وعندها تنتهى الحياة تلقائيا ، وبهذا بطلت أزلية العالم أى قدمه اللاابتدائى ، لو كان أزليا لفقد طاقته منذ زمان بعيد ، وانتهت بذلك الحياة .

وثبت أيضا إمكان فنائه اللازم له ، والذى هو فى طريقه إليه لأن عملية انتقال الطاقة من الأجسام الحرارية إلى خلافها مستمرة ولابد أن يأتى عليها يوم تتساوى فيه حرارة جميع الأجسام وعندها تتوقف العمليات الكمياوية الطبيعية ، وتنتهى الحياة ، ويعم الفناء هذا الكون كله .

وبناء على هذا فاليوم الآخر ممكن الوقوع وهو مرتقب جداً ومنتظر أبناؤه ، وهو اليوم الذى لا يأتى بعده يوم من أيام هذه الحياة وذلك لخراب العالم وفنائه .

إمكان المعاد .

هل المعاد ممكن ؟

ولم لا يكون ممكنا واثباته لا يوجب أى تناقض عقلى أبداً وكل ما لا يوجب تصور وقوعه تناقضاً عقليا فهو من قبيل الجائز بالامكان .

وهل تصور وقوع الحياة بعد فنائها كما كانت وأفضل مما كانت يوجب تناقضا عقليا ؟ وإذا كان الجواب ، لا ، أبداً . فالمعاد إذاً وهو بعث الخلائق أحياء بعد فنائهم الذى طرأ على حياتهم الأولى ممكن وجائز .

وشىء آخر وهو إذا كان المعاد غير مستحيل ولا واجب ، إذ المستحيل ما أوجب قصور وقوعه تناقضاً عقليا كتصور وقوع الشىء موجوداً غير موجود .

والواجب ما أوجب عدم قصور وقوعه تناقضاً عقليا كتصور وجود مصنوع بدون صانع ، أو مخلوق بدون خالق ، أو معلول بدون علة ، فهو أى المعاد إذا ممكن جائز ، وهكذا ثبت بالقياس العقلى ، والبرهان المنطقى امكان البعث وجواز وقوعه .

أدلة البعث :

لقد سلك القرآن الكريم فى إثبات المعاد والحياة الثانية مسالك عقلية هى غاية فى الوضوح والسهولة منها :

- إن الشىء إذا لم يكن ، ثم كان وأعدم كانت إعادته أيسر وأهون على من بدأه أول مرة ثم أعدمه وأفناه ، فالذى بنى داراً ثم هدمها لا يستحيل عليه ولا فى حقه إعادة بنائها كما كانت أو خيراً مما كانت .

والذى صنع آلة من الآلات مخترعاً لها لا يستصعب عليه أن يعيدها كما كانت إذا هو كسرها بإرادته واختياره ليحولها إلى آلة أفضل منها قبل ورود هذا المسلك من الاستدلال فى سورة الروم إذ قال تعالى : ﴿ **وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم** ﴾ . كما ورد فى سورة يس فى قوله تعالى : ﴿ **قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم** ﴾ .

والاستدلال بنوم الإنسان والحيوان واستيقاظهما ، فالنوم يعتبر موتاً مصغراً ، والاستيقاظ يعتبر حياة مصغرة أيضا فكما تتم عملية النوم للانسان والحيوان ، وعملية الاستيقاظ لهما تتم عملية الموت والحياة الكاملة لهما ، جاء هذا الاستدلال فى قول الله تعالى من سورة الانعام) ﴿ **وهو الذى يتوفاكم بالليل ، ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ، ثم إليه مرجعكم ، ثم ينبئكم بما كنتم تعملون** ﴾ .

ـ الاستدلال بالأرض الميته بسبب المحل ، والجدب ، والقحط ، حيث تنعدم فيها الحياة تماماً ، ثم ينزل بها الغيث ، أو تسقى بالماء فتعود إليها كما كانت وخيراً مما كانت نماء وازدهارا . قال تعالى من سورة فصلت : ﴿ ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء آهتزت وربت إن الذى أحياها لمحى الموتى . إنه على كل شىء قدير ﴾ .

ـ الاستدلال بالقدرة الكافية التى بها خلق آدم من تراب ، وذريته من نطفة على إمكان المعاد والبعث ، وتقرير وقوعها . قال تعالى من سورة الحج : ﴿ يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ، ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا ﴾ .

ـ والاستدلال بالقدرة على خلق العوالم على إمكان إعادة حياة الناس بعد موتهم ، وفناء أجسامهم ، قال تعالى من سورة المؤمن ﴿ لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ .

وقال عز من قائل من سورة النازعات : ﴿ أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها رفع سمكها فسواها وأغطش ليلها وأخرج ضحاها والأرض بعد ذلك دحاها ، أخرج منها ماءها ومرعاها ، والجبال أرساها متاعا لكم ولأنعامكم ﴾ .

وقال تعالى من سورة يس ، رداً على من قال :

من يحيى العظام وهى رميم ؟ قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون ، أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم . بلى وهو الخلاق العليم ﴾ .

ـ الاستدلال باختلاف سلوك الناس فى هذه الحياة بالخير والشر والصلاح والفساد على وجود حياة أخرى يجزى فيها كل عامل بما عمل من خير وشر لعدم استكمال المجازاة فى هذه الحياة ، قال تعالى من سورة آل عمران : ﴿ كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة ، فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور ﴾ .

وقال تعالى فى سورة يونس : ﴿ إنه يبدأ الخلق ثم يعيده ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط ، والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون ﴾ .

وقال تعالى من سورة الليل : ﴿ إن سعيكم لشتى ، فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى ، وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى ، وما يغنى عنه ماله إذا تردى ﴾ .

ـ الاستدلال بالتكاليف الشرعية على وجود حياة أخرى يتم فيها الجزاء على القيام بتلك التكاليف ،

وعلى تركها وإهمالها ، إذ لم يتوافر جزاء كاف فى هذه الحياة الدنيا عى تلك التكاليف ، قال تعالى من سورة الملك : ﴿ تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير ، الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور ﴾ وقال تعالى من سورة المؤمنون : ﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم ، ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون ﴾ .

أدلة أخرى :

١ ـ شعور كل أفراد البشر فى جميع العصور والدهور ، وسواء منهم المتحضرون ، أو المتبدون ، شعور الجميع بوجود حياة ثانية يلقى الإنسان جزاء عمله الذى قام به فى هذه الحياة الدنيا من خير أو شر ، وصلاح وفساد ، هذا الشعور العام دال على وجود المعاد والحياة الثانية ، إذ لا يمكن أن يعم هذا الشعور كل أفراد البشر ولا يكون له حقيقة فى نفس الأمر ، ولا صورة له فى الخارج ، وهو شعور كشعور الإنسان بالحاجة إلى الطعام والشراب الذى دل بوجوده وعمومه على وجود غذاء للإنسان لجوعه ، وماء لعطشه .

٢ ـ ما تأكد لدى الناس اليوم من مناجاة الأرواح ، ومخاطبتها ، ورؤ يتها دال على أن وراء هذه الحياة المادية حياة أخرى روحية وجثمانية .

٣ ـ رؤى الناس المتعددة التى واكبت الحياة الإنسانية ولم يخل منها زمان ولا مكان هذه الرؤ ية لأموات الناس فى المنام والحديث معهم ومعرفة أحوالهم وسؤالهم ، وأخبار الأموات من رآهم فى منامه بأمور غيبية فتكون طبق ما أخبروا به دلالة قطعية على الحياة الثانية .

آخر الأدلة :

وآخر الأدلة ؟ وأعظمها على البعث ، والجزاء ، والحياة الآخرة إخبار الله تعالى ، وإخبار رسوله ﷺ أن من آمن بالله وملائكته ، وكتبه ورسله لا يجد داعيا للشك ، ولا مثاراً للجدل والنزاع فى ثبوت المعاد ، وكل ما يتم فيه من حساب وجزاء ، إذ إخبار الله تعالى كلها صدق وحق ، فقد أخبر تعالى بآلاف الأخبار فلم تكن إلا وفق ما أخبر . كما أخبر رسوله بآلاف الأخبار فلم يتخلف منها خبر واحد عن مدلوله ، فكيف يعقل إذا أن يخبر الله تعالى ويخبر رسوله بمئات الأخبار عن ثبوت الحياة الثانية وعن كل ما يجرى من بعث ، وحساب وجزاء ، ثم لا يصح شىء من ذلك ولا يثبت ، اللهم إن هذا باطل لا يصلح ، ومحال لا يقبل ولا يعقل .

إن حتمية الفناء ، ووجود معاد كامل ، وحياة أفضل تحوى نعيما لنمحسنين الذين آمنوا وعملوا الصالحالت ، وجحيما للمسيئين الذين أشركوا وعملوا السيئات مما أخبر الله تعالى به ، وقرره فى كل كتبه ، وعلى ألسنة جميع رسله فالشك فيه ضرب من المرض العقلى ، والهبوط الشخصى ، والعياذ بالله تعالى من ذلك .

الحكمة فى المعاد :

إن الحكمة من المعاد الأخروى الذى هو بعث الخلائق أحياء بعد موتهم وفنائهم أحياء كما كانوا يوم بدأ الله تعالى خلقهم ، هو مجازاة المكلفين منهم بحسب كسبهم الإرادى الاختيارى الذى كسبوه فى هذه الدنيا ، لأن الدنيا دار عمل ، والآخرة دار جزاء ، قال تعالى : ﴿ **كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور** ﴾ .

فالناس يعيشون فى هذه الحياة الدنيا متفاوتين تفاوتا كبيراً فى أرزاقهم ، وآجالهم وأعمالهم ، وفى سعادتهم ، وشقائهم فمنهم الظالم الغشوم ، ومنهم المظلوم المهضوم ، ومنهم الصحيح السليم ، ومنهم المريض السقيم ، ومنهم الغنى الثرى ، ومنهم الفقير الشقى ، ومنهم الذليل ، ومنهم المحسن ، ومنهم المسىء ، إلى غير هذا التفاوت والاختلاف فلو أنهم يموتون بانقضاء آجالهم ولا يبعثون لكان ذلك منافيا للحكمة ، مجانباً للعدل والرحمة . ومن هنا قضى الله تبارك وتعالى بالبعث والجزاء ، وحكم بهما فهما كائنان لا محالة . فقد أمر رسوله محمداً ﷺ أن يقسم عليهما فى قوله من سورة التغابن : ﴿ **زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربى لتبعثن ثم لتنبئن بما عملتم وذلك على الله يسير** ﴾ .

وقال تعالى من سورة النحل : ﴿ **وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت ، بلى ، وعداً عليه حقا ولكن أكثر الناس لا يعلمون ليبين لهم الذى يختلفون فيه وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين . إنما قولنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون** ﴾ .

وجوب الإيمان باليوم الآخر

إن الإيمان باليوم الآخر هو عبارة عن التصديق الجازم بانقلاب هائل يتم فى الكون ويكون انتهاء هذه الحياة الدنيا بكاملها ، وابتداء حياة أخرى وهى الدار الآخرة بكل ما فيها من حقائق مدهشة ، من بعث الخلق وحشرهم ، وحسابهم ومجازاتهم .

هذا الإيمان ليس واجباً فحسب بل هو أحد أركان ستة عليها تبنى عقيدة المؤمن ، فلا تتم إذا عقيدته إلا به ، ولا تصح إلا عليه ، قال تعالى : ﴿ **ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين** ﴾ الآية . ولأهمية هذا المعتقد فى حياة المؤمن ، ولآثاره الكبرى فى استقامة الفرد وصلاحه عنى القرآن الكريم به عناية لا تقل عن العناية بالإيمان بالله سبحانه وتعالى ، فقد ذكره فى عشرات السور منه ، وفى مئات الآيات ، مرة بوصفه ، والحديث عنه كقوله تعالى : ﴿ **فإذا نفخ فى الصور نفخة واحدة ، وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة فيومئذ وقعت الواقعة وانشقت السماء فهى يومئذ واهية والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية ، فأما من أوتى كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرءوا كتابيه إنى ظننت أنى ملاق حسابيه ، فهو فى عيشة راضية فى جنة عالية قطوفها دانية كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الأيام الخالية وأما من أوتى كتابه بشماله فيقول يا ليتنى لم أوت كتابيه ولم أدر ما حسابيه ياليتها كانت القاضية**

ما أغنى عنى ماليه هلك عنى سلطانية ، خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ولا يحض على طعام المسكين ، فليس له اليوم ههنا حميم ، ولا طعام الا من غسلين لا يأكله إلا الخاطئون ﴾ .

ومرة بتقريره ، وتأكيد مجيئه ، كقوله تعالى : ﴿ ذلك بأن الله هو الحق ، وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شيء قدير وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور ﴾[١] وقوله تعالى : ﴿ زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربى لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير ﴾[٢] ومرة بتعليق الاستقامة على الإيمان ، كقوله تعالى : ﴿ ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ﴾[٣] .

ومرة بإتيان الهداية والفلاح للموقنين به ، وذلك كقوله تعالى ، ﴿ وبالآخرة هم يوقنون أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون ﴾[٤] .

ومما يؤكد أهمية هذا المعتقد ، ويجعله كالصمام لحياة الاستقامة والطهر والخير ، هو ذكره مقروناً بالإيمان بالله تعالى ، وذلك كقوله تعالى : ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾[٥] .

وقوله تعالى : ﴿ ذلكم يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر ﴾[٦] .

وقوله تعالى : ﴿ ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ﴾[٧] وقوله تعالى : ﴿ إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ﴾[٨] فى عدة آيات من كتاب الله تعالى .

فدلت العناية الالهية القرآنية بهذين الركنين من أركان الإيمان على أنهما قوام حياة الروح ، وعليهما يدار استقامة المرء فى هذه الحياة ، وأن الإيمان بدونهما ليس شيئا ، وأن من عدمهما فقد عدم كل خير ، وأن من افتقدهما ، فقد افتقد كل عناصر الخير والفضيلة فى نفسه وأصبح من شر البرية .

وبالجملة فإن معتقد الإيمان بالله واليوم الآخر ، هو رأس كل عقيدة ، وأساس كل إيمان ، وعليه مدار استقامة الانسان ، وصلاح خلقه ، وطهارة روحه وبدونه ، فالإنسان مخلوق لا خير فيه لا لنفسه ولا لغيره ، وهو شر كله لا يؤمن جانبه ، ولا يطمأن اليه ، ولا تسكن النفوس عنده ، وذلك لما انعدم عنده من أصول الخير ، وينابيع الفضيلة والكمال . . اهـ .

---

(١) الحج الآيتان : ٦ - ٧
(٢) التغابن آية : ٧
(٣) الطلاق آية : ٢
(٤) البقرة الآيتان : ٤ - ٥
(٥) البقرة آية : ٦٢
(٦) البقرة آية : ٢٣٢
(٧) النساء آية : ٣٨
(٨) النساء آية : ٥٩

تفسير سورة النازعـــات

مقدمة :

قال صاحب البصائر :

السورة مكية .

عدد آياتها : ست وأربعون آية .

وكلماتها : مائة وتسع وسبعون .

وحروفها : سبعمائة وثلاث وخمسون .

فواصل آياتها : (هم) على الميم آية واحدة (ولأنعامكم) .

مقصود السورة :

معظم مقصود السورة : القسم على نفخة الصور ، وكيفية البعث والنشور ، وإرسال موسى إلى فرعون ، والمنة بخلق السماء والأرض ، وتحقيق هول القيامة ، وبيان حال من آثر الدنيا ، والخبر عن حال أهل الخوف ، واستعجال الكافرين بالقيامة ، وتعجبهم منها فى حال البعث فى قوله تعالى : ﴿ **كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا**) الآية .

المتشابهات :

قوله : ﴿ **فإذا جاءت الطامة الكبرى** ﴾ ، وفى عبس ﴿ **فإذا جاءت الصاخة** ﴾ لأن الطامة مشتقة من طممت البئر إذا كبستها (أى ردمتها بالتراب) وسميت القيامة طامة ، لأنها تكبس كل شىء وتكسره . وسميت الصاخة ـ والصاخة : الصوت الشديد ـ لأن من شدة صوتها يحيا الناس ، كما ينتبه النائم بالصوت الشديد ، وخصت النازعات بالطامة : لأن الطم قبل الصخ ، والفزع قبل الصوت ، فكانت هى السابقة ، وخصت (عبس) بالصاخة ، لأنها بعدهما وهى اللاحقة .

مناسبتها لما قبلها .

ووجه اتصالها بما قبلها أنه هناك أنذر بالعذاب يوم القيامة ـ وهنا أقسم على أن البعث حق لا ريب فيه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَالنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَالسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَالسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَالْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى الْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ الْءَايَةَ الْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْءَاخِرَةِ وَالْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾

معانى المفردات

(والنازعات غرقا) أى (أقسم) الله بالملائكة تنزع أرواح الكفار من أقاصى أجسامهم ، نزعا شديدا مؤلما بالغ الغاية .

(والناشطات نشطا) الملائكة تسل أرواح المؤمنين برفق .

(والسابحات سبحا) الملائكة تنزل مسرعة لما أمرت به .

(فالسابقات سبقا) الملائكة تسبق بالأرواح الى مستقرها نارا أوجنة .

(فالمدبرات أمرا) الملائكة تنزل بالتدبير المأمور به .

(يوم ترجف الراجفة) لتبعثن (جواب القسم) يوم تضطرب الأجرام بالصيحة الهائلة (نفخة الموت) .

(تتبعها الرادفة) نفخة البعث التى تردف الأولى .

(واجفة) مضطربة أوخائفة وجلة .

(أبصارها خاشعة) ذليلة منكسرة من الفزع .

فى الحافرة : إلى الحالة الأولى (الحياة) .
كنا عظاما نخرة : بالية متفتتة .
كرة خاسرة : رجعة غابنة .
زجرة واحدة : صيحة واحدة (نفخة البعث) .
هم بالساهرة : هم أحياء على وجه الأرض .
طوى : اسم الوادى المقدس .
طغى : عتا وتجبر وكفر بالله العظيم .
تزكى : تطهر من الكفر والطغيان .
الآية الكبرى : معجزة العصا واليد البيضاء .
يسعى : يجدُّ فى الافساد والمعارضة .
فحشر : جمع السحرة أو الجند .
نكال : عقوبة . . . أو بعقوبة .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **والنازعات غرقاً ، والناشطات نشطاً ، والسابحات سبحاً ، فالسابقات سبقاً ، فالمدبرات أمراً ، يوم ترجف الراجفة ، تتبعها الرادفة** ﴾ .

أقسم المولى سبحانه وتعالى بطوائف الملائكة وأصنافهم ، فهم النازعات التى تنزع الأرواح من الأجساد ، والناشطات التى تنشطها أى تخرجها بسرعة وخفة ، والسابحات التى تسبح فى الهواء فى طريق ممرها إلى ما أمرت به ، كما تسبح الطير فى الهواء فالسابقات التى تسبق وتسرع إلى ما أمرت به ، لا تبطىء عنه ولا تتأخر فالمدبرات أمور العباد التى أمرها ربها بتدبيرها .

وقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن ﴿ **النازعات** ﴾ الملائكة تنزع نفوس الكفار بشدة وعنف وقوله : ﴿ **غرقا** ﴾ الاغراق فى النزع ، هو أن يجتذبه إلى آخره ، ومنه إغراق النزع فى جذب القوة ، بأن يبلغ بها غاية المد ، فيقال : أغرق فى النزع ، ثم صار مثلاً لكل من بالغ فى فعل حتى وصل إلى آخره .

﴿ **والناشطات نشطاً** ﴾ الملائكة التى تنشط أرواح المؤمنين بيسر وسهولة ، فالنزع الجذب بشدة ، والنشط الجذب برفق ولين .

قال تعالى فى شأن المتقين : ﴿ **الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون** ﴾[1] وقال سبحانه : (**فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم** ﴾[2] .

---

(١) النحل آية : ٣٢ (٢) الواقعة الآيتان : ٨٨/ ٨٩

وقال عز من قائل فى شأن الكافرين : ﴿ ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون ﴾(١) .

وقال تعالى : ﴿ ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق ﴾(٢) .

قوله تعالى : ﴿ والسابحات سبحاً ﴾ قال ابن مسعود : هى الملائكة ، وروى عن على ومجاهد وسعيد بن جبير مثل ذلك ، وقال قتادة : هى النجوم ، وقال عطاء : هى السفن .

قال ابن القيم رحمه الله : والصحيح أنها الملائكة ، والسياق يدل عليه ، وأما السفن والنجوم فإنما تسمى جارية وجوارى ، كما قال تعالى : ﴿ ومن آياته الجوار فى البحر كالأعلام ﴾(٣) وقال تعالى : ﴿ الجوار الكنس ﴾(٤) ولم يسمها سابحات ، وإن أطلق عليها فعل السباحة ، كقوله تعالى : ﴿ وكل فى فلك يسبحون ﴾(٥) ويدل عليه ذكره السابقات بعدها والمدبرات بالفاء ، وذكره الثلاثة الأول بالواو ، لأن السبق والتدبير ، مسبب عن المذكور قبله ، فإنها نزعت ونشطت وسبحت ، فسبقت الى ما أمرت به فدبرته .

وقوله تعالى : ﴿ فالسابقات سبقاً ﴾ روى عن على ومسروق ومجاهد وأبى صالح والحسن البصرى يعنى الملائكة ، قال الحسن سبقت إلى الايمان والتصديق به ، وفسرت ﴿ السابقات سبقاً ﴾ بالأنفس السابقات إلى طاعة الله ومرضاته .

وأما ﴿ المدبرات أمراً ﴾ فأجمع المفسرون على أنها الملائكة ، قال مقاتل : هم جبريل ، وميكائيل ، واسرافيل ، وملك الموت : يدبرون أمر الله تعالى فى الأرض ، وهم ﴿ المقسمات أمراً ﴾ .

وقال ابن عباس رضى الله عنهما : هم الملائكة ، وكلفهم الله بأمور عرفهم العمل بها والوقوف عليها ، بعضهم لبنى آدم يحفظون ويكتبون ، وبعضهم وكلوا بالأمطار والنبات ، والخسف والمسخ ، والرياح والسحاب .

قال ابن القيم رحمه الله : فالدنيا وما فيها ، والجنة والنار ، والموت وأحكام البرزخ ـ وكل الله بذلك كله ملائكة يدبرون ما شاء من ذلك ، ولهذا كان الإيمان بالملائكة أحد أركان الإيمان الذى لا يتم الإيمان إلا به .

وجواب القسم محذوف يدل عليه السياق ـ وهو البعث المستلزم لصدق الرسول وثبوت القرآن ، أو أنه من القسم الذى أريد به التنبيه على الدلالة ، والعبرة بالمقسم به دون أن يراد به مقسماً عليه

(١) الأنعام آية : ٩٣
(٢) الأنفال آية : ٥٠
(٣) الشورى آية : ٣٢
(٤) التكوير آية : ١٦
(٥) يس آية : ٤٠

بعينه ، وهذا القسم يتضمن الجواب المقسم عليه ، وإن لم يذكر لفظا ، ولعل هذا مراد من قال أنه محذوف للعلم به ، لكن هذا الوجه ألطف مسلكاً ، فإن المقسم به إذا كان دالاً على المقسم عليه مستلزماً ، استغنى عن ذكره بذكره ، وهذا غير كونه محذوفا لدلالة ما بعده عليه فتأمله » .

والخلاصة : أن الله تبارك وتعالى أقسم فى الآيات الخمس ، بطوائف من الملائكة ، موكلين بأعمال جسام من أمور سائر المخلوقات فى هذا الكون ، على أن الخلق لابد يبعثون ، ويحاسبون ، فى اليوم الآخر ، والله سبحانه لم يخلق هذا الخلق عبثاً ، ولم يتركه سدى ، فهو عز وجل الخالق المطلق ، وهو العظيم والمدبر ، وهو المحاسب ، وهو المقدر ، وهو على كل شىء قدير ، بيده الأمر وله الحكم واليه ترجعون .

فإن إقسامه سبحانه وتعالى بهذه الأشياء ، لظهور دلالتها على ربوبيته ووحدانيته وعلمه ، وقدرته وحكمته ، فالأقسام بها فى الحقيقة أقسام بربوبيته وصفات كماله فتأمله .

قوله تعالى : ﴿ يوم ترجف الراجفة ، تتبعها الرادفة ﴾ أى تتحرك الأرض ، وتضطرب الجبال ، ويسمع لها دوى عظيم وسميت راجفة من الرجف ، وهو الاضطراب الشديد ، لأن بها يضطرب الأمر ويختل النظام ، وينتهى العالم إلى نهايته ، التى حددها له خالقه - عز وجل - .

والراجفة صيحة عظيمة ، فيها تردد واضطراب كالرعد إذا تمخض وتكون يوم النفخة الأولى من صور اسرافيل ، كقوله تعالى : ﴿ يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيباً مهيلا .... السماء منفطر به كان وعده مفعولا ﴾[(١)] . ثم تتبعها الرادفة أى النفخة الثانية التى تعقب النفخة الأولى ، وهى التى يبعث الله معها الخلق ، وهو كقوله تعالى : ﴿ ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ﴾[(٢)] .

وقد قال الامام أحمد بسنده عن الطفيل بن أبى كعب عن أبيه ، قال : قال رسول الله (ﷺ) : « جاءت الراجفة تتبعها الرادفة ، جاء الموت بما فيه فقال رجل : يا رسول الله أرأيت إن جعلت صلاتى كلها عليك ؟ قال إذا يكفيك الله ما أهمك من دنياك وآخرتك »[(٣)] وقد روى الترمذى وابن جرير وابن حاتم من حديث سفيان الثورى بإسناده مثله ، ولفظ الترمذى : كان رسول الله (ﷺ) : إذا ذهب ثلثا الليل قام فقال : « يا أيها الناس اذكروا الله جاءت الراجفة ، تتبعها الرادفة ، جاء الموت بما فيه »[(٤)] .

قوله تعالى : ﴿ قلوب يومئذ واجفة ، أبصارها خاشعة ﴾ .

(١) المزمل الآيات : ١٤ - ١٨

(٢) الزمر آية : ٦٨

(٣) أخرجه فى الفتح الربانى للساعاتى جـ ٢٤ حديث رقم ٦

(٤) أخرجه الترمذى فى (كتاب صفة القيامة) باب ٢٣ رقم ٢٤٥٧ جـ ٤ ص ٦٣٦ ، ٦٣٧ عن الطفيل بن أبى بن كعب عن أبيه ، ووردت به العبادات مكررة مرتين ... وهو حديث طويل ، والمردى هنا جزؤه .
قال أبوعيسى : هذا حديث حسن صحيح

أى فى هذا اليوم ، ستكون قلوب الكفار مضطربة قلقة خائفة ، لأنهم أبصروا ما كانوا ينكرون ، ورأوا ما كانوا يوعدون ، فالقلوب الواجفة ، هى القلقة المضطربة اضطرابا شديدا ، والخائفة خوفا عظيما ، فلا تهدأ ولا تسكن ، لما ترى من هول يوم القيامة ، وعذاب الآخرة ﴿ أبصارها خاشعة ﴾ أى ذليلة كئيبة كاسفة من هول ذلك المشهد العظيم .

والويل ثم الويل لأولئك المكذبين بيوم الدين ، وقد حكى الله عنهم أقوالا استبعدوا بها أمر البعث والنشور ، واستهزءوا فيها بالرسول (ﷺ) وبالمؤمنين معه فقال :

﴿ يقولون أئنا لمردودون فى الحافرة ، أئذا كنا عظاما نخرة قالوا تلك إذا كرة خاسرة ﴾ .

أى يقول هؤلاء المنكرون للبعث من مشركى قريش ، ومن قال بقولهم فى إنكار المعاد ، يستبعدون وقوع البعث بعد المصير إلى الحافرة ، وهى القبور وبعد تمزق أجسادهم ، وتفتت عظامهم ونخورها ، ولهذا قالوا ﴿ أئذا كنا عظاماً نخرة ﴾ وهو العظم إذا بلى ودخلت الريح فيه ، فهم يتعجبون كيف أنهم سيعودون بعد أن أصبحوا عظاماً بالية متفتتة ، ليس فيها حرارة ولا حياة ، إن هذا لغريب وعجيب ؟ فى نظرة هؤلاء الكفار ، الذين ليس لهم نظرة يقين .

﴿ قالوا تلك إذاً كرة خاسرة ﴾ هذا هو القول الثالث الذى حكاه الله عز وجل عن الكفار ، فقد قالوا مستهزئين بالنبى وبوعده وبالبعث والنشور ، تلك إذا كرة خاسرة : على معنى ، إن صح ما يقوله محمد لنا وأن هناك حساباً وثواباً وعقاباً وحياة ، بعد أن صرنا ترابا ، فنحن إذا خاسرون ، وتلك رجعة خاسرة أصحابها . حيث لم نعمل لها ولم نصدق بها .

وقوله تعالى : ﴿ فإنما هى زجرة واحدة فإذا هم بالساهرة ﴾ أى لا تحسبوا تلك الكرة صعبة على الله عز وجل ، فإنها سهلة هينة فى قدرته ، ما هى إلا صيحة واحدة ، فإذا هم أحياء على وجه الأرض ، بعد ما كانوا أمواتاً فى جوفها ، وما هو إلا أمر من رب العزة ، فإذا الناس قيام ينظرون ، وهو أن يأمر تعالى إسرافيل ، فينفخ فى الصور نفخة البعث ، فإذا الأولون والآخرون مجموعون لميقات يوم معلوم ، كما قال سبحانه : ﴿ وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب إن الله على كل شىء قدير ﴾(١) .

وكقوله تعالى : ﴿ وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر ﴾(٢) .

---

(١) النحل لآية : ٧٧

(٢) القمر آية : ٥٠

قصة موسى وفرعون

قوله تعالى : ﴿ هل أتاك حديث موسى ، إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى اذهب إلى فرعون إنه طغى فقل هل لك إلى أن تزكى وأهديك إلى ربك فتخشى فأراه الآية الكبرى فكذب وعصى ثم أدبر يسعى فحشر فنادى فقال أنا ربكم الأعلى فأخذه الله نكال الآخرة والأولى إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى ﴾ بعد أن حكى الله عز وجل حال كفار مكة ، وإصرارهم على إنكار البعث وتماديهم فى الغى والضلال واستهزائهم بالرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد شق ذلك على النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ وآلمه كفرهم وعنادهم ، بعد هذا ساق له قصة موسى مع طاغية مصر فرعون اللعين ، لتكون كالتسلية ، للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفى نفس الوقت تهديداً للمشركين ، فليس هم أقوى وأشد من فرعون وجنوده .

فقد أخبر تعالى رسوله محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن عبده ورسوله موسى ـ عليه السلام ـ أنه ابتعثه إلى فرعون وأيده الله بالمعجزات ، ومع هذا استمر على كفره وطغيانه ، حتى أخذه الله أخذ عزيز مقتدر ، وكذلك عاقبة من خالفك ، وكذب بما جئت به ، ولهذا قال جل فى علاه فى آخر القصة : (إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى) .

فقوله تعالى : ﴿ هل أتاك حديث موسى ﴾ أى هل سمعت بخبره ﴿ إذ ناداه ربه ﴾ أى كلمه نداء ﴿ بالواد المقدس ﴾ أى المطهر ﴿ طوى ﴾ وهو اسم الوادى ، فقال له رب العزة : ﴿ اذهب إلى فرعون إنه طغى ﴾ أى تجرد وتمرد وعتى ﴿ فقل هل لك إلى أن تزكى ﴾ أى قل له : هل لك أن تجيب إلى طريقة ومسلك ، تزكى به وتسلم وتطيع ﴿ وأهديك إلى ربك فتخشى ﴾ أى أدلك إلى عبادة ربك ﴿ فتخشى ﴾ أى فيصير قلبك خاضعاً له مطيعاً خاشعا بعد ما كان قاسياً خبيثا بعيداً عن الخير .

قال ابن القيم : ففى هذا من لطف الخطاب ولينه من وجوه :

﴿ أحدها ﴾ : اخراج الكلام مخرج العرض ، ولم يخرجه مخرج الأمر والالزام وهو ألطف .

﴿ الثانى ﴾ : قوله : ﴿ إلى أن تزكى ﴾ والتزكى النماء والطهارة ، والبركة والزيادة ، فعرض عليه أمرا ، يقبله كل عاقل ، ولا يرده إلا كل أحمق جاهل .

(الثالث) : قوله : ﴿ تزكى) ولم يقل أزكيك فأضاف التزكية إلى نفسه . وعلى هذا يخاطب الملوك .

(الرابع) قوله : ﴿ وأهديك ﴾ أى أكون دليلاً لك . وهاديا فتزكى أنت كما تقول للرجل . هل لك أن أدلك على كنز تأخذ منه ما شئت ؟ وهذا أحسن من قولك له أعطيك .

(الخامس) قوله : ﴿ إلى ربك ﴾ فإن فى هذا ما يوجب قبول ما دل عليه ، وهو أنه يدعوه

ويوصله إلى ربه وفاطره ، وخالقه الذى أوجده ، ورباه بنعمه : جنينا وصغيرا وكبيرا وآتاه الملك ، وهو نوع من خطاب الاستعطاف والإلزام ، كما تقول لمن خرج عن طاعة سيده : ألا تطيع سيدك ومولاك ومالكك ؟ وتقول للولد : ألا تطيع أباك الذى رباك .

(السادس) قوله ﴿ **فتخشى** ﴾ أى إذا اهتديت إليه وعرفت خشيته ، لأن من عرف الله خافه ، ومن لم يعرفه لم يخفه . فخشيته تعالى مقرونة بمعرفته ، وعلى قدر المعرفة تكون الخشية .

(السابع) أن فى قوله : ﴿ **هل لك** ﴾ فائدة لطيفة . وهى أن المعنى هل لك فى ذلك حاجة أو أرب ؟ ومعلوم أن كل عاقل يبادر إلى قبول ذلك ، لأن الداعى إنما يدعو إلى حاجته ومصلحته لا إلى حاجة الداعى ، فكأنه يقول : الحاجة لك وأنت المتزكى ، وأنا الدليل لك ، والمرشد لك إلى أعظم مصالحك ، فقابل هذا بغاية الكفر والعناد ، وادعى أنه رب العالمين ، هذا وهو يعلم أنه ليس بالذى خلق فسوى ولا قدر فهدى ، فكذب الخبر ، وعصى الأمر ، ثم أدبر يسعى بالخديعة والمكر ، فحشر جنوده ، فأجابوه ، ثم نادى فيهم بأنه ربهم الأعلى ، واستخفهم فأطاعوه ، فبطش به جبار السموات والأرض بطشة عزيز مقتدر ، وأخذه نكال الآخرة والأولى ، ليعتبر بذلك من يعتبر ، فاعتبر من خشى ربه من المؤمنين وحق القول على الكافرين اهـ .

قوله تعالى : ﴿ **فأراه الآية الكبرى** ﴾يعنى فأظهر له موسى مع هذه الدعوة الحق ، حجة قوية ودليلا واضحاً على صدق ما جاءه به من عند الله . ﴿ **فكذب وعصى** ﴾ أى فكذب بالحق وخالف ما أمره به من الطاعة ﴿ **ثم أدبر يسعى** ﴾ أى فى مقابلة الحق بالباطل ، وهو جمعه السحرة ، ليقابلوا ما جاء به موسى من المعجزات الباهرات . ﴿ **فحشر فنادى** ﴾ أى فى قومه ﴿ **فقال أنا ربكم الأعلى** ﴾ قال ابن عباس ومجاهد : وهذه الكلمة قالها فرعون بعد قوله : ما علمت لكم من إله غيرى بأربعين سنة قال الله تعالى : ﴿ **فأخذه الله نكال الآخرة والأولى** ﴾ أى انتقم الله منه انتقاما ، جعله به عبرة ونكالا لأمثاله من المتمردين فى الدنيا ﴿ **ويوم القيامة بئس الرفد المرفود** ﴾ كما قال تعالى : ﴿ **وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون** ﴾[1] قال ابن كثير وهذا هو الصحيح فى معنى الآية أن المراد بقوله تعالى : ﴿ **نكال الآخرة والأولى** ﴾ أى الدنيا والآخرة .

وقوله تعالى : ﴿ **إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى** ﴾ .

أى إن فيما اقتصصناه من أمر موسى وفرعون ، وما أحله الله بفرعون من الخزى ، ورزق موسى من العلو لعبرة لمن يخشى ، وذلك أن يدع التمرد على الله تعالى ، والتكذيب لأنبيائه ، خوفا من أن ينزل به ما أنزل بفرعون ، وعلماً بأن الله تعالى ينصر أنبياءه ورسله ، فاعتبروا معاشر المكذبين لمحمد بما ذكرناه ، أى أعلموا أنكم إن شاركتموهم فى هذا المعنى الجالب للعقاب شاركتموهم فى حلول العقاب بكم .

(١) القصص آية : ٤١

قال تعالى :

ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾

معانى المفردات

﴿ أشد خلقا ﴾ : أى أصعب إنشاء .

﴿ والبناء ﴾ : ضم الأجزاء المتفرقة بعضها الى بعض مع ربطها بما يمسكها حتى يكون عنها بنية واحدة .

﴿ والسماء ﴾ قامة كل شىء .

﴿ فسواها ﴾ أى جعل كل جزء موضوع فى موضعه .

﴿ أغطش ليلها ﴾ أى أظلمه .

﴿ ضحاها ﴾ أى نورها وضياء شمسها .

﴿ دحاها ﴾ أى مهدها وجعلها قابلة للسكنى .

﴿ مرعاها ﴾ أى نباتها .

﴿ متاعا لكم ﴾ أى متعة ومنفعة لكم ولأنعامكم .

﴿ الطامة الكبرى ﴾ أى الداهية العظمى التى تطم على الدواهى أى تغلب وتعلو .

﴿ وبرزت الجحيم ﴾ أى كانت فى مكان بارز يراها كل من له عينان .

﴿ طغى ﴾ أى تكبر وتجاوز الحد .

﴿ آثر ﴾ أى قدم وفضل .

﴿ المأوى ﴾ المستقر .

﴿ مقام ربه ﴾ أى جلاله وعظمته .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن قص سبحانه على المشركين قصص موسى عليه السلام مع فرعون ، وأومأ بهذا القصص إلى أنهم لا يعجزون الله ، أخذ يخاطب منكرى البعث ، وينههم إلى أنه لا ينبغى لهم أن يجحدوه ، فإن بعثهم هين إذا أضيف إلى خلق السموات ، التى تدل بحسن نظامها وجلالها على حكمة مبدعها ، وعظيم قدراته ، وواسع حكمته ، وإلى خلق الأرض ، ومدها وبسطهما ، وتهيئتها لما يراد منها ، وأخرج منها شراب الحيوان وأقواتهم ، وأرسى الجبال فجعلها رواسى للأرض ، لئلا تميد بأهلها ، وأودعها من المنافع ما يتم به مصالح الحيوان الناطق والبهيم ، فمن قدر على ذلك كله ، كيف يعجز عن إعادتكم خلقاً جديداً ؟

فتأمل دلالة المقسم به المذكور فى أول السورة على المعاد والتوحيد ، وصدق الرسل كدلالة هذا الدليل المذكور ، وإذا كان هذا هو المقصود لم يكن محتاجا إلى جواب .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها رفع سمكها فسواها وأغطش ليلها وأخرج ضحاها ﴾ .

أى أأنتم أيها الناس ، وقد خلقتم من ماء مهين ضعافا عاجزين ، لا تملكون لأنفسكم نفعا ولا ضرا ، ولا موتا ولا حياة ، أصعب ابداعا وإنشاء ، أم هذه السماء التى ترون خلقها ، وبديع تركيبها وعظمة شأنها ؟ إنكم لا تنازعون فى أنها أشد منكم خلقا ، ومع ذلك لم نعجز عن إبداعها ، فكيف تظنون أنا نعجز عن إعادتكم بعد موتكم ، ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ لخلق السموات والأرض

أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾[١] وكقوله تعالى : ﴿ أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم ﴾[٢] وكقوله : ﴿ أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم وجعل لهم أجلا لا ريب فيه فأبى الظالمون إلا كفوراً ﴾[٣] .

وبعد أن أشار الله - عز وجل - إلى عظم خلق السموات إجمالا شرع يبين ذلك تفصيلا فقال ﴿ بناها ، رفع سمكها فسواها ﴾ أى ضم أجزاءها المتفرقة ، وربطها بما يمسكها حتى حصل عن جميعها بنية واحدة ، فقد أبدع فى خلق الكواكب ، وجعل كل كوكب منها على نسبة من الآخر ، وجعل لكل منها ما يمسكه فى مداره ، حتى كان من مجموعها ما يشبه البناء ، وهو ما نسميه بالسماء .

وقد جعلها سبحانه ذاهبة فى العلو صعداً ، وعدلها فوضع كل جزء منها فى موضعه الذى يستحقه ويحسن أن يكون فيه قال تعالى : ﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج ﴾[٤] وقال تعالى : ﴿ والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون ﴾[٥] وقال تعالى : ﴿ والسماء وما بناها ﴾[٦] .

وقوله تعالى : ﴿ وأغطش ليلها وأخرج ضحاها ﴾ أى وجعل ليلها مظلماً بمغيب كواكبها ، وأبرز نهارها ، وعبر عن النهار بالضحى ، لأنه أشرف أوقاته وأطيبها ، وفيه من انتعاش الأرواح بما ليس فى سائرها .

وتعاقب الليل والنهار واختلاف الفصول التابع لحركة بعض السيارات ، يهيىء الأرض للسكنى ومن ثم قال تعالى :

﴿ والأرض بعد ذلك دحاها ﴾[٧] .

أى ومهد الأرض بعد ذلك ، وبسطها للسكنى ، وسير الناس والأنعام عليها ، وقد كانت مخلوقة غير مدحوَّة قبل ذلك ، فلا تخالف هذه الآية ما جاء فى سورة فصلت من قوله : ﴿ قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين ، وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين ثم استوى الى السماء وهى دخان فقال لها

---

(١) سورة غافر آية : ٥٧
(٢) سورة يس آية : ٨١
(٣) سورة الاسراء آية : ٩٩
(٤) سورة ق آية : ٦
(٥) الذاريات آية : ٤٧
(٧) الشمس آية : ٥
(٧) النازعات آية : ٣٠

وللأرض أئتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين فقضاهن سبع سموات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها ﴾[١] .

فإن هذه الآية تدل على أن خلق السموات ، كان بعد خلق الأرض ، والآية التى نحن بصددها تشير إلى أن الله تعالى دحا الأرض ومهدها لسكنى الناس بعد أن خلق السماء .

فالآيتان ترشدان إلى أن الله تعالى ، خلق الأرض أولا ، ثم خلق السموات بعد ذلك ، ثم عاد إلى الأرض فمهدها ودحاها ، فآية فصلت حكاية للخلق الأول ومبدئه وهذه حكاية للاصلاح الذى كان بعد الخلق .

وقوله تعالى : **﴿ أخرج منها ماءها ومرعاها ﴾** أى فجر منها العيون والينابيع والأنهار ، وأنبت فيها النبات ، سواء أكان قوتا لبنى آدم كالحب والثمر ، أم قوتا للأنعام والماشية كالعشب والحشيش .

وقوله تعالى : **﴿ والجبال أرساها ﴾** أى وثبت الجبال فى أماكنها ، وجعلها كالأوتاد ، لئلا تميد بأهلها وتضطرب بهم .

ثم بين سبحانه الحكمة فى ذلك فقال :

﴿ متاعا لكم ولأنعامكم ﴾ أى إنما جعلنا ذلك كله ، ليتمتع به الناس والأنعام من الإبل والبقر والغنم .

ونحو الآية قوله تعالى : **﴿ هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ﴾**[٢] .

أفلا يكون خالقكم وواهبكم ما به تحيون ، ورافع السماء فوقكم ، وممهد الأرض تحتكم ـ قادر على بعثكم ؟ وهل يليق به أن يترككم سدى ، بعد أن دبر أمركم هذا التدبير المحكم ، ووفرّ لكم هذا الخير الكثير .

سبحانك اللهم أنت الواحد ... كل الوجود على وجودك شاهد
يا حى يا قيوم أنت المرتجى ... وإلى علاك عنى الجبين الساجد

قوله تعالى : **﴿ فإذا جاءت الطامة الكبرى ، يوم يتذكر الإنسان ما سعى وبرزت الجحيم لمن يرى ﴾** .

أى فإذا وقعت الواقعة وجاءت الداهية الكبرى التى يصغر أمامها كل حدث ، وينسى صاحبها كل شىء إلا هى وأهوالها ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شىء عظيم يوم ترونها تذهل كل

(١) سورة فصلت الآيات : ٩ : ١٢

(٢) النحل آية : ١٠

مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾[(١)] تلك هى الطامة الكبرى ، يكون يوم القيامة ويوم بعث الناس ونشورهم ووقوفهم بين يدى رب العزة والجبروت للحساب ﴿ **وترى كل أمة جاثية ، كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون** ﴾[(٢)] يوم يتذكر الإنسان أعماله حيث يراها مكتوبة أمامه فى كتابه لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ﴿ **وجىء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى يقول يا ليتنى قدمت لحياتى** ﴾[(٣)] . ﴿ **ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا ، يا ويلتا ليتنى لم أتخذ فلاناً خليلاً ، لقد أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى وكان الشيطان للانسان خذولا** ﴾[(٤)] فقوله تعالى : ﴿ **يوم يتذكر الإنسان ما سعى** ﴾ أى حينئذ يتذكر ابن آدم جميع عمله خيره وشره .

قوله تعالى : ﴿ **وبرزت الجحيم لمن يرى** ﴾ .

أى ظهرت للناظرين ، فرآها الناس عيانا بيانا ، وتضطرب النفوس ، ويستغيث الجميع من هولها . قال تعالى : ﴿ **وأزلفت الجنة للمتقين وبرزت الجحيم للغاوين وقيل لهم أين ما كنتم تعبدون ، من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون ، فكبكبوا فيها هم والغاوون وجنود إبليس أجمعون** ﴾[(٥)] .

قوله تعالى : ﴿ **فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هى المأوى** ﴾ أى فمن تكبر وتجبر ، وتجاوز الحدود ، وعتا وتمرد وآثر لذات الدنيا الفانية ، وشهواتها الزائلة ، وقدمها وفضلها على أمر دينه وآخرته ، فإن الجحيم هى المأوى ، أى فإن مصيره إلى الجحيم ، وإن مطعمه من الزقوم ، ومشربه من الحميم ، بئس الشراب وساءت مرتفقا .

وقوله تعالى : ﴿ **وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى** ﴾ أى فمن خاف القيام بين يدى رب العزة ، وخاف حكم الله تعالى فيه ، ونهى نفسه عن هواها ردها الى طاعة مولاها .

قال بعض المفسرين : ﴿ **ونهى النفس عن الهوى** ﴾ هو نهى عما حرم الله عليها وقال مقاتل : هو الرجل يهم فيذكر مقامه للحساب فيتركها .

---

(١) سورة الحج الآيتان : ١ ، ٢
(٢) الجاثية آية : ٢٨
(٣) الفجر الآيتان : ٢٣ ـ ٢٤
(٤) الفرقان الآيات : ٢٧ ـ ٢٩
(٥) الشعراء الآيات : ٩٠ ـ ٩٥

وقوله تعالى : (فإن الجنة هى المأوى ﴾ أى منقلبه ومصيره ومرجعه إلى الجنة الفيحاء ، كما قال تعالى : ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾الآيات (١) .

منزلة الخوف

قال الامام ابن القيم فى كتابه « مدارج السالكين بين منازل (إياك نعبد وإياك نستعين) » ومن منازل « إياك نعبد وإياك نستعين » منزلة « الخوف » .

وهى من أجل منازل الطريق وأنفعها للقلب ، وهى فرض على كل أحد . قال الله تعالى : ﴿ فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين ﴾(٢) وقال تعالى : ﴿ فإياى فارهبون ﴾(٣) وقال : ﴿ فلا تخشوا الناس واخشون ﴾(٤) ومدح أهله فى كتابه وأثنى عليهم فقال : ﴿ إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون ـ إلى قوله ـ أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون ﴾(٥) .

وفى المسند والترمذى عن عائشة رضى الله عنها قالت قلت « يا رسول الله ، قول الله : ﴿ والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة ﴾(٦) أهو الذى يزنى ، ويشرب الخمر ، ويسرق ؟ قال : لا ، يا ابنة الصديق ، ولكنه الرجل يصوم ويصلى ويتصدق ويخاف أن لا يقبل منه » .

قال الحسن : عملوا والله بالطاعات ، واجتهدوا فيها ، وخافوا أن ترد عليهم ، إن المؤمن جمع إحسانا وخشية ، والمنافق جمع إساءة وأمنا « والوجل » و « الخوف » و « الخشية » و « الرهبة » ألفاظ متقاربة غير مترادفة .

قال أبو القاسم الجنيد : الخوف توقع العقوبة على مجارى الأنفاس .

وقيل الخوف : اضطراب القلب وحركته من تذكر المخوف .

وقيل الخوف : قوة العلم بمجارى الأحكام . وهذا سبب الخوف . لا أنه نفسه .

وقيل الخوف : هرب القلب من حلول المكروه عند استشعاره . « والخشية » أخص من

---

(١) الرحمن آية : ٤٦ ـ ٧٨
(٢) آل عمران آية : ١٧٥
(٣) النحل آية : ٥١
(٤) المائدة آية : ٤٤
(٥) المؤمنون الآيات : ٥٧ ـ ٦١
(٦) المؤمنون آية : ٦٠ والحديث رواه أحمد فى مسنده (مسند عائشة رضى الله عنها) جـ ٦ ص ٢٠٥ ورواه الترمذى فى (كتاب التفسير) : تفسير سورة المؤنون جـ ٥ ص ٣٢٧ ، ٣٢٨ رقم ٣١٧٥

الخوف ، فإن الخشية للعلماء بالله ، قال تعالى ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾[١] فهى خوف مقرون بمعرفة وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « إنى أتقاكم لله ، وأشدكم له خشية »[٢] فالخوف حركة ، والخشية انجماع وانقباض وسكون ، فإن الذى يرى العدو والسيل ونحو ذلك : له حالتان .

إحداهما : حركة للهرب منه ، وهى حالة الخوف .

والثانية : سكونه وقراره فى مكان لا يصل إليه فيه ، وهى الخشية .

وأما « الرهبة » فهى الإمعان فى الهرب من المكروه ، وهى ضد « الرغبة » التى هى سفر القلب فى طلب المرغوب فيه .

وأما «الوجل » فرجفان القلب وانصداعه لذكر من يخاف سلطانه وعقوبته أو لرؤيته .

وأما « الهيبة » فخوف مقارن للتعظيم والإجلال ، وأكثر ما يكون مع المحبة والمعرفة ، والإجلال : تعظيم مقرون بالحب .

فالخوف لعامة المؤمنين ، والخشية للعلماء العارفين ، والحبيبة للمحبين ، والإجلال للمقربين . وعلى قدر العلم والمعرفة ، يكون الخوف والخشية ، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم « إنى لأعلمكم بالله ، وأشدكم له خشية » . وفى رواية « خوفا » وقال « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ، ولبكيتم كثيرا ، ولما تلذذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله تعالى »[٣] .

قال أبو حفص : الخوف سوط الله : يُقوّم به الشاردين عن بابه . وقال : الخوف سراج فى القلب به يبصر ما فيه من الخير والشر ، وكل أحد إذا خفته هربت منه ، إلا الله عز وجل ، فإنك إذا خفته هربت إليه .

فالخائف هارب من ربه إلى ربه .

قال أبو سليمان : ما فارق الخوف قلباً إلا خرب .

وقال ابراهيم بن سفيان : إذا سكن الخوف القلوب أحرق مواضع الشهوات منها . وطرد الدنيا عنها .

وقال ذو النون : الناس على الطريق ما لم يزل عنهم الخوف . فإذا زال عنهم الخوف ضلوا الطريق .

والخوف ليس مقصوداً لذاته ، بل هو مقصود لغيره ، ولهذا يزول بزوالِ الخوف ، فإن أهل الجنة لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . ا . هـ .

(١) فاطر آية : ٢٨

(٢) رواه البخارى جزء حديث الثلاثة الذين سألوا عن عبادة رسول الله ﷺ فى (كتاب النكاح) جلب الترغيب فى النكاح جـ ٧ ص ٢ بلفظ : « أما والله إن لأخشاكم لله وأتقاكم له » ورواه مسلم فى الفضائل وأبو الجود ف المقدمة

(٣) أخرجه الترمذى فى (كتاب الزهد) باب قول النبى - ﷺ - لو تعلموا ما أعلم لضحكتم قليلا . جـ ٤ ص ٥٥٦ رقم ، ٢٣١ من رواية أبى ذر - رضى الله - عنه - عن النبى - ﷺ - ضمن حديث طويل .

علم الساعة

بعد أن يبين الله سبحانه وتعالى بالبرهان العقلى إمكان القيامة ، ثم أخبر عن وقوعها ، ثم ذكر أحوالها العامة ، ثم ذكر أحوال الأشقياء والسعداء فيها بعد هذا كله قال تعالى :

﴿ يسألونك عن الساعة أيان مرساها ، فيم أنت من ذكراها ، إلى ربك منتهاها إنما أنت منذر من يخشاها كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها ﴾ .

كان المشركون يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الساعة عناداً وعتواً واستهزاء ، ويطلبون إليه أن يعجل بها ، كأن الأمر فيها إليه صلى الله عليه وسلم . قال تعالى فى آية أخرى : **﴿ يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق ﴾**[١] .

فقالوا على سبيل الاستهزاء (أيان مرساها) أى متى قيامها وظهورها ؟ وقوله تعالى : **﴿فيم أنت من ذكراها إلى ربك منتهاها ﴾** أى ليس علمها إليك ولا إلى أحد من الخلق ، بل مردها ومرجعها إلى الله عز وجل ، فهو الذى يعلم وقتها على التعيين : **﴿ ثقلت فى السموات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة . يسألونك كأنك حفى عنها قل إنما علمها عند الله ﴾**[٢] وقال ههنا (إلى ربك منتهاها) ولهذا لما سأل جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن وقت الساعة قال : « ما المسئول عنها بأعلم من السائل »[٣] .

وقوله تعالى : **﴿ إنما أنت منذر من يخشاها ﴾** أى إنما بعثتك لتنذر الناس وتحذرهم من بأس الله وعذابه ، فمن خشى الله وخاف مقامه ووعيده ، اتبعك فأفلح وأنجح ، والخيبة والخسار على من كذبك ، وخالفك ، ونحو الآية قوله تعالى : **﴿ إن هو إلا نذير لكم بين يدى عذاب شديد ﴾**[٤] .

وقوله تعالى : **﴿ كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها ﴾** أى إذا قاموا من قبورهم إلى المحشر ، يستقصرون مدة الحياة الدنيا ، حتى كأنها عندهم كانت عشية من يوم ، أو ضحى من يوم ، قال قتادة : هذا وقت الدنيا فى أعين القوم حين عاينوا الآخرة ، ونحو الآية قوله تعالى : **﴿ قال كم لبثتم فى الأرض عدد سنين قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فاسأل العادين ، قال إن لبثتم إلا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون ، أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم ﴾**[٥] .

« اللهم إنى أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك وبك منك ، سبحانك لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك ، أهل الثناء والمجد ، أحق ما قال العبد وكلنا لك عبد ، لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد .

---

(١) الشورى آية : ١٨ (٢) الأعراف آية : ١٨٧

(٣) أخرجه مسلم فى صحيحه بشرح النووى فى (كتاب الإيمان) باب الإيمان والإسلام والإحسان . . . الخ جـ١ ص ١٥٧ - ١٦٠ وانظر البخارى (كتاب الإيمان) باب : سؤال جبريل النبى ﷺ - عن الإيمان . . . الخ جـ١ ص ٢٠ ، ٢١

(٤) سبأ آية : ٤٦ (٥) المؤمنون الآيات : ١١٢ - ١١٦

تفسير سورة عبس

مقدمة :

قال صاحب البصائر :

السورة مكية .

عدد آياتها : اثنتان وأربعون آية .

وكلماتها : مائتان وثلاث وثلاثون .

وحروفها : خمسمائة وثلاث وثلاثون .

وفواصل آياتها : (هما) وعلى الميم آية (ولأنعامكم) .

وسميت عبس لمفتتحها .

مقصود السورة :

معظم مقصود السورة : بيان حال الأعمى ، وذكر شرف القرآن ، والشكاية من أبى جهل ، وإنكاره البعث والقيامة ، وإقامة البرهان من حال النبات على البعث ، وإحياء الموتى ، وشغل الخلق فى العرصات ، وتفاوت خال أهل الدرجات ، والدركات فى قوله : (وجوه) إلى آخرها .

المتشابه

قوله (الصاخة) سبق فى النازعات .

مناسبة السورة لما قبلها .

إنه سبحانه ذكر هناك أنه منذر من يخشاها ـ وذكرهنا من ينفعه إلا نذار .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾

معانى المفردات

عبس : قطب وجهه الشريف ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

تولى : أعرض بوجهه الشريف ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

لعله يزكى : يتطهر بتعليمك من دنس الجهل .

يذكر : يتعظ .

له تصدى : تتعرض له بالاقبال عليه .

جاءك يسعى : وصل إليك مسرعا ليتعلم .

عنه تلهى : تتلهى ـ تتشاغل .

كلا : حقا أو إرشاد بليغ لترك المعاودة .

إنها تذكرة : إن آيات القرآن موعظة وتذكير .

فى صحف : منتسخه من اللوح المحفوظ .

مرفوعة : رفيعة القدر والمنزلة عند الله تعالى .

بأيدى سفرة : ملائكة ينسخونها من اللوح المحفوظ .

بررة : مطيعين له تعالى أو صادقين .

قتل الإنسان : لعن الكافر أو عذب .

فقدره : أطوارا أو هيأه لما يصلح له .

السبيل يسره : سهل له طريقى الهدى والضلال .

فأقبره : أمر بدفنه فى قبر تكرمة له .

أنشره : أحياه بعد موته .

لما يقض ما أمر : لم يفعل ما أمره الله به بل قصّر .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **عبس وتولى ، أن جاءه الأعمى ، وما يدريك لعله يزكى أو يذكر فتنفعه الذكرى ، أما من استغنى فأنت له تصدى وما عليك أن لا يزكى وأما من جاءك يسعى وهو يخشى فأنت عنه تلهى ، كلا إنها تذكرة** ﴾ .

يكاد يجمع المفسرون على أن هذه الآيات الكريمة نزلت فى الصحابى الجليل عبد الله ابن أم مكتوم ، وهو ابن خال السيدة خديجة رضى الله عنها ، وكان أعمى ، وهو من الصفوة المختارة من المهاجرين الأولين .

وتتلخص قصته هنا : فى أنه رضى الله عنه أتى النبى - صلى الله عليه وسلم - وهو بمكة المكرمة يخاطب بعض عظماء قريش وقد طمع فى إسلامهم ، فبينما هو يخاطبهم إذ أقبل ابن أم مكتوم ، وكان ممن أسلم قديما ، فجعل يسأل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن شيء ويلح عليه ، وود النبى صلى الله عليه وسلم أن لو كف ساعته تلك ليتمكن من مخاطبة القوم ، طمعا ورغبة فى هدايتهم ، وعبس فى وجه ابن أم مكتوم وأعرض عنه وأقبل عليهم ، فأنزل الله تعالى : ﴿ **عبس وتولى أن جاءه الأعمى** ﴾ .

قال العلماء : إنما أتى بضمائر الغيبة (عبس وتولى) تلطفاً به - صلى الله عليه وسلم - وإجلالا له ، لما فى المشافهة بتاء الخطاب ما لا يخفى من الشدة والصعوبة ، وكان بعد نزول آيات العتاب إذا جاءه يقول له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : مرحباً بمن عاتبنى فيه ربى ، ويبسط له رداءه . وقوله

تعالى : ﴿ وما يدريك لعله يزكى ﴾ أى وما يعلمك ويخبرك يا محمد لعل هذا الأعمى الذى عبست فى وجهه ، يتطهر من ذنوبه بما يتلقاه عنك من العلم والمعرفة ! ﴿ أو يذكر فتنفعه الذكرى ﴾ أى أو يتعظ بما يسمع فتنفعه موعظتك ، وقوله : ﴿ أما من استغنى فأنت له تصدى ﴾ أى أما من استغنى عن كلام الله وعن الإيمان ، بما له من الثروة والمال ﴿ فأنت له تصدى ﴾ أى فأنت تتعرض له وتصغى لكلامه ، وتهتم بتبليغه دعوتك . وقوله : ﴿ وما عليك ألا يزكى ﴾ أى ولا حرج عليك أن لا يتطهر من دنس الكفر والعصيان ، ولست بمطالب بهدايته إنما عليك البلاغ .

وقوله تعالى : ﴿ وأما من جاءك يسعى وهو يخشى فأنت عنه تلهى ﴾ أى وأما من يقصدك ويؤمك ليهتدى بما تقول له ، فأنت عنه تتشاغل .

قال ابن كثير : ومن هنا أمر الله رسوله ، أن لا يخص بالانذار أحداً ، بل يساوى فيه بين الشريف والضعيف ، والفقير والغنى ، والسادة والعبيد ، والرجال والنساء والصغار والكبار ، ثم الله تعالى يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ، وله الحكمة البالغة ، والحجة الدامغة .

قوله تعالى : ﴿ كلا إنها تذكرة فمن شاء ذكره ، فى صحف مكرمة مرفوعة مطهرة بأيدى سفرة كرام بررة ﴾ .

أى هذه السورة ، أو الوصية بالمساواة بين الناس فى إبلاغ العلم بين شريفهم ووضيعهم ، وقال قتادة فى قوله : (كلا إنها تذكرة) يعنى : القرآن (فمن شاء ذكره) أى فمن شاء من عباد الله اتعظ بالقرآن واستفاد من إرشاداته وتوجيهاته ، فهذا القرآن قد بلغ فى العظمة إلى هذا الحد العظيم ، فأى حاجة به إلى أن يقبله هؤلاء الكفار ، فسواء قبلوه أو لم يقبلوه ، فلا تلتفت إليهم ، قال تعالى : ﴿ إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾[1] .

قوله تعالى : ﴿ فى صحف مكرمة ، مرفوعة مطهرة ، بأيدى سفرة كرام بررة ﴾ .

هذا إخبار من المولى عز وجل عن جلالة قدر القرآن ، وعظيم شأنه بقوله تعالى : ﴿ فى صحف مكرمة ﴾ أى هو فى صحف مكرمة عند الله كما قال تعالى : ﴿ إنه لقرآن كريم ﴾[2] فوصفه بما يقتضى حسنه ، وكثرة خيره ومنافعه وجلالته ، فإن الكريم هى البهى ، الكثير الخير ، العظيم النفع ، والله سبحانه وصف نفسه بالكرم ، ووصف به كلامه ، ووصف به عرشه ، ووصف به ما كثر خيره ، وحسن منظره من النبات وغيره .

وقوله : ﴿ مرفوعة مطهرة ﴾ أى عالية القدر والمكانة ، منزهة عن أيدى الشياطين ، وعن كل دنس ونقص ، كما قال تعالى : ﴿ وإنه فى أم الكتاب لدينا لعلى حكيم ﴾[3] .

---

(١) سورة فصلت الآيتان : ٤١ - ٤٢ (٢) الواقعة آية : ٧٧ (٣) الزخرف آية : ٤

وقوله : ﴿ بأيدى سفرة ﴾ هم الملائكة والسفرة يعنى بين الله تعالى وبين خلقه من المرسلين .

﴿ كرام بررة ﴾ أى مكرمين معظمين عند الله تعالى ، اتقياء صلحاء كما وصفهم بقوله : ﴿ لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾[١] وبقوله : ﴿ عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ﴾[٢] .

قال ابن كثير : ومن ههنا ينبغى لحامل القرآن ، أن يكون فى أفعاله على السداد والرشاد .

قال الإمام أحمد بسنده عن عائشة رضى الله عنها قالت . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الذى يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السفرة الكرام البررة ، والذى يقرؤه وهو عليه شاق له أجران » أخرجه الجماعة من طريق قتادة به[٣] .

قوله تعالى : ﴿ قتل الإنسان ما أكفره من أى شىء خلقه ، من نطفة خلقه فقدره ثم السبيل يسره ثم أماته فأقبره ثم إذا شاء أنشره ، كلا ، لما يقض ما أمره ﴾ .

يقول تعالى ذاما لمن أنكر البعث والنشور من بنى آدم ﴿ قتل الانسان ما أكفره ﴾ قال ابن عباس : ﴿ قتل الإنسان ﴾ أى لعن الإنسان ، وهذا لجنس الإنسان المكذب لكثرة تكذيبه بلا مستند ، بل بمجرد الاستبعاد وعدم العلم ، قال ابن جريج : ﴿ ما أكفره ﴾ أى ما أشد كفره ، وقال ابن جرير : ويحتمل أن يكون المراد أى شىء جعله كافراً ، أى ما حمله على التكذيب بالمعاد ، قال تعالى : ﴿ كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون ﴾[٤] .

ألا إننا كلنا بائد ... وأى بنى آدم خالد
وبدؤهم كان من ربهم ... وكل إلى ربه عائد
فياعجبا كيف يعصى الإ ... له أم كيف يجحد الجاحد
وفى كل شىء له آية ... تدل على أنه واحد

فقوله تعالى : ﴿ قتل الانسان ما أكفره ﴾ تنبيه على أنهم استحقوا أعظم أنواع العقاب بكفرهم ، وعنادهم ، واستكبارهم . وقوله ﴿ ما أكفره ﴾ تنبيه على أنواع القبائح والمنكرات ، وهو تعبير عن إفراطهم فى كفران نعمة الله عليهم ، ولا ترى أسلوباً أغلظ منه ، ولا أبعد شوطاً فى المذمة ، ولا أجمع

---

(١) التحريم آية : ٦

(٢) الأنبياء الآيتان : ٢٦ ـ ٢٧

(٣) أخرجه أحمد فى مسنده (مسند عائشة رضى الله عنها) جـ ٦ ص ١١٠ ورواه البخارى فى صحيحه (كتاب التفسير) : سورة عبس جـ ٦ ص ٢٠٦

وانظر صحيح مسلم تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى (كتاب صلاة المسافرين وقصرها) باب : فضل الماهر بالقرآن والذى يتوقع فيه جـ ١ ص ٥٤٩ ، ٥٥٠ رقم ٢٤٤ / ٧٩٨

(٤) البقرة آية : ٢٨

للأئمة على قصر متنه ، وقلة لفظه ، وتقارب طرفيه .

ومعنى (ما أكفره) أى ما أشد كفرانه للنعم ، ونكرانه للمنن التى يتقلب فيها ، وأكثر ذهوله عن مسديها ومعطيها ومن غمره بها ، من حين ايجاده ، إلى ساعة معاده ، حتى أنه إذا ذكر لا يذكر ، وإذا طلب منه الشكر ، لا يشكر ، فهو يعرض عن الذكرى ، فما أشد كفره بالاحسان ، وفضل صاحب الاحسان ، والفضل الأكبر عليه وعلى جميع الخلق برهم وفاجرهم ، مؤمنهم وكافرهم ﴿ قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن بل هم عن ذكر ربهم معرضون ﴾[1] .

ـ ثم شرع الله عز وجل يفصل ما أجمله ويبين بعض ما أفاضه عليه من النعم التى لا تحصى ، وهى هنا فى ثلاث مراتب : المبدأ ، والوسط ، والمنتهى ، وأشار إلى الأولى وهو المبدأ بقوله تعالى :

﴿ من أى شىء خلقه ؟ ﴾ .

أى من شىء حقير مهين خلقه ، فلا ينبغى له التجبر ولا التكبر على أحد ، وخاصة على خالقه الكبير المتعال ، وقد أجاب الله سبحانه عن هذا الاستفهام بقوله :

﴿ من نطفة خلقه فقدره ﴾ أى خلقه الله عز وجل من ماء مهين حقير بدأ خلقه ، فقدره فى بطن أمه أطواراً من نطفة ، ثم من علقة إلى أن يتم خلقه . قال ابن كثير : قدر رزقه ، وأجله ، وعمله ، وشقى أو سعيد .

قال تعالى : ﴿ فلينظر الإنسان مم خلق ، خلق من ماء دافق ، يخرج من بين الصلب والترائب إنه على رجعه لقادر ﴾[2] .

ولقد قدر الله هذا الانسان أطواراً وأحوالا ، طورا بعد طور ، وحالا بعد حال ، وأتم خلقه ، بأعضاء تلائم حاجاته مدة بقائه ، وأودع فيه من القوى الظاهرة والباطنة ، ما يمكنه من استعمال تلك الأعضاء ، وتصريفها فيما خلقت لأجله ، وجعل كل ذلك بمقدار محدود ، وحكمة عالية ، وخلقة سامية ، وقد أثر عن بعض السلف أنه قال : كيف يتكبر الإنسان ، وقد خرج من موضع البول مرتين ، ومر بعض أولاد المهلب بمالك بن دينار وهو يتبختر فى مشيه ، فقال له مالك : يا بنى لو تركت هذه الخيلاء لكان أجمل لك ، فقال أو ما تعرفنى ، قال : أعرفك معرفة جيدة ، أو لك نطفة مذرة ، وآخرك جيفة قذرة ، وأنت بين ذلك تحمل العذرة ، فأرخى الفتى رأسه ، وكف عما كان عليه .

يا مدعى الكبر إعجابا بصورته ... انظر خلاك ، فإن النتن تثريب
لو فكر الناس ما فى بطونهم ... ما استشعر الكبر شبان ولا شيب
يا ابن التراب ومأكول التراب غداً ... أقصر ، فإنك مأكول ومشروب

---

(١) الأنبياء آية : ٤٢

(٢) الطارق الآيات : ٥ ـ ٨

ثم أشار سبحانه وتعالى الى المرتبة الوسطى :

بقوله تعالى : ﴿ **ثم السبيل يسره** ﴾ .

قال بعض المفسرين : المراد تسهيل خروج الإنسان من بطن أمه ، وقالوا أن رأسه كان إلى رأس أمه وكذلك رجلاه الى رجليها فإذا جاء وقت الولادة قلبه الله ليسهل خروجه عند الولادة ، ومما يؤكد هذا التأويل أن خروج الطفل حياً من ذلك المنفذ الضيق ، من أعجب العجائب وأشد الغرائب ، ولكن كثيرا من الناس فى غفلة من عجائب خلق الله فى الإنسان وغير الإنسان قال تعالى : ﴿ **وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم أفلا تبصرون** ﴾[1] .

وذكر لهذه الآية معنى آخر جميل وهو :

إن الله سبحانه ، جعل هذا الانسان ، متمكنا من سلوك سبيل الخير والشر ، فآتاه القدرة على العمل ، ووهبه العقل ، الذى يميز به بين الأعمال طيبها وخبيثها ، حسنها وقبيحها ، وعرفه عاقبة كل عمل ونتيجته ، كما قال تعالى : ﴿ **وهديناه النجدين** ﴾[2] وكما قال سبحانه : ﴿ **إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا** ﴾[3] وأرسل الله إلى الانسان الرسل مبشرين ومنذرين ، وأنزل عليهم الكتب المشتملة على أعظم الحكم ، وأغلى المواعظ والحاوية لما فيه سعادة البشر فى معاشهم ومعادهم .

ثم أشار الله سبحانه وتعالى إلى المرتبة الأخيرة ، وهى المنتهى بقوله : ﴿ **ثم أماته فأقبره ، ثم إذا شاء أنشره** ﴾ .

وهذه المرتبة مشتملة على ثلاث مراتب ، وهى الإماتة والإقبار ، والإنشار .

فالله تعالى عز وجل يقبض روح الإنسان ، ولم يتركه مطروحا على الأرض جزرا للسباع ، بل تفضل عليه وجعل فى غريزة نوعه أن يوارى ميته تكرمة له ، ثم إذا شاء بعثه بعد موته للحساب ، والجزاء فى الوقت الذى قدره تبارك اسمه فى علمه ، ولا يعلمه أحد سواه .

وفى قوله : ﴿ **إذا شاء** ﴾ إشعار بأنه وقت الساعة ، لا يعلمه إلا هو سبحانه ، والبعث والنشور لابد منه ، وهو أمر مفروغ منه ، فمتى شاء الله بعث العباد ليوم النشور والحساب .

قال تعالى : ﴿ **هو الذى خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخا ، ومنكم من يتوفى من قبل ولتبلغوا أجلا مسمى ولعلكم تعقلون ، هو الذى يحيى ويميت فإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون** ﴾[4] .

وفى الصحيحين عن أبى سعيد ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال « يأكل

---

(١) الذاريات الآيتان : ٢٠ ـ ٢١
(٢) البلد آية : ١٠
(٣) الإنسان آية : ٣
(٤) غافر الآيتان : ٦٧ ـ ٦٨

التراب كل شيء من الإنسان إلا عجْب ذنبه » قيل وما هو يا رسول الله ؟ قال « مثل حبة خردل ، منه تنشأون » وهذه الزيادة مذكورة من رواية ابن أبي حاتم [(١)] .

وقوله تعالى : ﴿ كلا . لما يقضى ما أمره ﴾ أى ليرتدع وينجر هذا الكافر عن تكبره وتجبره ، فإنه لم يؤد ما فرض عليه ، ولم يفعل ما كلفه به ربه من الإيمان والطاعة .

الكرم الالهى الواسع

قال تعالى :

فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَـٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَـٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾

معانى المفردات

﴿ **القضب** ﴾ : الرطبة ، وهى ما يؤكل من النبات غضاً طرياً ، وسمى قضبا لأنه يقضب ، أى يقطع مرة بعد أخرى .

﴿ **غلبا** ﴾ : واحدها غلباء ، أى ضخمة عظيمة .

﴿ **أبا** ﴾ : الأب : المرعى ، لأنه يؤيب . أى يؤم وينتجع .

﴿ **متاعا لكم ولأنعامكم** ﴾ : أى أنبتناه لكم ، لتتمتعوا به وتنتفعوا وتنتفع أنعامكم .

﴿ **الصاخة** ﴾ : المراد هنا بالصاخة ، هو المراد بالقارعة فى سورتها ، وهى الطامة الكبرى ،

---

(١) أخرجه البخارى فى (كتاب التفسير) سورة النبأ جـ ٦ ص ٢٠٥
وأخرجه مسلم فى (كتاب الفتن) باب : ما بين النفختين جـ ٤ ص ٢٢٧٠ ، ٢٢٧١ بعده روايات تحت رقم ٢٩٥٥

ويكون نذيرها ذلك الصوت الهائل الذى يحدث من تخريب الكون ، ووقع بعض أجرامه على بعض ، ومن ثم سميت صاخة وقارعة .

﴿ شأن ﴾ : أى شغل .

﴿ يغنيه ﴾ : أى يصرفه ويصده عن مساعدة ذوى قرابته .

﴿ سفرة ﴾ : أى مضيئة مشرقة ، يقال أسفر الصبح إذا أضاء .

﴿ مستبشرة ﴾ : أى فرحة بما نالت .

﴿ والغبرة ﴾ : ما يصيب الانسان من الغبار .

﴿ ترهقها ﴾ : أى تغشاها .

﴿ والقترة ﴾ : سواد كالدخان .

﴿ والفجرة ﴾ : واحدهم فاجر ، وهو الخارج عن حدود الله المنتهك لحرماته .

المناسبة واجمال المعنى

بعد أن بين سبحانه حال القرآن ، وذكر أنه كتاب الذكرى والموعظة ، ثم ذكر الدلائل على قدرته تعالى ، وهى كامنة فى نفسه ، يراها فى يومه وأمسه ، أردفها ذكر الآيات المنبثة فى الآفاق الناطقة ببديع صنعه وباهر حكمته ثم أعقب هذا بتفصيل بعض أحوال يوم القيامة وأهوالها ، التى توجب الفزع والخوف منه ليدعوه ذلك الى التأمل فيما مضى من الدلائل ، التى ترشد إلى وحدانيته وقدرته ، وصحة البعث وأخبار يوم القيامة ، التى جاءت على ألسنة رسله ، ويتزود بصالح الأعمال ، التى تكون نبراسا يضىء أمامه فى ظلمات هذا اليوم ، يوم تبيض وجوه وتسود وجوه .

التفسـير

قوله تعالى : ﴿ فلينظر الإنسان إلى طعامه ﴾ .

أى فلينظر إلى ما بين يديه من أقرب الأشياء إليه ، وليتذكر شأن نفسه ، ولينظر فى أمر طعامه ، ماذا صنعنا فى إحداثه وتهيئته ، حتى يكون غذاء صالحا تقوم به بنيته ، ويجد فى تناوله لذة تدفعه إليه ، وشوقه له ، ليحفظ بذلك قوته مدى الحياة ، التى قدرت له حسب أجل الله عز وجل الذى قدره لكل مخلوق حى ، ولا يعلمه إلا هو جل وعلا قال تعالى : ﴿ وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به

نبات كل شيء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حباً متراكباً ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون ﴾[1] .

قال العلامة ابن كثير : ﴿ فلينظر الإنسان إلى طعامه) فيه امتنان وفيه استدلال ، بإحياء النبات من الأرض الهامدة ، على إحياء الأجسام بعدما كانت عظاماً بالية ، وتراباً متمزقاً .

قوله تعالى : ﴿ أنا صببنا الماء صبا ﴾ كقوله تعالى : ﴿ وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا ﴾[2] أى إنا بقدرتنا أنزلنا الماء من السحاب على الأرض إنزالا عجيبا ﴿ ثم شققنا الأرض شقا ﴾ أى أسكناه فيها فيدخل فى تخومها ، وتخلل فى أجزاء الحب المودع فيها ، فنبت وارتفع ، وظهر على وجه الأرض . وقوله : ﴿ فأنبتنا فيها حباً وعنبا وقضبا ﴾ فالحب كل ما يذكر من الحبوب ، والعنب معروف ، والقضب هو الفصفصة التى تأكلها الدواب رطبة ، قال ذلك ابن عباس وغيره . ﴿ وزيتوناً ﴾ وهو معروف ، وهو أدم وعصيره أدم ، ويستصبح به ، ويدهن به . ﴿ ونخلاً ﴾ يؤكل بلحاً بسراً ورطبا وتمراً ونيئاً ومطبوخاً ويعتصر منه .

﴿ وحدائق غلباً ﴾ أى بساتين ﴿ غلباً ﴾ قال ابن عباس : طوال ، وقال مجاهد : كل ما التف واجتمع .

وقوله تعالى : ﴿ وفاكهة وأبا ﴾ أما الفاكهة ، فكل ما يتفكه به من الثمار . قال ابن عباس . الفاكهة : كل ما أكل رطباً ، والأب : ما أنبتت الأرض مما يأكله الدواب ولا يأكله الناس .

وعن مجاهد والحسن وقتادة : الآب للبهائم كالفاكهة لبنى آدم ، وعن عطاء : كل شيء نبت على وجه الأرض فهو أب .

وقوله تعالى : ﴿ متاعاً لكم ولأنعامكم ﴾ أى عيشة لكم ولأنعامكم فى هذه الدار إلى يوم القيامة . والله تبارك وتعالى أنبت كل تلك الأصناف الثمانية لنتمتع بها نحن وننتفع بها لدوابنا وأنعامنا . وهى كذلك متاعا لنا يسرها وسخرها لهذا الإنسان الجحود لنعم الله .

قوله تعالى : ﴿ فإذا جاءت الصاخة ﴾ .

قال ابن عباس رضى الله عنهما : الصاخة اسم من أسماء يوم القيامة عظمه الله وحذره عباده .

---

(١) الأنعام آية : ٩٩

(٢) النبأ آية : ١٤

وقال البغوى رحمه الله : الصاخة يعنى صيحة يوم القيامة ، سميت بذلك ، لأنها تصخ الأسماع أي تبالغ فى اسماعها ، حتى تكاد تصمها .

والصاخة هنا ، كالقارعة فى سورة القارعة ، وهى الحادثة العظمى ، التى تزلزل لها الأرض ، وتطوى لها السموات ، وهى الطامة الكبرى ، ويكون نذيرها ذلك الصوت المفزع الهائل ، الذى يحدث نتيجة لتخريب الكون ، ووقوع بعض أجراسه على بعض حيث تكور الشمس ، وتنكدر النجوم ، وتسير الجبال ، وتسجر البحار وتكشط السماء ، وتسعر الجحيم ، وتنفطر السماء ، وتنشطر الكواكب ، وتبعثر القبور ، وتزوج النفوس ، وتحشر الوحوش وتزلف الجنة للمتقين غير بعيد .

وفى هذا اليوم العظيم ، ترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد . فى هذا اليوم ينكشف للناس مشهد الجبروت الأعظم فيشغل كل نفس ما يصيبها ويعتريها ، من هيبة الجلال الالهى ، ويطلب معونتها ، على ما هو فيه ، ويتوارى كل امرىء من أخيه ، بل من أمه وأبيه ، بل من صاحبته ، التى هى ألصق الناس به ، وقد يبذل فى الدفاع عنها حياته لو مكن من ذلك ، ويفر من بنيه ، وكان فى الدنيا يفديهم بما له وروحه ، ذلك كله ، لأن لكل واحد مما يجد من الرعب ، وما يرهب من الهول ، وما يخشى من مناقشة الحساب ، شأن يغنيه ، أى يكفى لصرف جميع قواه ، فليس عنده فضل فكر وقوة ، يمد بها غيره .

فقال تعالى : ﴿ يوم يفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾ .

أى فى ذلك اليوم الرهيب يهرب الإنسان من أحبابه ، من أخيه وأمه ، وأبيه ، وزوجته وبنيه لاشتغاله بنفسه ، قال صاحب التسهيل : ذكر تعالى فرار الإنسان من أحبابه ، ورتبهم على مراتبهم فى الحنو والشفقة ، فبدأ بالأقل وختم بالأكثر . قال تعالى : ﴿ لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ﴾[2] .

وقوله تعالى : ﴿ لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾ أى لكل انسان منهم فى ذلك اليوم العصيب ، شأن يشغله عن شأن غيره ، فإنه لا يفكر فى سوى نفسه ، حتى أن الأنبياء ـ صلوات الله عليهم ـ ليقول الواحد منهم يومئذ « نفسى نفسى » .

قال ابن أبى حاتم بسنده عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تحشرون حفاة عراة مشاة غرلا » قال فقالت زوجته يا رسول ننظر أو يرى بعضنا عورة بعض ؟ قال صلى الله عليه

(١) الممتحنة آية : ٣

(٢) المؤمنون آية : ١٠١

وسلم ، « لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه ، أو قال ـ ما أشغله عن النظر »[١] . ورواه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح .

وقال النسائى بسنده عن عروة عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « يبعث الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلا » فقالت عائشة : يا رسول الله فكيف بالعورات ؟ فقال « لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه »[٢] .

قوله تعالى : ﴿ **وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة ، ووجوه يومئذ عليها غبرة ترهقها قترة أولئك هم الكفرة الفجرة** ﴾ .

أى يكون الناس هنالك فريقين ، وجوه مسفرة ، أى مستنيرة (ضاحكة مستبشرة) أى مسرورة فرحة من السرور فى قلوبهم قد ظهر البشر على وجوههم ، وهؤلاء هم أهل الجنة . (ووجوه يومئذ عليها غبرة ترهقها قترة) أى يعلوها وتغشاها قترة أى سواد ، فهم سود الوجوه (أولئك هم الكفرة الفجرة) وهؤلاء هم أهل النار . أى الكفرة قلوبهم ، الفجرة فى أعمالهم .

ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ **يوم تبيض وجوه وتسود وجود فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون وأما الذين أبيضت وجوههم ففى رحمة الله هم فيها خالدون** ﴾[٣] .

وكقوله : ﴿ **وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ، ووجوه يومئذ باسرة تظن أن يفعل بها فاقرة** ﴾[٤] .

« اللهم يا رحيم ، يا ودود ، يا حى يا قيوم ، نسألك أن تجعل خير أعمارنا أواخرها ، وخير أعمالنا خواتمها ، وخير أيامنا يوم لقائك ، ونسألك أن تجعل القبور بعد فراق الدنيا خير منازلنا ، وافسح بها ملاحدنا ، وارحم فى موقفِ العرض عليك ذل مقامنا ، وثبت على الصراط أقدامنا ، ونجنا من كرب يوم القيامة ، وبيض وجوهنا يوم تبيض وجوه ، ولا تسود وجوهنا يوم تسود وجوه ، ونسألك نعيما لا ينفد ، وقرة عين لا تنقطع ، ونسألك الشوق إلى لقائك ، ونسألك النظر الى وجهك الكريم فى غير خيراء مضرة ولا فتنة مضلة . يا أرحم الراحمين » .

---

(١) أخرجه ؛ انظر تفسير ابن كثير طبع الشعب جـ ١ ص ٣٤٩ فقد رواه عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ وأخرجه الترمذى من رواية ابن عباس أيضا فى (كتاب التفسير) : سورة عبس جـ ٥ ص ١٠٤ رقم ٣٣٨٨ وقال الترمذى هذا حديث حسن صحيح

(٢) أخرجه النسائى فى سننه (كتاب الجنائز) باب البعث جـ ٤ ص ١١٤

(٣) آل عمران الآيتان : ١٠٦ ـ ١٠٧

(٤) القيامة الآيات : ٢٢ ـ ٢٥

تفسير سورة التكوير

مقدمة :

قال صاحب البصائر :

السورة مكية .

عدد آياتها : تسع وعشرون آية . وكلماتها : مائة وأربعون .

وحروفها : خمسمائة وثلاث وثلاثون .

فواصل آياتها : (تسليم) .

تسمى سورة كورت ، وسورة التكوير ، لمفتتحها .

مقصود السورة :

بيان أحوال القيامة ، وأهوالها ، وذكر القسم على أن جبريل أمين الوحى ، مكين عند ربه وأن محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ لامُتَّهم ولا بخيل بقول الحق ، وبيان حقيقة المشيئة والإرادة فى قوله تعالى : ﴿ إلا أن يشاء الله رب العالمين ﴾ .

المتشابهات :

قوله تعالى : ﴿ وإذا البحار سجرت ﴾ ، وفى الانفطار : ﴿ وإذا البحار فجرت ﴾ ، لأن معنى (سجّرت) عند أكثر المفسرين : أوقدت فصارت ناراً ، من قولهم سجّرت التنورة . وقيل بحار جهنم تملأ حمياً ، فيعذب بها أهل النار ، فخصت هذه السورة بسجرت بموافقة قوله تعالى : (سعرت) ليقع الوعيد بتسعير النار وتسجير البحار ، وفى الانفطار وافق قوله : (وإذا الكواكب انتثرت) أى تساقطت ﴿ وإذا البحار فجرت ﴾ أى سالت مياهها ففاضت على وجه الأرض ﴿ وإذا القبور بعثرت ﴾ قلبت وأثيرت . وهذه أشياء كلها زالت عن أماكنها ، فلاقت كل واحدة قرائنها .

ـ قوله تعالى : ﴿ علمت نفس ما أحضرت ﴾ وفى الانفطار : ﴿ علمت نفس ما قدمت وأخرت ﴾ لأن ما فى السورة متصل بقوله : ﴿ وإذا الصحف نشرت ﴾ فقرأها أربابها ، فعلمت ما أحضرت ، وفى الانفطار متصل بقوله : ﴿ وإذا القبور بعثرت ﴾ والقبور كانت فى الدنيا فتتذكر ما قدمت فى الدنيا ، وما أخرت فى العقبى ، فكل خاتمة لائقة بمكانها ، وهذه السورة من أولها إلى آخرها شرط وجزاء ، وقسم وجواب .

مناسبة السورة لما قبلها .

أن كلتيهما تشرح أحوال القيامة وأهوالها .

أخرج الإمام أحمد والترمذى والحاكم عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من سره أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأى عين فليقرأ : ﴿ إذا الشمس كورت ، وإذا السماء انفطرت وإذا السماء انشقت ﴾[1] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾

معانى المفردات

تكوير الشمس : لفها كتكوير العمامة ، والمراد منه اختفاؤها عن الأعين وذهاب ضوئها .

إنكدار النجوم : انتثارها وتساقطها حتى تذهب ويمحى ضوؤها .

وتسير الجبال : يكون حين الرجفة ، التى تزلزل الأرض ، فتقطع أوصالها وتنفصل منها أجبالها ، وتقذفها فى الفضاء .

العشار : واحدها عشراء (بضم العين وفتح الشين) وهى الناقة التى مضى على حملها عشرة أشهر ، وهى أكرم مال لدى المخاطبين وقت التنزيل ، وتعطيلها : إهمالها وذهابها حيث تشاء ، لعظم الهول ، وشدة الكرب .

(حشرت) أى جمعت .

(وتسجير البحار) تفجير الزلزال ما بينها حتى تختلط وتعود بحراً واحداً .

(زوجت) أى قرنت الأرواح بأجسادها .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (مسند عبد الله بن عمر رضى الله عنهما) جـ ٢ ص ٢٧ وزاد : « وأحيه قال : سورة هود » وانظر ص ٣٦ وص ١٠٠

ورواه الترمذى فى جامعه الصحيح (كتاب التفسير) سورة إذا الشمس كورت جـ ٥ ص ١٠٤ وأخرجه الحاكم فى المستدرك فى (كتاب الأهوال) جـ ٤ ص ٥٧٦ وقال الحاكم هو حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبى فى التلخيص .

(الموءودة) هى التى دفنت وهى صغيرة وقد كان ذلك عادة فاشية منهم فى الجاهلية ، ، وكان ذوو الشرف منهم يمنعون من هذا .

(كشطت) كشفت وأزيلت عما فوقها .

(سعرت) أى أوقدت إيقاداً شديداً .

(أزلفت) أى أدنيت من أهلها وقربت منهم .

(ما أحضرت) أى ما أعد لها من خير أو شر .

التفســير

قوله تعالى : ﴿ إذا الشمس كورت ، وإذا النجوم انكدرت ﴾ .

قال ابن جرير : التكوير جمع الشىء بعضه على بعض ، ومنه تكوير العمامة ، وجمع الثياب بعضها إلى بعض ، فمعنى قوله تعالى : (كورت) جمع بعضها إلى بعض ، ثم لفت فرمى بها وإذا فعل بها ذلك ذهب ضوؤ ها ، وقال ابن أبى حاتم بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما : ﴿ إذا الشمس كورت ﴾ قال يكور الله الشمس والقمر والنجوم يوم القيامة فى البحر ويبعث الله ريحاً دَبُوراً فتضرمها ناراً[1] .

وقوله تعالى : ﴿ وإذا النجوم انكدرت ﴾ أى انتثرت كما قال تعالى ﴿ وإذا الكواكب انتثرت ﴾ وأصل الانكدار الانصباب .

قال الربيع بن أنس عن أبى العالية عن أبى بن كعب قال : « ست آيات قبل يوم القيامة : بينا الناس فى أسواقهم إذ ذهب ضوء الشمس ، فبينما هم كذلك إذ تناثرت النجوم ، فبينما هم كذلك ، إذ وقعت الجبال على وجه الأرض ، فتحركت واضطربت ، واختلطت ، ففزعت الجن إلى الإنس ، والإنس إلى الجن ، واختلطت الدواب والطير والوحوش فماجوا بعضهم فى بعض .

﴿ وإذا الوحوش حشرت ﴾ قال اختلطت ﴿ وإذا العشار عطلت ﴾ قال : أهملها أهلها ﴿ وإذا البحار سجّرت ﴾ قال : قالت الجن : نحن نأتيكم بالخبر ، قال : فانطلقوا إلى البحر فإذا هو نار تتأجج ، قال فبينما هم كذلك إذ تصدعت الأرض صدعة واحدة إلى الأرض السابعة السفلى وإلى السماء السابعة العليا ، قال : بينما هم كذلك إذ جاءتهم الريح فأماتتهم . رواه ابن جرير وهذا لفظه ، وابن أبى حاتم ببعضه . وهكذا قال مجاهد والربيع والحسن البصرى وغيرهم فى قوله تعالى : ﴿ وإذا النجوم انكدرت ﴾ أى : تناثرت .

وقوله تعالى : ﴿ وإذا الجبال سيرت ﴾ أى زالت عن أماكنها ونسفت فتركت الأرض قاعاً صفصفاً .

وقوله تعالى : ﴿ وإذا العشار عطلت ﴾ قال قتادة : عشار الإبل (عطلت) تركت وسيبت وأهملها أهلها . والمقصود أن العشار من الإبل ، وهى خيارها والحوامل منها ، التى قد وصلت فى حملها إلى الشهر العاشر ـ واحدتها عشراء قد أشغل الناس عنها وعن كفالتها والانتفاع بها بعد ما كانوا أرغب شىء فيها ،

---

(١) أخرجه ابن كثير فى تفسيره (تفسير سورة التكوير) حـ ٨ ص ٣٥٢ طبع الشعب .

بما دهمهم من الأمر العظيم المفظع الهائل ، وهو أمر يوم القيامة ، وانعقاد أسبابها ، ووقوع مقدماتها ، وقيل بل يكون ذلك يوم القيامة ، يراها أصحابها كذلك لا سبيل لهم إليها ، وقد قيل فى العشار أنها السحاب تعطل عن المسير بين السماء والأرض لخراب الدنيا ، وقيل : إنها الأرض التى تعشر ، وقيل : إنها الديار التى كانت تسكن ، تعطلت لذهاب أهلها ، حكى هذه الأقوال كلها الإمام عبد الله القرطبى فى كتابه التذكرة ، ورجح أنها الإبل وعزاه إلى أكثر الناس . قال ابن كثير : لا يعرف عن السلف والأئمة سواه والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ وإذا الوحوش حشرت ﴾ أى جمعت ، كما قال تعالى : ﴿ وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا فى الكتاب من شىء ثم إلى ربهم يحشرون ﴾[1] قال ابن عباس يحشر كل شىء حتى الذباب . وقال عكرمة حشرها موتها . وكذا قال ابن عباس : حشر إليها موتها ، وحشر كل شىء الموت غير الجن والإنس ، فإنهما يوقفان يوم القيامة .

قال ابن كثير والأولى قول من قال حشرت أى جمعت .

وقوله تعالى : ﴿ وإذا البحار سجرت ﴾ أى أوقدت . قال ابن عباس .

وغير واحد : يرسل الله عليها الرياح الدبور فتسعرها ونقيد ناراً تأجج . وقال الضحاك : (سجرت) أى فجرت . وقال الربيع بن خيثم : (سجرت) أى فاضت .

وقوله تعالى : ﴿ وإذا النفوس زوجت ﴾ أى جمع كل شكل إلى نظيره ، كقوله تعالى ﴿ احشروا الذين ظلموا وأزواجهم ﴾[2] .

وقد سئل عمر عن قوله تعالى : ﴿ وإذا النفوس زوجت ﴾ قال : يقرن بين الرجل الصالح مع الرجل الصالح ، ويقرن بين الرجل السوء مع الرجل السوء فى النار ، فتلك تزويج الأنفس .

قال ابن كثير واختار ابن جرير هذا القول وهو الصحيح .

وهناك قول آخر فى تفسير الآية الكريمة : ﴿ وإذا النفوس زوجت ﴾ أى وإذا زوجت الأرواح بأبدانها حين النشأة الآخرة .

قال عكرمة والضحاك والشعبى .

قوله تعالى : ﴿ وإذا الموءودة سئلت بأى ذنب قتلت ﴾ .

أى وإذا سئلت الموءودة بين يدى وائدها عن السبب ، الذى لأجله قتلت ، ليكون جوابها أشد واقعاً على الوائد ، فإنها ستجيب أنها قتلت بلا ذنب جنته . قال ابن عباس ﴿ وإذا المؤودة سئلت ﴾ أى سألت . طالبت بدمها وكذا قال السدى وقتادة .

---

(١) الأنعام آية : ٣٨ (٢) الصافات آية : ٢٢

وقوله تعالى : ﴿ وإذا الصحف نشرت ﴾ قال الضحاك : أعطى كل إنسان صحيفته بيمينه أو بشماله ، وقال قتادة : يا ابن آدم تملى فيها ثم تطوى ثم تنشر عليك يوم القيامة ، فلينظر رجل ماذا يملى فى صحيفته .

وقوله تعالى : ﴿ وإذا السماء كشطت ﴾ قال الضحاك : تنكشط فتذهب . قال تعالى : ﴿ يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات وبرزوا لله الواحد القهار ﴾(١) .

وقوله تعالى : ﴿ وإذا الجنة أزلفت ﴾ أى قربت إلى أهلها كما قال تعالى ﴿ وأزلفت الجنة للمتقين ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وإذا الجحيم سعرت ﴾ أى أحميت ، وإنما يسعرها غضب الله وخطايا البشر .

وقوله تعالى : ﴿ علمت نفس ما أحضرت ﴾ .

هذا هو الجواب أى إذا وقعت هذه الأمور حينئذ ، تعلم كل نفس ما عملت وأحضر ذلك لها ، كما قال تعالى : ﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ﴾(٢) وكقوله تعالى : ﴿ ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر بل الإنسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره ﴾(٣) وكقوله تعالى : ﴿ ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً ﴾(٤) .

قسم كريم

قال تعالى :

فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾

---

(١) ابراهيم آية : ٤٨
(٢) آل عمران آية : ٣٠
(٣) القيامة الآيات : ١٣ ـ ١٥
(٤) الكهف آية : ٤٩

معانى المفردات

الخنس : واحدها خانس ، وهو المنقبض المستخص .

الكنس : واحدها كانس أو كانسة من قولهم : كنس الظبى إذا دخل كناسة ، وهو بيته ، الذى يتخذه من أغصان الشجر ، والمراد بالخنس الجوار .

الكنس : جميع الكواكب ، وخنوسها غيبوبتها عن البصر نهاراً .

وكنوسها : ظهورها للبصر ليلاً ، فهى تظهر فى أفلاكها ، كما تظهر الظباء فى كنسها .

وعسعس : أى أدبر ، وتنفس : أسفر وظهر فوره .

والرسول : هو جبريل عليه السلام .

كريم : أى عزيز على الله .

ذى قوة : كقوله تعالى ﴿ علمه شديد القوى ﴾ .

مكين : أى ذى مكانة وجاهٍ عند ربه يعطيه ما سأله .

ثَمَّ : أى هناك .

أمين : على وحيه ورسالاته .

صاحبكم : هو محمد صلى الله عليه وسلم .

الأفق المبين : أى الأفق الواضح .

ضنين : أى بخيل .

رجيم : أى مرجوم مطرود من رحمة الله .

فأين تذهبون : أى أىّ مسلك تسلكون ، وقد قامت عليكم الحجة .

أن يستقيم : أى على الطريق الواضح .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه من أحوال القيامة وأهوالها ما ذكر ، وبين أن الناس حينئذ يقفون على حقائق أعمالهم ، فى النشأة الأولى ، ويستبين لهم ما هو مقبول منها وما هو مردود عليهم ـ أردف ذلك بيان أن ما يحدثهم به الرسول صلى الله عليه وسلم هو القرآن ، الذى أنزل عليه ، وهو آيات بينات من الهدى ، وأن ما رميتموه به من المعايب ما هو إلا محض افتراء ، وأن لجاجكم فى عداوته ما هو إلا عناداً واستكباراً ، وإنكم فى قرارة نفوسكم عالمون حقيقة أمره ، ودخيلة دعوته .

التفســـير

قوله تعالى : ﴿ **فلا أقسم بالخنس ، الجوار الكنس ، والليل إذا عسعس والصبح إذا تنفس . إنه لقول رسول كريم** ﴾ .

أقسم بسحانه وتعالى بالنجوم فى أحوالها الثلاثة من طلوعها وجريانها وغروبها . هذا قول على ، وابن عباس ، وعامة المفسرين ، وهو الصواب .

قال ابن القيم : ولما كان للنجوم حال ظهور ، وحال اختفاء وحال جريان ، وحال غروب أقسم سبحانه وتعالى بها فى أحوالها كلها . ونبه بخنوسها على حال ظهورها ، لأن الخنوس هو الاختفاء بعد الظهور ، ولا يقال لما يزال مختفياً : إنه قد خنس . فذكر سبحانه جريانها غروبها صريحاً ، وخنوسها وظهورها ، واكتفى من ذكر طلوعها بجريانها الذى مبدؤه الطلوع ، فالطلوع أول جريانها ، فتضمن القسم طلوعها ، وغروبها وجريانها ، واختفاءها ، وذلك من آياته ودلائل ربوبيته .

وقوله تعالى : ﴿ **والليل إذا عسعس والصبح إذا تنفس** ﴾ .

اختلف المفسرون فى عسعسة الليل ، هل هى إقباله أم إدباره ؟ فالأكثرون على أن عسعس بمعنى ولى وذهب وأدبر . هنا قول على وابن عباس وأصحابه ، وقال الحسن : أقبل بظلامه ، وهو إحدى الروايتين عن مجاهد .

فمن رجح الإقبال قال : أقسم الله سبحانه وتعالى بإقبال الليل وإقبال النهار ، فقوله : ﴿ **والصبح إذا تنفس** ﴾ مقابل الليل إذا عسعس قالوا : ولهذا أقسم الله بـ (الليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى) ومن رجح إنه إدباره ، احتج بقوله تعالى ﴿ **كلا والقمر والليل إذ أدبر والصبح إذا أسفر** ﴾ فأقسم سبحانه بإدبار الليل وإسفار الصبح ، وذلك نظير عسعسة الليل ، وتنفس الصبح .

قالوا : والأحسن أن يكون القسم بانصرام الليل ، وإقبال النهار ، فإنه عقيبه من غير فصل ، فهذا أعظم فى الدلالة ، والعبرة بخلاف إقبال الليل ، وإقبال النهار ، فإنه لم يعرف القسم فى القرآن بهما ، ولأن بينهما زمناً طويلاً ، فالآية فى انصرام هذا ومجىء الآخر عقيبه بغير فصل أبلغ .

فذكر سبحانه وتعالى ضعف هذا وإدباره ، وحالة قوة هذا وتنفسه ، وإقباله يطرد ظلمة الليل بتنفسه ، فكلما تنفس هرب الليل وأدبر بين يديه ، وهذا هو القول . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ **إنه لقول رسول كريم** ﴾ .

ثم ذكر سبحانه المقسم عليه ، وهو القرآن الكريم ، وأخبر سبحانه وتعالى أنه قول رسول كريم ، وهو ههنا جبريل أمين الوحى قطعاً ، لأنه ذكر صفته بعد ذلك بما يعنيه به ، وأما الرسول الكريم فى « الحاقة » فهو محمد صلى الله عليه وسلم . فأضافه سبحانه إلى الرسول الملكى تارة ، وإلى الرسول البشرى تارة ، وإضافته إلى كل واحد من الرسولين إضافة تبليغ لا إضافة إنشاء من عنده ، وإلا تناقضت النسبتان ، ولفظ الرسول يدل على ذلك . فإن الرسول هو الذى يبلغ كلام من أرسله . وهذا صريح فى أنه كلام من أرسل جبريل ومحمداً صلى الله عليه وسلم وأن كلا منهما بلغه عن الله ، فهو قوله مبلغاً ، وقول الله

الذى تكلم به حقاً . فلا راحة لمن أنكر أن يكون الله متكلماً بالقرآن وهو كلامه حقاً . فى هاتين الآيتين ، بل هما من أظهر الأدلة على كونه كلام الرب تعالى وأنه ليس للرسولين الكريمين منه إلا التبليغ ، فجبريل سمعه من الله سبحانه ومحمد صلى الله عليه وسلم سمعه من جبريل .

قوله تعالى : ﴿ **إنه لقول رسول كريم ، ذى قوة عند ذى العرش مكين مطاع ثم أمين** ﴾ .

وصف سبحانه وتعالى رسوله الملكى فى هذه السورة ، بأنه كريم ، قوى ، مكين ، عند الرب تعالى ، مطاع فى السموات ، أمين ، فهذه خمس صفات ، تتضمن تزكية سند القرآن وأنه سماع محمد من جبريل ، وسماع جبريل من رب العالمين ، فناهيك بهذا السند علوا وجلالة : قول الله سبحانه وتعالى بنفسه تزكيته .

الصفة الأولى :

كون الرسول الذى جاء به إلى محمد صلى الله عليه وسلم كريماً ، ليس كما يقول أعداؤه : إن الذى جاء به شيطان ، فإن الشيطان خبيث مخبث ، لئيم ، قبيح المنظر ، عديم الخير ، باطنه أقبح من ظاهره ، وظاهره أشنع من باطنه ، وليس فيه ولا عنده خير ، فهو أبعد شىء عن الكرم ، والرسول الذى ألقى القرآن إلى محمد صلى الله عليه وسلم كريم ، جميل المنظر ، بهى الصورة ، كثير الخير ، طيب مطيب معلم الطيبين ، وكل خير فى الأرض من هدى وعلم ومعرفة ، وإيمان وبر ، فهو مما أجراه ربه على يده ، وهذا غاية الكرم الصورى والمعنوى .

الوصف الثانى :

إنه ذو قوة ، كما قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿ **علمه شديد القوى** ﴾[1] وفى ذلك تنبيه على أمور :

(أحدها) أنه بقوته يمنع الشياطين أن تدنو منه ، وأن ينالوا منه شيئاً ، وأن يزيدوا فيه أو ينقصوا منه ، بل إذا رآه الشيطان هرب منه ولم يقربه .

(الثانى) أنه موال لهذا الرسول الذى كذبتموه ، ومعاضد له ، وموادٍ له وناصر ، كما قال تعالى : ﴿ **وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير** ﴾[2] ومن كان هذا القوى وليه ، ومن أنصاره ، وأعوانه ، ومعلمه ، فهو المدى المنصور ، والله هاديه ، وناصره .

(الثالث) أن من عادى هذا الرسول ، فقد عادى صاحبه ووليه جبريل ، ومن عادى ذا القوة والشدة ، فهو عرضة للهلاك .

(الرابع) أنه قادر على تنفيذ ما أمر به لقوته ، فلا يعجز عن ذلك ، مؤد له كما أمر به لأمانته ، فهو القوى الأمين ، وأحدكم إذا انتدب غيره فى أمر من الأمور لرسالة ، أو ولاية ، أو وكالة ، أو غيرها ، فإنما ينتدب لها القوى عليه الأمين على فعله ، وإن كان ذلك الأمر من أهم الأمور عنده انتدب له قوياً أميناً معظمها ذا مكانة عنده ، مطاعاً فى الناس ، كما وصف الله سبحانه عبده جبريل بهذه الصفات ، وهذا يدل

---

(١) النجم آية : ٥ (٢) التحريم آية : ٤

على عظمة شأن المرسل ، والرسول ، والرسالة ، والمرسل إليه ، حيث انتدب له الكريم القوى المكين عنده ، المطاع فى الملأ الأعلى الأمين حق الأمين ، فإن الملوك لا ترسل فى مهماتها إلا الأشراف ذوى الأقدار والرتب العالية .

وقوله تعالى : ﴿ عند ذى العرش مكين ﴾ أى له مكانة ووجاهة عنده ، وهو أقرب الملائكة إليه ، وفى قوله : ﴿ عند ذى العرش ﴾ إشارة ، إلى علو منزلة جبريل ، إذ كان قريباً من ذى العرش سبحانه .

وفى قوله تعالى : ﴿ مطاع ثم ﴾ إشارة إلى أن جنوده وأعوانه ، يطيعونه إذا ندبهم لنصر صاحبه وخليله محمد صلى الله عليه وسلم . وفيه إشارة أيضاً إلى أن هذا الذى تكذبونه وتعادونه ، سيصير مطاعاً فى الأرض ، كما أن جبريل مطاع فى السماء ، وأن كلًّا من الرسولين المطاعين فى قومهم ، فلم ينتدب لهذا الأمر العظيم إلا مثل هذا الملك المطاع .

وقوله تعالى : ﴿ أمين ﴾ فى وصفه بالأمانة ، إشارة إلى حفظه ما حمله ، وأدائه على وجهه .

قوله تعالى : ﴿ وما صاحبكم بمجنون ، ولقد رآه بالأفق المبين وما هو على الغيب بضنين ، وما هو بقول شيطان رجيم ، فأين تذهبون ، إن هو إلا ذكر للعالمين ، لمن شاء منكم أن يستقيم وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين ﴾ .

ثم نزه سبحانه وتعالى البشري ، وزكاه عما يقول فيه أعداؤه . فقال : ﴿ وما صاحبكم بمجنون ﴾ وهذا أمر يعلمونه ولا يشكون فيه ، وإن قالوا بألسنتهم خلافه ، فهم يعلمون أنهم كانوا كاذبين .

وقوله تعالى : ﴿ ولقد رآه بالأفق المبين ﴾ أخبر سبحانه وتعالى عن رؤيته ـ صلى الله عليه وسلم ـ لجبريل الذى يأتيه بالرسالة عن الله عز وجل على الصورة التى خلقه الله عليها له له ستمائة جناح .

ومعنى : ﴿ بالأفق المبين ﴾ أى العين وهى الرؤية المذكورة فى قوله تعالى : ﴿ علمه شديد القوى ذو مرة فاستوى وهو بالأفق الأعلى ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى فأوحى إلى عبده ما أوحى ﴾[1] والمذكورة أيضاً فى قوله : ﴿ ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى إذ يغشى السدرة ما يغشى ﴾[2] .

وقوله تعالى : ﴿ وما هو على الغيب بضنين ﴾ أى وما محمد على ما أنزله الله سبحانه ببخيل ، ومنهم من قرأ ذلك بالظاء ﴿ وما هو على الغيب بظنين ﴾ أى بمتهم والظنين المتهم ، والضنين البخيل ، واختار ابن جرير قراءة الضاد ، قال ابن كثير : وكلاهما متواتر ومعناه صحيح .

قال قتادة : كان القرآن غيباً فأنزله الله على محمد ، فما ضنَّ به على الناس ، بل نشره وبلغه وبذله لكل من أراده .

وقال ابن القيم :

فى قوله تعالى : ﴿ وما هو على الغيب بضنين ﴾ ثم نزه رسوليه كليهما ـ أحدهما بطريق النطق ، والثانى بطريق اللزوم ـ عما يضاد مقصود الرسالة من الكتمان الذى هو الضنة والبخل ، والتبديل والتغيير

---

(١) النجم الآيات : ٥ ـ ١٠

(٢) النجم الآيات : ١٣ ـ ١٦

الذى يوجب التهمة ، فقال تعالى : ﴿ وما هو على الغيب بضنين ﴾ فإن الرسالة لا يتم مقصودها إلا بأمرين : أدائها من غير كتمان ، وأدائها على وجهها من غير زيادة ولا نقصان . والقراءتين كالآيتين ، فتضمنت إحداهما ـ وهى قراءة الضاد ـ تنزيهه عن البخل فإن الضنين هو البخيل . وأجمع المفسرين على أن الغيب ههنا القرآن والوحى .

أما قراءة من قرأ (بظنين) بالظاء ، فمعناه المتهم والمعنى : وما هذا الرسول على القرآن بمتهم ، بل هو أمين لا يزيد فيه ولا ينقص ، وهذا يدل على أن الضمير ، يرجع إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، لأنه قد تقدم وصف الرسول الملكى بالأمانة . ثم قال : ﴿ وما صاحبكم بمجنون ﴾ ثم قال : (وما هو) أى وما صاحبكم بمتهم ولا بخيل .

واختار أبو عبيدة قراءة الظاء لمعنيين : أحدهما أن الكفار لم يبخلوه . وإنما اتهموه ، فنفى التهمة أولى من نفى البخل . الثانى أنه قال (على الغيب) ولو كان المراد البخل لقال بالغيب ، لأنه يقال فلان ضنين بكذا وقلما يقال على كذا .

قلت : ويرجحه أنه وصفه بما وصف به رسوله الملكى ، من الأمانة ، فنفى عنه التهمة ، كما وصف جبريل بأنه أمين ، ويرجحه أيضاً أنه سبحانه ، نفى أقسام الكذب كلها عما جاء به من الغيب ، فإن ذلك لو كان كذباً ، فإما أن يكون منه ، أو ممن علمه ، وإن كان منه ، فإما أن يكون تعمده أو لم يتعمده ، فإن كان من معمله فليس هو بشيطان رجيم ، وإن كان منه مع التعمد ، فهو المتهم ، ضد الأمين ، وإن كان من غير تعمد ، فهو المجنون ، فنفى سبحانه عن رسوله ذلك كله ، وزكى سند القرآن العظيم أعظم تزكية ، فلهذا قال سبحانه : ﴿ وما هو بقول شيطان رجيم ﴾ ليس تعليم الشيطان ولا يقدر عليه ، ولا يحسن منه كما قال تعالى : ﴿ وما تنزلت به الشياطين وما ينبغى لهم وما يستطيعون ﴾[1] فنفى فعله وابتغاءه منهم ، وقدرتهم عليه . وكل من له أدنى خبرة بأحوال الشياطين والمجانين والمتهمين ، وأحوال الرسل يعلم علماً لا يمارى فيه ولا يشك ، بل علماً ضرورياً ، كسائر الضروريات . منافاة أحدهما للآخر ، ومضاداته له ، ولهذا وبخ سبحانه من كفر بعد ظهور هذا الفرق المبين ، بين دعوة الرسل ، ودعوة الشياطين ، فقال سبحانه : ﴿ فأين تذهبون ﴾ قال أبو إسحاق : فأى طريق تسلكون أبين من هذه الطريقة التى بينت لكم ؟

والمعنى فأين تذهب عقولكم فى تكذيبكم بهذا القرآن مع ظهوره ووضوحه وبيان كونه حقاً من عند الله عز وجل . كما قال تعالى : ﴿ فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون ؟ ﴾[2] فالأمر منحصر فى الحق والباطل ، والهدى والضلال ، فإذا عدلتم عن الهدى والحق ، فأين العدول ، وأين المذهب .

قوله تعالى : ﴿ إن هو إلا ذكر للعالمين ﴾ أى هذا القرآن ذكر لجميع الناس ، يتذكرون به ويتعظون ، وقوله : ﴿ لمن شاء منكم أن يستقيم ﴾ أى من أراد الهداية فعليه بهذا القرآن ، فإنه منجاة له ، وهداية ولا هداية فيما سواه ، وقوله : ﴿ وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين ﴾ أى ليست المشيئة

---

(١) الشعر الآيتان : ٢١٠ ، ٢١١ (٢) الجاثية آية : ٦

موكولة إليكم ، فمن شاء اهتدى ، ومن شاء ضل ، بل كل ذلك تابع لمشيئة الله تعالى رب العالمين .

قال العلامة ابن القيم فى هذه الآيات :

أخبر سبحانه عن القرآن بأنه ذكر للعالمين ، وفى موضع آخر تذكرة للمتقين ، وفى موضع آخر لرسوله صلى الله عليه وسلم ولقومه ، وفى موضع آخر ذكر مطلق ، وفى موضع آخر ذكر مبارك ، وفى موضع آخر وصفه بأنه ذو الذكر .

ويجمع هذه المواضع تبين المراد من كونه ذكراً عاماً وخاصاً ، وكونه ذا ذكر ، فإنه يذكر العباد بمصالحهم فى معاشهم ومعادهم . ويذكرهم بالمبدأ والمعاد ، ويذكرهم بالرب تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله وحقوقه على عباده ، ويذكرهم بالخير ليقصدوه ، وبالشر ليجتنبوه ، ويذكرهم بنفوسهم ، وأحوالها وآفاتها ، وما تكمل به ، ويذكرهم بعدوهم وما يريد منهم ، وبماذا يحترزون من كيده ومن أى الأبواب والطرق يأتى إليهم ، ويذكرهم بفاقتهم وحاجتهم إليه ، وأنهم مضطرون إليه لا يستغنون عنه نفساً واحداً ، ويذكرهم بنعمه عليهم ، ويدعوهم بها إلى نعم أخرى أكبر منها ، ويذكرهم بأسه وشدة بطشه ، وانتقامه ممن عصى أمره ، وكذب رسله ويذكرهم بثوابه وعقابه .

ولهذا يأمر سبحانه عباده أن يذكروا ما فى كتابه كما قال : ﴿ **خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون** ﴾[1] وإذا كان كذلك ، فأحق وأولى وأول من كان ذاكراً له من أنزل عليه ، ثم لقومه . ثم لجميع العالمين ، وحيث خص به المتقين لأنهم الذين انتفعوا بذكره . وأما وصفه بأنه ذو الذكر ، فلأنه مشتمل على الذكر ، فهو صاحب الذكر ، ومنه الذكر ، فهو ذكر وفيه الذكر ، كما أنه هدى وفيه الهدى ، وشفاء وفيه الشفاء ، ورحمة وفيه الرحمة .

وقوله تعالى : ﴿ **لمن شاء منكم أن يستقيم وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين** ﴾ .

هاتان الآيتان متضمنتان إثبات الشرح والقدر ، والأسباب والمسببات ، وفعل العبد واستناده إلى فعل الرب ، ولكل منهما عبودية مختص بها ، فعبودية الآية الأولى الاجتهاد ، واستفراغ الوسع والاختيار والسعى ، وعبودية الثانية الاستعانة بالله ، والتوكل عليه واللجوء إليه ، واستنزال التوفيق ، والعون منه ، والعلم بأن العبد لا يمكنه أن يشاء ، ولا يفعل حتى يجعله الله كذلك وقوله : ﴿ **رب العالمين** ﴾ ينتظم ذلك كله ، ويتضمنه ، فمن عطل أحد الأمرين ، فقد جحد كمال الربوبية ، وعطلها ، وبالله التوفيق .

لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شىء قدير ، اللهم لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد .

لا حول ولا قوة إلا بالله ، لا إله إلا الله ، ولا نعبد إلا إياه له النعمة وله الفضل ، وله الثناء الحسى ، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون .

---

(١) البقرة آية : ٦٣

تفسير سورة الانفطار

مقدمة عن السورة :

قال صاحب البصائر :

السورة مكية .

عدد آياتها : تسع عشرة آية

وكلماتها : مائة

وحروفها : ثلاثمائة وتسع عشرة

فواصل آياتها (مكنة) وسورة (الانفطار) لمفتتحها .

مقصود السورة :

الخبر عن حال السماء ونجومها فى آخر الزمان ، وبيان غفلة الإنسان وذكر الملائكة الموكلين بما يصدر عن اللسان ، والأركان ، وبيان إيجاد الحق - تعالى - الحكم يوم يحشر الإنس والجان .

المتشابهات :

سبق ما فيها من التشابه ، وقوله : ﴿ **وما أدراك ما يوم الدين ثم ما أدراك ما يوم الدين** ﴾ تكرار أفاد التعظيم ليوم الدين . وقيل أحدهما للمؤمنين ، والثانى للكافرين .

مناسبة السورة لما قبلها :

هى كسابقها مبدوءة بوصف أهوال يوم القيامة .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾

معانى المفردات

انفطرت : أى انشقت .

انتثرت : أى تساقطت متفرقة .

فجرت : أى فتحت وشققت جوانبها فزال ما بينها من الحواجز وأختلط عذبها بملحها .
بعثرت : أى قلب ترابها الذى حثى على موتاها ، وأزيل وأخرج من دفن فيها .
ما قدمت : أى من أعمال الخير .
وما أخرت : أى منها بالكسل والتسويف .
ما غرك : أى أىّ شىء خدعك وجرأك على العصيان ؟ .
الكريم : أى العلى العظيم .
فسواك : أى جعل أعضاءك سوية سليمة معدة لمنافعها .
فعدلك : أى جعلك معتدلا متناسب الخلق .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ إذا السماء انفطرت وإذا الكواكب انتثرت وإذا البحار فجرت وإذا القبور بعثرت علمت نفس ما قدمت وأخرت ﴾ .

افتتح سبحانه وتعالى هذه السورة الكريمة بمثل ما افتتح به سابقتها من ذكر أمور تحدث حين خراب هذا العالم ، وتكون مقدمة ليوم العرض والحساب والجزاء ، وهو يوم القيامة منها أمران علويان هما : انفطار السماء وانتثار الكواكب ، وأمران سفليان هما تفجير البحار وبعثرة القبور .

فقوله تعالى : ﴿ إذا السماء انفطرت ﴾ أى إذا انشقت السماء وتغير نظامها ، فلم يبق نظام الكواكب على ما نرى ، عند خراب هذا العالم بأسره كقوله تعالى : ﴿ ويوم تشقق السماء بالغمام ﴾ وقوله : ﴿ فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان ﴾ وقوله : ﴿ وفتحت السماء فكانت أبواباً ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وإذا الكواكب انتثرت ﴾ أى سقطت وتفرقت . وهذا يجىء غالباً لما قبله إذ متى انشقت السماء وانتقض تركيبها واختل نظامها ـ أنتثرت كواكبها .

قوله تعالى : ﴿ وإذا البحار فجرت ﴾ قال قتادة اختلط عذبها بمالحها ، وقال الحسن : فجر الله بعضها فى بعض فذهب ماؤ ها .

قوله تعالى : ﴿ وإذا القبور بعثرت ﴾ أى وإذا القبور قلبت ، ونبش ما فيها من الموتى ، وصار ما فى باطنها ظاهراً على وجهها .

قوله تعالى : ﴿ علمت نفس ما قدمت وأخرت ﴾ هذا هو الجواب أى علمت عندئذ كل نفس ما أسلفت من خير أو شر ، وما قدمت من صالح أو طالح قال الطبرى : ما قدمت من عمل صالح ، وما أخرت من شىء سَّنه فعمل به بعده .

ثم بعد ذكر أحوال الآخرة وأهوالها ، انتقلت الآيات لتذكير الإنسان الغافل الجاهل بما أمامه من أهوال ، وشدائد فقال تعالى :

﴿ يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم ﴾ أى أىَّ شىء خدعك بربك الحليم الكريم ، حتى عصيته وتجرأت على مخالفة أمره ، مع إحسانه إليك وعطفه عليك ؟ وهذا توبيخ وعتاب كأنه قال : كيف قابلت إحسان ربك بالعصيان ، ورأفته بك بالتمرد والطغيان ﴿ هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ﴾[1] ؟ وأتى سبحانه باسمه الكريم لينبه على أنه لا ينبغى أن يقابل الكريم بالأفعال القبيحة . وتلا إبن عمر هذه الآية : ﴿ يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم ﴾ فقال : غرّه والله جهله .

ثم عدد نعمه عليه فقال تعالى : ﴿ الذى خلقك فسواك فعدلك فى أى صورة ما شاء ركبك ﴾ أى الذى أوجدك من العدم ، فجعلك سوياً سالم الأعضاء ، تسمع وتعقل وتبصر (فعدلك) أى وجعلك معتدل القامة منتصباً فى أحسن الهيئات والأشكال وقوله : ﴿ فى أى صورة ما شاء ركبك ﴾ أى ركبك فى أى صورة شاءها وإختارها لك من الصور الحسنة العجيبة ، ولم يجعلك فى الشكل كالبهيمة كقوله تعالى : ﴿ لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ﴾[2] وكقوله : ﴿ وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ﴾[3] .

قال الإمام أحمد بسنده عن بشر بن جحاش القرشى أن رسول الله ﷺ بصق يوماً فى كفه فوضع عليها أصبعه ثم قال : قال الله عز وجل : « يا ابن آدم أنى تعجزنى وقد خلقتك من مثل هذه ؟ حتى إذا سويتك وعدلتك مشيت بين بردين ، وللأرض منك وئيد فجمعت ومنعت ، حتى إذا بلغت التراقى قلت : أتصدق وأنى أوان الصدقة ؟ »[4] .

تقرير صادق من الله تعالى

قال تعالى :

كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴿١٩﴾

(١) الرحمن آية : ٦٠
(٢) التين آية : ٤
(٣) غافر آية : ٦٤
(٤) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده جـ ٤ ص ٢١٠

معانى المفردات

كلا : تفيد نفى شىء قد تقدم وتحقيق غيره .

والدين : الجزاء .

حافظين : أى يحصون أعمالكم خيراً كانت أو شراً .

الأبرار : واحدهم بر ، وهو من يفعل البِر (بكسر الباء) ويتقى الله فى كل أفعاله .

الفجار : واحدهم فاجر ، وهو التارك لما شرعه الله ، المتعدى لحدوده .

يصلونها : أى يقاسون حرها .

ما أدراك : أى ما أعلمك وعرفك .

المناسبة واجمالى المعنى

بعد أن ذكر سبحانه أن من دلائل نعمه على الإنسان خلقه على أحسن صورة . وأن ذلك يدل على أن له حياة أخرى غير هذه الحياة ، فيها يجازى بما عمل من خير أو شر - أعقب هذا بيان أنه لا شىء يمنعه عن التصديق بهذا اليوم إلا العناد والتكذيب ، والله لم يترك عملاً لعباده الا أحصاه وحفظه ، ليوفى كل عامل بره ، فقد وكل الكرام الكاتبين المطهرين عن الغرض والنسيان بكتابته وضبطه .

ثم ذكر أن الناس فى هذا اليوم فريقان فريق فى الجنة وفريق فى السعير وأنه فى هذا اليوم لا يجد المرء ما يعول عليه سوى ما قدمت يداه . فلا شفيع ولا نصير ، ولا وزير ولا مشير ، والحكم لله وحده ﴿ ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين ﴾[1] .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ كلا بل تكذبون بالدين ﴾ .

أى إنما يحملكم على مواجهة الكريم ومقابلته بالمعاصى تكذيب قلوبكم بالمعاد والجزاء والحساب .

قوله تعالى : ﴿ وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون ﴾ أى وإن عليكم لملائكة حفظة كراماً فلا تقابلوهم بالقبائح ، فإنهم يكتبون عليكم جميع أعمالكم .

وقوله تعالى : ﴿ إن الأبرار لفى نعيم ﴾ .

يخبر تعالى عما يصير الأبرار إليه من النعيم وهم الذين أطاعوا الله عز وجل ولم يقابلوه بالمعاصى ، وروى . إنما سماهم الله الأبرار لأنهم بروا الآباء والأبناء .

وقوله تعالى : ﴿ وإن الفجار لفى جحيم يصلونها يوم الدين وما هم عنها بغائبين ﴾ أى وإن الكفرة الفجار ، الذين عصوا ربهم فى الدنيا واتبعوا أمر كل جبار عنيد ، لفى نار محرقة ، وعذاب دائم

(١) الأنعام آية : ٦٢

مقيم فى دار الجحيم يدخلونها ويقاسون حرها يوم الجزاء الذى كانوا يكذبون به .

وقوله : ﴿ **وما أدراك ما يوم الدين** ﴾ تعظيم له وتهويل أى ما أعلمك ما هو يوم الدين ؟ وأى شىء هو فى شدته وهوله ؟ ﴿ **ثم ما أدراك ما يوم الدين** ﴾ كرر ذكره تعظيما لشأنه ، وتهويلا لأمره كقوله تعالى : ﴿ **الحاقة ما الحاقة وما ادراك ما الحاقة** ﴾[1] وكقوله : ﴿ **القارعة ، ما القارعة ، وما أدراك ما القارعة** ﴾[2] كأنه يقول سبحانه : أى يوم الجزاء من شدته بحيث لا يدرى أحد مقدار هوله وعظمته ، فهو فوق الوصف والبيان .

وقوله تعالى : ﴿ **يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً** ﴾ أى هو ذلك اليوم الرهيب ، الذى لا يستطيع أحد أن ينفع أحداً بشىء من الأشياء ، ولا أن يدفع عنه ضراً ولا خلاصة مما هو فيه الا أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى .

قال الإمام أحمد بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ **وأنذر عشيرتك الأقربين** ﴾ دعا رسول الله ﷺ قريش فعمَّ وخص فقال : « يا معشر بنى كعب أنقذوا أنفسكم من النار ، يا معشر بنى هاشم أنقذوا أنفسكم من النار ، يا معشر بنى عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار ، يا فاطمة بنت محمد أنقذى نفسك من النار ، فإنى والله لا أملك لكم من الله شيئاً الا أن لكم رحماً سأبلها ببلاها » ورواه أيضا مسلم والترمذى[3] .

قوله تعالى : ﴿ **والأمر يومئذ لله** ﴾ أى والأمر فى ذلك اليوم لله وحده لا ينازعه فيه أحد كقوله تعالى : ﴿ **الملك يومئذ لله يحكم بينهم فالذين آمنوا وعملوا الصالحات فى جنات النعيم ، والذين كفروا وكذبوا بآياتنا فأولئك لهم عذاب مهين** ﴾[4] وكقوله تعالى : ﴿ **لمن الملك اليوم ، لله الواحد القهار اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب** ﴾[5] ، وقوله : ﴿ **ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين** ﴾[6] .

« دعـاء »

« اللهم أنت الملك لا اله إلا أنت ، أنت ربى ، وأنا عبدك ، ظلمت نفسى ، واعترفت بذنبى ، فاغفر لى ذنوبى جميعاً ، إنه لا يغفر الذنوب الا أنت ، وأهدنى لأحسن الأخلاق ، لا يهدى لأحسنها إلا أنت ، وأصرف عنى سيئها ، لا يصرف عنى سيئها إلا أنت ، لبيك وسعديك ، والخير كله فى يدك ، والشر ليس إليك ، أنا بك وإليك ، تباركت ربنا وتعاليت استغفرك وأتوب إليك . . »

---

(١) الحاقة الآيتان : ١ ، ٢

(٢) القارعة الآيتان : ١ ، ٢

(٣) أخرجه أحمد فى مسنده ٢/٣٦٠

(٤) الحج الآيتان : ٥٦ ، ٥٧

(٥) غافر الآيتان : ١٦ ، ١٧

(٦) الأعراف : ٥٤

تفسير سورة المطففين

مقــدمة :

قال صاحب البصائر :

السورة مكية

عدد آياتها : ست وثلاثون آية

وكلماتها : مائة وتسع .

وحروفها : أربعمائة وثلاثون .

وفواصل آياتها : (من) .

وسميت (المطففين) لمفتتحها .

مقصود السورة .

معظم مقصود السورة : تمام الكيل والميزان ، والاحتراز عن البخس والنقصان ، وذكر السجين لأهل العصيان ، وذكر العليين لأهل الإيمان ، ودلال المؤمنين والمطيعين فى نعيم الجنان ، وذل العصاة فى عذاب النيران ، ومكافأتهم على وفق الجرم والكفران فى قوله تعالى : ﴿ **هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون** ﴾ .

المتشابهات :

فيها من المتشابه قوله تعالى : ﴿ **كلا إن كتاب الفجار لفى سجين ، وما أدراك ما سجين كتاب مرقوم** ﴾ وبعده ﴿ **كلا إن كتاب الأبرار لفى عليين وما أدراك ما عليون كتاب مرقوم** ﴾ التقدير فيها : إن كتاب الفجار لكتاب مرقوم فى سجين ، وان كتاب الأبرار لكتاب مرقوم فى عليين . ثم ختم الأول بقوله : ﴿ **ويل يومئذ للمكذبين** ﴾ لأنه فى حق الكفار ، وختم الثانى بقوله : ﴿ **يشهده المقربون** ﴾ فختم كل واحد بما لا يصلح سواء مكانه .

مناسبة السورة لما قبلها :

إنه قال هناك « وإن عليكم لحافظين » وذكر هنا ما يكتبه الحافظون « كتاب مرقوم » يُجعل فى عليين أو فى سجين .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾

معانى المفـردات

ويل : أى هلاك عظيم .

والتطفيف : البخس فى الكيل والوزن ، وسمى بذلك لأن ما يبخس شىء حقير طفيف .

اكتالوا على الناس : أى اكتالوا من الناس حقوقهم .

يستوفون : أى يأخذونها وافية كاملة .

كالوهم : أى كالوالهم .

يخسرون : أى ينقصون الكيل والميزان .

سجين : اسم للكتاب الذى دونت فيه أعمال الفجرة من الثقلين .

مرقوم : من رقم الكتاب إذا جعل له علامة ، والعلامة تسمى رقماً .

معتد : أى متجاوز منهج الحق .

أثيم : أى يكثر من ارتكاب الآثام ، وهى المعاصى .

أساطير الأولين : أى أخبار الأولين .

ران على قلبه : أى غطى عليه ، قال الزجاج : الرين كالصدأ يغشى القلب كالنعيم الرقيق . وقال الفراء : كثرت منهم المعاصى والذنوب فأحاطت بقلوبهم فذلك الرين عليها .

لمحجوبون : أى لمطردون من أبواب الكرامة .

لصالوا الجحيم : أى لداخلو النار وملازموها .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ ويل للمطففين ، الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ ويل للمطففين ﴾ .

المطفف : هو الذى ينقص الكيل والوزن مطففاً ، لأنه لا يكاد يسرق إلا الشىء الطفيف ، وذلك ضرب من السرقة والخيانة وأكل الحرام ثم وعد الله من فعل ذلك بويل ، وهو شدة العذاب ، وقيل : واد فى جهنم لو سيرت فيه جبال الدنيا لذابت من شدة حره .

وكان بعض السلف يقول : ويل لمن يبيع بحبة يعطيها ناقصة جنة عرضها السموات والأرض ، وويل لمن يشترى الويل بحبة يأخذها زائدة » .

قال النسائى وابن ماجه بسندهما عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : لما قدم النبى - ﷺ - المدينة وكانوا من أخبث الناس كيلاً فأنزل الله تعالى : ﴿ ويل للمطففين ﴾ فحسنوا الكيل بعد ذلك [(١)] .

قوله تعالى : ﴿ الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ﴾ يعنى : إذا اكتالوا من الناس استوفوا عليهم ، وكذلك إذا اتزنوا ولم يذكر (إذا أتزنوا) لأن الكيل والوزن بهما الشراء والبيع فيما يكال ويوزن ، فأحدهما يدل على الآخر .

وقوله تعالى : ﴿ وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ﴾ أى ينقصون فى الكيل والوزن . وقال السدى . لما قدم رسول الله ﷺ المدينة كان بها رجل يقال له أبو جهينة له مكيالان ، يكيل بأحدهما ، ويكتال بالآخر . فأنزل الله هذه الآية .

وقد أمر الله تعالى بالوفاء فى الكيل والميزان فقال تعالى : ﴿ وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم . ذلك خير وأحسن تأويلا ﴾[(٢)] وقال تعالى : ﴿ وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفسا إلا وسعها ﴾[(٣)] وقال جل وعلا : ﴿ وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان ﴾[(٤)] ، وأهلك الله قوم شعيب ودمرهم على ما كانوا يبخسون الناس وأخرج الطبرانى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال

(١) أخرجه ابن ماجه فى سننه فى (كتاب التجارات) باب : التوفى فى الكيل والوزن جـ٢ ص٧٤٨ رقم ٢٢٢٣ .
(٢) الإسراء الآية : ٣٥
(٣) الأنعام الآية : ١٥٢
(٤) الرحمن الآية : ٩

رسول الله - ﷺ - : « خمس بخمس ، قالوا : يا رسول الله وما خمس بخمس ؟ قال : « ما نقض قوم العهد إلا سلط الله عليهم عدوهم ، وما حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر ، وما ظهرت فيهم الفاحشة إلا أنزل الله بهم الطاعون - يعنى الموت - ولا طففوا الكيل إلا منعوا النبات وأخذوا بالسنين ، ولا منعوا الزكاة إلا حبس عنهم المطر » .

قال المحققون هذا حديث سنده حسن وله شاهد صحيح عند ابن ماجه وغيره[1] .

وكان ابن عمر رضى الله عنهما : يمر بالبائع ، فيقول له : اتق الله ، وأوف الكيل والوزن بالقسط ، فإن المطففين يوم القيامة يوقفون حتى إن العرق ليلجمهم إلى أنصاف آذانهم .

ثم قال سبحانه متوعداً لهؤلاء : ﴿ **ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون . ليوم عظيم** ﴾ أى أما يخاف أولئك من البعث والقيام بين يدى من يعلم السرائر والضمائر فى يوم عظيم الهول كثير الفزع جليل الخطب ، من خسر فيه أدخل نار حامية ؟ وقوله تعالى : ﴿ **يوم يقوم الناس لرب العالمين** ﴾ أى يوم يقومون حفاة عراة غرلا فى موقف صعب حرج ضيق ضنك على المجرم ويغشاهم من أمر الله تعالى ما تعجزه القوى والحواس عنه .

قال الامام مالك : عن نافع عن ابن عمر أن النبى ﷺ قال : « يوم يقوم الناس لرب العالمين ، حتى يغيب أحدهم فى رشحه إلى أنصاف أذنيه » ورواه البخارى ومسلم أيضا كلاهما عن نافع[2] .

ورواه الامام أحمد فى سنده عن نافع عن ابن عمر سمعت رسول الله يقول : « يوم يقوم الناس لرب العالمين » لعظمة الرحمن عز وجل يوم القيامة حتى أن العرق ليلجم الرجل إلى أنصاف آذانهم[3] .

وقال الامام أحمد عن أبى أمامة أن رسول الله ﷺ قال : « تدنو الشمس يوم القيامة على قدر ميل ويزاد فى حرها كذا وكذا تغلى منها الهوام كما تغلى القدور ، يعرقون فيها على قدر خطاياهم منهم من يبلغ إلى كعبيه ، ومنهم من يبلغ إلى ساقيه ، ومنهم من يبلغ إلى وسطه ، ومنهم من يلجمه العرق» تفرد به أحمد[4] .

وفى سنن أبى داود والنسائى وابن ماجه أن رسول الله ﷺ كان يفتتح قيام الليل يكبر عشراً ، ويحمد عشراً ، ويسبح عشراً ، ويستغفر عشراً ويقول « اللهم اغفر لى واهدنى ، وارزقنى وعافنى ويتعوذ من ضيق

---

(١) أخرجه الهيثمى فى مجمع الزوائد فى (كتاب الزكاة) باب : فرض الزكاة جـ٣ ص ٦٥ وقال رواه الطبرانى فى الكبير ، وفيه إسحاق بن عبد الله بن كيسان المروزى : لينه الحاكم ، وبقية رجاله موثقون وفيهم كلام

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب التفسير جـ٦ ص١٠٧ ط الشعب

(٣) أخرجه أحمد فى مسنده ١٣/٢ ، ١٩ ، ٦٤ ، ٧٠ ، ١٠٥ ، ١١٢ ، ١٢٥ ، ١٢٦

(٤) أخرجه أحمد فى مسنده ٢٥٤/٥

المقام يوم القيامة »[١] .

لقد أقام الاسلام فى النفس البشرية مملكة هى مملكة المراقبة ، اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك وفى المعاملات الإسلامية ما يشهد بذلك قال أبو هريرة لرجل يغش اللبن بالماء ما تقول لربك يوم القيامة إذا قال لك خلص اللبن من الماء وخلص الماء من اللبن وهكذا انتظم السلوك فى المجتمع الإسلامى الآن كل إنسان كان يعتقد أن رقابة الله مهيمنة عليه وكفى بالله حسيباً .

آداب السوق فى الإسلام

يقول فضيلة الشيخ الأستاذ/ عبد الحفيظ فرغلى فى كتابه « آداب السوق فى الإسلام » :
تحت عنوان : السوق فى الإسلام .
الإسلام والتجارة .

لم يحرم الإسلام البيع ، ولكنه حرم ألواناً من المعاملة ، تتنافى مع إنسانية هذا الدين وسماحته ورحمته ، كالغضب ، والظلم ، والاختلاس ، والاستغلال ، والربا ، وغير ذلك من وسائل اكتساب المال عن طريق غير مشروع .

وفى ذلك يقول الله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا ، لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل** ﴾[٢] .

ويقول تعالى : ﴿ ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ، وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالأثم وأنتم تعلمون ﴾[٣] .
ويقول تعالى : ﴿ وأحل الله البيع وحرم الربا ﴾[٤] . إلى غير ذلك من الآيات الكريمة ، التى تعززها أحاديث شريفة .

وما دام هناك بيع ، فهناك سوق .
والسوق فى الإسلام تحكمها قوانين منظمة ، وآداب سامية ، فالإسلام لم يحارب الاستثمار ، ولكنه دعا إليه بطرقه الشريفة الطاهرة ، ومن أقوال الإسلام فى ذلك :
ثمروا أموال اليتامى ، لا تأكلها الصدقة .
ولم يحرم الإسلام التجارة ، ولكنه دعا التاجر إلى التحلى بالصدق والعفة والأمانة ، ونهاه عن الغش وسوء الاستغلال ، وغير ذلك من الصفات السيئة ، التى تحول الإنسان إلى صورة شوهاء ، لاهم لها الا كسب المال واكتنازه .

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى سننه فى (كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها) باب ما جاء فى الدعاء إذا قام الرجل من الليل جـ ١ ص ٤٣١ رقم ١٣٥٦ ورواه النسائى فى قيام الليل جـ ٤ ص ١٧٠ ط الحلبى

(٢) النساء آية : ٢٩

(٣) البقرة آية : ١٨٨

(٤) البقرة آية : ٢٥

جاء الاسلام ليقيم مجتمع التعاون والحب والايثار ، فكما دعا إلى حسن الاستثمار ، دعا ـ كذلك ـ إلى البذل والعطاء .

والنبى ﷺ خير قدوة لأمته فى ذلك . روى أبو ذر الغفارى رضى الله عنه قال : خرج رسول الله ﷺ يوماً نحو أحد ، فقال : « يا أبا ذر ، فقلت : لبيك يا رسول الله ، فقال : الأكثرون هم الأقلون يوم القيامة ، إلا من قال كذا وكذا عن يمينه وشماله وقدامه وخلفه ، وقليل ما هم ، ثم قال : يا أبا ذر قلت : نعم يا رسول الله ، بأبى أنت وأمى . قال : ما يسرنى أن لى مثل أحد ، أنفقه فى سبيل الله ، أموت وأترك منه قيراط ، قلت : أو قنطارين يا رسول الله ، قال : بل قيراطين . يا أبا ذر ، أنت تريد الأكثر ، وأنا أريد الأقل » صحيح مسلم(١) .

ويشير الحديث الشريف إلى أن خير ما يستفيده الإنسان من ماله هو ما ينفقه فى سبيل الله ووجوه البر المختلفة ، لا ذلك الذى يكثره ويكنزه .

والإسلام لم يحارب الملكية الخاصة ، ولكنه حرك فى المالك دافع البذل والإيثار والتضحية ، وحث الأغنياء على مواساة الفقراء ، ودعا القادرين إلى البر بالضعفاء والعاجزين . قال تعالى : ﴿ **أرأيت الذى يكذب بالدين ، فذلك الذى يدع اليتيم ولا يحض على طعام المسكين ، فويل للمصلين ، الذين هم عن صلاتهم ساهون الذى هم يراءون ويمنعون الماعون** ﴾ .

فتلك السورة الكريمة ، تندد بالقادرين ، الذين لا يرحمون العاجزين ، كما أن الله وعد الباذلين بمضاعفة الأجر وحسن الثواب ﴿ **مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ، كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء ، والله واسع عليم** ﴾(٢) .

وكانت الزكاة قاعدة من قواعد الإسلام الخمس ، وتعطيلها يوجب على الحاكم قتال المعطل ، وهذا يدل على أن الإسلام دين اجتماعى متكافل ، تهمه مصلحة الجماعة ، كما تهمه مصلحة الفرد . إن الإسلام هو دين الإنسانية والمروءة ، وائتلاف القلوب والمشاعر ، وقد اهتم بأن تكون المعاملات بين الأفراد والجماعات ، تنزع من مودة كريمة وثقة رحيبة ، ولذلك اهتم بعملية البيع والشراء اهتماماً بالغاً .

ولا يعرف الناس على حقيقتهم إلا بالاحتكاك عن طريق المعاملة فى الأخذ والعطاء ، والبيع والشراء ، وهذه أمور تمتحن دين المرء وتقواه ، ويظهر فيها إمساكه من جوده ، وورعه من طمعه ، وزهده من جشعه .

ولا يهم ثناء الإنسان على الإنسان ، ما لم يكن ذلك الثناء نتيجة تجربة وامتحان .

والسلوك الطيب ـ كما يقول الحكماء ـ مظهر العقيدة السليمة والإيمان العميق ، والعكس صحيح .

---

(١) انظر مسلم فى باب تغليظ عقوبة من لم يؤد الزكاة والترغيب فى الصدقة جـ١ ص ٦٨٦ ، ٦٨٧ .

(٢) البقرة آية : ٢٦٠

ومهما كان الإنسان حراً فى تثمير أمواله ، فليست الحرية مطلقة ، الحبل على الغارب ، ولكنها محدودة بحدود ، ومقيدة بتعاليم هذا الدين الحنيف ، الذى جاء ليرفع من قدر الانسان ويعلمه المثالية فى الحياة ، وليوقفه على مضمون حكم القرآن ، حين يقول : ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾[1].

والتقوى إذا تحلى بها الرجل ، عصمته فى السوق - إن كان تاجراً - من الغش والاحتكار والظلم ، والفجور وسوء الاستغلال والجشع .

وعصمته - إن كان مشترياً - من الاختلاس والسرقة والخيانة والغدر والمطل .

والاسلام يدعو إلى الانعاش الاقتصادى ، ولكنه - فى دعوته إلى ذلك - لم ينس العلاقات الاجتماعية بين الأفراد ، ومن التعبيرات الرائجة - الآن أن التجارة لا قلب لها ، وإن كان لها عقل .

ومعنى ذلك إنها بعيدة عن العاطفة ، لا شأن لها بالمبادىء الإنسانية والخلقية ، لأنها لا تهدف إلا إلى الربح ، ولو من أى طريق ولو على حساب الآخرين ، وهذا منطق يتنافى - تماماً - مع مفهوم الإسلام للتجارة ومبادئه الكريمة فى التنمية الاقتصادية .

فالاسلام لا يفصل بين مكان الرجل فى دكانه ، وبين مكانه فى مسجده هو فى كليهما ابن الإسلام ، الذى جاء ليرفع من شأن المثل العليا ، ويعلم الناس الأخلاق العالية الرفيعة .

يحكى عن أبى الحسن السرى السقطى ،وكان من كبار التجار ، أنه قال : منذ ثلاثين سنه ، وأنا فى الاستغفار من قولى : الحمد لله مرة ، قيل له : وكيف ذلك ؟ فقال : وقع ببغداد حريق فى السوق ، التهم حوانيت التجار ، فاستقبلنى رجل ، وقال : نجا حانوتك ، فقلت الحمد لله ، ثم أدركت أننى بهذا قد فرحت بسلامة دكانى واحتراق غيره مما يملكه الناس ، وكان حق الدين والمروءة ، ألا أفرح بذلك فأنا فى الاستغفار منذ ثلاثين سنة عن قولى فى مصائب الناس ونجاتى « الحمد لله » .

هذا مقام صعب المرتقى ، ولكنه يصور إرهاف الشعور الدينى والعمل على أن يفنى المؤمن نفسه لخير المجتمع ، بل هو مثال عال لما يصل إليه ايمان المؤمن من كمال ، مصداقاً لقوله ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »[2] .

لقد كانت خطوات الإسلام فى بنائه لدولته متكاملة ، لا يقدم جانباً على حساب جانب آخر ، فكما يهمه تقدم الدولة اقتصاديا ، يهمه - أيضا - تقدمها دينيا وخلقيا وانسانياً ، وقد استعار الشعراء حكمة النبى ﷺ فى قوله : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق »[3] فصاغوها شعراً فهذا شوقى أمير الشعراء يقول :

فإنما الأمم الأخلاق ما بقيت ... فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

---

(١) الحجرات آية : ١٣

(٢) أخرجه مسلم فى كتاب الإيمان جـ ١ ص ٦٧ رقم ٧١/ ٤٥ ط الحلى

(٣) أخرجه البخارى فى الأدب المفرد برقم ٢٧٣ جـ ١ ص ٢٧١

وهذا حافظ شاعر النيل يقول :

على الأخلاق خطوا الملك وابنو فليس وراءهـا للعـز ركـن

ومن الأسس التى راعاها الإسلام فى دعوته إلى التنمية الاقتصادية ، وجوب العمل الجاد المثمر على هدى وبصيرة من التقدم العلمى وهو فى دعوته إلى العمل ، يحيطه بضمانات قوية تحيله - دائما - لخير الأمة ، وتجعله مسعداً لأبنائها منعشاً لرخائها ، وباعثاً فى أفرادها عوامل الخير والطموح والإنسانية ، ومخلصاً لها من شوائب الأنانية والأثرة .

وقد زكى الاسلام موقف الأنصار المؤثرين فى قوله تعالى : ﴿ **ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون** ﴾[1] .

فأين ما تدعو إليه الدول الغنية - الآن - التى تدل بثرائها ، وتتيه بغناها ، وتعدو بقوتها ، وتعربد بتفوقها ، من هذا الدين السمح الذى قلم أظفار البغى ، وقضى على دوافع الطمع ، وعلم الإنسان كيف يحب أخاه الإنسان ؟

إن التنمية الاقتصادية فى الدول ، التى لا تدين بالاسلام ، هى مجرد زيادة فى الدخل ، وكثرة فى الأموال ، وتكديس للثروات ، وناهيك بما يجره ذلك من صراع عنيف ، فى الأفراد والمجتمعات ، وما يؤدى إليه هذا الصراع من محن وثورات وقتال وتطاحن وحروب ، وما يؤدى إليه من تصرفات حمقاء ، تزيد من غنى الغنى ، وفقر الفقير ، وتدفع إلى مزيد من الجوع والفقر بين أبناء الشعوب النامية والمتخلفة .

والدليل على ذلك أن الفائض من الغلات والثمرات والمنتجات ، قد يلقى فى البحر ، أو يتخلص منه بالاحراق والإبادة ، حتى لا يؤدى وجوده وتسويقه إلى رخص الأسعار ، الذى يؤدى إلى نقص فى دخول هؤلاء الطامعين .

الكسب الحلال وعلاقته بالتجارة :

حرص الاسلام على أن يكون كسب المسلم لمعاشه من طريق الحلال ، ووسائل الكسب الحلال كثيرة ، ولها مجالات متعددة ، وقد دعا الإسلام أهله إلى الطيب من الرزق ، قال تعالى : ﴿ **يا أيها الناس ، كلوا مما فى الأرض حلالا طيباً ، ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين ، إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون** ﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا ، كلوا من طيبات ما رزقناكم ، واشكروا لله ، إن كنتم إياه تعبدون** ﴾[3] .

وقال تعالى : ﴿ **يأأيها الذين آمنوا ، أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ، ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه واعلموا أن الله غنى حميد** ﴾[4] .

---

(١) الحشر آية : ٩

(٢) البقرة الآيتان : ١٦٨ ، ١٦٩

(٣) البقرة آية : ١٧٢

(٤) البقرة آية : ٢٦٧

وقال تعالى : ﴿ **يا أيها الرسل ، كلوا من الطيبات ، واعملوا صالحاً إنى بما تعملون عليم** ﴾[١] . والخطاب للرسل ، خطاب لأممهم أيضا .

وقال تعالى : ﴿ **ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل** ﴾[٢] .

وقال تعالى : ﴿ **إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون فى بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً** ﴾[٣] .

وقال ﷺ : « من سعى على عيال من حله ، فهو كالمجاهد فى سبيل الله ، ومن طلب الدنيا حلالا فى عفاف ، كان فى درجة الشهداء » أخرجه الطبرانى فى الأوسط ، من حديث أبى هريرة[٤] .

وسأل سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه النبى ﷺ كيف يجعله الله مجاب الدعوة ؟ فقال له : «أطب مطعمك ، تستجب دعوتك » اخرجه الطبرانى فى الأوسط ، من حديث ابن عباس.[٥] . وكان يوصى أبناءه قائلا : « إذا طلبت الغنى ، فاطلبه فى القناعة ، فإنها مال لا ينفذ ، واياك والطمع ، فإنه فقر حاضر » .

وسئل سفيان الثورى عن الحلال ، فقال : تجارة برة ، أو عطاء من إمام عادل ، أو صلة من أخ مؤمن ، أو ميراث لم يخالطه شىء » .

« هناك آثار لا تحصى ، تدعو إلى أن يتحرى المسلم الحلال الطيب فى كسبه ، وتحذره من الحرام والشبهات ، وذلك أن الله طيب ولا يقبل من عباده الا طيبا ، ويطلب من عباده أن يكونوا على غاية تامة من الورع ، وصحة الدين ، والقناعة ، وحسن الخلق ، ولكى يطمئنهم على حسن كفالته لهم ضمن لهم رزقهم ، وقال النبى ﷺ مرشداً لهم « اتقوا الله ، وأجملوا فى الطلب »[٦] يعنى أن الله ضمن لكم الرزق ، فاطلبوه من وجوهه الطيبه ، وبأسلوب شريف لا تهالك فيه ولا تكالب عليه .

وليعلم المسلم أن المعصية فى سلوك طريق الكسب مرفوضة ـ تماماً ـ فى منطق الاسلام ، لأنه يسير فى نظامه الاقتصادى وفق عقيدته ، وأوامره صريحة فى ذلك ، والحلال بين والحرام بين .

وأن العبد لمسئول يوم القيامة عن كسبه . فعن أبى برزة الأسلمى عن النبى ﷺ قال : « لا تزول قدما عبد يوم القيامة ، حتى يسأل عن أربع : عن عمره فيم أفناه ، وعن جسمه فيم أبلاه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه وعن علمه فيم فعل »[٧] .

---

(١) المؤمنون آية : ٥١
(٢) البقرة آية ١٨٨
(٣) النساء آية : ١٠
(٤) أخرجه الطبرانى
(٥) مجمع الزوائد جـ١٠ ص ٢٩٥
(٦) أخرجه فى الصحيحين .
(٧) أخرجه الترمذى فى صفة القيامه جـ ٤ ص ٣٦ ٢٥٣٢ ط دار الفكر وقال حسن صحيح

فعلى المسلم - إذن - أن يسلك وسائل الكسب المشروعة ، التى أحلها الله تعالى فى طلب المعاش واكتساب الرزق ، ومن بين ذلك التجارة التى مارسها رسول الله ﷺ قبل البعثة ، وكانت مهنة كثير من الصحابة الأجلاء رضوان الله عليهم .

ومن الأئمة الفضلاء ، الذين كانوا يتاجرون ، أبو حنيفة النعمان أمام المذهب الحنفى ، وقد ضرب المثل الكامل فى الورع والتقوى وله فى ذلك قصص مشهورة وأخبار مذكورة .

ومن القصص التى يرويها عنه الأستاذ/عبد الحليم الجندى فى كتابه عنه : « جاءت عجوز إلى دكانه تطلب ثوباً ، وتوسلت إليه - بسنها - أن يرفق بها ، قال : دونك يا أماه هذا الثوب . قالت بكم ؟ قال : بأربعة دراهم . قالت لا تسخر منى ، أنا عجوز لا حيلة لى . قال إنه لكذلك ، لقد اشتريت ثوبين ، فبعت أحدهما بالثمن كله ، إلا أربعة دراهم ، وهذه الدراهم هى ما أطلبه منك للثوب الباقى .

وإنه ليذهب إلى أبعد من ذلك ، فكان ينصف المشترى من نفسه ، ولا يفكر فى أن ينصف نفسه من المشترى .

جاء رجل بثوب يبيعه ، قال : بكم ؟ قال الرجل : بكذا قال : فإنه يستحق أكثر من ذلك ولم يزل يزيده حتى اشتراه بثمانية آلاف .

بل جاءته امرأة بثوب خز تبيعه بمائة ، فقال لها هو خير من مائة . بكم تقولين ؟ فزادت مائة مائة ، حتى قالت أربعمائة قال : هو خير من ذلك ، قالت : أتهزأ بى ؟ قال : هاتى رجلا فجاءته برجل ، فاشتراه بخمسمائه .

وصدقت المرأة إنه لم يتخذها سخريا ، وصدقت كذلك أنه لم يكن يريد الإحسان إليها ، ولكنه يهدف إلى إنصافها من نفسه ، قبل أن يفكر فى إنصاف نفسه كما يفعل التجار ، بل يعمدون إلى التزييف لأكل أموال الناس بالباطل .

لقد كان أبو حنيفة (رضى الله عنه) على نهج صحابة أجلاء انتفعوا بصحبة رسول الله ﷺ وسيرته الزكية ، وسلوكه العملى القيم فى تجارته ، فقد كان ﷺ نعم الصادق الأمين وصاحب الكلمة الواحدة ، وهو الذى شهد له شريكه فى التجارة فى الجاهلية حيث قال له : كنت نعم الشريك لا تشارى ولا تمارى . وأوصى النبى ﷺ هذا الشريك ، وهو السائب بن عبد الله ، حين جاء يعلن إسلامه بقوله : « يا سائب أنظر إلى أخلاقك التى كنت تصنعها فى الجاهلية ، فاصنعها فى الاسلام : اقر الضيف ، وأكرم اليتيم ، وأحسن إلى جارك (أسد الغابة) . .

قضايا تجارية فى السوق
وموقف الإسلام منها

١ - التسعير :

قال اللغويون : السعر ، الذى يقوم عليه الثمن ، وجمعه أسعار ، وقد أسعروا وسعروا بمعنى واحد : اتفقوا على سعر .

وفى الحديث ، قيل للنبى ﷺ : سعر لنا ، فقال : « إن الله هو المسعر »(١) أى أنه هو الذى يرخص الأشياء ويغليها ، فلا اعتراض لأحد عليه ، ولذلك لا يجوز التسعير ، والتسعير هو تقدير السعر ، بين ابن منظور فى عبارته تلك سبب رفض النبى ﷺ أسلوب التسعير .

وكان النبى ﷺ يحب أن يترك التجار لضمائرهم ، ويريد أن يرتفعوا بأنفسهم عن شهوة المغالاة فى الأسعار ، واستغلال حاجة الجماهير ، وأن يطلبوا السعر من واقع شعورهم الأخوى ، واحساسهم بآلام الناس ، ورفض التسعير لهذه المعانى .

روى القاسم بن مخيمر عن أبى فضلة ، إنهم قالوا للنبى ﷺ فى عام سنة ـ قحط وجدب ـ سعر لنا يا رسول الله ، فقال : « لا يسألنى الله عن سنة أحدثتها فيكم ، لم يأمرنى بها ، ولكن سلوا الله من فضله » .

والبيئة التى قال النبى ﷺ فيها ذلك بيئة إسلامية صحيحة ، يسودها التعاطف والتراحم والرضا والأخوة الصادقة ، وتتقبل كلام النبى ﷺ بايمان وإذعان وتسليم ، فهو تشريع لا يمكن مناقضته ، وقد انتفع المسلمون بهذه التوجيهات السامية ، التى لا تهدف إلا إلى خير المسلمين ، ورفع مستواهم الإيمانى والخلقى ، مثلما تهدف إلى رفع مستواهم الاقتصادى تماماً .

فالكسب المعقول ، الذى لا يمليه الطمع والجشع ، يبارك الله فيه ، ويحرسه وينميه .

فإذا ما رفض النبى ﷺ التسعير ، فذلك لأنه يريد أن يعلم البائع والمشترى دروساً كاملة فى حسن الثقة بالله ، وحسن التوكل عليه ، إنه يريد أن يعلم البائع يقظة الضمير ، حتى لا يسىء استغلال غيره ، ويريد أن يعلم المشترى القناعة واللجوء إلى الله ودعائه ، وعدم التطلع إلى غيره ، وصرف النفس عن رغباتها والرضا بما يعطيه الله لغيره ، من المنافع والمزايا والمكاسب ، وقدوة المسلمين فى ذلك الأنصار ، الذين رضوا بما أعطى الله المهاجرين دونهم ، بل فرحوا بذلك ، وقد زكاهم الله بقوله : ﴿ **ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة** ﴾(٢) .

---

(١) أخرجه ابن ماجه جـ ٢ كتاب التجارات ص ٧٤١، ٧٤٢ برقم ٢٢٠٠ وأخرجه الترمذى برقم ١٣٢٨ جـ ٢ ص ٣٨٨ وقال حديث حسن صحيح

(٢) الحشر آية : ٩

وذلك أنه حينما غنم المسلمون بنى النضير ، قال ﷺ للأنصار : إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم ، ودياركم ، وشاركتموهم فى هذا المال ، وإن شئتم كانت لكم دياركم ، وأموالكم ولم يقسم لكم شىء من الغنيمة ، فقالت الأنصار : بل نقسم من أموالنا ، وديارنا ، ونؤثرهم بالغنيمة ، ولا نشاركهم فيها ، فنقلها الله المهاجرين ، سوى رجلين فقيرين من الأنصار هما : أبو دجانة ، وسهل بن حنيف .

هذا درس من التاريخ ، يعلم الأجيال المتعاقبة : كيف تكون القناعة والإيثار ، والرضا بما قسم الله .

ولكن الحكومات الحديثة ، فى ظل تطورات الصناعة والزراعة والتجارة أدخلت نظماً متعددة ، كان من بينها التسعير ، دعت اليه ظروف مختلفة ، من بينها تنافس المنظمات التجارية فى الدولة الواحدة وفى الدول المنتجة الأخرى ، وظهور ألوان متعددة من سلعة واحدة ، تنتجها شركات كثيرة ، وظهور وسطاء كثيرين يروجون للسلعة ، وظهور فن الدعاية والإعلان المتطور ، الذى يغرى بالإقبال ويدفع إلى الشراء ، إلى غير ذلك من العوامل التى أدت إلى فرض نظام التسعير .

يقول الدكتور صديق محمد عفيفى ، فى كتاب له من التسويق كما تتنافس المنظمات على أساس الجودة ، واستخدامات السلعة ، وخصائها فانها تتنافس ـ أيضا ـ على أساس سعرى ، وعليه فإنه يجب على ادارة السوق انتقاء تلك السياسة السعريه ، التى تتناسب مع الأسواق ، التى يتعاملون معها ، والتى تحقق أهدافهم .

إن عدم الدقة فى التوصل إلى السياسة السعرية المناسبة ، قد يؤدى إلى تحديد أسعار ، قد تكون أعلى أو أقل مما يجب ، ويؤدى ذلك إلى تحقيق الخسارة .

وعادة ما تتحدد الأسعار ، وفقاً للموقف التنافسى ، والظروف الاقتصادية ، والظروف الصناعية الخاصة بالصناعة المعنية ، فقد تخلق الظروف الاقتصادية السيئة الكساد » ما يسمى بسوق المشترين ، أما الظروف المواتية « الرواج » فإنها تخلق ما يسمى بسوق « البائعين » وغالبا ما تنخفض الأسعار فى سوق المشترين ، وترتفع فى سوق البائعين .

ويرتبط ـ كذلك ـ تحديد الأسعار بمقدار التكلفة ، التى ينطوى انتاج السلعة ، حتى يتم حساب التكلفة مع إضافة هامش ربح معقول إليها ، ويكون الأساس فى التسعير ـ كذلك ـ مبنياً على ضرورة الحصول على عائد معين من رأس المال المستثمر .

وكثيراً ما يتأثر التسعير بنوع العلاقة بين الكميات المنتجة والمبيعة فى السوق من ناحية ، وبين الأسعار السائدة من ناحية أخرى ، وعليه فإن الأسعار السائدة تفرض نفسها على الأسعار الخاصة ، وخاصة إذا وجد بين المنتجين من يتمتع بمركز نسبى قوى فى السوق .

وقد تلجأ المنظمات التجارية إلى منطق التجربة فى تسعير منتجاتها وذلك بتغيير الأسعار في مناطق جغرافية معينة ، وقياس أثرها على الكميات المبيعة ، حتى يمكن التوصل إلى أنسب سياسة سعرية .

من ذلك ندرك أن التسعير سياسة ، تلجأ اليها الدول والحكومات أو المنظمات التجارية الآن ، ولها آراؤها ووجهات نظرها ، التى ألمحت إلى طرف منها تلك العبارات المتقدمة .

ومن خلالها ندرك أن الهدف الأساسى من ورائه هو تحقيق الربح الوفير والاستكثار منه ، فقد أصبحت التجارة ـ الآن ـ تمارسها شركات كبيرة ، بل والحكومات نفسها ، التى تخصص للتجارة وزارة لها وزيرها ، وإداراتها المختلفة ، واختصاصاتها المتعددة ، واتصالاتها البعيدة المدى ، والشركات ـ الآن ـ أصبحت تدير تجارتها برأس مال خطير ، له تأثيره فى توجيه سياسة الدولة أحيانا .

وعلى الرغم من ذلك ، فرجال الاقتصاد يدركون أن التسعير عملية صعبة وليست سهلة ، يقول الدكتور مصطفى زهير فى كتابه : « إن من أكثر المشكلات التسويقية صعوبة فى حلها : مشكلة تحديد السعر المناسب ، الذى يبيع به المنتج سلعته .

ولعل منشأ هذه الصعوبة يرجع ـ فى الأصل ـ إلى كثرة المتغيرات ، التى تؤثر فى تحديد أفضل الأسعار ، التى ينبغى البيع بها . وهناك اعتبارات متوعة ، تحكم القرار العملى ، الذى يتخذه المنتج بشأن تحديد السعر ، الذى ينبغى أن يبيع به السلعة ، وثمة طريقتان شائع استخدامهما تسعير السلعة :

١ ـ تحديد سعر التجزئة ، على أساس ما ينفقه المنتج من مصروفات مضافاً إليها مقدار الربح .

٢ ـ تحديد السعر على أساس ظروف السوق ، ومعرفة السعر الذى يراه العملاء مناسباً لشراء السلعة . أ. هـ .

نلاحظ أنه لم يصبح الهدف من وراء التجارة الاستغناء ، كما كان يدعو الإسلام بل أصبح الهدف هو الغنى والجمع والاستكثار .

إن الاسلام الذى يقول : ما قل وكفى خير مما كثر وألهى ، يهمه ـ فى المقام الأول ـ الاستقرار النفسى للمسلم ، وتوفير جزء من وقته لعبادة ربه ، فإن كثرة المال مدعاة للنسيان ، واغراق للمرء فى مشاغل لا تفرغ ، من تبعات التثمير ، وخلافه وربما أدى ذلك إلى الجحود والنكران . . والمثل فى أن فتنة المال طاغية لاهية ، وقارون الذى كان من قوم موسى ، وقص القرآن قصته ، فحينما ذكر بحق الفقراء فى ماله جحد وقال : (إنما أوتيته على علم عندى . .)[1] . وثعلبة بن حاطب ، الذى تحدثت سورة التوبة بقصته ، حين يقول الله تعالى: ﴿ **ومنهم من عاهد الله ، لئن أتانا من فضله لنصدقن ، ولنكونن من الصالحين ، فلما آتاهم من فضله بخلوا به ، وتولوا ، وهم معرضون** ﴾[2] .

إن من مسوغات التسعير ـ الآن ـ ما نراه من جشع شديد فى نفوس التجار ، الذين يغالون فى أسعار السلع ، التى يتجرون فيها ، دون نظر إلى حاجة أغلب الناس ، وحالتهم ، وضعف مستواهم المالى ، وقلة دخولهم ، حتى أصبحت أنفاس هؤلاء تتلاحق ، وهم يرقبون غول الأسعار يفترسهم ، ولا يستطيعون الدفع عن أنفسهم .

(١) القصص آية : ٧٨ (٢) التوبة الآية : ٧٥ ، ٧٦

فمن حق الدولة أن تتدخل ، لتضرب ـ بيد قادرة باطشة ـ على أيدى هؤلاء العابثين بأقوات وأقدار الكادحين من الناس ، ولعل من الطرق التى تقضى على جشع التجار : الكف عن شراء ما يعرضون ، وقديماً قيل لعلى بن أبى طالب (رضى الله عنه) : لقد غلا اللحم . فقال : أرخصوه ، ويقصد بذلك الكف عن شرائه ، فيضطر العارضون ـ حينئذ ـ إلى تخفيض سعره ، ولكن هذه الطريقة تحتاج إلى رأى عام منظم .

٢ ـ الاحتكار :

ومفهومه اللغوى مأخوذ من الحَكْر ، وهو ادخار الطعام للتربص ، وصاحبه محتكر .

قال ابن سيده : الاحتكار : جمع الطعام ، ونحوه مما يؤكل ، واحتباسه انتظار وقت الغلاء لبيعه .

وأُصل الحكر الجمع والإمساك ، وحكره يحكره حكراً : ظلمه وتنقصه وأساء معاشرته ، ففى الاحتكار ـ على هذا ـ ظلم وتنقص وإساءة عشرة ، كما قال الأزهرى .

هذه هى المعانى اللغوية ، التى يتقلب فى ظلها هذا اللفظ ، ومنها يمكن إدراك موقف الإسلام من الاحتكار .

لقد حرمه ، لما فيه من كل هذه المعانى : الاستغلال ، والظلم ، والتنقص وسوء المعاشرة ، والانتهازية ، والمضرة بالغير ، واللجاجة .

أن المحتكر مناع للخير ، معتد أثيم ، مضيق لفضل الله على الناس .

روى سعيد بن المسيب عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : « الجالب مرزوق والمحتكر ملعون »[1] .

والجالب : هو الذى يشترى الطعام للبيع ، فيجلبه إلى بلده فيبيعه فهو مرزوق ، لأن الناس ينتفعون به ، فيناله بركة دعاء المسلمين .

والمحتكر : الذى يشترى الطعام للمنع ، ويضر الناس .

فالاحتكار لا يعترف به الإسلام وسيلة من وسائل الكسب ، وتنمية المال .

قال رسول الله ﷺ : « من احتكر حكرة ، يريد أن يغلى بها على المسلمين فهو خاطىء »[2] . .

والإحتكار فيه إهدار لحرية التجارة والصناعة ، فالمحتكر لا يسمح لسواه أن يجتلب ما يجلبه ، أو يصنع ما يصنعه ، لأنه يريد أن يتحكم فى السوق ، ويفرض على الناس ما يشاء من أسعار ، فيكلفهم العنت والضرر ، ويحملهم المشقة والغرر ، ويرهقهم من أمرهم عسراً .

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى كتاب التجارات جـ٢ ص ٧٢٨ برقم ٢١٥٣

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده ٢/ ٣٥١

ولقد ألح النبى ﷺ كثيراً على تحريم الاحتكار ، وتنمية المال عن طريقه ، وقال فى ذلك : « من احتكر طعاماً أربعين يوما ، فقد برىء من الله ، وبرىء الله منه ، وأيما أهل عرصه « حى » أصبح فيهم امرءاً جائعاً ، فقد برئت منهم ذمة الله » أخرجه أحمد والحاكم[١]

وقال : « بئس العبد المحتكر ، إن سمع برخص ساءه ، وإن سمع بغلاء فرح » .

وهل هناك أسوأ ممن يفرح من مصائب الآخرين ؟ !

وكيف يستسيغ المؤمن التقى النقى فائدة نفسه عن طريق مصيبة غيره ؟ ! وهو الذى يفرض عليه الإسلام أن يفرج كربة المكروب ، وييسر ضيق المعسر ، ويكفكف دمعة المحزون ، ويقيم عثرة أخيه ؟ !

ولذلك كان التاجر الذى لا يحتكر ، كالمجاهد فى سبيل الله ، سواء بسواء ، مصداقاً للأثر الكريم : « الجالب إلى سوقنا ، كالمجاهد فى سبيل الله » .

وقد زكى النبى ﷺ التاجر الذى لا يطمع ولا يشره وقال فى حقه :

« من جلب طعاماً ، فباعه بسعر يومه ، فكأنما تصدق به »[٢] أخرجه الحاكم من حديث اليسع بن المغيره .

وهناك بعض القصص ، التى يمكن أن يتعظ بها المحتكرون ، فيوفرون على أنفسهم عذاب الضمير فى الدنيا ـ إن كان هناك ضمير ـ وعذاب الجحيم فى الآخرة ، يوم يحاسبهم الله على ما اقترفوا من ذنوب فى حق اخوانهم المسلمين .

عن بعض السلف أنه كان بواسط ، فجهز سفينة حنطة إلى البصرة ، وكتب إلى وكيله : بع هذا الطعام يوم يدخل البصرة ، ولا تؤخره إلى الغد . فوافق سعة من السعر ، فقال له التجار : لو أخرته جمعة ، ربحت فيه أضعافه ، فأخره جمعة ، فربح فيه أمثاله ، وكتب إلى صاحبه بذلك : فكتب إليه صاحب الطعام : يا هذا ، إنا كنا قد قنعنا بربح يسير مع سلامة ديننا ، وإنك قد خالفت ، وما نحب أن نربح أضعافه بذهاب شىء من الدين ، فقد جنيت علينا جناية ، فإذا أتاك كتابى هذا ، فخذ المال كله فتصدق به على فقراء البصرة وليتنى أنجو من إثم الاحتكار كفافاً لا على ولا لى .

أى مثالية تلك ؟ ! إنه الدين الذى تخالط بشاشته القلوب ، فيهون كل شىء فى نظر صاحبه ، بجانب رضوان الله .

وان التاجر المحتكر يغتنم فرصة ضائقة المسلمين ، ليغنم كما شاء ، والأمثلة فى واقعنا كثيرة لا حصر لها ، بل إنهم لا يكتفون بالاحتكار فقط ، بل هم يعمدون إلى اخفاء السلع ، فيجتمع على الناس حربان

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده ٢/٣٣ والحاكم فى المستدرك ٢/١١٢

(٢) أخرجه الحاكم فى المستدرك ٢/١٢ إنما هو بلفظ : مر رسول الله ـ ﷺ ـ وآله وسلم ـ برجل بالسوق يبيع طعاما بسعر هو أرخص من سعر السوق . . . . إلى أن قال رسول الله ـ ﷺ ـ « أبشر فإن الجالب إلى سوقنا كالمجاهد فى سبيل الله ، والمحتكر فى سوقنا كالملحد فى كتاب الله »

حرب الضيق وحرب الفقد ، ويكون المال فى يد بعض الناس ، ولكنهم لا يجدون السلعة التى يريدون .

ووصل التفنن بهم فى مضايقة الناس جداً إلى اصطناع الضوائق إن لم تكن موجودة فعلاً ، ولهم فى إثارة الشائعات سلاح وأى سلاح ! أين هذا الخراب الدينى لتعمير دنيا زائلة ، لا بقاء لها ، من تلك المثل الشماء ، التى رأينا صورة منها فى تاجر واسط ، والذى وجد فى عثمان بن عفان (رضى الله عنه) مثله الأعلى . فقد روى ابن عباس (رضى الله عنه) أن الناس قحطوا على عهد أبى بكر الصديق ، فقال أبو بكر لا تمسون ، حتى يفرج الله عنكم ، فلما كان الغد جاء البشير إليه فقال : قدمت لعثمان ألف راحلة تحمل براً وطعاما ، فغدا التجار على عثمان ، فقرعوا بابه ، فخرج إليهم فقال لهم عثمان : ادخلوا فدخلوا ، فإذا ألف وقر قد صب فى دار عثمان ، فقال لهم : كم تربحوننى على شرائى من الشام ؟

قالوا : العشرة اثنى عشر .

قال : لقد زادونى ، قالوا : العشرة أربعة عشر .

قال : لقد زادونى ، قالوا : العشرة خمسة عشر .

قال : لقد زادونى ، قالوا : من زادك ، ونحن تجار المدينة .

قال : لقد زادنى الله لكل درهم عشرة (من جاء بالحسنة ، فله عشر أمثالها) .

قالوا : لا تقدر على ذلك .

قال : فأشهدكم معشر التجار ، إنها صدقة على فقراء المسلمين .

رأى الفقهاء فى الاحتكار .

يقول الدكتور محمد سلام مدكور فى كتابه الاحتكار وموقف التشريع الإسلامى منه ، بعد أن تتبع آراء الفقهاء حوله :

منه ، بعد أن تتبع آراء الفقهاء حوله !

إن الاحتكار المحظور فى الشريعة الإسلامية هو حبس أى شىء ، تشتد حاجة الناس إليه ، ويستعملونه فى حياتهم ، ويتضررون من حبسه عنهم ، ويستوى فى ذلك أن يكون الحبس نتيجة شراء أو اختزان ، أو أن يكون الشراء من مصر أو من غير مصر ، وأن يكون الشىء طعاما أو غير طعام ، ويشمل ذلك ما اشتراه فى وقت الغلاء ، أو فى وقت الرخص ، ليرفع سعره ، ويغليه على الناس عند الضيق والاحتياج .

قال : وهكذا قال أبو يوسف ، صاحب أبى حنيفة كل ما أضر بالناس حبسه ، فهو احتكار ، وإن كان ذهبا أو ثيابا . اهـ ولست أحسب الرأى العام يختلف على ذلك ، بل هو يؤيده ، ويؤيد حجة الإسلام فى قوله : إن المعول عليه ثبوت الإضرار بالناس ، فإن كانت هناك مضارة حرم الاحتكار ،

وإلا فلا يخلو احتكار الأقوات من كراهية ، فإن المحتكر ينتظر مبادىء الضرر ، وهو ارتفاع الأسعار ، وانتظار مبادىء الضرار محذور ، كانتظار عين الضرار ولكنه دونه .

وإلى الراغبين فى الفضل أذكر هذه القصة ، التى ذكرها القشيرى فى رسالته عن السرى السقطى ، قال :

« كان السرى السقطى تاجراً ، واشترى لوزاً ، المكيال بستين ديناراً وكتب عن ربحه ثلاثة دنانير ، وكأنه رأى أن يربح على العشرة نصف دينار . فأتاه الدلال وطلب اللوز ، فقال خذه ، قال بكم ؟ قال : بثلاثة وستين ديناراً ، فقال الدلال : وكان صالحاً ـ صار اللوز بتسعين ، فقال السرى : قد عقدت عقداً لا أحله ، لست أبيعه إلا بثلاث وستين ، فقال الدلال وأنا عقدت بينى وبين الله عقداً ألا أغش مسلماً ، فلا السرى باع ، ولا الدلال اشترى .

الأضرار المترتبة على الاحتكار

الاحتكار يهدر حرية التجارة بتحكمه فى السوق ، حتى أن المحتكر يفرض على الناس ما يريده من سغر قد لا يتناسب معهم فيكلفهم ما يطيقون والاحتكار ـ فضلا عن ذلك ـ يقضى على التنافس الشريف ، الذى يؤدى إلى تجويد العمل ، والتفوق فى الإنتاج .

ويترتب على الاحتكار انتشار كثير من الأمراض النفسية والخلقية والاقتصادية والاجتماعية ، فعنه ينشأ الحقد ، الذى يعمى صاحبه عن الصواب ، ويؤدى إلى الأضطراب والفساد والاعتداء كما يزيد من انتشار الربا والفقر والخراب .

وبوجوده تنعدم المروءة والتعاون ، ويحل محليهما التسابق المحموم فى الأثراء الفاحش بالطرق غير المشروعة ، التى تستغل حاجة الناس ، فقد يلجأ بعضهم إلى احتكار الأدوية بإخفائها وعدم بيعها للمرضى الذين يعانون من المرض ، وقد يتوقف على بعضها حياتهم أو شفاؤهم . هذا وقد أصبح الاحتكار وسيلة سيئة فى يد الدول الغنية ، تلهب به ظهور الشعوب الفقيرة ، وهذه بعض أمثلة للاحتكار الدولى الذى شاع أمره فى العصر الحديث ، نستمدها من كتاب الدكتور مدكور

١ ـ احتكار مصادر السلاح ، وما يتعلق بصناعته من تكنولوجيا متطورة ، وبذلك أصبحت الدول الصغيرة النامية فى قبضة تلك الدول الكبرى ، التى تمتلك مصانع الأسلحة ، وتحتكر إنتاجها وتصديرها وتطويرها .

٢ ـ نظام الشركة القابضة ، وهى التى تسيطر على الشركات الأخرى ، عن طريق شراء الأعضاء فى تلك الشركات ، وبذلك تستطيع فرض ما تريده من أسعار ، لما ينتج فى هذه الشركات

٣ ـ اتحاد الثمن وهو اتفاق المنتجين لسلعة ما فيا بينهم على تحديد الثمن أو كمية الإنتاج رغبة فى الحصول على أعلى سعر ممكن .

٤ - التجويع ، وذلك بأن تقوم الدول الاستعمارية ، التى تنتج السلع الغذائية ، كالقمح ، والذرة ، والأرز ، وغيرها ، باحتكار تلك المحصولات لصالحها اقتصادياً وسياسياً .

وهناك صور أخرى للاحتكار العالمى ، وكلها يتنافى مع المبادىء الإنسانية ، التى تزعم تلك الدول أنها أنشأت هيئة الأمم المتحدة من أجلها .

ولا نجاة للدول الفقيرة والنامية من براثن الوحوش المفترسة إلا بأن تدبر أمرها ، وتتخلص فيما بينها من خلافات ، وتفكر الأمم الإسلامية فى مبادىء دينها جيداً ، لتعود إليه ، وتتجه فى نية خالصة إلى الله ، حتى يلهمها الطريق السليم ، الذى تسير فيه نحو مستقبل واضح وإلى غد مشرق ، بالعمل الدائب ، والتعاون الصادق ، والإخلاص الكريم ﴿ **ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز** ﴾[1]

٣ - الغش

أخرج مسلم فى صحيحه ، من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : « مر النبى ﷺ برجل يبيع طعاما فأعجبه ، فأدخل يده فيه فرأى بللا ، فقال ما هذا ؟ ! قال أصابته السماء فقال ، فهلا جعلته فوق الطعام ، حتى يراه الناس ، من غشنا فليس منا »[2]

وروى ابن الأثير ، عن عم عمير بن سعيد قال خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى البقيع ، فقال من غشنا فليس منا (أسد الغابة)

النهى فى الحديث الثانى منصرف إلى مطلق الغش ، فى التجارة وغيرها وحديث أبى هريرة قيده بالغش فى التجارة ولكن الغش محرم مطلقا ، والعبرة فى حديث أبى هريرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، وهذه قاعدة أصولية .

لا يرضى الإسلام عن الغش فى أى وجه من وجوه الحياة ، وبصفة أخص فى السوق الإسلامية ، التى يجب أن يكون التعامل فيها مبنياً على الصدق والمصارحة .

فمن الآداب التى يجب أن يتحلى بها التجار فى أسواقهم عدم الغش ، وذلك بأن يبينوا للمشترى ما ظهر وما خفى من بضائعهم ، وعلى التاجر ألا يكتم منها شيئاً ، فإن أخفى أقل عيب منها كان غاشاً ، وكان تاركاً للنصح فى المعاملة .

والنصح واجب ، بل الدين هو النصيحة كما قال المصطفى ﷺ فى حديثه الشريف .

يقول الغزالى : مهما أظهر التاجر أحسن وجهى الثوب وأخفى الثانى كان غاشاً ، وكذلك إذا عرض الثياب فى المواضع المظلمة ، وكذلك إذا عرض أحسن فردى الخف .

---

(١) الحج الآية : ٤٠

(٢) أخرجه مسلم جـ١ ص ٩٩ برقم ١٦٤ / ١٠٢ وأخرجه ابن ماجه برقم ٢٢٢٥ جـ١ ص ٧٤٦

ويقول : ومما يدل على وجوب المناصحة بإظهار العيوب ماروى أن النبى ﷺ لما بايع جريراً على الاسلام . ذهب لينصرف فجذب ثوبه ، واشترط عليه النصح لكل مسلم ، فكان جرير إذا قام إلى السلعة يبيعها بصر عيوبها ، ثم خيره ، وقال : إن شئت فخذ ، وإن شئت فاترك ، فقيل له : إنك إذا فعلت مثل هذا لم ينفذ لك بيع ، فقال : إنا بايعنا رسول الله ﷺ على النصح لكل مسلم .

لقد فهم أصحاب رسول الله ﷺ أن من حق المسلم على المسلم أن يحب له ما يحبه لنفسه ، ويرضى له ما يرضاه لنفسه ، وهذا من علامات الإيمان ، فإن رضى لنفسه شيئا لا يرضاه لغيره ، فهو منافق ، وكذلك البائع إذا رضى لنفسه أن يكسب من أخيه كسباً زائداً ، عن طريق إخفاء عيب من عيوب سلعته ، فهو خائن للأمانة ، مناقض لصفة الإيمان التى بينها النبى ﷺ قال الغزالى : ولن يتيسر فعل ذلك على العبد ، إلا إذا كان يعتقد أمرين :

أحدهما : أن تلبية العيوب ، وترويج السلعة ، لا يزيد فى رزقه بل يمحقه ، ويذهب بركته ، وما يجعله من مفرقات التلبيسات ، يهلكه الله .

وفى لسان العرب من كسب مالاً من مهاوش ، أنفقه فى نهابر والمهاوش : مكاسب السوء ، والنهاوش : النهش من كل مكان ، والنهابر : الحرام . يقول : من اكتسب مالاً من غير حله ، أنفقه فى غير طريق الحق .

وحكى أبو حامد الغزالى قصة رجل ، كانت له بقرة يحلبها ، ويخلط بلبنها الماء ويبيعه فجاء سيل ، فأغرق البقرة ، فقال بعض أولاده : إن تلك المياه المتفرقة ، التى صببناها فى اللبن أجتمعت دفعة واحدة ، وأخذت البقرة .

وكما أن البائع مطالب بعدم الغش ، فإن المشترى ـ كذلك ـ مطالب بالصدق فى معاملته مع البائع ، فعليه ألا ينتهز غفلة البائع أو انشغاله وسهوه وخطأه ، والنبى ﷺ يقول فيما يرويه عنه حكيم بن حزام : « البيعان إذا صدقا ونصحا ، بورك لهما فى بيعهما ، وإذا كتما وكذبا ، نزعت بركة بيعهما »[(١)]

والأمر الثانى : وجوب العلم أن ربح الآخرة خير من ربح الدنيا ، مهما كثر وأزهر . قال تعالى : ﴿ بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى ﴾[(٢)] ويقول : (ما عندكم ينفد وما عند الله باق)[(٣)]

غش العلامات التجارية !

نتيجة لتقدم الصناعة وتطورها تميزت بعض المصانع والشركات بخصائص فى إنتاجها ، وجدت إقبالاً من الناس ، وحرصاً على اقتناء ما تنتجه ؟ لجودته أو نقائه ، أو مناسبته ، أو غير ذلك من أسباب التفضيل .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه ٩٤/٣ كتاب البدع بال (هل يبيع حاضر لباد بغير أجر ، وهل يعينه أوينصحه)

(٢) الأعلى الآيتان : ١٦ ، ١٧

(٣) النحل الآية ٩٦

والمشترى ـ عادة ـ يبحث عن العلامة التجارية ، التى تميز هذا الإنتاج عن غيره ، فإذا لم يجدها أعرض . لذلك تلجأ الشركات المقلدة إلى وضع العلامة ، التى تدل على إنتاج تلك المصانع لتروج .

وهذا نوع من الغش ، لا شك فيه ، ويدخل فى حظيرة الممنوعات لأنه يبيع نوعاً غير جيد على أنه جيد ، ويكون شأنه كشأن من خلط اللبن بالماء ، أو خلط اللحم الميت بالمذبوح ، أو باع القديم على أنه جديد .

٤ ـ التطفيف

وهو نوع من الغش ، وقد توعد الله سبحانه وتعالى أصحابه بسوء المصير قال تعالى : ﴿ **ويل للمطففين ، الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ، ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم يوم يقوم الناس لرب العالمين** ﴾

جاء فى لسان العرب لابن منظور : التطفيف : البخس فى الكيل والميزان ونقص المكيال هو ألا تملأه إلى أحباره ـ أى نهايته ـ ومعناه فى الآية الكريمة التطفيف : نقص يخون به صاحبه فى كيل أو وزن ، وإنما سمى الفاعل منه مطففاً ، لأنه لا يكاد يسرق فى المكيال والميزان ، إلا الشىء الخفيف الطفيف .

وقد فسر القرآن الكريم المطففين : أنهم يوفون لأنفسهم ، ولا يوفون لغيرهم ، وفى ذلك من الأنانية والظلم ما فيه . وقال ابن كثير المراد بالتطفيف ـ هنا ـ البخس فى المكيال والميزان إما بالازدياد ، إن اقتضى من الناس ، أو بالنقصان ، إن قضاهم واستشهد القرطبى فى تفسيره على تحريم التطفيف ، بما رواه ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى ﷺ حيث قال خمس بخمس : ما نقض قوم العهد ، إلا سلط الله عليهم عدوهم ، ولا حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر ، وما ظهرت الفاحشة فيهم إلا ظهر فيهم الطاعون ، وما طففوا الكيل ، إلا منعوا النبات وأخذوا بالسنين ولا منعوا الزكاة ، إلا حبس الله عنهم المطر »[1] أخرجه البزار ومالك .

وحكى القرطبى ما رواه مالك بن دينار قال : دخلت على جار لى ، وقد نزل به الموت ، فجعل يقول : جبلين من نار ، فقلت : ما تقول ؟ أتهجر ؟ (أى أتهذى) قال : يا أبا يحيى ، كان لى مكيالان ، أكيل بأحدهما ، واكتال بالآخر ، قال : فقمت فجعلت أضرب أحدهما بالآخر ، حتى كسرتهما ، فقال يا أبا يحيى ، كلما ضربت أحدهما بالآخر أزداد عظما ، قال ! فمات من وجعه .

وهذا تعجيل بالعقوبة فى الدنيا قبل الآخرة ، ليعاين الناس صدق الوعيد فيتعظوا وكان ابن عمر رضى الله عنهما يمر بالبائع ، فيقول له : اتق الله وأوف الكيل بالقسط ؟ فإن المطففين يوم القيامة يوقفون حتى أن العرق ليلجمهم إلى انصاف آذانهم .

---

(١) أخرجه : الطبرانى ٤٤/١١ والهيثمى فى مجمع فى مجمع الزوائد ٦٥/٣ والمنذرى فى الترغيب والترهيب ٥٤٤/١

وكان الخلفاء الراشدون ، ومن سار على نهجهم من الحكام المصلحين ، يعتبرون هذه مسئوليتهم الخاصة ، فكانوا يمرون بالأسواق ينصحون الباعة ، ويحذرونهم من الغش والتطفيف . جاء فى الطبقات الكبرى لابن سعد أن علياً رضى الله عنه أمير المؤمنين كان يخرج إلى الأسواق ، ويأمرهم بتقوى الله وحسن البيع ، ويقول : أوفوا الكيل والوزن ، ويقول لا تنفخوا اللحم . ومن مبالغة علىٍّ فى الورع ، كان يشترى ممن لا يعرفه ، خشية المجاملة ، وكان النبى ﷺ يوصى - دائماً - بحسن المعاملة فى البيع والشراء ومن نصائحه الشريفة فى ذلك : « رحم الله امرءاً سمحاً إذا باع ، واذا اقتضى »(١)

وقال صاحب كتاب أسد الغابة وروى سيمويه البلقاوى ، قال : رأيت النبى ﷺ وسمعت من فيه إلى أذنى ، وحملنا القمح من البلقاء إلى المدينة ، فبعنا ، وأردنا أن نشترى تمراً من تمر المدينة ، فمنعونا ، فأتينا النبى ﷺ فأخبرناه ، فقال للذين منعونا : « أما يكفيكم لأخص هذا الطعام بغلاء هذا التمر الذى يحملونه ؟ ! ذرهم يحملوه »(٢) .

وكان سيمويه هذا من أهل البلقاء نصرانيا شماساً ، فأسلم وحسن إسلامه ، وعاش مائة وعشرين عاماً .

فانظر إلى حسن المعاملة ، كيف هدت الشماس إلى الإسلام ، وفى القصة دلائل على الإيفاء ، يدعوا إليه هذا الأسلوب الاستفهامى الذى ينكر على أهل المدينة عدم المقابلة بالمثل !

قال الغزالى فى إحيائه : وللتطفيف صور أخرى - غير ما مر - فكل من خلط بالطعام تراباً ، أو غيره ، ثم كاله ، فهو من المطففين فى الكيل .

وكل قصاب وزن مع اللحم عظما أو دهنا ، لم تجر العادة بمثله ، فهو من المطففين فى الوزن .

ويقاس على هذا إضافة اللبن إلى الماء ، وهو تعبير مناسب لما يحدث فى هذه الأيام ، وكان المطففون - قديما - يضيفون الماء إلى اللبن ، هذا إلى جانب كونه غشاً ، ففيه تطفيف فى الكيل ، فقد جمع البائع بين نقيصتين .

ونفخ اللحم تطفيف ، لأنه يغرى المشترى بسمن الذبيحة ، وهى عجفاء وعدم تصفية اللحم من الماء جيداً ، عند وزنه للمشترى تطفيف ووضع الورق السميك مع اللحم وغيره من السلع تطفيف ، وفيه بيع الماء والورق بسعر اللحم .

والتقتير فى القياس عند بيع القماش تطفيف فى المقاس ، وكل ذلك يدخل فى دائرة المنهى عنه ، المتوعد عليه بسوء العاقبة .

٥ - التزييف :

ويلتحق - بذلك - التزييف ، وهو من الزيف ، يقال : زافت عليه دراهمه ، أى صارت مردودة

---

(١) أخرجه ابن ماجه برقم ٢٢٠٣ جـ ٢ ص ٧٤٢

(٢) أخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير ٧ / ٢٠١ وانظر الجوامع رقم ٤٢٩٩

لغش فيها والتزييف : نوع من الغش ، قد يقع من البائع ومن المشترى أما كونه من البائع ، فإنه يخفى عيوب سلعته ، ويروج لها ، ويبيعها على أنها جيدة وهى رديئة ، أو أنه يبيع سلعة على أنها من صنع معين ، وهي ليست من ذلك الصنع ، أو أنه يخفى سعر الوقت ، الذى يباع به من صنف من الأصناف ، ويظهر سعراً لا يباع به فى مثل ذلك الوقت ؟ أو أنه يقبل المناجشة ، وهى أن يتقدم رجل إلى البائع بين يدى الراغب فى الشراء ، ويطلب السلعة بزيادة وهو لا يريدها وإنما يريد تحريك رغبة المشترى فيها .

وفسر النصر بن شميل النجشى بأنه مدح سلعة الغير لبيعها ، أو ذمها لئلا تنفق عنده . وهو من قبيل التزييف وقد نهى النبى ﷺ بقوله : « ولا تناجشوا » . وأما كونه من المشترى ، فقد يجهل البائع السعر الحقيقى ، الذى يعرف المشترى قيمته ، فيخفيه عن البائع انتهازاً لغفلته ، فيشترى بسعر أقل من السعر الحقيقى وقد يكون بإعطاء البائع نقداً زائفاً وقد نهى الإسلام عن ترويج النقود الزائفة والزعم بأنها صحيحة .

وترويج النقد الزائف ظلم يعم ضرره بوقوعه فى يد الناس ، وتداوله بينهم ووزر ذلك واقع على من فتح بابه أولاً .

روى الغزالى فى احيائه عن بعض الصالحين : انفاق درهم زيف أشد من سرقة مائة درهم ؟ لأن السرقة معصية واحدة ، وقد تمت وانقطعت ، وإنفاق الزيف بدعة أظهرها فى الدين . وقد تعدى الزيف حدود المال ، إلى تزييف الأوراق الرسمية المختلفة ، وهناك عصابات خصصت وقتها ، ووقفت جهدها على ذلك ، وفى ذلك من الفساد ما فيه ، وما أعظم الضرر ، حين نضع الثقة فى عالم ، أو طبيب ، أو صيدلى ، ثم يتضح بعد فوات الأوان أن شهادته ، التى سوغت له عمله الذى يقوم به زائفة .

ولا عصمة من ذلك إلا الضمير الخلقى ، الذى يثيره الدين الصحيح والتمسك بعروته والاعتصام بحبله .

وانظر الى الضمير الخلقى ، حين يحيا فى نفس صاحبه ، كيف يفعل ؟! اقرأ هذه القصة :

« كان بعض التابعين بالبصرة ، وله غلام بالسوس ، يجهز إليه السكر ، فكتب إليه غلامه : إن قصب السكر قد أصابته آفة فى هذه السنة ، فاشتر السكر ، فاشترى سكرا كثيرا ، فلما جاء وقته ربح فيه ثلاثين ألفاً . فانصرف إلى منزله ، وفكر ليلته ، وقال : ربحت ثلاثين ألفاً ، وخسرت نصح رجل من المسلمين ، فلما أصبح غدا إلى بائع السكر ، فدفع إليه ثلاثين ألفاً ، وقال له : بارك الله لك فيها . فقال بائع السكر : ومن أين صارت لى ؟ فقال : إنى كتمتك حقيقة الحال ، وكان السكر قد غلا فى ذلك الوقت ، الذى اشتريت منك فيه ، فقال البائع : رحمك الله ، وقد أعلمتنى الآن ، وأنا قد طيبتها لك . فرجع الرجل إلى منزله ، وتفكر أيضاً وبات ساهرا ، وقال : ما نصحته ، فلعله استحيا منى ، فتركها لى ، فبكر إليه من الغد وقال : عافاك الله . خذ مالك اليك ، فهو أطيب لقلبى ، وأصر على ذلك . فأخذها .

٦ ـ الوساطة والسمسرة :

من الوساطة والسمسرة ما هو مقبول ومردود .

والسمسار : معناه الذى يبيع للناس ، هو الوسيط بين البائع والمشترى . وهو لفظ عربى .

جاء فى كتاب شرح ثلاثيات مسند أحمد تفسير لقول النبى ـ ﷺ ـ « لا يبع حاضر لباد » نذكر منه ما جاء عن السمسرة والوساطة .

قال : قد يقدم على البلد انسان من غير أهلها ، ليبيع سلعة بسعر يومها ، وهو جاهل بالسعر ، ويكون الناس إلى هذه السلعة فى حاجة ، فيقصده إنسان مقيم بالبلد ، عارف بالسعر ، ليبيع له ، أو يبصره بالسعر ، فالنهى منصرف إلى ذلك والبيع ، الذى يتم على ذلك ، باطل .

إلا أنه لابد أن تتوافر هذه الشروط :

أن يكون البادى قادماً للبيع ، وهو جاهل بالسعر .

أن يكون الحاضر متوجهاً إليه ، ليبيع له أو يبصره بالسعر .

أن يكون للناس حاجة إلى هذه السلعة .

فإن فقد شرط مما ذكر .

بأن قدم لا ليبيع سلعته ، أو ليبيعها ، ولكنه لا يجهل السعر . أو جهله ولكن الحاضر لم يقصده أو قصده وكان غير عارف بالسعر ، أو كان كذلك ، ولم يكن الناس فى حاجة إلى السلعة ، صح البيع ، كشراء الحاضر للبادى .

أما إذا وجدت الشروط ، فالبيع باطل على الأصح فى أغلب المذاهب .

نص عليه الإمام أحمد فى رواية اسماعيل بن سعيد .

وكذلك الإمام مالك على إحدى روايتين له ، أما الرواية الأخرى عنه : يفسخ العقد عقوبة ، وروى عنه لا يفسخ .

وهو مكروه عند أبى حنيفة والشافعى مع صحته .

ولا يخفى القول ببطلان البيع لظاهر الحديث .

والعلة فى هذا النهى أن البادى إذا ترك يبيع سلعته ، ربما باعها برخص ـ وهو الغالب ـ فتحصل التوسعة على الناس ، وبخاصة هم فى حاجة إلى السلعة بخلاف ما لو باعها الحاضر ، فإنه لا يبيع إلا بسعر البلد .

وقد أشار إلى ذلك النبى - صلى الله عليه وسلم - بقوله : « دعوا الناس يرزق بعضهم من بعض »[1] .

أى اتركوا الناس على حالهم ، فى بيعهم وشرائهم ، يرزق الله بعضهم من بعض ، بسبب التساهل من البعض ، وسماحة البعض .

ورورى البخارى والنسائى عن أنس ، قال : « نهينا أن يبيع حاضر لباد ، وإن كان أخاه لأبيه وأمه »[2] .

وروى أبو داود والنسائى ، أن النبى صلى الله عليه وسلم : « نهى أن يبيع حاضر لباد ، وإن كان أباه أو أخاه »[3] .

فهذه الأحاديث وغيرها ، مع تنوع مخارجها ، وتباين طرقها مع اتحاد معناها ، تدل دلالة قاطعة على ما ذهب إليه الإمام أحمد ، لأن النهى ورد عن نفس البيع .

أما إذا أشار الحاضر على البادى ، ولم يباشر البيع ، لم يكره ، خلافاً لمالك .

ويتوجه إن استشاره ، وهو جاهل بالسعر ، لزمه بيانه لوجوب النصح كما فى حديث السائب الذى رواه الطبرانى بإسناد صحيح « دعوا الناس يصيب بعضهم من بعض ، فإذا استنصح أحدكم أخاه ، فلينصحه ، وفى الحديث « فلا تشعروا ولا تقلقوا الركبان ، ولا يبع حاضر لباد »[4] .

المقصود بعبارة : مَلِقى الركبان ؟ هو أن يستقبل الرفقة ، ويتلقى المتاع ، ويكذب فى سعر البلد .

وهذه هى الوساطة المنهى عنها ، أما إذا كانت الوساطة من أجل تقريب وجهات النظر بين البائع والمشترى ، وتيسير مهمة التبايع بينهما ، دون غش لأحدهما أو ممالأة لأحدهما على الآخر ، فلا بأس بذلك ، فإنه من قبيل الدلالة على الخير .

وقد اتسعت وظيفة الدلال فى الوقت الحاضر ، وتعقدت مهمته ، وأصبحت للدلالة مكاتب خاصة معترف بها رسمياً ، تمارس كافة التسهيلات بين المتبايعين ، وهناك فى الأسواق ما يسمى بادارة البيع تختص بالمجهودات الشخصية ، أو غير الشخصية ، التى تبذل لحث العميل المرتقب على شراء

---

(١) أخرجه الهيثمى فى مجمع الزوائد ٤/٨٣ وانظر صحيح مسلم البيوع رقم ٢٠ والترمذى رقم ١٢٢٣ والنسائى فى البيوع باب ١٧ ، وابن ماجه ٢١٧٦ ومسند أحمد ٣/٣٠٧ ، ٣٨٦ والبيهقى فى السنن الكبرى ٥/٣٤٦ ٣٤٧

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (كتاب البيوع) باب : هل يبيع حاضر لباد ؟ ٣/٩٤ باختصار

(٣) أخرجه أبو داود فى سننه (كتاب البيوع والإجارات) باب أفى النهى أن يبيع حاضر لباد ٣/٧٢٠ رقم ٣٤٤٠ وأخرجه النسائى فى البيوع ، باب (بيع الحاضر للبادى) بإسناد ثقات

(٤) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده ٤/٢٥٩ وأخرجه الأسبانى فى الصحيحة رقم ١٨٥٥

سلعة ، أو تقديم خدمة له ، ومساعدته على الشراء ، أو على تقبل فكرة لها أهمية تسويقية عند البائع .

والإسلام لا يمنع إلا ما يتنافى مع الصدق فى المعاملة ، فالوسيط مقبول عمله إن راعى جانب الإخلاص ، ودل على الخير ، وهو مردود إن روج الفاسد وتستر على الزائف ، ودعا إلى الخبيث ، وغش أحد الطرفين .

أما أجرة الدلال ، فقد قال الغزالى عن قتادة : إنها مكروهة ، ولعل السبب فى الكراهة قلة استغناء الدلال عن الكذب ، والإفراط فى الثناء على السلعة لترويجها ، ولأن العمل فيه لا يتقدر ، فقد يقل ولا يكثر ، ولا ينظر فى مقدار الأجرة إلى عمله ، بل إلى قدرة قيمة البيع . . . هذه هى العادة ، وهو ظلم ، بل ينبغى أن ينظر إلى قدر التعب . (الاحياء ٥/٧٩٤) .

وعلى هذا فلو صدق الدلال ، واقتصد فى ثنائه ، ولو اتفق على أن يكون الأجر مناسباً للعمل ، فقد خرج الأجر عن دائرة الكراهة .

٧ ـ الدعاية والإعلان :

أصبحت التجارة فناً وعلماً ، يقوم على مدارسة السوق ، ومعرفة حاجة الجماهير ، وعاداتهم ، وتقاليدهم ، وطرق معيشتهم ، وما يرضى أذواقهم ، ويجذب اهتماماتهم .

ولذلك تطورت وسائل البيع وترويج السلع ، ونشأ ما يسمى بفن الاعلان والدعاية ، وأصبح ذلك من أهم أدوات التسويق ، التى تقوم على المنافسة .

وربما كان هناك فرق بين الدعاية والإعلان . فالإعلان هو إيذان وإعلام بالسعة ، أما الدعاية فهى الاغراق فى وصفها ، والترويج لها ، عن طريق التفنن فى إبراز محاسنها ، وربما ترتب على ذلك الغض من شأن غيرها ، أو التستر على العيوب الموجود فى السلعة المدعو لها .

وهى بهذه الصورة تدخل فى نطاق المحظور ، لأن الإسلام لا يرضى فى التجارة إلا المناصحة والمصارحة والصدق .

وكان الإعلان قديما يتم بطرق بدائية لا تتعدى الضرب بالطبول ، أو إطلاق المنادين . الذين يؤذنون فى الناس بقدوم التجارة ، وقد يلجأ البائع نفسه إلى الإعلان عن بضاعته بصوته ، كما يحدث من البائعين الجائلين .

أصبح النشاط الإعلانى يتناول وجوها متعددة ، وتبذل فيه جهود مختلفة ، تشمل دراسة السوق ، وتعميم الحملات الدعائية ، واختيار الوسائل الملائمة ، وتخصيص الأموال اللازمة لتغطية نفقات النشاط ، وقد تكثر هذه الأموال ، حتى إنها لتوازى رأس المال . وقد يدخل فى باب الإعلان والدعاية ما يقوم به التاجر من تنسيق دكانه وتجميله ، حتى يصبح آية من آيات الفن ، تسترعى الاهتمام وتجذب

الانتباه ، وعليه بعد ذلك أن يعمل للكسب ، فيقع العبء كله على عاتق المشترى الذى لا حول له ولا قوة .

والذى يهمنا ـ هنا ـ موقف الدين بالنسبة لهذا النشاط الإعلانى الكبير الذى يقع تحت كل سمع وبصر .

الدين يهمه أولا وأخيرا عدم التزييف ، وعدم الإسراف ، وعدم الإضرار بالغير .

وهو لا يقف فى طريق الإعلان ، ما كان الإعلان لا يتنافى مع الصدق والمصارحة والمناصحة ، أما إذا كان الهدف من ورائه التضليل ، فهو نوع من الغش يأباه .

والإعلان المقتصد ، الذى يعلن عن سلعة ـ فى هدوء ـ لا يقع عبئها على المستهلك مقبول ، أما الإسراف الذى يجر إلى تحميل السلعة زيادة فى السعر لتغطية النفقات ، وتحقيق الربح المطلوب ، فهو أمر مردود .

إن الإسلام لا ينفى أن الإعلان ـ الآن ـ ضرورة اقتصادية ، ولكنه ينفى أن تتخذ الصور العارية ، والعبارات النابية ، والملصقات الرخيصة المبتذلة وسيلة للاعلان .

لا بأس أن يكون الإعلان عن السلعة بطريقة عملية ، تلفت إليها الأنظار تلقائيا ، كان تكون « العبوة » من مادة تقى السلعة الفساد ، وأن يكون تصميمها جذابا فيه طرافة وابتكار ، وأن يحسن عرض السلع فى واجهة المحل ونوافذه ورفوفه ، بصورة منظمة أنيقة ، وأن تكون الصور التى تصاحب السلعة مناسبة لتقاليدنا العريقة ، وأخلاقنا الفاضلة ، ومجتمعنا الإسلامى .

فإن صاحب ذلك إعلان إذاعى أو مرئى فليكن فى حدود الكلمة المؤدبة ، والعبارة المهذبة ، والصورة الواضحة الجلية ، فى غير غلو أو إسراف أو إسفاف .

إلى هنا ـ فالإعلان ـ فى حد ذاته ـ أمر مباح تدعو إليه الرغبة فى الربح والزيادة فى الكسب .

أما المثل العليا ، فلها نظرة أخرى فى حساب أهل الورع ، والمتطلعين إلى جنة عرضها السموات والأرض ، وهو ربح لا يعدله مال الدنيا كلها من أولها إلى آخرها .

قال الغزالى فى إحيائه : أول ما يجب على المسلم التاجر ، إن أراد ألا يضر بأخيه المسلم أن يترك الثناء على السلعة .

وكان السلف الصالح يطبقون ذلك عمليا إلى درجة أنهم كانوا لا يشيرون بأى كلمة توحى بالثناء ، ولو كانت ذكراً لله .

يروى الأستاذ عبد الحليم الجندى فى كتابه عن أبى حنيفة ، قائلا : « كان لا يهتبل غفلة الزمان ،

بل إنه ليقطع أبعد الأشواط فى مضمار النصفة ، فلا إعلان ولا شبهة إعلان ، لما قد يكون الإعلان من إيهام . كان الناس فى ذلك العصر حديثى عهد بالنبوة ، تأسرهم الكلمة ، إذا سبقت ، ولو فى السوق ، فكيف بها إذا خرجت من فم الأستاذ ، أو من فم غيره على عينه أو سمعه أو فى ذكائه ، طلب رجل ثوب خز ، فقال لابنه حماد : يا حماد ، أخرج ثوبا فأخرج حماد ثوبا ونشره قائلا : صلى الله على محمد . قال أبوه : مه ، قد مدحته ، ورفض أن يبيعه . .

ويلتحق بالثناء الكاذب على السلعة ، الحلف .

روى مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة : عائل مستكبر ، ومنان بعطيته ومنفق سلعته بيمينه »[1] .

ولقد كان عمر رضى الله عنه يدخل السوق ، فيقول : اللهم ، إنى أعوذ بك من الكفر والفسوق ، ومن شر ما أحاط به السوق . . اللهم ، إنى أعوذ بك من يمين فاجرة وصفقة خاسرة .

٨ ـ المساومة :

السوم عرضى السلعة على البيع ، يقال ساومته سِواما ومساومة مثل جادلته جدالاً ومجادلة .

ويقال : اسنام علىَّ وتساومنا ، وساومت واستمت بالسلعة وعليها ، أى : غالبت .

وذكر لسان العرب حديثا هو « نهى أن يسوم الرجل على سوم أخيه » وفسره بأنه : يتساوم المتبايعان فى السلعة ، ويتقارب الانعقاد فيجىء رجل آخر ، يريد أن يشترى تلك السلعة ، ويخرجها من يد المشترى الأول ، بزيادة على ما استقر الأمر عليه بين المنساومين ، ورضيا به قبل الانعقاد . فذلك ممنوع عند المقاربة لما فيه من الإفساد ، ومباح فى أول العرض .

وقد ورد هذا الحديث ، وهو النهى عن السوم ، بلفظ البيع فى حديث أبى بكر السابق ذكره . فقد قال النبى صلى الله عليه وسلم فيه : « لا يبع الرجل على بيع أخيه ، ولا يخطب على خطبة أخيه »[2] .

والمساومة بمعنى المحادثة فى الثمن بين البائع والمشترى ، ليست ممنوعة ، فهى من طبائع

---

(١) أخرجه الإمام مسلم بوايتين عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ فى كتاب (الإيمان) باب : بيان غلظ تحريم إسبال الإزارة لمن بالعطية وتنفيق السلعة بالحلف ١٠٣/١ .

الأول : برقم ١٠٧/١٧٢ بلفظ ثلاث لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم (قال ابو معاوية : ولا ينظر إليهم) ولهم عذاب أليم : شيخ زان ، وملك كذاب ، وعائل مستكبر »

والثانية برقم ١٠٨/١٧٣ بلفظ : (ثلاث لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم : رجل على فضل ماء بالغلاء يمنعه من ابن السبيل ، ورجل بايع رجلا بسلعة بعد العصر فحلف له بالله لأخذها بكذا وكذا فصدقه ، وهو على غير ذلك ، ورجل بايع إماما لا يبايعه إلا لدنيا ، فإن أعطاه منها وفى ، وإن لم يعطه منها لم يف »

(١) أخرجه البيهقى فى السن الكبرى ٣٤٥/٥

النفوس ، ولكن البائع حين يلتزم بالكلمة الواحدة يريح ويستريح ، وذلك مجرب به فالمتاجر التى تلتزم بأسعارها ، يشعر روادها بالراحة النفسية ، فهم يتخلصون من الشعور بأنهم غلبوا فى الثمن ، أو خدعوا فى السلعة[١]

أما أن تأخذ المساومة طابع الشدة والمشاحة ، فليس ذلك من أخلاق الإسلام فى شىء بل الإسلام يقول : « رحم الله رجلا سمحا إذا باع ، وإذا اشترى ، وإذا اقتضى »[٢] .

وقد كان كثير من السلف الصالح لا يقبل المساومة ـ أصلا ـ راضيا بالقليل الذى يصيبه ، معتقدا أن فيه بركة ، ومن وصايا الإمام على (كرم الله وجهه) للتجار : معاشر التجار ، خذوا الحق تسلموا ، ولا تردوا قليل الربح فتحرموا كثيره .

وقيل لعبد الرحمن بن عوف : ما سبب يسارك ؟ قال : ثلاث ، ما رددت ر بحا قط ، ولا طلب منى حيوان ، فأخرت بيعه ، ولا بعت بنسيئة .

آداب السوق :

وللسوق آدابها ، التى يجب مراعاتها ، ويمكن الاشارة إليها فيما يأتى :

١ ـ لزوم التقوى ، فى الذهاب إلى السوق والإياب منها ، والجلوس فيها للمبايعة ، من حيث عدم الايذاء باليد ، أو اللسان ، أو العين .

يقاس كل هذا على حديث الجلوس فى الطرقات ، الذى رواه أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى ﷺ « إياكم والجلوس بالطرقات ، قالوا : يا رسول الله ما لنا بد من مجالسنا نتحدث فيها ؟ قال : إذا أبيتم إلا المجلس ، فأعطوا الطريق حقها قالوا : وما حقها ؟ قال : غض البصر ، وكف الأذى ، ورد السلام ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر »[٣] .

وما يلزم البائع من ذلك ألا يعنف المشترى ، وألا يضيق الطريق على المارة ببضائعه ومعروضاته ـ كما نرى فى هذه الأيام من شغل الرصيف المعد للمارة ـ وألا يتطلع إلى المشتريات ، وينظر إليهن نظرات مريبة ، أو يطمع فى مغازلتهن .

٢ ـ حسن المعاملة ، فالدين المعاملة ، ويقتضى حسن المعاملة ، العدل وعدم الظلم والإحسان .

---

(١) أخرجه مسلم فى البيوع (الباب الرابع) رقم ٨ والحميدى فى مسنده برقم ١٠٢٦ ، ١٠٢٧ ، ويصف الراية للريلعى ٤/٢١ ومجمع الزوائد ٤/٨١ وحلية الأولياء ٩/١٥٨

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه ٣/٧٥ وهو فى فتح البارى ٤/٣٥٦ والمشكاة برقم ٢٧٩

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه ٨/٦٣ ومسلم فى كتاب (السلام) وأبو داود فى الأدب ، وأحمد ٣/٤٧

والمقصود بالعدل أن يحرص التاجر على أخذ الحق ، وإعطاء الحق . أما الإحسان فهو الفضل والتسامح ، ويتأتى بإنظار المعسر ، وعدم التشديد فى المطالبة تصديقا لقوله تعالى : ﴿ **فإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة** ﴾[١] .

وأخرج مسلم عن أبى اليسر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من أنظر معسرا ، أو ترك له ، حاسبه الله حسابا يسيرا »[٢] .

ويقتضى حسن المعاملة الوفاء بالوعد ، وعدم المطل .

ويقتضى الإحسان فى المعاملة بين البائع والمشترى ، احتمال الغبن المعتدل إن حدث من أحدهما للآخر ، ويدخل هذا تحت قوله صلى الله عليه وسلم رحم الله امرأ سهل البيع ، سهل الشراء »[٣] فالغبن من البائع أن يربح فوق المعتاد ، ومن المشترى أن يعطى أقل من المعتاد .

والكمال ألا يغبن أحدهما الآخر ،ولكن إذا حدث شىء من ذلك فلا يقيم المغبون الدنيا ويقعدها ، بل عليه أن يحتسب ، وقد ورد عن العلماء وقولهم : الصدقة المخفية فى البيع والشراء .

فإن أبى رجع إلى صاحبه فى رفق ويسر ، ولن يضيع حق متى توفر حسن النية فى رده .

٣ ـ مراقبة الله : لا ينسى التاجر أن معاملته مع الله أولا وقبل كل شىء . ويجب أن يكون وهو فى السوق ، قلبه مع الله ، مراقبا له فى معاملاته مع الناس وهذا هو الذى يتحقق فيه قوله تعالى : ﴿ **رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وايتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار ، ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب** ﴾[٤] .

ومثل هذا التاجر قد عقد نيته مع الله ، على أن يكون هدفه من سعيه فى تجارته الاستعفاف لا الاستكثار ، وأن قيامه بتجارته إنما هى خدمة للمجتمع الذى يعيش فيه ، معتقدا أن الحياة قائمة على التعاون والحياة مبنية على تبادل المنافع دون استغلال .

فالناس للناس ، من بدو وحاضرة . بعض لبعض ، وأن لم يشعروا خدم

٤ ـ حسن اختيار نوع التجارة : ومن أجل شعوره بأنه يخدم مجتمعه فعليه أن يختار فى تجارته ما هو ألزم للناس ، وألصق بحاجات الجماهير ، وكلما شرف التاجر ، وارتفعت همته ، أحسن اختيار ما يتاجر فيه .

---

(١) البقرة آية : ٢٨٠

(٢) أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه ٢٣٠٢/٤ رقم ٣٠٠٦/٧٤ من طريق أبى اليسر ، بلفظ : « من أنظر معسر أو وضع عنه أظله الله فى ظله » وأما الحديث المذكور هنا فقد أورده فى إتحاف السادة المتقين ١٠٠/٥

(٣) أخرجه فى مجمع فى مجمع الزوائد ٧٤/٤ ، ١٨/٩ وقال الهيثمى : رواه أبو يعلى ، وفيه راو لم يسم وبقية رجاله وثقوا .

(٤) النور الآيتان : ٣٧ ، ٣٨

٥ ـ المحافظة على الشعائر : وعلى التاجر ألا يشغله البيع عن الصلاة فإذا ما سمع النداء فعليه أن يغلق دكانه ، متوجها إلى المسجد هو والعاملون معه ، ليفرض على الرواد من المسلمين الاقتداء به ، والالتزام بالسلوك الإسلامى الصحيح .

بل لا يقف عند حد إقامة الصلاة ، بل عليه المداومة على ذكر الله سبحانه وتعالى ، فقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : « من دخل السوق فقال لا اله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، يحيى ويميت ، بيده الخير ، وهو على كل شىء قدير ، كتب الله له ألف ألف حسنة »[١] .

وإلى جانب محافظة التاجر على الصلاة ومداومته الذكر ، فعليه أن يقوم بنوافل الإسلام المختلفة ، فضلا عن فرائضه ، فعليه الإكثار من الصدقة ، فإنها كفارة لما يحدث من أخطاء ، والصوم فإنه جنة ، والزكاة وهى مهمة بالنسبة للتاجر .

وزكاة عروض التجارة ، اعتنى ببيانها الفقهاء ، وفصلها العلماء ولها فى كتب الفقه قسم خاص يدل على أهميتها .

ويهمنا هنا الإشارة الى أن الواجب على التاجر فى تجارته ، متى استوفت النصاب والشروط ، ربع العشر ، فى قيمتها لا فى عينها ، ويضم عند التقويم بعضها إلى بعض ، ولو اختلفت أجناسها كما يضم الربح إلى رأس المال .

ونظام الزكاة الإسلامى ، أفضل نظام اقتصادى عرفه الناس ، لأنه لا يوجد فيه الظلم ، الذى يوجد فى النظم البديلة ، التى حلت محله .

٦ ـ اجتناب الشبهات : ولابد للتاجر المسلم من أن يجتنب الشبهات ويحذر منها ، ويغلق أبوابها فكثيرا ما يتعرض التجار لبضائع ، لا يعرفون مصدرها ، من أمثال الذبائح ، التى لا يعرف نوعها ، ولا طريقة ذبحها ، وغير ذلك من السلع المشابهة . فعلى التاجر أن يتحرى عن المصدر والطريقة ، فإن رابه شىء تركه ، فإنه مسئول أمام الله عن ترويج ذلك .

والمشترى لا شىء عليه ، فإنه أخذ من مكان معلوم ، وليس هو مكلفا أن يبحث عن أصل الأشياء ، لأنه وكل أمره الى من اشترى منه ، وهو عنده محل ثقة . فأصبح التاجر فى هذه الحالة راعيا ، وكل راع مسئول عن رعيته ، والنبى صلى الله عليه وسلم يقول : « اتقوا الشبهات ، فمن اتقى الشبهات ، فقد استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع فى الشبهات فقد وقع فى الحرام كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه ألا وإن لكل ملك حمى ألا وإن حمى الله محارمه[٢] الحديث .

---

(١) أخرجه الترمذى برقم ٢٨ ، ٣٤ ، ٢٩ ، ٣٤ والحاكم المستدرك ١/٥٣٨ والدارمى ٢/٢٩٣ وإتحاف السادة المتقين ٥/٥١١ والترغيب والترهيب ٢/٥٣١ وأبو نعيم فى الحلية ٢/٣٥٥

(٢) أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه فى باب (المسافات) رقم ١٠٧/١٥٩٩ ، ١٠٨ والترمذى رقم ١٢٠٥ والبخارى ٧/٣٠ ومجمع الزوائد ٤/٧٣ ، ٧٤ وابن ماجه رقم ٣٩٨٤ والدارمى ٢/٢٤٥ والبيهقى فى السنن الكبرى ٥/٢٦٤ والخطيب فى تاريخ بغداد ٩/٧٠

ونحن ـ الآن فى زمن تعددت فيه منافذ التوريد ، وتشابكت فيه مصادر الأخذ والعطاء ، وفيها وجوه كثيرة تستدعى البحث والدراسة ، حتى لا يختلط الحلال بالحرام والعليب بالخبيث .

٧ ـ توثيق البيع : ومن الآداب الإسلامية التي يدعو إليها الإسلام توثيق البيع ، إما بالشهادة أو الكتابة . وكان النبى صلى الله عليه وسلم يوثق ـ أحيانا ـ ما يبيعه أو يشتريه كتابة ، روى ابن الأثير عن رواته ، قال : حدثنا عبد المجيد بن وهب قال : قال لى المعداء بن خالد : ألا أقرئك كتابا كتبه لى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : قلت بلى . فأخرج لى كتابا : « هذا ما اشترى المعداء بن خالد بن هوذة من رسول الله صلى الله عليه وسلم عبداً أو أمة ، لا داء ولا غائلة ولا خبثة ، بيع المسلم المسلم .

ويحل محل التوثيق بالكتابة الشهادة أو المماسحة .

والمماسحة : هى التصافق باليدين ، يقال متماسح القوم إذا تبايعوا ، فتصافقوا بأن ضرب كل منهم بيده على يد الآخر .

إن هذا التوثيق ـ ومن صورة الفاتورة الآن ـ يفيد كثيرا ، ويمنع المشاحة والجحود فيما بعد .

وفى الأمر بتوثيق البيع بالشهادة ، أو الكتابة ، جاء قوله تعالى : ﴿ **وأشهدوا إذا تبايعتم ، ولا يضار كاتب ولا شهيد ، وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم ، واتقوا الله** ﴾[1] ا . هـ وصلى اللهم على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم . ا .هـ .

أصحاب الجحيم

قوله تعالى : ﴿ **كلا . إن كتاب الفجار لفى سجين ، وما أدراك ما سجين كتاب مرقوم ، ويل يومئذ للمكذبين الذين يكذبون بيوم الدين وما يكذب به إلا كل معتد أثيم إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين ، كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ، كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ثم إنهم لصالوا الجحيم ثم يقال هذا الذى كنتم به تكذبون** ﴾ .

﴿ **كلا** ﴾ أى ازدجروا عما أنتم عليه من التطفيف والغفلة عن الحساب . ثم علل هذا بقوله :

﴿ **إن كتاب الفجار لفى سجين** ﴾ أى كفوا عما أنتم عليه ، فإن الفجار سيحاسبون على

(١) البقرة آية : ٢٨٢

أعمالهم ، وقد أعد الله لهم كتابا أحصى فيه أعمالهم وهذا الكتاب فى أسفل سافلين .

وقوله تعالى : ﴿ **وما أدراك ما سجين** ﴾ استفهام للتعظيم والتهويل أى هل تعلم ما هو سجين ؟ (كتاب مرقوم) أى هو كتاب مكتوب كالرقم فى الثوب ، لا ينسى ولا يمحى ، أثبتت فيه أعمالهم الشريرة . قال ابن كثير (سجين) مأخوذ من السجن وهو الضيق ، ولما كان معيد الفجار إلى جهنم وهى أسفل سافلين ، وهى تجمع الضيق والسفول ، أخبر تعالى أنه كتاب مرقوم أى مكتوب مفروغ منه ،، لا يزاد فيه أحد ولا ينقص منه أحد .

قوله تعالى : ﴿ **ويل يومئذ للمكذبين** ﴾ أى هلاك ودمار للمكذبين .

﴿ **الذين يكذبون بيوم الدين** ﴾ أى يكذبون بيوم الحساب والجزاء ﴿ **وما يكذب به إلا كل معتد أثيم** ﴾ أى وما يكذب بيوم الحساب والجزاء إلا كل ماتجاوز الحد فى الكفر والضلال ، مبالغ فى العصيان والطغيان كثير الآثام . ثم وضح من إجرامه فقال تعالى : ﴿ **إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين** ﴾ أى إذا تليت عليه آيات القرآن الناطقة بحصول البعث والجزاء ، قال عنها : هذه حكايات وخرافات الأوائل ، سطروها وزخرفوها فى كتبهم .

قوله تعالى : ﴿ **كلا . بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون** ﴾ أى ليرتدع هذا الفاجر عن ذلك القول الباطل ، فليس القرآن أساطير الأولين ،بل غطى على قلوبهم ما كسبوا من الذنوب فطمس بصائرهم فصاروا لا يعرفون الرشد من الغى . قال المفسرون : الران هو الذنب على الذنب حتى يسود القلب .

قال الحسن : هو الذنب على الذنب حتى يعمى القلب . قال ابن القيم وأصل هذا إن القلب يصدأ عند المعصية ، فإذا زادت غلب عليه الصدأ حتى يعيد راناً ، ثم يغلب حتى يصير طبقاً وقفلاً وختماً . فيصير القلب فى غشاوة وغلاف . فإذا حصل له ذلك بعد الهدى والبصيرة انتكس فصار أعلاه أسفله فحينئذ يتولاه عدوه ، ويسوقه حيث أراد والمعافى من عافاه الله .

(وفى سنن الترمذى والنسائى من حديث أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن العبد إذا أخطأ . . .) .

وفى سنن ابن ماجه والترمذى من حديث أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ عن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « إن العبد إذا أخطأ خطيئة تكتب نكتة سوداء ، فإن نزع واستغفر وتاب صقل قلبه ، وإن زاد زيد فيها حتى تعلو قلبه . وهو الران الذى ذكره الله تعالى بقوله ﴿ **كلا ، بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون** ﴾ .

قال الترمذى : هذا حديث صحيح فأخبر سبحانه أن ذنوبهم التى اكتسبوها أوجبت لهم ريناً على قلوبهم ، فكان سبب الران منهم وهو خلق الله فيهم . فهو خلق السبب ومسببه ، لكن السبب باختيار العبد ، والمسبب خارج عن قدرته واختياره اهـ

وقوله تعالى : ﴿ كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ﴾ أى : لهم يوم القيامة منزل ونزل سجين ثم هم يوم القيامة مع ذلك محجوبون عن رؤية ربهم وخالقهم .

قال الإمام الشافعى - رحمه الله - هذه الآية دليل على أن المؤمنين يرونه عز وجل يومئذ قال ابن كثير : وهذا الذى قاله الشافعى فى غاية الحسن وهو استدلال بمفهوم الآية كما دل عليه منطوق الآية الكريمة : ﴿ وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ﴾(١) وكما دلت على ذلك الأحاديث الصحاح المتواترة فى رؤية المؤمنين ربهم - عز وجل - فى الدار الآخرة رؤية الأبصار فى عرصات القيامة وفى روضات الجنان الفاخرة .

وقد قال ابن جرير بهذه عن الحسن فى قوله تعالى : ﴿ كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ﴾ قال يكشف فينظر إليه المؤمنون كل يوم غدوة وعشية أو كلاماً هذا معناه ؟

وقوله تعالى : ﴿ ثم إنهم لصالوا الجحيم ﴾ أى : ثم هم مع هذا الحرمان العظيم عن رؤية الرحمن من أهل النيران . ﴿ ثم يقال هذا الذى كنتم به تكذبون ﴾ أى : يقال لهم ذلك على وجه التقريع والتوبيخ والتحقير :

قال تعالى :

كَلَّآ إِنَّ كِتَـٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَـٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَـٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَـٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَـٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

(١) سورة القيامة ٢٢ - ٢٣

معانى المفردات

عليين : أى فى مكان عال

الأرائك : هى الأسرّة فى الحجال (والحجال واحدها حجلة وهى مثل القبة)

نضرة النعيم : بهجته ورونقه

رحيق : أى : شراب خالص لا غش فيه

مختوم : أى ختمت أوانيه وسدت

ختامه مسك : أى : ما يختم به رأس قارورته هو المسك مكان الطين

فليتنافس المتنافسون : المراد فليستبق المتسابقون وليجاهدوا النفوس ليلحقوا بالعاملين .

مزاجه : المزج خلط أحد الشيئين بالآخر

والتسنيم : عين من ماء تجرى من أعلى إلى أسفل وهو أشرف شراب فى الجنة ، ويكون صرّفاً للمقربين ، ممزوجا لأصحاب اليمين وسائر أهل الجنة والمقربون : هم الأبرار الذين سلف ذكرهم .

الغمز : الإشارة بالجفن والحاجب استهزاء وسخرية

فكهين : أى : معجبين بما هم فيه من الشرك والضلالة والعصيان

حافظين : أى : رقباء يتفقدونهم ويهيمنون على أعمالهم

والتثويب والإثابة : المجازاة يقال : ثوبة وأثابة إذا جازاه .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه حال الفجار وحال المطففين أتبعه ذكر حال الأبرار الذين آمنوا وعملوا الصالحات : فذكر أن الله أحصى أعمالهم فى كتاب مرقوم اسمه عليون يشهده المقربون من الملائكة . وبعدئذ عدد ما ينالون من الجزاء على البر والإحسان وفى ذلك ترغيب فى الطاعة ، وحقر لعزائم المحسنين ، ثم بين سبحانه ما كان الكفار يقابلون به المؤمنين فى الحياة الدنيا ، وما يتقابل به المؤمنون الكفار يوم القيامة كفاء ما صنعوا معهم فى الحياة الأولى ليشف صدور قوم مؤمنين ويذهب غيظ قلوبهم .

التفسير

قوله تعالى ﴿ كلا إن الأبرار لفى عليين ، وما أدراك ما عليون كتاب مرقوم يشهده المقربون ﴾

يقول تعالى : حقاً إن كتاب الأبرار لفى عليين ، أى : مصيرهم إلى عليين وهو بخلاف الفجار فكتابهم ومصيرهم إلى سجين .

قال الأعمش : عن شمر بن عطية عن هلال بن يساف قال : سأل ابن عباس كعباً وأنا حاضر عن سجين قال : هى الأرض السابعة وفيها أرواح الكفار وسأله عن عليين فقال هى السماء السابعة وفيها أرواح المؤمنين وقال العوضى : عن ابن عباس فى رواية أخرى أن أعمالهم فى السماء عند الله ـ سبحانه وتعالى ـ وكذا قال الضحاك . وقال قتادة : (عليون) ساق العرش اليمنى ، وقال غيره : (عليون) عند

سدرة المنتهى قال ابن كثير : والظاهر أن عليين مأخوذ من العلو وكلما علا الشىء وارتفع عظم واتسع ولهذا قال تعالى معظما أمره ومفخماً شأنه : (وما أدراك ما عليون) ثم قال تعالى مؤكدا لما كتب لهم : (كتاب مرقوم يشهده المقربون) فأخبر تعالى أن كتابهم كتاب مرقوم ، تحقيقا لكونه مكتوباً كتابة حقيقية وخص تعالى كتاب الأبرار أنه يكتب ويوقع لهم به بمشهد المقربين من الملائكة والنبيين سادات المؤمنين ولم يذكر شهادة هؤلاء لكتاب الفجار ، تنويها بكتاب الأبرار وما وقع لهم به ، وإشهاراً له وإظهاراً لمكانتهم بين خواص خلقه .

قوله تعالى : ﴿ **إن الأبرار لفى نعيم ، على الأرائك ينظرون ، تعرف فى وجوههم نضرة النعيم** ﴾

أى : إن المطيعين لله فى الجنان الواردة ، والظلال الممتدة يتنعمون ﴿ **على الأرائك ينظرون** ﴾ أى : هم على السرر المزينة بفاخر الثياب والستور ينظرون إلى ما أعد الله لهم من أنواع الكرام والنعيم فى الجنة .

قال ابن كثير : وقيل معناه : ﴿ **على الأرائك ينظرون** ﴾ إلى الله ـ عز وجل ـ وهذا مقابل لما وصف به أولئك الفجار : ﴿ **كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون** ﴾ فذكر عن هؤلاء أنهم يباحون النظر إلى الله ـ عز وجل ـ وهم على سررهم وفرشهم كما تقدم فى حديث ابن عمر « إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر فى ملكه مسيرة ألفى سنة يرى أقصاه كما ترى أدناه ينظرون فى أزواجه وخدمه وإن أفضلهم منزلة لمن ينظر فى وجه الله ـ عز وجل ـ فى اليوم مرتين .

وقوله تعالى : ﴿ **تعرف فى وجوههم نضرة النعيم** ﴾ أى : تعرف إذا نظرت إليهم فى وجوههم نضرة النعيم ، أى : صفة الترافة والحشمة والسرور والدعة والرياسة ما هم فيه من النعيم العظيم .

قوله تعالى : ﴿ **يسقون من رحيق مختوم ، ختامه مسك وفى ذلك فليتنافس المتنافسون** ﴾ .

أى : يسقون من خمر فى الجنة ، بيضاء طيبة صافية ، لم تكدرها الأيدى ، قد ختم على تلك الأوانى فلا يفك ختمها إلا الأبرار والرحيق من أسماء الخمر قاله ابن مسعود وابن عباس ومجاهد والحسن قال أحمد بسنده : عن أبى سعيد الخدرى ـ قال ـ أراه قد رفعه إلى النبى ﷺ قال : « أيما مؤمن سقى مؤمناً شربة ماء على ظمأ سقاه الله ـ تعالى ـ من الرحيق المختوم ، وأيما مؤمن كسا مؤمناً ثوباً على عرى كساه الله من خضر الجنة » ؟

وقوله تعالى ﴿ **ختامه مسك** ﴾ قال ابن مسعود أى خلطة مسك وقال مجاهد (ختامه مسك) أى طيبة مسك . والمعنى : إن آخر الشراب تفوح منه رائحة المسك .

قوله تعالى : ﴿ **وفى ذلك فليتنافس المتنافسون** ﴾ أى : وفى هذا النعيم والشراب الهنىء ، فليرغب بالمبادرة إلى طاعة الله ، وليتسابق المتسابقون قال الطبرى : التنافس مأخوذ من الشىء النفيس الذى يحرص عليه الناس ، وتشتهيه وتطلبه نفوسهم والمعنى : فليستبقوا فى طلب هذا النعيم ، لوتحرص عليه نفوسهم .

عن جابر ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رجل للنبى ـ ﷺ ـ يوم أحد أرأيت إن قتلت فأين أنا ؟ قال « فى الجنة » فألقى تمرات كنَّ فى يده ثم قاتل حتى قتل « متفق عليه

قوله تعالى : ﴿ **ومزاجه من تسنيم ، عيناً يشرب بها المقربون** ﴾ أى : عين فى الجنة يشرب منها المقربون فوق درجة الأبرار .

قوله تعالى : ﴿ **إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون ، وإذا مروا بهم يتغامزون وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين ، وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون** ﴾ .

يخبر تعالى عن المجرمين أنهم كانوا فى الدار الدنيا يضحكون من المؤمنين أى : يستهزئون بهم ويحتقرونهم ، وإذا مروا بالمؤمنين يتغامزون عليهم ، أى : محتقرين لهم :

وقوله تعالى : ﴿ **وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون** ﴾ أى وإذا رأى الكفار المؤمنين قالوا : إن هؤلاء لضالون لإيمانهم بمحمد ، وتركهم شهوات الحياة الدنيا . قال الله تعالى رداً عليهم : ﴿ **وما أرسلوا عليهم حافظين** ﴾ أى : **وما أرسل الكفار حافظين على المؤمنين ، يحفظون أعمالهم ويشهدون برشدهم أو ضلالهم ، وفيه تهكم وسخرية بالكفار كأنه يقول : أنا ما أرسلتهم رقباء ، ولا وكلتهم يحفظ أعمال عبادى المؤمنين ، حتى يرشدوهم إلى مصالحهم ، فلم يشغلون أنفسهم فيما لا يعنيهم ؟** (قاله صاحب صفوة التفاسير الشيخ الصابونى) .

قوله تعالى : ﴿ **فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون على الأرائك ينظرون ، هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون** ﴾

أى : ففى هذا اليوم ـ يوم القيامة ـ يضحك المؤمنون من الكفار ، كما ضحك الكفار منهم فى الدنيا جزاء وفاقاً : ﴿ **على الأرائك ينظرون** ﴾ أى : والمؤمنون على أسرة الدر والياقوت ، ينظرون إلى الكفار ويضحكون عليهم وقيل : ينظرون إلى ربهم فى دار كرامته سبحانه وتعالى .

وقوله تعالى : ﴿ **هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون** ﴾ أى : هل جوزى الكفار على ما كانوا يقابلون به المؤمنين من الاستهتزاء والتنقيص أم لا ؟ يعنى قد جوزوا أوفر الجزاء وأتمه وأكمله .

ونحو الآيات الكريمة قوله تعالى فى سورة المؤمنون : ﴿ **قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين ، ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون قال اخسئوا فيها ولا تكلمون ، إنه كان فريق من عبادى يقولون ، ربنا آمنا فاغفر لنا** وارحمنا **وأنت خير الراحمين ، فاتخذتموهم سخرياً حتى أنسوكم ذكرى وكنتم منهم تضحكون إنى جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون ، قال كم لبثتم فى الأرض عدد سنين قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فاسأل العادين قال إن لبثتم إلا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون ، أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون ، فتعالى الله الملك الحق ، لا إله إلا هو رب العرش الكريم ، ومن يدع مع الله إلها آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون ، وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين** ﴾[1]

(١) سورة المؤمنون الآيات : ١٠٦ ـ ١١٨

تفسير سورة
الانشقاق

مقدمة عن السورة :

قال صاحب بصائر ذوى التمييز :

السورة مكية

عدد آياتها : خمس وعشرون آية :

وكلماتها : أربعمائة وثلاث وثلاثون .

فواصل آياتها : (قهرتمان) على الراء (يحور) وعلى الميم (أليم) وتسمى سورة (أنشقت) ، وسورة (الانشقاق) لافتتاحها .

مقصود السورة :

بيان حال الأرض والسماء فى طاعة الخالق تعالى ، وإخراج الأموات للبعث ، والاشتغال بالبر والإحسان ، وبيان سهولة الحساب للمطيعين ، والإخبار عن فرحهم وسرورهم بنعيم الجنان وبكاء العاصين والكافرين ، وويلهم بالثبور فى دركات النيرات ، والقسم بتشقق القمر ، واطلاع الحق على الإسرار والإعلان ، وجزاء المطيعين من غير امتنان ، فى قوله : ﴿ **لهم أجر غير ممنون** ﴾

المتشابهات :

قوله تعالى : ﴿ **وأذنت لربها وحقت** ﴾ مرتين ؟ لأن الأول يتصل بالسماء وحق لها أن تسمع وتطيع ، وإذا اتصل واحد بغير ما اتصل به الآخر لا يكون تكرارا .

قوله تعالى : ﴿ **بل الذين كفروا يكذبون** ﴾ وفى سورة البروج ﴿ **فى تكذيب** ﴾ راعى فواصل اىّ ، مع صحة اللفظ وجودة المعنى .

مناسبة السورة لما قبلها : .

أنه فى السورة السابقة ذكر مقر كتب الحفظة ، وفى هذه ذكر عرضها يوم القيامة .

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ﴿١﴾ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ ﴿٣﴾ وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتۡ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ

كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾

معانى المفردات

(انشقت) أى : تشققت بالغمام كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ **ويوم تشقق السماء بالغمام** ﴾

﴿ **وأذنت لربها وحقت** ﴾ أى : استمعت له ، وحق لها أن تتمثل ذلك .

﴿ **مدت** ﴾ أى : بسطت بزوال جبالها ونسفها حتى صارت قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتا .

﴿ **وألقت ما فيها** ﴾ أى : القت ما فى جوفها من الموتى والكنوز

﴿ **وتخلت** ﴾ أى : خلت مما فيها فلم يبق فيها شىء . (كادح) جاهد مجدّ

﴿ **فملاقيه** ﴾ أى : فملاق له عقب ذلك

﴿ **ينقلب** ﴾ يرجع ، ﴿ **أهله** ﴾ أى : عشيرته المؤمنين

﴿ **وراء ظهره** ﴾ أى : يؤتاه بشماله من وراء ظهره

﴿ **والثبور** ﴾ **الهلاك أى : ينادى ويقول : واثبوراه**

﴿ **يصلى** ﴾ أى : يقاسى

﴿ **سعيرا** ﴾ أى : ناراً مستعرة

﴿ **مسروراً** ﴾ أى : فرحاً

﴿ **يحور** ﴾ أى : يرجع

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **إذا السماء انشقت وأذنت لربها وحقت ، وإذا الأرض مدت وألقت ما فيها وتخلت** ﴾

هذه الآيات بيان لأهوال القيامة ، وتصوير لما يحدث بين يدى الساعة من كوارث وأهوال .

يقول تعالى : ﴿ **إذا السماء انشقت** ﴾ أى : إذا تشققت السماء وتصدعت مؤذنة بخراب الكون .
قال الآلوسى : تنشق لهول يوم القيامة : ﴿ **وأذنت لربها وحقت** ﴾ أى : واستمعت لأمر الله وانقادت لحكمه وحق لها أن تسمع وتطيع أمره لأنه العظيم الذى لا يمانع ولا يغالب بل قد قهر كل شىء وذل له كل

شيء وقوله تعالى : ﴿ **وإذا الأرض مدت** ﴾ أى : وإذا الأرض زادت سعة بإزالة جبالها وآكامها ، وصارت مستوية لا بناء فيها ولا وهاد ولا جبال ﴿ **وألقت ما فيها وتخلت** ﴾ أى : أخرجت أمواتها وتخلت عنهم ، وألقت ما فى بطنها من الكنوز والمعادن كما تلقى الحامل ما فى بطنها من الحمل وذلك يؤذن بعظم الهول ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ **إذا زلزلت الأرض زلزالها وأخرجت الأرض أثقالها** ﴾ وكقوله تعالى : ﴿ **وإذا القبور بعثرت** ﴾ وقوله تعالى ﴿ **وأذنت لربها وحقت** ﴾ أى : واستمعت لأمر ربها وأطاعت وحق لها أن تسمع وتطيع .. وجواب (إذا) محذوف ليكون أبلغ فى التهويل أى : إذا حذف كل ما تقدم ، لقى الإنسان من الشدائد والأهوال ما لا يحيط به الخيال

ثم أخبر سبحانه عن كد الإنسان وتعبه فى هذا الحياة ، وأنه يلقى جزاءه عند الله ـ سبحانه ـ فقال :

﴿ **يأيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه** ﴾ أى : ياابن آدم إنك ساع إلى ربك سعياً وعامل عملاً ﴿ **فملاقيه** ﴾ ثم إنك ستلقى ما عملت من خير أو شر . كما قال تعالى : ﴿ **وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى وأن إلى ربك المنتهى وأنه هو أضحك وأبكى ، وأنه هو أمات وأحيا** ﴾ .

وقال قتادة فى قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه** ﴾ إن كدحك يا ابن آدم لضعيف فمن استطاع أن يكون كدحه فى طاعة الله فليفعل ولا قوة إلا بالله .

أخرج أبو داود الطيالسى بسنده عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ ـ « قال جبريل : يامحمد عش ما شئت فإنك ميت وأحبب من شئت فإنك مفارقه ، واعمل ما شئت فإنك ملاقيه[1]

والناس حينئذ صنفان ! سعيد وشقى قال تعالى : ﴿ **فأما من أوتى كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيرا وينقلب إلى أهله مسروراً** ﴾

أى : فأما من عرض عليه سجل أعماله وتناوله بيمينه ، فإنه يحاسب أيسر الحساب ، إذ تعرض عليه أعماله فيعرف بطاعته وبمعاصيه ثم يثاب على ما كان منها طاعة ، ويتجاوز له عما كان منها معصية ومن حوسب هذا الحساب اليسيررجع إلى أهله المؤمنين مسروراً مبتهجاً قائلاً : ﴿ **هاؤم اقرؤوا كتابيه إنى ظننت أنى ملاق حسابيه فهو فى عيشة راضية فى جنة عالية ، قطوفها دانية كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم فى الأيام الخالية** ﴾ .

قال الإمام أحمد بسند : عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول فى بعض صلاته : « اللهم حاسبنى حساباً يسيراً » فلما انصرف قلت : يارسول الله ما الحساب اليسير ؟ قال : أن ينظر فى كتابه فيتجاوز له عنه ، إنه من نوقش الحساب ياعائشة يومئذ هلك[2] » قال ابن كثير والحديث صحيح على شرط مسلم وقال أحمد أيضا : عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ

---

(١) مسند أبو داود الطيالسى ٢٤٢/٧ رقم ١٧٥٥

(٢) مسند أحمد ٤٨/٦

قالت : قال رسول الله ﷺ - « من نوقش الحساب عذب » قالت : فقلت : أليس قال الله تعالى : ﴿ **فسوف يحاسب حسابا يسيراً** ﴾ قال : ليس ذاك بالحساب ولكن ذلك العرض ، من نوقش الحساب يوم القيامة عذب وهكذا رواه البخارى ومسلم والترمذى وابن جرير من حديث أيوب السختيانى به[(١)]

قوله تعالى ﴿ وأما من أوتى كتابه وراء ظهره فسوف يدعوا ثبورا ويصلى سعيرا ﴾

أى : وأما الذين أكثروا من ارتكاب الجرائم ، واجتراح المعاصى ، فيؤتون كتبهم بشمائلهم من وراء ظهورهم ، وهذه علامة الشقاوة ﴿ **فسوف يدعو ثبوراً** ﴾ أى : يصيح بالويل والثبور ، ويتمنى الهلاك والموت قال تعالى : ﴿ **وأما من أوتى كتابه بشماله فيقول ياليتنى لم أوت كتابيه ولم أدر ما حسابيه ياليتها كانت القاضية ، ما أغنى عنى ماليه هلك عنى سلطانيه ، خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه** ﴾[(٢)] وهنا قال تعالى : ﴿ **ويصلى سعيرا** ﴾ أى : ويدخل ناراً مستعرة يقاسى عذابها وحرها .

وقوله تعالى : ﴿ **إنه كان فى أهله مسرورا** ﴾ أى : لأنه كان فى الدنيا مسروراً مع أهله ، غافلاً لاهياً ، لا يفكر فى العواقب ، ولا تخطر بباله الآخرة .

قال ابن زيد : وصف الله أهل الجنة بالمخافة والحزن والبكاء فى الدنيا ، فأعقبهم به النعيم والسرور فى الآخرة ، وهذا فى قوله تعالى : ﴿ **وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون قالوا إنا كنا قبل فى أهلنا مشفقين فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم** ﴾[(٣)]

وقوله تعالى : ﴿ **إنه ظن أن لن يحور** ﴾ أى : إنه ظن أن لن يرجع إلى ربه ولن يحييه الله بعد موته ، ويجازيه على أعماله كلها خيرها وشرها قال تعالى : ﴿ **بلى إنه كان به بصيرا** ﴾ أى : بلى ليحورون وليرجعن إلى ربه ، وليحاسبنه على عمله ، فيجزى على الخير خيراً ، وعلى الشر شراً فإنه تعالى مطلع على عباده ، لا تخفى عليه خافية من شئونهم .

قسم عظيم

فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ﴿٢١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾

---

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان رقم ١٨٢٧ وسنه الترمذى ٥/ ٤٣٥ رقم ٣٣٣٧ وسند أحمد ٦/ ٤٧ وتفسير الطبرى ٣٠/ ٧٤

(٢) سورة الحاقة الآيات من ٢٥ إلى ٣٢

(٣) سورة الطور الآيات ٢٥ - ٢٨

معانى المفردات

﴿ الشفق ﴾ هو الحمرة التى تشاهد فى الأفق الغربى بعد الغروب

﴿ وسق ﴾ أى : ضم وحوى وجمع

﴿ اتسق ﴾ أى : اجتمع نوره وصار بدراً

﴿ لتركبن ﴾ أى : لتلاقن ، والطبق ! الحال المطابقة لغيرها

والمراد لتركبن أحوالاً بعد أحوال هى طبقات فى الشدة بعضها أرفع من بعض وهى الموت وما بعده .

﴿ لا يسجدون ﴾ أى : لا يخضعون ويسجدون لعظمة القرآن

﴿ يوعون ﴾ أى : يجمعون فى صدورهم من الأعراض والجحود والحسد والبغى

﴿ ممنون ﴾ أى : مقطوع من قولهم منَّ فلان الحبل إذ قطعة

المناسبة وإجمالى المعنى

بعد أن ذكر سبحانه أن الانسان راجع إلى ربه فملاقيه ومحاسبه إما حسابا يسيرا أو حسابا عسيرا ، أقسم سبحانه بآيات له فى الكائنات ، ظاهرات باهرات ، أن البعث كائن لامحالة له ، وأن الناس يلقون من الأهوال حتى يفرغوا من حسابهم ، فيصير كل أحد إلى ماأعد له من جنة أو نار .

التفسير

قوله تعالى ﴿ فلا أقسم بالشفق والليل وماوسق والقمر إذا اتسق ﴾ ﴿ فلا أقسم ﴾ تقدم أن قلنا : أن العرب اعتادت أن تأتى بمثل هذا القسم حين يكون المقسم عليه أمرا ظاهرا لايحتاج إلى التوكيد ، ويرى بعض العلماء أنه إنما يستعمل حين يكون الحلف على أمر جليل القدر ، عظيم الشأن لايكفى القسم لاثباته .

وفى هذه الآيات الكريمةأقسم سبحانه بثلاثة أشياء متعلقة بالليل (أحدها) الشفق ، وهو فى اللغة الحمرة بعد غروب الشمس إلى وقت صلاة العشاء الآخرة ، وكذلك هو فى الشرع قال ابن عمر رضى الله عنهما - الشفق الحمرة وكذلك قال الكلبى وقائل : الشفق الحمرة التى تكون بعد المغرب .

(الثانى) قسمه بالليل وماوسق ، أى وماضم وحوى وجمع والليل وماضمه وحواه آية أخرى ، والقمر آية ، واتساقه آية أخرى . والشفق يتضمن إدبار النهار وهو آية واقبال الليل وهو آية أخرى . فان هذا إذا أدبر خلفه الآخر ، يتعاقبان لمصالح الخلق فإدبار النهار آية وإقبال الليل آية ، وتعقب أحدهما الآخر آية والشفق الذى هو متضمن الأمرين آية والليل آية وماحواه آية والهلال آية وتزايده كل ليلة آية ، واتساقه وهو إمتلاؤه نورا - آية - ثم أخذه فى النقص آية .

وهذه وأمثالها آيات دالة على ربوبيته سبحانه وتعالى مستلزمة للعلم بصفات كماله ولهذا شرع عند إقبال الليل وإدبار النهار - ذكر الرب - تعالى - بصلاة المغرب . . وفى الحديث اللهم هذا إقبال النهار ذكر

الرب ـ تعالى ـ بصلاة المغرب . وفى الحديث « اللهم هذا إقبال ليلك وإدبار نهارك ، وأصوات دعائك فاغفر لى »[١] (رواه أبوداود) كما شرع ذكر الله بصلاة الفجر عند إدبار الليل وإقبال النهار . . ولهذا يقسم سبحانه بهذين الوقتين كقوله تعالى : (والليل إذا أدبر والصبح إذا أسفر)[٢] وهو يقابل إقسامه بالشفق ونظيره إقسامه بـ (والليل إذا عسعس والصبح إذا تنفس)[٣] .

وقال ابن القيم : ولما كان الرب ـ تبارك وتعالى ـ يحدث عن كل واحد من طرفى إقبال الليل والنهار وإدبارهما مايحدثه ، ويبث من خلقه ماشاء ينتشر الأرواح الشيطانية عند اقبال الليل وينشر الأرواح الإنسانية عند إقبال النهار ، فيحدث هذا الإنتشار فى العالم أثره ـ شرع سبحانه فى هذين الوقتين هاتين الصلاتين العظيمتين ، مع مافى ذلك من ذكره عند هاتين الآيتين المتعاقبتين ، وعند انصرام أحداهما واتصال الأخرى بها ، مع مابينهما من التضاد والاختلاف ، وانتقال الحيوان عند ذلك من حال إلى حال ، ومن حكم إلى حكم ، وذلك مبدأ ومعاد يومى ، شهود للخليقة كل يوم وليلة فالحيوان والنبات فى مبدأ ومعاد وزمان العالم فى مبدأ ومعاد . قال تعالى : (أولم يروا كيف يبدأ الله الخلق ثم يعيده ؟ إن ذلك على الله يسير)[٤] .

قوله تعالى : (لتركبن طبقا عن طبق) هذا جواب القسم أى : لتلاقن يامعشر الناس أهوالا وشدائد فى الآخرة عصيبة .

قال الألوسى : يعنى لتركبن أحوالا بعد أحوال وهى طبقات فى الشدة وبعضها أرفع من بعض ، وهى الموت ومابعده من مواطن القيامة وأهوالها قال ابن القيم : رحمه الله ـ وأقوال المفسرين كلها تدور على هذا .

وقال ابن عباس : رضى الله عنهما ـ لتصبرن الأمور حالا بعد حال . وقيل : لتركبن أيها الإنسان حالا بعد حال من النطفة إلى العلقة إلى المضغة ، إلى كونه حيا ، وإلى خروجه إلى هذه الدار ، يتم ركوبه طبق التمييز بين ماينفعه ويضره ، ثم ركوبه بعد ذلك طبقا آخر ، وهو طبق البلوغ ثم ركوبه طبق الأشد ثم طبق الشيخوخة ، ثم طبق الهرم ، ثم ركوبه طبق مابعد الموت فى البرزخ وركوبه فى أثناء هذه الأحوال أطباقا عديدة ، لايزال ينتقل فيها حالا بعد حال إلى دار القرار . . فذلك آخر أطباقه التى يعلمها العباد ، تم بفعل الله ـ سبحانه ـ بعد ذلك ـ مايشاء .

قال ابن القيم : وأنت إذا تأملت هذا المقسم به والمقسم عليه وجدته من أعظم الآيات الدالة على الربوبية وتغيير الله سبحانه وتعالى للعالم ، وتصريفه له كيف أراد ونقله إياه من حال إلى حال وهذا محال أن

---

(١) سنن أبى داود ١/٣٦٢ رقم ٥٣٠
(٢) سورة المدثر الآيتان : ٣٣ ، ٣٤
(٣) سورة التكوير الآيتان : ١٧ ، ١٨
(٤) سورة العنكبوت الآية : ١٩

يكون بنفسه من غير فاعل مدبر له ومحال أن يكون فاعله غير قادر ، ولاحى ، ولا مريد ، ولاحكيم ولاعليم .. وكلاهما فى الامتناع سواء .

فالمقسم به وعليه من أعظم الأدلة على ربوبيته ، وتوحيده ، وصفات كماله ، وصدقه ، وصدق رسله وعلى المعاد ولهذا عقب بقوله : (فما لهم لايؤمنون) إنكارا على من لم يؤمن بعد ظهور هذه الآيات المستلزمة لمدلولها أتم استلزام ، وأنكر عليهم عدم خضوعهم وسجودهم للقرآن المشتمل على ذلك ، بأفصح عبارة وأبينها وأجزاها وأوجزها . فالمعنى أشرف معنى ، والعبارة أشرف عبارة غاية الحق بغاية البيان والفصاحة ، والعبارة أشرف عبارة غاية الحق بغاية البيان والفصاحة :

فقوله تعالى : (فما لهم لايؤمنون) استفهام يقصد به التوبيخ أى فما لهؤلاء المشركين لايؤمنون بالله ، ولايصدقون بالبعث بعد الموت ، بعد وضوح الدلائل وقيام البراهين على قوله ؟

وقوله تعالى : ﴿ وإذا قرىء عليهم القرآن لايسجدون) أى واذا سمعوا آيات القرآن ، لم يخضعوا ولم يسجدوا للرحمن ؟

قال البخارى : بسنده عن أبى رافع قال : صليت مع أبى هريرة العتمة فقرأ (إذا السماء انشقت) فسجد فقال ماهذه السجدة فقال : سجدت بها خلف أبى القاسم صلى الله عليه وسلم - فلاأزال أسجد بها حتى القاه وأخرجه أيضا الإمام مالك ومسلم وأبوداود والنسائى فى كتبهم[١] .

وقوله تعالى : ﴿ بل الذين كفروا يكذبون ﴾ أى : من سجيتهم التكذيب والعناد والمخالفة للحق(والله أعلم بما يوعون) قال مجاهد وقتادة : المعنى : والله أعلم بما يكتمون فى صدورهم .

قال ابن القيم فى قوله تعالى : (والله أعلم بما يوعون) أى بما يضمرون فى صدورهم ويكتمونه ومايسرونه من أعمالهم ومايجمعونه فيجازيهم عليه بعلمه وعدله .

وقوله تعالى : ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون ﴾ هذا استثناء منقطع فالمعنى ولكن الذين آمنوا أى : بقلوبهم وعملوا الصالحات أى بجوارحهم لهم أجر غير مقطوع ونحو الاية قوله تعالى : ﴿ إلا عباد الله المخلصين ، أولئك لهم رزق معلوم ، فواكه وهم مكرمون ، فى جنات النعيم ، على سرر متقابلين ، يطاف عليهم بكأس من معين ، بيضاء لذة للشاربين ، لافيها غول ولاهم عنها ينزفون ، وعندهم قاصرات الطرف عين ، كأنهن بيض مكنون ﴾[٢] .

---

(١) صحيح البخارى - كتاب مواقيت الصلاة ١٨٤/١ ومسلم ٤٠٧/١ رقم ١١٠ وموطأ مالك ٢٠٥/١ نرقم ١٢ وسنن أبى داود ١٢٣/٢ رقم ١٤٠٨ وسنن النسائى ١٦٢/٢

(٢) سورة الصافات الآيات : من ٤٠ إلى ٤٩

تفسير سورة البروج

مقدمة :

قال صاحب البصائر :

السورة مكية .

عدد آياتها : اثنتان وعشرون

وكلماتها : مائة وتسع .

وحروفها : أربعمائة وثمان وخمسون .

سمت سورة البروج ، لذكرها فى أولها .

معظم مقصود السورة .

القسم على أصحاب الأخدود ، وكمال ملكه الملك المعبود ، وثواب المؤمنين فى جوار المقام المحمود ، وعذاب الكافرين فى الجحيم المورود ، وما للمطيع والعاصى من كرم الغفور الودود ، والإشارة إلى هلاك فرعون وثمود .

المتشابهات

وقوله تعالى : (ذلك الفوز الكبير) (ذلك) مبتدأ ، (والفوز) خبره (والكبير) صفته وليس فى القرآن نظيره .

مناسبة السورة لما قبلها

(١) اشتمالها كالتى قبلها على وعد المؤمنين ووعيد الكافرين ، مع التنويه بشأن القرآن وفخامته .

(٢) أنه ذكر فى السورة السابقة أنه عليم بما يجمعون للرسول صلى الله عليه وسلم ـ والمؤمنين من المكر والخداع وإيذاء من أسلم بأنواع من الأذى كالضرب والقتل والالقاء فى حمَّارة القبظ ، وذكرهنا أن هذه شنشبة من تقدمهم من الأمم ، فقد عذبوا المؤمنين بالنار كما فعل أصحاب الأخدود .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ

ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾
إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ
عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ
تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾

معانى المفردات

(البروج) واحدها برج ، ويطلق على الحصن والقصر العالى وعلى أحد بروج السماء الاثنى عشر ، وهى منازل الكواكب والشمس والقمر ، فيسير القمر فى كل برج منها يومين وثلث يوم فذلك ثمانية وعشرون يوما ثم يستتر ليلتين ، وتسير الشمس فى كل برج منها شهرا ، ستة منها فى شمال خط الاستواء ، وستة فى جنوبه . . وتقطع الثلاثة الأولى فى ثلاثة أشهر ، أولها اليوم العشرون من شهر مارس . وهذه المدة هى فصل الربيع ، وتقطع الثلاثة الثانية فى ثلاثة أشهر أيضا أولها الحادى والعشرون من شهر يونيه ، وهذه المدة هى فصل الصيف ، وتقطع الثلاثة الأولى من الجنوبية فى ثلاثة أشهر أيضا ، أولها اليوم الثانى والعشرون من شهر سبتمبر وهذه المدة هى فصل الخريف ، وتقطع الثلاثة الثانية من الجنوبية فى ثلاثة أشهر أيضا أولها اليوم الثانى والعشرون من شهر ديسمبر ، وهذه المدة هى فصل الشتاء .

(اليوم الموعود) هو يوم القيامة .

(الأخدود) الشق فى الأرض يحفر مستطيلا ، وجمعه

(وشاهد ومشهود) الشاهد جميع ماخلق الله تعالى فى هذا العالم ، فإن كل ماخلقه شاهد على قدرته وهو شىء أيضا ذى عينين (والأخدود) الشق فى الأرض

(أصحاب الأخدود) قوم كافرون ذو بأس وقوة رأوا قوما من المؤمنين فغاظهم إيمانهم فخلوهم على الكفر فأبوا فشقوا لهم شقا فى الارض وحشوه بالنار والقوهم فيه وكان هؤلاء الغلاظ الأكباد على جوانب الشق يشهدون الإحراق .

(ومانقموا منهم) أى : ماعابوا عليهم

(العزيز) أى : الذى لاتغلب قوته

(الحميد : أى الذى يحمد على كل حال

(فتنوا) أى ابتلوا وامتحنوا

(عذاب الحريق) هو عذاب جهنم ذكر تفسيرا وبيانا له .

(الفوز الكبير) أى الذى تصغر الدنيا بأسرها عنده ، بما فيها من رغائب لاتفنى .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ والسماء ذات البروج ﴾ أى : قسماً بالسماء ذات الكواكب العظيمة التى لم يستطع لها إحصاء ولا عد ، منها ما لا يصل ضوءه إلينا إلا فى ألف ألف سنة وخمسمائة ألف ، مع أن الضوء يسير فى الثانية الواحدة ثلاثمائة ألف كيلو ، ويصل فى سيره إلى القمر فى قدر ثانية وثلث ثانية ، ولوجرى حول الكرة الأرضية لدار حولها فى الثانية الواحدة نحو ثمان مرات ، ولو أطلق مدفع فإن قنبلته تجرى نحو سنة ونصف سنة حتى تقطع المسافة التى يقطعها الضوء فى ثانية واحدة . . سبحان القادر العزيز الحكيم .

فما أبعد الكواكب التى يصل ضوءها إلينا بعد مليون ونصف المليون ، وإلى أى حد هى عظيمة بالنسبة إلى شمسنا وقد أقسم الله ـ سبحانه وتعالى ـ بهذه الكواكب لما فيها من عجيب الصبغة وباهر الحكمة ، ولما فيها من مصالح ومنافع للناس فى هذه الحياة تدل على أن لها صانعا حكيما مدبراً ، إلى أنه يحثنا على البحث عن هذه العوالم ، لتستدل بذلك على عظيم قدرته وجليل حكمته .

فبروج السماء هى منازلها ، أو منازل السيارة التى فيها من أعظم آياته سبحانه فلهذا أقسم بها مع السماء . قوله تعالى : ﴿ واليوم الموعود ﴾ ثم أقسم سبحانه باليوم الموعود وهو يوم القيامة ، وهو المقسم به وعليه فقال تعالى : ﴿ واليوم الموعود ﴾ ودل على وقوع اليوم الموعود بإتقان جميع الرسل عليه . . . وبما عرفه عباده من حكمته وعزته . التى تأبى أن يتركهم سدى ، ويخلقهم عبثاً وبغير ذلك من الآيات والبراهين التى يستدل بها سبحانه على إمكانه تارة وعلى وقوعه تارة ، وعلى تنزيهه عما يقول أعداؤه من أنه لا يأتى تارة . فالإقسام به عند من آمن بالله كالإقسام بالسماء وغيرها من الموجودات المشاهدة بالعيان . .

قوله تعالى : ﴿ وشاهد ومشهود ﴾ .

ثم أقسم سبحانه بالشاهد والمشهود وقد اختلف المفسرون فى ذلك قال الإمام أحمد : بسنده عن أبى هريرة أنه قال فى هذه الآية : ﴿ وشاهد ومشهود ﴾ [١] قال الشاهد يوم الجمعة والمشهود يوم عرفه ، والموعود يوم القيامة وكذلك قال الحسن وقتاده وابن زيد وقال ابن جرير بسنده عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : الشاهد هو ـ محمد ﷺ ـ والمشهود يوم القيامة[٢] ثم قرأ قوله تعالى ﴿ ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود ﴾[٣] وهكذا قال الحسن البصرى وسفيان الثورى وقال مجاهد وعكرمة والضحاك الشاهد ابن آدم ، والمشهود يوم القيامة[٤] وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ الشاهد هو الله ـ جل جلاله ـ والمشهود يوم القيامة[٥] وفى رواية له أيضا عند ابن أبى حاتم أن الشاهد الإنسان والمشهود يوم القيامة قال ابن كثير : وأكثر المفسرين على أن الشاهد يوم الجمعة والمشهود يوم عرفه

---

(١) سند أحمد ٢ / ٢٩٨

(٢) الطبرى ـ سورة البروج الآية رقم ٣ جزء ٣٠ صفحة ١٣٠

(٣) سورة هود الآية : ١٠٣

(٤) انظر تفسير ابن كثير تفسير سورة البروج ـ طبعة الشعب

(٥) تفسير ابن كثير طبعة الشعب ـ سورة البروج

وقال ابن القيم رحمه الله فى هذه الآية الكريمة ﴿ وشاهد ومشهود ﴾ أقسم سبحانه بالشاهد والمشهود ، مطلقين غير معينين وأعم المعانى فيه أنه المدرك والمدرك ، والعالم والمعلوم والرائى والمرئى ، وهذا البق المعانى به ، وما عداه من الأقوال ذكرت على وجه التمثيل ، لا على وجه التخصيص .

ثم قال رحمه الله : فإن قيل : فما وجه الارتباط بين هذه الأمور الثلاثة المقسم بها ؟ قبل : هى بحمد الله فى غاية الارتباط ، والإقسام بها متناول لكل موجود فى الدنيا والآخرة ، وكل منها آية مستقلة دالة على ربوبيته وإلهيته ، فأقسم بالعالم العلوى وهى السماء وما فيها من البروج التى هى أعظم الأمكنة وأوسعها ، ثم أقسم بأعظم الأيام وأجلها قدراً ، الذى هو مظهر ملكه ، وأمره ونهيه وثوابه وعقابه ، وبجميع أوليائه وأعدائه ، والحكم بينهم بعلمه وعدله ، ثم أقسم بما هو أعم من ذلك كله ، وهو الشاهد والمشهود وناسب هذا القسم ذكر أصحاب الأخدود ، والذين عذبوا أولياءه ، وهم شهود على ما يفعلون بهم ، والملائكة شهود عليهم بذلك والأنبياء وجوارحهم تشهد به عليهم وأيضا فالشاهد هو المطلع والرقيب . والمخبر والمشهود وهو المطلع عليه المخبر به المشاهد .

فمن نوع الخليقة إلى شاهد ومشهود وهو أقدر القادرين كما نوعها إلى مرئى لنا وغير مرئى كما قال : ﴿ فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون ﴾[1] كما نوعها إلى أرض وسماء ، وليل ونهار ، وذكر وأنثى ، وهذا التنويع والاختلاف من آياته سبحانه ـ كذلك نوعها إلى شاهد ومشهود

وفيه سر آخر وهو أن المخلوقات ما هو مشهود عليه ، ولا يتم نظام العالم إلا بذلك ، فكيف يكون المخلوق شاهداً رقيباً حفيظاً على غيره ، ولا يكون الخالق ـ تبارك وتعالى ـ شاهدا على عباده مطلقاً عليهم رقيباً ؟

وأيضا فإن ذلك يتضمن القسم بملائكته وأنبائه ورسله فإنهم شاهدون على العباد ، فسيكون من باب اتحاد المقسم به والمقسم عليه كما أقسم سبحانه باليوم الموعود ، وهو المقسم به وعليه ، وأيضا فيوم القيامة شهود كما قال تعالى : ﴿ ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود ﴾[2] يشهده الله وملائكته والإنس والجن والوحش فالشاهد من آياته ، والمشهود من آياته .

وأيضا فكلامه مشهود كما قال تعالى : ﴿ وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا ﴾[3] تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار . فالمشهود من أعظم آياته وكذلك الشاهد فكل ما وقع عليه اسم شاهد ومشهود فهو داخل فى هذا القسم فلا حجة لتخصيصه ببعض الأنواع أو الأعيان إلا على سبيل التمثيل .

وأيضا فكتاب الأبرار فى عليين يشهده المقربون . فالكتاب مشهود ، والمقربون شاهدون .

والأحسن أن يكون هذا القسم مستغنياً عن الجواب ، لأن القصة التنبيه على المقسم به ، وأنه من آيات الرب العظيمة . ويبعد أن يكون الجواب ﴿ قتل أصحاب الأخدود ﴾ الذين فتنوا أولياءه وعذبوهم بالنار ذات الوقود .

---

(١) سورة الحاقة الآية : ٣٨ (٢) سورة هود آية ١٠٣ (٣) سورة الإسراء الآية : ٧٨

قصة أصحاب الأخدود

قوله تعالى : ﴿ قتل أصحاب الأخدود ، النار ذات الوقود ، إذ هم عليها قعود وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد ؟ الذى له ملك السموات والأرض والله على كل شىء شهيد إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير ﴾

قوله تعالى : ﴿ قتل أصحاب الأخدود ﴾ أى : لعن أصحاب الأخدود وجمعه أخاديد وهى الحفر فى الأرض وهذا خبر عن قوم من الكفار عمدوا إلى من عندهم من المؤمنين بالله - عز وجل - فقهروهم وأرادوهم أن يرجعوا عن دينهم فأبوا عليهم فحفروا لهم فى الأرض أخدوداً وأججوا فيه ناراً وأعدوا لها وقوداً يسعرونها به ثم أرادوهم أن يكفوا عن دينهم وإيمانهم بالله - عز وجل - فأبوا عليهم ولم يقبلوا منهم فقذفوهم فى النيران وهم ينظرون .

قال تعالى : ﴿ النار ذات الوقود ، إذ هم عليها قعود ، وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود ﴾ فلهم اللعنة ولهم الطرد من رحمة الله إذ حرقوا المؤمنين وعذبوهم بالنار الموقدة ذات اللهيب الشديد وهم قاعدون حولها - يشرفون عليهم وهم يتقلبون فى العذاب كأنهم ينظرون مشهد سلوى وتسلية لأنفسهم فهذه الآيات تصف حالهم القبيحة بأنهم قعود على جانب الأخدود شاهدين ما يجرى على عباد الله وأوليائه عياناً ، ولا تأخذهم بهم ، رأفة ولا رحمة .

وقوله تعالى : ﴿ وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد ﴾ أى : وما كان لهم عندهم ذنب إلا إيمانهم بالله العزيز الذى لا يضام من لاذ بجانبه المنيع ، الحميد فى جميع أقواله وأفعاله وشرعه وقدره وإن كان قد قدر على عباده هؤلاء هذا الذى وقع بهم كثير من الناس ونحن لا نعرف السعادة والفلاح أين هما فقد يكون الحرق لهؤلاء المؤمنين هو منتهى السعادة والفلاح أين هما فقد يكون الحرق لهؤلاء المؤمنين هو منتهى السعادة لهم إذا أختارهم الله إليه شهداء وخفف عنهم عذاب النار وأبدلهم بها جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين .

ثم قال تعالى : ﴿ الذى له ملك السموات والأرض والله على كل شىء شهيد ﴾ من تمام جنبات الكمال أنه تبارك وتعالى المالك لجميع السموات والأرض ، وما فيهما وما بينهما فله وحده الملك والملكوت والعزة والجبروت وهو يشهد على كل شىء وكفى بالله شهيداً .

والله - تبارك وتعالى - لا تغيب عليه غائبة فى الأرض ولا فى السماء يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور والله بكل شىء عليم وعلى كل شىء شهيد وكفى بالله شهيداً .

قال ابن القيم رحمه الله فى هذه الآية : ﴿ وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد ﴾ أى : ولا يعيبون عليهم ديناً سوى إيمانهم بالله العزيز الحميد الذى له ملك السموات والأرض . . . وهذا

الوصف يقتضى إكرامهم وتعظيمهم ومحبتهم ، فعاملوهم بضد ما يقتضى أن يعاملوا به ولهذا شأن أعداء الله دائماً ، ينقمون على أوليائه ما ينبغى أن يحبوا ويكتموا لأجله كما قال تعالى : ﴿ **قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل وأن أكثركم فاسقون** ﴾[1] وكذلك اللوطية نقموا من عباد الله تنزيههم عن مثل فعلهم الإشراك ينقمون من الموجودين تجريدهم التوحيد وإخلاص الدعوة والعبودية لله وحده وكذلك أهل البدع ينقمون من أهل السنة تجريد متابعتها وترك ما خالفها وكذلك المعطلة ينقمون من أهل الإثبات إثباتهم لله صفات كماله ونعوت جلاله . وكذلك الرافضة ينقمون على أهل السنة محبتهم للصحابة جميعهم ، وترضيهم عنهم وولايتهم إياهم وتقديم من قدمه رسول الله ـ ﷺ ـ منهم وتنزيلهم منازلهم التى أنزلهم الله ورسوله بها ، وكذلك أهل الرأى المحدث ينقمون على أهل الحديث وحزب الرسول أخذهم بحديثه وتركهم ما خالفه وكل هؤلاء لهم نصيب وفيهم شبه من أصحاب الأخدود وبينهم نسب قريب أو بعيد .

حديث أصحاب الأخدود

ففى صحيح مسلم عن صهيب ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ ـ قال : « كان ملك فيمن كان قبلكم ، وكان له ساحر ، فلما كبر قال للملك : إنى قد كبرت فابعث إلىَّ غلاماً أعلمه السحر ، فبعث إليه غلاماً يعلمه فكان فى طريقه إذا سلك مر بالراهب فقعد إليه وسمع كلامه فأعجبه ، فكان إذا أتى الساحر مر بالراهب وقعد إليه ، فإذا أتى الساحر ضربه ، فشكا ذلك إلى الراهب فقال : إذا خشيت الساحر فقل أهلى ، وإذا خشيت أهلك فقل : حبسنى الساحر .

فبينما هو على ذلك إذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس فقال : اليوم أعلم الساحر أفضل أم الراهب ؟ فأخذ حجراً فقال : اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يمضى الناس ، فرماها فقتلها ومضى الناس فأتى الراهب فأخبره فقال له الراهب : أى بُنَىَّ أنت اليوم أفضل منى ، قد بلغ من أمرك ما أرى ، وإنك ستبتلى ، فإن ابتليت فلا تدل علىَّ ، وكان الغلام يبرىء الأكمه والأبرص ، ويداوى الناس من سائر الأدواء فسمع جليس للملك كان قد عمى ، فأتاه بهدايا كثيرة فقال : ما هٰهنا لك أجمع إن أنت شفيتنى فقال : إنى لا أشفى أحداً ، إنما يشفى الله تعالى فإن آمنت بالله تعالى دعوت الله فشفاك فآمن بالله ـ تعالى ـ فشفاه الله ـ تعالى ـ فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس فقال له الملك ! من رد عليك بصرك ؟ قال : ربى . قال : ولك رب غيرى ؟ ! قال : ربى وربك الله ، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الراهب فجىء بالراهب فقيل له : ارجع عن دينك ، فأبى ، فدعا بالمنشار فوضع المنشار فى مفرق رأسه ، فشقه حتى وقع شقاه ثم جىء بجليس الملك فقيل له : ارجع عن دينك فأبى فوضع المنشار فى مفرق رأسه فشقه حتى وقع شقاه ، ثم جىء بالغلام فقيل له : ارجع عن دينك فأبى ، فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال : اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا فاصعدوا به الجبل ، فإذا بلغتم

---

(١) سورة المائدة الآية : ٥٩

ذروته فإن رجع عن دينه وإلا فاطرحوه فذهبوا به فصعدوا به الجبل فقال اللهم اكفينهم بما شئت فرجف به الجبل فسقطوا ، وجاء يمشى إلى الملك فقال له الملك ما فعل أصحابك ؟ قال كفانيهم الله ـ تعالى ـ فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال : اذهبوا به فاحملوه فى قرقور وتوسطوا به البحر ، فإن رجع عن دينه وإلا فاقذفوه فذهبوا به فقال اللهم اكفينهم بما شئت فانكفأت بهم السفينة فغرقوا ، وجاء يمشى إلى الملك . فقال له الملك . ما فعل أصحابك ؟ قال اكفانيهم الله تعالى ـ فقال للملك إنك لست بقاتلى حتى تفعل ما آمرك به قال وما هو ؟ قال تجمع الناس فى صعيد واحد ، وتصلبنى على جذع ، ثم خذ سهماً من كنانتى ثم ضع السهم فى كبد القوس ثم قل : بسم الله رب الغلام ثم ارمنى ، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتنى فجمع الناس فى صعيد واحد ، وصلبه على جذع ثم أخذ سهماً من كنانته ، ثم وضع السهم فى كبد القوس ثم قال بسم الله رب الغلام ، ثم رماه فوقع السهم فى صُدغه فوضع يده فى صدغه فى موضع السهم فمات فقال الناس آمنا برب الغلام آمنا برب الغلام ، آمنا برب الغلام فأتى الملك فقيل له : أرأيت ما كنت تحذر قد والله نزل بك حذرك . قد آمن الناس فأمر بالأخدود فى أفواه السكك فخدت وأضرم النيران ، وقال من لم يرجع عن دينه فأقحموا فيها أو قيل له : اقتحم ، ففعلوا حتى جاءت امرأة ومعها صبى لها ، فتقاعست أن تقع فيها ، فقال لها الغلام : يا أماه اصبرى فإنك على الحق ، رواه مسلم[1]

مفردات الحديث

ذروة الجبل أعلاه وهى بكسر الذال وضمها

و « القرقور » بضم القافين : نوع من السفن

و « الصعيد » هنا : الأرض البارزة

« الأخدود » الشقوق فى الأرض

« أضرم » أوقد

« انكفأت » أى : انقلبت . .

« تقاعست » توقفت وجبنت

العبر من القصة

قال العلماء : أعلم الله ـ عز وجل المؤمنين ـ من هذه الأمة فى هذه الآية الكريمة ﴿ **قتل أصحاب الأخدود** ﴾ ما كان يلقاه من وجد قبلهم من الشدائد يؤنسهم بذلك وذكر لهم ـ ﷺ ـ قصة الغلام ليصبروا على ما يلقون من الأذى والآلام والمشقات التى كانوا عليها ، ليأنسوا بمثل الغلام فى صبره وتصلبه فى الحق وتمسكه به ، وبذله نفسه فى حق إظهار دعوته ودخول الناس فى الدين مع صغر سنه وعظيم صبره وكذلك الراهب صبر على التمسك بالحق حتى نشر بالمنشار وكذلك كثير من الناس لما آمنوا بالله ـ تعالى ـ ورسخ الإيمان فى قلوبهم صبروا على الطرح فى النار ولم يرجعوا عن دينهم قال الله ـ تبارك وتعالى ـ مخبراً عن

(١) صحيح مسلم ٤/٢٢٩٩ رقم ٣٠٠٥

لقمان : ﴿ يابنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور ﴾[١] وروى أبو سعيد الخدرى أن النبى ﷺ قال : إن من أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر[٢] أخرجه الترمذى وروى ابن سنجر عن أميمة مولاة النبى - ﷺ - قالت : كنت أوضىء النبى - ﷺ - فأتاه رجل فقال : أوصنى ! فقال ! لا تشرك بالله شيئا وإن قطعت أو حرقت بالنار . الحديث[٣]

ولقد امتحن كثير من أصحاب النبى - ﷺ - بالقتل والصلب والتعذيب الشديد فصبروا ولم يلتفتوا إلى شىء من ذلك ولا تزال المعركة بين الحق والباطل وبين الكفر والإيمان ، وبين انصار الله وأعوان الشيطان لا تزال قائمة وستبقى إلى يوم الدين ، تلك سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا .

وما يضير المسلم إن قتل فى سبيل الله وهو يعلم أنه سيذهب إلى رب عظيم ، وإله كريم ، أعد لأحبابه وأوليائه جنة عرضها كعرض السموات والأرض وفيها النعيم المقيم ، بل فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

وكل مسلم يتقدم بنفس راضية إلى ميدان الشهادة وهو يردد قوله تعالى : ﴿ وعجلت إليك ربى لترضى ﴾[٤] كما يرد قول الصحابى الشهيد خُبيب بن عدى - رضى الله عنه وأرضاه حيث قال :

ولست أبالى حين أقتل مسلما ... على أى جنب كان فى الله مصرعى
وذلك فى ذات الإله وإن يشأ ... يبارك على أوصال جسم ممزع[٥]

وهذه مجاهدة فلسطينية .. تروى قصيدتها فى بيروت

شعر : يوسف العظيم

ذبحونى من وريد الوريد ... وسقونى المر فى كل صعيد
مزقوا زوجى فلم أعبأ بهم ... ومضوا نحو صغيرى ووحيدى
غرسوا الحرية فى أحشائه ... فغدا « التكبير » أصداء نشيدى
دمروا بيتى وهل بيتى هنا؟ ... إن بيتى خلف هاتيك الهدوء !
وتلفَّتُ فلم أعثر على ... غير أبناء الأفاعى والقرود
أين بأس العُرّب ؟ مذخور لمن ؟ ... أين أبناء الحمى درع « الصمود » ؟

....

ودمى سال على تلك الرُّبى ... ينثر العطر على حمر الورود
ولغ الغاصب فى أشلائنا ... غير أنا لم نزل سمر الزنود
ولوائى فوق هامات الورى ... يتحدى فى العلى كل البنود

---

(١) سورة لقمان الآية : ١٧
(٢) سنن الترمذى ٤/٤٧١ رقم ٢١٧٤
(٣) المستدرك للحاكم ٤/٤١
(٤) سورة طه الآية : ٨٤
(٥) صحيح البخارى ٥/١٣٣ طبعة الشعب

قل لمن يلهث فى «غفلته» ينشد الأمن تمتع بالصديد
إن فى يافا مواعيد لنا وربى القدس لنا بيت القصيد
وعلى شطآن حيفا موعد كيف ننسى فى الحمى خضر الوعود
ذبحونى من وريد لوريد ودمى يجتاح أحقاد اليهود

. . . .

قلْ لمن يحسب أنا أمة أنكرت أمجاد سعد والوليد
نحن شعب لم يعد يخشى الردى أو يبالى برصاص وحديد
قطع العهد وفى أعماقه دعوة التوحيد والدين الرشيد
كلما أطفىء منا قبس أشرق القرآن بالفجر الجديد
قد رجعنا راية زاحفة بعد أيام ضياع وشرود
ومضينا نحو آفاق العلى يسلم الراية جدٌ لحفيد
إنها الجنة تبغى ثمناً عزَّ إلا من شرايين الشهيد

قوله تعالى : ﴿ **إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق** ﴾

أخبر سبحانه وتعالى أنه أعد لهم عذاب جهنم وعذاب الحريق ، حيث لم يتوبوا وأنهم لو تابوا بعد أن فتنوا أولياءه وعذبوهم بالنار لغفر لهم ولم يعذبهم ، وهذا غاية الكرم والجود .

قال الحسن ، انظروا إلى هذا الكرم والجود ، يقتلون أولياءه ، ويفتنونهم وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة . انظروا إلى كرم الرب - تعالى - يدعوهم إلى التوبة والمغفرة وقد فتنوا أولياءه فحرقوهم بالنار ، فلا ييأس من هذه العداوة ، ولا كفر ممن حرق بالنار من آمن بالله وحده ، وعبده وحده ، ومع هذا فلو تابوا لم يعذبهم . وألحقهم بأوليائه كما قال تعالى : ﴿ **قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف وإن يعودوا فقد مضت سنت الأولين** ﴾[1]

ولما ذكر مصير المجرمين أعقبه بذكر مصير المؤمنين فقال تعالى :

﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير** ﴾[2] يخبر تعالى عن عباده المؤمنين أن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها بخلاف ما أعد لأعدائه من الحريق والجحيم ولهذا قال جل وعلا ﴿ **ذلك الفوز الكبير** ﴾ وذلك هو الفوز الكبير العظيم والنجاح . والنجاة من عذاب الآخرة فوز ، فكيف إذا ارتقت درجات الفائزين حتى يدخلوا جنات تجرى من تحتها الأنهار من ماء غير آسن ، ولبن لم يتغير طعمه ، ومن خمر لذة للشاربين ، وأنهار من عسل مصفى ذلك

---

(١) سورة الأنفال الآية : ٣٨
(٢) سورة البروج الآية) ١١

الفوز الذى لا فوز بعده والنعيم المقيم الذى لا نعيم بعده إلا النظر إلى وجه ذى الجلال والإكرام وهناك السعادة الكبرى جعلنا الله وإياكم من أهلها آمين يارب العالمين .

قال تعالى : (وعيد وتهديد)

إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾

معانى المفردات

البطش : الأخذ بالعنف والشدة

يبدىء ويعيد : يبدأ الخلق ثم يفنيهم ثم يعيدهم أحياء مرة أخرى

الغفور : أى : الذى يعفو ويستر ذنوب عباده بمغفرته

الودود : أى : الذى يحب أولياءه ويتودد إليهم بالعفو عن صغير ذنوبهم

المجيد : العظيم الجليل المتعالى

الجنود : تطلق تارة على العسكر ، وتطلق أخرى على الأعوان ، والمراد بهم هنا الجماعات الذين تجندوا على أنبياء الله واجتمعوا على أذاهم

فرعون : هو طاغية مصر

ثمود : قبيلة بائدة من العرب لا يعرف من أخبارها إلا ما قصه الله علينا

محيط : أى : هم فى قبضته وحوزته

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه وعيد الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ، ووعد الذين آمنوا وعملوا الصالحات أردف ذلك كله بما يدل على تمام قدرته على ذلك ، ليكون ذلك بمثابة توكيد لما سبق من الوعيد والوعد .

التفسير

قوله تعالى : (إن بطش ربك لشديد) أى : إن بطشه وانتقامه من أعدائه الذين كذبوا رسله وخالفوا أمره لشديد قوى فإنه سبحانه ذو القوة المتين الذى ماشاء كان كما يشاء فى مثل لمح البصر أو هو أقرب ولهذا قال تعالى : (إنه هو يبدىء ويعيد) أى : من قوته وقدرته التامة يبدىء الخلق ويعيده كما بدأه

بلا تمانع ولامدافع فهو سبحانه وتعالى لايعجزه شىء فإنه هو المبدىء والمعيد ، ومن كان كذلك فلا أشد من بطشه ، وهو مع ذلك الغفور الودود .

قال تعالى : (وهو الغفور الودود) يغفر لمن تاب إليه ولوده ويحبه فهو سبحانه الموصوف بشدة البطش ، ومع ذلك هو الغفور الودود ، المتودد إلى عباده بنعمه الذى يود من تاب اليه وأقبل عليه ، وهو الودود أيضا أى المحبوب . أخرج ابن جرير وابن المنذر والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس قال : الودود الحبيب(١) والتحقيق أن اللفظ يدل على الأمرين ، على كونه واداً لأوليائه ومودودا لهم ، فأحدهما بالوضع ، والآخر باللزوم ، فهو الحبيب المحب لأوليائه يحبهم ويحبونه قال شعيب عليه السلام : (إن ربى رحيم ودود)(٢) . وقال تعالى : (نبىء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم وأن عذابى هو العذاب الأليم)(٣) .

ومماألطف اقتران اسم الودود بالرحيم وبالغفور ، فإن الرجل قد يغفر لمن أساء إليه ولايحبه ، وكذلك قد يرحم من لايحب والرب ـ تعالى ـ يغفر لعبده إذا تاب إليه ، ويرحمه ويحبه مع ذلك ، فإنه يحب التوابين ، وإذا تاب إليه عبده أحبه ولو كان منه ماكان .

﴿ قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون)(٤) قوله تعالى : (ذو العرش المجيد) .

قال ابن القيم : أضاف سبحانه العرش إلى نفسه ، كما تضاف إليه الأنبياء العظيمة الشريفة . وهذا يدل على عظمة العرش ، وقربه منه سبحانه ، واختصاصه به ، بل يدل على غاية القرب والاختصاص ، كما يضيف الى نفسه « بذو » صفاته القائمة به . كقوله : (ذو القوة) وكقوله : (ذو الجلال والإكرام) ويقال : ذو العزة . وذو الملك ، وذو الرحمة ، ونظائر ذلك . فلوكان حظ العرش منه حظ الأرض السابعة لكان لافرق أن يقال : ذو العرش وذو الأرض .

والمعلوم عند كل من قرأ شيئا فى عقائد السلف أن العرش مخلوق حسى وأنه أعظم من السموات والأرض كما قال الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى الحديث الصحيح : والذى فيه « والعرش لايقدر قدره إلا الله ـ عزوجل ـ وأن هذا العرش الذى وصفه الله بأنه عرش كريم كما فى قوله تعالى : ﴿ فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم ﴾(٥) وقال : (وهو رب العرش العظيم ﴾(٦) وقال : ﴿ وهو العفور الودود ، ذو العرش المجيد ﴾ فعلى جر ، المجيد ، يكون صفة للعرش ، وعلى الرفع يكون « المجيد » اسم الله تبارك وتعالى .

وقوله تعالى) (المجيد) وصف نفسه سبحانه بالمجيد . . وهو المتضمن لكثرة صفات كماله وسعتها ، وعدم إحصاء الخلق لها ، وسعة أفعاله وكثرة خيره ودوامه . وأما من ليس له صفات كمال ولا أفعال حميدة فليس له من المجد شىء .

---

(١)انظر الدر المنثور فى التفسير المأثور للسيوطى ٨/ ٤٧١
(٢) سورة هود الآية : ٩٠
(٣) سورة الحجر الآية : ٥٠
(٤) سورة يونس الآية : ٥٨
(٥) سورة المؤمنون الآية : ١١٦
(٦) سورة التوبة الآية : ١٢٩

وقال ابن القيم : والمجد فى لغة العرب كثرة أوصاف الكمال ، وكثرة أفعال الخير . وأحسن ماقرن اسم المجيد إلى الحميد ، كما قالت الملائكة البيت الخليل عليه السلام : (رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد)[1] وكما شرع لنا فى آخر الصلاة أن نثنى على الرب تعالى بأنه حميد مجيد ، وشرع فى آخر الركعة عند الاعتدال ، أن نقول « ربنا ولك الحمد أهل الثناء والمجد ، فالحمد والمجد على الإطلاق لله الحميد المجيد ، فالحميد الحبيب المستحق لجميع صفات الكمال ، والمجيد العظيم الواسع القادر الغنى ، ذو الجلال والإكرام .

ومن قرأ (المجيد) بالكسر فهو صفة لعرشه سبحانه ، وإذا كان عرشه مجيدا فهو سبحانه أحق بالمجد . وقد استشكل هذه القراءة بعض الناس ، وقال : لم يسمع فى صفات الخلق مجيد ثم خرجها على أحد الوجهين ، إما على الجوار ، وإما أن يكون صفة لربك . وهذا من قلة بضاعة هذا القائل . فإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ وصف عرشه بالكرم ، وهو نظير المجيد ، ووصفه بالعظمة ، فوصفه سبحانه بالمجد مطابق لوصفه بالعظمة والكرم ، بل هو أحق المخلوقات أن يوصف بذلك ، لسعته وحسنه وبهاء المنظر وعلو القدر والرتبة والذات ، ولايقدر قد عظمته وحسنه وبهاء منظره إلا الله ـ سبحانه وتعالى ـ ومجده مستفاد من مجد خالقه ومبدعه ، والسموات السبع والأرضون السبع فى الكرسى ـ الذين بين يديه ـ كحلقة ملقاة فى أرض فلاة ، والكرسى فيه كتلك الحلقة فى الفلاة . قال ابن عباس : السموات السبع فى العرش كسبعة دراهم جعلن فى ترس ، فكيف لايكون مجيدا وهذا شأنه ، فهو عظيم كريم مجيد . وأما تكلف هنا المتكلف جره الى الجوار ، أو أنه صفة لربك فتكلف شديد ، وخروج عن المألوف فى اللغة فى غير حاجة الى ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ فعال لما يريد ﴾ أى : مهما أراد فعله لامعقب لحكمه ولايسأل عما يفعل لعظمته وقهره وحكمته وعدله .

قال الإمام الطحاوى : وكل شى يجرى بتقديره ومشيئته ، ومشيئته تنفذ لامشيئة العباد ، إلا ماشاء لهم فما شاء لهم كان ومالم يشأ لم يكن ، يهدى من يشاء ، ويعصم ويعافى فضلا ، ويصل من يشاء ، ويخذل ويبتلى عدلا . وكلهم يتقلبون فى مشيئته ، بين فضله وعدله ، ولاراد لقضائه ، ومعقب لحكمه ، ولاغالب لأمره ، آمنا بذلك كله ، وأيقنا أن كلا من عنده .

وقال ابن القيم : اشتملت هذه السورة على اختصارها من التوحيد على وصفه سبحانه بالعزة المتضمنة للقدرة والقوة ، وعدم النظير ، والحمد المتضمن لصفات الكمال ، والتنزيه عن أضدادها مع محبته والهيته ، وملكه السموات والأرض ، المتضمن ا لكمال غناه ، وسعة ملكه ، وشهادته على كل شىء المتضمن لعموم اطلاعه على ظواهر الأمور وبواطنها ، وإحاطة بصره بمرئياتها وسمعه بمسموعاتها وعلمه بمعلوماتها ، ووصفه بشدة البطش المتضمن لكمال القوة والعزة والقدرة ، وتفرده بالابداء والإعادة المتضمن لتوحيد ربوبيته وتصرفه فى المخلوقات بالإبداء والاعادة وانقيادها لقدرته ، فلايستعصى عليه منها شىء ووصفه بالمغفرة المتضمن لكمال جوده وإحسانه وغناه ورحمته ، ووصفه بالودود المتضمن لكونه حبيبا إلى

---

(١) سورة هود الآية : ٧٣

عباده ومحبا لهم ، ووصفه بأنه ذو العرش الذى لايقدر قدره سواه ، وأن عرشه المختص به لايليق بغيره أن يستوى عليه ، ووصفه بالمجد المتضمن لسعة العلم والقدرة والملك والغنى والجود والإحسان والكرم ، وكونه فعالا لما يريد المتضمن لحياته وعلمه وقدرته ومشيئته وحكمته وغير ذلك من أوصاف كماله .

فهذه السورة كتاب مستقل فى أصول الدين ، تكفى من فهمها فالحمدلله الذى أنزل على عبده الكتاب ، وتبارك الذى نزل الفرقان على عبده .

وقوله تعالى : **﴿ هل أتاك حديث الجنود ، فرعون وثمود ، بل الذين كفروا فى تكذيب والله من ورائهم محيط ﴾** .

ختم سبحانه وتعالى السورة الكريمة بذكر فعله وعقوبته بمن أشرك به وكذب رسله ، تحذيرا لعباده من سلوك سبيلهم ، وأن من فعل فعلهم فعل به كما فعل بهم ، ثم أخبر سبحانه عن أعدائه بأنهم مكذبون بتوحيده ورسالاته مع كونهم فى قبضته ومن هو قادر عليه من كل وجه ، وبكل اعتبار ، فقال تعالى : **﴿ بل الذين كفروا فى تكذيب ، والله من ورائهم محيط ﴾** فهذا أعجب عجب ممن كفر بمن هو محيط به ، وآخذ بناصيته قادر عليه قال تعالى : **﴿ إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا لايضركم كيدهم شيئا إن الله بما يعملون محيط ﴾** [(١)] .

قوله تعالى : **﴿ بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ ﴾**

ثم وصف سبحانه وتعالى كلامه بأنه مجيد ، وهو أحق بالمجد من كل الأمر ، كما أن المتكلم به له المجد كله . فهو المجيد ، وكلامه مجيد ، وعرشه مجيد ، قال ابن عباس - رضى الله عنهما - : قرآن مجيد ، كريم . لأن كلام الرب ليس كما يقول الكافرون : شعر ، وكهانة ، وسحر وقد تقدم أن المجد السعة ، وكثرة الخير ، وكثرة خير القرآن لايعلمها إلا من تكلم به .

وقوله تعالى : **﴿ فى لوح محفوظ ﴾** أكثر القراء على الجر ، صفة للوح وفيه إشارة إلى أن الشياطين لايمكنهم التنزل به ، لأن محله محفوظ أن يصلوا إليه ، وهو فى نفسه محفوظ أن يقدر الشيطان على الزيادة فيه والنقصان . فوصفه سبحانه بأنه محفوظ فى قوله : **﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾** [(٢)] ، ووصف محله بالحفظ فى هذه السورة . فالله - سبحانه وتعالى - حفظ محله ، وحفظه من الزيادة والنقصان والتبديل ، وحفظ معانيه من التحريف ، كما حفظ ألفاظه من التبديل ، وأقام له من يحفظ حروفه من الزيادة والنقصان ، ومعانيه من التحريف والتغيير .

واللوح المحفوظ شىء أخبرنا الله - عز وجل - به وأنه أودعه كتابه ولكنه لم يعرفنا حقيقته وكنهه أن نؤمن به كما جاء به كتاب الله وليس علينا البحث عن دقائقه وتفاصيله وماوراء ذلك مما لم يأت به خبر عن النبى - صلى الله عليه وسلم -

آمنا به كل من عند ربنا والحمدلله رب العالمين وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

---

(١) سورة آل عمران الآية : ١٢٠ (٢) سورة الحجر الآية : ٩

تفسير سورة الطارق

مقدمة عن السورة

قال صاحب البصائر : السورة مكية :

عدد آياتها : سبع عشرة آية .

وكلماتها : إحدى وستون .

وحروفها : مائتان وتسع وثلاثون .

فواصل آياتها : (ظل بق عار) .

سميت سورة الطارق لمفتتحها .

مقصود السورة :

القسم على حفظ أحوال الانسان ، والخبر عن حاله فى الابتداء والانتهاء وكشف الأسرار فى يوم الجزاء ، والقسم على أن كلمات القرآن جزل ، غير هزل ، من غير امتراء ، وشفاعة حضرة الكبرياء إلى سيد الأنبياء بإمهال الكافرين ، فى العذاب والبلاء ، فى قوله ﴿ أمهلهم رويدا ﴾ .

المتشابهات :

﴿ فمهل الكافرين أمهلهم رويدا ﴾ وهذا تكرار ، وتقديره : مهّل مهّل مهّل ؛ لكنه عدل فى الثانى الى (أمهل) ؛ لأنه من أصله ، وبمعناه ، كراهة التكرار ، وعدل فى الثالث إلى قوله : (رويدا) ؛ لأنه بمعناه ، أى : أرودهم أروادا ، ثم صغر (اروادا) تصغير الترخيم ، فصار : رويدا . وقيل : (رويدا) صيغة مصدر محذوف ، أى : امهالاً رويدا ، فيكون التكرار مرتين . وهذه أعجوبة .

مناسبة السورة لما قبلها :

(١) أنه ابتدأ هذه بالحلف بالسماء كالسورة قبلها .

(٢) انه ذكر فى السابقة تكذيب الكفار للقرآن ، وهنا وصف القرآن بأنه القول الفصل ، وفيه رد على أولئك المكذبين .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّاءٍ

دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾

معانى المفردات

والطارق : (قسم) بالنجم الثاقب يطلع ليلاً .

النجم الثاقب : المضىء المتوهج أو المرتفع عالى .

إن كل نفس : ماكل نفس (جواب القسم) .

لَمّا عليها حافظ : إلا عليها مهيمن ورقيب وهو الله - جل جلاله -

ماء دافق : ماء ممتزج من مائى الرجل والمرأة مصبوب بدفع وسرعة فى الرحم .

الصلب : الظهر .

الترائب : عظام صدر المرأة ، والمراد من بين صلب الرجل وترائب المرأة .

وقال الحسن وروى عن قتادة : يخرج من بين صلب كل واحد من الرجل والمرأة ، وترائب كل منهما وهو الموافق لما اثبته العلم حديثا .

رجعه : أى إعادته .

بلى : أى تختبر وتمتحن والمراد تظهر .

السرائر : مايسر فى القلوب من العقائد والنيات واحدها سريرة .

ذات الرجع : المطر لرجوعه الى الأرض مرارا .

ذات الصدع : النبات الذى تنشق عنه .

لقول فصل : فاصل بين الحق والباطل .

أكيد كيدا : أجازيهم على فعلهم بالاستدراج .

فمهل الكافرين : فلا تستعجل بالانتقام منهم .

أمهلهم رويدا : إمهالا قريبا ، أو قليلا حتى يأتيهم العذاب .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ والسماء والطارق ، وما أدراك ما الطارق ، النجم الثاقب إن كل نفس لما عليها حافظ ﴾ .

يقسم تبارك وتعالى بالسماء ونجومها المضيئة وكل منها آية من آياته الدالة على وحدانيته سبحانه وتعالى ولهذا قال سبحانه) ﴿ والسماء والطارق ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ وماأدراك ما الطارق ﴾ ثم فسره بقوله : ﴿ النجم الثاقب ﴾ .

قال قتادة : وغيره : إنما سمى النجم طارقا لأنه إنما يرى بالليل ويختص بالنهار فشبه بالطارق الذى يطرق الناس ، أو أهله ليلا ، قال الفراء : ماأتاك ليلا فهو طارق .

قوله تعالى : ﴿ النجم الثاقب ﴾ قال ابن عباس رضى الله عنهما : المضئ وقال السدى : يثقب الشياطين إذا أرسل عليها وقال عكرمة : هو مضىء ومحدق للشياطين .

قال تعالى : ﴿ ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين ﴾(١) .

قال العلامة ابن القيم : والمراد به الجنس لانجم معين . ومن عينه الثُريا ، او زحل ، فإن أراد التمثيل فصحيح ، وإن أراد التخصيص دليل عليه .

وقوله تعالى : ﴿ إن كل نفس لما عليها حافظ ﴾ والمقسم عليه هنا حال النفس الانسانية ، والاعتناء بها ، وإقامة الحفظة عليها ، وأنها لم تترك سدى ، بل قد أرصد عليها من يحفظ عليها أعمالها ويحصيها ، فأقسم سبحانه أنه مامن نفس إلا عليها حافظ من الملائكة ، يحفظ عملها وقولها ويحصى ماتكتسب من خير أو شر قال تعالى : ﴿ وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ماتفعلون ﴾(٢) وقال تعالى : ﴿ له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله ﴾(٣) وقال سبحانه : ﴿ أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ـ الآية ﴾(٤) .

وقوله تعالى : ﴿ فلينظر الإنسان مم خلق ﴾ أى : فلينظر نظر الفكر والاستدلال ليعلم أن الذى ابتدأ أول خلقه من نطفة قادر على إعادته . قال تعالى : ﴿ أولم يتفكروا فى أنفسهم ﴾(٥) وقال سبحانه : ﴿ ماأشهدتهم خلق السموات والأرض ولاخلق أنفسهم ﴾(٦) الاية . . فنبه سبحانه الإنسان على دليل المعاد بما يشاهده من حال مبدئه على طريقة القرآن فى الاستدلال على المعاد بالمبدأ .

قوله تعالى : ﴿ خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب ﴾

أخبر سبحانه أنه خلق الانسان من ماء دافق . والدفق صب الماء . وسبب تدفقه كما قال علماء

---

(١) سورة الملك الآية : ٥
(٢) سورة الانفطار الآيات : من ١٠ إلى ١٢
(٣) سورة الرعد الآية : ١١
(٤) سورة الرعد الآية : ٣٣
(٥) سورة الروم الآية : ٨
(٦) سورة الكهف الآية : ٥١

الطب : تقلصات فى جدار الحويصلة المنوية مع تقلصات القناة القاذفة للمنى وتقلصات عضلات العجان مما يسبب الرعشة عند الإنزال .

ونبه سبحانه بكونه دافقا على أنه ضعيف غير متماسك كما قال تعالى : ﴿ **ألم نخلقكم من ماء مهين** ﴾[1] .

ثم ذكر سبحانه محله الذى يخرج منه ، وهو بين الصلب والترائب .

قال ابن القيم : قيل صلب الرجل وترائبه وهى صدره ، فيخرج من صلبه وصدره ، وهذه الآية الدالة على قدرة الخالق سبحانه نظير إخراجه اللبن الخالص من الفرث والدم . أهـ .

وقفة علمية مع هذه الآية الكريمة : ﴿ **يخرج من بين الصلب والترائب** ﴾

قال الدكتور محمد على البار فى كتابه « خلق الانسان بين الطب والقرآن » مانصه :

« ولنبق قليلا مع الآية الكريمة التى تتحدث عن الماء الدافق الذى يخرج من بين الصلب والترائب نتملى معانيها المعجزة الباهرة .

﴿فلينظر الإنسان مم خلق ، خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب ، إنه على رجعه لقادر يوم تبلى السرائر ﴾

والآية الكريمة تحثنا على النظر فى الانسان الذى خلق . . من هذا الماء الدافق الذى يخرج من بين الصلب والترائب . . وسبب تدفقه كما أشرنا الى ذلك هو تقلصات جدار الحويصلة المنوية والقناة القاذفة للمنى مع تقلصات عضلات العجان . . فتدفع بالسائل المنوى بمحتوياته من ملايين الحيوانات المنوية عبر الإحليل إلى المهبل وهذا هو سبب الرعشة عند الإنزال . . وذلك كله متعلق بالجهاز العصبى اللاإرادى والمسمى بالجهاز التعاطفى ، أما الانتشار والانتصاب نسبة أيضا أعصاب خاصة من الجهاز العصبى اللاإرادى وتدعى بنظير التعاطفى وبواسطتها تمتلىء الأوردة الدموية الكثيفة فى القضيب فتسبب الانتشار . وهذه الأعصاب تأتى من منطقة بين الصلب والترائب .

وأنت ترى أن ذلك كله موكول إلى جهاز غير إرادى ولاتتحكم فيه الإرادة حتى يخرج أمر الخلقة من كل شبهة للإرادة الإنسانية . ولابد من النظر والتدبر فى كيفية خلق الانسان لأن فيه من دلائل القدرة الإلهية العظيمة مايبهر العقول ويملأ القلوب إيمانا وخشوعا وتبتلا . . ويجعلها تقترب من ذلك النور الإلهى فترى الذى أنشأ وأبدع وخلق الإنسان من هذا الماء الدافق . . . هذا الماء المهين . . يتطور فى نشأته وخلقته طورا بعد طور ومرحلة بعد مرحلة وخلقا من بعد خلق حتى يخرجه طفلا ثم ليبلغ أشده ثم يعود أدراجه إلى الشيخوخة وإلى الوهن والضعف ثم إلى حفرة ضيقة لاأنيس فيها ولاصديق . . ثم إلى بعث ونشور فتمتلىء نفسه بهذه الصور المتلاحقة الباهرة والنشور عند رؤ يته لبداية الخلق فإن الذى أخرجه من ماء دافق هو سبحانه على رجعه لقادر .

(١) سورة المرسلات الآية : ٢٠

تقول الآية الكريمة إن الماء الدافق يخرج من بين الصلب والترائب .

ونحن قد قلنا إن هذا الماء (المنى) إنما يتكون فى الخصية وملحقاتها كما تتكون البويضة فى المبيض لدى المرأة . . فكيف تتطابق الحقيقة العلمية مع الحقيقة القرآنية .

إن الخصية والمبيض إنما يتكونان من الحدبة التناسلية بين صلب الجنين وترائبه . . والصلب هو العمود الفقرى . . والترائب هى الأضلاع . . . وتتكون الخصية والمبيض فى هذه المنطقة بالضبط اى : بين الصلب والترائب . ثم تنزل الخصية تدريجيا حتى تصل إلى كيس الصفن (خارج الجسم) فى أواخر الشهر السابع من الحمل . . وبينما ينزل المبيض إلى حوض المرأة ولاينزل أسفل من ذلك .

ومع هذا فإن تغذية الخصية والمبيض بالدماء والأعصاب واللمف تبقى من حيث أصلها . . أى : من بين الصلب والترائب . . فشريان الخصية أو المبيض يأتى من الشريان الأبهر (الأورطى البطنى) من بين الصلب والترائب كما أن وريد الخصية يصب فى نفس المنطقة . . يصب فى الوريد الأيسر فى الوريد الكلوى الأيسر بينما يصب وريد الخصية الأيمن فى الوريد الأجوف السفلى . . وكذلك أوردة المبيض وشريانها تصب فى نفس المنطقة أى : بين الصلب والترائب . . كما أن الأعصاب المغذية للخصية أو المبيض تأتى من المجموعة العصبية الموجودة تحت المعدة من بين الصلب والترائب . . وكذلك الأوعية اللمفاوية تصب فى نفس المنطقة أى : بين الصلب والترائب .

فهل يبقى بعد كل هذا شك أن الخصية أو المبيض إنما تأخذ تغذيتها ودماءها وأعصابها من بين الصلب والترائب ؟ . . فالحيوانات المنوية لدى الرجل أو البويضة لدى المرأة ، إنما تستقى مواد تكوينها من بين الصلب والترائب كما أن منشأها ومبدأها هو من بين الصلب والترائب .

والآية الكريمة إعجاز كامل حيث تقول من بين الصلب والترائب ولم تقل من الصلب والترائب . . . فكلمة « بين » ليست بلاغية فحسب وإنما تعطى الدقة العلمية المتناهية . .

وقد أخطأ كثير من المفسرين القدامى حيث لم يهتموا بهذه اللفظة بين . . وقالوا إن المنى يخرج من صلب الرجل . . وماء المرأة يتكون من ترائبها . . وهذا خطأ علمى وخطأ منهجى حيث لم يعطوا الآية حقها فحذفوا كلمة « بين » ولذا وقعوا فى الخطأ .

والعجيب أن الإمام ابن القيم قد تنبه إلى هذا الخطأ الذى وقع فيه أغلب المفسرين فقال فى إعلام الموقعين : (الجزء الأول ص١٥٨) . . « ولا خلاف أن المراد بالصلب صلب الرجل . واختلف فى الترائب فقيل : المراد بها ترائبه أيضا . وهى عظام الصدر مابين الترقوة إلى التندوة . . وقيل المراد بها ترائب المرأة والأول أظهر لأنه سبحانه قال : ﴿ يخرج من بين الصلب والترائب ﴾ ولم يقل يخرج من الصلب والترائب فلابد أن يكون ماء الرجل خارجا من بين هذين الملتقين كما قال فى اللبن : يخرج من بين فرث ودم .

وأيضا فإنه سبحانه أخبر أنه خلقه من نطفة فى غير موضع . والنطفة هى ماء الرجل ، كما قال أهل اللغة قال الجوهرى . والنطفة الماء الصافى قل أو كثر والنطفة ماء الرجل والجمع نطف .

وأيضا فإن الذى يوصف بالدفق والنضح انما هو ماء الرجل ولايقال نضحت المرأة ولا دفقته . والذى أوجب الأصحاب القول الآخر إنهم رأوا أهل اللغة قالوا الترائب : موضع القلادة من الصدر . قال الزجاج : أهل اللغة مجموعون على ذلك .

وهذا يدل على اختصاص الترائب بالمرأة بل يطلق على الرجل والمرأة قال الجوهرى : الترائب عظام الصدر مابين الترقوة إلى التندوة . ومع هذا فقد ذكر القرطبى فى تفسيره عن الحسن البصرى وغيره بانه يخرج من صلب الرجل وترائبه . . وصلب المرأة وترائبها . . وكذا ذكر الألوسى فى تفسيره . . وهو قريب مما ذكرناه . .

قوله تعالى : ﴿ إنه على رجعه لقادر ﴾ أى : على رجعه إليه يوم القيامة ، كما هو قادر على خلقه من ماء هذا شأنه ، أخرج الإمام أحمد بسنده عن بشر بن حجاش القرشى أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بصق يوما فى كفه فوضع عليها إصبعه ثم قال : قال الله تعالى : يا ابن آدم أنى تعجزنى وقد خلقتك من مثل هذه حتى إذا سويتك وعدلتك مشيت بين بردين وللأرض منك وئيد ، فجمعت ومنعت حتى إذا بلغت التراقى قلت : أتصدق ، وأنى أوان الصدقه(١) .

قوله تعالى : ﴿ يوم تبلى السرائر ﴾ أى يوم القيامة تبلى فيه السرائر أى تظهر وتبدو ويبقى السر علانية والمكنون مشهورا .

قوله تعالى : ﴿ فما له من قوة ولا ناصر ﴾ أخبر سبحانه عن حال الإنسان فى يوم القيامة أنه غير ممتنع من عذاب الله . لابقوة منه ولابقوة من خارج وهو الناصر فان العبد اذا وقع فى شدة ، فإما أن يدفعها بقوته أو قوة من ينصره ، وكلاهما معدوم فى حقه . ونظيره قوله تعالى : ﴿ لايستطيعون نصر أنفسهم ولاهم منا يصحبون ﴾(٢) .

قوله تعالى : ﴿ والسماء ذات الرجع والأرض ذات الصدع إنه لقول فصل وماهو بالهزل ﴾ .

هذا قسم ثان فى السورة الكريمة أقسم سبحانه بالسماء ورجعها بالمطر والأرض وصدعها بالنبات . قال ابواسحاق : الرجع المطر ؛ لأنه يجيىء ويرجع ويتكرر . ورجع السماء هو إعطاء الخير الذى يكون من جهتها حالا بعد حال ، على مرور الأزمان ترجعه رجعا ، أى تعطيه مرة بعد مرة . والخير كله من قبل السماء يجيىء . ولما كان أظهر الخير المشهود بالعيان المطر فسر الرجع به ، وحسن تفسيره به ومقابلته بصدع الأرض عن النبات ، وفسر الصدع بالنبات ، لأنه يصدع الأرض أى يشقها ، فأقسم سبحانه بالسماء ذات المطر ، والأرض ذات النبات ، وكل من ذلك آية من آيات الله تعالى الدالة على ربوبيته .

وأقسم على كون القرآن حقا وصدقا فقال : ﴿ إنه لقول فصل وماهو بالهزل ﴾ كما أقسم فى أول السورة على حال الإنسان فى مبدئه ومعاده . والقول الفصل هو الذى يفصل بين الحق والباطل ، فيميز هذا من هذا ، ويفصل بين الناس فيما اختلفوا فيه ، ومصيب الفصل الذى ينفصل عنده المراد ويتميز من غيره

(١) مسند أحمد ٤/٢١٠

(٢) سورة الأنبياء الآية : ٤٣

ومنه فصل الخطاب وأيضا فالقول بيان المعنى ضد الإجمال . فكون القرآن فصلا يتضمن هذه المعانى كلها ، ويتضمن كونه حقا ليس بالباطل ، وجداً ليس بالهزل ولما كان الهزل هو الذى لاحقيقة له . . وهو الباطل واللعب ـ قال بين الفصل والهزل .

قوله تعالى : ﴿ إنهم يكيدون كيداً وأكيد كيداً ﴾ وإنما يكيد المكذبون ويحيلون ويخادعون لرده ، ولايردونه بحجة ، والله يكيدهم كما يكيدون دينه ورسوله وعباده ، وكيده سبحانه استدراجهم من حيث لايعلمون ، والإملاء لهم حتى يأخذهم على كما قال تعالى : ﴿ وأملى لهم إن كيدى متين ﴾[1] فالإنسان إذا أراد أن يكيد غيره يظهر له إكرامه وإحسانه إليه حتى يطمئن إليه ، فيأخذه كما يفعل الملوك ، فإذا فعل ذلك أعداء الله فأوليائه ودينه كان كيد الله لهم حسنا لاقبح فيه ، فيعطيهم ويعافيهم وهو يستدرجهم ، حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون .

قوله تعالى : ﴿ فمهل الكافرين أمهلهم رويدا ﴾ أى : أنظرهم قليلا ولا تستعجل لهم ، والرب تعالى هو الذى يمهلهم . وإنما خرج الخطاب للرسول على جهة التهديد والوعيد لهم ، أو على معنى انتظر بهم قليلا وسترى فإذا أحل بهم من العذاب أو النكال والعقوبة والهلاك كما قال تعالى : ﴿ نمتعهم قليلا ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ ﴾[2]

---

(١) سورة الأعراف الآية : ١٨٣

(٢) سورة لقمان الآية : ٢٤

تفسير سورة
الأعلى

مقدمة عن السورة :

قال صاحب البصائر :

السورة مكية .

عدد آياتها : تسع عشرة آية .

كلماتها : ثمان وسبعون

وحروفها : مائتان وإحدى وسبعون .

فواصل آياته : ل الألف .

سبب التسمية : سميت سورة الأعلى ، لمفتتحها وكذلك سورة « سبح » .

مقصود السورة:

بيان علو الذات المقدسة ، وذكر الخلقة وتربية الحيوانات ، والإشادة بالثمار ، والنبات ، والأمن من نسخ الآيات ، وبيان سهولة الطاعات ، وذل الكفار فى قعر الدركات ، والتحضيض على الصلاة والزكاة ، وفى الدنيا بقاء الخيرات ، وفى الآخرة بقاء الدرجات فى قوله : ﴿ **والآخرة خير وأبقى** ﴾ .

المتشابهات فى السورة :

﴿ **سبح اسم ربك الأعلى الذى خلق** ﴾ وفى العلق : ﴿ **اقرأ باسم ربك الذى خلق** ﴾ زاد فى هذه السورة ﴿ **الأعلى** ﴾ مراعاته للفواصل وفى هذه السورة : ﴿ **خلق فسوى** ﴾ ، وفى العلق ﴿ **خلق الإنسان من علق** ﴾ .

فضل السورة :

أخرج ابوداود وغيره من أصحاب السنن ماورواه عقبة : لما نزل (فسبح باسم ربك العظيم) قال صلى الله عليه وسلم : اجعلوها فى ركوعكم ، ولما نزل (سبح اسم ربك الأعلى) قال صلى الله عليه وسلم : اجعلوها فى سجودكم[1] .

وأخرج الامام أحمد ومسلم وأبوداود والترمذى عن النعمان بن بشير « أن رسول الله صلى الله صلى الله عليه وسلم ـ كان يقرأ فى العيدين ويوم الجمعة (سبح اسم ربك الأعلى ، وهل أتاك حديث الغاشية »

---

(١) سنن أبى داود ١/٥٤٢ رقم ٨٦٩ وابن ماجه ١/٢٨٧ رقم ٨٨٧

وإن وافق يوم الجمعة قرأهما جميعا[(١)] .

مناسبة السورة لما قبلها :

أنه ذكر فى تلك خلق الإنسان ، وأشار إلى خلق النبات بقوله : ﴿ والأرض ذات الصدع ﴾ وذكر هنا خلق الإنسان فى قوله : ﴿ خلق فسوى ﴾ . وخلق النبات فى قوله : ﴿ أخرج المرعى فجعله غثاء أحوى ﴾ .

وقصة النبات هنا أوضح وبسط أكثر ، وخلق الإنسان أكثر تفصيلا .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ﴿١١﴾ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾

معانى المفردات

التسبيح : التنزيه

فسوى : أى فسواها ووضع خلقها على نظام كامل .

قدر : أى : قدر لكى حى مايصلحه مدة بقائه .

فهدى : أى : هداه وعرفه وجه الانتفاع بما خلق له .

(١) صحيح مسلم ٢/٥٩٨ رقم ٨٧٨ وسنن أبى داود ١/٦٧٠ رقم ١١٢٢ وسنن الترمذى ٢/٤١٣ رقم ٥٣٣ وابن ماجة ١/٣٥٥ رقم ١١١٩ ومسند أحمد ٤/٢٧١

والمرعى : كل ماتخرجه الأرض من النبات والثمار والزروع المختلفة .
والغثاء : مايقذف به السيل إلى جانب الوادى من الحشيش والنبات .
والأحوى : الذى يضرب لونه إلى السواد .
فلاتنسى : أى فلاتنساه بل تحفظه .
واليسرى : أعمال الخير التى تؤدى إلى اليسر .
الأشقى : هو المعاند المصر على الجحد والإنكار ، المتمكن من نفسه الكفر .
يصلى النار أى : يذوق حرها .
النار الكبرى : هى أسفل دركات الجحيم .
لايموت فيها ولا يحيى : لايموت أى : فيستريح ، ولايحيا أى : حياة طيبة فيسعد .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾

أى : نزه اسم ربك عن كل ما لايليق بجلاله فى ذاته وصفاته وأسمائه وأفعاله وأحكامه فلاتذكره إلا على وجه التعظيم له ، ولاتطلق اسمه على غيره زاعما أنه يشاركه فى صفاته .

أى : منزه اسم ربك من كل ما لايليق بجلاله فى ذاته وصفاته وأسمائه وأفعاله وأحكامه فلاتذكره إلا على وجه التعظيم له ، ولاتطلق اسمه على غيره زاعما أنه يشاركه فى صفاته .

قال القرطبى : قال ابن عباس والسدى : معنى (سبح اسم ربك الأعلى) أى : عظم ربك الأعلى . وقبل : نزه ربك عن السوء وعما يقول فيه الملحدون . وذكر الطبرى : أن المعنى نزه اسم ربك عن أن تسمى به أحدا سواه . وقيل : نزه تسمية ربك وذكرك إياه أن تذكره وأنت خاشع معظم .

قال الامام أحمد بسنده عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان إذا قرأ : (سبح اسم ربك الأعلى) قال : « سبحان ربى الأعلى »[(١)] .

قال القرطبى : وروى عن علىّ وابن عباس وابن عمر وابن الزبير وأبى موسى وعبدالله بن مسعود ـ رضى الله عنهم ـ أنهم كانوا اذا افتتحوا قراءة هذه السورة قالوا : سبحان ربى الأعلى ، امتثالا لأمره فى ابتدائها ، فيختار الاقتداء بهم فى قراءتهم .

وقال الإمام أحمد بسنده عن عقبة بن عامر الجهنى لما نزلت (فسبح باسم ربك العظيم) قال لنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ اجعلوها فى ركوعكم « فلما نزلت (سبح اسم ربك الأعلى) قال « اجعلوها فى سجودكم »[(٢)] .

---

(١) مسند أحمد ٢٣٢/١ وسنن أبى داود ٥٤٩/١ رقم ٨٨٣

(٢) مسند أحمد ٢٧١/٤

« العلى الأعلى »

قال الشيخ عبدالرحمن عبدالخالق :

جاء الكتاب والسنة والآثار عن السلف مما يثبت إثباتا لاشك فيه أن الله سبحانه وتعالى هو العلى ، وهو الأعلى بكل مايوحيه هذان الاسمان من معان .

فقد سمى الله نفسه بـ(الأعلى) فى قوله تعالى : (سبح اسم ربك الأعلى)

وقال جل وعلا : ﴿ ومالأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ﴾ . وسمى نفسه بـ(العلى) وذلك فى قوله تعالى : ﴿ وهو العلى العظيم ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وأن الله هو العلى الكبير ﴾ . وغير ذلك من الآيات .

وهذا الوصف (العلو) يتضمن معنيين كلاهما ثابت لله سبحانه وتعالى ـ وهما : علو المكان وعلو المكانة .

فمنزلة الله سبحانه وتعالى فوق كل منزلة ، ومكانته سبحانه وتعالى فوق كل مكانة ، فهو الواحد الأحد الذى ليس له شبيه من خلقه ولاند له ، ولامثيل له ، ولاكفء له ، الخلق عبيده ، وفى قبضته وقهره وتحت سلطانه ، ولاخروج لأحد من قهره وسلطانه أبدا ولاعلم لأحد من خلقه إلا بما شاء ولارحمة إلا مايرسلها ولاممسك لرحمته عن من يشاء بل هو المتصرف وحده سبحانه وتعالى ، ومن خالف فى شىء من ذلك فهو مشرك جاحد .

وأما المعنى الثانى من معانى العلو فهو علو ذاته إذ هو سبحانه وتعالى فوق خلقه مستو على عرشه ، اليه يصعد الكلم الطيب ، وتعرج الملائكة والروح إليه ، ويتنزل الأمر من عنده والقرآن والسنة كلها شواهد باثبات هذا المعنى . . .

ثم ذكر سبحانه من أوصافه الجليلة ، ومظاهر قدرته الباهرة ودلائل وحدانية وكماله فقال تعالى : ﴿ الذى خلق فسوى) أى : خلق المخلوقات جميعها فأتقن خلقها ، وأبدع صنعها ، فى أجمل الأشكال ، وأحسن الهيئات . كما قال تعالى : ﴿ الذى أحسن كل شىء خلقه ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ والذى قدر فهدى ﴾ أى : قدر فى كل شىء خواصه ومزاياه بما تجل عنه العقول والأفهام ، وهدى الإنسان لوجه الانتفاع بما أودعه فيها ، وهدى الأنعام إلى مراعيها ، ولوتأملت مافى النبات من الخواص ، ومافى المعادن من المزايا والمنافع ، واهتداء الإنسان لاستخراج الأدوية والعقاقير النافعة من النباتات واستخدام المعادن فى صنع المدافع والطائرات . لعلمت حكمة العلى القدير ، الذى لولا تقديره وهدايته لكنا نهيم فى دياجير الظلام كسائر الأنعام قال المفسرون : إنما حذف المفعول لافادة

العموم أى قدر لكل مخلوق وحيوان مايصلحه فهداه إليه وعرفّه وجه الانتفاع به .

وهذه الآية كقوله تعالى إخبارا عن موسى أنه قال لفرعون : ﴿ ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى ﴾[1] أى قدر قدرا وهدى الخلائق اليه كما ثبت فى صحيح مسلم عن عبدالله بن عمرو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أنْ يخلقَ السماوات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء »[2]

قوله تعالى : ﴿ والذى أخرج المرعى فجعله غثاء أحوى ﴾

أى : والذى أنبت النبات جميعه ، لترعاه الدواب والنعم ، فما من نبت إلا وهو يصلح أن يكون مرعى لحيوان من الأجناس الحية ، (فجعله غثاء أحوى) أى فجعل هذا المرعى بعد أن كان أخضر هشيما باليا كالغثاء يميل لونه إلى السواد فهو القادر سبحانه على إنبات العشب ، وعلى تبديل حاله .

قال عبدالرحمن بن زيد : أخرج المرعى أخضر ، ثم لما يبس أسود من احتراقه فصار غثاء تذهب به الرياح والسيول . وهو مثل ضربه الله تعالى للكفار لذهاب الدنيا بعد نضارتها .

ـ قوله تعالى : ﴿ سنقرئك فلاتنسى إلا ماشاء الله ﴾ أى : (سنقرئك) يامحمد القرآن (فلاتنسى) وهذا إخبار من الله تعالى ووعد منه له بأنه سيقرئه قراءة لاينساها وقوله تعالى : ﴿ إلا ماشاء الله ﴾ أى : لكن ماأراد الله نسخه فانك تنساه .

وفى هذه الآية معجزة له عليه الصلاة والسلام ، وكونه يحفظ هذا الكتاب العظيم من غير دراسة ولاتكرار ولاينساه أبدا ، من أعظم البراهين على صدق بنوته ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

وقوله تعالى : ﴿ إنه يعلم الجهر ومايخفى ﴾ أى : هو تعالى عالم بما يجهر به العباد ومايخفونه من الأقوال والأفعال ، لاتخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء كما قال تعالى : ﴿ له مافى السماوات ومافى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى ، وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى ، الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى ﴾[3] .

وفى قوله تعالى : ﴿ ونيسرك لليسرى ﴾ أى : ونوفقك للشريعة السمحة البالغة اليسر التى هى أيسر وأسهل الشرائع السماوية وهى شريعة الإسلام .

قوله تعالى : (فذكر إن نفعت الذكرى ﴾ قال ابن كثير : أى ذكر حيث تنفع التذكرة ، ومن هنا يؤخذ الأدب فى نشر العلم فلايضعه عند غير أهله .

وقوله تعالى : ﴿ سيذكر من يخشى ﴾ أى : سينتفع بهذه الذكرى والموعظة من يخاف الله تعالى ـ كما قال جل وعلا : ﴿ إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾[4] . وكما قال

---

(١) سورة طه الآية : ٥٠

(٢) صحيح مسلم ـ كتاب القدر ٢٠٤٤/٤ رقم ١٦

(٣) سورة طه الآيات : ٦ ، ٧ ، ٨

(٤) سورة ق الآية : ٣٧

سبحانه : ﴿ وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد هذا ماتوعدون لكل أواب حفيظ من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب ﴾[١].

وقال القرطبى : قد يذكر من يرجوه ، إلا أن تذكرة الخاشى أبلغ من تذكرة الراجى ؟ فلذلك علقها بالخشية دون الرجاء ، وإن تعلقت بالخشية والرجاء .

قوله تعالى : ﴿ ويتجنبها الأشقى الذى يصلى النار الكبرى ثم لايموت فيها ولايحيى ﴾ . أى : ويرفضها ويبتعد عن قبول الموعظة الكافر المبالغ فى الشقاوة (الذى يصلى النار الكبرى) أى : الذى يدخل نار جهنم المستعرة العظيمة الفظيعة قال الحسن : النار الكبرى نار الآخرة والصغرى نار الدنيا (ثم لايموت فيها ولايحيى) أى لايموت فيستريح ، ولايحيا الحياة الطيبة الكريمة ، بل هو دائم فى العذاب والشقاء . كما قال تعالى : ﴿ والذين كفروا لهم نار جهنم لايقضى عليهم فيموتوا ، ولايخفف عنهم من عذابها كذلك نجزى كل كفور وهم يصطرخون فيها ربناأخرجنانعمل صالحا غير الذى كنا نعمل أو لم نعمركم مايتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير ﴾[٢] .

قوله تعالى : ﴿ قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى ﴾ أى : قد فاز من طهر نفسه بالإيمان ، وأخلص عمله للرحمن ، (وذكر اسم ربه فصلى) أى : وذكر عظمة ربه وجلاله ، فصلى خشوعا وامتثالا لأمره .

قال ابن كثير : قال أبوبكر البزار بسنده : عن جابر بن عبدالله عن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : (قد أفلح من تزكى) قال : من شهد أن لا إلـه إلا الله ، وخلع الأنداد وشهد أنى رسول الله ، (وذكر اسم ربه فصلى) قال هى الصلوات الخمس والمحافظة عليها والاهتمام بها[٣] .

والآية الكريمة كقوله تعالى : ﴿ إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه وإلى الله المصير ﴾[٤] .

قال القرطبى : وعن عطاء وأبى العالية وقتادة : أنها نزلت فى صدقة الفطر . وعن ابن سيرين : (قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى) قال خرج فصلى بعد ماأدى . وقال عكرمة : كان الرجل يقول أقدم زكاتى بين يدى صلاتى . فقال سفيان قال الله تعالى : ﴿ قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى ﴾ .

وقال قتادة فى هذه الآية : (قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى) زكى ماله وأرضى خالقه .

قوله تعالى : ﴿ بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى ﴾ أى : بل تفضلون أيها الناس هذه الحياة الفانية على الآخرة الباقية ﴿ والآخرة خير وأبقى ﴾ أى : والحال أن الآخرة خير من الدنيا وأبقى ، لأن الدنيا فانية ، والآخرة باقية ، والباقى خير من الفانى ، فكيف يؤثر عاقل مايفنى على مايبقى ؟ وكيف يهتم بدار الغرور ، ويترك الاهتمام بدار البقاء والخلود ؟

(١) سورة ق الآيات : ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣
(٢) سورة فاطر الآيتان : ٣٦ ، ٣٧
(٣) انظر تفسير ابن كثير - طبعة الشعب - سورة سبح
(٤) سورة فاطر الآية : ١٨

قرأ ابن مسعود - رضى الله عنه - هذه الآية فقال لأصحابه : أتدرون لم آثرنا الحياة الدنيا على الآخرة ؟ قالوا : لا ، قال : لأن الدنيا أحضرت وعجلت لنا بطعامها ، وشرابها ز ونسائها ولذاتها ، وبهجتها وأن الآخرة غيبت وزويت عنا ، فأحببنا العاجل ، وتركنا الآجل .

وقوله تعالى : ﴿ **إن هذا لفى الصحف الأولى ، صحف إبراهيم وموسى** ﴾ أى : إن هذه المواعظ المذكورة فى هذه السورة الكريمة مثبتة فى الصحف القديمة المنزلة على ابراهيم وموسى - عليهما السلام - فهى مما توافقت فيه الشرائع ، وسطرته الكتب السماوية ، كما سطره هذا الكتاب المجيد قال تعالى : ﴿ **أم لم ينبأ بما فى صحف موسى وابراهيم الذى وفى ، ألا تزر وازرة وزر أخرى ، وأن ليس للإنسان إلا ماسعى وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى وأن إلى ربك المنتهى ، وأنه هو أضحك وأبكى وأنه هو أمات وأحيا ، وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى وأن عليه النشأة الأخرى** ﴾[1] .

قال القرطبى : وروى الآجرى من حديث أبى ذر قال : قلت يارسول الله فما كانت صحف ابراهيم ؟ قال : كانت أمثالا كلها : أيها الملكُ المتسلط المبتلى المغرور ، إنى لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض ولكن بعثتك لتردعنى دعوة المظلوم فإنى لاأردها ولو كانت من فم كافر . وكان فيها أمثال : وعلى العاقل أن يكون له ثلاث ساعات : ساعة يناجى فيها ربه ، وساعة يحاسب فيها نفسه يفكر فيها فى صنع الله عز وجل - وساعة يخلو فيها لحاجته من المطعم والمشرب ، وعلى العاقل ألا يكون ظاعنا الا فى ثلاث : تزود لمعاد ، ومرمة لمعاش ، ولذة فى غير محرم . وعلى العاقل أن يكون بصيرا بزمانه ، مقبلا على شانه ، حافظا للسانه ، ومن عد كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه .

قال : قلت يارسول الله فما كانت صحف موسى ؟ قال « كانت عبرا كلها : عجبت لمن أيقن بالموت كيف يفرح ، وعجبت لمن أيقن بالحق كيف ينصب ، وعجبت لمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن اليها ، وعجبت لمن أيقن بالحساب غدا ثم هو لايعمل » قال قلت يارسول الله ، فهل فى أيدينا شىء مما كان فى يدى ابراهيم وموسى مما انزل الله عليك ؟ قال نعم اقرأ ياأبا ذر « قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى ، إن هذا لفى الصحف الأولى صحف ابراهيم وموسى »

قال القرطبى : لم يرد أن هذه الألفاظ بعينها فى تلك الصحف ، وإنما هو على المعنى ، أى : إن معنى هذا الكلام وارد فى تلك الصحف . والله أعلم[2] .

---

(١) سورة النجم الآيات : من ٣٦ إلى ٤٧

(٢) تفسير القرطبى - الغاشية الآية رقم ١٩ جزء ٣٠ صفحة ٢٤ .

تفسير سورة الغاشية

مقدمة عن السورة :

قال صاحب البصائر :

السورة مكية .

عدد آياتها : ست وعشرون آية .

وكلماتها : اثنتان وتسعون كلمة .

وحروفها : ثلاثمائة وأحد وثمانون .

فواصل آياتها (عمرته) .

سميت سورة الغاشية لذكرها .

معظم مقصود السورة :

التخويف بظهور القيامة ، وبيان حال المستوجبين للعقوبة وذكر حال المستحقين للمثوبة وإقامة الحجة على وجود الحق ووعظ الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ للأمة على سبيل الشفقة ، وأن المرجع إلى الله تعالى فى العاقبة فى قوله تعالى : ﴿ إن إلينا إيابهم ثم إن علينا حسابهم ﴾ .

المتشابهات :

قوله تعالى : ﴿ وجوه يومئذ ﴾ وبعده : (وجوه يومئذ) ليس بتكرار ؛ لأن الأول هم الكفار ، والثانى المؤمنون . وكان القياس أن يكون الثانى بالواو للعطف ؛ لكنه جاء على وفاق الجمل قبلها وبعدها . وليس معهن واو العطف البتة .

(وإلى السماء) (وإلى الجبال) ليس من الجمل ، بل هى إتباع لما قبلها .

مناسبة السورة لما قبلها :

إنه أشير فى السورة السابقة إلى المؤمن والكافر والجنة والنار إجمالاً ، وبسط الكلام فيها هنا .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ﴿٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾

فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾

معانى المفردات

الغاشية : القيامة ، سميت بذلك لأنها تغشى الناس بشدائدها وأهوالها .

خاشعة : أى ذليلة .

عاملة : أى : وقع منها عمل فى الدنيا .

ناصبة : أى : تعبة .

(عين آنية) العين : ينبوع الماء والآنية الشديدة الحر .

الضريع : شجر ذو شوك لائط بالأرض ، فإذا كان رطبا سمى بالشبرق .

ناعمة : أى : ذات بهجة وحسن .

عالية : أى : فى المكان ، لأن الجنة منازل ودرجات بعضها أعلى من بعض .

واللاغية : اللغو والكذب .

عين جارية : أى ينبوع ماء جار .

والسرر : واحدها سرير وهو ما يجلس أو ينام عليه ، وأفضله ما كان مرفوعاً عن الأرض .

والأكواب : واحدها كوب وهو مالا عروة له ، من الكيزان .

موضوعة : أى معدة ومهيأة للشراب .

والنمارق : واحدها نمرقه (بضم النون وكسرها) وهى الوسادة .

والزرابى : واحدها زربى (بكسر الزاى) وزربية وهو البساط .

مبثوثة : أى مفرقة فى المجال بحيث يرى فى كل مجلس شىء منها كما يرى فى بيوت ذوى الثراء .

سطحت : سطح الأرض : تمهيدها وتوطئتها للإقامة عليها والمشى فوقها .

بمسيطر : أى بمسلط تجبرهم على ما تريد .

إيابهم : أى : رجوعهم .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ هل أتاك حديث الغاشية ، وجوه يومئذ خاشعة عاملة ناصبة تصلى ناراً حامية ، تسقى منْ عين آنية ، ليس لهم طعام إلا من ضريع ، لا يسمن ولا يغنى من جوع ﴾ .

أى : هل بلغك نبأ يوم القيامة وعلمت قصصه أو إننا سنعلمك شأنه الخطير .

وهذا أسلوب من الكلام لا يراد منه حقيقة الاستفهام ، بل يراد منه تعجيب السامع مما سيذكر بعد ، وتشويقه إلى استماعه وتوجيه فكره إلى أنه من الأحاديث التى من حقها أن تتناقلها الرواة ، ويحفظها الوعاظ .

ثم فصل شأن أهل الموقف فى ذلك اليوم الرهيب ، وذكر أن أهله فريقان : فريق الكفرة الفجرة ، وفريق المؤمنين البررة وقد أشار إلى الأولين بقوله تعالى :

﴿ وجوه يومئذ خاشعة) أى : وجوه يومئذ يظهر عليها الخزى والهوان مما ترى وتشاهد من الهول ، كما قال تعالى : ﴿ ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رءوسهم عند ربهم ﴾[١] وكقوله : ﴿ وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفى ﴾[٢] وقوله تعالى : ﴿ عاملة ناصبة ﴾ أى : قد عملت عملاً كثيراً ورضيت فيه وصليت يوم القيامة ناراً حامية .

قال الحافظ أبو بكر البرقانى بسنده عن جعفر قال : سمعت أبا عمران الجونى يقول مر عمر ابن الخطاب - رضى الله عنه - بدار راهب قال : فناداه ياراهب فأشرف قال : فجعل عمر ينظر إليه ويبكى فقيل له : يا أمير المؤمنين ما يبكيك من هذا ؟ قال : ذكرت قول الله - عز وجل - فى كتابه ﴿ عاملة ناصبة ، تصلى ناراً حامية ﴾ فذاك الذى أبكانى . وفحو الآية قوله تعالى : ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً ﴾[٣] .

وكقوله : ﴿ قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ﴾[٤] .

وقوله : ﴿ تصلى ناراً حامية ﴾ أى : حارة شديدة الحر . ﴿ تسقى من عين آنية ﴾ أى : قد انتهى حرها وغليانها كما قال سبحانه : ﴿ إنا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا ﴾[٥] .

---

(١) سورة السجدة الآية : ١٢

(٢) سورة الشورى الآية : ٤٥

(٣) سورة الفرقان الآية : ٢٣

(٤) سورة الكهف الآية : ١٠٤

(٥) سورة الكهف الآية : ٢٩

وقوله تعالى) ﴿ ليس لهم طعام إلا من ضريع ﴾ قال سعيد بن جبير : هو الزقوم . قال عكرمة وهو شجرة ذات شوك لاطئة بالأرض . وقال البخارى : قال مجاهد الضريع نبت يقال له الشبرق يسميه أهل الحجاز الضريع إذا يبس وهو سم .

وقال قتادة فى قوله تعالى : ﴿ ليس لهم طعام إلا من ضريع ﴾ من شر الطعام وأبشعه وأخبثه .

وقوله : ﴿ لا يسمن ولا يغنى من جوع ﴾ أى : إن هذا الطعام لا يدفع جوعاً ، ولا يفيد سمنا ، فليس له فائدة الطعام التى لأجلها يؤكل فى الدنيا ، وقد سمى الله ذلك الطعام بالضريع تشبيها له به .

وقد جاء فى سورة الحاقة فى وصف طعام الكافرين قوله تعالى : ﴿ ولا طعام إلا من غسلين ﴾[١] وفى سورة الواقعة ﴿ ثم إنكم أيها الضالون المكذبون لآكلون من شجر من زقوم ﴾[٢] وفى سورة الدخان ﴿ إن شجرة الزقوم طعام الأثيم ﴾[٣] . وفى سورة النبأ ﴿ لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً إلا حميماً وغساقاً ﴾[٤] .

قال القرطبى : ووجه الجمع أن النار دركات ، فمنهم من طعامه الزقوم ، ومنهم من شرابه الحميم ، ومنهم من شرابه الصديد .

قال القتبى : ويجوز أن يكون الضريع وشجرة الزقوم نبتين من النار أو من جوهر لا تأكله النار وكذلك الزقوم نبتين من النار أو من جوهر لا تأكله النار وكذلك سلاسل النار وأغلالها وعقاربها وحياتها ، ولو كانت على ما نعلم ما بقيت على النار . قال : وإنما دلنا الله على الغائب عنده بالحاضر عندنا ، فالأسماء متفقة الدلالة ، والمعانى مختلفة . وكذلك ما فى الجنة من شجرها وفرشها . وأمثل من قول القُتبى أن يقول) إن الذى يبقى الكافرين فى النار ليدوم عليهم العذاب يبقى النبات وشجرة الزقوم فى النار ليعذب بها الكفار . !

جزاء المؤمنين

قوله تعالى : ﴿ وجوه يومئذ ناعمة ، لسعيها راضية ، فى جنة عالية ، لا تسمع فيها لاغية ، فيها عين جارية ، فيها سرر مرفوعة ، وأكواب موضوعة ونمارق مصفوفة ، وزرابى مبثوثة ﴾ .

لما ذكر سبحانه حال الأشقياء ثنى بذكر السعداء فقال تعالى : ﴿ وجوه يومئذ ناعمة ﴾ أى : يعرف النعيم فيها كما قال تعالى: ﴿ تعرف فى وجوههم نضرة النعيم ﴾ .

أخرج الإمام أحمد بسنده عن أنس قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « إن طير الجنة كأمثال البخت

---

(١) سورة الحاقة الآية : ٣٦
(٢) سورة الواقعة الآيتان : ٥١ ، ٥٢
(٣) سورة الدخان الآيتان : ٤٣ ، ٤٤
(٤) سورة النبأ الآيتان : ٢٤ ، ٢٥

يرعى فى شجر الجنة » فقال أبو بكر يا رسول الله إن هذه لطير ناعمة فقال - ﷺ - : أكلها أنعم منها - قالها ثلاثاً - وإنى لأرجو أن تكون ممن يأكل منها[١] .

وقوله تعالى : ﴿ لسعيها راضية ﴾ أى : لعملها الذى عملته فى الدنيا وطاعتها لله راضية ، لأن هذا العمل أورثها الفردوس دار المتقين .

وقوله : ﴿ فى جنة عالية ﴾ أى : فى حدائق وبساتين مرتفعة مكاناً وقدراً ، وهم فى الغرفات آمنون كما قال تعالى : ﴿ لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية تجرى من تحتها الأنهار وعد الله لا يخلف الله الميعاد ﴾[٢] .

وقوله تعالى : ﴿ لا تسمع فيها لاغية ﴾ أى : لا تسمع فى الجنة شتماً ، أو سباً أو فحشاً قال ابن عباس) لا تسمع أذى ولا باطلاً كما قال تعالى : ﴿ لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً إلا قيلا سلاماً سلاماً ﴾ [٣] .

قال الفراء : لا يسمع فى كلامهم كلمة بلغو ، لأن أهل الجنة لا يتكلمون إلا بالحكمة وحمد الله على ما رزقهم من النعيم الدائم .

قوله تعالى : ﴿ فيها عين جارية ﴾ أى : فيها عيون تجرى بالماء السلسبيل لا تنقطع أبداً قال الزمخشرى : التنوين فى (عين) للتكثير أى : عيون كثيرة تجرى مياهها .

وقوله : ﴿ فيها سرر مرفوعة ﴾ أى : عالية ناعمة كثيرة الفرش .

مرتفعة السمك عليها الحور العين قالوا : فإذا أراد ولى الله أن يجلس على تلك السرر العالية تواضعت له .

وقوله تعالى : ﴿ وأكواب موضوعة ﴾ أى : وأقداح موضوعة على حافات العيون ، معدة لشربهم لا تحتاج إلى من يملأها .

وقوله تعالى : ﴿ ونمارق مصفوفة ﴾ أى : ووسائد صُفَّ بعضها إلى جانب بعض ليستندوا عليها .

وقوله تعالى : ﴿ وزرابى مبثوثة ﴾ قال ابن عباس - رضى الله عنهما - الزرابى البسط وكذا قال غير واحد ، ومعنى مبثوثة أى ههنا وههنا نلن أراد الجلوس عليها .

أخرج أبو بكر بن أبى داوود بسنده عن كريب أنه سمع أسامة بن زيد يقول : قال رسول الله - ﷺ - : « ألا هل من نور يتلألأ ، وريحانة تهتز ، وقصر مشيد ، ونهر مُطَّرِد ، وفاكهة كثيرة نضيجة ، وزوجة حسناء جميلة ، وحلل كثيرة ، فى مقام أبداً دور عالية سليمة بهية وفاكهة وخضرة ، وحبرة ونعمة ،

(١) مسند أحمد ٢٢١/٣
(٢) سورة الزمر الآية : ٢٠
(٣) سورة الواقعة الآيتان : ٢٥ ، ٢٦

فى محلة عالية بهية ، قالوا : نعم يا رسول الله نحن المشمرون لها ، قال : « قولوا : إن شاء الله » قال القوم : إن شاء الله ، ورواه ابن ماجة عن العباس بن عثمان الدمشقى به[١] .

آيات باهرة

قوله تعالى :

﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت ﴾ .

يقول تعالى آمراً عباده بالنظر فى مخلوقاته الدالة على قدرته وعظمته : ﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ؟ ﴾ فإنها خلق عجيب وتركيبها غريب ، فإنها فى غاية القوة ، والشدة وهى مع ذلك تلين للحمل الثقيل وتنقاد للقائد الضعيف ، وتؤكل وينتفع بوبرها ويشرب لبنها ، إنما خص تعالى الإبل بالذكر لأنها أفضل دواب العرب وأكثرها نفعاً ، ولهذا تسمى « سفينة الصحراء » فهى مراكب البر ولذلك قرنها الله ـ تعالى ـ بالسفن فى قوله تعالى : ﴿ وعليها وعلى الفلك تحملون ﴾[٢] .

عجائب خلق الجمل

قال العلماء :

« لهذا الحيوان قدرة عجيبة على تحمل المعيشة فى مناطق تختلف بين الصحراء القاسية بحرها اللافح ، وشمسها المحرقة ومائها النادر ، وبين مناطق جبلية شديدة البرودة . والجمل من أقدم الحيوانات التى استأنسها الإنسان وسخرها لمنفعته ، فاتخذ منها مطية يقطع بها الفيافى والقفار ، ودابة للحمل لا تضجر ولا تكل .

ومن قدرة الله ـ عز وجل ـ أن جعل جسم هذا المخلوق ملائماً للبيئة التى يعيش فيها ، إذ نرى أذن الجمل صغيرة غزيرة الشعر ، حتى لا تتعرض لأقل ضرر من الرمال ، وكذلك المنخر جاء على شكل شق يغلق عند هبوب الزوابع الرملية . والعين مزودة بصفين من الرموش الطويلة لوقايتها من الحصى المتطاير .

---

(١) مسند ابن ماجة ١٤٤٨/٢ رقم ٤٣٣٢

(٢) سورة المؤمنون الآية : ٢٢

وأبرز تكيفات الجمل أرجله الطويلة التى ينتهى كل منهابخف أسفنجى لين ، زوده الله بها ليسير فوق الرمال الناعمة بكل يسر وسهولة .

ومن طريف ، وعلى غير ما نألف فى الحيوانات الأخرى ، نرى الجمل حين يسير يتمايل يمنة ويسرة ، لأنه حين يخطو إلى الأمام ينقل الرجلين الأمامية والخلفية فى جانب واحد معاً ، وينتج من هذه الحركة تمايل محسوس يشبه تمايل السفينة وهى تمخر عباب الماء .

ولهذا عرف الجمل باسم « سفينة الصحراء » .

سر صبر الجمل على العطش

معروف أن الجمل من الحيوانات المجترة ، والمعدة عنده مركبه من ثلاث غرف ، وتحتوى إحدى هذه الغرف على أكياس تسمى الأكياس المائية ، كان يعتقد أن الحيوان يختزن فيها الماء ليستهلكه فى أوقات العطش .

ولكن التجارب التى أجرتها بعثة اليونسكو التى عهدت إليها بهذا البحث انتهت إلى نتائج نشرتها اللجنة فى عام ١٩٥٥ م بمجلة « كوريير » وملخص النتائج التى وصلت إليها اللجنة أن قدرة الجمل على أن يعيش دون ماء تفوق قدرة الحيوانات الثديية الأخرى .

أما القول بأن الجمل يختزن ماء فى معدته فقد أدت أبحاث نلسن وزملائه إلى دحض هذا الرأى ، لأن الجمل لا يشرب من الماء إلا ما يكفى لتعويض ما سبق أن فقده فى فترة حرم خلالها الشرب ، ولم يثبت أن الحيوان يشرب كمية فائضة من الماء يمكن أن تعتبر ماء مخزوناً .

أما عن الأكياس المائية الموجودة فى جدار المعدة ، فلا يمكن أن تتسع لاختزان الماء بالكمية التى تكفى لسد حاجة الحيوان فى حجم الجمل .

وتحتوى معدة الجمل على كمية من السوائل مثلها فى ذلك مثل المعدة فى كافة المجترات الأخرى .

وهذا السائل عبارة عن مزيج أخضر ، كريه الرائحة ، لا شبه له بالماء ، وإنما هو قريب الشبه بالعصارات المعدية فى الحيوانات الأخرى ، ولا تحتوى هذه الأكياس إلا على كمية ضئيلة من السائل ، كما تحتوى أساساً على غذاء ممضوغ لم يتم هضمه .

هل السر يكمن فى السنام ؟

ومقابل الصدفة التى نتجت من عدم وجود ماء فى جوف الجمل مالت الأفكار إلى أن مخزن الجمل للماء يكمن فى سنامه ، وذلك أن الجمل يمكنه استغلال ما بالسنام من دهن مختزن يحرقه خلال عملية التنفس ، حيث تتحول بعض هذه الدهون إلى طاقة ، ويتكون نتيجة ذلك الماء الذى يسد احتياجات الجسم .

فما مدى صدق هذا الرأى ؟

إن الجمل بالفعل يستفيد من دهن السنام ، ولكن عند الجوع وعدم توفر الغذاء ، حيث يتأكسد بعض ما يحتويه دهن السنام من عنصر الهيدروجين بالأكسجين لتوليد الطاقة اللازمة للجسم . وينتج مع هذا التأكسد بعض الماء .

ولكن عملية التأكسد هذه تستلزم كمية كبيرة من الأكسجين ، وهذا يتطلب ارتفاعاً كبيراً فى معدل عملية التنفس .

ويصحب هذه الزيادة فى معدل عملية التنفس زيادة فى بخار الماء التى تخرج مع هواء الزفير .

ومن هنا فإن الماء الناتج من الأكسدة لدهون السنام لا يمكن أن تفى باحتياجات الجسم ، كما لا يمكن القول بأن الجمل يسير فى الصحراء وهو يحمل على ظهره خزاناً من الماء ، متمثلاً فى سنامه ، ولكن يمكن القول فى أنه يحمل خزاناً من الطاقة ممثلاً فى ذلك السنام .

إذن ماذا يفعل الجمل ليتحمل العطش ؟

لقد زود الله ـ سبحانه ـ هذا الحيوان الأعجوبة ، بوسائل تمكنه من تحمل العطش أياماً عديدة .

إنها وسائل لم تكن معروفة حتى وقت ليس ببعيد . من ذلك أن للجمل قدرة عجيبة على تحمل العطش من واقع قدرته على تحمل النقص الشديد فى الماء الموجود بأنسجة الجسم ، وأنه فى خلال ذلك لا يفقد الماء من سائله الدموى إلا بنسبة ضئيلة جداً .

وهو يختلف فى هذا الشأن عن معظم الحيوانات الثديية الأخرى ! والتى تفقد نسبة كبيرة من الماء الموجود فى دمائها إذا تعرضت للظروف نفسها مما يؤدى إلى الموت السريع إذا لم يبادر الحيوان إلى تجرع الماء .

والنتيجة : أن الجمل يحتاج إلى كميات من الماء تقل كثيراً عن تلك التى يحتاجها معظم الثدييات الأخرى ، إلا أنه لابد له أن يشرب الماء إذا كان ما يغتذى به من نباتات صحراوية خلواً منه .

● ومن ذلك أيضاً أنفه العجيب !!

فقد دلت الدراسات أن سر الجمل فى أنفه ، وأنه يحفظ الماء بطريقة تنفسه العجيبة ، وأن العامل الأكبر فى ذلك هو أنف الجمل الكبير .

إن بطانة أنفه الداخلية مجعدة ، أى : أن مساحتها واسعة ، وفى الليل تمتص البطانة رطوبة النفس الخارج حائلة بذلك دون خروج الماء .

وبذلك يكون الجمل هو الحيوان الوحيد المعروف عنه حتى الآن أنه يستعيد الماء الموجود فى هواء تنفسه .

وبوسع تجعدات الأنف أن تخفض حرارة أنفاس الجمل فى الليل بما يقرب من ٨ درجات مئوية تحت مستوى حرارة جسمه . وبهذه الطريقة يحتفظ الجمل بالماء ، لأن الهواء البارد أقل رطوبة من الهواء الدافىء .

أما نسبة الماء التى يحتفظ بها الجمل بهذه الطريقة فهى ٧٠٪ مما تحمله أنفاسه من ماء .

وهناك طريقة أخرى يلجأ إليها الجمل للمحافظة على الماء ، وهى أن يعمل على رفع درجة حرارة جسمه إلى نحو ٤٠ أو ٤٠,٧ درجة مئوية فى الجو الحار نهاراً ، وبذلك يقل الفارق بين حرارة الجو وحرارة الجسم .

وعندما يحل الليل فإنه يسرِّب هذه الحرارة الزائدة فى الجو ، وهو الشىء الذى يدركه البدو الذين ينامون بجوار الجمال ليلاً للاستفادة من دفء أجسامها ، ومن الحرارة التى تشع منها ، ثم تنخفض حرارة الجسم ليلاً إلى دون درجة ٣٤ مئوية بحيث ينقضى وقت طويل من النهار قبل أن تعود درجة الجسم للارتفاع ، وبذلك لا يشعر الجمل بوطأة الحر .

فأى إعجاز هذا الذى نراه ؟

هل يعرق الجمل ؟

تتميز الثدييات بين سائر المخلوقات بوسيلة ابتراد ، وهى العرق ، وذلك أنها لا تملك القدرة على رفع درجة حرارة جسمها بصنع درجات كما هى الحال مع الجمل ، ولكنها تدفع عن نفسها زيادة الحرارة بتكوين العرق الذى يخرج إلى سطح الجلد ، ويؤدى تبخره إلى تلطيف وتبريد الجسم .

ولكن الجمل معروف بجفاف جسمه ، وأنه حيوان لا يعرق ، وأن جلده بلا غدد عرقية ، وهى الغدد التى لا يحتاج التعرف على وجودها إلى جهد علمى كبير .

وظل الجمل معروفا بعدم وجود غدد عرقية له حتى عام ١٩٥٦ م حين تبين أن له غدداً عرقية ، توجد على السطح البطنى ، وعند التقاء الأطراف بالجسم .

ولكن متى وكيف يعرف ؟

عندما لا يفيد ارتفاع درجة حرارة الجسم إلى فوق الأربعين درجة مئوية فى حماية الجمل من حرارة الجو فإن الغدد عنده تبدأ فى إفراز العرق إلى سطح الجلد .

ومن المفروض أن يعمل العرق على ترطيب الشعر ، وأن يعمل تبخر العرق من الشعر المبلل على تلطيف حرارة جسم الجمل ، وهذا بالطبع يتسبب فى أن يفقد الجمل ماء كثيراً .

وهنا تبرز حكمة الله ـ عز وجل ـ والإعجاز فى الخلق ، فكل شىء عند الجمل يحدث بما يحفظ له الحياة فى يسر وهناء .

فمجرد خروج العرق يحدث أن ينتصب عادة عند الثدييات فى الجو البارد ليحجز الهواء الدافىء حول الجلد والإقلال من تسربه إلى الجو .

فحكمة الله ـ العلى القدير ـ اقتضت أن يحدث العكس عند الجمل . إن الشعر ينتصب عنده فى الجو الحار فيسمح بتبخر العرق من الجلد إلى الجو مباشرة دون أن يحدث تبلل للشعر .

أى : إن الجمل يوفر على نفسه حتى القدر القليل من الماء الذى يمكن أن يبلل الشعر فيه .

الجمل يشرب من ماء البحر .

وإعجاز آخر يتميز به الجمل دون غيره من الثدييات ، إذ أنه الحيوان الوحيد الذى يمكن عند الضرورة أن يشرب من ماء البحر .

ويكمن الإعجاز الإلهى فى طبيعة الكلى لدى هذا المخلوق إذ تتميز بقدرة عجيبة على تخليص الجسم من الأملاح الزائدة بكثرة .

والجمل فوق ذلك يبقى البول فى مثانته ولا يتخلص منه طالما هو بحاجة للماء ، ويمتص الدم من الماء شيئاً فشيئاً ، وعندما يصل تركيز البول حداً كبيراً يعود الدم فيمتصه ويدفع به إلى المعدة .

وفى المعدة تقوم بعض البكتريا والكائنات الحية الدقيقة التى تعيش فيها على تحويل البولينا إلى أحماض أمينية من جديد أى : إلى مواد بروتينية وماء .

الخف مخزن عجيب للماء عند الجمل

وقمة الإعجاز عند الجمل تكمن فى الخف .

إنه إعجاز إلهى لا يكاد يصدق ، فكيف يمكن أن يعمل الخف مخزناً للماء ؟!

لقد تبين أن الخف عند الجمل عبارة عن وسادة مائية كاملة مميزة ومذهلة وأن الجمل عندما يشرب الماء الوفير تعمل أنسجة الخف على حفظ جزيئات الماء فى صورة سلاسل .

إنها جزئيات تنتظم فى صورة ثلاث سلاسل تلتف حول بعضها كالجديلة ، وكلما زاد الماء المختزن كلما كانت الجديلة أقل التفافاً .

وعندما يحتاج الجمل للماء فإنه يستفيد من هذا المخزون ، ويمتص دمه منه احتياجه ، ويعمل نقص الماء على انجدال السلسلة حول نفسها أكثر فأكثر ، وهكذا تنفك الجديلة عند الشرب وتنجدل أكثر عند العطش .

سبحانك اللهم فى هذا الإعجاز وما أصدقك إذ تقول :

﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خُلقت ﴾ .

إنه مخلوق عجيب يمثل إعجازاً متحركاً يسعى فى الصحراء كدليل على قدرة الله ـ عز وجل ـ وهو بيان لكل ذى لب ليدرك عظمة الله الخالق فى خلقه .

﴿ ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شىء فاعبدوه وهو على كل شىء وكيل ﴾[(١)] . أ. هـ

قوله تعالى : ﴿ وإلى السماء كيف رفعت ﴾ .

أى : ألا يشاهدون السماء وقد رفعت رفعاً سحيق المدى بغير عمد ؟ قال تعالى : ﴿ خلق السموات بغير عمد ترونها ﴾[(٢)] وقال سبحانه : ﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج ﴾[(٣)] ، وقال جلا وعلا : ﴿ الله الذى رفع السمٰوات بغير عمد ترونها ﴾[(٤)] .

---

(١) سورة الأنعام الآية : ١٠٢
(٢) سورة لقمان الآية : ١٠
(٣) سورة ق الآية : ٦
(٤) سورة الرعد الآية: ٢

عجائب خلق السماء

يقول ابن القيم رحمه الله :

تأمل خلق السماء وارجع البصر فيها كرة بعد كرة تراها من أعظم الآيات فى علوها وارتفاعها وسعتها وقرارها بحيث لا تصعد علواً كالنار ولا تهبط نازلة كالأجسام الثقيلة ، ولا عمد تحتها ولا علاقة فوقها بل هى ممسوكة بقدرة الله الذى يمسك السموات والأرض أن تزولا ثم تأمل استواءها واعتدالها فلا صدع فيها ولا فطر ولا شق ولا أمت ولا عوج ثم تأمل ما وضعت عليه من هذا اللون الذى هو أحسن الألوان وأشدها موافقة للبصر وتقوية له حتى أن من أصابه شىء أضر ببصره يؤمر بإدمان النظر إلى الخضرة وما قرب منها إلى السواد ، وقال الأطباء إن من كلّ بصره فإنه من دوائه أن يديم الاطلاع إلى أجانة خضراء مملوءة ماء فتأمل كيف جعل أديم السماء بهذا اللون ليمسك الأبصار المنقلبة فيه ولا ينكأ فيها بطول مباشرتها له هذا بعض فوائد هذا اللون والحكمة فيه أضعاف ذلك .

﴿ هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه ﴾[1] .

قوله تعالى : ﴿ وإلى الجبال كيف نصبت ﴾ أى : ألا يشاهدون الجبال كيف وضعت وضعاً ثابتاً لا ميدان فيه ولا اضطراب فيتسنى ارتقاؤ ها فى كل حين ، وتجعل أمارة للسالكين فى تلك الفيافى والقفار ، وتنزل عليها المياه التى ينتفع بها فى سقى النبات ورى الحيوان .

الحكمة العجيبة فى الجبال

قال ابن القيم رحمه الله : ثم تأمل الحكمة العجيبة فى الجبال الذى يحسبها الجاهل الغافل فضلة فى الأرض لا حاجة إليها . وفيها من المنافع مالا يحصيه إلا خالقها وناصبها .

فمن منافعها أن الثلج يسقط عليها فيبقى فى قللها حاصلاً لشراب الناس إلى حين نفاده وجعل فيها ليذوب أولاً فأولاً ، فتجىء منه السيول الغزيرة وتسيل منه الأنهار والأودية فينبت فى المروج والوهاد والرُّبا ضروب النبات والفواكه والأدوية التى لا يكون مثلها فى السهل والرمل .

ومن منافعها : ما يكون فى حصونها وقللها من المغارات والكهوف والمعاقل التى بمنزلة الحصون والقلاع وهى أيضاً أكنان للناس والحيوان . ومن منافعها ما ينحت من أحجارها للأبنية على اختلاف أصنافها والأرحية وغيرها .

ومن منافعها : ما يوجد فيها من المعادن على اختلاف أصنافها من الذهب والفضة والنحاس والحديد والرصاص والزبرجد والزمرد وأضعاف ذلك من أنواع المعادن الذى يعجز البشر عن معرفتها على التفصيل حتى أن فيها ما يكون الشىء اليسير منه تزيد قيمته ومنفعته على قيمة الذهب بأضعاف مضاعفة .

(١) سورة لقمان : الآية : ١١

وفيها من المنافع مالا يعلمه إلا فاطرها ومبدعها سبحانه ومن منافعها أيضاً أنها ترد الرياح العاصفة وتكسر حدتها فلا تدعها تصدم ما تحتها ولهذا فالساكنون تحتها فى أمان من الرياح العظام المؤذية . ومن منافعها أيضاً أنها ترد عنهم السيول إذا كانت فى مجاريها فتصرفها عنهم ذات اليمين وذات الشمال ولولاها خربت السيول فى مجاريها ما مرت به فتكون لهم بمنزلة السد والسكن .

ومن منافعها أنها أعلام يستدل بها فى الطرقات فهى بمنزلة الأدلة المنصوبة المرشدة إلى الطرق ولهذا سماها الله أعلاماً فقال ﴿ ومن آياته الجوار فى البحر كالأعلام ﴾[1] فالجوارى هى السفن وأعلام الجبال واحدها علم . مسمى الجبل علماً من العلامة والظهور . ومن منابعها ما ذكره سبحانه فى كتابه أن جعلها للأرض أوتاداً تنبتها ورواسى بمنزلة مراسى السفن أعظم بها من منفعة .

وإذا تأملت خلقها العجيبة البديعة على هذا الوضع وجدتها فى غاية المطابقة للحكمة ؟ فإنها لو طالت واستدقت كالحائط لتعذر الصعود عليها والانتفاع بها وسترت عن الناس الشمس والهواء فلم يتمكنوا من الانتفاع بها ، ولو بسطت على وجه الأرض لضيقت عليهم المزارع ولملأت السهل ولما حصل لهم بها الانتفاع من التحصن والمغارات والأكنان ولما سترت عنهم الرياح ولما حجبت السيول ، ولو جعلت مستديرة شكل الكرة لم يتمكنوا من صعودها ولما حصل لهم بها الانتفاع التام فكان أولى الأشكال والأوضاع بها وأليقها وأوقعها على وفق المصلحة هذا الشكل الذى نصبت عليه ولقد دعانا الله ـ سبحانه ـ فى كتابه إلى النظر فيها وفى كيفية خلقه فقال تعالى : ﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت ﴾ فخلقها ومنافعها من أكبر الشواهد على قدرة باريها وفاطرها ، وعلمه وحكمته ووحدانيته هذا مع أنها تسبح بحمده وتخشع له وتسجد وتشقق وتهبط من خشيته وهى التى خافت من ربها وفاطرها وخالقها على شدتها وعظم خلقها من الأمانة إذ عرضها عليها وخالقها على شدتها وعظم خلقها من الأمانة إذ عرضها عليها وأشفقت من حملها .

ومنها الجبل الذى كلم الله عليه موسى كليمه ونجيه .

ومنها الجبل الذى تجلى له ربه فساخ وتدكدك .

ومنها الجبل الذى حبب الله رسوله وأصحابه إليه وأحبه رسول الله ـ ﷺ ـ وأصحابه .

ومنها الجبلان اللذان جعلهما الله سوراً على نبيه وجعل الصفا فى ذيل أحدهما والمروة فى ذيل الآخر وشرع لعباده السعى بينهما وجعله من مناسكهم وتعبداتهم .

ومنها جبل الرحمة المنصوب عليه ميدان عرفات فلله كم به من ذنب مغفور وعثرة مقالة وزلة معفو عنها وحاجة مقضية وكربة مفروجة وبلية مرفوعة ونعمة متجددة وسعادة مكتسبة وشقاوة ممحوة كيف وهو الجبل المخصوص بذلك الجمع الأعظم والوفد الأكرم الذين جاءوا من كل فج عميق وقوفاً لربهم مستكينين

---

(١) سورة الشورى الآية : ٣٣

لعظمته ، خاشعين لعزته شعثاً غبراً حاسرين عن رؤسهم يستقيلونه عثراتهم ويسألونه حاجاتهم فيدنو منهم ثم يباهى بهم الملائكة فلله ذلك الجبل وما ينزل عليه من الرحمة والتجاوز عن الذنوب العظام .

ومنها جبل حراء الذى كان رسول الله ـ ﷺ ـ يخلو فيه بربه حتى أكرمه الله برسالته وهو غار فى الجبل الذى فاض منه النور على أقطار العالم فإنه ليفخر على الجبال وحق له ذلك فسبحان من اختص برحمته وتكريمه من شاء من الجبال والرجال فجعل منها جبالاً هى مغناطيس القلوب كأنها مركبة منه فهى تهوى إليها كلما ذكرتها وتهفو نحوها كما اختص من الرجال من خصه بكرامته وأتم عليه نعمته ووضع عليه محبته فأحبه وحببه إلى ملائكته وعباده المؤمنين ووضع له القبول فى الأرض .

هذا وأنها لتعلم لها موعداً ويوماً تنسف فيها نسفاً وتصير كالعهن من هوله وعظمته فهى مشفقة من هول ذلك الموعد منتظرة له ﴿ **ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفاً فيذرها قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً** ﴾[1] فهذا حال الجبال وهى الحجارة الصلبة وهذه رقتها وخشيتها وتذكدكها من جلال ربها وعظمته وقد أخبر عنها فاطرها وباريها أنه لو أنزل عليها كلامه لخشعت ولتصدعت من خشية الله فيا عجبا من مضغة لحم أقسى من هذه الجبال تسمع آيات الله تتلى عليها ويذكر الرب تبارك وتعالى فلا تلين ولا تخشع ولا تنيب فليس بمستنكر على الله ـ عز وجل ـ ولا يخالف حكمته أن تخلق لها ناراً تذيبها إذ لم تلن بكلامه وذكره وزواجره ومواعظه فمن لم يلن لله فى هذه الدار قلبه ولم ينب إليه ولم يذبه بحبه والبكاء من خشيته فليتمتع قليلاً فإن أمامه الملين الأعظم وسيرد إلى عالم الغيب والشهادة فيرى ويعلم. هـ .

وقوله تعالى : ﴿ **وإلى الأرض كيف سطحت** ﴾ .

أى : ألا يشاهدون الأرض وقد بسطت ومهدت على ما يقتضيه صلاح أمور ساكنيها وانتفاعهم بما فى ظاهرها من المنافع وما فى باطنها من المعادن .

قال ابن القيم رحمه الله : فتأمل خلق الأرض على ما هى عليه حين خلقها واقفة ساكنة لتكون مهاداً ومستقراً للحيوان والنبات والأمتعة ويتمكن الحيوان والناس من السعى من أعمالهم ولو كانت رجراجة متكفئة لم يستطيعوا على ظهرها قراراً ولا هدواً ولا ثبت لهم عليها بناء ولا أمكنهم عليها صناعة ولا تجارة ولا حراثة ولا مصلحة وكيف يتهنون بالعيش والأرض ترتج من تحتهم واعتبر ذلك بما يصيبهم من الزلازل على قلة مكثها كيف تصيرهم إلى ترك منازلهم والهرب عنها وقد نبه تعالى على ذلك بقوله : ﴿ **وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم** ﴾[2] وقوله تعالى : ﴿ **الله الذى جعل لكم الأرض قراراً** ﴾[3] ، وقوله : ﴿ **الذى جعل لكم الأرض مهداً وسلك لكم فيها سبلاً** ﴾[4] .

---

(١) سورة طه الآيات : من ١٠٥ إلى ١٠٧
(٢) سورة النحل الآية : ١٥
(٣) سورة غافر الآية : ٦٤
(٤) سورة طه الآية : ٥٣

إلهى ....

يا مبدع الخلق يا من لا شريك له ... طوبى لمن عاش بين الناس يهواك
إنى لأعجب ممن قد رأى طرفاً ... من فيض جودك - ربى - كيف ينساك
والله ما سعدت روحى ولا فرحت ... فى الدهر - ما بقيت - إلا بذكراك .

قوله تعالى : ﴿ فذكِّر إنَّما أنتَ مذكر ، لستَ عليهم بمسيطر إلاَّ من تولى وكفر فيعذبه الله العذاب الأكبر ﴾ .

أى : فذكر يا محمد الناس بما أرسلت به إليهم ذكر بالقرآن من يخاف وعيد ، (لست عليهم بمسيطر) قال ابن زيد : لست بالذى تكرههم على الإيمان .. وقيل فى قوله تعالى : (لست عليهم بمسيطر) أى : بمسلط عليهم فتقتلهم . ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب ﴾ [1] ، وكقوله : ﴿ وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد ﴾ [2] .

وقوله تعالى : ﴿ إلا من تولى وكفر ، فيعذبه الله العذاب الأكبر ﴾ أى : إنك وإن كنت داعياً وليس لك سلطان على ما فى نفوسهم فالله هو المسيطر عليهم ، وصاحب السلطان على سرائرهم فمن تولى وأعرض عن الذكرى وجحد الحق المعروض عليه فالله يعذبه العذاب الأكبر فى الآخرة ، وقد يضم إلى ذلك عذاباً فى الدنيا من قتل أو سبى الذرية أو غنيمة للأموال ، إلى نحو أولئك من صنوف البلاء التى ينزلها بهم . فقوله تعالى : ﴿ إلا من تولى وكفر ﴾ استثناء منقطع ، أى : لكن من تولى عن الوعظ والتذكير (فيعذبه الله العذاب الأكبر) وهى جهنم الدائم عذابها ، وإنما قال « الأكبر » لأنهم عذبوا فى الدنيا بالجوع والقحط والأسر والقتل . وقيل : هو استثناء متصل ، والمعنى : لست بمسلط إلا على من تولى وكفر ، فأنت مسلط عليه بالجهاد ، والله يعذبه بعد ذلك العذاب الأكبر . (حكاه القرطبى) .

قوله تعالى : ﴿ إنا إلينا إيابهم ثم إنا علينا حسابهم ﴾ .

أى لا مفرَّ للمعرضين ، ولا خلاص لهم من الويل الذى أوعدوا به ، فإنهم راجعون إلينا ، وقد حق القول منا فى عقابهم وسنحاسبهم على ما كسبت أيديهم .

وفى هذا تسلية لقلب رسوله ، وإزالة أحزانه وآلامه ، لتكذيبهم إياه ، وإصرارهم على معاندته .

غداً توفى النفوس ما كسبت ... ويحصد الزارعون ما زرعوا
إن أحسنوا أحسنوا لأنفسهم ... وإن أساءوا فبئس ما صنعوا

---

(١) سورة الرعد الآية : ٤٠

(٢) سورة ق الآية : ٤٥

تفسير سورة
الفجـــــــر

مقدمـــة :

قال صاحب البصائر :

السورة مكيَّة . .

عدد آياتها : ثلاثون آية .

وكلماتها : مائة وسبع وعشرون .

وحروفها : خمسمائة وتسع وتسعون .

فواصل آياتها : (هاروت ندم) .

سميت سورة الفجر : لمفتتحها .

معظم مقصود السورة :

تشريف العيد ، وعرفة ، وعشر المحرم ، والإشارة إلى هلاك عاد ، وثمود ، وأحزابهم ، وتفاوت حال الإنسان فى النعمة ، وحرصه على جمع الدنيا ، والمال الكثير ، وبيان حال الأرض فى القيامة ، ومجىء الملائكة ، وتأسف الإنسان يومئذ على التقصير . . والعصيان ، وأن مرجع المؤمن عند الموت إلى الرحمة ، والرضوان ، ونعيم الجنان فى قوله تعالى : ﴿ وادخلى جنتى ﴾ .

المتشابهات :

قوله تعالى : ﴿ فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه ﴾ وبعده ﴿ وأما إذا ما ابتلاه ﴾ لأن التقدير فى التالى أيضا : وأما الإنسان ، فاكتفى بذكره فى الأول ، والفاء لازم بعده ، لأن المعنى مهما يكن من شىء فالإنسان بهذه الصفة لكن الفاء آخر ليكون على لفظ الشرط والجزاء .

مناسبة السورة لما قبلها :

١ ـ أن ذكر فى تلك الوجوه الخاشعة والوجوه الناعمة ، وذكر فى هذه طوائف من المكذبين المتجربين الذين وجوههم خاشعة ، وطوائف من الذين وجوههم ناعمة .

٢ ـ أن القسم الذى فى أول السورة كالدليل على صحة ما تضمنته خاتمة السورة السابقة من الوعد والوعيد .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَالَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ
لِّذِي حِجْرٍ ﴿٥﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ
يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي
الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ
رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ
فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ
فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ
الْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ كَلَّا إِذَا
دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ
يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾
فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ
الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي
جَنَّتِي ﴿٣٠﴾

معانى المفردات

والفجر : (أقسم تعالى) بالوقت المعروف . أو بفجر يوم النحر .
وليال عشر : العشر الأول من ذى الحجة .
والشفع والوتر : أى : الزوج والفرد وقيل : الشفع يوم النحر والوتر يوم عرفة .
والليل إذا يسر : أى : والليل إذا يمضى ويذهب .
قسم لذى حجر : مقسم به حقيق بالتعظيم لدى العقلاء .
بعاد : قوم هود ، سموا باسم أبيهم .
إرم : هو اسم جدهم وبه سميت القبيلة .
ذات العماد : الشدة أو الأبنية الرفيعة المحكمة بالعمد .
جابوا الصخر : قطعوه ونحتوا فيه بيوتهم .
ذى الأوتاد : الجيوش الكثيرة التى تشد ملكه .
سوط عذاب : عذاباً شديداً مؤلماً دائماً .
إن ربك لبالمرصاد : يرقب أعمالهم ويجازيهم عليها .
ابتلاه ربه : امتحنه واختبره بالنعم أو النقم .
فقدر عليه رزقه : أى : ضيقه عليه .
كلا : ردع للإنسان عما قاله فى الحالين .
لا تحاضون : لا يحث بعضكم بعضا .
تأكلون التراث : ميراث النساء والصغار .
أكلاً لمًّا : جمعاً بين الحلال والحرام .
حبًّا جماً : كثيراً ، مع حرص وشدة .
دكت الأرض : دقت وكسرت بالزلازل .
دكاً دكاً : دكاً متتابعاً حتى صارت هباء .
والملك : ملائكة كل سماء .
أنى له الذكرى : من أين له منفعتها ؟ هيهات .

التفسـير

قوله تعالى : ﴿ والفجر ، وليال عشر ، والشفع والوتر ، والليل إذا يسر هل فى ذلك قسم لذى حجر ﴾ .

تضمن هذا القسم خمسة أشياء ، وهى مظاهر آياته ، وقدرته ، وحكمته الدالة على ربوبيته ووحدانيته .

قال تعالى : ﴿ والفجر ﴾ الفجر هو الوقت الذى ينشق فيه الضوء ، وينفجر النور ، وقد أقسم ربنا به ، لما يحصل فيه من انقضاء الليل ، وظهور الضوء ، وما يترتب على ذلك من المنافع وهو كقوله تعالى : ﴿ والصبح إذا تنفس ﴾ وقوله : ﴿ والصبح إذا أسفر ﴾ .

قال ابن كثير : أما الفجر فمعروف وهو الصبح قاله على وابن عباس وعكرمة ومجاهد والسدى :

وعن مسروق ومحمد بن كعب القرطبى : المراد به فجر يوم النحر وهو رواية عن ابن عباس .

وقال الضحاك : فجر ذى الحجة ، لأن الله ـ تعالى ـ قرن الأيام به فى قوله : « وليال عشر » أى : ليال عشر من ذى الحجة .

ثُمَّ أقسم سبحانه بالليالى العشر فى قوله : ﴿ وليال عشر ﴾ قال ابن عباس وابن الزبير ومجاهد وغير واحد من السلف والخلف : المراد بها عشر ذى الحجة . وقد ثبت فى الصحيحين عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : قال رسول الله ـ ـ : « ما من أيام العمل الصالح فيها أحب إلى الله فيهن من هذه الأيام ، يعنى عشر ذى الحجة ، قالوا : يا رسول الله ولا الجهاد فى سبيل الله ؟ قال : « ولا الجهاد فى سبيل الله إلا رجلاً خرج بنفسه وماله ثم لم يرجع من ذلك بشىء »[1] .

وقيل : المراد بذلك العشر الأول من المحرم حكاه ابن جرير ولم يعزه إلى أحد وقيل : المراد العشر الأول من رمضان قال ابن كثير : والصحيح القول الأول .

ثم أقسم سبحانه بالشفع والوتر فى قوله : ﴿ والشفع والوتر ﴾ .

قال ابن عباس : الشفع يوم النحر والوتر يوم عرفة . .

وقال الحسن البصرى وزيد بن أسلم فى قوله : (والشفع والوتر) قالا : الخلق كلهم شفع ووتر أقسم تعالى بخلقه وهو رواية عن مجاهد .

وأخرج بن أبى حاتم مسنده من مجاهد : (والشفع والوتر) قال : الشفع الزوج ، والوتر ، الله ـ عز وجل ـ وقال أبو عبد الله عن مجاهد؛ الله ـ سبحانه ـ الوتر ، وخلقه الشفع الذكر والأنثى .

وقوله تعالى : ﴿ والليل إذا يسر ﴾ وهذا قسم خامس وبعد ما أقسم سبحانه بالليالى العشر على الخصوص أقسم بالليل على العموم . قال القرطبى : أكثر المفسرين : معنى « يسر » سار فذهب . وقال قتادة وأبو العالية : جاء وأقبل . قال ابن كثير : وقد يقال إن هذا أنسب لأنه فى مقابلة قوله : (والفجر)

---

(١) صحيح البخارى ـ كتاب العيدين ٢/٢٤ وسنن أبى داود ٢/٨١٥ رقم ٢٤٣٨ والترمذى كتاب الصوم ٣/١٢١ رقم ٧٥٧ وابن ماجة رقم ١٧٣٩

فإن الفجر هو إقبال النهار وإدبار الليل فإذا عمل قوله : (والليل إذا يسر) على إقباله كان قسماً بإقبال الليل وإدبار النهار وبالعكس كقوله تعالى : ﴿ والليل إذا عسعس والصبح إذا تنفس ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ هل فى ذلك قسم لذى حجر ﴾ أى : لذى عقل ولب ودين وحجى ، وإنما سمى العقل حجراً لأنه يمنع الإنسان من تعاطى مالا يليق من الأفعال والأقوال . وجواب القسم محذوف يدل عليه قوله تعالى بعد ذلك : ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بعاد ﴾ ، الآية وتقديره ورب هذه الأشياء ليعذبن الكفار .

قال العلامة ابن القيم ـ رحمه الله ـ فى هذه الآيات المباركة :

(والفجر) ، إن أريد به جنس الفجر ، كما هو ظاهر اللفظ فإنه يتضمن وقت صلاة الصبح ، التى هى أول الصلوات . فافتتح القسم بما يتضمن أول الصلوات وختمه بقوله : ﴿ والليل إذا يسر ﴾ المتضمن لآخر الصلوات ، وإن أريد بالفجر فجر مخصوص فهو فجر يوم النحر وليلته ، التى هى ليلة عرفة ، فتلك الليلة من أفضل ليالى العام . وما رؤى الشيطان فى ليلة أدحر ولا أحقر ولا أغلظ منه فيها[1] ، وذلك الفجر فجر يوم النحر الذى هو أعظم الأيام عند الله ـ سبحانه ـ كما ثبت عن النبى ـ ﷺ ـ أنه قال : « إن أعظم الأيام عند الله يوم النحر » رواه أبو داود بإسناد صحيح[2] ، وهو آخر أيام العشر ، وهو يوم الحج الأكبر كما ثبت فى صحيح البخارى وغيره[3] .

وعلى هذا فقد تضمن القسم المناسك والصلوات ، وهما المختصان بعبادة الله والخضوع له والتواضع لعظمته ولهذا قال الخليل ـ عليه السلام ـ : ﴿ إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ﴾[4] وقيل لخاتم الرسل ـ ﷺ ـ : (فصل لربك وانحر) بخلاف حال المشركين المتكبرين الذين لا يعبدون الله وحده بل يشركون به ويستكبرون عن عبادته ، كحال من ذكر فى هذه السورة من قوم عاد وثمود وفرعون .

وذكر سبحانه من جملة هذه الأقسام (الشفع والوتر) إذ هذه الشعائر المعظمة منها شفع ومنها وتر ، فى الأمكنة والأزمنة والأعمال فالصفا والمروة شفع والبيت وتر ، والجمرات وتر ومنى ومزدلفة شفع ، وعرفة وتر ، وأما الأعمال فالطواف وتر ، وركعتاه شفع ، والطواف بين الصفا والمروة وتر ورمى الجمار وتر ، كل ذلك سبع سبع ، وهو الأصل فإن الله وتر ، يحب الوتر ، والصلاة منها شفع ومنها وتر ، والوتر يوتر الشفع ، فتكون كلها وتراً ، كما قال النبى ـ « ـ : « صلاة الليل مثنى مثنى ، فإذا خشيت الصبح فأوتر بواحدة توتر لك ما قد صليت » رواه أحمد والبخارى ومسلم عن ابن عمر[5] .

وأما الزمان فإن عرفة وتر ، ويوم النحر شفع وهذا قول أكثر المفسرين فى الآية ، وعن ابن عباس : الشفع آدم وحواء ، والوتر الله وحده ، وقال عمران بن حصين وقتادة : الشفع والوتر هى الصلاة وروى

---

(١) موطأ مالك ـ كتاب الحج رقم ٢٤٥ وشرح السنة للبغوى ١٥٨/٧ رقم ١٩٣٠ ووصف عبد الرزاق ٣٧٨/٤ وشعب الإيمان للبيهقى ١١/٨ رقم ٣٧٧٥ والترغيب والترهيب ١٢٦/٢

(٢) سنن أبى داود ٣٦٩/٢ رقم ١٧٦٥

(٣) صحيح البخارى ـ كتاب التفسير ـ سورة التوبة ٨٢/٦

(٤) سورة الأنعام الآية : ١٦٢

(٥) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان رقم ٤٣٢ ومسند أحمد ١٠٢/٢

فيه حديثا مرفوعاً ، وقال عطية العوفى الشفع الخلق ، قال الله تعالى : ﴿ **وخلقناكم أزواجاً** ﴾ الوتر هو الله وهذا قول الحكم . وقال الحسن : الشفع والوتر العدد كله من شفع ووتر ، وقال مقاتل : الشفع الأيام والليالى ، والوتر اليوم الذى لا ليلة بعده ، وهو يوم القيامة .

وذكرت أقوال أخرى ، هذه أصولها ، ومدارها كلها على قولين : (أحدهما) أن الشفع والوتر نوعان للمخلوقات والمأسورات . (والثانى) أن الوتر الخالق ، والشفع المخلوق .

وقال ابن النعيم : فلما تضمن هذا القسم ما جاء به إبراهيم ومحمد - ﷺ - كان فى ذلك ما دل على المقسم عليه ولهذا اعتبر القسم بقوله تعالى : ﴿ **هل فى ذلك قسم لذى حجر ؟** ﴾ فإن عظمة هذا القسم به يعرف بالنبوة . وذلك يحتاج إلى حجر يحجر صاحبه من الغفلة واتباع الهوى ويحمله على اتباع الرسل لئلا يصيبه ما أصاب من كذب الرسل كعاد وفرعون وثمود . أ. هـ .

قوله تعالى : ﴿ **ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد ، وثمود الذين جابوا الصخر بالواد وفرعون ذى الأوتاد الذين طغوا فى البلاد فأكثروا فيها الفساد فصب عليهم ربك سوط عذاب إن ربك لبالمرصاد** ﴾ .

بعد أن أقسم سبحانه أنه سيعذب الكافرين جزاء كفرهم وإصرارهم على أوامره - شرع يذكر بعض قصص الأمم السالفة الذين طغوا فى البلاد وأكثروا فيها الفساد فأوقع بهم شديد العذاب ، وأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، ليكون فى ذلك زجر لهؤلاء المكذبين ، وتثبت للمؤمنين الذين اتبعوا الرسول وناصروه .

قال تعالى : ﴿ **ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد** ﴾ .

أى : ألم يبلغك يا محمد ويصل إلى علمك ، ماذا فعل الله بعاد قوم هود ؟ (إرم ذات العماد) أى : عاداً الأولى أهل إرم ذات البناء الرفيع ، الذين كانوا يسكنون بالأحقاف بين عمان وحضر موت ﴿ **التى لم يخلق مثلها فى البلاد** ﴾ أى : تلك القبيلة التى لم يخلق الله مثلهم فى قوتهم ، وشدتهم ، وضخامة أجسامهم .

قال العلامة ابن كثير : وهم الذين بعث الله فيهم رسولاً هوداً عليه السلام فكذبوه وخالفوه فانجاه الله من بين أظهرهم ومن آمن معه منهم وأهلكهم بريح صرصرٍ عاتية سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيامٍ حسوماً فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية فهل ترى لهم من باقية ؟ وقد ذكر الله قصتهم فى القرآن فى غير موضع ليعتبر بمصرعهم المؤمنون فقوله تعالى : ﴿ **إرم ذات العماد** ﴾ عطف بيان زيادة تعريف بهم وقوله تعالى : ﴿ **ذات العماد** ﴾ لأنهم كانوا يسكنون بيوت الشعر التى ترفع بالأعمدة الشداد وقد كانوا أشد الناس بطشاً ولهذا ذكرهم هود بتلك النعمة وأرشدهم إلى أن يستعملوها فى طاعة ربهم الذى خلقهم فقال : ﴿ **واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم فى الخلق بسطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون** ﴾(١) ، وقال تعالى : ﴿ **فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة ، أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة ؟** ﴾(٢) وقال ههنا : ﴿ **التى لم يخلق مثلها فى البلاد** ﴾ أى : القبيلة

(١) سورة الأعراف الآية : ٦٩

(٢) سورة فصلت الآية : ١٥

التى لم يخلق مثلها فى بلادهم لقوتهم وشدتهم وعظم تركيبهم ، وأعاد ابن زيد الضمير على العماد لارتفاعها وقال : بنوا عمداً بالأحقاف لم يخلق مثلها فى البلاد ، وأما قتادة وابن جرير : فأعاد الضمير على القبيلة أى : لم يخلق مثل تلك القبيلة فى البلاد يعنى فى زمانهم ، وهذا القول هو الصواب ، وقول ابن زيد ومن ذهب مذهبه ضعيف لأنه لو كان المراد ذلك لقال التى لم يعمل مثلها فى البلاد . وإنما قال : (لم يخلق مثلها فى البلاد) أ. هـ .

والمقصود من ذلك تخويف أهل مكة بما صنع الله بعاد ، وكيف أهلكهم وكانوا أطول أعماراً ، وأشد قوة من كفار مكة ؟!

قوله تعالى : ﴿ وثمود الذين جابوا الصخر بالواد ﴾ أى : ثمود الذين قطعوا الصخر ونحتوه وبنوا منه القصور والأبنية العظيمة كما قال تعالى فى آية أخرى : ﴿ وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين ﴾[1]
وقوله : ﴿ وفرعون ذى الأوتاد ﴾ أى : وفرعون ذى المبانى العظيمة التى شادها هو ومن قبله من فراعنة مصر فى قديم الزمان كالأهرام وغيرها .

وما أجمل التعبير عما تركه القدماء المصريون من الأبنية الباقية بالأوتاد ، فإن شكل هياكلهم العظيمة شكل الأوتاد المقلوبة ، إذ يبتدىء البناء عريضاً وينتهى بأدق مما بدأ .

وهناك قول آخر : قال العوفى عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ الأوتاد الجنود الذين يشدون له أمره ، وقيل : كان يربط الرجل فى كل قائمة من قوائمه فى وتد ثم يرسل عليه صخرة عظيمة فيشدخه .

وقوله تعالى : ﴿ الذين طغوا فى البلاد ، فأكثروا فيها الفساد ﴾ أى : هؤلاء الذين سلف ذكرهم من عاد وثمود وفرعون قد استعملوا سلطانهم وقوتهم فى هضم حقوق الناس واغتروا بعظيم قدرتهم ، فكانوا سبباً فى إفساد البلاد . ﴿ فصب عليهم ربك سوط عذاب ﴾ أى : أنزل عليهم رجزاً من السماء وأحل بهم عقوبة لا يردها عن القوم المجرمين .

وقد شبه سبحانه ما أوقعه بهم من صنوف العذاب ، وما صبه عليهم من ضروب الهلاك ـ بالسوط ، من قبل أن السوط يضرب به فى العقوبات ، والله يوقع العذاب بالأمم عقوبة لها على ما يقع منها من أنواع التفريط فى أوامر دينه .

وقوله تعالى : ﴿ إن ربك لبالمرصاد ﴾ أى : إن شأن ربك ألا يفوته من شئون عباده نقير ولا قطمير ولا يهمل أمة تعدت فى أعمالها حدود شرائعه القويمة ، بل يأخذها بذنوبها أخذ العزيز المقتدر ، كما يأخذ الراصد القائم على الطريق من يمر به بما يريد من خير أو شر ، لا يفرط فيما رصد له .

وقد أجمل الله سبحانه فى هذه الآيات الكريمة ما أوقعه بهذه الأمم من العذاب ، وفصله فى غير موضع من كتابه الكريم فقال تعالى فى سورة الحاقه : ﴿ فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية وأما عاد فأهلكوا بريح

---

(١) سورة الشعراء الآية : ١٤٩

صرصر عاتية سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية فهل ترى لهم من باقية وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة فعصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية ﴾[١].

والحكمة فى تكرار القصص فى القرآن الكريم وفى ذكر بعضها على طريق الإشارة فى بعض المواضع ، وبالتفصيل فى بعض آخر - أنه قد يكون الغرض تارة إقامة الحجة على قدرته تعالى ، وتوحده فى ملكه ، وقهره لعباده حيناً ، وترقيق قلوب المخاطبين حيناً آخر ، وإنذار عباده وإعذارهم مرة ثالثة ، ولا شك أن كل مقام من الكلام له لون منه من بسط أو إيجاز لا يكون لغيره .

وقد عرفت أن الغرض هنا تطييب قلب الرسول - ﷺ - وأصحابه بأن الله سيمهل الكافرين ولا يهملهم ، وهو ليس بغافل عنهم ، وحينئذ تدرك أن الاشارة إلى أن هذه الأمم أخذت وعذبت ولم تترك سدى -كافية جد الكفاية لمن فكر وتدبر .

قوله تعالى : ﴿ **فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربى أكرمن وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى أهانن . كلا . بل لا تكرمون اليتيم ولا تحاضون على طعام المسكين ، وتأكلون التراث أكلا لما وتحبون المال حباً جماً** ﴾ .

لما ذكر تعالى ما حل بالطغاة المتجبرين ، ذكر هنا طبيعة الإنسان الكافر ، الذى يبطر عند الرخاء ، ويقنط عند الضراء فقال تعالى : ﴿ **فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه** ﴾ أى : إذا اختبره وامتحنه ربه بالنعمة ﴿ **فأكرمه ونعمه** ﴾ أى : فأكرمه بالغنى واليسار ، وجعله منعما فى الدنيا بالبنين والجاه والسلطان ﴿ **فيقول ربى أكرمن** ﴾ أى : فيقول ربى أحسن إلى بما أعطانى من النعم التى أستحقها ، ولم يعلم أن هذا ابتلاء له أيشكر أم يكفر ؟

وقوله : ﴿ **وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه** ﴾ أى : وأما إذا اختبره وامتحنه ربه بالفقر ، وتضييق الرزق ﴿ **فيقول ربى أهانن** ﴾ أى : فيقول غافلاً عن الحكمة : إن ربى أهاننى بتضييقه الرزق علىّ .

قال القرطبى : وهذه صفة الكافر الذى لا يؤمن بالبعث وإنما الكرامة عنده والهوان بكثرة الحظ فى الدنيا وقلته ، وأما المؤمن فالكرامة عنده أن يكرمه الله بطاعته وتوفيقه المؤدى إلى حظ الآخرة . وإن وسع عليه فى الدنيا حمده وشكره .

قلت : الآيتان صفة كل كافر . وكثير من المسلمين يظن أن ما أعطاه الله لكرامته وفضيلته عند الله ، وربما يقول بجهله : لو لم أستحق هذا لم يعطينه الله . وكذا إن فتر عليه يظن أن ذلك لهوانه على الله . قال تعالى : ﴿ **أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم فى الخيرات بل لايشعرون ، إن الذين هم من**

---

(١) الحاقة الآيات من ٥ - ١٠

خشية ربهم مشفقون والذين هم بآيات ربهم يؤمنون والذين هم بربهم لا يشركون والذين يؤتون ماآتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون ﴾[١] .

قوله تعالى : ﴿ **كلا** ﴾ أى : ليس الأمر كما يظن ، فليس الغنى لفضله ، ولاالفقر لهوانه ، وإنما الفقر والغنى من تقديرى وقضائى .

وقال الفراء : (كلا) فى هذا الموضع بمعنى لم يكن ينبغى للعبد أن يكون هكذا ، ولكن يحمد الله - عزوجل - على الغنى والفقر . وفى الاثر : « يقول الله - عز وجل » إنى لاأكرم من أكرمت بكثرة الدنيا ولاأهين من أهنت بقلتها ، إنما أكرم من أكرمت بطاعتى وأهين من أهنت بمعصيتى »[٢] .

قوله تعالى : ﴿ **بل لاتكرمون اليتيم** ﴾ إخبار عن ماكانوا يصفونه من منع اليتيم الميراث ، وأكل ماله إسرافا وبدارا أن يكبروا .

قال ابن كثير : فيه أمر بالإكرام له كما جاء فى الحديث الذى رواه عبدالله بن المبارك بسنده عن أبى هريرة عن النبى - صلى الله عليه وسلم - « خير بيت فى المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه ، وشر بيت فى المسلمين بيت فيه يتيم يساء اليه - ثم قال بأصبعه - أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا »[٣] وأخرج أبوداود بسنده عن سهل - يعنى ابن سعد - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم - قال : « أنا وكافل اليتيم كهاتين فى الجنة وقرن بين أصبعيه الوسطى والتى تلى الابهام »[٤] .

وقوله تعالى : ﴿ **ولاتحاضون على طعام المسكين** ﴾ أى : لايأمرون بالإحسان إلى الفقراء والمساكين ولايحض بعضهم بعضا على اطعام المحتاج وعون المساكين . ﴿ **وتأكلون التراث أكلا لمًّا** ﴾ أى : وتأكلون الميراث أى ميراث اليتامى . وأصله الوارث من ورثت ، فأبدلوا الواو تاء . لأن العرب كانوا لايعطون من الميراث أنثى ولاصغيرا بل ينفرد به الرجال - ومعنى (أكلا لما) أى : شديدا .

وقوله تعالى : ﴿ **وتحبون المال حبا جما** ﴾ أى : وتحبون المال حبا كثيرا مع الحرص والشره ، وهذا ذم لهم لتكالبهم على المال ، وبخلهم بانفاقه .

قوله تعالى : ﴿ **كلا إذا دكت الأرض دكا دكا ، وجاء ربك والملك صفا صفا وجىء يومئذ بجهنم ، يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى يقول ياليتنى قدمت لحياتى فيومئذ لايعذب عذابه أحد ولايوثق وثاقه أحد ، ياأيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى** ﴾ .

---

(١) سورة المؤمنون الآيات من ٥٥ - ٦١

(٢) الدر المنثور للسيوطى ٥٠٩/٨ .

(٣) الزهد لابن المبارك صفحة ٢٣٠ حديث رقم ٦٥٤

(٤) سنن أبى داود ٣٥٦/٥ رقم ١٥٠ وصحيح البخارى ١٠/٨ باب فضل من يعول يتيماً وسنن الترمذى ٣٢١/٤ رقم ١٩١٨ باب ما جاء فى رحمة اليتيم .

قوله تعالى : ﴿ كلا ﴾ أى : ماهكذا ينبغى أن يكون الأمر ، فهو رد لانكبابهم على الدنيا وجمعهم لها ، فإن من فعل ذلك يندم يوم ترك الأرض ولاينفع الندم . ﴿ كلا إذا دكت الأرض دكا دكا ﴾ أى : زلزلت الأرض وحركت تحريكا شديدا قال الزجاج : أى : زلزلت فدك بعضها بعضا .

ومعنى ﴿ دكا دكا ﴾ أى : مرة بعد مرة ، زلزلت فكسر بعضها بعضا ، فتكسر كل شىء على ظهرها . وهو معنى قول ابن مسعود وابن عباس : تمد الأرض مد الأديم .

وقوله تعالى : ﴿ وجاء ربك والملك صفا صفا ﴾ أى : وجاء ربك يامحمد لفصل القضاء بين العباد ، وجاءت الملائكة صفوفا متتابعة صفا بعد صف . وهذه الآية وأمثالها مما يجب الإيمان به من غير تكييف ولاتمثيل . وقال ابن كثير : قام الخلائق من قبورهم لربهم ، وجاء ربك لفصل القضاء بين خلقه ، والملائكة يجيئون بين يديه صفوفا صفوفا كما قال تعالى : ﴿ هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام والملائكة وقضى الأمر وإلى الله ترجع الأمور ﴾[1] .

وقوله تعالى : ﴿ وجىء يومئذ بجهنم ﴾ أى : وأحضرت جهنم ليراها المجرمون كما قال تعالى : ﴿ وبرزت الجحيم لمن يرى ﴾[2] وقوله : ﴿ وبرزت الجحيم للغاوين ﴾[3] . وفى صحيح مسلم عن عبدالله بن مسعود قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها »[4] .

قوله تعالى : ﴿ يومئذ يتذكر الإنسان ﴾ أى : عمله وماكان أسلفه فى قديم دهره وحديثه ﴿ وأنى له الذكرى ﴾ أى : اين له الاتعاظ والتوبة وقد فرط فيها فى الدنيا و﴿ يقول ياليتنى قدمت لحياتى ﴾ أى : يقول ياليتنى قدمت عملا صالحا لحياتى ، أى : لحياة لاموت فيها وقيل : حياة أهل النار ليست هنيئة فكأنهم لاحياة لهم ، فالمعنى ياليتنى قدمت من الخير لنجاتى من النار فأكون فيمن له حياة هنيئة .

قوله تعالى : ﴿ فيومئذ لايعذب عذابه أحد ولايوثق وثاقه أحد ﴾ أى : ليس أحد أشد عذابا من تعذيب الله من عصاه ﴿ ولايوثق وثاقه أحد ﴾ أى : وليس أحد أشد أى : وليس أحد أشد قبضا ووثقا من الزبانية لمن كفر بربهم ـ عزوجل ـ وهذا فى حق المجرمين من الخلائق والظالمين . فأما النفس الزكية المطمئنة وهى الساكنة الثابتة الدائرة مع الحق فقد قال الله فى شأنها :

﴿ ياأيتها النفس المطمئنة ارجعى الى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى ﴾ .

قال القرطبى : النفس المطمئنة : الساكنة الموقنة ؛ أيقنت أن الله ربها فأخبتت لذلك ، قاله مجاهد وغيره :

---

(١) سورة البقرة الآية : ٢١٠

(٢) سورة النازعات الآية : ٣٦

(٣) سورة الشعراء الآية : ٩١

(٤) صحيح مسلم ٢١٧٥/٤ رقم ٢٨٤٢

وعن مجاهد أيضا : الراضية بقضاء الله التى علمت أن ماأخطأها لم يكن ليصيبها ، وأن ماأصابها لم يكن ليخطئها . وقيل : التى عملت على يقين بما وعد الله فى كتابه .

وقال ابن كيسان : المطمئنة هنا المخلصة .

وقال ابن عطاء : العارفة التى لاتصبر عنه طرفة عين .

وقيل : المطمئنة بذكر الله تعالى ، بيانه ﴿ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ﴾[1] .

وقال ابن زيد : المطمئنة لأنها بشرت بالجنة عند الموت وعند البعث ويوم الجمع : وقال أبوهريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا توفى المؤمن أرسل الله إليه ملكين وأرسل معهما تحفة من الجنة ، فيقولان لها : «أخرجى أيتها النفس المطمئنة راضية ومرضية عنك ، أخرجى إلى روح وريحان ورب راض غير غضبان » فتخرج كأطيب ريح المسك وجد أحد من أنفه على ظهر الأرض[2] . وذكر الحديث .

وقوله تعالى : ﴿ ارجعى إلى ربك ﴾ أى : إلى جواره وثوابه وماأعد لعباده فى جنته كما قال تعالى : ﴿ إن المتقين فى جنات ونهر فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ﴾[3] .

وقوله : ﴿ راضية ﴾ أى : فى نفسها (مرضية) أى : قد رضيت عن الله ورضى عنها وأرضاها كما قال تعالى : ﴿ رضى الله عنهم ورضوا عنه ﴾ .

وقوله : ﴿ فادخلى فى عبادى ﴾ أى : فى جملتهم . ﴿ وادخلى جنتى ﴾ قال ابن كثير : وهذا يقال لها عند الاحتضار وفى يوم القيامة أيضا كما أن الملائكة يبشرون المؤمن عند احتضاره وعند قيامه من قبره فكذلك هنا .

ومصداق ذلك قوله تعالى : ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولاتحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ماتشتهى أنفسكم ولكم فيها ماتدعون ، نزلا من غفور رحيم ﴾[4] .

اللهم اجعل خير أعمالنا خواتيمها وخير أيامنا يوم لقائك برحمتك ياأرحم الراحمين .

---

(١) سورة الرعد الآية : ٢٨

(٢) سنن ابن ماجه ـ كتاب الزهد ٢/١٤٢٣ رقم ٤٢٦٢ وسنن النسائى ـ كتاب الجنائز ٩/٤

(٣) سورة القمر الآيتان : ٥٤ ، ٥٥

(٤) سورة فصلت الآيات : من ٣٠ إلى ٣٢

تفسير سورة
« البـلد »

مقدمة عن السورة :

قال صاحب البصائر :

السورة مكية .

وآياتها : عشرون

وكلماتها : اثنتان وثمانون .

وحروفها : ثلاثمائة واحدى وخمسون .

فواصل آياتها : (هدنا) .

سميت سورة البلد ، لمفتتحها ، وسورة العقبة ، لقوله تعالى : ﴿ **فلا اقتحم العقبة** ﴾ .

معظم مقصود السورة : تشريف مكة المكرمة بحكم القسم بها ، وشدة حَال الأدنى ، والخبير عن سره وعلانيته ، والمنة عليه بالنعم المختلفة ، وتهويل عقبة الصراط وبيان النجاة منها ومدح المؤمنين وصبرهم على البلاء ، ورحمة بعضهم بعضا وخلود الكفار فى النار فى قوله تعالى : ﴿ **عليهم نار مؤصدة** ﴾ .

المتشـابهات :

قوله : ﴿ **لا أقسم بهذا البلد** ﴾ ثم قال : ﴿ **وأنت حل بهذا البلد** ﴾ كرر البلد وجعله فاصله بين الآيتين ، فالبلد الأول قصد به وصف لم يحصل فى الثانى وهو مكة ، لأن معنى أقسم بالبلد الحرام الذى جبلت على تعظيمه قلوب العرب فلا يحل فيه لأحد ما أحل للنبى - ﷺ - فقوله : ﴿ **وأنت حل** ﴾ أى : محل أحل لك منه ما حرم على غيرك ، فصار المعنى أقسم بالبلد المحرم تعظيما له ، وهو مع أنه محرم على غيرك محل إكراما لمنزلتك ، فالبلد فى الأول محرم وفى الثانى محلل ، وكان النبى عليه الصلاة والسلام - أحل له قتل من رأى قتله حين أذن فى قتال المشركين ، فأمر بقتل ابن خطل صبرا . وهو متعلق بأستار الكعبة ، ولم يحل لأحد قبله ، ولا يحل لأحد بعده ما أحل له ، وإذا كان كذلك صار الثانى معينا به غير ما عنى بالأول فكأنه ذكر وصفاً غير وصفه المتقدم فجمع فوائد من تعظيم البلد وتعظيم النبى - ﷺ - حين أبيح له ما حظر منه على سواء ، وقيل : أحلت له ساعة من نهار ولم تحل لغيره - ﷺ .

مناسبة السورة لما قبلها :

١ - إنه ذم فى الأولى من أحب المال ، وأكل التراث ولم يحض على طعام المسكين ، وذكر هنا الخصال التى تطلب من صاحب المال من فك الرقبة ، والإطعام فى يوم المسغبة .

٢ - ذكر هناك حال النفس المطمئنة ، وذكر هنا ما يكون به الأطمئنان .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ﴿٢٠﴾

معانى المفردات

البلد : مكة المكرمة

حل : أى : حال مقيم فيه .

ووالد وما ولد : المراد آدم وذريته .

أيحسب : أى : أيظن .

أهلكت : أى : أنفقت .
لبداً : أى : كثيراً .
النجدين : المراد طريقا الخير والشر .
اقتحم الشىء : دخل فيه بشدة .
والعقبة : الطريق الوعرة فى الجبل يصعب سلوكها ، والمراد مجاهدة الإنسان نفسه وهواه ومن يسول له فعل الشر من شياطين الإنس والجن .
وفك الرقبة : عتقها أو المعاونة عليه .
والمسغبة : الجوع يقال : سغب الرجل يسغب إذا جاع .
والمقربة : القرابة فى النسب ، تقول : فلان من ذوى قرابتى ومن أهل مقربتى إذا كان قريبك نسباً .
والمتربة : الفقر ، تقول : ترب الرجل إذا افتقر وأترب إذا كثر ماله حتى صار كالتراب .
تواصوا بالصبر : أى : نصح بعضهم بعضا به .
والميمنة : طريق النجاة والسعادة .
والمشأمة : طريق الشقاء .
مؤصدة : أى : مطبقة عليهم من آصدت الباب ، أى : أغلقته .

التفسير

قوله تعالى: ﴿ **لا أقسم بهذا البلد ، وأنت حل بهذا البلد ، ووالد وما ولد ، لقد خلقنا الإنسان فى كبد** ﴾ .

هذا قسم من الله ـ عز وجل ـ بمكة أم القرى التى شرفها الله ـ تعالى ـ بالبيت العتيق ـ قبلة أهل الشرق والغرب ـ وجعلها الله مهبط الرحمات ، وإليها تجبى ثمرات كل شىء ، وجعلها حرماً آمناً ، وجعل حرمتها منذ خلق السموات والأرض وأقسم سبحانه به فى كتابه العزيز فى موضع آخر فقال تعالى : ﴿ **وهذا البلد الأمين** ﴾[(١)] ، وليس على وجه الأرض بقعة يجب على قادر السعى إليها والطواف بالبيت الذى فيها غيرها وثبت عن النبى ـ ﷺ ـ أن الصلاة فى المسجد الحرام بمائة ألف صلاة ففى النسائى والمسند بإسناد صحيح عن عبد الله بن الزبير عن النبى ـ ﷺ ـ أنه قال : « صلاة فى مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد الا المسجد الحرام ، وصلاة فى المسجد الحرام أفضل من مائة صلاة فى مسجدى هذا»[(٢)] .

---

(١) سورة التين الآية : ٣
(٢) مسند أحمد ٤/٥ وسنن النسائى ٥/٢١٣

وفى المسند والترمذى والنسائى عن عبد الله بن عدى أنه سمع رسول الله - ﷺ - وهو واقف على راحلته بالحزورة من مكة .

يقول : والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إلى الله ولولا أنى أخرجت منك لما خرجت[١] ومن خصائصها كونها قبلة لأهل الأرض كلهم فليس على وجه الأرض قبلة غيرها ، ومن خواصها أيضا أنه يحرم استقبالها واستدبارها عند قضاء الحاجة دون سائر بقاع الأرض . ومن خواصها أيضا أن المسجد الحرام أول مسجد وضع فى الأرض كما فى الصحيحين عن أبى ذر قال : سألت رسول الله - ﷺ - عن أول مسجد وضع فى الأرض قال المسجد الحرام[٢] الحديث .

ومما يدل على تفضيلها أن الله - تعالى - أخبر أنها أم القرى فالقرى كلها تبع لها وفرع عليها وهى أصل القرى فيجب أن لا يكون لها فى القرى عديل .

وقد ظهر سر هذا التفضيل والاختصاص فى انجذاب الأفئدة وهوى القلوب وانعطافها ومحبتها لهذا البلد الأمين فجذبه للقلوب أعظم من جذب المغناطيس للحديد .

ولهذا أخبر سبحانه أنه مثابة للناس أى : يتوبون إليه على تعاقب الأعوام من جميع الأقطار ولا يقضون منه وطرا بل فلله كم لها من قتيل وسليب وجريح وكم أنفق فى حبها من الأموال والأرواح ورضى المحب بمفارقة فلذات الأكباد والأهل والأحباب والأوطان مقدما بين يديه أنواع المخاوف والمتالف والمعاطب والمشاق وهو يستلذ ذلك كله ويستطيبه ويراه لو ظهر سلطان المحبة فى قلبه أطيب من نعم المجلية وترفهم ولذاتهم . وهذا كله سر اضافته إليه سبحانه وتعالى بقوله : ﴿ وطهر بيتى ﴾ فاقتضت هذه الإضافة الخاصة من هذا الاجلال والتعظيم والمحبة ما أقتضته كما اقتضت إضافته لعبده ورسوله إلى نفسه ما اقتضت من ذلك . . أ. هـ (قاله ابن القيم فى الزاد)

قوله تعالى : ﴿ وأنت حل بهذا البلد ﴾ .

فيه قولان : أحدهما أنه من الإحلال ، وهو ضد الإحرام قال قتادة : ﴿ وأنت حل بهذا البلد ﴾ قال : أنت به من غير حرج ولا اثم ، وقال الحسن البصرى : أحلها الله له ساعة من نهار وهذا المعنى الذى قالوه قد ورد به الحديث المتفق عليه « إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض فهو حرام بحرمه الله إلى يوم القيامة لا يعضد شجره ولا يختلى خلاه ، وإنما أحلت لى ساعة من نهار وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس الا فليبلغ الشاهد الغائب[٣] وفى لفظ آخر ، فإنْ أَحَدٌ ترخَّص بقتال رسول الله فقولوا : إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم »[٤]

---

(١) سنن الترمذى ٥/٧٢٢ ٣٩٢٥ ومسند أحمد ٤/٣٠٥

(٢) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان رقم ٢٩٨

(٣) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان رقم ٨٥٩

(٤) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان رقم ٨٦٠

(والثانى) إن قوله تعالى : ﴿ وأنت حل بهذا البلد ﴾ أنه من الحلول وهو ضد الظعن قال البيضاوى : أقسم سبحانه بالبلد الحرام وقيده بحلوله عليه الصلاة والسلام فيه - أى : اقامته فيه - إظهاراً لمزيد فضله ، وإشعاراً بأن شرف المكان يشرف أهله .

وقال ابن القيم - رحمه الله - : فهذا القسم متضمن لتعظيم بيته ورسوله فهو خير البقاع وقد اشتمل على خير العباد فجعل بيته هدى للناس ، ونبيه إماماً وهادياً لهم ، وذلك من أعظم نعمه وإحسانه إلى خلقه ، كما هو من أعظم آياته ودلائل وحدانيته وربوبيته ، فمن اعتبر حال بيته وحال نبيه وجد ذلك من أظهر أدلة التوحيد والربوبية . أ. هـ

قوله تعالى : ﴿ ووالد وما ولد ﴾ قال مجاهد وأصحابه : الوالد آدم وما ولد ولده قال ابن كثير : وهذا الذى ذهب إليه مجاهد وأصحابه حسن قوى لأن الله - تعالى - لما أقسم بأم القرى وهى أم المساكن أقسم بعده بالمساكن وهو آدم أبو البشر وولده . واختار ابن جرير أنه عام فى كل والد وولده وهو محتمل أيضا .

وقوله تعالى : ﴿ لقد خلقنا الإنسان فى كبد ﴾ هذا هو المقسم عليه أى : لقد خلقنا الإنسان فى تعب ومشقة ، فإنه لا يزال يقاسى أنواع الشدائد ، من وقت نفخ الروح فيه إلى حين نزعها منه ، قال ابن عباس : (فى كبد) أى : فى مشقة وشدة ، من حمله ، وولادته ورضاعته ، وفطامه ، ومعاشه ، وحياته ، وموته وأصل الكبد : الشدة ، وقيل : لم يخلق الله خلقا يكابد ما يكابد ابن آدم ، وهو مع ذلك اضعف الخلق قال أبو السعود فى الآية تسلية لرسول الله - ﷺ - مما كان يكابده من كفار مكة .

وقال ابن القيم : وعلى هذا فالكبد من مكابدة الأمر ، وهى معاناة شدته ومشقته ، والرجل يكابد الليل إذا قاسى هوله وصعوبته والكبد شدة الأمر ، ومنه تكبد اللبن إذا غلظ واشتد . ومنه الكبد لأنها دم يغلظ ويشتد . وانتصاب القامة والاستواء من ذلك ، لأنه إنما يكون عن قوة وشدة ، فإن الإنسان مخلوق فى شدة ، بكونه فى الرحم ، ثم فى القماط والرباط ، ثم هو على خطر عظيم عند بلوغه حال التكليف ، ومكابدة العيش ، والأمر والنهى ، ثم مكابدة الموت وما بعده فى البرزخ وموقف القيامة ، ثم مكابدة العذاب فى النار ولا راحة له إلا فى الجنة .

قوله تعالى : ﴿ أيحسب أن لن يقدر عليه أحد ، يقول أهلكت مالاً لبداً ، أيحسب أن لم يره أحد ، ألم نجعل له عينين ، ولساناً وشفتين ، وهديناه النجدين ﴾ أى : أيظن هذا الشقى الفاجر ، المغتر بقوته ، أن الله - تعالى - لا يقدر عليه لشدته وقوته ؟ قال بعض المفسرين : نزلت فى أبى الأشد بن كلدة » كان شديداً مغتراً بقوته ، وكان يبسط له الأديم - الجلد - فيوضع تحت قدميه ، ويقول : من أزالنى عنه فله كذا ، فيجذبه عشرة فيتقطع قطعاً ولا تزل قدماه .

وقوله : ﴿ يقول أهلكت مالا لبداً ﴾ أى : يقول هذا الكافر : أنفقت مالا كثيراً فى عداوة محمد - ﷺ - قال الآلوسى : أى : يقول فخراً ومباهاة على المؤمنين : أنفقت مالا كثيرا ، وأراد بذلك ما أنفقه

« رياء وسمعة » وعبر عن الإنفاق بالإهلاك إظهاراً لعدم الاكتراث ، وأنه لم يفعل ذلك رجاء نفع ، فكأنه جعل المال الكثير ضائعاً .

وقوله تعالى : ﴿ أيحسب أن لم يره أحد ﴾ أى : أيظن أن الله - تعالى - لم يره حين كان ينفق ، ويظن أن أعماله تخفى على رب العباد ؟ ليس الأمر كما يظن ، بل إن الله - تعالى - رقيب مطلع عليه ، سيسأله يوم القيامةويجازيه عليه .

ثم ذكره سبحانه بنعمه عليه ليعتبر وينعظ فقال تعالى : ﴿ ألم نجعل له عينين ﴾ أى : ألم نجعل له عينين يبصر بهما ؟ (ولساناً) ينطق به فيعبر عما فى ضميره ؟ (وشفتين) أى : وشفتين يطبقهما على فمه ، ويستعين بهما على الأكل والشرب والنفخ وغير ذلك ؟

وقوله تعالى : ﴿ وهديناه النجدين ﴾ أى : وبينا له طريقى الخير والشر ، والهدى والضلال ، ليسلك طريق السعادة ، ويتجنب طريق الشقاوة كما قال تعالى : ﴿ إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً ﴾[1] .

وقال ابن القيم - رحمه الله - فى هذه الآيات المباركة :

« أنكر سبحانه على الإنسان ظنه وحسبانه أن لن يقدر عليه من خلقه فى هذا الكبد والشدة والقوة التى يكابد بها الأمور . فإن الذى خلقه كذلك أولى بالقدرة منه وأحق ، فكيف يقدر على غيره من لم يكن قادراً فى نفسه ، فهذا برهان مستقل بنفسه ، مع أنه متضمن للجزاء الذى مناطه القدرة والعلم . فنبه على ذلك بقوله : ﴿ أيحسب أن لن يقدر عليه أحد ﴾ وبقوله : ﴿ أيحسب أن لم يره أحد ﴾ فيحصى عليه ما عمل من خير وشر ولا يقدر عليه فيجاز يه بما يستحقه ؟

ثم أنكر سبحانه على الانسان قوله : ﴿ أهلكت مالا لبداً ﴾ وهو الكثير الذى يلبد بعضه فوق بعض ، فافتخر هذا الانسان بإهلاكه وإنفاقه فى غير وجهه إذ لو أنفقه فى وجهه التى أمر بانفاقه فيها ، ووضعه مواضعه ، لم يكن ذلك إهلاكاً له ، بل تقرباً به إلى الله وتوصلاً به إلى رضاه وثوابه . وذلك ليس باهلاك له . فأنكر سبحانه افتخاره وتبجحه بإنفاق المال فى شهوّاته وأغراضه التى إنفاقه فيها إهلاك له .

ثم وبخه بقوله : ﴿ أيحسب أن لم يره أحد ؟ ﴾ وأتى ههنا بلم ، الدالة على المضى ، فى مقابلة قوله : ﴿ أهلكت مالاً لبداً ﴾ فإن ذلك فى الماضى ، افيحسب أن لم يره أحد فيما أنفقه وفيما أهلكه ؟ ثم ذكر برهاناً مقدراً أنه سبحانه أحق بالرؤ ية وأولى من هذا العبد الذى له عينان يبصر بهما . فكيف يعطيه البصر من لم يره ؟ وكيف يعطيه آلة البيان ، من الشفتين واللسان ، فينطق ويبين عما فى نفسه ، ويأمر وينهى من لم يتكلم ولا يكلم ، ولا يخاطب ، ولا يأمر ولا ينهى ؟ وهل كمال المخلوق مستفاد الا من كمال خالقه ؟ ومن جعل غيره عالماً بنجدى الخير والشر - وهما طريقاهما - أليس هو أولى وأحق بالعلم منه . ومن هداه إلى

(١) سورة الإنسان الآية : ٣

هذين الطريقين ، كيف يليق به أن يتركه سدى ، ولا يعرفه ما يضره وما ينفعه فى معاشه ومعاده ؟ وهل النبوة والرسالة الا لتكميل هداية النجدين ؟ فدل هذا كله على إثبات الخالق وصفات كماله وصدق رسله ووعده . وهذه أصول الإيمان التى اتفقت عليها جميع الرسل من أولهم إلى آخرهم إذا تأمل الإنسان حاله وخلقه وجده من أعظم الأدلة على صحتها وثبوتها . فتكفى الإنسان فكرته فى نفسه وخلقه . . أ. هـ

قوله تعالى : ﴿ فلا اقتحم العقبة ، وما أدراك ما العقبة ، فك رقبة أو إطعام فى يوم ذى مسغبة يتيما ذا مقربة أو مسكينا ذا متربة ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة أولئك أصحاب الميمنة والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة عليهم نار مؤصدة ﴾

قوله تعالى : ﴿ فلا اقتحم العقبة . وما أدراك ما العقبة ﴾ .

قال القرطبى : قال ابن زيد وجماعة من المفسرين : معنى الكلام الاستفهام الذى معناه الإنكار ، تقديره : أفلا اقتحم العقبة ؟ أو : هلّا اقتحم العقبة ؟ !

يقول : هلّا أنفق ماله فى فك الرقاب وإطعام المساكين ليجاوز به العقبة ، فيكون خيراً له من إنفاقه فى عداوة محمد ـ ﷺ ـ ثم قيل : اقتحام العقبة هاهنا : ضرب مثل ، أى : هلا تحمل عظام الأمور فى إنفاق ماله فى طاعة ربه والإيمان به ؟! وهذا إنما يليق بقول من حمل (فلا اقتحم العقبة) على الدعاء ، أى : فلا نجا ولا سلم من لم يُنفق ماله فى كذا وكذا .

وقيل : شبه عظم الذنوب وثقلها وشدتها بعقبة ، فإذا أعتق رقبة وعمل صالحاً كان مثله مثل من اقتحم العقبة ، وهى الذنوب التى تضره وتؤذيه وتثقله .

وقال ابن عمر : هذه العقبة جبل فى جهنم . رواه ابن جرير .

وكذا قال الحسن ، وقال قتادة : إنها عقبة ضخمة شديدة ، فاقْتَحِمُوها بطاعة الله تعالى .

وقال مجاهد ، والضحاك ، والكلبى : هى الصراط يضرب على جهنم كحد السيف ، مسيرة ثلاثة آلاف سنة ، سهلًا وصعوداً وهبوطاً ، واقتحامه على المؤمن كما بين صلاة العصر إلى العشاء . وقيل : اقتحامه عليه قدر ما يصلى المكتوبة . وقيل : النار نفسها هى العقبة . وقيل : العقبة : خلاصة من هول العرض . وقال الحسن : هى ـ والله ـ عقبة شديدة : مجاهدة الإنسان نفسه ، وهواه ، وعدوه الشيطان . وأنشد بعضهم :

إنى بليت بأربع يرمينني ... بالنَّبل قد نصبوا علَّى شراكا

إبليس والدنيا ونفسى والهوى ... من أين أرجو بينهم فكَاكا

يا رب ساعدنى بعفو إننى ... أصبحت لا أرجو لهن سواكا

وقوله تعالى : ﴿ وما أدراك ما العقبة ﴾ أى : ما أدراك ما اقتحام العقبة ؟ ! وهذا تعظيم لالتزام أمر الدين .

قال القشيرى : وحمل العقبة على عقبة جهنم بعيد ، إذ أحد فى الدنيا لم يقتحم عقبة جهنم ، إلا أن يحمل على أن المراد ، فلاَّ صَيَّرَ نفسه بحيث يمكنه اقتحام عقبة جهنم غداً . واختار البخارى قول مجاهد : إنه لم يقتحم العقبة فى الدنيا . قال ابن العربى : « وإنما اختار ذلك لأجل أن قال بعد ذلك فى الآية الثانية : ﴿ وما أدراك ما العقبة ﴾ ثم قال فى الآية الثالثة : ﴿ فكُّ رقبة ﴾ وفى الآية الرابعة ﴿ أو إطعام فى يوم ذى مسغبة ﴾ ثم قال فى الآية الخامسة : ﴿ يتيما ذا مقربة ﴾ ثمَّ قال فى الآية السادسة : ﴿ أو مسكيناذا متربة ﴾ فهذه الأعمال إنما تكون فى الدنيا . المعنى : فلم يأت فى الدنيا بما يسهل عليه سلوك العقبة فى الآخرة .

وقال ابن القيم - رحمه الله - فى هذه الآية : واختلف فى هذه العقبة ، هل هى فى الدنيا أو فى الآخرة ؟ فقالت طائفة : العقبة ههنا : مثل ضربه الله - تعالى - لمجاهدة النفس والشيطان فى أعمال البر ، وحكوا ذلك عن الحسن ومقاتل . قال الحسن : عقبة - والله - شديدة : مجاهدة النفس ، وهواه ، وعدوه ، والشيطان . وقال مقاتل : هذا مثل ضربه الله ، يريد أن المعتق رقبة ، والمطعم اليتيم والمسكين ، يقاحم نفسه وشيطانه ، مثل أن يتكلف صعود العقبة . . . وقالت طائفة : بل هى عقبة حقيقة يصعدها الناس . قال عطاء : هى عقبة جهنم . وقال مجاهد : هى الصراط بضرب على جهنم . وهذا لعله قول الكلبى . وقول هؤلاء أصح نظراً وأثراً ولغة . قال قتادة : فإنها عقبة شديدة ، فاقتحمُوها بطاعة الله . وفى أثر معروف : « إن بين أيديكم عقبة كؤودا لا يقتحمها إلا المخفون » أو نحو هذا . . وأن الله سمى الإيمان به ، وفعل ما أمر ، وترك ما نهى عقبة . فكثيرا ما يقع فى كلام السلف الوصية بالتضمر لاقتحام العقبة . وقال بعض الصحابة : وقد حضره الموت ، فجعل يبكى ، ويقول : مالى لا أبكى وبين يدى عقبة كؤود ، أهبط منها إما إلى جنة ، وإما إلى نار . فهذا القول أقرب إلى الحقيقة ، والآثار السلفية ، والمألوف من عادة القرآن فى استعماله (وما أدراك) فى الأمور الغائبة العظيمة كما تقدم . والله أعلم . اهـ .

قوله تعالى : ﴿ فك رقبة ﴾ فكها : خلاصها من الأسر . والفك : هو حل القيد ، والرق قيد . وسمى المرقوق رقبة ، لأنه بالرق كالأسير المربوط فى رقبته وسمى عتقها فكاكاً لخلاصها من الأسر .

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه - قال : « من أعتق رقبة أعتق الله بكل عضو منها عضواً من أعضائه من النار ، حتى فرجه بفرجه »[1] .

---

(١) الحديث أخرجه مسلم فى صحيحه بشرح النووى فى (كتاب العتق) باب : فضل العتق حـ ١٠ ص ١٥١ بلفظه وانظره فى سنن الترمذى فى (كتاب الايمان والنذور) باب : ماجاء فى ثواب من أعتق رقبة حـ ٤ ص ١١٤ رقم ١٥٤١ وزاد : « مؤمنة » .

وفى الترمذى عن أبى أمامة وغيره من أصحاب النبى - ﷺ - قال : « أيما امرىء مسلم أعتق امرأ مسلما كان فكاكه من النار ، يجزىء كل عضو منه عضواً منه ، وأيما امرأة مسلمة أعتقت امرأة مسلمة كانت فكاكها من النار يجزىء كل عضو منها عضواً منها »[١] .

وقال الامام أحمد بسنده عن البراء بن عازب قال : جاء أعرابى إلى رسول الله - ﷺ - فقال : يا رسول الله ، علمنى عملاً يدخلنى الجنة فقال : « لئن كنت أقصرت الخطبة لقد أعرضت المسألة ، أعتق النسمة وفك الرقبة » فقال : يا رسول الله أو ليستا بواحدة ؟ قال : « لا ، إن عتق النسمة أن تنفرد لعتقها ، وفكُّ الرقبة أن تعين فى عتقها ، والمنحة الوكوف ، والفىء على ذى الرحم الظالم ، فإن لم تطق ذلك فأطعم الجائع ، واسق الظمآن ، وأمر بالمعروف وانه عن المنكر ، فإن لم تطق ذلك فكف لسانك إلا من الخير »[٢] .

وقوله تعالى : ﴿ أو إطعام فى يوم ذى مسغبة ﴾ قال قتادة وغير واحد من السلف : أى : فى يوم ذى مجاعة ، والسغب : هو الجوع . وقال إبراهيم النخعى : فى يوم الطعام فيه عزيز .

وإطعام الطعام فضيلة ، وهو مع السغب - الذى هو الجوع - أفضل .

وروى : « من موجبات الرحمة إطعام المسلم السغبان » .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص « أن رجلاً سأل رسول الله - ﷺ - : أى الإسلام خير ؟ » قال : « تطعم الطعام . وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف » متفق عليه [٣] .

وعن ابن مسعود - رضى الله عنه - قال : « يحشر الناس يوم القيامة أعرى ما كانوا قط ، وأجوع ما كانوا قط ، وأظمأ ما كانوا قط ، وأنضب ما كانوا قط ، فمن كسا لله - عز وجل - كساه الله ، ومن أطعم لله - عز وجل - أطعمه الله ، ومن يسقى لله - عز وجل - سقاه الله ، ومن عمل لله - عز وجل - أغناه الله ، ومن عفا لله أعفاه الله » .

رواه ابن أبى الدنيا موقوفا ، وروى مرفوعا بهذا اللفظ أيضاً .

وروى عن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - قال : « سئل رسول الله - ﷺ - أى الأعمال أفضل ؟ » قال : « إدخالك السرور على مؤمن أشبعت جوعته ، أو كسوت عورته ، أو قضيت

---

(١) انظر سنن الترمذى (كتاب النذور والايمان) باب : ما جاء فى فضل من أعتق حـ ٤ ص ١١٧ ، ١١٨ رقم ١٥٤٧ فقد رواه الترمذى عن أبى أمامة وغيره من أصحاب النبى - صلى الله عليه وسلم - وقال : هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه .

(٢) انظر الفتح الربانى للساعاتى حـ ٩ ص ٦٣ ، ٦٤

(٣) الحديث فى اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان فى (كتاب الايمان) باب تفاضل الاسلام وأى أموره أفضل حـ ١ ص ٩ رقم ٢٤

حاجته »[١] .

رواه الطبرانى فى الأوسط

وقوله تعالى : ﴿ يتيماً ذا مقربة . أو مسكينا ذا متربة ﴾ .

اعلم أن الصدقة على القرابة أفضل منها على غير القرابة ، كما أن الصدقة على اليتيم الذى لا كافل له أفضل من الصدقة على اليتيم الذى يجد من يكفله . وأهل اللغة يقولون : سمى يتيماً لضعفه ، وذكروا أن اليتيم فى الناس من قبل الأب ، وفى البهائم من قبل الأمهات .

وقال بعض أهل اللغة : اليتيم الذى يموت أبواه .

عن سلمان بن عامر ، عن النبى ـ ﷺ ـ قال : « الصدقة على المسكين صدقة ، وعلى ذى الرحم اثنتان : صدقة وصلة »[٢] .

رواه النسائى ، والترمذى وحَسَّنَهُ .

وعن بهز بن حكيم ، عن أبيه ، عن جده قال : « قلت يا رسول الله . من أبَرُّ ؟ . قال : « أمك ، ثم أمك ، ثم أمك ، ثم أباك ، ثم الأقرب فالأقرب »[٣] الحديث أخرجه أبو داود ، والترمذى وحسنه .

وأخرج أبو داود بسنده عن سهل أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « أنا وكافل اليتيم كهاتين فى الجنة »[٤] وقرن بين أصابعه الوسطى والتى تلى الإبهام » .

وقوله تعالى : ﴿أو مسكيناً ذا متربة ﴾أى : لا شىء له ، حتى كأنه قد لصق بالتراب من الفقر ، ليس له مأوى إلا التراب .

قال ابن عباس : هو المطروح على الطريق الذى لا بيت له .

قوله تعالى : ﴿ ثم كان من الذين آمنوا ﴾يعنى أنه لا يقتحم العقبة من فك رقبة ، أو أطعم فى يوم ذى مسغبة حتى يكون من الذين آمنوا ، أى : صدقوا ، فإن شرط قبول الطاعات الإيمان بالله .

وقال ابن كثير فى قوله تعالى : ﴿ ثم كان من الذين آمنوا ﴾أى : ثم هو مع هذه الأوصاف الجميلة الطاهرة مؤمن بقلبه محتسب ثواب ذلك عند الله ـ عز وجل ـ كما قال تعالى : ﴿ ومن أراد الآخرة وسعى لها

---

(١) رواه كنز العمال فى (كتاب الصدقات) فصل فى أنواع الصدقة حـ ٦ ص ٥٩٢ رقم ١٧٠٣٥ وعزاه إلى الطبرانى فى الأوسط .

(٢) أخرجه النسائى فى سننه فى (كتاب الزكاة) باب : الصدقة على الأقارب حـ ٥ ص ٩٢ ورواه الترمذى فى جامعه الصحيح فى (كتاب الزماة) باب ما جاء فى الصدقة على ذى القرابة حـ ٣ ص ٣ رقم ٦٥٨ وهو عنده جزء حديث .

(٣) أخرجه أبو داود فى سننه فى (كتاب الأدب) باب : فى بر الوالدين حـ ٤ ص ٣٣٦ رقم ٥١٣٩ وأخرجه الترمذى فى (كتاب البر والصلة) باب ما جاء فى بر الوالدين حـ ٤ ص ٣٠٩ رقم ١٨٩٧

(٤) أخرجه أبو داود فى سننه فى (كتاب الأدب) باب : فى من ضم اليتيم حـ ٤ ص ٣٣٨ رقم ٥١٥٠ وأخرجه الترمذى فى (كتاب البر والصلة) باب ماجاء فى حكم اليتيم وكفالته حـ ٤ ص ٣٢١ رقم ١٩١٨ ـ وقال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح .

سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً ﴾[1] .

وقوله تعالى : ﴿ وتواصوا بالصبر وتواصو بالمرحمة ﴾ قال ابن كثير : أى : كان من المؤمنين العاملين صالحاً ، المتواصين بالصبر على أذى الناس وعلى الرحمة بهم . كما جاء فى الحديث : « الراحمون يرحمهم الله ، ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء » [٢] .

وفى الحديث الآخر : « لا يرحم الله من لا يرحم الناس » .

وقال القرطبى : (وتواصوا) أى : أوصى بعضهم بعضا (بالصبر) على طاعة الله وعن معاصيه ، وعلى ما أصابهم من البلايا والمصائب . (وتواصوا بالمرحمة) أى : بالرحمة على الخلق ، فإنهم إذا فعلوا ذلك رحموا اليتيم والمسكين .

وقوله تعالى ﴿ أولئك أصحاب الميمنة ﴾أى : المتصفون بهذه الصفات من أصحاب اليمين الذين يؤتون كتبهم بأيمانهم .

﴿ والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة ﴾ أى : أصحاب الشمال الذين يأخذون كتبهم بشمائلهم .

فأصحاب الميمنة : أصحاب الجنة ، وأصحاب المشأمة : أصحاب النار ، قال الله تعالى : ﴿ وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين . فى سدر مخضود . وطلح منضود . وظل ممدود ﴾[٤] الآيات . وقال تعالى : ﴿ وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال . فى سموم وحميم . وظل من يحموم ﴾ الآيات [٥] .

وقوله تعالى : ﴿ عليهم نار مؤصدة ﴾ أى : مطبقة عليهم فلا محيد لهم عنها ولا خروج لهم منها .

قال ابن القيم : الناس قسمان : ناج ، وهو من قطع العقبة وصار وراءها . وهالك وهو من دون العقبة . وهم أكثر الخلق ، ولا يقتحم هذه العقبة إلا المُضَمَّرُون ، فإنها عقبة كؤود شاقة ، لا يقطعها إلا خفيف الظهر ، وهم أصحاب الميمنة . والهالكون دون العقبة الذين لم يصدقوا الخير ، ولم يطيعوا الأمر ، منهم (أصحاب المشأمة . عليهم نار مؤصدة) قد أطبقت عليهم ، فلا يستطيعون الخروج منها ، كما أطبقت عليهم أعمال الغى والاعتقادات الباطلة ، المنافية لما أخبرت به رسله ، فلم تخرج قلوبهم منها . كذلك أطبقت عليهم هذه النار فلم تستطع أجسامهم الخروج منها . ﴿ وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذى كنا نعمل أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من

(١) الآية : ١٩ من سورة الاسراء .

(٢) انظر الجامع الصحيح للترمذى (كتاب البر والصلة) باب ما جاء فى رحمة المسلمين حـ ٤ ص ٣٢٣ رقم ١٩٢٢ . ورواه الامام أحمد بن طريق أبى إسحاق : انظر الفتح الربانى للساعاتى حـ١٩ ص ٨٨

(٤) الآيات : ٢٧ ـ ٣٠ من سورة الواقعة .

(٥) الآيات : ٤١ ـ ٤٣ من سورة الواقعة .

نصير . إن الله عالم غيب السمٰوات والأرض إنه عليم بذات الصدور ﴾[1] .

بحث فى : مكة المكرمة

مكة : مدينة قديمة ، وقد فسر المؤرخون واللغويون العرب اسم مكة تفسيرات كثيرة لغوية وغير لغوية استنبطوها من مكانة الكعبة وقدسيتها فى نفوس العرب .

قال ياقوت الحموى فى معجمه :

« إنما سميت مكة لأن العرب فى الجاهلية كانت تقول : لا يتم حجنا حتى نأتى مكان الكعبة فنمك فيه ، أى : نصفر فيه صفير المكاء حول الكعبة ، وكانوا يصفرون ويصفقون بأيديهم إذا طافوا بها ، والمكّاء بتشديد الكاف : طائر يأوى الرياض » .

وقال الأصمعى :

« . . . إنما من تمككت المخ : إذا استخرجته ، لأنها تمك الفاجر عنها ، أو أنها « بكة » لأن الناس يبك بعضهم بعضا فيها ، أى : يتدافعون ويتزاحمون .

وقيل فى اسم مكة : إن أصله (امتك) الفصيل ما فى ضرع أمه إذا لم يبق فيها شيئاً ، فسميت القرية مكة لقلة مائها ، كما سميت المعطشة ، وسميت فى القرآن (بكة) لأنها تبك أعناق الجبابرة ، أى : تدقها » (قاله القلقشندى) .

ومن أسمائها أيضاً : (أم القرى) - و (البلد الأمين) - و (أم رحم) لأن الناس يتراحمون فيها ويتوادعون ، و (الباسة) ، لأنها تبس الظالم ، أى : تحطمه ، و (القدس) و (القادس) و (المقدسة) و (فاران) و (الوادى) و (الحرم) و (العرش) و (معاد) و (طيبة) .

قال النووى : « لا يعرف فى البلاد بلدة أكثر أسماء من مكة والمدينة » وكثرة الأسماء تدل على شرف المسمى ، ولا عجب فإن الاسلام جعل لمكة والمدينة من الشهرة ما جعل المؤرخين يتبارون فى التدليل عليها بكثرة الأسماء .

وقد ورد اسم مكة فى المصادر اليونانية والرومانية القديمة ، فذكرها بطليموس الاسكندرى باسم ماكورابا .

ولما كانت قبائل الجنوب هى أول من سكن هذا الوادى فالأرجح أن اسمها أخذ من لغة الجنوب مستندا إلى البيت الحرام ، فمكة أو « مكرب » كما ذكرها بطليموس كلمة يمنية مكونة من « مك » و «رب »

---

(١) الآيتان : ٣٧ ، ٣٨ من سورة فاطر .

ومك : بمعنى بيت ، فتكون مكرب : بمعنى « بيت الرب » ومن هذه الكلمة أخذت مكة ، أو بكة ، يقلب الميم باء على عادة أهل الجنوب .

ومن المعروف أن القرآن الكريم ذكرها بعدة أسماء فهى :

بكة ، قال تعالى : ﴿ إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركاً وهدى للعالمين ﴾(١)

وهى مكة ، قال تعالى : ﴿ وهو الذى كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم ﴾(٢) .

وهى أم القرى ، قال تعالى : ﴿ وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها ﴾(٣) .

وهى البلد الأمين ، قال تعالى : ﴿ والتين والزيتون . وطور سينين . وهذا البلد الأمين ﴾(٤) .

وهى البلد ، قال تعالى : ﴿ لا أقسم بهذا البلد . وأنت حِلٌّ بهذا البلد ﴾(٥) .

موقع مكة :

فى منتصف الطريق المعبد للقوافل بين اليمن والشام ، تقوم مكة المكرمة فى واد غير ذى زرع ولا ضرع فيه ، تكتنفها من كل جهاتها جبال صخرية جرداء متباينة الارتفاع : وهى تقع عند تقاطع خط عرض ي٢٢/١٢ ٢١ شمالا ، بخط الطول ١٢/٢ ٣٩ شرقا ، وتمتد من الغرب إلى الشرق على مسافة ثلاثة كيلومترات طولا ، وما يقرب من نصف ذلك عرضا ، فى واد مائل من الشمال إلى الجنوب منحصر بين سلسلتى جبال تكادان تتصلان ببعضهما من جهة الشرق والغرب والجنوب ، أعنى على أبواب مكة الثلاثة ، ولذا لا تشاهد أبنيتها للقادم عليها إلا وهو على أبوابها ، والسلسلة الشمالية منها تتركب من جبل الفلج غربا ، ثم جبل قعيقعان ، ثم جبل الهندى ، ثم جبل لعلع ، ثم جبل كداء وهو فى أعلى مكة ، ومن جهته دخل الرسول ـ ﷺ ـ البلد حين الفتح .

أما الجنوبية فإنها تتركب من جبل أبى حديدة غرباً ، ثم يتلوه جبلا كدى وكدى بانحراف إلى الجنوب ، ثم جبل أبى قبيس إلى شرقيها ، ثم جبل خندمة . وكل سفوح هذه الجبال من جهة الحرم عامرة بالبيوت والمساكن التى تتدرج عليها إلى قلب الوادى . وضمن هذه المساكن بعض الدور القديمة ، فهناك دار ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ فى المسعى على عين السالك إلى المروة ، وفى الشرق الشمالى للحرم آثار

---

(١) الآية : ٩٦ من سورة آل عمران .

(٢) من الآية : ٢٤ من سورة الفتح .

(٣) من الآية: ٧ من سورة الشورى .

(٤) الآيات : ١ ـ ٣ من سورة التين .

(٥) الآيتان : ١ ، ٢ من سورة البلد .

دار أبي سفيان المشهورة فى الجاهلية والاسلام ، وقد جعل لها الرسول - ﷺ - يوم الفتح شأنا عظيما حيث جعلها حرماً محترما ، كل من دخلها من المشركين كان آمنا .

والحرم الشريف بين هذه البيوت مائلاً إلى الجهة الجنوبية مما يلى جبل أبى قبيس ، وفى هذه الجهة دار الخيزران ، يتلوها شرقا شِعْبُ بنى هاشم ، ويسمونه شعب على ، ثم شعب المولد ، ثم شعب بنى عامر ، وفى هذه الجهة الأخرى من الحرم خصوصاً جهة الشمال ومن دونهم باقى أهل مكة .

وجوُّ مكةَ شديد الحرارة قليل الأمطار ، ومع ذلك فقد تحصل فيه سيول كثيرة من الأمطار التى تنزل بكثرة فى الجبال العالية المحيطة بالطائف ، وكان عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - قد أقام فى شمال مكة قناطر لحجز مياه هذه السيول عن المدينة وانصرافها إلى الجهة الشرقية نحو المسفلة ، ومنها تسير إلى خزان كبير فى الجهة الجنوبية يسمونه (بركة ماجن) وتستعمل هناك للأعمال الزراعية ، وكثيرا ما كانت لهذه السيول أضرار جسيمة بمكة ومبانيها .

ويشرب أهل مكة من ماء الآبار التى فيها مثل زمزم ، أو التى فى ضواحيها مثل الزاهر والعسقلانى وغيرهما ، أو من الصهاريج التى تملأ من مياه المطر أو ماء الينابيع ، أو من عين زبيدة التى يجرى ماؤ ها إلى المدينة فى قنوات تحت الأرض لها خزانات فى شوارعها تسمى البازان ، وهذه العين لها أهمية عظيمة ، وهى من أجلِّ الآثار التى تنسب إلى السيدة زبيدة زوج هارون الرشيد . وكان السبب فى إنشائها أن هذه السيدة رأت فى حجها ما كان ينال أهل مكة وحجاج بيت الله الحرام من العناء الشديد لقلة الماء فى تلك الأنحاء ، فأمرت بإجراء الماء إلى أم القرى من عين حنين التى توجد فيما وراء عرفة إلى جهة الشمال على مسافة نحو خمسة وثلاثين كيلومترا من مكة ، وهذه العين تخرج من جبال طاد وتسير فى وادى حنين .

وقد اهتمت زبيدة بهذا العمل الجليل اهتماما كبيرا ، وأرسلت إليه العمال من جميع أنحاء البلاد الاسلامية فبنوا لهذا الماء مجرى عظيما وأوصلوا به مجرى آخر من وادى النعْمان من الماء الذى ينزل إليه من جبال كدى التى تبعد عن عرفات شرقا إلى الجنوب بنحو عشرة كيلومترات ، وسيروا إليه سبع قنوات أخرى من الجهات التى تسقط إليها السيول حتى تساعد ماء المجرى الأصلى الذى وصل إلى جنوب منى وحفر له هناك بئر كبير فى الصخر يصب فيه يسمى بئر زبيدة .

ومن هذا المجرى امتد فرعان : واحد إلى عرفات ، والآخر إلى مسجد نمرة ، يسير الماء فيهما زمن الحج .

وقد وصف ياقوت فى معجمه مكة المكرمة فقال :

« هى مدينة فى واد ، والجبال المشرفة عليها من جميع النواحى محيطة حول الكعبة وبناؤ ها من حجارة سود وبيض ملس ، وعلوها آجر كثيرة الأجنحة من خشب الساج ، وهى طبقات لطيفة بيضة حارة فى الصيف ، إلا أن ليلها لطيف . وقد رفع الله عن أهلها مؤونة الاستدفاء وأراحهم من كلف الاصطلاء .

وما نزل عن المسجد الحرام يسمونه المسفلة ، وما ارتفع عنه يسمونه المعلاة وعرضها سعة الوادى . والمسجد فى ثلثى البلد إلى المسفلة ، والكعبة فى وسط المسجد . وليس بمكة ماء جار . « إلا ماء زبيدة » ومياهها من السماء ، وليست لهم آبار يشربون منها ، هكذا !!

وأطيبها بئر زمزم ، وليس بجميع مكة شجر مثمر إلا شجر البادية ، فإذا جزت الحرم ، فهناك عيون وآبار وحوائط كثيرة وأودية ذات خضر ونخيل ، وأما الحرم فليس به شجر مثمر إلا نخيل يسيرة متفرقة » .

ووصف ابن جبير مكة ومناحيها المختلفة ، وخيراتها وثمارها ، ومما قاله فى ثرواتها الاقتصادية :

« وأما لحوم ضأنها فهناك العجب العجيب ، وقد وقع القطع من كل من تطوف على الآفاق ، وضرب نواحي الأقطار ، أنها أطيب لحم يؤكل فى الدنيا ، وماذاك ـ والله أعلم ـ إلا لبركة مراعيها .

وقال فى وصف ما اشتهرت به مكة من رطب جَنِيّ حتى طار صيته فى الآفاق :

« ومن أغرب ما ألفيناه ، فاستمتعنا بأكله ، وأجرينا الحديث باستطابته ـ ولا سيما لكوننا لم نعهده ـ الرطب ، وهو عندهم بمنزلة التين الأخضر فى شجره ، يجنى ويؤكل .

وهى فى نهاية من الطيب واللذاذة ، لا يُسْأمُ التَّفَكُّهُ به ، يخرج الناس إليه كخروجهم إلى الضيعة ، أو كخروج أهل المغرب لقراهم أيام نضج التين والعنب ، ثم بعد ذلك عند تناهى نضجه يبسط على الأرض قدر ما يجف قليلا ، ثم يركم بعضه على بعض فى السلال والظروف ويرفع » .

وأهل مكة كلهم مسلمون ، ولا يدخلها غير مسلم من السنة التاسعة للهجرة التى نزلت فيها الآية الكريمة :

﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ﴾[1] .

وكان على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ ينادى فى الموسم الذى أعقب نزول هذه الآية الكريمة : « ألا يحج بعد عامنا هذا مشرك » .

تاريخ مكة

يرجع تاريخ مكة إلى إبراهيم ـ صلوات الله عليه ـ فقد أوحى الله إليه وهو فى حبرون بفلسطين : أن خذ هاجر وإسماعيل واخرج حيث أريك ، فحمل هاجر وإسماعيل وهو رضيع وانطلق إلى الجنوب : إلى الأرض التى أراد الله أن يبارك فيها للعالمين .

(١) من الآية : ٢٨ من سورة التوبة .

ونظر إبراهيم فإذا بربوة ، إنها بيت الله المحرم قد أتى عليها الطوفان ، فأنزل هاجر وإسماعيل فوق الربوة وراح يصنع لهما مسكناً .

ومكث إبراهيم معهما ما شاء الله أن يمكث ، ثم وضع عندهما جرابا فيه تمر ، وسقاة فيها ماء ، وذهب منطلقا ، فتبعته هاجر وقالت : يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا فى هذا الوادى الذى ليس فيه أنيس ولا شىء ؟ . . . وجعل إبراهيم لا يلتفت إليها ، حتى إذا ما عاد نور الله إلى فؤادها قالت : آلله أمرك بهذا ؟

قال : نعم .

فقالت فى ثقة : فإذاً لا يضيعنا .

وانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يَرَيَانِهِ استقبل بوجهه البيت ورفع يديه وقال :

﴿ ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ﴾[1] .

راحت هاجر تأكل من جراب التمر وتشرب من الماء ، حتى إذا نفد ما فى السقاء عطشت وعطش ابنها ، ونظرت إليه وهو يتلوى من العطش فأحست بألم عميق ، وكاد عقلها يطيش ، وجعلت تتلفت فوجدت الصفا أقرب جبل إليها فهرعت إليه وقامت عليه ، ثم استقبلت الوادى تنظر هل ترى أحداً ؟ فلم تر أحداً ، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادى رفعت طرف درعها ثم سعت سعى الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادى ، ثم أتت المروة فقامت عليها فنظرت هل ترى أحداً ؟

وراحت تسعى بين الصفا والمروة سبع مرات تتلهف على رؤ ية أحد ينقذ ابنها من الموت عطشاً ، وما دار بخلدها فى تلك اللحظة التى استولى عليها فيها الجزع والهلع أن ملايين المؤمنين على مر السنين سيسعون بين الصفا والمروة سبعة أشواط ، تخليدا لذكرى ما كان فى ذلك السعى من بركة .

ولما أشرفت على المروة سمعت صوتا فقالت : صه ! ـ تريد نفسها ـ ثم أصاخت السمع فسمعت الصوت أيضا فانطلقت إلى حيث كان ابنها فإذا بالماء قد ظهر عند قدميه ، فجعلت تخوضه فى فرح وتغرف الماء فى سقاتها .

وشربت وأرضعت ولدها ، وإذا بالمَلَكِ عند زمزم فقال لها : لا تخافى الضيعة ، فإن هذا بيت الله الحرام ، يبنيه هذا الغلام وأبوه وإن الله لا يضيع أهله .

ونزلت رفقة من جرهم فى طريق أسفل مكة فرأوا الطير على الجبل . فقالوا : إن هذا الطير لَحَائِمٌ على ماء ، فأشرفوا فإذا هم بالماء ، فقالوا لهاجر : إن شئتِ كنا معك فآنسناك والماء ماؤك . فأذنت لهم ،

---

(١) الآية : ٣٧ من سورة ابراهيم .

فنزلوا معها ، وهم أول سكان مكة ، فلذلك كانت العرب تقول فى تلبيتها :

لَا هُمَّ إن جرهما عبادك الناس طارفٌ وهم تِلَادُكْ وهم قديماً عمروا بلادك

قال ابن كثير فى تفسيره :

قال ابن عباس : قال النبى - صلى الله عليه وسلم - : « فألفى ذلك أم إسماعيل وهى تحب الأنس : فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم ، حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم وشبَّ الغلام وتعلم العربية منهم وأَنْفَسَهُمْ وأعجبهم حين شب ، فلما أدرك زوجوه امرأة منهم .

وماتت أم إسماعيل ، فجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسماعيل يطالع تركته ، فلم يجد إسماعيل ، فسأل امرأته عنه ؟ فقالت : خرج يبتغى لنا ، ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم ؟ فقالت : نحن بِشَرٍّ ، نحن فى ضيق وشدة ، فشكت إليه . قال : فإذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام وقولى له يغير عتبة بابه ، فلما جاء إسماعيل كأنه أنس شيئا فقال : هل جاءكم من أحد ؟ قالت : نعم ، جاءنا شيخ كذا وكذا ، فسألنا عنك فأخبرته ، وسألنى كيف عيشنا ؟ فأخبرته أننا فى جهد وشدة ، قال : فهل أوصاك بشىء ؟ قالت : نعم ، أمرنى أن أقرأ عليك السلام ، ويقول : غير عتبة بابك . قال : ذاك أبى وقد أمرنى أن أفارقكِ ، فالحقى بأهلك ، وطلقها ، وتزوج منهم بأخرى فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله ثم أتاهم بعد فلم يجده ، فدخل على امرأته فسألها عنه ؟ فقالت : خرج يبتغى لنا ، قال : كيف أنتم وسألها عن عيشهم وهيئتهم ؟ فقالت : نحن بخير وسعة ، وأثنت على الله - عز وجل - قال : ما طعامكم ؟ قالت : اللحم ، قال : فما شرابكم ؟ قالت : الماء . قال : اللهم بارك لهم فى اللحم والماء » قال النبى صلى الله عليه وسلم - : ولم يكن لهم يومئذ حَبٌ ، ولو كان لهم لدعا لهم فيه - قال - ﷺ فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه ، قال : فإذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام ومريه يثبت عتبة بابه ، فلما جاء إسماعيل قال : هل أتاكم من أحد ؟ قالت : نعم ، أتانا شيخ حسن الهيئة ، وأثنت عليه ، فسألنى عنك فأخبرته فسألنى كيف عيشنا ؟ فأخبرته أنا بخير ، قال : فأوصاك بشىء ؟ قالت : نعم هو يقرأ عليك السلام وأمرك أن تثبت عتبة بابك . قال : ذاك أبى وأنت العتبة ، أمرنى أن أمسكك ، ثم لبث عنهم ما شاء الله ، ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يبرى نبلا له تحت دوحة قريبا من زمزم ، فلما رآه قام إليه وصنعَا كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد ، ثم قال : يا إسماعيل إن الله أمرنى بأمر ، قال : فاصنع ما أمرك ربك ، قال : وتعيننى ؟ قال : وأعينك ، قال : فإن الله أمرنى أن أبنى ههنا بيتا - وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها - قال : فعند ذلك رفعا القواعد من البيت ، فجعل إسماعيل يأتى بالحجارة ، وإبراهيم يبنى ، حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له فقام عليه وهو يبنى ، وإسماعيل يناوله الحجارة ، وهما يقولان : ﴿ **ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم** ﴾[1] قال : فجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت وهما يقولان : (**ربنا تقبل منا** إنك أنت السميع العليم) .

---

(١) من الآية : ١٢٧ من سورة البقرة .

ورجع إبراهيم إلى قومه ، وبقى إسماعيل فى خدمة البيت حتى مات وعمره ١٣٧ سنة ، ودفن فى المسجد الحرام ، فى الحجر حيال الموضع الذى كان فيه الحجر الأسود ، على مقربة من قبر أمه هاجر ، وبعد وفاة إسماعيل ، قام بالإشراف على الكعبة ابنه ثابت ، ثم انفرد بالإشراف عليه بعض زعماء جرهم الذين نجحوا فى التغلب على أولاد إسماعيل .

يروى ابن هشام ما حدث لأولاد إسماعيل بعد ازدياد عددهم :

فيقول :

« ثم نشر الله ولد إسماعيل بمكة ، وأخوالهم من جرهم ولاة البيت والحكام بمكة ، لا ينازعهم ولد إسماعيل فى ذلك لخئولتهم وقرابتهم ، وإعظاما للحرمة أن يكون بها بغى أو قتال ، فلما ضاقت مكة على ولد إسماعيل انتشروا فى البلاد ، فلا يناوئون قوماً إلا أظهرهم الله عليهم بدينهم ، فوطئوهم » .

ولما قدمت خزاعة من اليمن بعد تهدم سد مأرب ، احتكت بجرهم فتقاتلت القبيلتان ، وانتصرت خزاعة ووليت أمر البيت ، وخرجت عن هذا الوادى جرهم كما خرج أولاد إسماعيل حيث تفرقوا حول مكة وفى تهامة .

وقد بدأت مكة تتطور أيام خزاعة ، فقد عمل زعيم خزاعة « عمرو بن لحى » على تنشيط الحج إلى مكة ، بعد أن كان أمر مكة قد تدهور ، والحج إليها قد قل بسبب بغى جرهم واعتدائها على القوافل والتجار والحجاج الذين يمرون بمكة أو يفدون إليها للتجارة والحج ، وبعد إهمال بئر زمزم التى يسرت المقام فى هذا الوادى القفر ، فأخذ عمرو بن لحى يطعم الفقراء من الحجيج ، ويجلب الماء من الآبار المنبثة حول مكة ، ونال بذلك منزلة كبيرة بين قومه وبين القبائل الضاربة حول مكة .

ويروى المؤرخون أن « عمرو بن لحى » هو الذى أدخل عبادة الأصنام فى مكة ، فيروون أنه لما ساد قومه فى مكة وأصبحت له الولاية على الكعبة رحل إلى مدينة البلقاء بالشام فى بعض أموره ، وبها يومئذ العماليق ، فرآهم يعبدون الأصنام ، فقال لهم : ما هذه الأصنام التى أراكم تعبدون ؟ قالوا له : هذه أصنام نعبدها فنستمطرها فتمطرنا ، ونستنصرها فتنصرنا ، فقال لهم : أفلا تعطوننى منها صنما فأسير به إلى أرض العرب فيعبدونه ؟ فأعطوه صنما يقال له : هبل . فقدم به مكة ، فنصبه ، وأمر الناس بعبادته وتعظيمه ، ويبدو أن الحنيفية : دين إبراهيم كان قد ضعف أمرها حتى بين أبناء إسماعيل أنفسهم ، فقد ذكر اليعقوبى أن « إلياس بن مضر ـ وقد شرف وبان فضله ـ كان أول من أنكر على بنى إسماعيل ما غيروا من سنن آبائهم » . .

استمرت خزاعة على ولاية البيت حتى قويت قريش وتغلبت عليها فى القرن الخامس الميلادى ، وكانت على درجة كبيرة من الرقى ، فاستولى قصى بن كلاب على أمر مكة والبيت الحرام سنة ٤٤٠ م من يد خزاعة وأجلاهم عنها بما كان له من العصبية ، فرحلت ونزلت فى بطن مر « وادى فاطمة » ومن ثم عظم

نفوذه ، واجتمعت له السقاية والحجابة والرفادة واللواء ، ولم تجتمع فى رجل قبله .

وقد أجمع المؤرخون على أن قريشا الذين منهم قصى بن كلاب ، الجد الرابع للرسول - صلى الله عليه وسلم - هم من ولد كنانة ، الذى يرجع نسبه إلى عدنان ، وينتهى إلى إسماعيل - عليه السلام - .

وإلى ذلك يشير الحديث الذى أثر عن الرسول - صلى الله عليه سلم - « اختار الله من بنى إسماعيل كنانة ، واختار قريشاً من كنانة ، واختار بنى هاشم من قريش ، واختارنى من بنى هاشم ، فأنا خيار من خيار من خيار »(١) .

فلما تم الأمر لقصى جمع قريشاً وأمرهم أن يبنوا بها ، وابتدأ هو فبنى دار الندوة يجتمع فيها كبراء أهل مكة تحت إمرته ليتشاوروا فى أمور بلدهم ، فقد كان من عاداتهم ألا يتم أمر إلا باتفاقهم ، فلم تكن تنكح امرأة ولا يتزوج رجل إلا فى هذه الدار ، وبنت قريش بأمر قصى حول الكعبة دُورَها وتركوا مكانا كافيا للطواف بالبيت ، وتركوا بين كل بيتين طريقاً ينفذ منه إلى المطاف .

كان عبد الدار أكبر أبناء قصى ، لكن أخاه عبد مناف كان قد تقدم عليه أمام الناس وقد شرف فيهم ، فلما كبر قصى وضعف بدنه ولم يعد قادرا على تولى أمور مكة جعل الحجابة لعبد الدار وسلم إليه مفتاح البيت ، كما أعطاه السقاية واللواء والرفادة . وكانت الرفادة قسطاً تخرجه قريش كل عام من أموالها فتدفعه إلى قصى يصنع منه فى موسم الحج طعاما ينال منه مِنَ الحجاج من لم يكن ذا سعة ولا زاد . وكان قصى أول من فرض الرفادة على قريش حين جمعهم واعتز بهم وأخرج وإياهم خزاعة من مكة . فرضها عليهم وقال لهم :

« يا معشر قريش إنكم جيران الله وأهل بيته ، وأهل الحرم ، وإن الحجاج ضيفَان الله وزوار بيته ، وهم أحق الضيف بالكرامة ، فاجعلوا لهم طعاما وشرابا أيام الحج حتى يصدروا عنكم » اهـ .

نكتفى بهذا القدر ، ونكمل البحث - إن شاء الله تعالى - عند تفسير سورة « الفيل » .

---

(١) الحديث أخرجه الامام أحمد عن واثلة بن الأسقع ، انظر الفتح الربانى حـ ٢٠ ص ١٧٤ ، ورواه الترمذى فى (كتاب المناقب) باب : فى فضل النبى - صلى الله عليه وسلم - عن واثلة من طريقين برقمى ٣٦٠٥ ، ٣٦٠٦ حـ ٥ ص ٥٨٣

تفسير سورة الشمس

مقدمة عن السورة :

قال صاحب البصائر :

السورة مكية :

عدد آياتها : خمس عشرة آية .

وكلماتها : أربع وخمسون .

وحروفها : مائتان وأربعون .

فواصل آياتها ، على الألف .

سميت بسورة (والشمس) لمفتتحها .

مقصود السورة :

أنواع القسم المترادفة على إلهام الخلق فى الطاعة والمعصية ، والفلاح والخيبة ، والخبر عن إهلاك ثمود ، وتخويف لأهل مكة .

ومناسبتها لما قبلها :

١ ـ أنه ـ سبحانه ـ ختم السورة السابقة بذكر أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة ، وأعاد ذكر الفريقين فى هذه السورة بقوله : ﴿ **قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها** ﴾ .

٢ ـ ختم السورة السالفة بشىء من أحوال الكفار فى الآخرة ، وختم هذه بشىء من أحوالهم فى الدنيا .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴿٢﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴿٤﴾ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴿٥﴾ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن

زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَىٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَىٰهَا ﴿١٥﴾

معانى المفردات

﴿ ضحى الشمس ﴾ : ضوؤها .

﴿ تلاها ﴾ أى : تبعها .

﴿ جلاها ﴾ أى : كشف الشمس وأتم وضوحها .

﴿ يغشاها ﴾ أى : يزيل ضوءها ويحجبه فتظلم الآفاق .

﴿ والسماء ﴾ كل ما ارتفع فوق رأسك ، والمراد به هذا الكون الذى فوقك ، وفيه الشمس والقمر وسائر الكواكب التى تجرى فى مجاريها .

﴿ وما بناها ﴾ أى : والذى خلقها هو الله تعالى .

﴿ وما طحاها ﴾ : والذى بسطها ووطأها .

﴿ وما سواها ﴾ : والذى عدل أعضاءها ومنحها قواها .

﴿ فجورها وتقواها ﴾ : معصيتها وطاعتها ، وخيرها وشرها .

﴿ قد أفلح ﴾ : قد فاز .

﴿ من زكاها ﴾ : طهرها وأنماها بالتقوى .

﴿ قد خاب ﴾ : خسر .

﴿ من دساها ﴾ : نقصها وأخفاها وأخملها بالفجور .

﴿ بطغواها ﴾ : بسبب طغيانها وعدوانها .

﴿ انبعث أشقاها ﴾ : قام مسرعاً يعقر الناقة .

﴿ ناقة الله وسقياها ﴾ : احذروا عَضْرَها ونصيبها من الماء .

﴿ فدمدم عليهم ﴾ : أهلكهم وأطبق عليهم سواء .

﴿ فسواها ﴾ : فجعل الدمدمة عليهم سواء .

﴿ عقباها ﴾ : عاقبة هذه العقوبة .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **والشمس وضحاها ، والقمر إذا تلاها ، والنهار إذا جلاها ، والليل إذا يغشاها ، والسماء وما بناها ، والأرض وما طحاها ، ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها** ﴾ .

ابتدأت السورة الكريمة بالقسم بسبعة أشياء من مخلوقات الله - عز وجل - : فأقسم - تعالى - بالشمس وضوئها الساطع ، وبالقمر إذا أعقبها وهو طالع ، ثم بالنهار إذا جلا ظلمة الليل بضيائه ، وبالليل إذا غطى الكائنات بظلامه ، ثم بالقادر الذى أحكم بناء السماء بلا عمد ، وبالأرض التى بسطها على ماء جمد ، وبالنفس البشرية التى كملها الله وزينها بالفضائل والكمالات .

أقسم - سبحانه - بهذه الأمور على فلاح الإنسان ونجاحه إذا اتقى الله ، وعلى شقاوته وخسرانه إذا طغى وتمرد .

قال الزجاج وغيره : جواب القسم : ﴿ قد أفلح من زكاها ﴾ .

ولما طال الكلام حسن حذف اللام من الجواب .

قال العلامة ابن القيم - رحمه الله - : وقد تضمن هذا القسم الإقسام بالخالق ، والمخلوق ، فأقسم بالسماء وبانيها ، والأرض وطاحيها ، والنفس ومسويها .

وقد قيل : إن (ما) مصدرية ، فيكون الإقسام بنفس فعله تعالى ، فيكون قد أقسم بالمصنوع الدال عليه ، وبصنعته الدالة على كمال علمه وقدرته وحكمته ، وتوحيده ، ولما كانت حركة الشمس والقمر ، والليل والنهار أمراً يشهد الناس حدوثه شيئاً فشيئاً ، ويعلمون أن الحادث لابد له من محدث كان العلم بذلك منزلاً منزلة ذكر المحدث له لفظاً ، فلم يذكر الفاعل فى الأقسام الأربعة .

ولهذا سلك طائفة من النظار طريق الاستدلال بالزمان على الصانع ، وهو استدلال صحيح قد نبه عليه القرآن فى غير موضع كقوله : ﴿ **إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب** ﴾(1) .

ولما كانت السماء والأرض ثابتتين حتى ظن من ظن أنهما قديمتان ذكر مع اقسام بهما بانيهما ومبدعهما ، وكذلك النفس ، فإن حدوثها غير مشهور ، حتى ظن بعضهم قِدَمَهَا ، فذكر مع الإقسام بها مسويها وفاطرها ، مع ما فى ذكر بناء السماء وطَحْوِ الأرض وتسوية النفس من الدلالة على الرحمة والحكمة والعناية بالخلق ، فإن بناء السماء يدل على أنها كالقبة العالية على الأرض ، وجعلها سقفاً لهذا العالم . والطحو : هو مَدُّ الأرض وبسطُها ، وتوسيعها ليستقر عليها الأنام والحيوان ، ويمكن فيها البناء والغراس ، والزرع ، وهو متضمن لنضوب الماء عنها ، وهو مما حير عقول الطبائعيين حيث كان مقتضى الطبيعة أن يغمرها كثرة

---

(1) الآية : ١٩٠ من سورة آل عمران .

الماء ، فبروز جانب منها على الماء على خلاف مقتضى الطبيعة وكونهُ هذا الجانب المعين دون غيره ، مع استواء الجوانب فى الشكل الكرى يقتضى تخصيصاً . فلم يجدوا بُدًّا أن يقولوا : عناية الصانع اقتضت ذلك . قلنا : فنعم إذاً ، ولكن عناية من لا مشيئة له ، ولا إرادة ولا اختيار ، ولا علم بمعين أصلًا ، كما تقولونه ، فيه محال ، فعنايته تقتضى ثبوت صفات كماله ونعوت جلاله ، وأنه الفاعل يفعل باختياره ما يريد ، أ. هـ .

وقوله تعالى : ﴿ **قد أفلح من زكاها** ﴾ الضمير المرفوع فى (زكاها) عائد على (من) والمعنى : قد أفلح من زكى نفسه . قال الحسن : قد أفلح من زكى نفسه وحملها على طاعة الله . وقال ابن قتيبة : يريد أفلح من زكى نفسه ، أى : نماها وأعلاها بالطاعة والبر والصدقة واصطناع المعروف .

ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ **قد أفلح من تزكى ، وذكر اسم ربه فصلى** ﴾[1] وهو ـ سبحانه ـ إذا ذكر الفلاح علقه بفعل المفلح ، كقوله تعالى : ﴿ **قد أفلح المؤمنون ، الذين هم فى صلاتهم خاشعون** ﴾[2] إلى آخر الآيات .

وقوله تعالى : ﴿ **وقد خاب من دساها** ﴾ أى : وقد خاب من أهلك نفسه وحملها على معصية الله .

قال ابن قتيبة : (وقد خاب من دساها) أى : نقصها وأخفاها بترك عمل البر وركوب المعاصى .

قال ابن القيم : والفاجر أبداً خفى المكان زمن المروءة ، غامض الشخص ناكس الرأس . فكأن المتصف بارتكاب الفواحش دس نفسه ، وقمعها ، ومصطنع المعروف شهر نفسه ورفعها . وكانت أجواد العرب تنزل الربى ويفاع الأرض لتشهر أنفسها للمعتفين ، وتوقد النيران فى الليل للطارقين . وكانت اللئام تنزل الأولاج والأطراف والأهضام لتخض أماكنها على الطلبين . فأولئك أعلوا أنفسهم وزكَّوْهَا ، وأولئك أخفوا أنفسهم ودسوها .

وقال ابن القيم :

قالت طائفة أخرى من المفسرين : الضمير يرجع إلى الله تعالى . قال ابن عباس ـ فى رواية عطاء ـ : قد أفلحت نفس زكاها الله وأصلحها ، وهذا قول مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير قالوا : سعدت نفس وأفلحت نفس أصلحها الله وطهرها ووفقها للطاعة ، حتى عملت بها ، وخابت وخسرت نفس أضلها الله وأغواها وأبطلها وأهلكها .

قال أرباب هذا القول : قد أقسم ـ سبحانه ـ بهذه الأشياء التى ذكرها ، لأنها تدل على وحدانيته وعلى فلاح من طهره ، وخسارة من خذله ، حتى لا يظن أحد أنه هو الذى يتولى تطهير نفسه وإهلاكها بالمعصية من غير قَدَرٍ سابق ، وقضاءٍ متقدم .

قالوا : وهذا أبلغ فى التوحيد الذى سيقت له هذه السورة .

قالوا : ويدل عليه قوله : ﴿ **فألهمها فجورها وتقواها** ﴾ .

---

(١) الآيتان : ١٤ ، ١٥ من سورة الأعلى .
(٢) الآيتان : ١ ، ٢ من سورة المؤمنون .

قالوا : ويشهد له حديث نافع ، عن ابن عمر ، عن ابن أبى مليكة ، عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ أنها قالت : انتبهت نفسى ليلة فوجدت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يقول : « رب أعط نفسى تقواها ، وزكها أنت خير من زكاها ، أنت وليها ومولاها »[1] قالوا : فهذا الدعاء هو تأويل الآية بدليل الحديث الآخر : « إن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان إذا قرأ (قد أفلح من زكاها) وقف ثم قال : « اللهم آت نفسى تقواها ، أنت وليها ومولاها ، وزكها أنت خير من زكاها »[2] .

قالوا : وفى هذا ما يبين أن الأمر كله له ـ سبحانه ـ فإنه هو خالق النفس وملهمها الفجور والتقوى ، وهو مزكيها ومدسيها ، فليس للعبد فى الأمر شىء ، ولا هو مالك من أمر نفسه شيئاً .

قال أرباب القول الأول : هذا القول ، وإن كان جائزاً فى العربية ، حاملاً للضمير المنصوب على معنى من ، وإن كان لفظها مذكراً ، كما فى قوله : ﴿ **ومنْهم من يستمعون إليك** ﴾[3] جمع الضمير وإن كان لفظ (مَنْ) مفرداً حملاً على نظمها ، فهذا إنما يحسن حيث لا يقع لبس فى مفسر الضمائر ، وههنا قد تقدم لفظ (من) والضمير المرفوع فى (زكاها) يستحقه لفظاً ومعنى . فهو أولى به لفظاً ومعنى ، فهذا هو النظم الطبيعى الذى يقتضيه سياق الكلام ووضعه .

قالوا : والقول الذى ذكرناه أرجح من جهة المعنى لوجوه :

(أحدها) أن منه إشارة إلى ما تقدم من تعليق الفلاح على فِعْل العبد واختياره كما هى طريقة القرآن .

(الثانى) أن فيه زيادة فائدة وهى إثبات فعل العبد وكسبه ، وما يثاب وما يعاقب عليه . وفى قوله : ﴿ **فألهمها فجورها وتقواها** ﴾ ، إثبات القضاء والقدر السابق .

فتضمنت الآيتان هذين الأصلين العظيمين ، وهما كثيراً ما يقترنان فى القرآن الكريم كقوله : ﴿ **إنه تذكرة ، فمن شاء ذكره ، وما يذكرون إلا أن يشاء الله** ﴾[4] وقوله : ﴿ **لمن شاء منكم أن يستقيم ، وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين** ﴾[5] .

فتضمنت الآيتان الرد على القدرية والجبرية .

(الثالث) أن قولنا يستلزم قولكم ، دون العكس . فإن العبد إذا زكى نفسه ودساها فإنما يزكيها بعد تزكية الله لها بتوفيقه وإعانته ، وإنما يدسيها بعد تدسية الله لها بخذلانه والتخلية بينه وبين نفسه ، بخلاف ما إذا كان المعنى على القدر السابق المحض ، لم يبق للكسب وفعل العبد ههنا ذكر البتة . أ. هـ .

وقوله تعالى : ﴿ **كذبت ثمود بطغواها ، إذ انبعَثَ أشقاها ، فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها ، فكذبوه فعقروها ، فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها ، ولا يخاف عقباها** ﴾ .

---

(١) الحديث أخرجه أحمد فى مسنده (مسند عائشة ـ رضى الله عنها ـ) انظر الفتح الربانى للساعاتى ٢٩٢/٣ ، وأخرجه الهيثمى فى مجمع الزوائد جـ ٦ ص ٢١ .

(٢) أخرجه ابن كثير فى تفسيره (تفسير سورة الشمس) جـ ٤ ص ٥١٦ وعزاه إلى الطبرانى .

(٣) من الآية : ٤٢ من سورة يونس .

(٤) الآيتان : ٥٤ ، ٥٥ وجزء الآية : ٥٦ من سورة المدثر . (٥) الآيتان : ٢٨ ، ٢٩ من سورة التكوير .

يخبر - تعالى - عن ثمود أنهم كذبوا رسولهم بسبب ما كانوا عليه من الطغيان والبغى فأعقبهم ذلك تكذيباً فى قلوبهم بما جاءهم به رسولهم صالح - عليه الصلاة والسلام - من الهدى واليقين .

وقوله تعالى : ﴿ **إذ انبعث أشقاها** ﴾ أى : أشقى القبيلة ، وقيل : اسمه قدار بن سالف ، عاقر الناقة وهو أحيمر ثمود وهو الذى قال الله - تعالى - فيه : ﴿ **فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر** ﴾[(١)] .

وكان هذا الرجل عزيزاً فيهم ، شريعاً فى قومه ، نسيباً رئيساً مطاعاً .

وقوله تعالى : ﴿ **فقال لهم رسول الله** ﴾ يعنى صالحاً - عليه السلام - (ناقة الله) أى : احذروا ناقة الله . أن تمسوها بسوء ، (وسقياها) . أى : لا تعتدوا عليها فى سقياها ، فإن لها شرب يوم ولكم شرب يوم معلوم ، قال الله تعالى : ﴿ **فكذبوه فعقروها** ﴾ أى : كذبوه فيما جاءهم به فأعقبهم ذلك أن عقروا الناقة التى أخرجها الله من الصخرة آية لهم وحجة عليهم ﴿ **فدمدم عليهم ربهم بذنبهم** ﴾ أى : غضب عليهم فدمر عليهم . (فسواها) أى : فجعل العقوبة نازلة عليهم على السواء فلم يفلت منهم أحد .

لا يخاف الله من أحد تبعه ، وكذا قال مجاهد والحسن وبكر بن عبد الله المزنى وغيرهم . وهذه الآية معنى قوله - تعالى - فى الحديث القدسى الذى رواه مسلم عن أبى ذر ، والذى فيه : « يا عبادى إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ، ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئاً ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئاً » الحديث[(٢)] .

قال الإمام ابن القيم - رحمه الله - : وذكر فى هذه السورة ثمود ، دون غيرهم من الأمم المكذبة لأنهم ردوا الهدى بعدما تيقنوه وكانوا مستبصرين به ، قد ثلجت له صدورهم ، واستيقظت له أنفسهم ، فاختاروا عليه العمى والضلالة ، كما قال تعالى فى وصفهم : ﴿ **وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى** ﴾[(٣)] وقال تعالى : ﴿ **وآتينا ثمود الناقة مبصرة** ﴾[(٤)] أى : موجبة لهم التبصر واليقين ، وإن كان جميع الأمم المهلكة هذا شأنهم ، فإن الله لم يهلك أمة إلا بعد قيام الحجة عليها ، لكن خصت ثمود من ذلك الهدى والبصيرة لمزيد ، ولهذا لما قرنهم بقوم عاد قال تعالى : ﴿ **فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة ؟** ﴾[(٥)] ثم قال : ﴿ **وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى** ﴾ ولهذا أمكن عاداً المكابرة وأن يقولوا لنبيهم : ﴿ **ما جئتنا ببينة** ﴾[(٦)] ولم يمكن ذلك ثمود ، وقد رأوا البينة عياناً . وصارت لهم بمنزلة الشمس والقمر ، فردوا الهدى بعد تيقنه والبصيرة التامة ، فكان فى تخصيصهم بالذكر تحذير لكل من عرف الحق ولم يتبعه . وهذا داء أكثر الهالكين ، وهو أعم الأدواء وأغلبها على أهل الأرض ، والله أعلم . أ . هـ .

---

(١) الآية : ٢٩ من سورة القمر .

(٢) الحديث أخرجه مسلم فى صحيحه بسرح النووى فى (كتاب البر والصلة والآداب) باب تحريم الظلم جـ١٦ ص١٣٢ ، ١٣٣ .

(٣) من الآية : ١٧ من سورة فصلت .

(٤) من الآية : ٥٩ من سورة الإسراء .

(٥) من الآية : ١٥ من سورة فصلت .

(٦) من الآية : ٥٣ من سورة هود .

تفسير سورة الليل

مقدمة عن السورة :

قال صاحب البصائر :

السورة مكية :

عدد آياتها : إحدى وعشرون آية .

وكلماتها : إحدى وسبعون .

وحروفها : ثلاثمائة وعشر .

فواصل آياتها : على الألف .

سميت سورة الليل لمفتتحها .

مقصود السورة :

القسم على تفاوت حال الخلق فى الإساءة والإحسان ، وهدايتهم إلى شأن القرآن ، وترهيب بعض بالنار ، وترغيب بعض بالجنان ، والبدار إلى الصدقة كفارة للذنوب والعصيان ، ووعد بالرضا من الرحمن المنان فى قوله تعالى : ﴿ **ولسوف يرضى** ﴾ .

المتشابهات :

قوله تعالى : ﴿ **فسنيسره لليسرى** ﴾ وبعده ﴿ **فسنيسره للعسرى** ﴾ أى : سنهيئه للحالة اليسرى ، والحالة العسرى ، وقيل : الأولى الجنة ، والثانية : النار .

مناسبة السورة لما قبلها :

إنه ذكر هناك فلاح المطهرين لأنفسهم وخيبة المدَسِّين لها ، وهنا ذكر ما يحصل به الفلاح ، وما تحصل فيه الخيبة ، فهى كالتفصيل لسابقتها .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ

لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْـَٔاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾

معانى المفردات

(يغشى) : أى يغطى كل شىء فيواريه بظلامه .
(تجلى) أى : ظهر وانكشف بظهوره كل شىء .
(وما خلق) أى : والذى خلق .
(شتى) واحدها : شتيت ، وهو المتباعد بعضه من بعض .
(تلظى) أصله : تتلظى ، أى : تتوقد وتلتهب .
(يصلاها) أى : يحترق بها .
(كذَّب) أى : كذب .
(وسيجنبها) أى : سيبعد عنها .
(يتزكى) : يتطهر من الذنوب .
(تجزى) : تكافأ .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ والليل إذا يغشى ، والنَّهار إذا تجلَّى ، وما خلق الذكر والأنثى ، إن سعيكم لشتى ﴾ .

أقسم ـ سبحانه وتعالى ـ بالليل إذ هو من آياته الدالة عليه فأقسم به وقت غشيانه ، وأتى بصيغة المضارع : لأنه يغشى شيئاً بعد شىء .

وأقسم - سبحانه - بآية النهار فقال تعالى : ﴿ والنهار إذا تجلى ﴾ أى : إذا انكشف ووضح وظهر وبان ضوؤه عن ظلمة الليل ، وكلاهما من آيات ربوبيته ، ثم أقسم - سبحانه - بخلق الذكر والأنثى ، وذلك يتضمن الإقسام بالحيوان كله على اختلاف أصنافه : ذكره وأنثاه ، وقابل بين الذكر والأنثى كما قابل بين الليل والنهار ، وكل ذلك من العلوية كإخراج الذكر والأنثى بواسطة الأجرام السفلية ، فأخرج من السماء الليل والنهار ، بواسطة الشمس فيها ، وأقسم - سبحانه - بزمان السعى - وهو الليل والنهار - وبالساعى وهو الذكر والأنثى ، على اختلاف السعى ، كما اختلف الليل والنهار ، والذكر والأنثى وسعيه وزمانه مختلف ، وذلك دليل على اختلاف جزائه وثوابه ، وأنه - سبحانه - لا يسوى بين من اختلف سعيه فى الجزاء كما لم يسو بين الليل والنهار والذكر والأنثى .

وقوله تعالى : ﴿ إن سعيكم لشتى ﴾ هذا جواب القسم .

والمعنى : إن عملكم لمختلف . قال عكرمة وسائر المفسرين : السعى : العمل ، فَسَاعٍ فى فكاك نفسه ، وساع فى عطبها ، يدل عليه قوله - عليه الصلاة والسلام - : «الناس غاديان : فمبتاع نفسه فمعتقها وبائع نفسه فموبقها »[1] ، وفى رواية مسلم : « كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها »[2] وإنما قيل للمختلف شتى لتباعد ما بين بعضه وبعض ، أى : إن عملكم لمتباعد بعضه عن بعض ، لأن بعضه ضلالة وبعضه هدى ، أى : فمنكم مؤمن وبر ، وكافر وفاجر ، ومطيع وعاص . وقيل : (لشتى) أى : لمختلف الأجزاء ، فمنكم مثاب بالجنة ، ومعاقب بالنار .

قوله تعالى : ﴿ فأما من أعطى واتقى ، وصدق بالحسنى ، فسنيسره لليسرى ، وأما من بخل واستغنى ، وكذب بالحسنى ، فسنيسره للعسرى) .

ثم أخبر - سبحانه - عن تفريقه بين عاقبة سعى المحسن ، وعاقبة سعى المسىء فقال : ﴿ فأما من أعطى واتقى ﴾ أى : أعطى ما أمر بإخراجه واتقى الله فى أموره . ﴿ وصدق بالحسنى ﴾ أى : بالخلف من الله - تعالى - على عطائه . ﴿ فسنيسره لليسرى ﴾ وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان ، فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقاً خلفا ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكا تلفاً »[3] وقال الحسن فى قوله تعالى : ﴿ فأما من أعطى واتقى ﴾ أى : أعطى الصدق من قلبه (وصدق بالحسنى) أى : بلا إله إلا الله (فسنيسره لليسرى) .

---

(١) الحديث أخرجه : أحمد فى مسنده (مسند جابر بن عبد الله) جـ٣ ص ٣٩٩ ضمن حديث طويل .

(٢) أخرجه مسلم فى (كتاب الطهارة) باب فضل الوضوء جـ١ ص٢٠٣ رقم ٢٢٣/١ تبويب محمد فؤاد عبد الباقى .

(٣) أخرجه مسلم فى (كتاب الزكاة) باب : فى المنفق والممسك ، والحديث متفق عليه أخرجه فى اللؤلؤ والمرجان فى (كتاب الزكاة) باب ، فى المنفق والممسك صـ٢٠٨ رقم ٥٩١ .

وقال مجاهد : (وصدق بالحسنى) أى : بالجنة ، ودليله قوله ـ تعالى ـ : ﴿ **للذين أحسنوا الحسنى وزيادة** ﴾ الآية[1] ، وقال قتادة : (وصدق بالحسنى) أى : وعد الله الذى وعده أن يثيبه ، وكله متقارب المعنى ، إذ كله يرجع إلى الثواب الذى هو الجنة .

وقوله تعالى : ﴿ **فسنيسره لليسرى** ﴾ أى : نرشده لأسباب الخير والصلاح حتى يسهل عليه فعلها . وقال زيد بن أسلم : (لليسرى) : الجنة .

قال البخارى بسنده عن على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ قال : « كنا مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى بقيع الغرقد فى جنازة فقال : « ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من الجنة ومقعده من النار » فقالوا : يا رسول الله أفلا نتكل ؟ فقال : « اعملوا فكل ميسر لما خلق له » ثم قرأ ﴿ **فأما من أعطى واتقى ، وصدق بالحسنى ، فسنيسره لليسرى ، إلى قوله ـ : للعسرى** ﴾[2] .

وقال الإمام أحمد بسنده عن ابن عمر قال : قال : يا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « أرأيت ما نعمل ؟ ما نعمل فيه : أفى أمر قد فرغ أو مبتدأ أو مبتدع ؟ قال : فيما قد فرغ منه ، فاعمل يا ابن الخطاب ، فإن كلا ميسر ، أما من كان من أهل السعادة فإنه يعمل للسعادة ، وأما من كان من أهل الشقاء فإنه يعمل للشقاء »[3] ورواه الترمذى وقال : حسن صحيح .

وقوله تعالى : ﴿ **وأما من بخل واستغنى** ﴾ أى : ضنَّ بما عنده فلم يبذل خيراً ، واستغنى عن ربه (وكذب بالحسنى) أى بالخلف . وقال مجاهد : بالجنة . وفى رواية أخرى له قال : كذب بالحسنى ، أى : بلا إله إلا الله (فسنيسره للعسرى) أى : للشر . وعن ابن مسعود : للنار . وقيل : أى : فسنعسر عليه أسباب الخير والصلاح حتى يصعب عليه فعلها ، ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ **قل من كان فى الضلالة فليمدد له الرحمن مدّاً** ﴾[4] .

أسـباب التيسـير

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ :

« تضمنت الآيتان ذكر شرعه ، وذكر الأعمال وجزائها ، وحكمة القدر فى تيسير هذا لليسرى ، وهذا للعسرى ، وأن العبد ميسر بأعماله لغاياتها ، ولا يظلم ربك أحداً ، وذكر للتيسير لليسرى ثلاثة أسباب :

---

(١) من الآية : ٢٦ من سورة يونس .

(٢) أخرجه فى اللؤلؤ والمرجان فى (كتاب القدر) باب : كيفية خلق الآدمى فى بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته صـ ٧١٧ ، ٧١٨ ، ورواه البخارى فى (كتاب الجنائز) باب موعظة المحدث عند القبر وقعود أصحابه حوله .

ورواه الترمذى فى (كتاب التفسير) تفسير سورة : والليل إذا يغشى جـ ٥ ص ٤٤١ رقم ٣٣٤٤ وقال : هذا حديث حسن صحيح .

(٣) رواه أحمد فى مسنده جـ ١ ص ٢٧ ، ٢٩ وانظر الفتح الربانى للساعاتى ١/١٣٨ وأخرجه الترمذى فى جامعة الصحيح فى (كتاب القدر) باب ما جاء فى الشقاء والسعادة جـ ٤ ص ٤٤٥ رقم ٢١٣٥ وقال : هذا حديث حسن صحيح .

(٤) الآية : ٧٥ من سورة مريم .

(أحدها) : إعطاء العبد ، وحذف مفعول الفعل إرادة للإطلاق والتعميم ، أى : أعطى ما أمر به وسمحت به طبيعته ، وطاوعته نفسه ، وذلك يتناول إعطاءه من نفسه الإيمان والطاعة ، والإخلاص والتوبة والشكر ، وإعطاءه الإحسان والنفع بماله ، ولسانه وبدنه ، ونيته وقصده ، فتكون نفسه نفساً مطيعة باذلة ، لا لئيمة مانعة ، فالنفس المطيعة هى النافعة المحسنة ، التى طبعها الإحسان ، وإعطاء الخير اللازم والمتعدى ، فتعطى خيرها لنفسها ولغيرها ، فهى بمنزلة العين التى ينتفع الناس بشربهم منها ، وسقى دوابهم وأنعامهم وزرعهم ، فهم ينتفعون بها كيف شاءوا ، فهى ميسرة لذلك ، وهكذا الرجل المبارك ميسر للنفع حيث حل ، فجزاء هذا أن ييسره الله لليسرى كما كانت نفسه ميسرة للعطاء .

(السبب الثانى) : التقوى ، وهى : اجتناب ما نهى الله عنه ، وهذا من أعظم أسباب التيسير ، وضده من أسباب التعسير ، فالمتقى ميسرة عليه أمور دنياه وآخرته ، وتارك التقوى وإن يسرت عليه بعض أمور دنياه تعسر عليه من أمور آخرته بحسب ما تركه من التقوى ، وأما تيسير ما تيسر عليه من أمور الدنيا ، فلو اتقى الله لكان تيسيرها عليه إثم ، ولو قدر أنها لم تتيسر له فقد يسر الله له من الدنيا ما هو أنفع له مما ناله بغير التقى . فإن طيب العيش ، ونعيم القلب ، ولذة الروح ، وفرحها وابتهاجها من أعظم نعيم الدنيا ، وهو أجل من نعيم أرباب الدنيا بالشهوات واللذات ، قال تعالى : ﴿ **ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً** ﴾[1] فأخبر أنه ييسر على المتقى مالا ييسر على غيره ، وقال تعالى) ﴿ **ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ، ويرزقه من حيث لا يحتسب** ﴾[2] وهذا أيضاً ييسر عليه بتقواه . وقال تعالى : ﴿ **ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً** ﴾[3] وهذا يتيسر عليه بإزالة ما يخشاه ، وإعطائه ما يحبه ويرضاه . وقال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم** ﴾[4] .

وهذا يتيسر بالفرقان المتضمن النجاة والنصر والعلم والنور غاية التيسير ، وقال تعالى : ﴿ **واتقوا الله لعلكم تفلحون** ﴾[5] والفلاح غاية اليسر ، كما أن الشفاء غاية العسر ، وقال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به ويغفر لكم** ﴾[6] فضمن لهم - سبحانه - بالتقوى ثلاثة أمور :

(أحدها) : أعطاهم نصيبين من رحمته : نصيباً فى الدنيا ، ونصيباً فى الآخرة ، وقد يضاعف لهم نصيب الآخرة فيصير نصيبين .

(والثانى) : أعطاهم نوراً يمشون به فى الظلمات .

(الثالث) : مغفرة ذنوبهم ، وهذا غاية التيسير فقد جعل - سبحانه - التقوى سبباً لكل يسر ، وترك التقوى سبباً لكل عسر .

---

(١) من الآية : ٤ من سورة الطلاق .
(٢) من الآيتين : ٢ ، ٣ من سورة الطلاق .
(٣) من الآية : ٥ من سورة الطلاق .
(٤) من الآية : ٢٩ من سورة الأنفال .
(٥) من الآية : ٢٠٠ من سورة آل عمران .
(٦) من الآية : ٢٨ من سورة الحديد .

(السبب الثالث) : التصديق بالحسنى ، وفسرت بلا إله إلا الله ، وفسرت بالجنة ، وفسرت بالخلف ، وهى أقوال السلف ، واليسرى : صفة لموصوف محذوف ، أى : الحالة والخلة اليسرى ، وهى (فُعْلَى) من اليسر ، والأقوال الثلاثة ترجع إلى أفضل الأعمال ، وأفضل الجزاء ، فمن فسرها بلا إله إلا الله فقد فسرها بمفرد يأتى بكل جمع ، فإن التصديق الحقيقى بلا إله إلا الله يستلزم التصديق بِشُعَبِهَا وفروعها كلها ، وجميع أصول الدين وفروعه من شعب هذه الكلمة . فلا يكون العبد مصدقاً بها حقيقة التصديق حتى يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ولقائه ، ولا يكون مؤمناً بالله إله العالمين حتى يؤمن بصفات جلاله ونعوت كماله ، ولا يكون مؤمناً بأن الله لا إله إلا هو حتى يسلب خصائص الإلهية عن كل موجود سواه ، ويسلبها عن اعتقاده وإرادته كما هى منفية فى الحقيقة والخارج ، ولا يكون مصدقاً بها من نفى الصفات العليا ، ولا من نفى كلامه وتكليمه ، ولا من نفى استواءه على عرشه وأنه يرفع إليه الكلم الطيب والعمل الصالح ، وأنه رفع المسيح إليه ، وأسرى برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إليه ، وأنه يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه ، إلى سائر ما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولا يكون مؤمناً بهذه الكلمة مصدقاً بها على الحقيقة من نفى عموم خلقه لكل شىء ، وقدرته ليوم النشور ، ولا يكون مصدقاً بها من زعم أنه يترك خلقه سدى ، لم يأمرهم ولم ينههم على ألسنة رسله ، وكذلك التصديق بها يقتضى الإذعان ، والإقرار ، بحقوقها : وهى شرائع الإسلام التى هى تفصيل هذه الكلمة بالتصديق بجميع أخباره ، وامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه ، هو تفصيل لا إله إلا الله .

فالمصدق بها على الحقيقة يأتى ذلك كله ، وكذلك لم تحصل عصمة المال والدم على الإطلاق إلا بها وبالقيام بحقها ، وكذلك لا تحصل النجاة من العذاب على الإطلاق إلا بها وبحقها ، فالعقوبة فى الدنيا والآخرة على تركها ،أو ترك حقها .

ومن فسر الحسنى بالجنة فسرها بأعلى أنواع الجزاء وكماله ، ومن فسَّرها بالخلف ذكر نوعاً من الجزاء ، فهذا جزاء دنيوى ، والجنة جزاء أخروى ، فرجع التصديق بالحسنى إلى التصديق بالإيمان وجزائه ، والتحقيق أنها تتناول الأمرين .

وتأمل ما اشتملت عليه هذه الكلمات الثلاث ـ وهى : الإعطاء ، والتقوى ، والتصديق بالحسنى ، من العلم والعمل ، وتضمنته من الهدى ودين الحق . فإن النفس لها ثلاث قوى : قوة البذل والإعطاء وقوة الكف والامتناع ، وقوة الإدراك والفهم ، ففيها قوة العلم والشعور ، ويتبعها قوة الحب والإرادة ، وقوة البغض والنفرة . فهذه القوى الثلاث عليها مدار صلاحها وسعادتها ، وبفسادها يكون فسادها وشقاوتها ،

ففساد قوة العلم والشعور يوجب له التكذيب بالحسنى ، وفساد قوة الحب والإرادة يوجب له ترك الإعطاء ، وفساد قوة البغض والنضرة يوجب له ترك الاتقاء ، فإذا كملت قوة حبه وإرادته بإعطائه ما أمر به ، وقوة بغضه ونفرته باتقائه ما نهى عنه ، وقوة علمه وشعوره بتصديقه بكلمة الإسلام وحقوقها وجزائها . فقد زكى نفسه ، وأعدها لكل حالة يُسْرَى ، فصارت النفس بذلك ميسرة لليسرى .

ولما كان الدين يدور على ثلاث قواعد ، فعل المأمور ، وترك المحظور ، وتصديق الخبر . وإن شئت قلت : الدين طلب وخبر ، والطلب نوعان : طلب فعل ، وطلب ترك ، فقد تضمنت هذه الكلمات الثلاث مراتب الدين أجمعها . فالإعطاء : فعل المأمور ، والتقوى : ترك المحظور ، والتصديق بالحسنى : تصديق الخبر . فانتظم ذلك الدين كله .

وأكمل الناس من كملت له هذه القوى الثلاث ، ودخول النقص بحسب نقصانها أو بعضها ، فمن الناس من يكون قوة إعطائه وبذله أتم من قوة انكفافه وتركه ، فقوة الترك فيه أضعف من قوة الإعطاء ، ومن الناس من يكون قوة الترك والانكفاف فيه أتم من قوة الإعطاء والمنع ، ومن الناس من يكون فيه قوة التصديق أتم من قوة الإعطاء والمنع ، فقوته العلمية والشعورية أتم من قوته الإرادية وبالعكس ، ويفوته من التيسير لليسرى بحسب ما فاته منها ومن كملت له هذه القوى يسر لكل يسرى ، قال ابن عباس : (فسنيسره لليسرى) أى : نهيئه لعمل الخير : نيسر عليه أعمال الخير ، وقال مقاتل والكلبى والفراء : نيسر للعود إلى العمل الصالح .

﴿ وأما من بخل ﴾ فعطل قوة الإرادة والإعطاء عن فعل ما أمر به ﴿ واستغنى ﴾ بترك التقوى عن ربه فعطل قوة الانكفاف والترك عن فعل ما نهى عنه ﴿ وكذب بالحسنى ﴾ فعطل قوة العلم والشعور عن التصديق بالإيمان وجزائه ، ﴿ فسنيسره للعسرى ﴾ ، قال عطاء : سوف أحول بين قلبه وبين الإيمان بى وبرسولى ، وقال مقاتل : يعسر عليه أن يعطى خيراً ، وقال عكرمة عن ابن عباس : نيسره للشر . قال الواحدى : وهذا هو القول ، لأن الشر يؤدى إلى العذاب ، فهو الخلة العسرى ، والخير يؤدى إلى اليسر ، والراحة فى الجنة ، فهو الخلة اليسرى .

والتيسير للعسرى يكون بأمرين :

(أحدهما) : أن يحول بينه وبين أسباب الخير ، فيجرى الشر على قلبه ونيته ولسانه وجوارحه .

(والثانى) : أن يحول بينه وبين الجزاء الأيسر كما حال بينه وبين أسبابه .

فإن قيل : كيف قابل ؛ اتقى) بـ (استغنى) ؟ وهل يمكن العبد أن يستغنى عن ربه طرفة عين ؟

قيل : هذا من أحسن المقابلة ، فإن المتقى لما استشعر فقره وفاقته وشدة حاجته إلى ربه أتقاه ، ولم يتعرض لسخطه وغضبه ومقته بارتكاب ما نهاه عنه ، فإن من كان شديد الحاجة والضرورة إلى شخص ، فإنه يتقى غضبه وسخطه عليه غاية الإتقاء ، ويجانب ما يكرهه غاية المجانبة ، ويعتمد فعل ما يحبه ويؤثره ، فقابل التقوى بالاستغناء تشيعاً لحال تارك التقوى ، ومبالغة فى ذمه ، بأن فَعَلَ فِعْلَ المستغنى عن ربه ، لا فِعْلَ الفقير المضطر إليه ، الذى لا ملجأ له إلا إليه ، ولا غنى له عن فضله وجوده وبره طرفة

عين ، فلله ما أحلى هذه المقابلة وما أجمع هاتين الآيتين للخيرات كلها وأسبابها والشرور كلها وأسبابها ، فسبحان من تعرف إلى خصائص عباده بكلامه ، وتجلى لهم فيه . فهم لا يطلبون أثراً بعد عين ، ولا يستبدلون الحق بالباطل ، والصدق بالْمَبْيَنِ . أ. هـ .

قوله تعالى : ﴿ **وما يغنى عنه ماله إذا تردى** ﴾ أى : وإذا يسرناه للعسرى فأى شىء ويغنى عنه ماله الذى بخل به على الناس ولم ينفعه فى المصالح العامة ، وفيما يعود نفعه على الجماعة ، ولم يصحب منه شيئاً إلى آخرته التى هى موضع حاجته وفقره ؟ كما قال تعالى : ﴿ **ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم** ﴾[1] وكما قال تعالى : ﴿ **ويل لكل همزة لمزة ، الذى جمع مالاً وعدده ، يحسب أن ماله أخلده ، كلا لينبذن فى الحطمة ، وما أدراك ما الحطمة ، نار الله الموقدة ، التى تطلع على الأفئدة ، إنها عليهم مؤصدة ، فى عمد ممدة** ﴾[2] .

قوله تعالى : ﴿ **إن علينا للهدى ، وإن لنا للآخرة والأولى** ﴾ .

قيل معناه : إن علينا أن نبين طريق الهدى من طريق الضلال .

قال قتادة : على الله البيان ، بيان حلاله وحرامه ، وطاعته ومعصيته . وهذا المعنى حق ، ولكن مراد الآية شىء آخر .

وقيل : المعنى : من سلك الهدى فعلى الله سبيله ، كقوله تعالى : ﴿ **وعلى الله قصد السبيل** ﴾[3] وهذا قول مجاهد حكاه ابن جرير .

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ : وهو أصح الأقوال فى الآية . قال الواحدى : علينا الهدى ، أى : إن الهدى يوصل صاحبه إلى الله ، وإلى ثوابه وجنته ، وهذا المعنى فى القرآن فى ثلاث مواضع : ههنا ، وفى النحل فى قوله : ﴿ **وعلى الله قصد السبيل** ﴾ وفى الحجر : ﴿ **هذا صراط علىَّ مستقيم** ﴾[4] وهو معنى شريف جليل ، يدل على أن سالك طريق الهدى يوصله طريقه إلى الله ولابد ، والهدى : هو الصراط المستقيم ، فمن سلكه أوصله إلى الله ، فذكر الطريق والغاية ، فالطريق ، الهدى ، والغاية : الوصول إلى الله . فهذه أشرف الوسائل وغايتها أعلى الغايات .

وقوله تعالى : ﴿ **وإن لنا للآخرة والأولى** ﴾ .

لما كان مطلوب السالك إلى الله تحصيل مصالح دنياه وآخرته لم يتم له هذا المطلوب إلا بتوحيد طلبه والمطلوب منه . فأعلمه ـ سبحانه ـ أن سواه لا يملك من الدنيا والآخرة شيئاً . وأن الدنيا والآخرة جميعاً له وحده ، فإذا تيقن العبد ذلك اجتمع طلبه ومطلوبه على من يملك الدنيا والآخرة وحده ، فتضمنت الآيتان

---

(١) من الآية : ٩٤ من سورة الأنعام .
(٢) سورة الهمزة .
(٣) من الآية : ٩ من سورة النحل .
(٤) الآية : ٤١ من سورة الحجر .

أربعة أمور ، هى المطالب العالية . ذكر أعلى الغايات ، وهو الوصول إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ وأقرب الطرق والوسائل إليه ، وهى طريق الهدى . وتوحيد الطريق فلا يعدل عنها إلى غيرها . وتوحيد المطلوب . وهو الحق . فلا يعدل عنه إلى غيره . فاقتبس هذه أمور من مشكاة هذه الكلمات فإن هذه غاية العلم والفهم ، وبالله التوفيق .

ولما أقام ـ سبحانه ـ الدليل ، وأنار السبيل ، وأوضح الحجة ، وبين المحجة ، أنذر عباده عذابه الذى أعده لمن كذب خبره وتولى عن طاعته ، وجعل هذا الصنف من الناس هم أشقاهم كما جعل أسعدهم أهل التقوى والإحسان والإخلاص ، فهذا الصنف هو الذى يجنب عذابه . قال تعالى :

﴿ فأنذرتكم ناراً تلظى ، لا يصلاها إلا الأشقى ، الذى كذّب وتولى ، وسيجنبها الأتقى ، الذى يؤتى ماله يتزكى ﴾ .

قال القرطبى : (فأنذرتكم) أى : حذرتكم وخوفتكم (ناراً تلظى) أى : تلّهب وتتوقد ، وأصله : تتلظى . (لا يصلاها) أى : لا يجد صلاها وهى حرها (إلا الأشقى) أى : الشقى (الذى كذب) نبى الله محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ (وتولى) أى : أعرض عن الإيمان .

قال الإمام مالك : صلى بنا عمر بن عبد العزيز المغرب فقرأ : (والليل إذا يغشى) فلما بلغ (فأنذرتكم ناراً تلظى) وقع عليه البكاء فلم يقدر يتعداها من البكاء ، فتركها وقرأ سورة أخرى .

قال الإمام أحمد بسنده عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « لا يدخل النار إلا شقى » قيل : ومن الشقى ؟ قال : « الذى لا يعمل بطاعة ، ولا يترك لله معصية »[١] .

وقال الإمام أحمد بسنده عن أبى هريرة أيضاً قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « كل أمتى يدخلون الجنة يوم القيامة إلا من أبى » قالوا : من يأبى يا رسول الله ؟ قال : « من أطاعنى دخل الجنة ، ومن عصانى فقد أبى »[٢] . ورواه البخارى عن محمد بن سنان عن فليح به .

وقوله تعالى : **﴿ وسيجنبها الأتقى ﴾** أى : وسيزحزح عن النار التقى النقى الأتقى ، كما قال تعالى : **﴿ ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا ﴾**[٣] وكما قال سبحانه : **﴿ وينجى الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون ﴾**[٤]

وقوله : **﴿ الذى يؤتى ماله يتزكى ﴾** أى : يصرف ماله فى طاعة مولاه ليزكى نفسه وماله وما وهبه الله من دين ودنيا ، قال تعالى : **﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ﴾**[٥] وقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « الصدقة تطفىء غضب الرب كما يطفىء الماء النار »[٦]

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (مسند أبى هريرة) جـ ٢ ص ٣٤٩ ، وانظر الفتح الربانى للساعاتى جـ ١٩ ص ٢١٣ .

(٢) رواه الإمام أحمد فى مسنده (مسند أبى هريرة) جـ ٢ ص ٣٦١ ، وانظر الفتح الربانى للساعاتى جـ ٢٣ ص ٢٠٢ ورواه البخارى فى صحيحه فى (كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة) جـ ٤ ص ٢٥٧ طبع دار إحياء الكتب العربية .

(٣) الآية : ٧٢ من سورة مريم . (٤) الآية : ٦١ من سورة الزمر . (٥) من الآية : ١٠٣ من سورة التوبة .

(٦) الحديث أخرجه ابن حبان مع اختلاف فى اللفظ ، وهو عنده : « الصدقة تطفىء غضب الرب وتدفع ميتة السوء » .
وهذا اللفظ جزء من حديث أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (مسند جابر بن عبد الله) جـ ٣ ص ٣٩٩ فى وصية رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لكعب بن عجرة ـ رضى الله عنه ـ

وقوله تعالى : ﴿ وما لأحد عنده من نعمة تجزى ﴾ أى : ليس بذله ماله فى مكافأة من أسدى إليه معروفاً فهو يعطى فى مقابلة ذلك ، وإنما دفعه ذلك (ابتغاء وجه ربه الأعلى ﴾ أى : طمعاً فى أن يحصل له رؤ يته فى الدار الآخرة فى روضات الجنات ، قال الله تعالى : ﴿ ولسوف يرضى ﴾ أى : ولسوف يرضى من اتصف بهذه الصفات الجليلة .

قال ابن كثير : وقد ذكر غير واحد من المفسرين أن هذه الآيات نزلت فى أبى بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ حتى إن بعضهم حكى الإجماع من المفسرين على ذلك ، ولا شك أنه داخل فيها وأولى الأمة بعمومها فإن لفظها لفظ العموم ، وهو قوله : ﴿ **وسيجنبها الأتقى ، الذى يؤتى ماله يتزكى ، وما لأحد عنده من نعمة تجزى** ﴾ ولكنه مقدم الأمة وسابقهم فى جميع هذه الأوصاف وسائر الأوصاف الحميدة ، فإنه كان صديقاً تقياً كريماً جواداً بذّالاً لأمواله فى طاعة مولاه ، ونصرة رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فكم من الناس عنده منّة يحتاج إلى أن يكافئه بها ، ولكن كان فضله وإحسانه على السادات والرؤ ساء من سائر القبائل ، ولهذا قال له عروة بن مسعود ـ وهو سيد ثقيف ـ يوم صلح الحديبية : « أما والله لولا يدٌ لك عندى لم أجزك بها لأجبتك » وكان الصديق قد أغلظ له فى المقالة ، فإذا كان هذا حاله مع سادات العرب ورؤ ساء القبائل فكيف بمن عداهم ؟! ولهذا قال تعالى : ﴿ **وما لأحد عنده من نعمة تجزى ، إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ، ولسوف يرضى** ﴾ .

وفى الصحيحين أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « من أنفق زوجين فى سبيل الله دعته خزنة الجنة : يا عبد الله هذا خير . . » فقال أبو بكر : يا رسول الله ما على من يدعى منها ضرورة فهل يدعى منها كلها أحد ؟ قال : نعم وأرجو أن تكون منهم »[١] .

ولفظ البخارى : أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « من أنفق زوجين فى سبيل الله نودى من أبواب الجنة : يا عبد الله هذا خير ، فمن كان من أهل الصلاة دعى من باب الصلاة ، ومن كان من أهل الجهاد دُعى من باب الجهاد ، ومن كان من أهل الصيام دعى من باب الريَّان ، ومن كان من أهل الصدقة دُعى من باب الصدقة » فقال أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ : بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، ما على من دعى من تلك الأبواب من ضرورة ، فهل يدعى أحد من تلك الأبواب كلها ؟ قال : « نعم ، وأرجو أن تكون منهم »[٢] .

---

(١) الحديث فى اللؤلؤ والمرجان فى (كتاب الزكاة) باب من جمع الصدقة وأبواب البر صـ ٢١٤ رقم ٦٠٦ رواه عن أبى هريرة بأطول من هذا ولفظه يقارب ما ذكره بعده على أنه لفظ البخارى .

(٢) أخرجه البخارى فى (كتاب الصيام) باب : الريان للصائمين جـ ١ ص ٣٢٥ طبع دار إحياء الكتب العربية .

تفسير سورة الضحى

مقدمة عن السورة :

السورة مكيَّة .

عدد آياتها : أربعون .

وحروفها : مائة واثنتان وسبعون .

وفواصل آياتها : على الألف .

سميت (والضحى) لمفتتحها .

مقاصد السورة :

معظم مقصود السورة : بيان ما للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الشرف والمنقبة له ، والمنة وصيانة الفقر واليتم من بين الحرمان والمذلة ، والأمر بشكر النعمة فى قوله : ﴿ **وأما بنعمة ربك فحدث** ﴾

المتشابهات :

قوله : ﴿ **فأما اليتيم فلا تقهر** ﴾ كرر ثلاث مرات ، لأنها وقعت فى مقابلة ثلاث آيات أيضاً . وهى ﴿ **ألم يجدك يتيما فآوى . ووجدك ضالاً فهدى . ووجدك عائلا فأغنى . فأما اليتيم فلا تقهر** ﴾ واذكر يتمك ﴿ **وأما السائل فلا تنهر** ﴾ واذكر فقرك ﴿ **وأما بنعمة ربك فحدث** ﴾ : النبوة والإسلام .

مناسبة السورة لما قبلها :

أنه ذكر فى السابقة ﴿ **وسيجنبها الأتقى** ﴾ ولما كان سيد الأتْقَيْنَ رسول الله ـ ﷺ ـ عقب ذلك ـ سبحانه ـ بذكر نعمه ـ عز وجل ـ عليه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ (٥) أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ (٦) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ (٨) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (١١)

معانى المفردات

﴿ الضحى ﴾ : صدر النهار حين ترتفع الشمس وتلقى أشعتها على هذا الكون .

﴿ سجى) أى : سكن ، والمراد : سكن الأحياء فيه وانقطعوا عن الحركة .

﴿ ما ودعك ربك) أى : ما تركك .

﴿ وما قلى ﴾ أى : وما قلاك وما أبغضك .

﴿ ضالاً فهدى ﴾ أى : غافلاً عن الشرائع فهداك إلى مناهجها .

﴿ عائلا ﴾ أى : فقيراً .

﴿ فلا تقهر ﴾ أى : فلا تستذل .

﴿ فلا تنهر ﴾ أى : فلا تزجر .

﴿ فحدث ﴾ أى : فَأَدِّ الشكرَ لموليها .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **والضحى . والليل إذا سجى . ما ودعك ربك وما قلى . وللآخرة خير لك من الأولى . ولسوف يعطيك ربك فترضى** ﴾ .

سبب نزول هذه الآيات المباركة :

اشتكى رسول الله - ﷺ - فلم يقم ليلتين أو ثلاثا ، فجاءت امرأة - وهى أم جميل امرأة أبى لهب - فقالت يا محمد : إنى لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك !! لم أره قربك ليلتين أو ثلاث ، فأنزل الله - عز وجل : ﴿ **والضحى - والليل إذا سجى . ما ودعك ربك وما قلى** ﴾ . (الحديث رواه البخارى ومسلم وأحمد فى سنده بدون ذكر اسم المرأة)(١)

قوله : ﴿ **والضحى . والليل إذا سجى** ﴾ : أقسم - تعالى - بوقت الضحى - وهو صدر النهار حين ترتفع الشمس - وأقسم بالليل إذا اشتد ظلامه .

قال ابن كثير : هذا قسم منه - تعالى - بالضحى وما جعل فيه من الضياء ، وبالليل إذا سكن وأظلم وادْلَهَمَّ ، وذلك دليل ظاهر على قدرته تعالى .

وقوله تعالى : ﴿ **ما ودعك ربك وما قلى** ﴾ أى : ما تركك ربك يا محمد منذ اختيارك ، ولا أبغضك منذ أحبك ، وهذا رد على المشركين حين قالوا : هجره ربه ، وهو جواب القسم .

قال العوفى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - لما نزل على رسول الله ﷺ القرآن أبطأ عنه جبريل أياماً ، فتغير بذلك ، فقال المشركون : ودعه ربه وقلاه ، فأنزل الله : ﴿ **ما ودعك ربك وما قلى** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **وللآخرة خير لك من الأولى . ولسوف يعطيك ربك فترضى** ﴾ أى : وللدار

---

(١) الحديث فى صحيح البخارى فى (كتاب التفسير) تفسير : والضحى جـ٣ ص٢١٧ طبع دار احياء الكتب العربية .

الآخرة خير لك يا محمد من هذه الحياة الدنيا ، لأن الآخرة باقية ، والدنيا فانية ، ولهذا كان عليه الصلاة والسلام يقول : «اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة»[١] ﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ أى : سوف يعطيك ربك فى الآخرة من الثواب ، والكرامة ، والشفاعة ، وغير ذلك إلى أن ترضى . قال ابن عباس فى هذه الآية : هى الشفاعة فى أمته حتى يرضى ، لما روى أن النبى - ﷺ - ذكر أمته فقال : « اللهم أمتى أمتى وبكى ، فقال الله : يا جبريل اذهب إلى محمد واسأله ما يبكيك - وهو أعلم - فأتى جبريل رسول الله - ﷺ - فأخبره رسول الله - ﷺ - فقال الله : يا جبريل : اذهب إلى محمد وقل له : إنا سنرضيك فى أمتك ولا نسوءك »[٢] الحديث أخرجه مسلم .

وقال الخازن : والأَوْلَى حمل الآية على ظاهرها ليشمل خيرى الدنيا والآخرة معاً ، فقد أعطاه الله - تعالى - فى الدنيا النصر والظفر على الأعداء ، وكثرة الاتباع والفتوح ، وأعلى دينه ، وجعل أمته خير الأمم ، وأعطاه - فى الآخرة الشفاعة العامة ، والمقام المحمود ، وغير ذلك من خيرى الدنيا والآخرة .

قال ابن القيم - رحمه الله - : فتأمل هذا القسم وهو نور الضحى الذى يوافى بعد ظلام الليل للمقسم عليه وهو نور الوحى الذى وافاه بعد احتباسه عنه ، حتى قال أعداؤه : ودع محمداً ربُّه .

فأقسم بضوء النهار بعد ظلمة الليل على ضوء الوحى ونوره ، بعد ظلمه احتباسه واحتجابه . وأيضا فإن فالق ظلمة الليل عن ضوء النهار هو الذى فلق ظلمة الجهل والشرك بنور الوحى والنبوة ، فهذان للحس ، وهذان للعقل ، وأيضا فإن الذى اقتضت رحمته أن لا يترك عباده فى ظلمة الليل سرمداً بل هداهم بضوء النهار إلى مصالحهم ومعايشهم ، لا يليق به أن يتركهم فى ظلمة الجهل والغى ، بل يهديهم بنور الوحى والنبوة إلى مصالح دنياهم وآخرتهم .

فتأمل حسن ارتباط المقسم به بالمقسم عليه ، وتأمل هذه الجزالة والرونق الذى على هذه الألفاظ ، والجلالة التى على معانيها .

ونفى - سبحانه - أن يكون ودع نبيه أو قلاه ، فالتوديه : الترك ، والقلى : البغض ، فما تركه منذ أعتنى به وأكرمه ، ولا أبغضه منذ أحبه :

وأطلق - سبحانه - أن الآخرة خير له من الأولى ، وهذا يعم كل حالة يرقيه إليها هى خير له مما قبلها ، كما أن الدار الآخرة خير له مما قبلها . ثم وعده بما تقر به عينه ، وتفرح به نفسه ، وينشرح به صدره ، وهو أن يعطيه فيرضى ، وهذا يعم ما يعطيه من القرآن ، والهدى ، والنصر ، وكثرة الأتباع ، ورفع ذكره ، وإعلاء كلمته ، وما يعطيه بعد مماته وما يعطيه فى موقف القيامة ، وما يعطيه فى الجنة ، وأما مايغتر به الجهل ، من أنه لا يرضى وواحد من أمته فى النهار ، أو لايرضى أن يدخل أحد من أمته

---

(١) أخرجه فى اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان فى (كتاب الجهاد) باب : غزوة الاحزاب ، وهى الخندق ص ٤٧١ رقم ١١٨٣ وانظر رقم ١١٨٥ .

(٢) الحديث أخرجه الامام مسلم فى صحيحه (صحيح مسلم بشرح النووى) فى (كتاب الايمان) باب بشارة الأمة جـ٣ ص ٧٨

النار ! فهذا من عزوز الشيطان لهم به ربه - تبارك وتعالى - وهو - سبحانه - يُدخل النار من يستحقها من الكفار والعصاة ، ثم يحد لرسوله حدّاً يشفع فيهم ، ورسوله أعرف به وبحقه من أن يقول : لا أرضى أن يُدخل أحداً من أمتى النار على أن يدعه فيها ، بل ربه - تبارك وتعالى : يأذن له ، فيشفع فيمن شاء الله أن يشفع فيه ، ولا يشفع فى غير من أذن له فيه ورضيه . أ . هـ

قوله تعالى : ﴿ **ألم يجدك يتيماً فآوى . ووجدك ضالاً فهدى . ووجدك عائلاً فأغنى . فأما اليتيم فلا تقهر . وأما السائل فلا تنهر . وأما بنعمة ربك فحدث** ﴾ .

عدد - سبحانه وتعالى - مننه على نبيه محمد - ﷺ - فقال : ﴿ **ألم يجدك يتيماً** ﴾ لا أب لك ، قد مات أبوك (فآوى) أى : جعل لك مأوى تأوى إليه عند عمك أبى طالب فكفلك . قال ابن كثير : إن أباه - ﷺ - توفى وهو حمل فى بطن أمه ، ثم توفيت أمه وله من العمر ست سنين ، ثم كان فى كفالة جده « عبد المطلب » إلى أن توفى وله من العمر ثمان سنين ، فكفله عمه « أبو طالب » ثم لم يزل يحوطه وينصره ويرفع من قدره حتى ابتعثه الله على رأس الأربعين ، وأبو طالب على عبادة الأوثان مثل قومه ، ومع ذلك كان يدفع الأذى عن رسول الله - ﷺ - وكل هذا من حفظ الله له ، وكلاءته وعنايته به .

وقوله تعالى : ﴿ **ووجدك ضالاً فهدى** ﴾ أى : غافلاً عما يراد بك من أمر النبوة فهداك ، أى : أرشدك . والضلال هنا بمعنى الغفلة ، كقوله - جل ثناؤه : ﴿ **لا يضل ربى ولا ينسى** ﴾[١] أى : لا يغفل . وقال فى حق نبيه : ﴿ **وإن كنت من قبله لمن الغافلين** ﴾[٢] وقال قوم : (ضالاً) : لم تكن تدرى القرآن والشرائع فهداك الله إلى القرآن وشرائع الاسلام ، وهو معنى قوله تعالى : ﴿ **ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان** ﴾[٣] حكاه القرطبى .

وقوله تعالى : ﴿ **ووجدك عائلاً فأغنى** ﴾ أى : ووجدك فقيراً محتاجاً فأغناك عن الخلق ، بما يسر لك من أسباب التجارة .

وبعد أن ذكر - سبحانه - نعمه عليه من ايوائه بعد يتمه ، وهدايته بعد الضلالة ، وإغنائه بعد الفقر ، أمره أن يقابل هذه النعم الثلاث مما يليق بها من الشكر ، فنهاه أن يقهر اليتيم ، وأن ينهر السائل ، وأن يكتم النعمة ، بل يحدث بها . فأوصاه - سبحانه - باليتامى من الفقراء والمتعلمين فقال : ﴿ **فأما اليتيم فلا تقهر** ﴾ قال مجاهد : لا تحقر اليتيم فقد كنت يتيما . وقوله : ﴿ **وأما السائل فلا تنهر** ﴾ قال أكثر المفسرين : هو سائل المعروف والصدقة ، ولا تنهره إذا سألك ، فقد كنت فقيراً ، فإما أن تطعمه وإما أن ترده ردّاً ليناً . قال الحسن : أما إنه ليس بالسائل الذى يأتيك ، ولكن طالب العلم . وهذا قول يحى بن آدم قال : إذا جاءك طالب العلم فلا تنهره .

قال ابن القيم . والتحقيق أن الآية تتناول النوعين .

وقوله تعالى : ﴿ **وأما بنعمة ربك فحدث** ﴾ قال مجاهد : بالقرآن .

---

(١) من الآية : ٥٢ من سورة طه . (٢) من الآية : ٣ من سورة يوسف . (٣) من الآية : ٥٢ من سورة الشورى .

وقال الكلبى : بمعنى أَظْهِرْهَا ، والقرآن أعظم ما أنعم الله به عليه ، فأمره أن يقرئه ويعلمه .

وروى أبو البشر ، عن مجاهد : حَدِّثْ بالنبوة التى أعطاك وهى من أجل النعم . وقال مقاتل : أشكر هذه النعمة التى ذكرت فى هذه السورة .

والتحقيق أن النعم تعم هذا كله ، فأمر أن لا ينهر سائل المعروف والعلم ، وأن يحدث بنعم الله عليه فى الدين والدنيا .

تفسير سورة الشرح

مقــدمة :

قال صاحب البصائر :

السورة مكية .

عدد آياتها : ثمان .

وكلماتها : ست وعشرون .

وحروفها : مائة وخمسون .

وفواصل آياتها : (بكا) .

وسميت الشرح لمفتتحها .

مقصود السورة :

معظم مقصود السورة : بيان شرح صدر المصطفى - ﷺ - ورفع قدره وذكره ، وتبديل العسر من أمره بيسره ، وأمره بالطاعة فى انتظار أجره ، والرغبة إلى الله تعالى ، والإقبال على ذكره فى قوله تعالى : ﴿ **وإلى ربك فارغب** ﴾ .

المتشابهات :

قوله تعالى : ﴿ **فإن مع العسر يسرا . إن مع العسر يسرا** ﴾ ليس بتكرار ، لأن المعنى : إن مع العسر الذى أنت فيه من مقاساة الكفار يسراً عاجلاً ، إن مع العسر الذى أنت فيه من الكفار يسراً آجلاً . والعسر واحد واليسر اثنان ، وعن عمر - رضى الله عنه - لن يغلب عسر يسرين .

مناسبة السورة لما قبلها :

وهى شديدة الاتصال بما قبلها حتى روى عن طاوس وعمر بن عبد العزيز أنهما كانا يقولان : هما سورة واحدة ، وكانا يقرآنهما فى الركعة الواحدة ، وما كانا يتصلان بينهما بالبسملة ، ولكن المتواتر كونهما سورتين وإن كانتا متصلتين معنى ، إذ فى كل منهما تعداد النعم وطلب الشكر عليها .

بسم الله الرحمن الرحيم

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾

تفسير المفـردات

ألم نشرح ﴾ : ألمُنفسح بالحكمة والنبوة .

﴿ ووضعنا عنك ﴾ : خففنا عنك وسهلنا عليك .

﴿ وزرك ﴾ : حملك « أعباء النبوة والرسالة »

﴿ الذى أنقض ظهرك ﴾ : أثقله حتى سُمع له نقيض « صوت »

﴿ فإذا فرغت ﴾ : من عبادة أديتها .

﴿ فانصب ﴾ : فاجتهد وأتبعها بعبادة أخرى .

﴿ فارغب ﴾ : فاجعل رغبتك فى جميع شؤونك .

التفسـير

قوله تعالى : **﴿ ألم نشرح لك صدرك ﴾**

شرح الصدر : فتحه ، أى : ألم نفتح صدرك للإسلام ؟ وروى أبو صالح عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : ألم نُلَيِّنْ لك قلبك .

وروى الضحاك عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : قالوا : يارسول الله أينشرح الصدر؟ قال : « نعم وينفسح » قالوا : يا رسول الله وهل لذلك علامة ؟ قال : « نعم ، التجافى عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ، والاستعداد للموت قبل نزول الموت أخرجه الترمذى فى جامعه .

ونحو ذلك قوله تعالى : **﴿ أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه ﴾**[1] وكقوله تعالى : **﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصَّعَّدُ فى السماء ﴾**[2]

---

(١) من الآية : ٢٢ من سورة الزمر .

(٢) من الآية : ١٢٥ من سورة الأنعام .

وروى عن الحسن قال : ﴿ ألم نشرح لك صدرك ﴾ قال : ملىء حكما وعلماً .

روى الترمذى فى جامعه غن أنس بن مالك ، عن مالك بن صعصعة أن النبى ـ ﷺ ـ قال : « فبينا أنا عند البيت بين النائم واليقظان إذ سمعت قائلا يقول : أحد الثلاثة ، فأتيت بطست من ذهب فيها ماء زمزم ، فشرح صدرى إلى كذا وكذا » قال قتادة : قلت : ما يعنى ؟ قال : إلى أسفل بطنى ، قال : فاستُخرج قلبى ، فغسل قلبى بماء زمزم ، ثم أعيد مكانه ثم حُشى إيمانا وحكمة » الحديث[1] .

قوله تعالى : ﴿ ووضعنا عنك وزرك ﴾ كقوله تعالى : ﴿ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ﴾[2] فالمعنى : حططنا عنك حملك الثقيل .

وقوله تعالى : ﴿ الذى أنقض ظهرك ﴾ أى : الذى أثقل وأوهن ظهرك .

قال المفسرون : المراد بالوزر : الأمور التى فعلها الرسول ـ ﷺ ـ عن اجتهاد وعوتب عليه ، كإذنه للمنافقين فى التخلف عن الجهاد حين اعتذروا ، وأخْذِهِ الفداء من أسرى بدر ، ونحو ذلك ، وليس المراد بالذنوب المعاصى والآثام ، فإن الرسل معصومون من مقارفة الآثام .

والنقيض : هو الصوت الذى يسمع من المحمل فوق ظهر البعير من شدة الحمل .

وقوله تعالى : ﴿ ورفعنا لك ذكرك ﴾ أى : رفعنا شأنك ، وأعلينا مقامك فى الدنيا والآخرة ، وجعلنا اسمك مقرونا باسمى . قال مجاهد : لا أذكر إلا ذكرت معى أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ، وقال قتادة : رفع الله ذكره فى الدنيا والآخرة فليس خطيب ولا متشهد ولا صاحب صلاة إلا ينادى : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله .

ومن شعر حسان بن ثابت :

أغَرُّ عليه للنبوة خاتم ... من الله مشهود يلوح ويشهد
وضم الإله اسم النبى إلى اسمه ... إذا قال فى الخمس المؤذن أشهد
وشقّ له من اسمه ليجله ... فذو العرش محمود ، وهذا محمد

قال القرطبى : وقيل : رفعنا ذكرك عند الملائكة فى السماء ، وفى الأرض عند المؤمنين ، ونرفع فى الآخرة ذكرك بما نعطيك من المقام المحمود وكرائم الدرجات .

وقال الفقيه القاضى أبو الفضل : هذا تقرير من الله ـ جل اسمه ـ لنبيه ﷺ ـ على عظيم نعمه لديه ، وشريف منزلته عنده ، وكرامته عليه بأن شرح قلبه للايمان والهداية ، ووسعه لوعى العلم وحمل

---

(١) أخرجه فى اللؤلؤ والمرجان فى (كتاب الايمان) باب الاسراء برسول الله ـ ﷺ ـ . . الخ ص ٣٦ رقم ١٠٣ ورواه البخارى فى (كتاب بدء الخلق) باب ذكر الملائكة .

(٢) من الآية : ٢ من سورة الفتح .

الحكمة ، ورفع عنه ثقل أمور الجاهلية عليه وبغضه لسيرها وما كانت عليه بظهور دينه على الدين كله ، وحط عنه عهده أعباء الرسالة والنبوة لتبليغه للناس ما نزل إليهم وتنويهه بعظيم مكانه وجليل رتبته ورفعة ذكره وقرانه مع اسمه اسمه ، قال قتادة : رفع الله ـ تعالى ـ ذكره فى الدنيا والآخرة ، فليس خطيب ولا متشهد ولا صاحب صلاة إلا يقول : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . ومن ذكره معه ـ تعالى ـ أن قرن طاعته بطاعته واسمه باسمه فقال تعالى : ﴿ **وأطيعوا الله والرسول** ﴾[1] وقال : ﴿ **فآمنوا بالله ورسوله** ﴾[2] .

قال القاضى عياض فى كتابه « الشفا » بسنده عن عطاء بن يسار ، قال : لقيت عبد الله بن عمرو ابن العاص فقلت : أخبرنى عن صفة رسول الله ـ ﷺ ـ قال : أجل ، والله إنه لموصوف فى التوراة ببعض صفته فى القرآن : يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأميين ، أنت عبدى ورسولى ، سميتك المتوكل ، ليس بفظ ولا غليظ ، ولا سخاب فى الأسواق ، ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر ، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء : بأن يقولوا : لا إله إلا الله ويفتح به أعينا عميا ، وآذانا صما ، وقلوباً غلفاً »[3] .

وفى حديث آخر : أخذنا رسول الله ـ ﷺ ـ عن صفته فى التوراة : « عبدى أحمد المختار ، مولده بمكة ، ومهاجره بالمدينة ـ أو قال : طَيْبَة ـ أمته الحمادون لله على كل حال »[4] . أ هـ

سيدى يا رسول الله

يا من له الأخلاق ما تهوى العلا
منها وما ينعشق الكرماء
زَانَتْكَ فى الخلق العظيم شمائلْ
يغرى بهن ويولع الكبراء
فإذا سخوت بلغت بالجود المدى
وفعلت ما لا تفعل الأنواء
وإذا عفوت فقادِراً ومقدَّراً
لا يستهين بعفوك الجهلاء
وإذا رحمت فأنت أم أو أب
هذان فى الدنيا هما الرحماء

(١) من الآية : ١٣٢ من سورة آل عمران .
(٢) من الآية : ٨ كم سورة التغابن .
(٣) الحديث فى الشفا للقاضى عياض جـ١ ص ٢٤١ طبع دار الفكر ـ بيروت ، ولكن بمعناه . وله أصل فى الصحاح .
(٤) أنظر ما قبله .

وإذا أخذت العهد أو أعطيته
فجميع عهدك ذمة ووفاء
وإذا خطبت فللمنابر هزةٌ
تعرو النديَّ وللقلوب بكاء
وإذا غضبت فإنما هى غضبة
للحق لا ضغن ولا شحناء
لو أن إنساناً تخير ملة
ما اختار إلا دينك الفقراء
المصلحون أصابع جمعت يداً
هى أنت ، بل أنت اليد البيضاء
يا من له عز الشفاعة وحده
وهو المنزه ماله شفعاء
عرش القيامة أنت تحت لوائه
والحوض أنت حياله السقاء

قوله تعالى: ﴿ فإن مع العسر يسرا . إن مع العسر يسراً . فإذا فرغت فانصب . وإلى ربك فارغب ﴾ أى : إن مع الضيقة والشدة يسراً ، أى : سعة وغنى . ثم كرر فقال : ﴿ إن مع العسر يسراً ﴾ قال قوم : هذا التكرير تأكيد للكلام . وقال قوم : إن من عادة العرب إذا ذكروا اسما معرّفاً ثم كرروه فهو هو . وإذا نكروه ثم كرروه فهو غيره . وهما أثنان ليكون أقوى للأمل وأبعث على الصبر ، قاله ثعلب .

وجاء فى الحديث عن النبى - ﷺ - فى هذه السورة أنه قال : « لن يغلب عسر يسرين »[١] أخرجه ابن جرير .

وقال ابن مسعود : والذى نفسى بيده لو كان العسر فى جحر لطلبه اليسر حتى يدخل عليه ، ولن يغلب عسر يسرين .

وكتب أبو عبيدة بن الجراح إلى عمر بن الخطاب يذكره له جموعاً من الروم وما يتخوف منهم ، فكتب إليه عمر - رضى الله عنهما - أما بعد ، فإنه مهما ينزل بعبد مؤمن من منزل شدة يجعل الله بعده فرجاً ، ولن يغلب عسر يسرين ، وإن الله - تعالى - يقول فى كتابه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾[٢] .

---

(١) أخرجه فى كنز العمال جـ٢ ص١٤ رقم ٢٩٤٦ وعزاه إلى الحاكم عن الحسن مرسلا .
(٢) الآية : ٢٠٠ من سورة آل عمران .

وقال الحسن بن سفيان بسنده عن أبى هريرة أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « نزل المعونة من السماء على قدر المؤنة ، ونزل الصبر على قدر المصيبة » ومما يروى عن الشافعى أنه قال :

صبراً جميلاً ما أقرب الفرجا من راقب الله فى الأمور نجا
من صدق الله لم ينله أذى ومن رجاه يكون حيث رجا

وقال ابن دريد : أنشدنى أبو حاتم السجستانى :

إذا أشتملت على اليأس القلوب وضاق لما به الصدر الرحيب
وأوطأت المكاره واطمأنت وأرست فى أماكنها الخطوب
ولم تر لانكشاف الضر وجها ولا أغنى بحيلته الأريب
أتاك على قنوط منك غوث يمن به اللطيف المستجيب
وكل الحادثات إذا تناهت فموصول بها الفرج القريب

وقال آخر :

وَلَرُبَّ نازلة يضيق بها الفتى ذرعاً وعند الله منها المخرج
ضاقت فلما استحكمت حلقاتها فرجت وكان يظنها لا تفرج

قوله تعالى : ﴿ فإذا فرغت فانصب . وإلى ربك فارغب ﴾ أى : إذا فرغت من أمور الدنيا وأشغالها وقطعت علائقها فانصب إلى العبادة وقم إليها نشيطا فارغ البال ، وأخلص لربك النية والرغبة ، وقال ابن عباس وقتاده : فإذا فرغت من صلاتك (فانصب) أى : بالغ فى الدعاء وسله حاجتك وقال ابن مسعود : إذا فرغت من الفرائض فانصب فى قيام الليل . وقال الكلبى : إذا فرغت من تبليغ الرسالة (فانصب) أى : استغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات . وعن مجاهد : إذا فرغت من دنياك (فانصب) فى صلاتك . ونحوه عن الحسن .

وقال الجنيد : إذا فرغت من أمر الخلق فاجتهد فى عبادة الحق .

وقال زيد بن أسلم ﴿ فإذا فرغت ﴾ أى : من الجهاد ﴿ انصب ﴾ أى : فى العبادة ﴿ وإلى ربك فارغب ﴾ قال الثورى : اجعل نيتك ورغبتك إلى الله .

تفسير سورة والتين والزيتون

مقدمة عن السورة :

قال صاحب كتاب « بصائر ذوى التمييز » :

السورة : مكية .

عدد آياتها : ثمان .

وكلماتها : أربع وثلاثون .

وحروفها : مائة وخمسون .

وفواصل آياتها : (من)

سميت بـ « التين » لمفتتحها .

مقصود السورة :

معظم مقصود السورة القسم على حسن خلقة الإنسان ، ورجوع الكافر إلى النيران ، وإكرام المؤمنين بأعظم المثوبات الحسان ، وبيان أن الله حكيم وأحكم فى قوله تعالى : ﴿ **أليس الله بأحكم الحاكمين** ﴾ .

المتشابهات :

قوله تعالى : ﴿ **لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم** ﴾ وقال فى البلد : ﴿ **لقد خلقنا الانسان فى كبد** ﴾ لا مناقضة بينهما ، لأن معناه عند كثير من المفسرين : منتصب القامة معتدلها ، فيكون فى معنى : أحسن تقويم .

مناسبة السورة لما قبلها :

إنه ـ سبحانه ـ ذكر فى السورة السابقة حال أكمل خلق الله ـ ﷺ ـ وذكر هنا حال النوع الإنسانى وما ينتهى إليه أمره ، وما أعد ـ سبحانه ـ لمن آمن برسوله .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴿٨﴾

معانى المفردات

﴿ والتين والزيتون ﴾ : (قَسَمٌ) بمنبتيهما من الأرض المباركة .

﴿ وطور سينين ﴾ : جبل المناجاة للكليم عليه السلام .

﴿ والبلد الأمين ﴾ : مكة المكرمة .

﴿ أحسن تقويم) : أكمل تعديل ، وأحسن صورة .

﴿ رددناه ﴾ : أى : رددنا الكافر ، أو جنس الإنسان .

﴿ أسفل سافلين ﴾ : إلى النار . قال الإمام على : هى النار بعضها أسفل من بعض .

﴿ غير ممنون ﴾ : غير مقطوع عنهم .

﴿ بالدين ﴾ : بالخبراء بعد البعث والحساب .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **والتين والزيتون . وطور سينين . وهذا البلد الأمين . لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم** ﴾ .

قال ابن القيم : أقسم ـ سبحانه ـ بهذه الأمكنة الثلاثة العظيمة التى هى مظاهر أنبيائه ورسله ، أصحاب الشرائع العظام والأمم الكثيرة ، فالتين والزيتون المراد به نفس الشجرتين المعروفتين ومنبتهما : هو أرض بيته المقدس فإنها أكثر البقاع زيتونا وتينا ، وقد قال جماعة من المفسرين : إنه ـ سبحانه ـ أقسم بهذين النوعين من الثمار لمكان العزة فيهما ، فإن التين فاكهة مخلصة من شوائب التنغيص ، لا عجم له وهو على مقدار اللقمة ، وهو فاكهة وقوت وغذاء وأدم . ويدخل فى الأدوية ، ومزاجه من أعدل الأمزجة ، وطبعه طبع الحياة ، الحرارة ، والرطوبة ، وشكله من أحسن الأشكال ، ويدخل أكله والنظر إليه من باب المفرحات ، وله لذة يمتاز بها عن سائر الفواكه ، ويزيد فى القوة ، ويوافق الباءة وينفع من البواسير والنقرس ، ويؤكل رطباً ويابساً .

وأما الزيتون ففيه من الآيات ما هو ظاهر لمن اعتبر ، فإن عوده يخرج ثمراً ، يعصر منه هذا الدهن الذى هو مادة النور ، وصبغ للآكلين ، وطيب ودواء ، ومنه من مصالح الخلق ما لايخفى ، وشجره باق على مر السنين المتطاولة . وورقه لا يسقط ، وهذا الذى قالوهً حق ، ولا ينافى أن يكون منبته مراداً ، فإن منبت هاتين الشجرتين حقيق بأن يكون من جملة البقاع الفاضلة الشريفة . فيكون الإقسام قد تناول الشجرتين ومنبتهما ، وهو مظهر عبد الله ورسوله وكلمته وروحه عيسى بن مريم ، كما أن طور سنين مظهر عبده ورسوله وكليمه موسى ، فإنه الجبل الذى كلمه عليه وناجاه وأرسله إلى فرعون وقومه .

﴿ **وهذا البلد الأمين** ﴾ :

ثم أقسم بالبلد الأمين ، وهو مكة مظهر خاتم أنبيائه ورسله سيد ولد آدم . وترقى فى هذا القسم

من الفاضل إلى الأفضل ، فبدأ بموضع مظهر المسيح ، ثم ثنى بموضع مظهر الكليم ، ثم ختمه بموضع مظهر عبده ورسوله ، وأكرم الخلق عليه .

ونظير هذا بعينه فى التوراة التى أنزلها الله على كليمه موسى « جاء الله من طور سيناء ، وأشرق من ساعير ، واستعلن من فاران » فمجيئه من طور سينين بعثته لموسى بن عمران ، وبدأ به على حكم الترتيب الواقع ، ثم ثنى بنبوة المسيح ، ثم ختمه بنبوة محمد ـ ﷺ ـ (وساعير : جبل بيت المقدس ـ وفاران : جبال مكة) . وجعل نبوة موسى بمنزلة مجىء الصبح ، ونبوة المسيح بعده بمنزلة طلوع الشمس وإشراقها ، ونبوة محمد ـ ﷺ ـ بمنزلة استعلائها وظهورها للعالم . ولما كان الغالب على بنى اسرائيل حكم الحس ذكر ذلك مطابقا للواقع . ولما كان الغالب على الأمة الكاملة حكم العقل ذكرها على الترتيب العقلى ، وأقسم بها على بداية الإنسان ونهايته فقال تعالى : ﴿ **لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم** ﴾ .

أى : فى أحسن صورة وشكل واعتدال ، معتدل القامة ، مستوى الخلقة ، كامل الصورة ، أحسن من كل حيوان سواه . والتقويم تصيير الشىء على ما ينبغى أن يكون فى التأليف والتعديل . وذلك صنعته تبارك وتعالى فى قبضة من تراب ، وخلقه بالمشاهدة من نطفة من ماء ، وذلك من أعظم الآيات الدالة على وجوده ، وقدرته وحكمته ، وعلمه ، وصفات كماله ، ولهذا يكررها كثيراً فى القرآن لمكان العبرة فيها والاستدلال بأقرب الطرق على وحدانيته ، وعلى المبدأ والمعاد ، كما قال تعالى :

﴿ **الله الذى جعل لكم الأرض قراراً والسماء بناء وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ، ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين . هو الحى لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين** ﴾[1] كما قال سبحانه : ﴿ **خلق السموات والأرض بالحق وصوركم فأحسن صوركم وإليه المصير ، يعلم ما فى السموات والأرض ويعلم ما تسرون وما تعلنون والله عليم بذات الصدور** ﴾[2] وكقوله : ﴿ **قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشىء النشأة الآخرة إن الله على كل شىء قدير** ﴾[3] .

وتضمن اقسامه بتلك الأمكنة الثلاثة ـ الدالة عليه وعلى علمه وحكمته ـ عنايته بخلقه بأن أرسل منها رسلا أنزل عليهم كتبه ، يعرِّفون العباد بربهم ، وحقوقه عليهم ، وينذرونهم بالله ونقمته ، ويدعونهم إلى كرامته وثوابه .

قوله تعالى : ﴿ **ثم رددناه أسفل سافلين . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون** ﴾ .

ثم لما كان الناس فى إجابة هذه الدعوة فريقين ، منهم من أجاب ومنهم من أبى ذكر حال الفريقين . فذكر حال الأكثرين وهم المردودون إلى أسفل سافلين . والصحيح أنه النار : قاله مجاهد ، والحسن . قال على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ هى النار بعضها أسفل من بعض ، وقالت طائفة منهم قتادة وعكرمة وعطاء وابراهيم : إنه أرذل العمر ، وهو مروى عن ابن عباس .

قال ابن القيم : والصواب القول الأول لوجوه :

﴿ أحدها) : أن أرذل العمر لا يسمى أسفل سافلين ، لا فى لغة ولا عرف ، وإنما أسفل سافلين :

(١) الآيتان : ٦٤ ، ٦٥ من سورة غافر (٢) الآيتان : ٣ ، ٤ من سورة التغابن (٣) الآية : ٢٠ من سورة العنكبوت .

هو سجين الذى هو مكان الفجار ، كما أن عليين مكان الأبرار .

(الثانى) : أن المردودين إلى أسفل العمر بالنسبة إلى نوع الإنسان قليل جداً ، فأكثرهم يموت ولا يرد إلى أرذل العمر .

(الثالث) : أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يستوون هم وغيرهم فى رد من طال عمره منهم إلى أرذل العمر . فليس ذلك مختصاً بالكفار ، حتى يستثنى منهم المؤمنين .

(الرابع) : وهو ـ سبحانه ـ قابل بين جزاء هؤلاء وجزاء أهل الايمان ، فجعل جزاء الكفار أسفل سافلين . وجزاء المؤمنين أجراً غير ممنون . .

(الخامس) : أنه ـ سبحانه ـ ذكر نعمته على الإنسان بخلقه فى أحسن تقويم ، وهذه النعمة توجب عليه أن يشكرها بالإيمان وعبادته وحده لا شريك له ، فينقله حينئذ من هذه الدار إلى أعلى عليين ، فإذا لم يؤمن به ، وأشرك به ، وعصى رسله ، نقله منها إلى أسفل سافلين ، وبدله ـ بعد هذه الصورة التى هى فى أحسن تقويم ـ صورة من أقبح الصور فى أسفل سافلين . فتلك نعمته عليه ، وهذا عدله فيه وعقوبته على كفران نعمته .

(السادس) : أن نظير هذه الآية قوله تعالى : ﴿ **فبشرهم بعذاب أليم . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون** ﴾(١) فالعذاب الأليم هو أسفل سافلين ، والمستثنون هنا هم المستثنون هناك ، والأجر غير الممنون هناك هو المذكور هنا . والله أعلم . قلت : ونظيره أيضا قوله تعالى : ﴿ **والعصر . إن الانسان لفى خسر . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات** ﴾(٢) .

قوله تعالى : ﴿ **فلهم أجر غير ممنون** ﴾ أى : غير مقطوع ولا منقوص ، ولا مكرر عليهم ، وكما قال تعالى : ﴿ **عطاء غير مجذوذ** ﴾(٣) .

وقوله تعالى : ﴿ **فما يكذبك بعد بالدين . أليس الله بأحكم الحاكمين** ﴾ (فما يكذبك) أى : يا ابن آدم (بعد بالدين ؟) أى : بالجزاء فى المعاد وقد علمت البداءة ، وعرفت أن من قدر على البداءة فهو قادر على الرجعة بطريق الأولى ، فأى شىء يحملك على التكذيب بالمعاد وقد عرفت هذا ؟ !

وقوله تعالى : ﴿ **أليس الله بأحكم الحاكمين** ﴾ هذا تقرير لمضمون السورة من إثبات النبوة ، والتوحيد ، والمعاد ، وحكمه بتضمن نصره لرسوله على من كذبه ، وجحد ما جاء به ، بالحجة ، والقدرة والظهور عليه ، وحكمه بين عباده فى الدنيا بشرعه وأمره ، وحكمه بينهم فى الآخرة بثوابه وعقابه ، وإن أحكم الحاكمين لا يليق به تعطيل هذه الأحكام بعدما ظهرت حكمته فى خلق الإنسان فى أحسن تقويم ، ونقله فى أطوار التخليق ، حالا بعد حال ، إلى أكمل الأحوال ، فكيف يليق بأحكم الحاكمين أن لا يجازى المحسن باحسانه ، والمسىء باساءته ؟ !

وهل ذلك إلا قدح فى حكمته وحكمه ؟ ! فلله ما أخصر لفظ هذه السورة . وأعظم شأنها ، وأتم معناها .

﴿ **فلله الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين . وله الكبرياء فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم** ﴾(٤) .

---

(١) الآيتان : ٢٤ ، ٢٥ من سورة الانشقاق . (٢) الآيتان : ١ ، ٢ من سورة العصر ، وبعض الآية : ٣

(٣) من الآية : ١٠٨ من سورة هود . (٤) الآيتان : ٣٦ ، ٣٧ من سورة الجاثية .

تفسير سورة العلق

مقدمة :

قال صاحب البصائر :

السورة : مكية .

عدد آياتها : تسع عشرة .

وكلماتها : أثنتان وتسعون .

وحروفها : مائتان وثمانون .

وفواصل آياتها : (ق ، م ، ى ، هـ ، ب) وسميت بـ (العلق) لمفتتحها .

مقصود السورة :

معظم مقصود السورة : ابتداء فى جميع الأمور باسم الخالق الرب ـ تعالى ـ جلت عظمته ، والمنة على الخلق بتعليم أهل الكفر والمعصية ، وتخويف الأجانب بالعقوبة ، وبشارة الساجدين بالقربة فى قوله تعالى : ﴿ واسجد واقترب ﴾ .

ومناسبتها لما قبلها :

أنه ذكر هناك خلق الإنسان فى أحسن تقويم ، وذكر هنا خلق الإنسان من علق ، إلا أنه ذكر هنا من أحوال الآخرة ما هو كالشرح والبيان لما سلف .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾

معانى المفردات

﴿ علق ﴾ : دم جامد استحال اليه المنى .
﴿ علَّم ﴾ : علم الانسان الكتابة بالقلم .
﴿ كلا ﴾ : حقاً .
﴿ ليطغى ﴾ : ليجاوز الحد فى العصيان .
﴿ الرجعى ﴾ : الرجوع فى الآخرة للجزاء .
﴿ أرأيت ﴾ : أخبرنى .
﴿ لَنَسْفَعَن بالنَّاصية ﴾ : لنسحبنَّه بناصيته إلى النار .
﴿ فَلْيَدْعُ نادِيَة ﴾ : أهل مجلسه من قومه وعشيرته .
﴿ سندع الزبانية ﴾ : ملائكة العذاب لجره إلى النار .

التفسـير

قوله تعالى : ﴿ **اقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان مالم يعلم** ﴾

هذه السورة الكريمة أول مانزل من القرآن الكريم ، فى قول معظم المفسرين نزل بها الروح الأمين على قلب سيد المرسلين : سيدنا محمد ـ ﷺ ـ وهو قائم على حراء ؛ فعلمه خمس آيات من هذه السورة .

أخرج البخارى بسنده عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت : أول مابدىء به رسول الله ـ ﷺ ـ من الوحى الرؤ يا الصالحة فى النوم ، فكان لايرى رؤ يا إلا جاءت مثل فلق الصبح . ثم حبب إليه الخلاء ، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه ـ وهو التعبد ـ الليالى ذوات العدد ، قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها ، حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء ، فجاءه الملك فقال : اقرأ قال : ماأنا بقارىء ، قال : فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال : اقرأ : قلت : ماأنا بقارىء ، فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال : اقرأ ، فقلت : ماأنا بقارىء . فأخذنى فغطنى الثالثة ثم أرسلنى فقال ﴿ **اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان مالم يعلم** ﴾ فرجع بها رسول الله ـ ﷺ ـ يرجف فؤ اده ، فدخل على خديجة بنت خويلد ـ رضى الله عنها ـ فقال : زملونى زملونى . فزملوه حتى ذهب عنه الروع فقال لخديجة وأخبرها الخبر : لقد خشيت على نفسى . فقالت خديجة : كلا والله مايخزيك الله أبدا ، إنك لتصل الرحم وتحمل الكَلَّ ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق . فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبدالعزى ـ ابن عم خديجة ـ وكان أمرأ تنصر فى الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبرانى ، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ماشاء الله أن يكتب ، وكان شيخا كبيرا قد عمى ، فقالت له خديجة : يابن عم : اسمع من ابن أخيك ، فقال له ورقة : يابن أخى ماذا ترى ؟

فأخبره رسول الله - ﷺ - خبر مارأى . فقال له ورقة : هذا الناموس الذى نزل الله على موسى ، ياليتنى فيها جذعا ، ليتنى أكون حيًّا إذ يخرجك قومك . فقال رسول الله - ﷺ - أومخرجى هم ؟ ؟ قال : نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ماجئت به إلا عُودِىَ وإن يدركنى يومك أنصرك نصرا مؤزرا ، ثم لم ينشب ورقة أن توفى ، وفتر الوحى .

ومعنى : ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق ﴾ أى : اقرأ يامحمد القرآن مبتدئاً ومستعينا باسم ربك الجليل ، الذى خلق جميع المخلوقات ، وأوجد جميع العوالم . وقال السهيلى : أى لاتقرؤه بقوتك ولابمعرفتك لكن بحول ربك وإعانته ، فهو يعلمك كما خلقك .

ثم فسر الخلق تفخيما لشأن الإنسان فقال تعالى : ﴿ خلق الإنسان من علق ﴾ أى : خلق هذا الإنسان البديع الشكل الذى هو أشرف المخلوقات من العلقة - وهى الدودة الصغيرة - وقد أثبت الطب الحديث أن المنى الذى خلق منه الإنسان محتو على حيوانات منوية لاترى بالعين ، وإنما ترى بالمجهر الدقيق وأن لها رأسا وذنبا ، فتبارك الله أحسن الخالقين .

قال القرطبى : خص الإنسان بالذكر تشريفا له ، والعلقة : قطعة من دم رطب ، سميت بذلك لأنها تعلق لرطوبتها بما تمر عليه .

وقوله : ﴿ اقرأ وربك الأكرم ﴾ أى : اقرأ يامحمد وربك العظيم الكريم ، الذى لايساويه ولايدانيه كريم ، وقد دل على كمال كرمه أنه ﴿ الرحمن ، علم القرآن ، خلق الإنسان ، علمه البيان ﴾(1) فهو - سبحانه - علَّم العباد مالم يعلموا ، لذا قال - سبحانه : ﴿ الذى علم بالقلم ، علم الإنسان مالم يعلم ﴾ أى : الذى علم الخط والكتابة بالقلم ، وعلم البشر مالم يكونوا يعرفونه من العلوم والمعارف ، فنقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم ، فكما علم - سبحانه - بواسطة الكتابة بالقلم ، فإنه يعلمك بلا واسطة وإن كنت أميا لا تقرأ ولا تكتب .

قال القرطبى : نبه - تعالى - على فضل علم الكتابة ، لما فيه من المنافع العظيمة التى لايحيط بها إنسان ، ومادونت العلوم ولاقيدت الحكم ، ولا ضبطت أخبار الأولين ومقالاتهم ، ولا كتب الله المنزلة إلا بالكتابة ، ولولاها ماستقامت أمور الدنيا والدين .

وقال العلامة ابن القيم فى هذه الآيات المباركات :

« تتأمل كيف جمع - سبحانه وتعالى - فى هذه الكلمات مراتب الخلق كلها وكيف تضمنت مراتب الموجدات الأربعة بأوجز لفظ وأوضحه وأحسنه ، فذكر أولا عموم الخلق وهو إعطاء الوجود الخارجى ، ثم ذكر ثانيا خصوص خلق الإنسان لأنه موضع العبرة والآية فيه عظيمة ومن شهوده عما فيه محض تعدد النعم ، وذكر مادة خلقه هاهنا من العلقة ، وفى سائر المواضع بذكر ماهو سابق عليها ، أما مادة الأصل

(1) الآيات : ١ - ٤ من سورة الرحمن

وهو التراب والطين أو الصلصال الذى كالفخار ، أو مادة الفرع وهو الماء المهين ، وذكر فى هذا الموضع أول مبادىء تعليق التخليق وهو العلقة ؛ فإنه كان قبلها نطفة فأول انتقالها إنما هو الى العلقة ، ثم ذكر ثالثا : التعليم بالقلم الذى هو من أعظم نعمة على عباده ؛ إذ به تخلد العلوم وتثبت الحقوق وتعلم الوصايا وتحفظ الشهادات وتضبط حساب المعاملات الواقعة بين الناس ، وبه تقيد أخبار الماضيين للباقين اللاحقين ، ولولا الكتابة لانقطعت أخبار بعض الأزمنة عن بعض ودرست السنين ، وتخبطت الأحكام ، ولم يعرف الخلق مذاهب السلف ، وكان معظم الخلل الداخل على الناس فى دينهم ودنياهم إنما يعتريهم من النسيان الذى يمحو صور العلم من قلوبهم ، فجعل لهم الكتاب وعاء حفاظا للعلم من الضياع كالأوعية التى تحفظ الأمتعة من الذهاب والبطلان ، فنعمة الله ـ عزوجل ـ بتعليم القلم بعد القرآن من أجل النعم والتعليم به وإن كان مما يخلص اليه الإنسان بالفطنة والحيلة فإن الذى بلغ به ذلك وأوصله إليه عطية وهبها الله منه وفضل أعطاه إياه ، وزيادة فى خلقه وفضله فهو الذى علمه الكتابة وإن كان هو المتعلم ، ففعله فعل مطاوع لتعليم الذى علم بالقلم فإنه علمه فتعلم كما أنه علمه الكلام فتكلم ، هذا ، ومن أعطاه الذهن الذى يعى به ، واللسان الذى يترجم به ، والبنان الذى يخط به ، ومن هيأ ذهنه لقبول هذا التعليم دون سائر الحيوانات ؟! ومن الذى أنطق لسانه وحرك بنانه ؟! ومن الذى دعم البنان بالكف ودعم الكف بالساعد ؟! فكم لله من آية نحن غافلون عنها فى التعليم بالقلم ، فقف وقفة فى حال الكتابة وتأمل حالك وقد أمسكت القلم وهو جماد ووضعته على القرطاس وهو جماد فتولد من بينهما أنواع الحكم وأصناف العلوم وفنون المراسلات والخطب والنظم والنثر وجوابات المسائل ، فمن الذى أجرى تلك المعانى على قلبك ورسمها فى ذهنك ، ثم أجرى العبارات الدالة عليها على لسانك ، ثم حرك بها بنانك حتى صارت نقشا عجيبا معناه أعجب من صورته فتقضى به مآربك وتبلغ به حاجة فى صدرك ، وترسله إلى الأقطار النائية والجهات المتباعدة فيقوم مقامك ، ويترجم عنك ، ويتكلم على لسانك ، ويقوم مقام رسولك ، ويجدى عليك مالايجدى من ترسله سوى من ﴿ علم بالقلم ، علم الإنسان مالم يعلم ﴾ والتعليم بالقلم يستلزم المراتب الثلاثة مرتبة الوجود الذهنى ، والوجود اللفظى ، والوجود الرسمى فقد دل التعليم بالقلم على أنه ـ سبحانه ـ هو المعطى لهذه المراتب ، ودل قوله : (خلق) على أنه يعطى الوجود العينى ، فدلت هذه الآيات مع اختصارها ووجازتها وفصاحتها ، دلت هذه الآيات مع اختصارها ووجازتها وفصاحتها على أن مراتب الوجود بأسرها مسندة إليه ـ تعالى ـ خلقا وتعليما ، وذكر خلقين وتعلمين : خلقا عاما وخاصا ، وتعليما خاصا ، وتعليما عاما ، وذكر من صفاته هاهنا اسم الأكرم الذى فيه كل خير وكل كمال ، فله كل كمال وصفا ، ومنه كل خير فعلا ، فهو الأكرم فى ذاته وأوصافه وأفعاله ، وهذا الخلق والتعليم إنما نشأ من كرمه وبره وإحسانه لامن حاجة دعته إلى ذلك وهو الغنى الحميد . أهـ .

قوله تعالى : ﴿ **كلا إن الإنسان ليطغى ، أن رآه استغنى ، إن إلى ربك الرجعى** ﴾

يخبر ـ تعالى ـ عن الإنسان أنه ذو فرح وأشر وبطر وطغيان إذا رأى نفسه قد استغنى وكثر ماله ، ثم تهدده وتوعده ووعظه فقال : ﴿ **إن إلى ربك الرجعى** ﴾ أى : إلى الله المصير والمرجع ، وسيحاسبك على مالك من أين جمعته وفيم صرفته .

أخرج الإمام أحمد فى مسنده عن بشر بن جحاش قال : كنا جلوسا عند رسول الله - ﷺ - فبصق فى كفه بصقة ثم وضع أصبعه فقال : يقول الله - تعالى - يابن آدم أنى تعجزنى وقد خلقتك من مثل هذه ؟! حتى إذا سويتك وعدلتك مشيت بين بردين وللأرض منك وئيد ، فجمعت ومنعت ، حتى إذا بلغت التراقى قلت : أتصدق وأنى أوان الصدقة ؟![1] .

وقال ابن أبى حاتم بسنده : عن عون قال : قال عبدالله منهومان لايشبعان : صاحب القلم ، وصاحب الدنيا ، ولا يستويان ؛ فأما صاحب العلم فيزداد رضى الرحمن ، وأما صاحب الدنيا فيتمادى فى الطغيان ، قال : ثم قرأ عبدالله : ﴿ كلا إن الإنسان ليطغى ، أن رآه استغنى ﴾ . وقال للآخر : ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾[2] وقد روى هذا الحديث مرفوعا إلى رسول الله - ﷺ - : « منهومان لايشبعان طالب علم وطالب دنيا »[3] .

قوله تعالى : ﴿ أرأيت الذى ينهى ، عبداً إذا صلى ، أرأيت إن كان على الهدى ، أو أمر بالتقوى ، أرأيت إن كذب وتولى ، ألم يعلم بأن الله يرى ، كلا لئن لم ينته لَنَسْفَعاً بالناصية ، ناصية كاذبة خاطئة ، فليدع نادية ، سندع الزبانية ، كلا لاتطعه واسجد واقترب ﴾ .

نزلت هذه الآيات فى أبى جهل - لعنه الله - توعد النبى - ﷺ - على الصلاة عند البيت ، قال تعالى : ﴿ أرأيت الذى ينهى ، عبداً إذا صلى ﴾ تعجب من حال ذلك الشقى الفاجر ، أى : أخبرنى يامحمد عن حال ذلك المجرم الأثيم ، الذى ينهى عبدا من عباد الله عن الصلاة ، ماأسخف عقله ، وماأشنع فعله !! وقد أجمع المفسرون على أن العبد المصلى هو محمد - ﷺ - وأن الذى نهاه هو اللعين « أبو جهل » حيث قال : « لئن رأيت محمدا يصلى لأَطَأَنَّ على عنقه ، ولأَعفِّرَنَّ وجهه فى التراب ، فجاء يوما فوجد رسول الله - ﷺ - يصلى ، فأقبل يريد أن يطأ على رقبته ، فما فجأهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ، ويتقى بيديه ، فقيل له . مالك ؟ فقال : إن بينى وبينه خندقا من نار ، وهولا وأجنحة . فقال رسول الله - ﷺ : « لو دنا منى لاختطفته الملائكة عضوا عضوا » فأنزل الله : ﴿ أرأيت الذى ينهى ، عبدا إذا صلى ﴾ إلى آخر السورة .

قوله تعالى : ﴿ أرأيت إن كان على الهدى ﴾ أى : أخبرنى إن كان هذا العبد المصلى - وهو النبى - ﷺ - الذى نهاه عن الصلاة صالحا مهتديا ، على الطريقة المستقيمة فى قوله وفعله !! ﴿ أو أمر بالتقوى ﴾ أى : أو كان آمرا بالإخلاص والتوحيد ، داعيا إلى الهدى والرشاد ، كيف تزجره وتنهاه ؟!

ثم عاد لخطاب الرسول الكريم - ﷺ - فقال تعالى : ﴿ أرأيت إن كذب وتولى ﴾ أى : أخبرنى يامحمد إن كذب بالقرآن ، وأعرض عن الإيمان ﴿ ألم يعلم بأن الله يرى ﴾ أى : ألم يعلم ذلك الشقى بأن الله مطلع على أحواله مراقب لأفعاله ، وسيجازيه عليها .

---

(١) أخرجه الأمام أحمد فى مسنده فى (مسند بشر بن جحاش رضى الله عنه - حـ٤ ص٢١٠ .
(٢) انظره فى تفسير ابن كثير : فى تفسير سورة العلق جـ٤ ص٥٦٥
(٣) اخرجه فى كنز العمال فى الاداب : أداب : متفرقة حـ١٠ ص٢٤٨ رقم ٩٣٢٨ وعزاه الى ابن عدى عن أنس ، والبزار عن ابن عباس

ثم ردعه وزجره فقال : ﴿ كلا لئن لم ينته ﴾ أى : ليرتدع هذا الفاجر « أبوجهل » عن غيه وضلاله ، فوالله لئن لم ينته عن أذى الرسول ويكف عما هو عليه من الكفر والضلال ﴿ لنسفعا بالناصية ﴾ أى : لنأخذنه بناصيته ـ مقدم شعر الرأس ـ فلنجرنه إلى النار بعنف وشدة ونقذفه فيها . ﴿ ناصية كاذبة خاطئة ﴾ أى : صاحب هذه الناصية كاذب فاجر ، كثير الذنوب والإجرام .

وقوله تعالى : ﴿ فليدع ناديه ﴾ أى : فليدع أهل ناديه وليستنصر بهم ﴿ سندع الزبانية ﴾ أى : سندعو خزنة جهنم ، الملائكة الغلاظ الشداد حتى يعلم من يغلب : أحزبنا أو حزبه ؟

قال البخارى بسنده عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : قال أبوجهل : لئن رأيت محمدا يصلى عند الكعبة لأطأن على عنقه . فبلغ النبى ـ ﷺ ـ فقال : « لئن فعل لأخذته الملائكة »[1] . وكذا رواه الترمذى والنسائى فى تفسيرهما .

وروى أحمد والترمذى وابن جرير ـ وهذا لفظه ـ من طريق داود بن أبى هند عن عكرمة عن ابن عباس قال : كان رسول الله ـ ﷺ ـ يصلى عند المقام ، فمر به أبوجهل بن هشام فقال : يامحمد : ألم أنهك عن هذا ؟ وتوعده ، فأغلظ له رسول الله ـ ﷺ ـ وانتهره . فقال : يامحمد بأى شىء تهددنى ؟ أما والله إنى لأكثر هذا الوادى ناديا . فأنزل الله تعالى : ﴿ فليدع ناديه . سندع الزبانية ﴾ وقال ابن عباس لو دعا ناديه لأخذته ملائكة العذاب من ساعته . وقال الترمذى : حسن صحيح .[2] .

وقوله تعالى : ﴿ كلا لاتطعه واسجد واقترب ﴾ يعنى : يامحمد لاتطعه فيما ينهاك عنه من المداومة على العبادة وكثرتها ، وصل حيث شئت ولاتباله ؛ فإن الله حافظك وناصرك وهو يعصمك من الناس : ﴿ واسجد واقترب ﴾ أى : وواظب على سجودك وصلاتك ، وتقرب بذلك إلى ربك .

وفى الحديث الذى رواه مسلم : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « أقرب مايكون العبد من ربه وهو ساجد »[3] .

---

(١) رواه البخارى فى (كتاب التفسير) تفسير سورة العلق حـ٦ ص٢١٦ طبع الشعب

(٢) اخرجه الامام أحمد فى مسنده (مسند عبدالله بن عباس رضى الله عنهما ـ ٢ حـ١ ص٢٥٦ واخرجه الترمذى

(٣) رواه مسلم فى صحيحه فى (كتاب الصلاة) باب : مايقال فى الرجوع والسجود حـ١ ص٣٥٠ رقم ٢١٥/٤٨٢ تحقيق محمد فؤاد عبدالباقى

تفسير سورة القدر

مقدمة من السورة :

قال صاحب البصائر :

السورة مكية عند بعض المفسرين ، مدنية عند الأكثرين .

آياتها : خمس

وكلماتها : ثلاثون .

وحروفها : مائة واثناعشر

فواصل آياتها : على الراء .

سميت سورة القدر : لمفتتحها .

مقصود السورة :

معظم مقصود السورة : بيان شرف ليلة القدر فى نص القرآن ، ونزول الملائكة المقربين من عند الرحمن . ، واتصال سلامهم طوال الليل على أهل الإيمان فى قوله : ﴿ **حتى مطلع الفجر** ﴾ .

ومناسبتها لما قبلها :

إن فى تلك أمر الرسول - ﷺ - بأن يقرأ القرآن باسم ربه الذى خلق ، واسم الذى علم الإنسان مالم يعلم ، وفى هذه ذكر القرآن ونزوله وبيان فضله ، وأنه من عند ربه ذى العظمة والسلطان ، العليم بمصالح الناس وبما يسعدهم فى دينهم ودنياهم ، وأنه أنزله فى ليلة لها من الجلال والكمال ماقصته السورة الكريمة .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴿٥﴾

معانى المفردات

(أنزلناه) أى : ابتدأناه أى ابتدأنا إنزال القرآن العظيم
(القدر) العظمة والشرف ، من قولهم : لفلان قدر عند فلان ، أى : منزلة وشرف .
(الروح) : جبريل - عليه السلام .
(من كل أمر) : بكل أمر من الخير والبركة .
(سلام هى) : على أولياء الله وأهل طاعته .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **إنا أنزلناه فى ليلة القدر . وماأدراك ماليلة القدر ، ليلة القدر خير من ألف شهر** ﴾ .

قال ابن كثير : يخبر تعالى أن أنزل القرآن ليلة القدر ، وهى الليلة المباركة التى قال الله - عزوجل - : ﴿ **إنا أنزلناه فى ليلة مباركة** ﴾[1] وهى ليلة القدر وهى من شهر رمضان كما قال تعالى : ﴿ **شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان** ﴾[2]

قال ابن عباس وغيره : أنزل الله القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا ، ثم نزل مفصلا بحسب الوقائع فى ثلاث وعشرين سنة على رسول الله - ﷺ - ثم قال معظما لشأن ليلة القدر التى اختصها - سبحانه - بانزال القرآن العظيم فيها فقال : ﴿ **وماأدراك ماليلة القدر ، ليلة القدر خير من ألف شهر** ﴾ .

قال ابن أبى حاتم بسنده عن مجاهد أن النبى - ﷺ - ذكر رجلا من بنى إسرائيل لبس السلاح فى سبيل الله ألف شهر قال : فعجب المسلمون من ذلك ، قال : فأنزل الله - عز وجل - : ﴿ **إنا أنزلناه فى ليلة القدر ، وماأدراك ماليلة القدر ، ليلة القدر خير من ألف شهر** ﴾ . أى : قيام تلك الليلة خير من عمل ذلك الرجل .[3]

وقال ابن ابى حاتم بسنده عن مجاهد : ليلة القدر خير من ألف شهر ليس فى تلك الشهور ليلة القدر ، وهكذا قال قتادة والشافعى وغير واحد ، وقال عمرو بن قيس : عمل فيها خير من عمل ألف شهر ، وهذا القول بأنها أفضل من عبادة ألف شهر ليس فيها ليلة القدر ، وهو اختيار ابن جرير ، قال ابن

---

(١) من الآية : ٣ من سورة الدخان
(٢) من الآية : ١٨٥ من سورة البقرة
(٣) اخرجه ابن كثير فى تفسيره : تفسير سورة القدر

كثير : وهو الصواب لا ماعداه ، وهو كقوله - ﷺ - : « رباط ليلة فى سبيل الله خير من ألف لبلة فيما سواه من المنازل »[١] رواه أحمد .

وقال الإمام أحمد بسنده عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : لما حضر رمضان قال رسول الله - ﷺ - : « قد جاءكم شهر رمضان ، شهر مبارك ، افترض الله عليكم صيامه ، تفتح فيه أبواب الجنة ، وتغلق فيه أبواب الجحيم ، وتغل فيه الشياطين ، فيه ليلة خير من ألف شهر ، من حرم خيرها فقد حرم »[٢] رواه النسائى من حديث أيوب به .

ولما كانت ليلة القدر تعدل عبادتها عبادة ألف شهر : ثبت فى الصحيح عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال : « من قام ليلة القدر إيمانا وإحتسابا غفر له ماتقدم من ذنبه »[٣] .

وقوله تعالى : ﴿ تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر ﴾ أى : يكثر تنزل الملائكة فى هذه الليلة لكثرة بركتها ، والملائكة يتنزلون مع تنزل البركة والرحمة ، كما يتنزلون عند تلاوة القرآن ، ويحيطون بحلق الذكر ، ويضعون أجنحتهم لطالب العلم بصدق تعظيما له ، وأما الروح فقيل : المراد به ههنا جبريل - عليه السلام - فيكون من باب عطف الخاص على العام ، وقيل : هم حزب من الملائكة ، جعلوا حفظه على سائرهم ، وأن الملائكة لايرونهم كما لا نرى نحن الملائكة ، والصحيح الأول . والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ بإذن ربهم ﴾ أى : بأمره ﴿ من كل أمر ﴾ أى : بكل أمر قدره الله وقضاه فى تلك السنة إلى قابل ، قال ابن عباس . وقال قتادة وغيره : تقضى فيها الأمور ونقدر الآجال والأرزاق ، كما قال تعالى : ﴿ فيها يفرق كل أمر حكيم ﴾[٤] .

وقوله تعالى : ﴿ سلام هى حتى مطلع الفجر ﴾ أى : ليلة القدر سلامة وخير كلها لاشر فيها ﴿ حتى مطلع الفجر ﴾ أى : إلى طلوع الفجر . وقيل : أى : هى سلام ؛ أى : ذات سلامة من أن يؤثر فيها شيطان فى مؤمن ومؤمنة ، وكذا قال مجاهد : وقال الشعبى : هو تسليم الملائكة على أهل المساجد من حين تغيب الشمس إلى أن يطلع الفجر ؛ يمرون على كل مؤمن ويقولون : السلام عليك أيها المؤمن .

---

(١) رواه الامام أحمد فى مسنده (مسند عثمان بن عفان - رضى الله عنه) حـ١ ص٦٢ ولفظه : « رباط يوم فى سبيل الله أفضل من ألف يوم فيما سواه ، فليرابط امرؤ كيف شاء ، هل بلغت ؟ قالوا : نعم . قال : اللهم أشهد »

(٢) رواه الامام أحمد فى مسنده حـ٢ ص٣٨٥
ورواه النسائى فى سننه عن ابى هريرة بلفظ : « أتاكم شهر رمضان .... الحديث » حـ٤ ص١٠٤

(٣) الحديث اخرجه البخارى فى صحيحه فى (كتاب الايمان) باب : قيام ليلة القدر من الايمان جـ١ ص١٦ بلفظ « من يقم ...... » الحديق ورواه النسائى فى سننه فى (كتاب الايمان) ايضا .. ورواه مسلم جزء حديث .

(٤) الآية ٤ من سورة الدخان

ليلة القــــدر

أى الليالى هى ؟

قال الإمام القرطبى : اختلف العلماء فى ذلك ، والذى عليه المعظم أنها ليلة سبع وعشرين ؛ لحديث زر بن حبيش قال : قلت لأبى بن كعب : إن أخاك عبدالله بن مسعود يقول : من يقم الحول يصيب ليلة القدر . فقال : يغفر الله لأبى عبدالرحمن ، لقد علم أنها فى العشر الأواخر من رمضان ، وأنها ليلة سبع وعشرين ؛ ولكنه أراد ألا يتكل الناس ؛ ثم حلف لايستثنى - أى : جزم فى حلفه بلا إستثناء - أنها ليلة سبع وعشرين . قال : قلت : بأى شىء تقول ذلك ياأبا المنذر ؟ قال : الآية التى أخبرنا بها رسول الله - ﷺ - أو بالعلامة أن الشمس تطلع يومئذ لاشعاع لها[1] . قال الترمذى حديث حسن صحيح . وخرجه مسلم .

وقيل فى ليالى السنة كلها . وقال ابن مسعود : من يقم الحول يصيبها ؛ فبلغ ذلك ابن عمر فقال : يرحم الله أبا عبدالرحمن ! أما إنه علم أنها فى العشر الأواخر من شهر رمضان ، ولكنه أراد ألا يتكل الناس . وإلى هذا القول ذهب أبوحنيفة أنها فى جميع السنة .

وقيل عنه : إنها رفعت - يعنى ليلة القدر - وأنها إنما كانت مرة واحدة ؛ والصحيح أنها باقية .

وروى عن ابن مسعود أيضا : أنها إذا كانت فى يوم من هذه السنة كانت فى العام المقبل فى يوم آخر .

قال القرطبى : والجمهور على أنها فى كل عام من رمضان . . ثم قيل : إنها الليلة الأولى من الشهر ، قاله أبورزين العقيلى .

وقال الحسن وابن إسحاق وعبدالله بن الزبير : هى ليلة سبع عشرة من رمضان ، وهى الليلة التى كانت صبيحتها وقعة بدر : كأنهم فزعوا بقوله تعالى : ﴿ **وماانزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان** ﴾[2] وكان ذلك ليلة سبع عشرة ، وقيل هى ليلة التاسع عشر .

والصحيح المشهور أنها فى العشر الآواخر من رمضان ، وهو قول مالك والشافعى والأوزاعى وأبى ثور وأحمد .

---

(١) اخرجه الترمذى فى جامعة الصحيح فى (كتاب الصوم) فى باب ما جاء فى ليلة القدر جـ ٢ من ١٥٥ رقم ٧٩٠ واخرجه مسلم فى صحيحه فى (كتاب الصيام) باب فضل ليلة القدر . . . . الخ حـ١ ص٨٢٨ رقم ٧٦٢/٢٢٠ .

(٢) من الآية : ٤١ من سورة الأنفال .

ثم قال قوم : هى ليلة الحادى والعشرين . ومال إليه الشافعى - رضى الله عنه - وذلك للحديث الذى رواه مالك فى الموطأ : كان رسول الله - ﷺ - يعتكف العشر الوسط من رمضان ، فاعتكف عاما حتى إذا كان ليلة إحدى وعشرين وهى الليلة التى يخرج فيها من صبحها من اعتكافه قال : « من كان اعتكف معى فليعتكف العشر الأواخر ، وقد أريت هذه الليلة ثم أُنسيتها ، وقد رأيتنى أسجد من صبحها فى ماء وطين فالتمسوها فى العشر الأواخر والتمسوها فى كل وتر »(١)

قال أبوسعيد : فأمطرت السماء تلك الليلة ، وكان المسجد على عريش فوكف المسجد (قطر) . قال أبوسعيد : فأبصرت عيناى رسول الله - ﷺ - إنصرف وعلى جبينه وأنفه أثر الماء والطين من صبح ليلة إحدى وعشرين » .

وقيل : ليلة الثالث والعشرين ، ففى صحيح مسلم أن النبى - ﷺ - قال : « إنى رأيت أنى أسجد فى صبيحتها فى ماء وطين »(٢) قال عبدالله بن أنيس : فرأيته فى صبيحته ليلة ثلاث وعشرين فى الماء والطين ، كما أخبر رسول الله - ﷺ - . .

وقيل ليلة خمس وعشرين ؛ لحديث أن سعيد الخدرى أن رسول الله - ﷺ - قال : « التمسوها فى العشر الأواخر فى تاسعة تبقى ، فى سابعة تبقى ، فى خامسة تبقى » رواه مسلم(٣) .

قال مالك : يريد بالتاسعة ليلة إحدى وعشرين ، والسابعة ليلة ثلاث وعشرين ، والخامسة ليلة خمس وعشرين .

وقيل : ليلة سبع وعشرين ، وقد مضى دليله ، وهو قول على - رضى الله عنه - وعائشة ومعاوية وأبى بن كعب .

وروى ابن عمر أن رسول الله - ﷺ - قال : « من كان متحريا ليلة القدر فليتحرها ليلة سبع وعشرين »(٤) .

وقال أبوبكر الوراق : إن الله - تعالى - قسم ليالى هذا الشهر - شهر رمضان - على كلمات هذه السورة ، فلما بلغ السابعة والعشرين أشار إليها فقال : (هى) .

---

(١) اخرجه الامام مالك فى الموطأ فى (كتاب الاعتكاف) باب ماجاء فى ليلة القدر حـ١ ص٣١٩ رقم ٩ وقال محمد فؤاد عبدالباقى : واخرجه البخارى فى (كتُاب الاعتكاف) باب الاعتكاف فى العشر الأواخر . ومسلم فى (كتاب الصيام)) باب فصل ليلة القدر ، حديث رقم ٢١٣

(٢) اخرجه مسلم فى صحيحه حـ١ ص٨٢٦ رقم ٢١٦

(٣) اخرجه مسلم بمعناه فى (كتاب الصيام) باب فضل ليلة القدر .... الخ

واخرجه بلفظه أحمد ، والبخارى ، وأبوداود : انظر كنز العمل فى (كتاب الصوم) جـ٨ ص٥٣٥ رقم ٢٤٠٣٧ وانظر مسند الامام أحمد ٢٣٤/٣ والبخارى جـ٣ ص٦١

(٤) اخرجه البيهقى ١١/٤ السنن الكبرى ، وهو فى مجمع الزوائد ١٧٦/٣ وقال البهيقى : قلت : لابن عمر حديث فى الصحيح غير هذا ، ورواه أحمد ورجاله رجال الصحيح .

وأيضا : فإن ليلة القدر كرر ذكرها ثلاث مرات ، وهى تسعة أحرف ، فتجىء سبعا وعشرين .

وقيل : هى ليلة تسع وعشرين : فعن أنس قال : أخبرنى عبادة بن الصامت أن النبى خرج ليخبرنا بليلة القدر ، فتلاحى رجلان من المسلمين فقال : « إنى خرجت لأخبركم بليلة القدر ، فتلاحى فلان وفلان فرفعت ، وعسى أن يكون خيرا لكم ؛ فالتمسوها فى التسع والسبع والخمس »[1] رواه البخارى .

وقيل : أخفاها فى جميع شهر رمضان ليجتهدوا فى العمل والعبادة ليالى شهر رمضان طمعا فى إدراكها ، كما أخص الصلاة الوسطى فى الصلوات الخمس ، واسمه الأعظم فى أسمائه الحسنى ، وساعة الإجابة فى ساعات الجمعة وساعات الليل .. رحمة منه وحكمة .

وعن عائشة ـ رضى الله عنها ـ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ يجاور فى العشر الأواخر من رمضان ، ويقول : « تحروا ليلة القدر فى العشر الأواخر من رمضان »[2]

متفق عليه »

وعن عائشة أيضا أن النبى ـ ﷺ ـ قال : « تحروا ليلة القدر فى الوتر من عشر الأواخر من شهر رمضان »[3] أخرجه البخارى .

قال اليغوى فى شرح السنة :

قال أبوعيسى : روى عن النبى ـ ﷺ ـ فى ليلة القدر أنها ليلة إحدى وعشرين ، وليلة ثلاث وعشرين ، وخمس وعشرين ، وسبع وعشرين ، وتسع وعشرين ، وآخر ليلة من رمضان .. قال الشافعى : كان هذا عندى ـ والله أعلم ـ أن النبى ـ ﷺ ـ كان يجيب على نحو مايسأل عنه يقال له : ألتمسها فى ليلة كذا ؟ فيقول : التمسوها فى ليلة كذا ، قال الشافعى : وأقوى الروايات عندى فيها ليلة إحدى وعشرين . أ . هـ .

---

(١) رواه البخارى فى صحيحه فى (كتاب الصيام) باب تحرى ليلة القدر فى الوتر من العشر الأواخر فيه جـ٣ ص ٦١ طبع الشعب .
(٢) الحديث فى اللؤلؤ والمرجان فى (كتاب الصيام) باب فضل ليلة القدر جـ١ ص٢٩٠ رقم ٧٢٦ طبع عيسى الحلبى .
(٣) اخرجه البخارى فى صحيحه فى (كتاب الصيام) باب تحرى ليلة القدر فى الوتر من العشر الأواخر فيه حـ٣ ص٦٠ طبع الشعب .

الاجتهاد فى العشر الأواخر من رمضان

قال الإمام الحافظ زين الدين ابن رجب الحنبلى فى كتابه « لطائف المعارف » : ماملخصه :

فى الصحيحين عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشر شد مئزره ، وأحيا ليله ، وأيقظ أهله »[١] هذا لفظ البخارى ، ولفظ مسلم ، وأحيا الليل وأيقظ أهله وشد المئزر »[٢] وفى رواية لمسلم عنها قالت : كان رسول الله ـ ﷺ ـ يجتهد فى العشر الأواخر مالايجتهد فى غيره[٣] .

كان النبى ـ ﷺ ـ يخص العشر الأواخر من رمضان بأعمال لا يعملها فى بقية الشهر .

فمنها : إحياء الليل

فيحتمل أن المراد إحياء الليل كله ، ويحتمل أن يريد بإحياء الليل إحياء غالبه ، ويؤيده مافى صحيح مسلم عن عائشة قالت : ماأعلمه ـ ﷺ ـ قام ليلة حتى الصباح .

ومنها : أن النبى ـ ﷺ ـ كان يوقظ أهله للصلاة فى ليالى العشر دون غيرها من الليالى ، وفى حديث أبى ذر أن النبى ـ ﷺ ـ لما قام بهم ليلة ثلاث وعشرين وخمس وعشرين وسبع وعشرين ذكر أنه دعا أهله ونساءه ليلة سبع وعشرين خاصة وهذا يدل على أنه يتأكد إيقاظهم فى أكد الأوقات التى ترجى فيها ليلة القدر .

وأخرج الطبرانى من حديث على أن النبى ـ ﷺ ـ كان يوقظ أهله فى العشر الأواخر من رمضان ، وكل صغير وكبير يطيق الصلاة[٤] . قال سفيان الثورى : أحب إلى إذا دخل العشر الأواخر أن يتهجد بالليل ويجتهد فيه وينهض أهله وولده إلى الصلاة إن أطاقوا ذلك .

وقد صح عن النبى ـ ﷺ ـ أنه كان يطرق فاطمة وعليا ليلا فيقول لهما : ألا تقومان فتصليان ؟! وكان يوقظ عائشة بالليل إذا قضى تهجده وأراد أن يوتر .

وكانت امرأة حبيب أبى محمد تقول له بالليل : قد ذهب الليل وبين أيدينا طريق بعيد وزاد قليل ، وقوافل الصالحين قد سارت قُدَّامَنا ونحن قد بقينا .

يانائم الليل كم ترقد قم ياحبيبى قد دنا الموعد
وخذ من الليل وأوقاته وردا إذا ماهجع الرُّقَّد

---

(١) الحديث فى اللؤلؤ والمرجان فى (كتاب الصيام) باب الاجتهاد وفى العشر الأواخر من رمضان حـ١ ص٢٩٢ رقم ٧٣٠

(٢) انظر صحيح مسلم (كتاب الاعتكاف) باب الاجتهاد فى العشر الأواخر من رمضان جـ٢ ص٨٣٢ رقم ١١٧٤/٧

(٣) اخرجه مسلم فى صحيحه جـ٢ ص٨٣٢ رقم ١١٧٥/٨ فى (كتاب الاعتكاف) باب الاجتهاد فى العشر الأواخر .

(٤) اخرجه البيهقى فى مجمع الزوائد فى (كتاب الصوم) باب فى العشر الأواخر حـ٣ ص١٧٤ وقال البيهقى : قلت : رواه الترمزى باختصار ، ورواه الطبرانى فى الأوسط وأبو يعلى باختصار عنه .

من نام حتى ينقضى ليله لم يبلغ المنزل أو يجهد
قل لذوى الألباب أهل التقى قنطرة العرض لكم موعد

ومنها : أن النبى - ﷺ - كان يشد المئزر واختلفوا فى تفسيره ، فمنهم من قال : هو كناية عن شدة جده واجتهاده فى العبادة ، وهذا فيه نظر ؛ فانها قالت : جد وشد المئزر ، فعطفن شد المئزر على جده ، والصحيح أن المراد اعتزاله للنساء ، وبذلك فسره السلف والأئمة المتقدمون منهم سفيان الثورى . وقد كان النبى - ﷺ - غالبا يعتكف العشر الأواخر ، والمعتكف ممنوع من قربان النساء بالنصر بالإجماع .

ومنها اغتساله بين العشاءين ، وروى من حديث على أن النبى - ﷺ - كان يغتسل بين العشاءين كل ليلة يعنى من العشر الأواخر ، وفى إسناده كان يغتسل بين العشاءين كل ليلة يعنى من العشر الأواخر ، وفى إسناده ضعيف .

وقال ابن جرير : كانوا يستحبون أن يغتسلوا كل ليلة من ليالى العشر الأواخر ، وكان ابراهيم النخعى يغتسل فى العشر كل ليلة ، ومنهم من كان يغتسل فى الليالى التى تكون أرجى لليلة القدر .

وقال حماد بن سلمة : كان ثابت البنانى وحميد الطويل يلبسان أحسن ثيابهما ويتطيبان ويطيبون المسجد بالنضوح والدخنة فى الليالى التى تجى فيها ليلة القدر .

فتبين بهذا انه يستحب فى الليالى التى ترجى فيها ليلة القدر التنظف والتزين والتطيب بالغسل والطيب واللباس الحسن كما يشرع ذلك فى الجمع والأعياد ، وكذلك يشرع أخذ الزينة بالثياب فى سائر الصلوات ، كما قال تعالى : ﴿ **خذوا زينتكم عند كل مسجد** ﴾(١) وقال ابن عمر : الله أحق أن يتزين له ولايكمل التزين الظاهر إلا بتزين الباطن بالتوبة والإنابة إلى الله تعالى ، وتطهيره من أدناس الذنوب وأوضارها ؛ فإن زينة الظاهر مع خراب الباطن لاتغنى شيئا ، قال تعالى : ﴿ **يابنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوءاتكم وريشا ولباس التقوى ذلك خير** ﴾(٢)

إذا المرء لم يلبس ثيابا من التقى
تقلب عريانا وإن كان كاسيا

ومنها : الاعتكاف ، ففى الصحيحين عن عائشة - رضى الله عنها - أن النبى - ﷺ - كان يعتكف العشر الأواخر حتى توفاه الله تعالى . . وفى صحيح البخارى عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : كان رسول الله - ﷺ - يعتكف فى كل رمضان عشرة أيام ، فلما كان العام الذى قبض فيه اعتكف عشرين ، وإنما كان يعتكف النبى - أ - فى هذا العشر التى يطلب فيها ليلة القدر قطعا لأشغاله ، وتفريغا لباله ، وتخليا لمناجاة ربه وذكره ودعائه ، وكان يحتجر حصيرا يتخلى فيها عن الناس فلايخالطهم ولايشتغل بهم .

---

(١) من الآية : ٣١ من سورة الاعراف
(٢) من الآية : ٢٩ من سورة الاعراف .

ولهذا ذهب الإمام أحمد إلى أن المعتكف لايستحب له مخالطة الناس حتى ولا لتعليم علم وإقراء قرآن ، بل الأفضل له الانفراد بنفسه والتخلى بمناجاة ربه وذكره ودعائه ، وهذا الاعتكاف هو الخلوة الشرعية ، وإنما يكون فى المساجد لئلا يترك به الجمع والجماعات ؛ فان الخلوة القاطعة عن الجمع والجماعات منهى عنها .

فالخلوة المشروعة لهذه الأمة هى الاعتكاف فى المساجد خصوصا فى شهر رمضان فى العشر الأواخر منه كما كان النبى - ﷺ - يفعله .

فمعنى الاعتكاف وحقيقته : قطع العلائق عن الخلائق بخدمة الخالق ، وكلما قويت المعرفة بالله والمحبة له والأنس به أورثت صاحبها الانقطاع الى الله تعالى بالكلية ، على كل حال كان بعضهم لايزال منفردا فى بيته خاليا بربه فقيل له : أما تستوحش ؟ قال : كيف استوحش وهو يقول أنا جليس من ذكرنى .

ياليلة القدر للعابدين اشهدى ، ياأقدام القانتين اركعى لربك وأسجدى ، ياألسنة السائلين جدى فى المسألة واجتهدى .

يا رجال الليل جدوا رَبَّ داع لا يرد
لا يقوم الليل إلا من له عزم وجد

ليلة القدر عند المحبين ليلة الخطوة بأنس مولاهم وقربه ، وإنما يفرون من ليالى البعد والهجر .

قال تعالى : ﴿ **إنا أنزلناه فى ليلة القدر ، وماأدراك ماليلة القدر ، ليلة القدر خير من ألف شهر** ﴾

فاذا كان ليلة القدر أمر الرب تبارك وتعالى الملائكة بالنزول إلى الأرض لأن العباد زينوا أنفسهم بالطاعات : بالصوم والصلاة فى ليالى رمضان ، ومساجدهم بالقناديل والمصابيح ، فيقول الرب - تبارك اسمه - أنتم طعنتم فى بنى آدم وقلتم : ﴿ **أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء** ﴾ فقلت لكم : ﴿ **إنى أعلم مالا تعلمون** ﴾[1] اذهبوا اليهم فى هذه الليلة حتى تروهم قائمين ساجدين راكعين لتعلموا أنى اخترتهم على علم على العالمين .

وفى الصحيحين عن أبى هريرة عن النبى - ﷺ - قال : « من قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا غفر له ماتقدم من ذنبه »[2] وفى المسند عن عبادة بن الصامت ، وعن النبى - ﷺ - قال : « من قامها ابتغاءها ثم وقعت له غفر له ماتقدم من ذنبه وماتأخر »[3] .

قال جويبر : قلت للضحاك : أرأيت النفساء والحائض والمسافر والنائم لهم فى ليلة القدر نصيب ؟ قال : نعم ، كل من تقبل الله عمله سيعطيه نصيبه من ليلة القدر .

---

(١) من الآية : ٣٠ من سورة البقرة (٢) سبق تخريجه (٣) اخرجه الامام أحمد فى مسنده ٣١٨/٥

الأعمال المستحبة فى هذه الليلة المباركة :.

قال ابن رجب : وأما العمل فى ليلة القدر فقد ثبت عن النبى - ﷺ - أنه قال : « من قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه » وقيامها إنما هو إحياؤ ها بالتهجد فيها والصلاة ، وقد أمر عائشة بالدعاء فيها وقال سفيان الثورى الدعاء فى تلك الليلة أحب إلىَّ من الصلاة ، قال : وإذا كان يقرأ وهو يدعو ويرغب إلى الله فى الدعاء والمسألة لعله يوافق . ومراده أن كثرة الدعاء وأفضل من الصلاة التى لا يكثر فيها الدعاء وإن قرأ ودعا كان حسناً ، وقد كان النبى - ﷺ - يتهجد فى ليالى رمضان ويقرأ قراءة مرتلة ، لا يمر بأية فيها رحمة إلا سأل ، ولا بآية فيها عذاب إلا تعوذ ، فيجمع بين الصلاة والقراءة والدعاء والتفكر ، وهذا أفضل الأعمال وأكملها فى ليالى العشر وغيرها والله أعلم

وقد قال الشعبى فى ليلة القدر : ليلها كنهارها . وقال الشافعى فى القديم : استحب أن يكون اجتهاده فى نهارها كاجتهاده فى ليلها ، وهذا يقتضى استحباب الاجتهاد فى جميع زمان العشر الأواخر ليله ونهاره والله أعلم .

رياح هذه الأسحار تحمل أنين المذنبين ، وأنفاس المحبين ، وقصص التائبين ، ثم تعود برد الجواب بلا كتاب .

لو قام المذنبون فى هذه الأسحار على أقدام الانكسار ورفعوا قصص الاعتذار ومضمونها : ﴿ **يا أيها العزيز مَسَّنَا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوْفِ لنا الكيل وتصدق علينا**(١) ﴾ لبرز لهم التوقيع عليها ﴿ **لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين** ﴾(٢)

أفضل الدعاء فى ليلة القدر

قالت عائشة - رضى الله عنها - للنبى ﷺ : أرأيت أن وافقت ليلة القدر ما أقول فيها ؟ قال : قولى : اللهم إنّك عفوٌ تحب العفو فاعف عنى » والحديث فى مسند أحمد والعَفُوّ : من أسماء الله تعالى - وهو يتجاوز عن سيئات عباده وهو يحب العفو ، فيحب أن يعفو عن عباده ، ويحب من عباده أن يعفو بعضهم عن بعض ، فإذا عفا بعضهم عن بعض عاملهم بعفوه ، وعفوه أحب إليه من عقوبته ، وكان النبى - ﷺ - يقول : « أعوذ برضاك من سخطك ، وبعفوك من عقوبتك »

إذا أوجعتك الذنوب فَدَاوِهَا : برفع يد بالليل والليل مظلم ولا تقنطن من رحمة الله إنما : قنوطك منها من ذنوبك أعظم فرحمته للمحسنين كرامة : ورحمته للمذنبين تكرم

---

(١) من الاية : ٨٨ من سورة يوسف

(٢) من الآية : ٩٢ من سورة يوسف .

تفسير سورة البينة

مقدمة :

قال صاحب البصائر :

السورة مكية :

عدد آياتها : ثمان

وكلماتها : أربع وسبعون

وحروفها : ثلاثمائة وتسع وتسعون

فواصل آياتها : على الهاء

ولها اسمان : سورة المنفكين لقوله : ﴿ **والمشركين منفكين** ﴾ وسورة القيمة لقوله : ﴿ **وذلك دين القيمة** ﴾ .

مقصود السورة :

معظم مقصود السورة : بيان تمرد أهل الكتاب ، والخبر عن صحة أحكام القرآن ، وذكر وظيفة الخلق فى خدمة الرحمن ، والإشادة بخير البرية من الإنسان وجزاء كل أحد منهم بحسب الطاعة والعصيان ، وبيان أن موعود الخائفين من الله الرضا والرضوان فى قوله ﴿ **ذلك لمن خشى ربه** ﴾

فضل السورة :

صح عن النبى ـ ﷺ ـ أنه قال لأبى بن كعب : « ياأُبَىّ : إن الله أمرنى أن أقرأ عليك : ﴿ **لم يكن الذين كفروا** ﴾ قال أُبى : وسمّانى ؟ قال : نعم ، فبكى أُبَى من الفرح »[1]

والحديث رواه البخارى .

مناسبة السورة لما قبلها :

« إن قوله تعالى : ﴿ **لم يكن الذين كفروا** ﴾ .. الآيات كالعلة لإنزال القرآن كأنه قيل : إنا أنزلناه ، لأنه لم يكن الذين كفروا منفكين عن كفرهم حتى يأتيهم رسول يتلو صحفا مطهرة .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه فى (كتاب التفسير) تفسير سورة البينة حـ ٦ ص ٢١٧ طبع الشعب

قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴿٨﴾

معانى المفردات

(أهل الكتاب) اليهود والنصارى

(المشركون) عبدة الأوثان والأصنام من العرب

(منفكين) أى : مفارقين ما هم عليه

﴿ البينة ﴾ : الحجة الواضحة ، والمراد بها النبى - ﷺ -

﴿ صحفا ﴾ واحدة صحيفة وهو ما يكتب فيه

﴿ القيمة ﴾ : المستقيمة التى لا عوج فيها لاشتمالها على الحق .

﴿ البينة ﴾ : الثابتة الدليل .

الإخلاص : أن يأتى بالعمل خالصاً له تعالى

﴿ حنفاء ﴾ واحدهم : حنيف ، وهو فى الأصل : المائل المنحرف ؟ والمراد به المنحرف عن الزيغ إلى الإسلام لوجه الله تعالى .

﴿ البرية ﴾ : الخليقة

﴿ خشى ربه ﴾ أى : خاف الله .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة . رسول من الله يتلو صحفا مطهرة . فيها كتب قيمة . وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة** ﴾

قال القرطبى : قوله تعالى : ﴿ **لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب** ﴾ يعنى اليهود والنصارى ﴿ **والمشركين** ﴾ الذين كانوا بمكة وحولها ، والمدينة والذين حولها ، وهم مشركو قريش . ﴿ **منفكين** ﴾ أى : منتهين عن كفرهم مائلين عنه . ﴿ **حتى تأتيهم البينة** ﴾ أى : أتتهم البينة ، أى : محمد - ﷺ - وقيل : ﴿ **منفكين** ﴾ : زائلين ، أى : لم تكن مدتهم لتزول حتى يأتيهم رسول .

وقيل : ﴿ **منفكين** ﴾ بارحين ، أى : لم يكونوا ليبرحوا ، ويفارقوا الدنيا حتى تأتيهم البينة . وقال ابن كيسان : أى : لم يكن أهل الكتاب تاركين صفة محمد - ﷺ - فى كتابهم حتى بعث ، فلما بعث حسدوه وجحدوه . وهو كقوله ﴿ **فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به** ﴾[1]

وقال بعض اللغويين : ﴿ **منفكين** ﴾ أى : هالكين ، من قولهم : انفك صلا المرأة عند الولادة ، والصلا : وسط الظهر من الإنسان ، وهو أن ينفصل فلا يتم حتى يهلك .

المعنى : لم يكونوا معذبين ولا هالكين إلا بعد قيام الحجة عليهم بارسال الرسل وإنزال الكتب .

وقوله تعالى ﴿ **رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة** ﴾ أى : هذه البينة هى رسالة محمد - ﷺ - المرسل من عند الله تعالى ﴿ **يتلوا صحفا مطهرة** ﴾ أى : يقرأ عليهم ما تتضمن الصحف من المكتوب ، يتلوها عن ظهر قلبه لا عن كتاب ، لأنه - عليه الصلاة والسلام - كان أميًا لا يكتب ولا يقرأ .

قال ابن عباس : ﴿ **مطهرة** ﴾ من الزور والشك والنفاق ، والضلالة . وقال قتاده : ﴿ **مطهرة** ﴾ من الباطل ، والمعنى واحد ، ومطهرة من نعت الصحف ، وهو كقوله تعالى ﴿ **فى صحف مكرمة مرفوعة مطهرة** ﴾[2] وقيل ﴿ **مطهرة** ﴾ أى ينبغى ألا يمسها إلا المطهرون .

وقوله تعالى : ﴿ **فيها كتب قيمة** ﴾ قال ابن جرير : أى : فى الصحف المطهرة كتب من كتب الله قيمة عادلة مستقيمة ليس فيها خطأ : لأنها من عند الله - عزو جل - قال قتادة فى هذه الآية : يذكر القرآن بأحسن الذكر ، ويثنى عليه بأحسن الثناء .

وقوله تعالى : ﴿ **وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا منْ بعد ما جاءتهم البينة** ﴾

أى : وما اختلف اليهود والنصارى فى شأن محمد - ﷺ - إلا من بعد ما جاءتهم الحجة الواضحة ، الدالة على صدق رسالته وأنه الرسول الموعد به فى كتبهم .

---

(١) من الآية : ٨٩ من سورة البقرة .

(٢) الآيتان : ١٣ ، ١٤ من سورة عبس .

قال أبو السعود : والآية مسوقة لغاية التشنج على أهل الكتاب خاصة ، وتغليظ جنايتهم ، ببيان أن تفرقهم لم يكن إلا بعد وضوح الحق ، وتبين الحال ، وانقطاع الأعذار بالكلية ، كقوله تعالى : ﴿ وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم . . ﴾[1]

قال تعالى : ﴿ يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفوا عن كثير ، قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين . يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم ، لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعا ، ولله ملك السموات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كل شىء قدير ، وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ولله ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير ، يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شىء قدير ﴾[2]

قوله تعالى : ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة ﴾

أى : وما أمر الكفار فى التوراة والإنجيل ﴿ إلا ليعبدوا الله ﴾ أى : ليوحدوه مخلصين العبادة لله ـ جل وعلا ـ ﴿ حنفاء ﴾ أى : مائلين عن الأديان كلها إلى دين الإسلام ، مستقيمين على دين إبراهيم ، دين الحنيفة السمحة ، الذى جاء به خاتم المرسلين ﴿ ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ﴾ أى : وأمروا بأن يؤدوا الصلاة على الوجه الأكمل . فى أوقاتها بشروطها وخشوعها وآدابها ، ويعطوا الزكاة لمستحقيها عن طيب نفس ، قال الصاوى : وخص الصلاة والزكاة لشرفهما ﴿ وذلك دين القيمة ﴾ أى : وذلك المذكور من العبادة والإخلاص وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، هو دين الملة المستقيمة ـ دين الإسلام ـ دين المرسلين والنبيين معاً جميعا من لدن آدم حتى الرسالة المحمدية التى بها ختم الله الرسالات ، قال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾[3] .

ولكن أهل الكتاب حرفوا وبدلوا ، فعبدوا أحبارهم ورهبانهم كما قال تعالى : ﴿ وقالت اليهود عزير ابن الله ، وقالت النصارى المسيح ابن الله ، ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون ، اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ﴾[4] .

وقوله تعالى : ﴿ إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين فى نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية ﴾

---

(١) من الآية : ١٩ من سورة آل عمران .
(٢) الآيات : ١٥ ـ ١٩ من سورة المائدة .
(٣) الآية : ٢٥ من سورة الأنبياء .
(٤) الآيتان : ٣٠ ، ٣١ من سورة التوبة .

يخبر تعالى عن مآل الفجار من كفار أهل الكتاب والمشركين المخالفين لكتب الله المنزلة ، وأنبياء الله المرسلة . أى : إن الذين كذبوا بالقرآن وبنبيه محمد - ﷺ - من اليهود والنصارى وعبدة الأوثان ، هؤلاء جميعهم يوم القيامة فى نار جهنم ماكثين فيها أبداً لا يخرجون منها ولا يموتون ﴿ أولئك هم شر البرية ﴾ أى : أولئك هم شر الخلق على الإطلاق .

أخرج الإمام مسلم : قال - ﷺ - والذى نفسى بيده لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى ثم لم يؤمن بالذى أرسلت به إلا كان من أصحاب النار[١] .

ولما ذكر مقر الأشقياء ، ذكر بعده مقر السعداء فقال تعالى :

﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية** ﴾ أى : إن المؤمنين الذين جمعوا بين الإيمان وصالح الأعمال ﴿ **أولئك هم خير البرية** ﴾ أى هم خير الخليقة التى خلقها الله وبرأها كما قال تعالى : ﴿ **ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا** ﴾[٢] .

وقوله : ﴿ **جزاؤهم عند ربهم** ﴾ أى : ثوابهم فى الآخرة على ما قدموا من الإيمان والأعمال الصالحة ﴿ **جنات تجرى من تحتها الأنهار** ﴾ أى : جنات إقامة تجرى من تحت قصورها أنهار الجنة ﴿ **خالدين فيها أبداً** ﴾ أى : ماكثين فيها أبداً ، لا يموتون ولا يخرجون منها ، وهم فى نعيم دائم لا ينقطع . ﴿ **رضى الله عنهم ورضوا عنه** ﴾ أى : رضى الله عنهم بما قدموا فى الدنيا من الطاعات وفعل الصالحات ، ورضوا عنه بما أعطاهم من الخيرات والكرامات .

وقوله ﴿ **ذلك لمن خشى ربه** ﴾ أى : ذلك الجزاء والثواب لمن خاف الله واتقاه ، وانتهى عن معصية مولاه كما قال تعالى : ﴿ **وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى . فإن الجنة هى المأوى** ﴾[٣] وكقوله تعالى : ﴿ **ولمن خاف مقام ربه جنتان** ﴾[٤] .

اللهم إنا نسألك خشيتك فى السر والعلن ، ونسألك كلمة الحق فى الغضب والرضا ، ونسألك القصد فى الفقر والغنى ، ونسألك نعيما لا ينفد ، ونسألك قرة عين لا تنقطع ، ونسألك الشوق إلى لقائك ، ولذة النظر إلى وجهك الكريم فى غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة .

---

(١) أخرجه الامام مسلم فى صحيحه فى (كتاب الايمان) باب وجوب الايمان برسالة نبينا محمد - ﷺ - حـ ١ ص ١٣٤ .
(٢) الآية رقم ٦٩ من سورة النساء
(٣) الآيتان : ٤٠ ، ٤١ من سورة النازعات
(٤) الآية : ٤٦ من سورة الرحمن .

تفسير سورة الزلزلة

مقدمة عن السورة :

قال صاحب البصائر :

السورة مكية :

عدد آياتها : ثمان

وكلماتها : خمس وثلاثون

وحروفها : مائة وتسعة عشر

فواصل آياتها : ﴿ هما ﴾ على الميم : آية ﴿ أعمالهم ﴾

سميت سورة الزلزلة ، لمفتتحها

مقصود السورة

معظم مقصود السورة : بيان أحوال القيامة وأهوالها وذكر جزاء الطاعة ، وعقوبة المعصية ، وذكر وزن الأعمال فى ميزان العدل فى قوله تعالى : ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة ﴾ إلى آخر السورة

مناسبة السورة لما قبلها :

إنه سبحانه ـ لما ذكر سلف جزاء المؤمنين والكافرين بين هنا وقت ذلك الجزاء وعلاماته .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾

معانى المفـــردات:

﴿ **الزلزلة** ﴾ : الحركة الشديدة مع اضطراب

﴿ **والأثقال** ﴾ واحدها : ثقل ، وهو فى الأصل متاع البيت والمراد هنا : ما فى جوف الأرض من الدفائن كالموتى والكنوز .

﴿ **أوحى لها** ﴾ تقول : أوحيت له ، وأوحيت إليه ، ووحى له ، ووحى إليه أى كلمة خفية ، أو ألهمه ، كما جاء فى قوله : ﴿ **وأوحى ربك إلى النحل . . .** ﴾[١]

﴿ **يصدر** ﴾ أى : يرجع ، فالوارد : هو الآتى للماء ليشرب ، أو يستقى ، والصادر : هو الراجع عنه .

﴿ **أشتاتا** ﴾ واحدهم : شتيت ، أى : متفرقين متمايزين لا يسير محسنهم ومسيئهم فى طريق واحدة .

(**الذرة**) : النملة الصغيرة ، أو هى الهباء الذى يرى فى ضوء الشمس إذا دخلت من نافذة ، ومثقال الذرة : وزنها ، وهو مَثَلٌ فى الصغر .

التفســـير

قوله تعالى : ﴿ **إذا زلزلت الأرض زلزالها** ﴾ أى : إذا حركت الأرض تحريكا عنيفاً اضطرابا شديداً ، واهتزت بمن عليها أهتزازا يقطع القلوب ويفزع الألباب كما قال تعالى : ﴿ **ياأيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شىء عظيم . يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد** ﴾[٢]

وقوله تعالى : ﴿ **وأخرجت الأرض أثقالها** ﴾ : يعنى ألقت ما فيها من الموتى ، قاله غير واحد من السلف ، وهذه كقوله تعالى : ﴿ **وإذا الأرض مدت . وألقت ما فيها وتخلت . وأذنت لربها وحقت** ﴾[٣]

وقال مسلم فى صحيحه : عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ـ تقىء الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوان من الذهب والفضة ، فيجىء القاتل فيقول : فى هذا قَتَلْت ، وجىء القاطع فيقول : فى هذا قطعت ، ويجىء السارق فيقول : فى هذا قُطِعَتْ يدى ، ثم يَدَعُونَهُ فلا يأخذون منه شيئاً »[٤]

---

(١) من الآية : ٦٨ من سورة النحل .
(٢) الآيتان : ١ ، ٢ من سورة الحج .
(٣) الايات : ٣ ـ ٥ من سورة الأنشقاق .
(٤) أخرجه مسلم فى صحيحه فى (كتاب الزكاة) باب الترغيب فى الصدقة قبل ألا يوجد من يقبلها حـ٢ ص٧٠١ رقم ١٠١٣/٦٢

وقوله ـ عز وجل ـ ﴿ وقال الإنسان مالها ؟ ﴾ أى : أستنكر أمرها بعد ما كانت قارَّة ثابتة وهو مستقر على ظهرها ، أى : تقلبت الحال فصارت متحركة مضطربة قد جاءها من أمر الله تعالى ما قد أعده لها من الزلزال الذى لا محيد لها عنه ، ثم القت ما فى بطنها من الأموات الأولين والآخرين ، وحينئذ أستنكر الناس أمرها ، وتبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار .

وقوله تعالى : ﴿ يومئذ تحدث أخبارها ﴾

أخرج أحمد والترمذى والنسائى ـ واللفظ له ـ عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قرأ رسول الله ـ ﷺ ـ هذه الآية ﴿ يومئذ تحدث أخبارها ﴾ قال : أتدرون ما أخبارها ؟ » قالوا . الله ورسوله أعلم . قال : « فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها ، أن تقول : عمل كذا وكذا يوم كذا وكذا وكذا ، فهذه أخبارها »[1] (حديث حسن صحيح)

وفى معجم الطبرانى من حديث ابن هليعة : حدثنى الحارث بن يزيد : سمع ربيعة الجرشى أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « تحفظوا من الأرض فإنها أمكم ، وإنه ليس من أحد عاملٌ عليها خيرا أو شرّاً إلا وهى مخبرة »[2]

قال القرطبى : قال الماوردى : قوله : ﴿ يومئذ تحدث أخبارها ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : ﴿ تحدث أخبارها ﴾ بأعمال العباد على ظهرها ، قاله أبو هريرة ورواه مرفوعاً . وهو قول من زعم أنها زلزلة القيامة .

الثانى : ﴿ تحدث أخبارها ﴾ بما أخرجت من أثقالها ، قاله يحيى بن سلام ، وهو قول من زعم أنها زلزلة أشراط الساعة الثالث . أنها تحدث بقيام الساعة إذا قال الإنسان مالها ، قاله ابن مسعود فتخبر أن أمر الدنيا قد انقضى وأمر الآخرة قد أتى . فيكون ذلك منها جواباً لهم عند سؤالهم ، ووعيداً للكافر ، وإنذاراً للمؤمن .

وقوله تعالى : ﴿ بأن ربك أوحى لها ﴾ قال البخارى : أوحى لها ، وأوحى إليها ، ووحى لها ، ووحى إليها واحد . قال ابن كثير : والظاهر أن هذا مضمن بمعنى أذن لها . وقال مجاهد : أوحى لها ، أى : أمرها ، وقال القرطبى : أمرها أن تنشق عنهم .

وقوله تعالى ﴿ يومئذ يصدر الناس أشتاتا ﴾ أى : يرجعون عن موقف الحساب أشتاتا ، أى : أنواعاً وأصنافاً ما بين شقى وسعيد ، ومأمور به إلى الجنة ، ومأمور إلى النار وكان ابن عباس يقول : ﴿ أشتاتاً ﴾ متفرقين على قدر أعمالهم : أهل الإيمان على حدة ، وأهل كل دين على حدة .

---

(١) أخرجه الامام أحمد فى سنده (مسند أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ) حـ ٢ ص ٣٧٤

(٢) أخرجه فى مجمع الزوائد فى (كتاب الطهارة) باب المحافظة على الأخذ ، حـ ٢٤١ وقالالهثمى : رواه الطبرانى فى الكبير ، وفيه ابن لهيعة وهو ضعيف .

وقيل : هذا الصدق إنما هو عند النشور ، يصدرون أشتاتا من القبور ، فيصار بهم إلى موقف الحساب ﴿ ليروا أعمالهم ﴾ فى كتبهم ، أو ليروا جزاء أعمالهم .

وقوله تعالى ﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرًّا يره** ﴾

سمى رسول الله - ﷺ - الجامعة الفاذة حين سئل عن زكاة الحُمرُ فقال : ما أنزل الله فيها شيئا إلا هذه الآية الفاذة الجامعة : ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرًّا يره ﴾
(أخرجه البخارى) وقال ابن مسعود : هذه أحكم آية فى القرآن ، وصدق وروى عن كعب الأحبار أنه قال : لقد أنزل الله على محمد آيتين أحصتا ما فى التوراة والإنجيل والزبور والصحف : ﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرًّا يره** ﴾

وقال الإمام أحمد : عن صعصعة بن معاوية عم الفرزدق أنه أتى النبى - ﷺ - فقرأ عليه ﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرًّا يره** ﴾ **قال : حسبى لا أبالى أن لا أسمع غيرها وهكذا رواه النسائى .**

وفى صحيح البخارى عن عدى مرفوعاً « اتقوا النار ولو بشق تمرة » ولو بكلمة طيبة »[١]

وله أيضاً فى الصحيح : « لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تُفْرِغَ من دلوك فى إناء المستسقى ولو أن تلقى أخاك ووجهكِ إليه منبسط »[٢]

وأخرج مسلم عن أبى ذر - رضى الله عنه - قال : قال لى النبى - ﷺ - « لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طليق »[٣]

وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - « يانساء المسلمات : لا تحقرن جارة لجارتها ولو فرسن شاه »[٤] متفق عليه .

وعنه أيضا أن رسول الله - ﷺ - قال : بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش ، فوجد بئراً فنزل فيها فشرب ، ثم خرج فإذا كلب يلهث عطشا يأكل الثرى من العطش ، فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثلُ الذى كان قد بلغ منى ، فنزل البئر فملأ خفه ماء ثم أمسكه بفيه ، حتى رقى

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه فى (كتاب المسافاة) حـ ٣ ص ١٤٩ طبع الشعب .
(٢) رواه البخارى فى صحيحه فى (كتاب الزكاة) باب : اتقوا الله ولو بشق تمرة ... الخ ، وليس فيه : « ولو بكلمة طيبة » رواه .
(٣) أخرجه الامام أحمد فى مسند فى (أبى قيمة الهجيمى) حـ ٣ ص ٤٨٣ بمعناه .
(٤) أخرجه مسلم فى صحيحه فى (كتاب البر والصلة والآداب) باب استحباب طلاقة الوجه عند اللقاء حـ ٤ ص ٢٠٢٦ رقم ٢٦٢٦/١١٤

فسقى الكلب ، فشكر الله له فغفر له » قالوا : يارسول الله إن لنا فى البهائم أجراً ؟ فقال : « فى كل كبد رطبة أجر »[١] متفق عليه .

وعنه أيضاً عن النبى - ﷺ - قال : « لقد رأيت رجلاً يتقلب فى الجنة فى شجرة قطعها من ظهر الطريق كانت تؤذى المسلمين »[٢] رواه مسلم .

وفى رواية له : « بينما رجل يمشى بطريق وجد غصن شوك على الطريق فأخره فشكر الله له ، فغفر له »[٣]

وعن أبى موسى - رضى الله عنه - عن النبى - ﷺ - قال : « على كل مسلم صدقة » قال : أرأيت إن لم يجد ؟ قال : « يعمل بيده فينفع نفسه ويتصدق » قال : أرأيت إن لم يستطع ؟ قال : « يعين ذا الحاجة الملهوف » قال : أرأيت إن لم يستطع . قال : « يأمر بالمعروف ، أو الخير » قال أرأيت إن لم يفعل ؟ قال : « يمسك عن الشر فإنها صدقة »[٤]

فقوله تعالى : ﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره** ﴾ أى : فمن يفعل من الخير زنة ذرة من التراب يجده فى صحيفته يوم القيامة ، ويلق جزاءه عليه ﴿ **ومن يعمل مثقال ذرة شرّاً يره** ﴾ أى : ومن يفعل من الشر زنة ذرة من التراب يجده كذلك ويلق جزاءه عليه .

قال القرطبى : وهذا مَثَلٌ ضربه الله - تعالى - للدلالة على أنه لا يغفل من عمل ابن آدم صغيرة ولا كبيرة ، وهو مثل قوله تعالى : ﴿ **ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين** ﴾[٥]

وقال الإمام أحمد بسنده عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله - ﷺ - « قال إياكم ومحقرات الذنوب فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه . فإن رسول الله - ﷺ - ضرب لهن مثلاً كمثل قوم نزلوا أرض فلاة فحضر صنيع القوم ، فجعل الرجل ينطلق فيجىء بالعود ، والرجل يجىء بالعود حتى جمعوا سواداً وأججوا ناراً وأنضجوا ما قذفوا فيها.

---

(١) أنظر اللؤلؤ والمرجان (كتاب الزكاة) باب الحث على الصدقة ولو بالقليل ص ٢١٥ رقم ٦٠٩
(٢) اللؤلؤ والمرجان (كتاب السلام) باب فضل ساقى البهائم المحترمة وإطعامها ص ٥٨٢ رقم ١٤٤٧
(٣) أنظر صحيح مسلم (كتاب البر والصلة والآداب) باب فضل إزالة الأذى عن الطريق حـ ٤ ص ٢٠٢١ رقم ١٩١٤/١٢٩
(٤) أخرجه مسلم فى صحيحه فى (كتاب البر والصلة والآداب) باب فضل إزالة الأذى عن الطريق حـ ٤ ص ٢٠٢١ رقم ١٩١٤/١٥٧
(٥) الحديث فى اللؤلؤ والمرجان (كتاب الزكاة) باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف ص ٢٠٧ رقم ٥٨٩

تفسير سورة العاديات

مقدمة عن السورة :
قال صاحب البصائر :
السورة مكية :
عدد آياتها : إحدى عشر
وكلماتها : أربعون
وحروفها : مائة وستون
فواصل آياتها : على (دار)
سميت سورة العاديات لمفتتحها مقصود السورة :

بيان شرف الغزاة فى سبيل الله ، وذكر كفران الإنسان الخير عن اطلاع الملك الديان ، على الإسرار والإعلان ، وذم محبة ما هو فان ، والخبر عن إحياء الأموات بالأجساد والأبدان ، وأنه - تعالى - خبير بما للخلق من الطاعة والعصيان .

المتشابهات :

قوله تعالى : ﴿ **والعاديات** ﴾ أقسم بثلاثة أشياء : العاديات ، والموريات ، والمغيرات ، وجعل جواب القسم أيضاً ثلاثة اشياء : إن الإنسان لربه لكنود ، وإنه على ذلك لشهيد ، وإنه لحب الخير لشديد .

مناسبة السورة لما قبلها .
أنه لما ذكر هناك الجزاء على الخير والشر أتبعه تعنيف الذين يؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة ، ولا يستعدون لحياتهم الثانية بتعويد أنفسهم فعل الخير . .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ * أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾

معانى المفـــردات :

﴿ **العاديات** ﴾ واحدها عادية من العدو وهو الجرى .

﴿ **ضبحاً** ﴾ الضبح : صوت أنفاس الخيل حين الجرى .

قال عنترة :

والخيل تكدح حين تضبح فى حياض الموت ضبحاً .

﴿ **والموريات** ﴾ : واحدها مورية من الإيراء وهو إخراج النار ، تقول : أورى فلان إذا أخرج النار بزند ونحوه .

﴿ **قدحاً** ﴾ : القدح : الضرب لإخراج النار كضرب الزناد بالحجر .

﴿ **المغيرات** ﴾ : واحدها مغيرة من أغار على العدو إذا هجم عليه بغتة ليقتله أو يأسره . .

﴿ **فأثرن** ﴾ : الإثارة التهييج وتحريك الغبار .

﴿ **نقعاً** ﴾ : النقع الغبار .

﴿ **وسطن** ﴾ : أى : توسطن . تقول وسطت القوم أوسطهم .

﴿ **وسْطاً** ﴾ : إذا صرت فى وسطهم .

﴿ **لكنود** ﴾ : الكفور : الجحود .

وأصل الكنود الأرض التى لا تنبت شيئاً ، شبه بها الإنسان الذى يمنع الخير ويجحد ما عليه من واجبات .

﴿ الشهيد ﴾ أى : لشاهد على كنوده وكفره بنعمة ربه .

﴿ الخير ﴾ : هنا المال كما جاء فى قوله : ﴿ إن ترك خيراً ﴾ .

﴿ لشديد ﴾ : أى : لبخيل .

﴿ بعثر ﴾ أى : بعثت وأثيرت .

﴿ حصل ﴾ أى : أظهر محصلاً مجموعاً .

﴿ ما فى الصدور ﴾ أى : ما فى القلوب من العزائم والنوايا .

التفسير

قوله تعالى :

﴿ والعاديات ضبحاً ، فالموريات قدحاً ، فالمغيرات صبحاً ، فأثرن به نقعاً ، فوسطن به جمعاً ﴾ .

أقسم سبحانه وتعالى بالخيل التى لها هذه الصفات والتى تعمل تلك الأعمال ، ليعلى من شأنها فى نفوس عباده المؤمنين أهل الجد والعمل ، وليعنوا بتربيتها وتعويدها الكر والفر قال تعالى : ﴿ وأعدو لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ﴾[1] . الآية .

فقوله تعالى : ﴿ والعاديات ضبحاً ﴾ قال القرطبى : قال عامة المفسرين وأهل اللغة ، أى : تعدو فى سبيل الله فتضبح .

قال قتادة : تضبح إذا عدت ، أى : تحمحم .

وممن قال : إن المراد بالعاديات الخيل : ابن عباس وأنس والحسن ومجاهد . والمراد الخيل التى يغزو عليها المؤمنون .

وقوله تعالى : ﴿ فالموريات قدحاً ﴾ قال عكرمة وعطاء والضحاك : هى الخيل حين تورى النار بحوافرها ، وهى سنابكها ، وروى عن ابن عباس : وأصل القدح الاستخراج ومنه اقتدحت بالزند ، والمقدحة ما تقدح به النار .

والقداح الحجر الذى يورى النار .

وقيل : إنها نيران المجاهدين إذا كثرت نارها إرهاباً . وكل من قرب من العدو يوقد نيراناً كثيرة ليظنهم العدو كثيراً . فهذا إقسام بذلك . قال القرطبى : وهذا مجاز والقول الأول حقيقة وأن الخيل من شدة عددها تقدح النار بحوافرها .

وقوله تعالى : ﴿ فالمغيرات صبحاً ﴾ .

---

(١) سورة الأنفال الآية : ٦٠

أقسم بالخيل تغير على العدو عند الصبح ، وكانوا إذا أرادوا الغارة سروا ليلاً ويأتون العدو صبحاً ، لأن ذلك وقت غفلة الناس . ومنه قوله تعالى : ﴿ فساء صباح المنذرين ﴾(١) .

وقوله تعالى : ﴿ فأثرن به نقعاً ﴾ .

ألأ : غباراً ، يعنى الخيل تثير الغبار بشدة العدو فى المكان الذى أغارت به .

قال حسان بن ثابت :

عدمنا خيلنا إن لم تروها تثير النقع موعدها كداء

وقوله تعالى : ﴿ فوسطن به جمعاً ﴾ أى : فوسطن بركبانهن العدو أى : الجمع الذى أغاروا عليهم .

قال القرطبى :

قال ابن العربى : أقسم الله بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : ﴿ يس : والقرآن الحكيم ﴾(٢) وأقسم بالخيل وصهيلها وغبارها وقدح حوافرها النار من الحجر فقال : ﴿ والعاديات ضبحاً ﴾ الآيات الخمس .

فأقسم سبحانه وتعالى بأقسام ثلاثة على أمور ثلاثة ، تعظيماً للمقسم به وهو خيل المجاهدين فى سبيل الله ، التى تسرع على أعداء الله ، وتقدح النار بحوافرها ، وتغير على الأعداء وقت الصباح ، فتثير الغبار ، وتتوسط العدو فتصيبه بالرعب والفزع ، أما الأمور التى أقسم عليها فهى قوله تعالى :

﴿ إن الإنسان لربه لكنود ، وإنه على ذلك لشهيد ، وإنه لحب الخير لشديد ﴾ .

أى : إن الإنسان لجاحد لنعيم ربه ، شديد الكفران كما قال تعالى : ﴿ إن الإنسان لظلوم كفار ﴾(٣) . قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : الكنود : هو الكفور ، وقيل : هو البخيل الذى يمنع رفده ويجيع عبده ولا يعطى فى النائبة ، وقال الحسن : هو اللوام لربه ، يعد المصائب وينسى النعم .

وفى هذا يقول الشاعر :

يا أيها الظالم فى فعله والظلم مردود على من ظلم

إلى متى أنت وحتى متى تشكو المصيبات وتنسى النعم

وقال أبو بكر الواسطى : الكنود الذى ينفق نعم الله فى معاصى الله . وقال الترمذى : الذى يرى النعمة ولا يرى المنعم .

قال القرطبى : هذه الأقوال كلها ترجع إلى معنى الكفران والجحود .

وقوله تعالى : ﴿ وإنه على ذلك لشهيد ﴾ أى : وإن الإنسان لشاهد على كنوده ، لا يقدر أن يجحده لظهور أثره عليه .

---

(١) سورة الصافات من الآية : ١٧٧
(٢) سورة يس الآيتان : ١ ، ٢
(٣) سورة ابراهيم من الآية : ٣٤

وقوله تعالى : ﴿ **وإنه لحب الخير لشديد** ﴾ أى : وإنه لشديد الحب للمال حريص على جمعه ، فوصف سبحانه الإنسان بكفران نعم ربه ، وبخله بما آتاه من الخير ، فلا هو شكور للنعم ، ولا محسن إلى خلقه ، بل بخيل بشكره ، بخيل بماله ، وهذا ضد المؤمن الكريم فإنه مخلص لربه ، محسن إلى خلقه ، فالمؤمن له الإخلاص والإحسان ، والفاجر له الكفر والبخل وقد ذم الله ـ تعالى ـ هذين الخلقين المهلكين فى غير موضع من كتابه كقوله : ﴿ **فويل للمصلين ، الذين هم عن صلاتهم ساهون ، الذين هم يراءون ويمنعون الماعون** ﴾[1] ، فالرياء ضد الإخلاص ، ومنع الماعون ضد الإحسان . وكذلك قوله تعالى : ﴿ **إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً ، الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله** ﴾[2] فاختياله وفخره من كفره وكنوده ونظيره أيضاً ما تقدم فى سورة الليل من ذم المستغنى البخيل ، ومدح المعطى المصدق بالحسنى .

قوله تعالى : ﴿ **أفلا يعلم إذا بعثر ما فى القبور ، وحصل ما فى الصدور ، إن ربهم بهم يومئذ لخبير** ﴾ .

ثم قال تبارك وتعالى مزهداً فى الدنيا ومرغباً ومنبهاً على ما هو كائن بعد هذه الحال وما يستقبله الإنسان من الأهوال : ﴿ **أفلا يعلم إذا بعثر ما فى القبور ؟** ﴾ أى : أخرج ما فيها من الأموات ﴿ **وحصل ما فى الصدور** ﴾ قال ابن عباس وغيره : (حصل) أى : أبرز وأظهر ما كانوا يسرون فى نفوسهم ﴿ **إن ربهم بهم يومئذ لخبير** ﴾ أى : العالم بجميع ما كانوا يصنعون ويعملون ومجاز بهم عليه أوفر الجزاء ولا يظلم مثقال ذرة . ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ **وإذا القبور بُعثرت علمت نفس ما قدمت وأخرت** ﴾[3] .

قال الإمام ابن القيم فى هذه الآية الكريمة : « خوف سبحانه وتعالى الإنسان الذى هذا وصفه حين يبعثر ما فى القبور ، ويحصل ما فى الصدور أى ميز وجمع وبين وأظهر ونحو ذلك وجمع سبحانه بين القبور والصدور كما جمع بينهما النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى قوله : « ملأ الله بيوتهم وقبورهم »[4] فإن الإنسان يوارى صدره ما فيه من الخير والشر ويوارى قبره جسمه ، فيخرج الرب جسمه من قبره ، وسره من صدره ، فيصير جسمه بارزاً على الأرض ، وسره بادياً على وجهه كما قال تعالى : ﴿ **يعرف المجرمون بسيماهم** ﴾[5] وقال : ﴿ **سنسمه على الخرطوم** ﴾[6]

---

(١) سورة الماعون من الآية : ٤ حتى ٧

(٢) سورة النساء الآيتان : ٣٦ ـ ٣٧

(٣) سورة الانفطار الآيتان : ٤ ، ٥

(٤) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان رقم ٣٦٥

(٥) سورة الرحمن الآية : ٤١

(٦) سورة القلم الآية : ١٦

تفسير سورة القارعة

مقدمـــــة :

قال صاحب البصائر :

السورة مكية :

عدد آياتها : إحدى عشرة .

وكلماتها : ست وثلاثون .

وحروفها : مائة وخمسون .

وفواصل آياتها : (ستة) .

سميت سورة القارعة لمفتتحها .

مقصود السورة :

بيان هيبة العرصات ، وتأثيرها فى الجمادات والحيوانات وذكر وزن الحسنات ، والسيئات ، وشرح عيش أهل الدرجات وبيان حال أصحاب الدركات فى قوله : ﴿ **نار حامية** ﴾ .

المتشابهات :

قوله تعالى : ﴿ **فأما من ثقلت موازينه** ﴾ ثم ﴿ **وأما من خفت موازينه** ﴾ جمع ميزان . وله كفتان وعمود ولسان . وإنما جمع لاختلاف الموزونات ، وتحدد الوزن ، وكثرة الموزون ، أو جمع على أن كل جزء منه بمنزلة ميزان والله أعلم .

مناسبة السورة لما قبلها :

إن آخر السابقة كان فى وصف يوم القيامة ، وهذه السورة الكريمة ، بأسرها فى وصف ذلك اليوم وما يكون فيه من الأهوال .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾

معانى المفــردات

(القارعة) من أسماء القيامة كالحاقة والواقعة والصاخة والطامة والغاشية ، وسميت بذلك لأنها تقرع القلوب بهولها .

﴿ كالفراش ﴾ : هو طير كالبعوض يتهافت فى النار .
﴿ المبثوث ﴾ : المتفرق المنتشر .
﴿ كالعهن ﴾ : كالصوف المصبوغ بألوان مختلفة .
﴿ المنفوش ﴾ : المفرق بالأصابع ونحوها .
﴿ ثقلت موازينه ﴾ : رجحت مقادير حسناته .
﴿ خفت موازينه ﴾ : رجحت مقادير سيئاته .
﴿ فأمه هاوية ﴾ : فمأواه جهنم يهوى فيها .
﴿ ماهية ﴾ : ما هى ـ والهاء للسكت .

التفســـــير

قوله تعالى : ﴿ القارعة ، ما القارعة ، وما أدراك ما القارعة ﴾ .
أى : القيامة وأى شيء هى القيامة ؟ كلمة استفهام على جهة التعظيم والتفخيم لشأنها ، كما قال تعالى : ﴿ الحاقة ، ما الحاقة ، وما أدراك ما الحاقة ﴾[(١)] .
وقوله تعالى : ﴿ وما أدراك ما القارعة ﴾ أى : أى شيء وأعلمك ما شأن القارعة فى هولها على النفوس ؟
قال أبو السعود : سميت القيامة قارعة لأنها تقرع القلوب والأسماع بفنون الأهوال والأفزاع .
وبعد هذا التخويف والتشويق إلى معرفة شيء من أحوالها جاء التوضيح والبيان بقوله تعالى :
﴿ يوم يكون الناس كالفراش المبثوث ﴾ أى ذلك يحدث عندما يخرج الناس من قبورهم فزعين ، كأنهم فراش متفرق منتشر هنا وهناك ، يموج بعضهم فى بعض من شدة الفزع والحيرة . وفحو الآية قوله تعالى : ﴿ يوم يدع الداع إلى شيء نكر ، خشعاً أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر مهطعين إلى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر ﴾[(٢)] .

---

(١) سورة الحاقة الآيات : من ١ إلى ٣
(٢) سورة القمر الآيات : من ٦ إلى ٨

قال الرازى : شبه تعالى الخلق وقت البعث ههنا بالفراش المبثوث ، وفى آية أخرى بالجراد المنتشر ، أما وجه التشبيه بالفراش ، فلأن الفراش إذا ثار لم يتجه إلى جهة واحدة ، بل كل واحدة منها تذهب إلى غير جهة الأخرى ، فدل على أنهم إذا بعثوا فزعوا : وأما وجه التشبيه بالجراد فهو فى الكثرة ، يصبحون كغوغاء الجراد يركب بعضه بعضا فكذلك الناس إذا بُعثوا يموج بعضهم فى بعض كالجراد والفراش كقوله تعالى : ﴿ **وتركنا بعضهم يومئذ يموج فى بعض ونُفخ فى الصور فجمعناهم جمعاً** ﴾[1] .

وقوله تعالى : ﴿ **وتكون الجبال كالعهن** ﴾ هذا هو الوصف الثانى من صفات ذلك اليوم المهول ، أى : وتصير الجبال كالصوف المنتثر المتطاير ، تتفرق أجزاؤها وتتطاير فى الجو ، حتى تكون كالصوف المتطاير عند الندف قال الصاوى : وإنما جمع بين حال الناس وحال الجبال ، تنبيهاً على أن تلك القارعة أثرت فى الجبال العظيمة الصلبة ، حتى تصير كالصوف المندوف مع كونها غيرمكلفة ، فكيف حال الإنسان الضعيف المقصود بالتكليف والحساب !!

ثم ذكر تعالى حالة الناس فى ذلك اليوم ، وإنقسامهم إلى شقى وسعيد فقال تعالى : ﴿ **فأما من ثقلت موازينه** ﴾ أى : رجحت موازين حسناته ، وزادت حسناته على سيئاته ﴿ **فهو فى عيشة راضية** ﴾ أى : فهو فى عيش هنيىء رغيد سعيد فى جنان الخلد والنعيم . ﴿ **وأما من خفت موازينه** ﴾ أى : نقصت حسناته عن سيئاته ، أو لم يكن له حسنات يعتد بها . ﴿ **فأمه هاوية** ﴾ أى : فمسكنه ومصيره نار جهنم يهوى فى قعرها ، سماها أماً لأن الأم مأوى الولد ومفزعه ، فنار جهنم تؤوى هؤلاء المجرمين كما يأوى الأولاد إلى أمهم ، وتضمهم إليها كما تضم الأم الأولاد . قال أبو السعود : (هاوية) اسم من أسماء النار ، سميت بها لغاية عمقها وبعد مهواها قال ابن زيد وقال قتادة : معنى (فأمه هاوية) فمصيره إلى النار وقال عكرمة : لأنه يهوى فيها على أم رأسه .

قال القرطبى : والمعنى متقارب . .

وقوله تعالى : ﴿ **وما أدراك ما هيه** ﴾ الأصل « ما هى » فدخلت الهاء للسكت . استفهام للتفخيم والتهويل أى : وما أعلمك ما الهاوية ؟ ثم فسرها بقوله تعالى : ﴿ **نار حامية** ﴾ أى : هى نار شديدة الحرارة ، قد خرجت عن الحد المعهود ، فإن حرارة أى نار إذا سعرت وألقى فيها أعظم الوقود لا تعادل حرارة جهنم ، أجارنا الله منها بفضله وكرمه .

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « ناركم هذه التى يوقد ابن آدم جزء من سبعين جزءاً من حر جهنم » قالوا والله إن كانت لكافية يا رسول الله . قال « فإنها فضلت عليها بتسعة وستين جزء ا كلها مثل حَرِّها »[2] . وروى عن أبى بكر الصديق أنه قال : إنما ثقل ميزان من ثقل ميزانه لأنه وضع فيه الحق ، وحق لميزان يكون فيه الحق أن يكون ثقيلاً ، وإنما خف ميزان من خف ميزانه لأنه وضع فيه الباطل ، وحق لميزان يكون فيه الباطل أن يكون خفيفاً .

---

(١) سورة الكهف الآية : ٩٩

(٢) صحيح مسلم ـ كتاب الجنة وصفة نعيمها ٢٨٤٣/٤

تفسير سورة التكاثر

مقدمة :

قال صاحب البصائر :

قال :

السورة : مكيّة .

وآياتها : ثمان .

وكلماتها : ثمان وعشرون .

وحروفها : مائة وعشرون .

فواصل آياتها : (نمر) .

سميت سورة التكاثر لمفتتحها .

مقصود السورة :

معظم مقصود السورة : ذُم المقبلين على الدنيا والمفتخرين بالمال ، وبيان أن عاقبة الكل الموت والزوال وأن نصيب الغافلين العقوبة والنكال ، وأعد للمتمولين المذلة والسؤال ، والحساب والوبال فى قوله : ﴿ لتسئلن يومئذ عن النعيم ﴾ .

المتشابهات :

(كلا) فى المواضع الثلاثة فيه قولان : أحدهما أن معناه ، الردع والزجر عن التكاثر ، فيحسن الوقف عليه والابتداء بما بعده ، والثانى يجرى مجرى القسم ومعناه : حقاً

قوله تعالى : ﴿ سوف تعلمون ﴾ وبعده ﴿ سوف تعلمون ﴾ تكرار للتأكيد عند بعضهم وعند بعضهم : هما فى وقتين فى القبر والقيامة . فلا يكون تكراراً .

وقوله : ﴿ لترون الجحيم ثم لترونها ﴾ تأكيد أيضاً . وقيل : الأول قبل الدخول . والثانى بعد الدخول ، ولهذا قال بعده : ﴿ عين اليقين ﴾ أى : عياناً ، لستم عنها بغائبين وقيل : الأول من رؤية العين ، والثانى من رؤية القلب .

مناسبة السورة لما قبلها :

أنه فى الأول وصف القيامة ، وبعض أهوالها وجزاء الأخيار والأشرار ، وأن فى هذه ذكر الجحيم وهى الهاوية التى ذُكرت فى السورة السابقة ، وذكر السؤال ، عما قدم المرء من الأعمال فى الحياة الدنيا ، وهنا بعض أحوال الآخرة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴿٨﴾

معانى المفردات

﴿ **ألهاكم** ﴾ : شغلكم عن طاعة ربكم .
﴿ **التكاثر** ﴾ : التباهى بكثرة متاع الدنيا .
﴿ **زرتم المقابر** ﴾ : متم ودفنتم فى القبور .
﴿ **لو تعلمون علم اليقين** ﴾ : لو تعلمون مآلكم علماً يقيناً لما ألهاكم من التكاثر .
﴿ **لترون الجحيم** ﴾ : والله لترون الجحيم .
﴿ **عين اليقين** ﴾ : نفس اليقين وهو المشاهدة .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر** ﴾ .

أخبر سبحانه أن التكاثر شغل أهل الدنيا وألهاهم عن الله والدار الآخرة حتى حضرهم الموت فزاروا المقابر ، ولم يفيقوا من رقدة إلهاء التكاثر .

قال ابن القيم رحمه الله : ولم يعين سبحانه المتكاثر به ، بل ترك ذكره ، إما لأن المذموم هو نفس التكاثر بالشىء ، لا المتكاثر به كما يقال ؛ شغلك اللعب واللهو ، ولم يذكر ما يلعب ويلهو به ، وإما إرادة الإطلاق ، وهو كل ما تكاثر به العبد غيره من أسباب الدنيا ، من مال أو جاه أو عبيد ، أو إماء أو أبناء

أو غراس أو علم لا يبتغى به وجه الله ، أو عمل لا يقربه إلى الله . فكل هذا من التكاثر الملهى عن الله والدار الآخرة .

وفى صحيح مسلم من حديث قتادة عن مطرف عن أبيه قال : أتيت النبى - صلى الله عليه وسلم - وهو يقرأ : (ألهاكم التكاثر) قال : « يقول ابن آدم ! مالى . مالى (قال) وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت . أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت »[١]

وفى رواية أخرى « وما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس »[٢] وروى البخارى عن ابن شهاب أخبرنى أنس بن مالك أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « لو أن لابن آدم وادياً من ذهب أحب أن يكون له واديان ولن يملأ فاه إلا التراب ويتوب الله على من تاب »[٣] .

ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ **اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً وفى الآخرة عذاب شديد ، ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور** ﴾[٤] وفى الحديث الذى رواه أبو هريرة قال سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : « سيصيب أمتى داء الأمم ، قالوا : يا رسول الله وما داء الأمم ؟ قال : الأشر والبطر والتكاثر والتناجش فى الدنيا والتباغض والتحاسد حتى يكون التغنى »

قوله تعالى : ﴿ **حتى زرتم المقابر** ﴾ أى : حتى أتاكم الموت فصرتم فى المقابر زواراً ترجعون منها كرجوع الزائر إلى منزله من جنة أو نار . يقال لمن مات : قد زار قبره .

وقيل : هذا وعيد . أى : اشتغلتم بمفاخرة الدنيا حتى تزوروا القبور فتروا ما ينزل بكم من عذاب الله - عز وجل - قال ابن القيم فى هذه الآية :

توعد سبحانه من ألهاه التكاثر وعيداً مؤكداً ، إذا عاين تكاثره قد ذهب هباء منثوراً ، وعلم أن دنياه التى كاثر بها إنما كانت خدعاً وغروراً ، فوجد عاقبة تكاثره عليه لا له ، وخسر هنالك تكاثره ، كما خسره أمثاله وبداله من الله ما لم يكن فى حسابه ، وصار تكاثره الذى شغله عن الله والدار الآخرة من أعظم أسباب عذابه ، فعذب بتكاثره فى دنياه ، ثم عذب به فى البرزخ ، ثم يعذب به يوم القيامة . فكان أشقى الناس بتكاثره إذ أفاد منه العطب ، دون الغنيمة والسلامة فلم يفز من تكاثره إلا بأن صار من الأقلين ، ولم يحظ من علوه به فى الدنيا إلا بأن حصل مع الأسفلين .

---

(١) صحيح مسلم - كتاب الزهد والرقائق ٢٩٥٨/٤
(٢) صحيح مسلم - كتاب الزهد والرقائق ٢٩٥٩/٤
(٣) صحيح البخارى - كتاب الرقائق ١١٥/٨ وسنن الترمذى - أبواب الزهد ٣٨٩/٣ رقم ٢٤٤
(٤) سورة الحديد الآية : ٢٠

فياله تكاثرا ما أثقله وزراً ، وما أجلبه من غنى جالباً لكلِ فقر ، وخيراً توصل به إلى كل شر ، يقول صاحبه إذا انكشف عنه غطاؤه : ﴿ يا ليتنى قدمت لحياتى ﴾[1] وعملت فيه بطاعة الله قبل وفاتى . ويقول : ﴿ رب ارجعون لعلى أعمل صالحاً فيما تركت فقيل له : **كلا إنها كلمة هو قائلها تلك كلمته يقولها ، فلا يعول عليها ورجعته يسألها ، فلا يجاب إليها .**

أخبر سبحانه أن سؤال هذا المفرط الرجعة كلمة هو قائلها ، لا حقيقة تحتها ، وأن سجيته وطبيعته تأبى أن تعمل صالحاً ، لو أجيب وإنما ذلك شىء يقوله بلسانه ، وإنه لو رد لعاد لما نهى عنه ، وإنه من الكاذبين .

أخى :

تزود من التقوى فإنك لا تدرى	إذا جن ليل هل تعيش إلى الفجـــر
فكم من صحيح مات من غير علة	وكم من عليل عاش حيناً من الدهر
وكم من صبى يرتجى طول عمره	وقد نسجت أكفانه وهو لا يدرى
وكم من عروس زينوها لزوجها	وقد قبضت أرواحهم ليلة القدر

عذاب القبر ونعيمه

روى الإمام أحمد وابن داود عن البراء بن عازب ـ رضى الله عنه ـ قال : خرجنا مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى جنازة رجل من الأنصار فانتهينا إلى القبر ولم يلحد ، فجلس رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وجلسنا حوله كأنما على رؤوسنا الطير ، فجعل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يرفع بصره وينظر إلى السماء ويخفض بصره وينظر إلى القبر ثم قال « أعوذ بالله من عذاب القبر » قالها مراراً ثم قال : « إن العبد إذا كان فى إقبال من الآخرة وانقطاع عن الدنيا جاءه ملك الموت بجلس عند رأسه فيقول : أخرجى أيتها النفس المطمئنة إلى مغفرة من الله ورضوانه فتخرج نفسه تسيل كما يسيل قطر السقاء ، ثم تنزل ملائكة من السماء بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس ، معهم أكفان من أكفان الجنة وحنوط من حنوطها فيجلسون منه مد البصر فإذا قبضها الملك لم يدعوها فى يده طرفة عين . قال : فذلك قول الله تعالى : ﴿ توفته رسلنا وهم لا يفرطون ﴾[2] ، قال : فتخرج نفسه كأطيب ريح وجدت على وجه الأرض ، فيصعدون بها فلا يأتون على جند فيما بين السماء والأرض إلا قالوا ما هذه الروح فيقال فلان بأحسن أسمائه حتى ينتهوا به إلى أبواب السماء الدنيا فيفتح له ويشيعه من كل سماء مقربوها حتى ينتهى إلى السماء السابعة فيقال اكتبوا له كتابه فى عليين وما أدراك ما عليون كتاب مرقوم يشهده المقربون .. فيكتب

---

(١) سورة الفجر الآية : ٢٤

(٢) سورة الانعام الآية : ٦١

كتابه فى عليين ثم يقال ردوه إلى الأرض فإنى وعدتهم أنى منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى .

قال : فيرد إلى الأرض وتعاد روحه فيأتيه ملكان شديدا الانتهار فينهرانه ويجلسانه فيقولان من ربك وما دينك فيقول : ربى الله ودينى الإسلام ، فيقولان : ما تقول فى هذا الرجل الذى بعث فيكم ؟ فيقول هو رسول الله ، فيقولون ما بيديه ؟ فيقول جاء بالبينات من ربنا فآمنت به وصدقت ، قال : وذلك قول الله تعالى ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ﴾[1] قال : فينادى مناد من السماء : صدق عبدى فألبسوه من الجنة ، وأروه منزلته منها ، فيفسخ له مد البصر ثم قال : ويمثل له عمله فى صورة رجل حسن الوجه ، طيب الريح ، حسن الثياب فيقول : أبشر بما أعد الله لك ، أبشر برضوان الله وجنات النعيم . فيقول : بشرك الله بخير من أنت فوجهك الذى جاء بالخير ، فيقول : هذا يومك الذى كنت توعد أنا عملك الصالح فوالله ما علمتك إلا كنت سريعاً فى طاعة الله ، بطيئاً عن معصية الله فجزاك الله خيراً ، ثم يفتح له باب الجنة وباب من النار فيقال : هذا كان منزلك لو عصيت الله ! بدلك الله به هذا فإذا رأى ما فى الجنة قال : رب عجل قيام الساعة كى أرجع إلى أهلى ومالى . قال فإن كان فاجراً وكان فى إقبال من الآخرة . وانقطاع عن الدنيا جاءه ملك الموت فجلس عند رأسه فقال أخرجى أيتها النفس الخبيثة أخرجى بسخط الله وغضبه فتنزل ملائكة سود الوجوه معهم مسوح من النار فإذا قبضها الملك قاموا فلم يدعوها فى يده طرفة عين ، تتفرق فيستخرجها وقد تقطع منها العروق والعصب كالسفود الكثير الشعب فى الصوف المبلول . فتأخذ من الملك فتخرج كأنتن جيفة وجدت فلا تمر على جند فيما بين السماء والأرض إلا قالوا ما هذه الروح الخبيثة فيقولون هذا فلان بأسوأ أسمائه حتى ينتهوا به إلى السماء الدنيا فلا تفتح لها فيقولون ردوها إلى الأرض إنى وعدتهم أنى منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى . فيرمى به من السماء وتلا هذه الآية ﴿ ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق ﴾[2] . قال : فيعاد فيه الروح ويأتيه ملكان شديدا الانتهار فينهرانه ويجلسانه فيقولان له : من ربك ؟ وما دينك ؟ فيقول : لا أدرى ، فيقولان : ما تقول فى هذا الرجل الذى بعث فيكم ؟ فلا يهتدى لاسمه . فيقال : محمد فيقول : لا أدرى : فيقال له : لا دريت . فيضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه ويمثل له عمله فى صورة رجل قبيح الوجه منتن الريح قبيح الثياب فيقول : أبشر بعذاب الله وسخطه ، فيقول من أنت ؟ فوجهك الذى جاء بالشر فيقول : أنا عملك الخبيث فوالله ما علمتك إلا بطيئاً فى طاعة الله سريعاً إلى المعصية ، قال : فيقيض الله له أصم أبكم ومعه مرزبة لو ضرب بها جبل لصار تراباً فيضربه ضربة فيسمعها الخلائق إلا الثقلين ، ثم يقال أفرشوا له لوحين من نار وافتحوا له باباً إلى النار[3] .

---

(١) سورة ابراهيم الآية : ٢٧

(٢) سورة الحج الآية : ٣١

(٣) مسند أحمد ٢٩٥/٤ ومسند أبي داود ـ كتاب الجنائز ٥٤٦/٣ رقم ٣٢١٢

وأخرج البخارى ومسلم عن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشى ، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار ، فمن أهل النار ، فيقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة »[١] .

وقال هانىء مولى عثمان بن عفان قال : كان عثمان ـ رضى الله عنه ـ إذا وقف على قبر يبكى حتى تبتل لحيته فقيل له تذكر الجنة والنار فلا تبكى وتذكر القبر فتبكى فقال : إنى سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : « إن القبر أول منزل من منازل الآخرة ، فإن نجا منه فما بعده أيسر منه وإن لم ينج منه فما بعده أشد منه ، قال : وسمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : « ما رأيت منظراً قط إلا والقبر أفظع منه » . رواه الترمذى[٢] .

وفى صحيح مسلم ، عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه كان يعلمهم هذا الدعاء كما يعلمهم السورة من القرآن يقول قولوا : « اللهم إنى أعوذ بك من عذاب جهنم ،وأعوذ بك من عذاب القبر ، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال ، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات »[٣] .

قوله تعالى : ﴿ كلَّا سوف تعلمون ، ثُمَّ كلَّا سوف تعلمون ، كلا لو تعلمون علم اليقين ، لترون الجحيم ، ثم لترونها عين اليقين ، ثم لتسألن يومئذ عن النعيم ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ كلَّا سوف تعلمون ، ثم كلَّا سوف تعلمون ﴾ .

(كلا) قال الفراء : أى ليس الأمر على ما أنتم عليه من التفاخر والتكاثر (سوف تعلمون) أى : سوف تعلمون عاقبة هذا . (ثم كلا سوف تعلمون) هذا وعيد بعد وعيد قاله مجاهد قال ابن عباس : (كلاسوف تعلمون) ما ينزل بكم من العذاب فى القبر ، (ثم كلا سوف تعلمون) فى الآخرة إذا حل بكم العذاب . فالأول فى القبر والثانى فى الآخرة .

وقيل : (كلا سوف تعلمون) إذا نزل بكم الموت وجاءتكم رسلى لنزع أرواحكم . (ثم كلا سوف تعلمون) إذا دخلتم قبوركم وجاءكم منكر ونكير ، وحاط بكم هول السؤال وانقطع منكم الجواب .

قال القرطبى : ويحتمل أن يكون التكرار على وجه التأكيد والتغليظ وهو قول الفراء :

وقال ابن القيم فى تفسير هذه الآية : (كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون) .

قيل : تأكيد لحصول العلم كقوله : (كلا سيعلمون ثم كلا سيعلمون) .

وقيل : ليس تأكيداً ، بل العلم الأول عند المعاينة ونزول الموت . والعلم الثانى فى القبر . وهذا قول الحسن ومقاتل ورواه عطاء عن ابن عباس .

ويدل على صحة هذا القول : عدة أوجه .

---

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ـ كتاب الجنة وصفة نعيمها رقم ١٨٢٢

(٢) سنن الترمذى ـ أبواب الزهد ٣٧٩/٣ رقم ٢٤١٠ وقال : حسن غريب

(٣) صحيح مسلم ـ كتاب المساجد ٤١٣/١ رقم ٥٩٠

أحدها : أن الفائدة الجديدة والتأسيس هو الأصل . وقد أمكن اعتباره مع فخامة المعنى وجلالته ، وعدم الإخلال بالفصاحة .

الثانى : توسط « ثم » بين العلمين ، وهى مؤذنة بتراخى ما بين المرتبين زماناً وخطراً .

الثالث : أن هذا القول مطابق للواقع . فإن المحتضر يعلم عند المعاينة حقيقة ما كان عليه ، ثم يعلم فى القبر وما بعده ذلك علماً يقينياً ، هو فوق العلم الأول .

الرابع : أن على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه وغيره ـ من السلف فهموا من الآية عذاب القبر . قال الترمذى بسنده عن على ـ رضى الله عنه ـ قال : « ما زلنا نشك فى عذاب القبر حتى نزلت ألهاكم التكاثر »[1] قال الواجدى . يعنى أن معنى قوله ﴿ **كلا سوف تعلمون** ﴾ فى القبر .

الخامس : أن هذا مطابق لما بعده من قوله : ﴿ **لترون الجحيم ، ثم لترونها عين اليقين** ﴾ فهذه الرؤ ية الثانية غير الأولى من وجهين . إطلاق الأولى ، وتقييد الثانية بعين اليقين وتقدم الأولى وتراخى الثانية عنها . اهـ .

قوله تعالى : ﴿ **كلا لو تعلمون علم اليقين** ﴾ جوابه محذوف ، دل عليه ما تقدم ، أى : لما ألهاكم التكاثر ، وإنما وجد هذا التكاثر وإلهاؤه عما هو أولى بكم لما فقد منكم علم اليقين ، وهو العلم الذى يصل به صاحبه إلى حد الضروريات التى لا يشك ولا يمارى فى صحتها وثبوتها . ولو وصلت حقيقة هذا العلم إلى القلب وباشرته لما ألهاه شىء عن موجبه ، ولترتب أثره عليه . فإن مجرد العلم بقبح الشىء وسوء عواقبه قد لا يكفى فى تركه . فإذا صار علم اليقين كان اقتضاء هذا العلم لتركه أشد . فإذا صار عين اليقين . كجملة المشاهدات ، كان تخف موجبه عنه أندر شىء .

قوله تعالى : ﴿ **لترون الجحيم ، ثم لترونها عين اليقين** ﴾ هذا وعيد آخر . وهو على إضمار القسم ، أى : لترون الجحيم فى الآخرة . ﴿ **ثم لترونها عين اليقين** ﴾ أى : مشاهدة وقيل : هو إخبار عن دوام مقامهم فى النار ، أى : هى رؤ ية دائمة متصلة .

قوله تعالى : ﴿ **ثم لتسئلن يومئذ عن النعيم** ﴾ .

ثم ختم السورة بالإخبار المؤكد بواو القسم ولام التأكيد ، والنون الثقيلة ، عن سؤال النعيم فكل أحد يسأل عن نعيمه الذى كان فيه فى الدنيا . هل ناله من حلاله ووجهه أم لا ؟ فإذا تخلص من هذا السؤال ، سئل سؤالاً آخر . هل شكر الله تعالى ، فاستعان به على طاعته أم لا ؟ كما فى جامع الترمذى من حديث عطاء بن أبى رباح عن ابن مسعود عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال :

---

(١) سنن الترمذى ـ كتاب تفسير القرآن ٤٤٧/٥ رقم ٣٣٥٥

« لا تزول قدما ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يسأل عن خمس : عن عمره : فيما أفناه ؟ وعن شبابه : فيما أبلاه ؟ وعن ماله : من أين أكتسبه ، وفيما أنفقه ؟ وما ذا عمل فيما علم ؟ »[(١)] .

وفيه أيضاً عن أبي برزة قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « لا تزول قدما عبد حتى يسأل عن عمره : فيما أفناه ؟ وعن علمه : فيما فعل ؟ وعن ماله : من أين اكتسبه وفيما أنفقه ؟ وعن جسمه فيما أبلاه ؟ وقال : هذا حديث صحيح[(٢)] .

وفيه أيضاً : من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « أن أول ما يسأل عنه العبد يوم القيامة ـ يعني من النعيم ـ أن يقال له : ألم نصح جسمك ؟ ونرويك من الماء البارد »[(٣)] .

وفيه أيضاً : من حديث الزبير بن العوام ـ رضى الله عنه ـ قال : « لما نزلت ﴿ لتسئلن يومئذ عن النعيم ﴾ قال الزبير : يا رسول الله : فأى النعيم نسأل عنه ، وإنما هو الأسودان : التمر والماء قال : أما إنه سيكون « وقال هذا حديث حسن »[(٤)] .

قال ابن القيم : وقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « إن ذلك سيكون » إما أن يكون المراد به : أن النعيم سيكون ويحدث لكم ، وإما أن يرجع إلى السؤال ، أى : إن السؤال يقع عن ذلك ، وإن كان تمراً وماء ، فإنه من النعيم .

ويدل عليه : قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى الحديث الصحيح :

وقد أكلوا معه رطبا ولحماً ، وشربوا من الماء البارد ـ قال « هذا النعيم الذى تسألون عنه يوم القيامة »[(٥)] فهذا سؤال عن شكره والقيام بحقه .

وأخرج الترمذى من حديث أبى سعيد وأبى هريرة ـ رضى الله عنهما ـ قالا : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « يؤتى بالعبد يوم القيامة ، فيقول الله ـ عز وجل ـ ألم أجعل لك سمعاً وبصراً ، ومالاً وولداً ، وسخرت لك الأنعام والحرث ، وتركتك ترأس ، وتربع ، فكنت تظن أنك ملاقى يومك هذا ؟ قال : فيقول : لا . فيقول له : اليوم أنساك كما نسيتنى » قال الترمذى : هذا حديث صحيح غريب[(٥)] .

وروى أبو الأحوص عن عبد الله عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال : « إن الله تعالى ليعدد على العبد يوم القيامة حتى يعد عليه سألتنى فلانة أن أزوجكها فيسميها باسمها فزوجتكها » .

---

(١) سنن الترمذى ـ كتاب صفة القيامة ٤/٦١٢ رقم ٢٤١٦
(٢) سنن الترمذى ـ كتاب صفة القيامة ٤/٦١٢ رقم ٤١٧
(٣) سنن التلامذى ـ كتاب تفسير القرآن ٥/٤٤٨ رقم ٣٣٥٨
(٤) سنن الترمذى ـ كتاب تفسير القرآن ٥/٤٤٨ رقم ٣٣٥٦
(٥) مسند أحمد ٣/٣٥١
سنن الترمذى ـ كتاب صفة القيامة ٤/٩ رقم ٢٤٢٨

وروى مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : خرج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذات يوم أو ليلة فإذا هو بأبى بكر وعمر ، فقال « ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة » ؟ قالا : الجوع يا رسول الله . قال : « وأنا والذى نفسى بيده لأخرجنى الذى أخرجكما . قوما » فقاما معه ، فأتى رجلاً من الأنصار فإذا هو ليس فى بيته ، فلما رأته المرأة قالت : مرحباً وأهلا . فقال لها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « أين فلان » ؟ قالت : يستعذب لنا من الماء ، إذ جاء الأنصارى فنظر إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصاحبيه ، ثم قال : الحمد لله ما أحد اليوم أكرم أضيافاً منى . قال : فانطلق فجاءهم بعذق فيه بسر وتمر ورطب فقال : كلوا من هذه . وأخذ المدية فقال له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « إياك والحلوب » فذبح لهم فأكلوا من الشاة ومن ذلك العذق ، وشربوا ، فلما أن شبعوا ورووا قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأبى بكر وعمر : « والذى نفسى بيده لتسألن عن هذا النعيم يوم القيامة أخرجكم من بيوتكم الجوع ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم »[1] .

قال ابن القيم رحمه الله : زعم طائفة من المفسرين : أن هذا الخطاب خاص بالكفار ، وأنهم هم المسئولون عن النعيم وذكروا ذلك عن الحسن ومقاتل واختار الواحدى ذلك . وقال : والظاهر يشهد بهذا القول . لأن السورة كلها خطاب للمشركين وتهديد لهم . والمعنى أيضاً يشهد بهذا القول وهو أن الكفار لم يؤدوا حق النعيم عليهم ، حيث أشركوا بربهم وعبدوا غيره ، فاستحقوا أن يسألوا عما أنعم به عليهم ، توبيخاً لهم ، هل قاموا بالواجب فيه ، أم ضيعوا حق النعمة ؟ ثم يعذبون على ترك الشكر بتوحيد المنعم .

قال : وهذا معنى قول مقاتل ، وهو قول الحسن . قال : لا يسأل عن النعيم إلا أهل النار .

قلت : ليس فى اللفظ ولا فى السنة الصحيحة ولا فى أدلة العقل ما يقتضى اختصاص الخطاب بالكفار ، بل ظاهر اللفظ ، وصريح السنة والاعتبار يدل على عموم الخطاب لكل من اتصف بأنه ألهاه التكاثر فلا وجه لتخصيص الخطاب ببعض المتصفين بذلك . ويدل على ذلك : قول النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عند قراءة هذه السورة « يقول ابن آدم : مالى مالى ، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ؟ أو لبست فأبليت . . الحديث » وهو فى صحيح مسلم[2] . وقائل ذلك قد يكون مسلما وقد يكون كافراً .

ويدل عليه أيضاً الأحاديث التى تقدمت ، وسؤال الصحابة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وفهمهم العموم ، حتى قالوا له : « وأى نعيم نسأل عنه ، وإنما هو الأسودان » فلو كان الخطاب مختصاً بالكفار لبين لهم ذلك .

ويدل عليه أيضاً : قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى الحديث الصحيح : وقد أكلوا معه رطباً ولحماً ،

---

(١) صحيح مسلم ـ كتاب الأشربة ٣/١٦١٠ رقم ٢٠٣٨

(٢) صحيح مسلم ـ كتاب الزهد والرقائق ٤/٢٢٧٣ رقم ٢٩٥٨

وشربوا من الماء البارد - قال هذا النعيم الذى تسألون عنه يوم القيامة » والحديث بتمامه فى صحيح مسلم[١] وهذا الحديث صريح فى نعيم الخطاب وأنه غير مختص بالكفار .

وأيضاً : فالواقع يشهد بعدم اختصاصه ، وأن الالهاء بالتكاثر واقع بين المسلمين كثيرا ، بل أكثرهم قد ألهاه التكاثر . وخطاب القرآن عام لمن بلغه ، وإن كان أول من دخل فيه المعاصرون لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - فهو تناول لمن بعدهم . وهذا معلوم من الدين بالضرورة .

فقوله : ﴿ **ألهاكم التكاثر** ﴾ خطاب لكل من اتصف بهذا الوصف . وهم فى الإلهاء والتكاثر درجات لا يحصيها إلا الله .

فإن قيل : فالمؤمنون لم يلههم التكاثر . ولهذا لم يدخلوا فى الوعيد المذكور لمن ألهاه .

قيل : هذا هو الذى أوجب لأرباب هذا القول تخصيصه بالكفار ، لأنه لم يمكنهم حمله على العموم ، ورأوا أن الكفار أحق بالوعيد ، فخصوهم به .

وجواب هذا : أن الخطاب للإنسان من حيث هو إنسان ، على طريقة القرآن فى تناول الزم له من حيث هو إنسان كقوله : ﴿ **وكان الإنسان كفورا** ﴾[٢] ﴿ **إن الإنسان لربه لكنود** ﴾[٣] ونظائره كثيرة .

فالإنسان من حيث هو عار عن كل خير من العلم النافع والعمل الصالح . وإنما الله سبحانه هو الذى يكمله بذلك ، ويعطيه إياه . وليس له ذلك من نفسه بل ليس له من نفسه إلا الجهل المضاد للعلم ، والظلم المضاد للعدل وكل عليم وعدل وخير فيه فمن ربه ، لا من نفسه . فإلهاء التكاثر طبيعته وسجيته ، التى هى له من نفسه ، ولا خروج له عن ذلك إلا بتزكية الله له ، وجعله مريداً للآخرة مؤثراً لها على التكاثر بالدنيا . فإن أعطاه ذلك وإلا فهو ملته بالتكاثر فى الدنيا ولابد .

أما احتجاجهم بالوعيد على اختصاص الخطاب بالكفار فيقال :

الوعيد المذكور مشترك : وهو العلم عند معاينة الآخرة فهذا أمر يحصل لكل أحد ، لم يكن حاصلا له فى الدنيا وليس فى قوله : ﴿ **سوف تعلمون** ﴾ ما يقتضى دخول النار فضلاً عن التخليد فيها ، وكذلك رؤية الجحيملا يستلزم دخولها لكل من رآها . فإن أهل الموقف يرونها ، ويشاهدونها عياناً . وقد أقسم الرب - تبارك وتعالى - أن لابد أن يراها الخلق كلهم مؤمنهم وكافرهم ، وبرهم وفاجرهم .

قال تعالى : ﴿ **وإن منكم إلا واردها ، كان على ربك حتماً مقضياً** ﴾[٤] .

---

(١) صحيح مسلم - كتاب الأشربة ١٦٠٩/٣ رقم ٢٠٣٨

(٢) سورة الاسراء الآية : ٢٧

(٣) سورة العاديات الآية : ٦

(٤) سورة مريم الآية : ٧١

فليس فى جملة هذه السورة ما ينفى عموم خطابها . وأما ما ذكروه عن الحسن : لا يسأل عن النعيم إلا أهل النار . فباطل قطعاً إما عليه وإمامته . والأحاديث الصحيحة الصريحة ترده وبالله التوفيق .

ثم قال ابن القيم : ولا يخفى أن مثل هذه السورة مع عظم شأنها وشدة تخويفها . وما تضمنته من تحذير الإنسان عن التكاثر الملهى ، وانطباق معناها على أكثر الخلق يأبى اختصاصها من أولها إلى آخرها بالكفار ، ولا يليق ذلك بها . ويكفى فى ذلك تأمل الأحاديث المرفوعة فيها والله أعلم .

ثم يقول : وتأمل ما فى هذا العتاب الراجع لمن استمر على إلهاء التكاثر له مدة حياته كلها ، إلى أن زار القبور ، ولم يستيقظ من نوم الإلهاء ، بل أرقد التكاثر قلبه فلم يستفق منه إلا وهو فى عسكر الأموات وطابق بين هذا وبين حال أكثر الخلق يتعين لك أن العموم مقصود .

فلله ما أعظمها من سورة ، وأجلها وأعظمها فائدة ، وأبلغها موعظة وتحذيرا ، وأشدها ترغيباً فى الآخرة وتزهيداً فى الدنيا على غاية اختصارها ، وجزالة ألفاظها وحسن نظمها ، فتبارك من تكلم بها حقاً وبلغها رسوله عنه وحياً اهـ .

تفسير سورة العصر

مقدمة عن السورة .

قال صاحب البصائر :

السورة مكية .

عدد آياتها : ثلاث .

وكلماتها : أربع عشرة .

وحروفها ثمان وستون .

فواصل آياتها : على الراء .

وسميت سورة العصر لمفتتحها .

مقصود السورة :

بيان خسران الكفار والفجار ، وذكر سعادة المؤمنين الأبرار ، وشرح حال المسلم الشكور الصبار ، فى قوله : ﴿ وتواصوا بالصبر ﴾ .

المتشابهات :

قوله : ﴿ **وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر** ﴾ كرر لاختلاف المفعولين ، وهما (بالحق) و (بالصبر) .

مناسبة السورة لما قبلها :

أنه ذكر فى السورة السابقة أنهم اشتغلوا بالتفاخر والتكاثر وبكل ما من شأنه أن يلهى عن طاعة الله ، وذكر هنا أن طبيعة الإنسان داعية له إلى البوار ، وموقعه له فى الدمار إلا من عصم الله وأزال عنه شرور نفسه ، فكان هذا تعليل لما سلف .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾

معانى المفـردات

﴿ العصر ﴾ الدهر .

﴿ الإنسان ﴾ هو هذا النوع من المخلوقات .

﴿ خسر ﴾ الخسر والخسران النقصان وذهاب رأس المال ، والمراد به ما ينغمس فيه الإنسان من الآفات المهلكة .

﴿ الحق ﴾هو ما تقرر من حقيقة ثابتة أرشد إليها دليل قاطع ، أو عيان ومشاهدة أو شريعة صحيحة جاء بها نبي معصوم .

﴿ الصبر ﴾ قوة للنفس تدعوها إلى احتمال المشقة فى العمل الطيب وتهون عليها احتمال المكروه فى سبيل الوصول إلى الأغراض الشريفة .

﴿ وتواصوا بالصبر ﴾ التواصى بالصبر : أن يوصى بعضهم بعضاً به ويحثه ولا يكون ذلك نافعاً مقبولاً إلا إذا كمل المرء نفسه به .

التفســـير

قوله تعالى : ﴿ والعصر ﴾ .

أكثر المفسرين على أنه الدهر وهذا هو الراجح وتسمية الدهر عصراً أمر معروف فى لغة العرب .

فأقسم سبحانه وتعالى بالعصر لمكان العبرة والآية فيه . فإن مرور الليل والنهار على تقدير قدرة العزيز العليم منتظم لمصالح العالم على أكمل ترتيب ونظام وتعاقبهما واعتدالهما تارة ، وأخذ أحدهما من صاحبه تارة ، واختلافهما فى الضوء ، والظلام ، والحر ، والبرد ، وانتشار الحيوان ، وسكونه ، وانقسام العصر إلى القرون ، والسنين ، والأشهر ، والأيام ، والساعة وما دونها . آية من آيات الرب ـ تعالى ـ وبرهان من براهين قدرته وحكمته . قال تعالى : ﴿ **وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيء فصلناه تفصيلا** ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ **تبارك الذى جعل فى السماء بروجا وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا** ﴾[2] .

فأقسم سبحانه بالعصر الذى هو زمان أفعال الإنسان ومحلها على عاقبة تلك الأفعال وجزائها ، ونبه بالمبدأ وهو خلق الزمان ، والفاعلين وأفعالهم على المعاد وأن قدرته كما لم تقتصر عن المبدأ ، لم تقتصر عن المعاد وأن حكمه التى اقتضت خلق الزمان وخلق الفاعلين وأفعالهم ، وجعلها قسمين خيراً وشراً تأبى أن يسوى بينهم ، وأن لا يجازى المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته وأن يجعل النوعين رابحين أو خاسرين ،

---

(١) سورة الاسراء الآية : ١٢

(٢) سورة الفرقان الآيتان : ٦١ ، ٦٢

بل الإنسان من حيث هو إنسان خاسر إلا من رحمة الله ، فهداه ووفقه للإيمان والعمل الصالح فى نفسه ، وأمر غيره به . (قاله ابن القيم فى البيان .) .

قوله تعالى : ﴿ **إن الإنسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **إن الإنسان لفى خسر** ﴾ هذا جواب القسم والمعنى إن الإنسان فى خسران ، لأنه يفضل العاجلة على الآجلة وتغلب عليه الأهواء والشهوات .

وقوله تعالى : ﴿ **إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات** ﴾ استثنى ـ سبحانه ـ من جنس الإنسان عن الخسران الذين آمنوا بقلوبهم وعملوا الصالحات بجوارحهم .

قال البخارى بسنده : لقيت أكثر من ألف رجل من العلماء بالأمصار فما رأيت أحداً منهم يختلف فى أن الإيمان قول وعمل ، ويزيد وينقص[1] .

وأخرج أبو نعيم فى الحلية بسنده من طريق عمرو بن عثمان الرقى قال : قيل لابن عيينه : إن قوماً يقولون الإيمان كلام فقال : كان هذا قبل أن تنزل الأحكام ، فأمر الناس أن يقولوا لا إله إلا الله ، فإذا قالوها عصموا دماءهم وأموالهم . فلما علم الله صدقهم أمرهم بالصلاة ففعلوا ولو لم يفعلوا ما نفعهم الإقرار . فذكر الأركان إلى أن قال : فلما علم الله ما تتابع عليهم من الفرائض وقبولهم قال سبحانه ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم** ﴾[2] الآية . فمن ترك شيئاً من ذلك كسلاً أو مجوناً أدبناه عليه وكان ناقص الإيمان ، ومن تركها جاحداً كان كافراً . (انتهى ملخصاً (من كتاب فتح البارى . كتاب الايمان) .

قوله تعالى : ﴿ **وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر** ﴾ .

أى : أوصى بعضهم بعضاً بالحق ، وهو الخير كله ، من الإيمان والتصديق وعبادة الرحمن ﴿ **وتواصوا بالصبر** ﴾ أى : وتواصوا بالصبر على الشدائد والمصائب ، وعلى فعل الطاعات وترك المحرمات ـ حكم تعالى بالخسار على جميع الناس إلا من أتى بهذه الأشياء الأربعة وهى : الإيمان ، والعمل الصالح والتواصى بالحق ، والتواصى بالصبر ، فإن نجاة الإنسان لا تكون إلا إذا كمّل الإنسان نفسه بالإيمان والعمل الصالح ، وكمّل غيره بالنصح والإرشاد ، فيكون قد جمع بين حق الله ، وحق العباد ، وهذا هو السر فى تخصيص هذه الأمور الأربعة .

فهذه السورة الكريمة على غاية اختصارها لها شأن عظيم حتى قال الشافعى ـ رحمه الله ـ : لو فكر الناس كلهم فيها لكفتهم .

---

(١) صحيح البخارى ـ كتاب الايمان ١/١٠

(٢) سورة المائدة الآية : ٣

تفسير سورة الهمزة

مقدمة :

قال صاحب البصائر :

السورة مكية .

وعدد آياتها : تسع .

وكلماتها : ثلاث وثلاثون .

وحروفها : مائة وثلاثون .

فواصل آياتها : على الهاء .

سميت سورة الهمزة ، لمفتتحها ، وسورة الحطمة ، لذكرها فيها .

مقصود السورة :

عقوبة العياب المغتاب ، وذم جمع الدنيا ومنعه وبيان صعوبة العقوبة فى قوله : ﴿ فى عمد ممددة ﴾ .

مناسبة السورة لما قبلها :

إنه سبحانه لما ذكر فى السورة السابقة أن جميع أفراد الإنسان منغمسون فى الضلال إلا من عصم الله ـ ذكر هنا بعض صفات أهل الضلال .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ﴿٣﴾ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ﴿٩﴾

معانى المفــردات

﴿ ويل ﴾ أى : خزى وعذاب ، وهو لفظ يستعمل فى الذم والتقبيح .

﴿ همزة لمزة ﴾ والهمزة اللمزة : الذى يطعن فى أعراض الناس ويظهر عيوبهم ويحقر أعمالهم ، تلذذاً بالحط منهم وترفعاً عنهم ، وأصل الهمز : الكسر يقال همز كذا : أى كسره وأصل اللمز الطعن ، يقال : لمزة بالرمح : أى : طعنه ثم شاع استعمالها فيما ذكرنا .

﴿ عدده ﴾ : أى : عده مرة بعد أخرى شغفاً به .

﴿ أخلده ﴾ أى : ضمن له الخلود فى الدنيا .

﴿ لينبذن ﴾ : النبذ : الطرح مع الإهانة والتحقير .

﴿ الحطمة ﴾ : سميت بذلك لأنها تحطم العظام وتأكل اللحوم حتى تهجم على القلوب .

﴿ تطلع على الأفئدة ﴾ أى : تعلو أوساط القلوب وتغشاها .

﴿ مؤصدة ﴾ : أى : مطبقة من أوصدت الباب : أى : أغلقته .

﴿ والعمد ﴾ : واحدها عمود .

﴿ ممددة ﴾ أى : مطولة من أول الباب إلى آخره .

التفسـير

قوله تعالى : ﴿ ويل لكل همزة لمزة ﴾ أى : عذاب شديد وهلاك ودمار ، لكل من يعيب الناس ويغتابهم ويطعن فى أعراضهم ، أو يلمزهم سراً بعينه أو حاجبه قال الطبرى : اللمز باليد والعين واللسان والإشارة ، والهمز لا يكون إلا باللسان . وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ ولا تلمزوا أنفسكم ﴾[1] أى لا يعب بعضكم بعضاً .

وفى الحديث الشريف « أتدرون ما الغيبة ؟ ذكرك أخاك بما يكره ، فإن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه فقد بهته[2] » .

---

(١) سورة الحجرات الآية : ١١

(٢) صحيح مسلم ـ كتاب البر والصلة والآداب ٢٠٠١/٤ رقم ٢٥٨٩ وسنن أبى داود ـ كتاب الأدب ١٩١/٥ رقم ٤٨٧٤ وسنن الترمذى ـ كتاب البر باب ما جاء فى الغيبة ٢٢٠/٣ رقم ٩ ح ١

وتكون بالكتابة والإشارة باليد والعين ، والهمزة واللمزة من هذين الجنسين ، ولا ريب أنها مغضبة لعلام الغيوب ، مذهبة للحسنات ، مسودة للقلوب وهى من أعظم الآثام ، لأنها لا تغفر الا بغفران من قيل فيه الكلام . والكلمة منها لو مزجت بماء البحر لأنتنته لنتنها .

من عذابهم خمش الوجوه بأظفار كالنحاس ، قال جبريل « هؤلاء الذين يغتابون الناس » وخطابهم باستقذار أكل لحوم الميتين ، يدل على ورود الجزاء من جنس عمل العاملين . وما النار فى اليابس القديد ، بأسرع من الغيبة فى حسنات العبيد .

أخرج الترمذى عن ابن عمر قال : صعد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ المنبر فنادى بصوت رفيع فقال : يا معشر من قد أسلم بلسانه ولم يفض الإيمان إلى قلبه ، لا تؤذوا المسلمين ولا تعيروهم ولا تتبعوا عوراتهم فإن من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته ، ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو فى جوف رحله(١) .

ونظر ابن عمر يوماً إلى الكعبة فقال : ما أعظمك وأعظم حرمتك ، والمؤمن أعظم حرمة عند الله منك .

وقال جابر بن عبد الله الأنصارى « مثل من صار مغتاباً ، كمن نصب منجنيقاً ، يرمى حسناته به شرقاً وغرباً » فالموفق من احترز من مكايد الشيطان ، وكف لسانه وسمعه عن غيبة الإخوان ، ويصده عن الناس ما يراه من عيب نفسه ، وليشتغل بما يعنيه قبل حلول رمسه .

وللشافعى رضى الله عنه :

إذا شئت أن تحيا سلماً من الردى ودينك موفور وعرضك صِين
فلا ينطقن منك اللسان بسوءة فكلك سوءات وللناس ألسن
وعينك إن أبدت إليك مساوئاً لقوم ، فقل : يا عين للناس أعين
وعاشر بمعروف وسامح من اعتدى ودافع ، ولكن بالتى هى أحسن

قوله تعالى : ﴿ **الذى جمع مالاً وعدده** ﴾ أى : إن الذى دعاه للحط من أقدار الناس هو جمعه للمال وتعديده مرة بعد أخرى ، شغفاً به وتلذذاً بإحصائه ، لأنه يرى أن لا عز إلا به ، ولا شرف بعده ، فهو كلما نظر إلى كثرة ما عنده ظن أنه بذلك قد ارتفعت مكانته ، وهزأ بكل ذى فضل ومزية دونه ، ثم هو لا يخشى أن تصيبه قارعة بهمزه ولمزه وتمزيقه أعراض الناس لأن غروره أنساه الموت ، وأعمى بصيرته عن النظر فى ماله والتأمل فى أحواله .

---

(١) سنن الترمذى ـ كتاب البر والصلة ٣٧٨/٤ رقم ٢٠٣٢

قال محمد بن كعب فى هذه الآية : ﴿ **الذى جمع مالاً وعدده** ﴾ ألهاه ماله بالنهار هذا إلى هذا فإذا كان الليل نام كأنه جيفة منتنة .

قال أبو حاتم محمد بن حبان البستى رحمه الله : الواجب على العاقل أن يقيم مروءته بما قدر عليه ، ولا سبيل إلى إقامة مروءته إلا باليسار من المال ، فمن رزق ذلك وضن بإنفاقه فى إقامة مروءته فهو الذى خسر الدنيا والآخرة ، ولا آمن أن تفجأه المنية فتسلبه عما ملك كريهاً ، وتودعه قبراً وحيداً ، ثم يرث المال بعد من يأكله ولا يحمده وينفقه ولا يشكره ، فأى ندامة تشبه هذه ؟ وأى حسرة تزيد عليها ؟

يا جامع المال فى الدنيا لوارثه هل أنت بالمال قبل الموت منتفع ؟
قدم لنفسك قبل الموت فى مَهَل فإن حظك بعد الموت منقطع

قوله تعالى : ﴿ **أيحسب أن ماله أخلده** ﴾ : أى : يظن هذا الهماز العياب أن ما عنده من المال قد ضمن له الخلود فى الدنيا ، وأعطاه الأمان من الموت ، فهو لذلك يعمل عمل من يظن أنه باق حيا أبد الدهر ولا يعود إلى حياة أخرى يعاقب فيها على ما كسب من سيء الأعمال .

يا جامع المال ، كم تضن به تطمع بالله فى الخلود معهْ ؟
هل حمل المال ميت معه ؟ أما تراه لغيره جمعهْ ؟

قوله تعالى :

﴿ **كلا لينبذن فى الحطمة** ﴾ أى : ليس الأمر كما زعم ولا كما حسب . ﴿ **لينبذن فى الحطمة** ﴾ أى : ليلقين هذا الذى جمع مالاً فعدده فى الحطمة وهى اسم طبقة من أسماء النار تحطم من فيها .

ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ **والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباهم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون** ﴾ [١] .

وعن عبد الله بن مسعود ـ رضى الله عنه ـ عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « ما من أحد لا يؤدى زكاة ماله إلا مثل له يوم القيامة شجاعاً أقرع حتى يطوق به عنقه ، ثم قرأ علينا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ مصداقه من كتاب الله : ﴿ **ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة ـ الآية** ﴾[٢] (رواه النسائى باسناد صحيح) (وصححه ابن خزيمة)[٣] .

---

(١) سورة التوبة الآيتان : ٣٤ ، ٣٥
(٢) سورة آل عمران الآية : ١٨٠
(٣) سنن النسائى ـ كتاب الزكاة ٨/٥ باب التغليظ فى حبس الزكاة وابن خزيمة فى صحيحه ١١ رقم ٢٢٥٦

وأخرج البزار . . وقال : إسناده حسن . وصححه ابن خزيمة من حديث ثوبان بلفظ « من ترك بعده كنزاً مثل له يوم القيامة شجاعاً أقرع له زبيبتان يتبعه فيقول : من أنت ؟ فيقول : « أناكنزك الذى خلفت - فلا يزال يتبعه حتى يلقمه يده فيقضمها ثم يتبعه سائر جسده »[1] .

(والزبيبتان : النكتتان السوداوان فوق عينيه) وقال على - رضى الله عنه - : « إن الله فرض على أغنياء المسلمين فى أموالهم بقدر الذى يسع فقراءهم ولن يُجهد الفقراء إذا جاعوا وعروا الا بما يصنع أغنياؤهم ألا وإن الله يحاسبهم حساباً شديداً ويعذبهم عذاباً أليماً » رواه الطبرانى فى الأوسط والصغير[2] .

وقوله تعالى : ﴿ وما أدراك ما الحطمة ﴾ على التعظيم من شأنها والتفخيم لأمرها : ثم فسرها ما هى : بقوله : ﴿ نار الله الموقدة ﴾أى : التى أوقد عليها ألف عام وألف عام وألف عام ، فهى غير خامدة أعدها الله للعصاة .

وقوله تعالى : ﴿ التى تطلع على الأفئدة ﴾ أى : التى يبلغ ألمها ووجعها إلى القلوب فتحرقها قال القرطبى : وخص الأفئدة لأن الألم إذا صار إلى الفؤاد مات صاحبه فإنهم فى حال من يموت وهم لا يموتون كما قال تعالى : ﴿ لا يموت فيها ولا يحيا ﴾[3] فهم إذاً أحياء فى معنى الأموات .

وقوله : ﴿ فى عمد ممددة ﴾ أى : وهم موثوقون فى سلاسل وأغلال ، تشد بها أيديهم وأرجلهم بعد إطباق جهنم عليهم ، فقد يئسوا من الخروج بإطباق الأبواب عليهم ، وتمدد العمد إيذانا بالخلود إلى غير نهاية .

نسأل الله أن يحفظنا من غضبه ، ويجرنا من خزى الدنيا وعذاب الآخرة بمنه وكرمه .

---

(١) أخرجه البزار فى كشف الأستار عن زوائد البزار ظ/٤١٨ رقم ٨٨٢ وابن خزيمة فى صحيحه ١١/٤ رقم ٥٥
(٢) مجمع الزوائد - كتاب الزكاة ٦٢/٣
(٣) سورة طه الآية : ٧٤

تفسير سورة الفيل

مقدمة :

قال صاحبُ البصائر :

السورة مكية .

عدد آياتها : خمس .

وكلماتها : ثلاث وعشرون .

وحروفها : ثلاث وتسعون .

فواصل آياتها : على اللام .

سميت سورة الفيل . لقوله : (بأصحاب الفيل) .

مقصود السورة :

معظم مقصود السورة : بيان جزاء الأجانب ، ومكرهم ورد كيدهم فى نحرهم ، وتسليط أنواع العقوبة على العصاة والمجرمين . وسوء عاقبتهم بعد حين فى قوله : ﴿ **فجعلهم كعصف مأكول** ﴾ .

مناسبة السورة لما قبلها :

أنه سبحانه بين فى السورة السابقة أن المال لا يغنى من الله شيئاً ، وهنا أقام الدليل على ذلك بقصص أصحاب الفيل .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ﴿٥﴾

معانى المفــردات

الكيد : إرادة وقوع ضر بغيرك على وجه الخفاء .

والتضليل : التضييع والابذال .

الأبابيل : الجماعات .

السجيل : الطين الذى تحجر .

والعصف : ورق الزرع أى : الزرع الذى يبقى بعد الحصاد ويعصفه الرياح لتأكله الماشية أكلت الدواب بعضه وتناثر بعضه الآخر من بين أسنانها .

التفسـير

قوله تعالى : ﴿ **ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل** ﴾ .

حادث الفيل معروف متواتر لدى العرب ، حتى إنهم جعلوه مبدأ تاريخ يحددون به أوقات الحوادث ، فيقولون : ولد عام الفيل . وحدث كذا لسنتين بعد عام الفيل ونحو ذلك .

وخلاصة ما أجمع عليه رواتهم ـ أن قائداً حبشياً ـ واسمه أبرهة الأشرم ـ ممن كانوا قد غلبوا على اليمن ، بنى كنيسة بصنعاء وأراد أن يصرف : إليها الحجيج ، فتوجه بجيش جرار إلى مكة ، واستصحب معه فيلا أو فيلة كثيرة زيادة فى الإرهاب والتخويف ولم يزل سائراً يغلب من يلاقيه ، حتى وصل إلى « المغُمَّس » وهو موضع بالقرب من مكة ، ثم أرسل إلى أهل مكة يخبرهم أنه لم يأت لحربهم ، وإنما جاء لهدم البيت ففزعوا منه ، وانطلقوا إلى شعف الجبال ينظرون ما هو فاعل .

قال تعالى : ﴿ **ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل** ﴾ أى : ألم تعلم الحال العجيبة والكيفية الهائلة الدالة على عظم قدرة الله ـ تعالى ـ وكمال علمه وحكمته ، فيما فعل بأصحاب الفيل الذين قصدوا هدم البيت الحرام ، فتلك حال قد جاءت على غير ما يعرف من الأسباب والعلل ، إذ لم يعهد أن يجىء طير فى جهة فيقصد قوماً دون قوم ، وهم معهم فى جهة واحدة ، فذلك أمارة أنه من صنع حكيم مدبر بعثه لإنقاذ مقصد معين .

وإنما عبر عن العلم بالرؤية ، للإيماء ، إلى أن الخبر بهذا القصص متواتر مستفيض ، فالعلم به مساو فى قوة الثبوت مع الوضوح ـ للعلم الناشىء عن الرؤية والمشاهدة .

ثم بين سبحانه الحال التى وقع عليها فعله فقال ﴿ **ألم يجعل كيدهم فى تضليل** ﴾أى : إنك لترى ما كان عليه فعل الله بأولئك القوم ، فقد ضيع تدبيرهم ، وخيب سعيهم .

ثم فصل تدبيره فى إبطال كيد أولئك القوم فقال : ﴿ **وأرسل عليهم طيراً أبابيل . ترميهم بحجارة**

من سجيل ﴾أى : أنه تعالى أرسل عليهم فرقاً من الطير تحمل حجارة يابسة سقطت على أفراد الجيش ، كأنها رصاصات ثاقبة لا تصل الى أحد إلا قتلته ﴿ فجعلهم كعصف مأكول ﴾ أى : فجعلهم كورق الشجر الذى عصفت به الريح ، وأكلته الدواب ثم راثته ، فأهلكهم عن بكرة أبيهم .

وهذه القصة تدل على كرامة الله للكعبة ، وإنعامه على قريش بدفع العدو عنهم ، فكان يجب عليهم أن يعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف .

قال صاحب « البحر المحيط » : كان صرف ذلك العدو عام مولده السعيد عليه الصلاة والسلام ، إرهاصاً بنبوته إذ مجىء تلك الطيور على الوصف المنقول ، من خوارق العادات والمعجزات المتقدمة بين أيدى الأنبياء ـ عليهم السلام ـ ، وقد أهلكهم الله ـ تعالى ـ بأضعف جنوده وهى الطير التى ليست من عادتها أنها تقتل .

(تابع بحث) تاريخ مكة المكرمة

الكعبة بعد إسماعيل (عليه السلام) .

كان العرب يقدسون الكعبة باعتبارها بيت الله الحرام ، وامتد تقديس العرب للكعبة إلى تقديس مكة والمناطق المجاورة لها ، حتى أصبحت الأراضى الممتدة حولها إلى عدة فراسخ حراماً لا يجوز فيها الاعتداء على إنسان أوحيوان .

وامتد تقديس الكعبة إلى بعض الأمم الأخرى كالهند وفارس وكانت الصابئة ، وهم عباد الكواكب من الفرس والكلدانيين يعدونها أحد البيوت السبعة المقدسة وكان اليهود يحترمون الكعبة ويعبدون الله فيها على دين إبراهيم . كما أن النصارى من العرب كانوا يحترمونها كذلك .

بعد وفاة إسماعيل ، تولى الإشراف على الكعبة ابنه نابت ، ثم انفرد بالإشراف عليها بعض زعماء جرهم الذين نجحوا فى التغلب على أولاد إسماعيل .

كان أول من تولى شئون الكعبة من جرهم ملكها الحارث بن مضاض ، وكان كل من دخل مكة بتجارة أخذ عشرها . وكان ملك العماليق يدعى السميدع بن هوبر ، يستولى على أعشار التجارة التى تدخل إلى مكة من جهته وثار النزاع بين المكيين . ونشب القتال فترة ثم جنحوا إلى السلم ، واتفقوا على أن يتولى العماليق الإشراف على الكعبة ، وظلوا يتولون ذلك حتى نجح الجرهميون فى استعادة نفوذهم وظلوا يشرفون على الكعبة ثلاثمائة سنة ، وكان آخر ملوكهم الحارث بن مضاض الأصغر ، وزادوا فى بناء البيت ورفعته على ما كان عليه من بناء إبراهيم ـ عليه السلام ـ .

ونجح أولاد إسماعيل فى أن يلموا شملهم ويوحدوا صفوفهم وتمكنوا من التغلب على قبيلة جرهم ، فلحقوا بجهينة .

ثم طغت قبيلة جرهم وتجبرت ، وتهاونت فى المهمة السامية الموكولة إليهم ، فاستولوا على أموال الكعبة ونذورها وأساءوا إلى الحجاج .

ثم صارت ولاية الكعبة فى ولد اياد بن نزار بن معد ونشبت حروب طاحنة بين مضر واياد ، انتهت بانتصار مضر ورحيل اياد عن مكة إلى العراق .

ظلت خزاعة تتولى شئون الكعبة ، حتى برزت قبيلة قريش وتمكنت أن تجمع شملها وتوحد صفوفها وقريش ولد النضر بن كنانة ، وقد سموا قريشاً حين جمعهم قصى بن كلاب إلى الحرم بعد أن فى خزاعة ، من القرش وهو التجمع .

وقد اتخذت قريش من الأرض المجاورة للكعبة جرماً أولوه احترامهم واعتبروه مقدساً وحرموا فيه القتال ، وأخذوا على عاتقهم حمايته ، فأمنوا بذلك أذى غيرهم من القبائل ، وكان لمكة مركز خاص لوجود الكعبة بها ، كما رفع شأن قريش بين سائر القبائل العربية ، وعملت قريش على توثيق الصلات الطيبة بين القبائل التى تفد كل عام إلى الكعبة للحج أو للتجارة . وزاد مجد قريش أنها فى مكة . وأن الكعبة فى مكة .

تبابعة اليمن يحاولون هدم الكعبة :

كان تبع وقومه أصحاب أوثان يعبدونها ، فتوجه إلى مكة وهى طريقه إلى اليمن ، حتى إذا كان بين عسفان وأمج أتاه نفر من هذيل بن مدركة بن الياس فقالوا له :

ـ أيها الملك ، ألا ندلك على بيت مال وأثر أغفلته الملوك قبلك ، فيه اللؤلؤ والزبرجد والياقوت والذهب والفضة ؟

قال : بلى .

قالوا : بيت بمكة يعبده أهله ويصلون عنده . وإنما أراد الهذليون هلاكه بذلك ، لما عرفوا من هلاك من أراده من الملوك وبغى عنده ، فلما أجمع لما قالوا أرسل إلى الحيرين فسألهما عن ذلك فقالا له :

ـ ما أراد القوم إلا هلاكك وهلاك جندك ، ما نعلم بيتاً لله اتخذه فى الأرض لنفسه غيره ، ولئن فعلت ما دعوك إليه ليهلكن من معك جميعاً .

قال :

ـ فماذا تأمراننى أن أصنع إذا أنا قدمت عليه ؟

قالا :

تصنع عنده ما يصنع أهله وتطوف به ، وتعظمه ، وتكرمه ، وتحلق رأسك عنده ، وتذل له حتى تخرج من عنده .

قال : فما يمنعكما أنتما من ذلك ؟

قالا :

ـ أما والله إنه لبيت أبينا إبراهيم ، وإنه لكما أخبرناك ، ولكن أهله حالوا بيننا وبينه بالأوثان التى نصبوها

حوله ، وبالدماء التى يهريقون عنده ، وهم نجس أهل شرك فعرف نصحهما وصدق حديثهما وعاقب النفر من هذيل فقطع أيديهم وأرجلهم ثم مضى حتى قدم مكة ، فطاف بالبيت ونحر عنده ، وحلق رأسه ، وأقام بمكة ستة أيام ينحر بها للناس ويطعم أهلها . وأرى فى المنام أن يكسو البيت فكساه . وكان تبع أول من كسا البيت .

ثم خرج تبع من مكة متوجها إلى اليمن بمن معه من جنود وبالحبرين ، فلما دنا من اليمن ليدخلها حالت حمير بينه وبين ذلك ، وقالوا لا تدخلها علينا وقد فارقت ديننا .

فدعاهم إلى دينه ، وقال إنه خير من دينكم

فقالوا : فحاكمنا إلى النار

قال : نعم

وكانت باليمن - فيما يزعم أهل اليمن - نار تحكم بينهم فيما يختلفون فيه : تأكل الظالم ، ولا تضر المظلوم فخرج قومه بأوثانهم وما يتقربون به فى دينهم ، وخرج الحبران بمصاحفهما فى أعناقهما لتقلد بها حتى قعدوا للنار عند مخرجها الذى تخرج منه فخرجت النار إليهم فلما أقبلت نحوهم حادوا عنها وهابوها ، فحضهم من حضرهم من أناس وأمروهم بالصبر لها ، فصبروا حتى غشيتهم ، فأكلت الأوثان وما قربوا معها ، ومن حمل ذلك من رجال حمير ، وخرج الحبران بمصاحفهما فى اعناقهما تعرق جباههما لم تضرهما ، فأجمعت عند ذلك حمير على دينه .

الأحباش والكعبة : (قصة أصحاب الفيل)

دخلت جيوش الحبشة إلى اليمن نحو ٦٠ فيل الهجرة انتقاما من ذى يزن ملك حمير الذى كان يفتك بنصارى نجران من قومه وغلبوه على أمره وأخذوا البلاد ودانت لهم رقاب أهلها وتفرد أبرهة الأشرم بالحكم فيها وبنى فى صنعاء كنيسة فخمة أراد أن يحول إليها حج العرب فسار بجيوشه إلى هدم الكعبة ، وسمعت بذلك العرب فأعظموه ، وفظعوا به ، ورأوا جهاده حقاً عليهم ، حين سمعوا بأنه يريد هدم الكعبة بيت الله الحرام ، فخرج إليه رجل كان من أشراف أهل اليمن وملوكهم - يقال له ذو نفر - فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة وجهاده عن بيت الله الحرام ، وما يريد من هدمه وإخرابه ، فأجابه إلى ذلك من أجابه ، ثم عرض له فقاتله ، فهزم ذو نفر وأصحابه وأخذ له ذو نفر فأتى به أسيراً ، فلما أراد قتله قال له ذو نفر :

- أيها الملك ، لا تقتلنى فإنه عسى أن يكون بقائى معك خيراً لك من قتلى .

فتركه ، وحبسه عنده فى وثاق . ومضى أبرهة على وجهه ذلك يريد ما خرج له ، حتى إذا كان بأرض خثعم عرض له نفيل بن حبيب الخثعمى من قبيلة خثعم : شهران وناهس ومن تبعه من قبائل العرب فقاتله فهزمه أبرهة ، وأخذ له نفيل أسيراً ، فأتى به ، فلما هم بقتله قال له نفيل .

- أيها الملك ، لا تقتلنى فإنى دليلك بأرض العرب ، وهاتان يداى لك على قبيلى خثعم شهران وناعس

بالسمع والطاعة ، فخلى سبيله ، وخرج به معه يدله حتى إذا مر بالطائف خرج إليه مسعود بن معتب بن مالك ، فى رجال ثقيف ، فقالوا له .

ـ أيها الملك ، إنما نحن عبيدك سامعون لك مطيعون ، ليس عندنا خلاف ، وليس بيتنا هذا البيت الذى تريد ـ يعنون اللات ـ إنما تريد البيت الذى بمكه ، ونحن نبعث معك من يدلك عليه ، فتجاوز عنهم وبعثوا معه أبا رغال يدله على الطريق إلى مكة ، فخرج أبرهه ومعه أبو رغال حتى أنزله المغمس ، فلما أنزله به مات أبو رغال هنالك ، فرجمت قبره العرب ، فهو القبر الذى يرجم الناس بالمغمس .

فلما نزل أبرهة المغمس بعث رجلاً من الحبشة ـ يقال له الأسود بن مقصود ـ على خيل له حتى انتهى إلى مكة ـ فساق إليه أموال تهامة من قريش وغيرهم ، فأصاب فيها مائتى بعير لعبد المطلب بن هاشم ، وهو يومئذ كبير قريش وسيدها ، فهمت قريش وكنانة وهذيل ومن كان بذلك الحرم بقتاله ، ثم عرفوا أنهم لا طاقة لهم به ، فتركوا ذلك .

وبعث أبرهة حناطة الحميرى إلى مكة ، وقال له سل عن سيد أهل هذا البلد وشريفها ، ثم قل له إن الملك يقول : إنى لم آت لحربكم ، وإنما جئت لهدم هذا البيت ، فإن لم تعرضوا لنا دونه بحرب فلا حاجة لى فى دمائكم ، فإن هو لم يرد حربى فأتنى به فلما دخل حناطة سأل عن سيد قريش وشريفها ، فقيل له : عبد المطلب بن هاشم ، فجاءه فقال له ما أمره به أبرهة : فقال له عبد المطلب :

ـ والله مانريد حربه ، وما لنا بذلك من طاقة ، هذا بيت الله الحرام ، وبيت خليله إبراهيم عليه السلام ـ فإن يمنعه منه فهو بيته وحرمته ، وإن يخل بينه وبينه فوالله ما عندنا دفع عنه .

فانطلق معه عبد المطلب ومعه بعض بنيه ، حتى أتى العسكر فقال أبرهة : وسأله أبرهة عن حاجته فقال عبد المطلب :

ـ حاجتى أن يرد على الملك مائتى بعير أصابها لى

فقال أبرهة :

ـ قد كنت أعجبتنى حين رأيتك ، ثم قد زهدت فيك حين كلمتنى ، أتكلمنى فى مائتى بعير أصبتها لك وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه لا تكلمنى فيه

قال له عبد المطلب :

ـ إنى أنا رب الإبل ، وإن للبيت رباً سيمنعه

قال : ماكان ليمتنع منى .

قال : أنت وذاك

ورد أبرهة على عبد المطلب الإبل التى أصابه له

انصرف عبد المطلب إلى قريش فأخبرهم الخبر ، وأمرهم بالخروج من مكة والتحرز فى شعف الجبال والشعاب ، تخوفاً عليهم من شدة الجيش ، ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة ، وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده ، وقال عبد المطلب وهو آخذ بحلقة باب الكعبة :

لا هـم إن الـعـبـد يـمـ ـنع رحله فـامنـع رحـالـك
لا يـغـلـبـن صـلـيـبـهـم ومحـالهـم أبـداً محـالـك
إن كـنـت تـاركـهـم وقـبـ ـلـتـنـا فـأمـر مـا بـدالـك

ثم بدأ غزو الأحباش للكعبة ، وبرك الفيل الذى كان يمتطيه أبرهة ، وبذل الأحباش جهودهم لينهضوه فكان ينهض ، حتى إذا وجهوه نحو مكة برك مرة أخرى ، وإذا وجهوه نحو الشام أو اليمن أسرع فى العدو .

كانت العناية الإلهية تحيط بالكعبة ، فهى بيت الله الحرام ، وللبيت رب يحميه ، وانتهى الغزو بمأساة رهيبة، فروى ابن هشام

إن الله عز وجل أرسل عليهم طيراً من البحر أمثال الخطاطيف والبلسان ، مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها ، حجر فى منقاره ، وحجران فى رجليه ، أمثال الحمص والعدس ، وتوالت ملايين الأحجار حتى هلك الجيش .

ذكر القرآن الكريم هذا الحديث التاريخى فى سورة الفيل ﴿ **ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ، ألم يجعل كيدهم فى تضليل ، وأرسل عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول** ﴾ ارتفع شأن قريش وزعيمها عبد المطلب بعد إخفاق هذا الغزو ، وقال العرب : « قاتل الله عنهم ، وكفاهم مؤنة عدوهم »

وقد سجل شعراء العرب هذا الحدث فى قصائد ذكروا فيها ما صنع الله بالجيش الحبشى ، وما رد عن قريش من كيدٍ ، فقال عبد الله بن البعرى :

تنكلوا عن بطن مكة إنها كـانت قديـماً لا يرام حـريمها
لم تخلق الشِّعرى ليالى حرمت إذ لا عزيز من الأنام يرومها
سائل أمير الجيش عنها ما رأى ولسوف ينبى الجاهلين عليمها
ستون ألفاً لم يؤبوا أرضهم بل لم يعش بعد الإياب مقيمها
دانت بها عاد وجرهم قبلهم والله من فـوق العباد قبلهم

وقال أبو الصلت بن أبى ربيعة الثقفى فى شأن الفيل ويذكر الحنيفية دين إبراهيم عليه السلام .

إن آيـات ربـنـا ثـاقـبـات لا يمـارى فيهن إلا الـكـفـور
خلق اللـيـل والنـهـار فكـل مستبين حـسـابـه مـقـدور
ثم يجلو النهـار رب رحيم بمهاة شعـاعـهـا منشـور
حبس الفيـل بـالمغمس حتى ظـل يحبو كـأنـه معقـور
لازماً حلقة الجران كما قطر من صخـر كبكت محـدود
حوله من ملوك كفره أبطال مـلاويث فى الحروب صقـور

خلفوه ثم ابدا عروا جميعا كلهم عظم ساقه مكسور
كل دين يوم القيامة عند الله إلا دين الحنيفة بور

أدت الهزيمة التى لحقت بالأحباش فى مكة إلى نهاية احتلالهم لليمن ، فقد قامت حركة تحرير وطنية تزعمها سيف بن ذى يزن الحميرى ، ونجح سيف بمعاونة الفرس فى إجلاء الأحباش عن اليمن .

أصبح العرب يؤرخون أحداثهم بعام الفيل حتى خلافة عمر بن الخطاب ، كما شهد هذا العام مشرق نور الهداية والحق ، فقد ولد فى هذه السنة محمد - ﷺ -

الرسول والكعبة

حينما كان الرسول فى الخامسة والثلاثين من عمره ، أشترك فى حادث جليل أثار اهتمام العرب فى الجزيرة العربية وهو إعادة بناء الكعبة .

وكانت قريش تفكر منذ سنوات كثيرة فى أمر الكعبة ، فقد كانت بدون سقف ، منخفضة الارتفاع ، مما جعلها نهبا للصوص ، الذين أقدموا على سرقة بعض كنوز الكعبة التى كان القرشيون يحتفظون بها فى جوفها تعرضت مكة لعدة سيول فى أوقات مختلفة ، حدث أن نزل سيل جارف من الجبال المحيطة بمكة ، فانحدر نحو الكعبة وصدع جدرانها ، وأصبحت قريش مضطرة إلى الاقدام على إصلاح ما أفسدته السيول وقد اشترك سادة قريش ورجالاتها الكبار فى أعمال التجديد ونقل الأحجار بعد ما هدموا الأنقاض الواهية وشرعوا يعيدونها كما كانت .

وبناء رفعه إبراهيم وإسماعيل من قواعده قبل قرون سحيقة لا يوكل أمره لصغار الفعلة ، فلا غرو إذا أقبل عليه الشيوخ وأهل النهى والصدارة ، ومن بينهم محمد - - وأعمامه

روى البخارى فى صحيحه من حديث جابر بن عبد الله - رضى الله عنه - قال : لما بنيت الكعبة ، ذهب النبى - - والعباس ينقلان الحجارة ، فقال العباسى للنبى - ﷺ - اجعل إزارك على رقبتك فخر إلى الأرض وطمحت عيناه إلى السماء فقال : أرنى إزارى فشده عليه[١]

ولقد كان له - - أثر كبير فى حل المشكلة التى تسببت عن اختلاف القبائل حول من يستحق أن ينال شرف وضع الحجر الأسود فى مكانة ، فقد خضع جميعهم لاقتراحه الذى أبداه حلاً للمشكلة علما منهم بأنه الأمين والمحبوب من الجميع .

روى ابن هشام فى السيرة أن أبا أمية بن المغيرة المخزومى اقترح على المتطاحنين أن يحكّموا فيما شجر بينهم أول داخل من باب الصفا ، وشاء الله أن يكون ذلك محمداً - ﷺ - فلما رأوه هتفوا : هذا الأمين ، ارتضيناه حكما[٢] .

---

(١) صحيح البخارى ٥/ ٥١

(٢) سيرة ابن هشام ١/ ٢٥٤ ومصنف عبدالرزاق ٥/ ١٠٠ والحاكم فى المستدرك ١/ ٤٥٨ والبيهقى فى دلائل النبوة ٢/ ٥٦ .

وطلب محمد - ﷺ - ثوباً ، فوضع الحجر وسطه ، ثم نادى رؤساء القبائل المتنازعين فأمسكوا جميعا بأطراف الثوب حتى أوصلوا الحجر إلى الكعبة ، فحمله محمد - ﷺ - ثم وضعه فى مكانه العتيد .

وإلى قضية التحكيم يشير قول هبيرة بن دهب المخزومى

تشاجرت الأحياء فى فصل خطة	جرت بينهم بالنحس من بعد أسعد
تلاقوا بها بالبغض بعد مودة	وأوقد ناراً بينهم شر موقد
فلما رأينا الأمر قد جد جده	ولم يبق شىء غير سل المهند
رضينا وقلنا : العدل أول طالع	يجىء من البطحاء من غير موعد
فجاءنا هذا الأمين محمد	فقلنا : رضينا بالأمين محمد
بخير قريش كلها أمسى شيمة	وفى اليوم مع ما يحدث الله فى غد
فجاء بأمر لم ير الناس مثله	أعم وأرضى فى العواطف والبد
أخذنا بأطراف الرداء وكلنا	له حصة فى رفعها قبضة اليد
فقال : ارفعوا ، حتى إذا ما علت به	أكفتهم وافى به غير مسند
وكل رضينا فعله وصنيعه	فأعظم به من رأى هاد ومهتدى
وتلك يد منه علينا عظيمة	بروح لها هذا الزمان ويغتدى

أعادت قريش الصور والأصنام إلى الكعبة كما كانت ، قال المسعودى :

« كان فى حيطانها صور كثيرة بأنواع من الأصباغ عجيبة : منها صورة إبراهيم الخليل فى يده الأزلام ويقابلها صورة إسماعيل ابنه على فرس يجيز الناس مفيضاً ، والفاروق قائم على وفد الناس ، يقسم فيهم ، وبعد هذه الصور صور كثير أولادهم إلى قصى ابن كلاب وغيرهم . فى نحو من ستين صورة مع كل واحد من تلك الصور إله وصاحبها وكيفية عبادته وما اشتهر من فعله .

وقد ظلت هذه الأصنام قائمة فى الكعبة ، حتى فتح مكة فقام المسلمون بتحطيم هذه الأصنام ، وتطهير الكعبة من الأوثان .

أخرج البخارى بسنده عن عبد الله - رضى الله عنه - قال : دخل النبى - ﷺ - مكة يوم الفتح وحول البيت ستون وثلاثمائة نصب ، فجعل يطعنها بعود فى يده ويقول : جاء الحق وزهق الباطل ، جاء الحق وما يبدىء ، الباطل وما يعيد[1]

وروى أيضاً عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن رسول الله - ﷺ - لما قدم مكة أبى أن يدخل البيت وفيه الآلهة ، فأمر بها فأخرجت ، فأخرجوا صورة إبراهيم وإسماعيل فى أيديهما من الأزلام ، فقال النبى - ﷺ - قاتلهم الله أما والله لقد علموا أنهما لم يستقسما بها قط فدخل البيت فكبر فى نواحيه ولم يصل فيه »[2]

---

(١) صحيح البخارى - كتاب المغازى - باب اين ركن النبى الراية يوم الفتح ٥/ ١١٨ .

(٢) صحيح البخارى - كتاب الحج - باب من كبر فى نواحى الكعبة ٢/١٨٤ .

ووقع فى حديث جابر عند أبي سعد وأبي داود « أن النبى - ﷺ - أمر عمر بن الخطاب وهو بالبطحاء أن يأتى الكعبة فيمحوا كل صورة فيها ، فلم يدخلها حتى محيت الصور ، وكان عمر هو الذى أخرجها قال ابن حجر : والذى يظهر أنه محا ماكان من الصور مدهوناً مثلاً وأخرج ما كان مخروطاً وأما حديث أسامة « أن النبى - ﷺ - دخل الكعبة فرأى صورة إبراهيم فدعا بماء فجعل يمحوها » وقد تقدم فهو محمول على أنه بقيت بقيه خفى على من محاها أولاً .

وأخرج الشيخان عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : قال لى النبى - - « ألم ترى أن قومك حين بنوا الكعبة اقتصروا عن قواعد إبراهيم ؟ قالت فقلت : يارسول الله ، أفلا تردها على قواعد إبراهيم ؟ فقال : لولا حدثان قومك بالكفر لفعلت . قال ابن عمر : لئن كانت عائشة سمعت هذا من رسول الله - ﷺ - ما أرى أن رسول الله - ﷺ - ترك استلام الركنين اللذين يليان الحجر إلا أن البيت لم يتمم على قواعد ابراهيم[1] قال العلماء : والمراد بقول الرسول - ﷺ - الآنف ، قرب العهد بالجاهلية وضعف استمكان الإيمان مما يجعل العرب ينفرون من هدم الكعبة وتغيير هيئتها ولو كانت إعادة الكعبة كما بناها إبراهيم فريضة ما تركها رسول الله - ﷺ - ولكن الأمر أخف من أن تثار لأجله شكلان عويصة .

ابن الزبير يعيد بناء الكعبة :

وبقى البيت على هذا البناء إلى أن تحصن ابن الزبير بمكة حين دعا لنفسه وزحفت إليه جيوش يزيد بن معاوية مع الحصين بن نمير السكونى ورمى البيت سنة أربع وستين فأصابه حريق يقال من النفط الذى رموا به على ابن الزبير

وأراد ابن الزبير أن يعيد بناء الكعبة ، فدار حوار بينه وبين أصحابه ، أيهدم الكعبة ثم يعيد البناء من جديد أم يحاول إصلاحها وترميمها ؟ قال العمرى : فشاور ابن الزبير من حضره فى هدمها ، فهابوا ذلك ، وقالوا : نرى أن يصلح ما وهى منها ولا تهدم .

فقال : لو أن بيت أحدكم احترق لم يرض له إلا بأكمل إصلاح ولا يكمل إصلاحها إلا بهدمها .

فهدمها حتى أفضى إلى قواعد إبراهيم ، فبنوا على القواعد وتم بناؤها وألصق بابها إلى الأرض ، وعمل لها خلفا أى بابا من ورائها وأدخل الحجر فيها .

وبذل ابن الزبير غاية جهده فى تجميل الكعبة حتى تبدو فى أبهى صورة وأجمل مظهر ، وعدد المسعودى جهود ابن الزبير فقال : وحمل إلى ابن الزبير من صنعاء الفسيفساء التى كان بناها أبرهة الحبشى فى كنيسته التى اتخذها هنالك ، ومعها ثلاث أساطين من رخام فيها وشىء منقوش ، قد حشى النقش السندسى وأنواع الألوان من الأصباغ ، فمن رآه ظنه ذهبا .

أحدث ابن الزبير تغييرات فى بناء الكعبة ، فقد زاد فى ارتفاعها تسعة أذرع فأصبح ارتفاعها سبعة

---

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان - كتاب الحج حديث رقم ٨٤٢

وعشرين ذراعاً ، كما جعل للكعبة بابين بعد أن كان لها باب واحد وضرب عليها السور وأدخل فيها الحجر ، وكان أول من كسا الكعبة الديباج وكانت كسوتها المسوح والانطاع وقد كان يطيبها حتى يوجد ريحها من داخل الحرم .

وقد أبرز المسعودى زيادات ابن الزبير فى الكعبة فقال : « وشرع ابن الزبير فى بناء الكعبة ، وشهد عنده سبعون شيخاً من قريش أن قريشاً حين بنت الكعبة عجزت نفقتهم فنقصوا من سعة البيت سبعة أذرع من أساس إبراهيم الخليل الذى أسسه هو وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ فبناه ابن الزبير وزاد فيه الأذرع المذكورة ، وجعل فيه الفسيفساء والأساطين ، وجعل له بابين باباً يدخل منه ، وبابا يخرج منه .

ويقول العمرى : إن الرسول ـ ﷺ ـ كان يريد أن يزيد فى بناءالكعبة ما زاده ابن الزبير ، وذلك لأن خالته عائشة ـ رضى الله عنها ـ حدثته أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : ألم تر أن قومك قصرت بهم النفقة حين بنوا الكعبة فاقتصروا على قواعد إبراهيم ثم قال : لولا حدثان قومك بالجاهلية لهدمتها وجعلت لها خلفا وألصقت بابها بالأرض وأدخلت فيها الحجر فقال ابن الزبير : فليس بنا عجز عن النفقة فبناها على مقتضى حديث عائشة[1]

ولما قتل ابن الزبير ، كتب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج بن يوسف الثقفى يأمره بإعادة الكعبة على ما كانت عليه فى زمن الرسول ـ ﷺ ـ من بناء قريش فهدم جانب الحجر وأعاده إلى ذلك ، وسد الباب الغربى ورفع الشرقى عن الأرض إلى حده الذى هو عليه الآن ، وكان عبد الملك بن مروان بعد ذلك يقول : « وددت أنى كنت حمّلت ابن الزبير من بناء الكعبة ما تحمل » .

ثم جدد المتوكل رخام الكعبة فأزرها بفضة وألبس سائر حيطانها وسقفها الذهب وهو على ذلك إلى الآن . وهو مبنى بالحجر الأسود مستطيل البناء على التربيع ، فى ارتفاع خمسة وعشرين ذراعاً .

القرامطة والكعبة

فى أيام المقتدر العباسى ظهرت فى العراق طائفة القرامطة ، وهم قوم ينسبون إلى موالاة محمد بن الحنفية ويكفرون من لم يكن على مذهبهم ، وأول من ظهر منهم أبو طاهر القرمطى ، وقد بنى داراً فى هجر سماها دار الهجرة وأراد أن ينقل الحج إليها : لذلك كان يقصد الطرق الموصلة إلى مكة ويفتك بحجاج بيت الله الحرام ، فانقطع الحج فى أيامه خشية منه وسار القرمطى إلى مكة فى جيش كثيف أيام الحج ودخل برجله وخيله إلى الحرم ووضع السيف فى الطائفين والركع السجود على بغتة منهم ، وقتل فى مكة وشعابها نحو ثلاثين ألفاً واقتلع باب الكعبة وجرده مما كان عليه من صفائح الذهب ، وأخذ جميع ما فى خزينة بيت الله الحرام من المجوهرات الثمينة واقتلع الحجر الأسود من مكانه ، وانصرف إلى بلاده بعد أن هدم قبة زمزم وبقى مكان الحجر خالياً يتبرك الناس بمحله .

غير أن القدر وقف بالمرصاد لزعيم القرامطة الذى قاد هذا الهجوم الغادر على بيت الله الحرام ، فلم يكد يستقر فى هجر حتى نزل به مرض عضال ، وطال عذابه وتقطعت أوصاله وأطرافه ، وهو ينظر إليها ،

وتناثر الدود من لحمه ، ذلك إن بطش ربك لشديد ، وانتهت حياته بالموت فى العام نفسه الذى انتهك فيه حرمة الأماكن المقدسة وبعد موت أبى طاهر رأى قومه أن من المستحيل تحويل الحج عن الكعبة إلى بلادهم ، فقام سنبر بن الحسين القرمطى بالحجر إلى مكة ، وكان يحيط به برواز من الفضة يضبط بعض القطع التى تكسرت منه حين خلعه ، ووضع فى مكانه على الحالة التى تراه عليها الآن .

إعادة بناء الكعبة فى العصر العثمانى

فى سنة ٩٦٠ هـ غير السلطان سليمان العثمانى سقف الكعبة ، كما اهتم السلطان أحمد (١٠٢١) هـ بترميم الكعبة . وفى سنة ١٠٣٩ هـ شهدت مكة سيولا استمرت يومين ، ودخلت مياهها إلى المسجد الحرام والكعبة ، وكان بناؤها قد وهن ، لذلك سقطت جدرانها واحداً بعد الآخر ، وترامى ما أصاب البيت الحرام إلى الأقطار الإسلامية ، فانزعج الناس فيها ، كما انزعج أهل مكة فأجمع الكل على المبادرة إلى عمارتها .

وأحيط البيت بسياج من الخشب يطوف به الناس ويصلون إليه ، كما كان الأمر على عهد ابن الزبير وأنفق القوم فى البناء ستة أشهر من عام ١٠٤٠ هـ وأنفقوا فى سبيل الله أموالاً طائلة .

ولم يعيدوا من الأحجار التى بنى بها عبد الله بن الزبير الكعبة إلا ما وجدوه صلباً قوياً . . . . أما ما وهن فاستبدلوا به غيره .

على أن مشكلة خطيرة واجهتهم . . . . فقد بدأ الحجر الأسود يتناثر الفتات منه ، وللحجر الأسود من القدسية حظ ، جعل المعماريين يلجأون إلى كل أساليب الفن ليعيدوا إلى أجزائه صلابتها ولما تم لهم ما أرادوا ، ربطوه بإطار الفضة الذى ربط به على عهد ابن الزبير ووضعوه مكانه .

وبناء الكعبة هذا ، هو القائم إلى يومنا الحاضر . . . . وهو الذى يطوف المسلمون به منذ فرض الله الحج عليهم إلى الآن وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

وصف الكعبة الشريفة

الكعبة على شكل مربع تقريباً ، مبنية بالحجارة الزرقاء الصلبة ، ويبلغ ارتفاعها ١٥ متراً وطول ضلعها الذى فيه الميزاب والذى قبالته ١٠ أمتار و ١٠ سنتيمترات ، وطول الضلع الذى فيه الباب والذى يقابله اثنى عشر متراً ، وبابها على ارتفاع مترين من الأرض ، ويصعد إليها بسلم كسلالم المنابر . وسلمها الحالى من الخشب المصفح بالفضة أهداه إلى الكعبة أحد أمراء الهند ، وهو لا يوضع فى مكانه منها إلا إذا فتح للزائرين وفى الاحتفالات الكبرى وهى لا تزيد عن خمس عشرة مرة فى السنة .

وفى الركن الذى على يسار باب الكعبة الحجر الأسود ، على ارتفاع متر وخمسين سنتيمترا من أرض المطاف . وتسمى زوايا الكعبة بالأركان على حسب اتجاهاتها : فيسمى الشمالى بالركن العراقى ، والغربى بالشامى والقبلى باليمانى ، والشرقى بالأسود لأن فيه الحجر الأسود ، وهو حجر صقيل بيضى الشكل غير

منتظم لونه أسود ضارب إلى الحمرة وفيه نقط حمراء وتعاريج صفراء ، وهى أثر لحام القطع التى كانت تكسرت منه ، قطره نحو ٣٠ سنتيمترا يحيط به إطار من الفضة عرضه ١٠ سنتيمترات ، والمسافة التى بين ركن الحجر وباب الكعبة يسمونها الملتزم وهو ما يلتزمه الطائف فى دعائه واستغاثته ويخرج من منتصف الحائط الشمالى الغربى من أعلاه الميزاب ، ويقال له ميزاب الرحمة ، وهو من عمل الحجاج حتى لا يقف المطر على سطحها وكان من نحاس ، فغيره السلطان سليمان القانونى سنة ٩٥٩ بآخر من الفضة وتجدد فى سنة ١٠٢٤ فى عهد السلطان أحمد بغيره من الفضة المنقوشة بالمينا الزرقاء تتخللها النقوش الذهبية ، وفى سنة ١٢٧٣ أرسل إليها السلطان عبد المجيد ميزاباً من الذهب ثم تغير فى عهد السلطان عبد العزيز آل سعود بآخر من الذهب وهو الموجود بها الآن .

وقبالة الميزاب من الخارج يوجد الحطيم وهو قوس من البناء طرفاه إلى زاويتى البيت ويبعدان عنها بمترين وخمسة وثلاثين سنتيمترا ، ويبلغ ارتفاعه متراً وسمكه مترا ونصف متر ، وهو مغلف بالرخام المنقوش ، وفى محيطه كتابة فى أعلاه بالخط المعلق فيها آيات قرآنية وتاريخ من قام بعمارته ومساحة ما بين منتصف هذا القوس من داخله إلى منتصف ضلع الكعبة ثمانية أمتار وأربعة وأربعون سنتيمترا والفضاء الواقع بين الحطيم وحائط البيت هو ما يسمونه بحجر إسماعيل ، وقد كان يدخل منه ثلاثة أمتار تقريباً فى بناء إبراهيم ، وهى الزيادة التى كان ابن الزبير أدخلها فى بنائه ويقال إن هاجر وإسماعيل مدفونان به وداخل البيت الواح محفور فيها أسماء من أحدثوا به شيئاً من العمارة وبجانب الباب على يسار الداخل خوان من الخشب مغطى بالحرير الأخضر موضوع عليها كيس مفاتيح الكعبة وهو من الأطلس الأخضر المزركش بأسلاك الفضة .

ولغسل الكعبة احتفال رائع ، يحضره كبار الشخصيات والحجاج ، فيدخل شريف مكة ، فيصلى ركعتين ، ثم يؤتى بدلاء من ماء زمزم فيغسل أرضها بمكانس صغيرة من الخوص ، ويسيل الماء من ثقب فى عتبتها ثم يغسلها بماء الورد ، وبعد ذلك تضمخ أرضيتها وحوائطها على ارتفاعها الأيدى بالخلوق وأنواع العطر كدهن الورد والمسك وفى أثناء ذلك يكون البخور بالند والعود صاعداً من جميع جهاتها ، وبعد ذلك يقف الشريف على الباب ويلقى على الحاضرين المكانس التى كانت تغسل بها الكعبة ، فيتزاحمون عليها ، ومن يحصل منهم على واحدة كأنه حصل على أثمن شىء فى العالم .

المسجد الحرام

كان هذا المسجد فى عهد الرسول - ﷺ - عرضه فسيحة لا جدار لها ، وقد شاء عمر بن الخطاب توسيعه لأن الناس ضيقوا على الكعبة وألصقوا دورهم بها .

فقال :

- إن الكعبة بيت الله ولابد للبيت من فناء وإنكم دخلتم عليها ولم تدخل عليكم ، فاشترى تلك الدور وهدمها وزادها فيه وهدم على قوم من جيران المسجد أبوا أن يبيعوا ووضع لهم الأثمان فى بيت المال حتى أخذوها بعد. واتخذ للمسجد جداراً دون القامة فكانت المصابيح توضع عليه ثم زاد فى توسيعه عثمان

بن عفان وقيل : إنه أول من بنى أروقته ، وفى عهد ابن الزبير وضعت له أعمدة من الرخام وبولغ فى تزيينه وتحسينه ثم كساه الحجاج بن يوسف الديباج ولما ولى الوليد بن عبد الملك زاد فى التحسين والتزيين بالذهب والفضة وكانت دار الندوة وسط المسجد تجاه الكعبة من الجهة الشمالية وكان بها الخلفاء والأمراء فى حجهم فى صدر الإسلام فلما أهمل أمرها فى منتصف القرن الثالث الهجرى أخذ بناؤها يتهدم فكتب فى ذلك إلى الخليفة المعتضد العباسى فأمر بهدمها فى سنة إحدى وثمانين ومائتين ، ثم جعلوا فيها قبة عالية ولها قبلة إلى الكعبة ثم غير شكلها بعد ذلك واستمرت مقاماً يصلى فيه الإمام الحنفى إلى أن أتى أمير كلدى أمير جدة فى سنة تسعمائة وسبع وأربعين فهدمها وبنى المقام مربعاً ذا طبقين : الأولى للإمام والمصلين ، والثانية للمؤذنين والمبلغين وهو على الشكل الآن وفى سنة ثمانمائة واثنين احترق الرواق الشرقى فأمر الملك الناصر بن برقوق ملك مصر بتعمير ما خرب منه ، ووضع بدل الأعمدة الرخام التى أحترقت أعمدة من الحجر الشميسى . ومن ثم كانت تقوم بعمارة الحرم ملوك مصر لا سيما العمارة التى قام بها السلطان قايتباى فى سنة ست وثمانين وثمانمائة .

وفى سنة تسع وسبعين وتسعمائة مال الرواق الشرقى فى الحرم ميلاً محسوساً فأمر السلطان سليم الثانى بعمارته فأنزل المعماريون سقفه جميعه وأساطينه وهدموا محيطه وبنوه على التربيع الباقى للآن وأقاموا أعمدة الرخام بين أساطين حجرية متناسبة الوضع وبنوا عليها قباباً بدل السقوف . ومات السلطان سليم أثناء إجراء البناء ، فأمر السلطان مراد خان بإتمام العمارة فتمت على أحسن صورة بالشكل الذى نراه الآن .

والحرم من داخله على شكل مربع (منتظم تقريباً) وفى وسطه يميل إلى الزاوية الجنوبية للكعبة المكرمة وطول ضلعه المقابل للحطيم مائة وأربعة وستون متراً وطول الذى يقابله وهو الذى فيه باب الصفا مائة وستة وستون مترا ، وضلعه الذى فيه باب السلام مائة متر وثمانية والذى يقابله وهو الذى فيه باب إبراهيم مائة وتسعة أمتار فيكون مسطحه من الداخل سبعة عشر الفاً وتسعمائة واثنين من الأمتار المربعة . أما من الخارج فمتوسط طوله مائة واثنان وتسعون متراً وعرضه مائة واثنان وثلاثون متراً .

ويحيط بالحرم من داخله أربعة أروقة فيها ثلاثمائة وأحد عشر عموداً من الرخام يتخللها مائتان وأربعة وأربعون اسطوانة من الحجر الشميسى الأحمر تقوم عليها قباب على محيط المسجد .

أما أبواب الحرم فهى ثمانية فى الجهة الشمالية وهى : باب دريبة ، وباب المدرسة ، وباب الكعبة ، وباب الزيارة ، وبجواره إلى الغرب باب القطبى ثم باب الباسطية وباب الزمامية وباب عمرو بن العاص . ويليه من الجانب الغربى ثلاثة أولها باب العمدة ـ ويقال له باب بنى سهم ، ثم باب إبراهيم ـ وإلى جوار باب إبراهيم باب الحزورة يليه من الجهة الجنوبية سبعة أبواب أولها باب أم هانىء ، ثم باب العجلة ثم باب الرحمة أو « المجاهدين » ثم باب أجياد ، ثم باب الصفا ، ثم باب مخزوم ، ثم باب السنبلة ثم باب بازان ، ويلى ذلك من الجهة الشرقية أربعة أبواب وهى : باب بنى هاشم (أو باب على) ، ثم

باب السلام وهى الذى يدخل منه إلى الحرم عند طواف القدوم . ومجموع هذه الابواب اثنان وعشرون باباً ولكل منها ماله مدخل واحد ومنها ماله مدخلان أو ثلاثة أو خمسة فيكون مجموعها تسعة وثلاثون مدخلاً .

وفى المسجد ست منارات الأولى منارة باب العمرة ثم منارة باب السلام ومنارة باب على ومنارة الحزورة ، ثم منارة باب للزيارة ثم منارة السلطان قايتباى وقد حصلت فى جميعها ترميمات وزيادات فى مدة العمارة التى قام بها السلطان سليم الثانى فى المسجد وكلها باقية للآن يؤذن عليها فى الأوقات الخمسة .

وللحرم صحن كبير غير مسقوف تقطعه مماشى محجورة وما بينها أرض بها حصباء ، وأول من حصب أرضية الحرم هو أمير المؤمنين عمر بن الخطاب . والكعبة فى وسط صحن المسجد يميل إلى الجنوب ويليها من الشرق مقام إبراهيم وفى جنوبه الشرقى قبة زمزم التى بناها أبو جعفر المنصور فى سنة مائة وخمس وأربعين وفرش أرضها بالرخام المأمون ، وشرقى زمزم إلى الشمال باب شيبه وهو باب من الرخام قام فى وسط الحرم فى المكان الذى كان به باب المسجد فى مدته - ﷺ - وفى شمال المقام المنبر وهو من الرخام غاية فى دقة الصناعة أهداه إلى الحرم السلطان سليمان ومكتوب على بابه بالخط الذهبى الجميل « إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم » وأول من وضع المنبر فى المسجد الحرام معاوية بن أبى سفيان حين قدومه مكة للحج وكان الخلفاء قبله يخطبون على أرضية المسجد تحت جدار الكعبة أو فى الحجر . ثم أهدى إليه سنة مائة وسبعين منبراً من خشب جميل من صناعة مصر لمناسبة حج هارون الرشيد الذى خطب الناس عليه فى حجه فى السنة المذكورة . وفى عهد الواثق أمر فعمل له ثلاثة منابر : واحد فى الحرم ، والثانى فى عرفه ، والثالث فى منى ، وخطب فى حجه عليها جميعا . وقد كان الخطباء إذا أرادوا الخطبة فى الحرم وضعوا المنبر لصق جدار الكعبة بين الحجر والركن اليمانى فإذا أراد الخطيب أن يصعد المنبر استلم الحجر أولاً ثم دعا وصعد المنبر ، وبعد الخطبة كان ينقل المنبر إلى مكانه بجوار زمزم فلما أهدى السلطان سليمان إليه منبره الرخام بقى مكانه واستمرت فيه الخطبة إلى اليوم

اهـ (نقل البحث من كتاب مكة المكرمة للأستاذ محمود الشرقاوى بتصرف)

تفسير سورة قريش

مقدمة عن السورة

قال صاحب البصائر :

السورة مكية

عدد آياتها : أربع

وكلماتها : تسع عشرة

وحروفها : ثلاث وسبعون

فواصل آياتها : (شفت)

سميت سورة قريش ، لذكر ألفتهم فيها

معظم مقصود السورة

ذكر المنة على قريش ، وتحضيضهم على العبادة وشكر الإحسان ، ومعرفة قدر النعمة والعاقبة والأمان فى قوله ﴿ وآمنهم من خوف ﴾ .

المتشابهات :

قوله : ﴿ لإيلاف قريش ﴾ كرر ، لأن الثانى بدل من الأول أفاد بيان المفعول وهو ﴿ رحلة الشتاء ﴾

مناسبة السورة لما قبلها :

إن كلا منهما تضمن ذكر نعمة من نعم الله على أهل مكة ، فالأول تضمنت إهلاك عدوهم الذى جاء ليهدم بيتهم وهو أساس مجدهم وعزهم ، والثانية ذكرت نعمة أخرى هى اجتماع أمرهم ، والتئام شملهم ، ليتمكنوا من الارتحال صيفا وشتاء فى تجارتهم وجلب الميرة لهم .

ولوثيق الصلة بين السورتين كان أبى بن كعب يعتبرهما سورة واحدة ، حتى روى عنه أنه لم يفصل بينهم ببسملة .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾

معانى المفردات

﴿ لإيلاف ﴾ : تقول ألفت الشىء إلفاً وإلافاً ، والفته إيلافاً : إذا لزمته وعكفت عليه مع الأنس به وعدم النفور منه .

﴿ قريش ﴾ : اسم للقبائل العربية من ولد النضر بن كنانة .

﴿ الرحلة ﴾ : ارتحال القوم . أى : شدهم الرحال للمسير .
﴿ أطعمهم ﴾ أى : وسع لهم الرزق ، ومهد لهم سبيله
﴿ آمنهم ﴾ أى : جعلهم فى أمن من التعدى عليهم ، والتطاول إلى أموالهم وأنفسهم .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ لإيلاف قريش ، إيلافهم رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا رب هذا البيت ﴾

أى : فلتعبد قريش ربها شكراً له على أن جعلهم قوماً تجاراً ذوى أسفار فى بلاد غير ذات زرع ولا ضرع ، لهم رحلتان رحلة إلى اليمن شتاء لجلب الأعطار والأفادية التى تأتى من بلاد الهند والخليج الفارسى إلى تلك البلاد ، ورحلة فى الصيف إلى بلاد الشام لجلب الحاصلات الزراعية إلى بلادهم المحرومة منها .

وقد كان العرب يحترمونهم فى أسفارهم لأنهم جيران بيت الله وسكان حرمه وولاة الكعبة ، فيذهبون آمنين ، ويعودون سالمين ، لا يمسهم أحد بسوء على كثرة ما كان بين العرب من السلب والنهب والغارات التى لا تنقطع .

فكان احترامهم البيت ضرباً من القوة المعنوية التى تحتمى بها قريش فى الأسفار ولهذا ألفتها نفوسهم ، وتعلقت بالرحيل ، استدراراً للرزق .

وهذا الإحلال الذى ملك نفوس الرعب من البيت الحرام إنما هو من تسخير رب البيت سبحانه ، وقد حفظ حرمته ، وزادها فى نفوس العرب رد الحبشة عنه حين أرادوا هدمه ، وإهلاكهم قبل أن ينقضوا منه حجراً بل قبل أن يدنوا منه .

ولو نزلت مكانة البيت من نفوس العرب ، ونقصت حرمته عندهم ، واستطالت الأيدى على أسفارهم ليفروا من تلك الرحلات ، فقلت وسائل الكسب بينهم لأن أرضهم ليست بذات زرع ولا ضرع . وما هم بأهل صناعة مشهورة يحتاج إليها الناس فيأتوهم وهم فى عقر ديارهم ، ليأخذوا منها ، فكانت تضيق عليهم مسالك الأرزاق وتنقطع عنهم ينابيع الخيرات .

وقال القرطبى رحمه الله : ذكر أهل مكة عظيم نعمته عليهم فيما فعل بالحبشة ، ثم قال : ﴿ لإيلاف قريش ﴾ أى : فعلنا ذلك بأصحاب الفيل نعمة منا على قريش وذلك أن قريشاً كانت تخرج فى تجارتها ، فلا يغار عليها ولا تقرب فى الجاهلية . يقولون : هم أهل بيت الله ـ عز وجل ـ حتى جاء صاحب الفيل لهدم الكعبة ويأخذ حجارتها فيبنى بها بيتا فى اليمن يحج الناس إليه فأهلكهم الله ـ عز وجل ـ فذكرهم نعمته أى : فجعل الله ذلك لإيلاف قريش ، أى : ليألفوا الخروج ولا يجترأ عليهم وهو معنى قول مجاهد وابن عباس فى رواية سعيد بن جبير عنه .

وروى ابن أبى نجيح عن مجاهد فى قوله تعالى : ﴿ إيلافهم رحلة الشتاء والصيف ﴾ قال : لا يشق عليهم رحلة شتاء ولا صيف منّةً منه على قريش .

وقوله تعالى : ﴿ فليعبدوا رب هذا البيت ﴾

أمرهم الله ـ تعالى ـ بعبادته وتوحيده لأجل إيلافهم رحلتين ودخلت الفاء لأجل ما فى الكلام من

معنى الشرط ، لأن المعنى إمَّالا فليعبدوه لإيلافهم ، على معنى أن نعم الله - تعالى - عليهم لا تحصى ، فإن لم يعبدوه لسائر نعمه فليعبدوه لشأن هذه الواحدة التى هى نعمة ظاهرة . والبيت . الكعبة . وفى تعريف ذاته المقدسة لهم بأنه رب هذا البيت وجهان :

أحدهما : لأنه كانت لهم أوثان فميز نفسه عنها والثانى لأنهم بالبيت شُرُفوا على سائر العرب فذكر لهم ذلك تذكيراً لنعمه .

وقيل : ﴿ الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ﴾ أى : إنه هو سبحانه الذى أوسع لهم الرزق ، ومهد لهم سبله ، ولولاه لكانوا فى جوع وضنك عيش ﴿ وآمنهم من خوف ﴾ أى : وآمن طريقهم ، وأورثهم القبول عند الناس ، ومنع عنهم التعدى والتطاول إلى أموالهم وأنفسهم ، ولولاه لأخذهم الخوف من كل مكان فعاشوا فى ضنك وجهد شديد .

وإذا كانوا يعرفون أن هذا كله رب هذا البيت فلم يتوسلون إليه بتعظيم غيره ، وتوسيط سواه عنده ؟

مع أنه لافضل لأحد ممن يوسطونه فى شىء من النعمة التى هم فيها ، نعمة الأمن ونعمة الرزق وكفاية الحاجة .

قال ابن عباس - رضى الله عنهما - عندما تلا قوله تعالى : ﴿ الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف﴾قال : وذلك بدعوة ابراهيم - عليه السلام - حيث قال : ﴿ رب اجعل هذا البلد آمنا وارزق أهله من الثمرات ﴾ .

وقال ابن زيد : كانت العرب يغير بعضها على بعض ويسبى بعضها من بعض ، فأمنت قريش من ذلك لمكان الحرم . وقرأ قوله تعالى : ﴿ أو لم نمكن لهم حرما آمنا يجبى إليه ثمرات كل شىء رزقا من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ ونظير ذلك أيضا قوله تعالى : ﴿ أولم يروا أنا جعلنا حرمنا آمنا ويتخطف الناس من حولهم ، أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون ﴾ .

قال العلامة ابن كثير فى هذه الآية الكريمة : ﴿ فليعبدوا رب هذا البيت ﴾ أى : فليوحدوه بالعبادة كما جعل لهم حرما آمنا وبيتا محرما كما قال تعالى : ﴿ قل إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذى حرمها وله كل شىء وأمرت أن أكون من المسلمين ﴾ وقوله تعالى : ﴿ الذى أطعمهم من جوع ﴾ أى : هو رب البيت وهو الذى أطعمهم من جوع ، ﴿ وآمنهم من خوف ﴾ أى : تفضل عليهم بالامن والرخص فليفردوه بالعبادة وحده لاشريك له ولايعبدوا من دونه صنما ولاندا ولاوثنا ولهذا من استجاب لهذا الأمر جمع الله له بين أمن الدنيا وأمن الآخرة ومن عصاه سلبها منه كما قال تعالى : ﴿ ضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بماكانوا يصنعون ، ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه فأخذهم العذاب وهم ظالمون ﴾

اللهم إنا نعوذ بك من زوال نعمتك ، وتحول عافيتك ، وفجاءة نقمتك وجميع سخطك

تفسير سورة
الماعون

مقدمة عن السورة :

قال صاحب البصائر :

السورة مكية

عدد آياتها : سبع

وكلماتها : خمس وعشرون .

وحروفها : مائة وخمسة وعشرون .

وفواصل آياتها : على النون .

وسميت سورة الماعون ، لقوله تعالى : ﴿ **ويمنعون الماعون** ﴾

مقصود السورة :

معظم مقصود السورة : الشكاية من الجافين على الأيتام والمساكين وذم المقصرين والمرائين ومانعى نفع المعونة عن الخيرات والمساكين فى قوله : ﴿ **ويمنعون الماعون** ﴾ .

مناسبة السورة لما قبلها :

(١) أنه لما قال سبحانه فى السورة السابقة : ﴿ **أطعمهم من جوع** ﴾ ذم فى هذه السورة من لم يحض على إطعام المساكين .

(٢) أنه قال فى السورة السابقة : ﴿ **فليعبدوا رب هذا البيت** ﴾ وهنا ذم من سها عن صلاته .

(٣) أنه هناك عدد نعمه على قريش وهم مع ذلك ينكرون البعث ويجحدون الجزاء وهنا أتبعه بتهديدهم وتخويفهم من عذابه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾

معاني المفـــردات

﴿ أرأيت ﴾ : أي : هل عرفت وعلمت ، والمراد بذلك تشويق السامع إلى تعرّف مايذكر بعده مع تضمنه التعجب منه .

﴿ الدين ﴾ : هو الخضوع لما وراء المحسوس من الشئون الإلهية التي لايمكن للإنسان أن يعرف حقيقتها وإنما يجد آثارها في الكون باعثة على الإذعان والتصديق ، كوجود الله ووحدانيته ، وبعثه الرسل مبشرين ومنذرين ، والتصديق بحياة أخرى يعرض الناس فيها على ربهم للجزاء .

﴿ يدع اليتيم ﴾ أي : يدفعه ويزجره

﴿ يحض ﴾ أي : يحث ويدعو الناس إلى ذلك .

﴿ يراءون ﴾ أي : يفعلون بقدر مايرى الناس أنهم يفعلون ذلك من غير أن تستشعر قلوبهم خشية الله بها ، وحقيقة الرياء طلب مافي الدنيا بالعبادة وطلب المنزلة في قلوب الناس .

﴿ الماعون ﴾ : ماجرت العادة بأن يسأله الفقير والغني كالقدر والدلو والفأس .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **أرأيت الذي يكذب بالدين ، فذلك الذي يدع اليتيم ولايحض على طعام المسكين** ﴾ أي : هل عرفت يامحمد ذلك الذي يكذب بالبعث والحساب فاعرفه بصفاته وهي :

﴿ **فذلك الذي يدع اليتيم** ﴾ أي : فذلك المكذب بالدين هو الذي يدفع اليتيم ويزجره زجرا عنيفا إن جاء يطلب منه حاجة احتقارا لشأنه وتكبرا عليه .

واليتيم : هو من مات أبوه وتركه صغيرا ، وهو ضعيف يحتاج إلى رعاية وكفالة .

والإسلام اهتم بشأن اليتيم الاهتمام البالغ من ناحية تربيته ، ومعاملته ، وضمان معيشته حتى ينشأ عضوا في المجتمع ينهض بواجباته ، ويقوم بمسئولياته ، ويؤدي ماله وماعليه على أحسن وجه ، وأنبل معنى .

فمن اهتمام القرآن الكريم بشأن اليتيم عدم قهره ، والغض من شأنه ، والحط من كرامته قال تعالى : ﴿ **فأما اليتيم فلاتقهر** ﴾[1] وقال : ﴿ **أرأيت الذي يكذب بالدين فذلك الذي يدع اليتيم** ﴾ .

ومن اهتمامه باليتيم أمره سبحانه بالمحافظة على أموال اليتامى ، وعدم قربانها إلا بالتي هي أحسن . قال تعالى : ﴿ **ولاتقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن** ﴾[2] واعتبر أن من يأكل أموال اليتامى ظلما إنما يأكل في بطنه نارا ، قال تعالى : ﴿ **إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا** ﴾[3]

---

(١) سورة الضحى الآية : ٩

(٢) سورة الأنعام الآية : ١٥٢

(٣) سورة النساء الآية : ١٠

وأمر القرآن الكريم الأوصياء أن يردوا الى اليتامى أموالهم إن رأوهم قادرين على تنميتها وحفظها ، قال تعالى : ﴿ وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم ﴾[(1)]

ومن اهتمام الرسول - ﷺ - بشأن اليتيم حضه على كفالته ، وأمره بوجوب رعايته ، وبشر الأوصياء أنهم - إن احسنوا إلى اليتامى - سيكونون معه فى الجنة .

روى الترمذى أنه عليه الصلاة والسلام قال : أنا وكافل اليتيم فى الجنة كهاتين . . وأشار بأصبعيه يعنى السبابة والوسطى . . (رواه البخارى ومسلم ومالك وأبوداود)[(2)] وروى أحمد فى مسنده عن النبى - ﷺ - أنه قال : « من وضع يده على رأس يتيم رحمة ، كتب الله له بكل شعرة مرت على يده حسنة » .[(3)]

قوله تعالى : ﴿ ولايحض على طعام المسكين ﴾ أى : ولايحث على طعام المسكين . قال أبوحيان : وفى قوله : (ولايحض) إشارة إلى أنه هو لايطعم إذا قدر ، وهذا من باب الأولى لأنه إذا لم يحض غيره فلأن يترك هو ذلك فعلا أولى وأحرى .

وقال الرازى : فإن قيل : لم قال : ﴿ ولايحض على طعام المسكين ﴾ ولم يقل : ولايطعم المسكين ؟ فالجواب أنه اذا منع اليتيم حقه ، فكيف يطعم المسكين من مال نفسه ؟ بل هو بخيل من مال غيره ، وهذا هو النهاية فى الخسة ، ويدل على نهاية بخله ، وقساوة قلبه وخساسة طبعه .

والحاصل أنه لايطعم المسكين ولايأمر بإطعامه ، لأنه يكذب بالقيامة ، ولو آمن بالجزاء وأيقن بالحساب لما صدر عنه ذلك .

قوله تعالى : ﴿ فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون ، الذين هم يراءون ويمنعون الماعون ﴾ .

﴿ فويل ﴾ أى : عذاب وهلاك . ﴿ للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون ﴾ قال ابن عباس رضى الله عنهما - هو المصلى الذى إن صلى لم يرج لها ثوابا ، وإن تركها لم يخش عليها عقابا . وعنه أيضا : هم الذين يؤخرونها عن أوقاتها وكذا روى المغيره عن ابراهيم قال : ساهون باضاعة الوقت . وعن أبى العالية : لايصلونها لمواقيتها ، ولايتمون ركوعها ولاسجودها .

قال القرطبى : ويدل على هذا قوله تعالى : ﴿ فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا ﴾[(4)] .

---

(١) سورة النساء الآية : ٦

(٢) سنن الترمذى - كتاب البر والصلة ٣٢٠/٤ رقم ١٩١٦ وصحيح مسلم كتاب الزهد والرقائق ٢٢٨٧/٤ رقم ٢٩٨٣ وصحيح البخارى - كتاب الأدب ١٠/٨ وسنن أبى داود ٣٥٦/٥ رقم ٥١٥٠ ومالك فى الموطأ - كتاب الشعر ٩٤٨/٢ رقم٥

(٣) مسند أحمد ٢٦٥/٥

(٤) سورة مريم الآية : ٥٩

وعن ابن عباس أيضا : هم المنافقون يتركون الصلاة سرا ويصلونها علانية ﴿ وإذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولايذكرون الله إلا قليلا ﴾[1] ويدل على أنها فى المنافقين قوله تعالى : ﴿ الذين هم يراءون ﴾ .

قال ابن عباس : ولو قال فى صلاتهم ساهون لكانت فى المؤمنين . وقال عطاء : الحمدلله الذى قال ﴿ عن صلاتهم ﴾ ولم يقل فى صلاتهم .

قال الزمخشرى : فان قلت : أى فرق بين قوله : ﴿ عن صلاتهم ﴾ وبين قولك : (فى صلاتهم) ، قلت : معنى « عن » أنهم ساهون عنها سهو ترك لها وقلة التفات إليها ، وذلك فعل المنافقين أو الفلاسفة من المسلمين . ومعنى « فى » أن السهو يعتريهم فيها بوسوسة شيطان أو حديث نفس ، وذلك لايكاد يخلو منه مسلم .

وقوله تعالى : ﴿ الذين هم يراءون ﴾ أى : يُرى الناس أنه يصلى طاعة وهو يصلى تقية ، كالفاسق يرى أنه يصلى عبادة وهو يصلى ليقال : إنه يصلى .

وحقيقة الرياء طلب مافى الدنيا بالعبادة ، وأصله طلب المنزلة فى قلوب الناس ، وأولها تحسين السمت وهو من أجزاء النبوة ، ويريد بذلك الجاه والثناء . وثانيها ، الرياء بالثياب القصار والخشنة ، ليأخذ بذلك هيئة الزهد فى الدنيا .

وثالثها : الرياء بالقول باظهار التسخط على أهل الدنيا وإظهار الوعظ والتأسف على مايفوت من الخير والطاعة ورابعها ـ الرياء باظهار الصلاة والصدقة ، أو بتحسين الصلاة لأجل رؤية الناس .

أخرج مسلم عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : « إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت . قال : كذبت ولكنك قاتلت لأن يقال : جرىء ! فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى القى فى النار ، ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن ، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : تعلمت العلم وعلمته ، وقرأت فيك القرآن ، قال : كذبت ولكنك تعلمت ليقال : عالم ! وقرأت القرآن ليقال هو قارىء ! فقد قيل . ثم أمر به فسحب على وجهه حتى القى فى النار ، ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله فاتى به فعرفه نعمه فعرفها وقال : فما عملت فيها ؟ قال : ماتركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك . قال كذبت ولكنك فعلت ليقال هو جواد . فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه ثم القى فى النار »[2] .

---

(١) سورة النساء الآية : ١٤٢

(٢) صحيح مسلم ـ كتاب الإمارة ١٥١٣/٣ رقم ١٩٠٥

قال القرطبى ، ولايكون الرجل مرائيا بإظهار العمل الصالح إن كان فريضة ؛ فمن حق الفرائض الإعلان بها وتشهيرها ، لأنها أعلام الإسلام وشعائر الدين ولأن تاركها يستحق الذم والمقت ؛ فوجب إماطة التهمة بالاظهار . وإن كان تطوعا فحقه أن يخفى ، لأنه لايلام بتركه ولاتهمة فيه ، فان أظهره قاصدا للاقتداء به كان جميلا ، وإنما الرياء أن يقصد بالإظهار أن تراه الأعين فتثنى عليه بالصلاح .

وقوله تعالى : ﴿ ويمنعون الماعون ﴾ قال ابن كثير : أى : لاأحسنوا عبادة ربهم ولاأحسنوا إلى خلقه حتى ولا باعادة ماينتفع به ويستعان به مع بقاء عينه ورجوعه إليهم ، فهؤلاء لمنع الزكاة وأنواع القربات أولى وأولى .

وقد قال ابن أبى نجيح عن مجاهد قال : ﴿ ويمنعون الماعون ﴾ الزكاة وكذا روى الضحاك عن ابن عباس .

وقد روى عن عمر بن عبدالعزيز عن مالك قال : بلغنى أن قول الله تعالى : ﴿ فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراءون ، ويمنعون الماعون ﴾ قال : إن المنافق إذا صلى صلى رياء ، وان فاتته لم يندم عليها (ويمنعون الماعون) الزكاة التى فرض الله عليهم ، قال زيد بن أسلم : لوخفيت لهم الصلاة كما خفيت لهم الزكاة ماصلوا .

وقال الأعمش وشعبة : عن الحكم عن يحيى بن الخزاز أن أبا العبيد سأل عبدالله بن مسعود عن الماعون فقال : هو مايتعاوره الناس بينهم بين الفأس والقدر والدلو والقداحة وكل مافيه منفعة من قليل وكثير .

وقال ابن أبى نجيح عن مجاهد عن ابن عباس : ﴿ ويمنعون الماعون ﴾ يعنى متاع البيت وكذا قال مجاهد وابراهيم النخعى وسعيد بن جبير وأبومالك وغير واحد : أنها العارية للأمتعة .

وقيل لعكرمة مولى ابن عباس : من منع شيئا من المتاع كان له الويل ؟ فقال : لا ، ولكن من جمع ثلاثهن فله الويل ؛ يعنى ترك الصلاة ، والرياء ، والبخل بالماعون . قال القرطبى . كونها فى المنافقين أشبه وبهم أخلق ؛ لأنهم جمعوا الأوصاف الثلاثة . ترك الصلاة ، والرياء ، والبخل بالمال ، قال الله تعالى : ﴿ وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولايذكرون الله إلا قليلا ﴾[1] وقال : ﴿ ولاينفقون إلا وهم كارهون ﴾[2] وهذه أحوالهم ، ويبعد أن توجد من مسلم محقق ، وإن وجد بعضها فيلحقه جزء من التوبيخ ، وذلك فى منع الماعون إذا تعين ؛ كالصلاة والزكاة إذا تركها والله أعلم . إنما يكون منعها قبيحا فى المروءة فى غير حال الضرورة . والله أعلم .

---

(١) سورة النساء الآية : ١٤٢

(٢) سورة التوبة الآية : ٥٤

تفسير سورة الكوثر

مقدمة عن السورة .

قال صاحب البصائر :

السورة مكية :

عدد آياتها : ثلاث .

وكلماتها : عشر .

وحروفها : ثنتان وأربعون .

فواصل آياتها : على الراء .

سميت سورة الكوثر : لذكره فيها .

معظم مقصود السورة :

بيان المنة على سيد المرسلين ، وأمره بالصلاة والقربان ، وإخباره بإهلاك أعدائه أهل الخيبة والخذلان .

مناسبة السورة لما قبلها :

أنه سبحانه وصف فى الأولى الذى يكذب بالدين بأمور أربع : البخل ، الإعراض عن الصلاة ، الرياء . منع المعونة - وهنا وصف مامنحه رسوله - ﷺ - من الخير والبركة ، فذكر أنه أعطاه الكوثر والحرص على الصلاة ، ودوامها ، والإخلاص فيها والتصدق على الفقراء .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾

معانى المفردات

﴿ أعطيناك الكوثر ﴾ نهرا فى الجنة .

﴿ وانحر ﴾ المراد : الأضاحى نسكا شكرا لله تعالى .

﴿ شانئك ﴾ : مبغضك [أحد مشركى قريش]

﴿ هو الأبتر ﴾ : المقطوع الأثر أو الخبر .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ إنا أعطيناك الكوثر ﴾ .

قال الامام أحمد فى مسنده عن أنس بن مالك قال : أغفى رسول الله - ﷺ - إغفاءة فرفع رأسه مبتسما إما قال لهم وإما قالوا له . لم ضحكت فقال رسول الله - ﷺ - « إنه أنزلت علىّ آنفا سورة ، فقرأ (بسم الله الرحمن الرحيم إنا أعطيناك الكوثر) من الآيات . حتى ختمها فقال صلى الله عليه وسلم : « هل تدرون ما الكوثر ؟ قالوا الله ورسوله أعلم قال : « هو نهر أعطانيه ربى - عز وجل - فى الجنة عليه خير كثير ترد عليه أمتى يوم القيامة آنيته عدد الكواكب ، يختلج العبد منهم فأقول : يارب إنه من أمتى ، فيقال : إنك لاتدرى ماأحدثوا بعدك »[١] .

وأخرج البخارى بسنده عن أنس - رضى الله عنه - قال : « لما عرج بالنبى - ﷺ - إلى السماء قال : أتيت على نهر حافتاه قباب اللؤلؤ مجوفا ، فقلت ماهذا ياجبريل ؟ قال : هذا الكوثر[٢] .

وأخرج أيضا بسنده عن أبى عبيدة - رضى الله عنه - أنه سأل عائشة - رضى الله عنها - عن قوله تعالى : ﴿ إنا أعطيناك الكوثر ﴾ قالت : هو نهر أُعطاه نبيكم - ﷺ شاطئاه عليه در مجوف آنيته كعدد النجوم[٣] وأخرج أيضا بسنده عن سعيد بن جبير عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أنه قال فى الكوثر : هو الخير الذى اعطاه الله اياه . قال أبوبشر قلت لسعيد بن جبير : فإن الناس يزعمون أنه نهر فى الجنة ، فقال سعيد النهر فى الجنة من الخير الذى أعطاه الله إياه[٤] .

قال ابن حجر : الكوثر فوعل من الكثرة ، سمى بها النهر لكثرة مائه وآنيته وعظم قدره وخيره .

وقال القرطبى : والعرب تسمى كل شىء كثير فى العدد والقدر والخضرا كوثرا .

وقال أيضا : اختلف أهل التأويل فى الكوثر الذى أعطاه النبى - ﷺ - على ستة عشر قولاً . :

الأول - أنه نهر فى الجنة ، رواه البخارى عن أنس والترمذى أيضا . وروى الترمذى أيضا عن ابن عمر قال : قال رسول الله - ﷺ - : « الكوثر نهر فى الجنة حافتاه من ذهب ومجراه على الدر والياقوت تربته أطيب من المسك وماؤه أحلى من العسل وأبيض من الثلج » هذا حديث حسن صحيح[٥]

---

(١) مسند أحمد ١٠٢/٣
(٢) صحيح البخارى ٢١٩/٦
(٣) صحيح البخارى ٢١٩/٦
(٤) صحيح البخارى ٢١٩/٦
(٥) صحيح البخارى ٢١٩/٦

الثانى - أنه حوض النبى - ﷺ - فى الموقف قال عطاء وفى صحيح مسلم عن أنس قال : بينما نحن عند رسول الله - ﷺ - إذ أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه مبتسما فقلنا : أضحكك الله يارسول الله ؟ قال : « نزلت علىَّ آنفا سورة - فقرأ - بسم الله الرحمن الرحيم « إنا أعطيناك الكوثر فصلى لربك وانحر إن شانئك هو الأبتر » - ثم قال : أتدرون ما الكوثر ؟ قلنا الله ورسوله أعلم : قال : « فإنه نهر وعدنيه ربى - عز وجل - عليه خير كثير هو حوض ترد عليه أمتى يوم القيامة آنيته عدد النجوم فيختلج العبد منهم فأقول إنه من أمتى فيقال : إنك لاتدرى ماأحدثت بعدك[1]

والأخبار فى حوضه فى الموقف كثيرة . . وأن على أركانه الأربعة خلفاؤه الأربعة : رضوان الله عليهم . . ثم يجوز أن يسمى ذلك النهر ، أو الحوض كوثرا لكثرة الواردة والشاربة من أمة محمد - عليه الصلاة والسلام - ويسمى به لما فيه من الخير الكثير والماء الكثير .

والقول الثالث : أن الكوثر النبوة والكتاب : قاله عكرمة .

والرابع : القرآن ، قاله الحسن .

والخامس : الإسلام : حكاه المغيرة .

السادس : تيسر القرآن وتخفيف الشرائع ، قاله الحسن بن الفضل .

السابع : هو كثرة الأصحاب والأمة والأشياع ، قاله أبوبكر بن عياش .

الثامن : إنه الإيثار ، قاله ابن كيسان .

التاسع : إنه رفعة الذكر ، حكاه الماوردى

العاشر : أنه نور فى قلبك ذلك علىَّ وقطعك عما سواى . وعنه هو الشفاعة وهو القول الحادى عشر .

وقيل : معجزات الرب هدى بها أهل الإجابة لدعوتك ؛ حكاه الثعلبى وهو الثانى عشر .

الثالث عشر : قال هلال بن يساف : هو لا إله إلا الله محمدا رسول الله . وقيل : الفقه فى الدين . وقيل : الصلوات الخمس : وهما الرابع عشر والخامس عشر ، وقال ابن اسحاق : هو العظيم من الأمر .

قلت : أصح هذه الأقوال الأولى : لأنه ثابت عن النبى - ﷺ - نص فى الكوثر .

وسمع أنس قوما يتذاكرون الحوض فقال : ماكنت أرى أن أعيش حتى أرى أمثالكم يتمارون فى الحوض ، لقد تركت عجائز خلفى ، ماتصلى امرأة منهن إلا سألت الله أن يسقيها من حوض النبى - ﷺ - .

(١) صحيح مسلم كتاب الصلاة ١/٣٠٠ رقم ٤٠٠

وجميع ماقيل بعد ذلك في تفسير الكوثر قد أعطيه رسول الله - ﷺ - زيادة على حوضه - ﷺ - تسليما كثيرا - أ . هـ .

قال علماء السلف :

الأحاديث الواردة فى ذكر الحوض تبلغ حد التواتر ، رواها من الصحابة بضع وثلاثون صحابيا ، ولقد استقصى طرقها شيخنا الشيخ عماد الدين بن كثير تغمده الله برحمته . . فى آخر تاريخه الكبير ، المسمى بـ « البداية والنهاية » .

فمنها : مارواه البخارى - رحمه الله تعالى - عن أنس بن مالك - رضى الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « إن قدر حوضى كما بين أيلة وصنعاء من اليمن ، وإن فيه الأباريق كعدد نجوم السماء[(١)] » .

رواه مسلم[(٢)] .

وروى الامام أحمد أن أنس بن مالك ، قال : اغفى رسول الله - ﷺ - إغفاءة فرفع رأسه مبتسما ، إما قال لهم ، وإما قالوا له : لم ضحكت ؟ فقال رسول الله - ﷺ - : إنه أنزلت على آنفا سورة فقرأ) « بسم الله الرحمن الرحيم إنا اعطيناك الكوثر » ، وحتى ختمها ، ثم قال : هل تدرون ما الكوثر ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : هو نهر اعطانيه ربى - عز وجل - فى الجنة ، عليه خير كثير ، ترد عليه أمتى يوم القيامة ، آنيته عدد الكواكب ، يختلج العبد منهم ، فأقول : يارب ، إنه من أمتى ، فيقال لى : إنك لاتدرى ماأحدثوا بعدك[(٣)] .

ومعنى ذلك أنه يشخب فيه ميزابان من ذلك الكوثر إلى الحوض ، والحوص فى العرصات قبل الصراط ، لأنه يختلج عنه ، ويمنع منه ، أقوام قد ارتدوا على أعقابهم ، وقيل هؤلاء لايجاوزون الصراط .

وروى البخارى ومسلم عن جندب بن عبدالله البجلى ، قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « أنا فرطكم على الحوض[(٤)] » والفرط : الذى سبق إلى الماء .

وروى البخارى عن سهل بن سعد الأنصارى قال : قال رسول الله - ﷺ - : « إنى فرطكم على الحوض ، من مر علىّ شرب ، ومن شرب لم يظمأ أبدا ، ليردن علىّ أقوام أعرفهم ويعرفونى ، ثم يحال بينى وبينهم » قال أبوحازم : فسمعنى النعمان بن أبى عياش فقال : هكذا سمعت من سهل ؟ فقلت : نعم ،

(١) صحيح البخارى ١٤٩/٨
- وعنه أيضا عن النبى - ﷺ - قال : « ليردن على الحوض رجال ممن صاحبنى حتى اذا رأيتم ورفعوا الى اختلجوا دونى . فلأقولن : أى رب أصيحابى أصيحابى . فليقالن لى : إنك لاتدرى ماأحدثوا بعدك »
(٢) صحيح مسلم - كتاب الفضائل ٨٠٠/٤ رقم ٢٣٠٤
(٣) مسند أحمد ١٠٢/٣
(٤) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان رقم ١٤٧٥

فقال : أشهد على أبى سعيد الخدرى لسمعته وهو يزيد فيها . « فأقول . إنهم منى فيقال : إنك لاتدرى ماأحدثوا بعدك ، فأقول : سحقا سحقا لمن غير بعدى[(١)] سحقا : أى بعدا .

والذى يتلخص من الأحاديث الواردة فى صفة الحوض : إنه حوض عظيم ، ومورد كريم ، يمد من شراب الجنة ، من نهر الكوثر ، الذى هو أشد بياضا من اللبن وأبرد من الثلج وأحلى من العسل ، وأطيب ريحا من المسك ، وهو فى غاية الاتساع ، عرضه وطوله سواء ، كل زاوية من زواياه مسيرة شهر .

وفى بعض الأحاديث أنه كلما شرب منه وهو فى زيادة واتساع وأنه ينبت فى خلاله من المسك والرضراض من اللؤلؤ وقضبان الذهب ، ويثمر الوان الجوهر ، فسبحان الخالق الذى لايعجزه شىء ، وقد ورد فى أحاديث أن لكل نبى حوضا ، وأن حوض نبينا ـ ﷺ ـ أعظمها وأحلاها وأكثرها واردا جعلنا الله منهم بفضله وكرمه . أ . هـ (من كتاب شرح الطحاوية) .

قوله تعالى : ﴿ فصل لربك وانحر ﴾

قوله : (فصل) أى أقم الصلاة المفروضة عليك كذا رواه الضحاك عن ابن عباس . وقال قتادة وعطاء وعكرمة : (فصل لربك) صلاة العيد يوم النحر (وانحر) نسكك .

قال ابن العربى : « أما من قال إن المراد بقوله تعالى : (فصل) الصلوات الخمس فلأنها ركن العبادات وقاعدة الإسلام ، وأعظم دعائم الدين وأما من قال : (إنها صلاة الصبح بالمزدلفة ، فلأنها مقرونة بالنحر ، وهو فى ذلك اليوم ، ولاصلاة فيه قبل النحر غيرها ، فخصها بالذكر من جملة الصلوات لاقترانها بالنحر » .

قال العلامة ابن كثير : قوله تعالى : ﴿ فصل لربك وانحر ﴾ أى : كما أعطيناك الخير الكثير فى الدنيا والآخرة ومن ذلك النهر الذى تقدم صفته فاخلص لربك صلاتك المكتوبة والنافلة ونحرك فاعبده وحده لاشريك له وانحر على اسمه وحده لاشريك له كما قال تعالى : ﴿ قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لاشريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴾ . . ولهذا كان رسول الله ـ ﷺ ـ يصلى العيد ثم ينحر نسكه ويقول : « من صلى صلاتنا ونسك نسكنا فقد أصاب النسك . . ومن نسك قبل الصلاة فلانسك له »[(٢)] .

قوله تعالى : ﴿ إن شانئك هو الأبتر ﴾ أى : إن مبغضك يامحمد ومبغض ماجئت به من الهدى والحق والبرهان الساطع والنور المبين هو الأبتر الأقل الأذل المنقطع ذكره قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن

---

(١) صحيح البخارى ١٤٩/٨

(٢) صحيح البخارى ـ كتاب العيدين ٢٨/٢ وانظر مسند أحمد ٣٠٣/٤

جبير : نزلت فى العاصى بن وائل وقال محمد بن اسحاق) كان العاص بن وائل اذا ذكر رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : دعوه فانه رجل أبتر لاعقب له فاذا هلك انقطع ذكره فأنزل الله تعالى هذه السورة . . وقال ابن عباس ايضا وعكرمة : نزلت فى كعب بن الأشرف وجماعة من كفار قريش قال البزار بسند عن ابن عباس قال : قدم كعب بن الأشرف مكة فقالت له قريش : أنت سيدهم ألا ترى إلى هذا الصبى المنبتر من قومه ؟ يزعم أنه خير منا ونحن أهل الحجيج وأهل السدانة وأهل السقاية فقال : أنتم خير منه قال فنزلت ﴿ شانئك هو الأبتر ﴾ هكذا رواه البزار وهو اسناد صحيح[1] .

وعن ابن عباس نزلت فى أبى جهل وعنه إن شانئك يعنى عدوك وهذا يعم جميع من اتصف بذلك ممن ذكر وغيرهم .

وقال السدى كانوا إذا مات ذكور الرجل قالوا بتر فلما مات أبناء رسول الله ـ ﷺ ـ قالوا : بتر فانزل الله : ﴿ إن شانئك هو الأبتر ﴾ وهذا يرجع إلى ماقلناه من أن الأبتر الذى اذا مات انقطع ذكره فتوهموا لجهلهم أنه إذا مات بنوه انقطع ذكره وحاشا وكلا بل قد أبقى الله ذكره على رؤوس الأشهاد ، وأوجب شرعه على رقاب العباد مستمرا على دوام الآباد إلى يوم المحشر والمعاد فاللهم صلى وسلم وبارك على سيدنا محمد فى الأولين وصلى الله وبارك على سيدنا محمد فى الآخرين وصلى وسلم وبارك على سيدنا محمد فى الملأ الأعلى إلى يوم الدين ، اللهم أوردنا حوضه ولاتفتنا بعده ، واسقنا من يده الشريفة شربة ماء هنيئة لايظمأ بعدها أبدا ، واجمع بيننا وبينه كما آمنا به ولم نره ، ولاتفرق بيننا وبينه حتى تدخلنا مدخله .

اللهم أجزى نبينا خير ماجازيت به نبيا عن قومه ورسولا عن أمته .

---

(١) اخرجه البزار فى كشف الأستار عن زوائد البزار على الكتب الستة ٣/٨٣ رقم ٢٢٩٣

تفســـير سورة
« قل يأيها الكافرون »

قال صاحب البصائر

السورة مكية

عدد آياتها : ست .

وكلماتها : ثمان وعشرون

وحروفها : أربع وتسعون .

وفواصل آياتها . . على النون .

سميت سورة (الكافرون) لمفتتحها ، وسورة الدين ، لقوله : ﴿ **ولى دين** ﴾ . والمقشقشة قاله ابوعبيده : سورتان من القرآن يقال لها المقشقشتان : ﴿ **قل هو الله أحد** ﴾ ﴿ **قل يأيها الكافرون** ﴾ تقشقشان الذنوب كما يقشقش الهناء الجرب (والهناء : القطران يطلى به) .

وقال ابن حجر : وقيل لها المقشقشة أى المبرئة من النفاق .

معظم مقصود السورة : يأس الكافرون من موافقة النبى - ﷺ - بالاسلام والاعمال فى الماضى ، والمستقبل والحال . . وبيان أن كل أحد مأخوذ بماله عليه إقبال ، وعليه اشتغال .

من المتشابهات

قوله : ﴿ **لا أعبد ماتعبدون** ﴾ فى تكراره خمسة ، ومعان كثيرة ، ذكرت فى التفاسير ، وقال محمود إبن حمزة الكرمانى : هذا التكرار اختصار وايجاز ، هو إعجاز لأنه نفى عن نبيه عبادة الأصنام فى الماضى ، والحال ، والاستقبال ، ونص عن الكفار المذكورين عبادة الله فى الأزمنة الثلاثة أيضا . فاقتضى القياس تكرار هذه اللفظة ست مرات فذكر لفظ الحال لأن الحال هو الزمان الموجود واسم الفاعل واقع موقع الحال ، وهو صالح للأزمنة . واقتصر من الماضى على المسند اليهم .

فقال : ﴿ **ولا أنا عابد ماعبدتم** ﴾ ولأن اسم الفاعل بمعنى الماضى فعل على مذهب الكونين . واقتصر من المستقبل على المسند اليه فقال : ﴿ **ولاأنتم عابدون ماأعبد** ﴾ وكان اسم الفاعلين بمعنى المستقبل . وهذا معجزة للقرآن وبرهان .

ماورد فى فضل السورة .

ففى الترمذى من حديث أنس « أنها تعدل ربع القرآن »[١] وعن حبلة بن خلدية قال : قلت : يارسول الله علمنى شيئا أقوله عند منامى قال : « إذا أخذت مضجعك من الليل فاقرأ قل ياأيها الكافرون فإنها براءة من الشرك[٢] » .

وروى الطبرانى بسنده : أن رسول الله ـ ﷺ ـ كان إذا أخذ مضجعه قرأ : (قل ياأيها الكافرون) حتى يختمها[٣]

وثبت فى صحيح مسلم عن جابر أن رسول الله ـ ﷺ قرأ بهذه السورة ، وبسورة قل هو الله أحد فى ركعتى الطواف[٤] وفى صحيح مسلم من حديث أبى هريرة أن رسول الله ـ ﷺ ـ قرأ بهما فى ركعتى الفجر[٥] . .

وقال أحمد بسنده عن ابن عمر قال رمقت رسول الله ـ ﷺ ـ أربعا وعشرين أو خمسا وعشرين مرة يقرأ فى الركعتين قبل الفجر والركعتين بعد المغرب بقل ياأيها الكافرون ، وقل هو الله أحد[٦]

مناسبة السورة لما قبلها :

أنه سبحانه فى السورة السابقة أمر رسوله ـ ﷺ ـ بعبادته ، والشكر له على نعمه الكثيرة باخلاص العبادة له ، وفى هذه السورة التصريح بما أشير اليه فيما سلف .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾

(١) سنن الترمذى ـ كتاب فضائل القرآن باب ماجاء فى اذا زلزلت ١٦٥/٥ رقم ٢٨٩٣
(٢) مجمع الزوائد ـ كتاب الأذكار ـ باب مايقوله اذا اوى الى فراشه ١٢١/١٠
(٣) مجمع الزوائد ـ كتاب الاذكار ـ باب مايقوله اذا أوى الى فراشه ١٢١/١٠
(٤) صحيح مسلم ـ كتاب الحج ـ باب حجة النبى ـ ﷺ ٨٨٦/٢ رقم ١٢١٨
(٥) صحيح مسلم ـ كتاب صلاة المسافرين وقصرها ٥٠٢/١ رقم ٧٢٦
(٦) مسند أحمد ٩٤/٢

معانى المفـــردات

لكم دينكم : أى شرككم وكفركم أو جزاؤه .

لى دين : إخلاصى وتوحيدى أو جزاؤه .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **قل ياأيها الكافرون ، لاأعبد ماتعبدون ، ولاأنتم عابدون ماأعبد ، ولا أنا عابد ماعبدتم ولاأنتم عابدون ماأعبد لكم دينكم ولى دين** ﴾

هذه السورة الكريمة سورة البراءة من العمل الذى يعمله المشركون وهى آمرة بالاخلاص فيه فقوله تعالى : ﴿ **قل ياأيها الكافرون** ﴾ يشمل كل كافر على وجه الأرض ولكن المواجهون بهذا الخطاب هم كفار قريش وقيل : إنهم من جهلهم دعوا رسول الله ـ ﷺ ـ إلى عبادة أوثانهم سنة ويعبدون معبوده سنة ، فأنزل الله هذه السورة وأمر رسوله ـ ﷺ ـ فيها أن يتبرأ من دينهم بالكلية فقال : (لاأعبد ماتعبدون) يعنى من الاصنام والانداد . ﴿ **ولاأنتم عابدون ماأعبد** ﴾ أى : ولاأنتم تعبدون معبودى . ومعبوده هو كان صلى الله عليه وسلم عارفا به دونهم وهم جاهلون به .

قال ابن القيم : المقصود هنا ذكر المعبود الموصوف بكونه أهلا للعبادة مستحقا لها ، فأتى بـ « ما » الدالة على هذا المعنى . كأنه قيل : ولاأنتم عابدون معبودى الموصوف بأنه المعبود الحق . ولو أتى بلفظة « من » لكانت إنما تدل على الذات فقط ، ويكون ذكر الصلة تعريفا ، لا إنه هو جهة العبادة .

ففرق بين أن يكون كونه تعالى أهل لأن يعبد ، وبين أن يكون تعريفا محضا أو صفا مقتضيا لعبادته فتأمل فانه بديع جدا . وهذا معنى قولة النحاة إن « ما » تأتى لصفات من يعلم . أ . هـ .

قوله تعالى : ﴿ **ولاأنا عابد ماعبدتم ، ولا أنتم عابدون ماأعبد** ﴾ أى : ولاأعبد عبادتكم أى : لاأسلكها ولاأقتدى بها وإنما أعبد الله على الوجه الذى يحبه ويرضاه ولهذا قال : ﴿ **ولاأنتم عابدون ماأعبد** ﴾ أى : لاتقتدون بأوامر الله وشرعه فى عبادته بل قد اخترعتم شيئا من تلقاء أنفسكم كما قال : ﴿ **ان يتبعون إلا الظن وماتهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى** ﴾[1] فتبرأ منهم فى جميع ماهم فيه ، فإن العابد لابد له من معبود يعبده وعبادة يسلكها اليه فالرسول ـ ﷺ ـ وأتباعه يعبدون الله بما شرعه ولهذا إن كلمة الإسلام لا إله إلا الله محمدا رسول الله ، أى : لامعبود بحق إلا الله ولاطريق اليه إلا ماجاء به الرسول ـ ﷺ ـ والمشركون يعبدون غير الله عبادة لم يأذن بها الله ولهذا قال لهم الرسول ـ ﷺ ـ : (لكم

---

(١) سورة النجم الآية : ٢٣

دينكم ولى دين) كقوله تعالى : ﴿ **وإن كذبوك فقل لى عملى ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا برىء مما تعملون** ﴾[١] .

وقال البخارى فى معنى هذه الآية : (لكم دينكم) : الكفر (ولى دين) الاسلام [٢].

فوائد وأسرار بديعة فى هذه السورة الكريمة

قال الامام ابن القيم ـ يرحمه الله ـ فى كتابه بدائع الفوائد ح ٣

الفائدة الأولى : فائدة تكرار الأفعال فقيل فيها وجوه :

أحداها : أن قوله : ﴿ **لاأعبد ماتعبدون** ﴾ نفى للحال والمستقبل .

وقوله : ﴿ **ولاأنتم عابدون ماأعبد** ﴾ مقابلة ، أى لاتفعلون ذلك .

وقوله : ﴿ **ولاأنا عابد ماعبدتم** ﴾ أى : لم يكن منى ذلك قط قبل نزول الوحى ، ولهذا أتى فى عبادتهم بلفظ الماضى ، فقال : (ماعبدتم) فكأنه قال : لم أعبد قط ماعبدتم

وقوله : ﴿ **ولاأنتم عابدون ماأعبد** ﴾ مقابلة ، أى لم تعبدوا قط فى الماضى ماأعبد أنا دائما .

وعلى هذا فلاتكرار أصلا . وقد استوفت الآيات أقسام النفى ماضيا وحالا ومستقبلا عن عبادته وعبادتهم بأوجز لفظ وأخصره وأبينه ، وهذا إن شاء الله أحسن ماقيل فيها . فلنقتصر غليه ولانتعداه إلى غيره ، فإن الوجوه التى قيلت فى مواضعها فعليك بها .

الفائدة الثانية :

وأما المسألة الثانية ، وهى تكرير الأفعال بلفظ المستقبل حين أخبر عن نفسه وبلفظ الماضى حين أخبر عنهم نص ذلك سر ، وهو الاشارة والايماء إلى عصمة الله لنبيه عن الزيغ والانحراف عن عبادة معبوده والاستبدال به غيره ، وأن معبوده الحق واحد فى الحال والمآل على الدوام ، ولايرضى به بدلا ، ولاينبغى عنه حولا ، بخلاف الكافرين فانهم يعبدون أهواءهم ويتبعون اليوم معبودا وغدا غيره . فقال : (لاأعبد ماتعبدون) يعنى الآن ، (ولا أنتم عابدون ماأعبد) أى الآن أيضا ثم قال : (ولاأنا عابد ماعبدتم) يعنى ولا أنا فيما يستقبل يصدر منى عبادة لما عبدتم أيها الكافرون ، واشبهت «ما» هنا رائحة الشرط ، فلذلك وقع بعدها الفعل بلفظ الماضى ، وهو مستقبل فى المعنى ، كما يجىء ذلك بعد حرف الشرط ، كأنه يقول : مهما عبدتم من شىء فلاأعبده أنا .

فان قيل : وكيف يكون فيها المشرط ، وقد عمل فيها الفعل ، ولاجواب لها وهي موصولة ، فما أبعد الشرط منها ؟

---

(١) سورة يونس الآية : ٤١

(٢) صحيح البخارى ٦/٢٢٠

قلنا : لم نقل : أنها نفسها شرط ، ولكن فيها رائحة منه ، وطرف من معناه لوقوعها على غير معين وابهامها فى المعبودات وعمومها وأنت إذا ذقت معنى هذا الكلام وجدت معنى الشرط باديا على صفحاته .

فإذا قلت لرجل ما ـ تخالفه فى كل مايفعل ـ أنا لاأفعل ماتفعل . ألست ترى معنى الشرط قائما فى كلامك وقصدك وإن روح هذا الكلام مهما فعلت من شئ فإنى لاأفعله ؟ . . .

فإذا ثبت هذا فقد صحت الحكمة التى من أجلها جاء الفعل بلفظ الماضى من قوله : (ولاأنا عابد ماعبدتم) بخلاف قوله : (ولاأنتم عابدون ماأعبد) لبعد «ما» فيها عن معنى الشرط تنبيها من الله تعالى على عصمة نبيه أن يكون له معبود سواه وأن ينتقل فى المعبودات تنقل الكافرين .

الفائدة الثالثة

وهى أنه لم يأت النفى فى حقهم إلا باسم الفاعل : وفى جهته جاء بالفعل تارة ، وباسم الفاعل أخرى .

فذلك ـ والله أعلم ـ لحكمة بديعة وهى : أن المقصود الأعظم براءته من معبوديهم بكل وجه وفى كل وقت . فأتى أولا بصيغة الفعل الدالة على الحدوث والتجدد ، ثم أتى فى هذا النفى بعينه بصيغة اسم الفاعل فى الثانى . أن هذا ليس وصفى ولاشأنى ، فكأنه قال : عبادة غير الله لاتكون فعلا لى ولا وضعا لى . فأتى بنفيين مقصودين بالنفى : وأما فى حقهم فإنما أتى بالاسم الدال على الوصف والثبوت دون الفعل . أى : أن الوصف الثابت اللازم العائد لله منتف عنكم ، فليس هذا الوصف ثابتا لكم ، وإنما ثبت لمن خص الله وحده بالعبادة ، ولم يشرك معه فيها أحدا ، وأنتم لما عبدتم غيره فلستم من عابديه . وان عبدوه فى بعض الأحيان . فإن المشرك يعبدك يعبدالله ويعبد معه غيره ، كما قال أهل الكهف : ﴿ وإذا اعتزلتموهم ومايعبدون إلا الله ﴾[١] أى : اعتزلتم معبوديهم إلا الله ، فإنكم لم تعتزلوه . . وكذا قال المشركون عن معبوديهم : ﴿ مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾[٢] منهم كانوا يعبدون معه غيره ، فلم ينف عنهم الفعل لوقوعه منهم ، ونفى الوصف لأن من عبد غير الله لم يكن ثابتا على عبادة الله موصوفا بها .

فتأمل هذه النكتة البديعة ، كيد تجد فى طيها أنه لايوصف بأنه عابد لله ، وأنه عبده المستقيم على عبادته . إلا من انقطع إليه بكليته ، وتبتل اليه تبتيلا ، لم يلتفت إلى غيره ، ولم يشرك به أحدا فى عبادته ، وأنه إن عبده وأشرك معه غيره ، فليس عابدا لله ، ولاعبدا له وهذا من أسرار هذه السورة العظيمة

---

(١) سورة الكهف الآية : ١٦
(٢) الزمر الآية : ٣

الجليلة ، التى هى احدى سورتى الاخلاص ، التى تعدل ربع القرآن ، كما جاء فى بعض السنن . وهذا لايفهمه كل أحد ، ولايدركه إلا من منحه الله فهما من عنده . فله الحمد والمنة .

الفائدة الرابعة :

وهى أن النفى فى هذه السورة أتى بأداة «لا» دون «لن» فلما تقدم تحقيقه عن قرب أن النفى بـ «لا» أبلغ منه بـ «لن» وأنها أدل على دوام النفى وطوله من «لن» وأنها للطول والمد الذى فى لفظها طال النفى بها واشتد ، وأن هذا ضد مافهمته الجهمية والمعتزلة من أن «لن» إنما تنفى المستقبل ولاتنفى الحال المستمر النفى فى الاستقبال ، وقد تقدم تقرير ذلك بما لاتكاد تجده فى غير هذا التعليق ، فالاتيان بـ «لا» متعين هنا . . والله أعلم .

الفائدة الخامسة

وهى : اشتمال هذه السورة على النفى المحض ، فهذا هو خاصة هذه السورة العظيمة ، فأنها سورة البراءة من الشرك ، كما جاء فى وصفها : أنها براءة من الشرك فمقصودها الأعظم هو البراءة المطلوبة من الموحدين والمشركين ولهذا أتى بالنفى فى الجانبين ، تحقيقا للبراءة المطلوبة . وهذا مع أنها متحفة للاثبات صريحا . فقوله : ﴿ **لاأعبد ماتعبدون** ﴾ براءة محضة ﴿ **ولا أنتم عابدون ماأعبد** ﴾ اثبات أن له معبودا يعبده وحده وأنتم بريئون من عبادته . فتضمنت النفى والاثبات وطابقت قول ابراهيم إمام الحنفاء : ﴿ **إننى براء مما تعبدون إلا الذى فطرنى** ﴾[1] وطابقت قول الفئة الموحدة : ﴿ **وإذ اعتزلتموهم ومايعبدون إلا الله** ﴾[2] فانتظمت حقيقة « لا إله إلا الله » ولهذا كان النبى - ﷺ - يقرنها بسورة (قل هو الله أحد) فى سنة الفجر وسنة المغرب .

فإن هاتين السورتين سورتا الإخلاص ، وقد اشتملتا على نوعى التوحيد الذى لا نجاة للعبد ولافلاح له إلا بهما ، وهما توحيد العلم والاعتقاد المتضمن تنزيه الله عما لا يليق به من الشرك والكفر والولد والوالد ، وانه إله (أحد صمد لم يلد) فيكون له فرع ، (ولم يولد) فيكون له أصل (ولم يكن له كفوا أحد) فيكون له نظير . ومع هذا فهو الصمد الذى اجتمعت له صفات الكمال كلها .

فتضمنت السورة إثبات مايليق بجلاله من صفات الكمال ونفى مالايليق به من الشريك أصلا وفزعا ونظيرا فهذا توحيد العلم والاعتقاد .

والثانى : توحيد القصد والإرادة وهو : ألا يعبد إلا إياه فلا يشرك به فى عبادته سواه ، بل يكون وحده هو المعبود .

---

(١) سورة الزخرف الآيتان : ٢٦ ، ٢٧

(٢) الكهف الآية : ١٦

وسورة (قل يأيها الكافرون) مشتملة على هذا التوحيد ، فانتظمت السورتان نوعى الوحيد واخلصتا له ، فكان ـ ﷺ ـ يفتتح بهما النهار فى سنة الفجر ، ويختتمه بهما فى سنة المغرب ، وفى السنن أنه ـ ﷺ ـ كان يوتر بهما » فيكونان خاتمة عمل الليل كما كانا خاتمة عمل النهار .

الفائدة السادسة

ومن هنا تخريج جواب المسألة السادسة وهى . تقديم براءته من معبودهم ، ثم اتبعها ببراءتهم من معبوده فتأمله .

الفائدة السابعة

وهى : اثباته هذا بلفظ : ﴿ **يأيها الكافرون** ﴾ دون يأيها الذين كفروا فسره ـ والله أعلم ـ ارادة الدلالة على أن من كان الكفر وصفا ثابتا له لازما لايفارقه ، فهو حقيق أن يتبرأ الله منه ، ويكون هو أيضا بريئا من الله ، فحقيق بالموحد البراءة منه ، فكان فى معرض البراءة التى هى غاية البعد والمجانبة بحقيقة حالة ، التى هى غاية الكفر ، وهو الكفر الثابت اللازم ، فى غاية المناسبة ، فكأنه يقول : كما أن الكفر لازم ، لكم ثابت لاتنتقلون عنه فمجانبتكم والبراءة منكم ثابتة لى دائما ابدا ، ولهذا اتى فيها بالنفى الدال على الاستمرار فى مقابلة الكفر الثابت المستمر . وهذا واضح .

الفائدة الثامنة :

وهى : ماهى الفائدة فى قوله : ﴿ **لكم دينكم ولى دين** ﴾ وهل أفاد هذا معنى زائد على ماتقدم ؟

فيقال . فى ذلك من الحكمة ـ والله أعلم ـ أن النفى الأول أفاد البراءة وأنه لايتصور منه ، ولاينبغى له : أن يعبد معبوديهم ، وهم أيضا لايكونون عابدين لمعبوده ، وأفاد آخر السورة اثبات ماتضمنته النفى من جهتهم من الشرك والكفر الذى هو حظهم وقسيمهم ونصيبهم ، فجرى ذلك مجرى من اقتسم هو وغيره أرضا فقال له : لاتدخل فى حدى ، ولا أدخل فى حدك ، لك أرضك ، ولى أرضى .

فتضمنت الآية أن هذه البراءة اقتضت أنا اقتسمنا خطتنا بيننا ، فأصابنا التوحيد والإيمان ، فهو نصيبنا وقسمنا الذى نختص به لاتشركونا فيه ، وأصابكم الشرك بالله والكفر به ، فهو نصيبكم وقسمكم الذى تختصون به لانشرككم فيه ، فتبارك من أحيا قلوب من شاء من عباده بفهم كلامه .

(وهذه المعانى ونحوها إذا تجلت للقلوب رافلة فى حالها ، فإنها تسبى القلوب) .

وهذه المعانى ونحوها إذا تجلت للقلوب ، رافلة فى حللها ، فإنها تسبى القلوب وتأخذ بمجامعها ، ومن لم يصادف من قلبه حياة ، فهى خود تزف إلى ضرير مقعد ، فالحمد لله على مواهبه التى لا منتهى لها ، ونسأله اتمام نعمته .

الفائدة التاسعة .

وهى : تقديم قسمهم ونصيبهم على قسمه ونصيبه ، وفى أول السورة قدم ما يختص به على ما يختص بهم .

فهذا من أسرار الكلام ، وبديع الخطاب ، الذى لا يدركه الا فحول البلاغة وفرسانها ، فإن السورة ما اقتضت البراءة واقتسام دينى التوحيد والشرك بينه وبينهم ، ورضى كل بقسمه ، وكان المحق هو صاحب القسمة ، وقد أبرز النصيبين وميز القسمين ، وعلم أنهم راضون بقسمهم الدون ، الذى لا أردأ منه ولا أدون ، وأنه هو قد استولى على القسم الأشرف ، والحظ الأعظم ، بمنزلة من اقتسم هو وغيره سماً وشفاء ، فرضى مقاسمه بالسم ، فإنه يقول له : لا تشاركنى فى قسمى ، ولا أشاركك فى قسمك ، لك قسمك ، ولى قسمى .

فتقدم ذكر قسمة هنا أحسن وأبلغ ، كأنه يقول : هذا هو قسمك الذى آثرته بالتقديم ، وزعمت أنه أشرف القسمين ، وأحقها بالتقديم ، فكان فى تقديم ذكر قسمه من التهكم بهم ، والنداء على سوء اختيارهم ، وقبح ما رضوه لأنفسهم من الحسن والبيان ، مالا يوجد فى ذكر تقديم قسم نفسه ، والحاكم فى هذا هو الذوق ، والفطن يكتفى بأدنى إشارة ، وأما غليظ الفهم فلا ينجح فيه كثرة البيان .

ووجه ثان . وهو : أن مقصود السورة براءته ـ صلى الله عليه وسلم ـ من دينهم ومعبودهم ، هذا هو لبها ومغزاها ، وجاء ذكر براءتهم من دينه ومعبوده بالقصد الثانى ، مكملاً لبراءته ومحققا لها ، فلما كان المقصود براءته من دينهم بدأ به فى أول السورة ، ثم جاء قوله : ﴿ **لكم دينكم** ﴾ مطابقاً لهذا المعنى ، أى لا أشارككم فى دينكم ، ولا أوافقكم عليه ، بل هو دين باطل ، تختصون أنتم به ولا أشارككم فيه أبداً ، فطابق آخر السورة أولها ، فتأمل ا . هـ .

تفسير سورة النصر

مقدمة عن السورة :

قال صاحب البصائر :

السورة مدنية .

عدد آياتها : ثلاث .

وكلماتها : ست وعشرون .

وحروفها : أربع وسبعون .

فواصل آياتها : على الحاء والألف وليس فى القرآن آية على الحاء غير الفتح .

سميت سورة النصر ، لقوله ﴿ **إذا جاء نصر الله** ﴾ ، وسورة التوديع ، لما فيه من بيان نعى المصطفى ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

معظم مقصود السورة :

بيان نعيه صلى الله عليه وسلم ، وذكر تمام نصرة أهل الإسلام ، ورغبة الخلق فى الإقبال على دين الهدى وبيان وظيفة التسبيح والاستغفار ، والأمر بالتوبة فى آخر الحال بقوله : ﴿ **واستغفره إنه كان توابا** ﴾ .

مناسبة السورة لما قبلها :

أنه لما ذكر فى السورة السابقة اختلاف دين الرسول الذى يدعو إليه ، ودين الكفار الذى يعكفون عليه ، أشار فى هذه السورة إلى أن دينهم سيضمحل ويزول ، وأن الدين الذى يدعو إليه سيغلب عليه ، ويكون هو دين السواد الأعظم من سكان المعمورة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾

معانى المفردات

﴿ النصر ﴾ العون . يقال نصر الأخ أخاه ، أعانه على أمره فالنصر الإعانة على إدراك المطلوب .

﴿ والفتح ﴾ هو إدراك المطلوب ، فكأنما النصر سبب للفتح ، فكان البدء به ثم التعقيب بالفتح . ومن معانى الفتح ـ الفصل والحكم بين المتنازعين يقول تعالى : ﴿ ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين ﴾[1] .

﴿ أفواجا ﴾ وأحدهم فوج ، وهو الجماعة والطائفة .

﴿ واستغفره ﴾ أى اسأله أن يغفر الذنوب لقومك الذين اتبعوك .

﴿ توابا ﴾ أى كثير القبول لتوبة عباده .

التفسـير

قوله تعالى : ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم يذكره ربه بالنعمة والفضل عليه وسائر المؤمنين ، والمعنى : إذا نصرك الله يا محمد على أعدائك ، وفتح عليك مكة أم القرى ، قال المفسرون : الإخبار بفتح مكة قبل وقوعه إخبار بالغيب ، فهو من أعلام النبوة .

قال القرطبى : قيل : المراد بهذا النصر ، نصر الرسول على قريش ، قاله الطبرى . وقيل : نصره على من قاتله من الكفار ، فإن عاقبة النصر كانت له ، وأما الفتح فهو فتح مكة ، عن الحسن ومجاهد وغيرهما وقال ابن عباس وسعيد بن جبير : هو فتح المدائن والقصور . وقيل فتح سائر البلاد . « وإذا » بمعنى « قد » أى قد جاء نصر الله ، لأن نزولها بعد الفتح . ويمكن أن يكون معناه : إذا يجيئك . ا . هـ .

قوله تعالى : ﴿ ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجاً ﴾ أى ورأيت العرب وغيرهم يدخلون فى دين الله ـ الاسلام . جماعات جماعات من غير حرب ولا قتال ، وذلك لما فتحت مكة ، قالت العرب : أما إذا ظفر محمد بأهل الحرم وقد كان الله أجارهم من أصحاب الفيل ، فليس لكم به يدان ـ أى طاعة ، فكانوا يسلمون أفواجاً أمة أمة ، وذلك أنه ورد من اليمن سبعمائة انسان مؤمنين طائعين ، بعضهم يؤذنون ، وبعضهم يقرءون القرآن ، وبعضهم يهللون ، فسُر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بذلك وبكى عمر وابن عباس .

---

(١) الأعراف آية : ٨٩

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « أتاكم أهل اليمن هم أضعف قلوباً وأرق أفئدة ، الفقه يمان والحكمة يمانية »[1] .

قوله تعالى : ﴿ **فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً** ﴾ أى إذا صليت فأكثر من ذلك وقيل : معنى سبح : صل ، عن ابن عباس . (بحمد ربك) أى حامداً له على ما آتاك من الظفر والفتح (واستغفره) أى سل الله الغفران .

روى الأئمة واللفظ للبخارى عن عائشة رضى الله عنها قالت : ما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة بعد أن نزلت عليه سورة ﴿ **إذا جاء نصر الله والفتح** ﴾ إلا يقول : « سبحانك ربنا وبحمدك اللهم اغفر لى » وعنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول فى ركوعه وسجوده « سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لى »[1] . يتأول القرآن .

وقال عكرمة رضى الله عنه : لم يكن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قط أشد اجتهاداً فى أمور الآخرة ما كان منه عند نزولها .

وقال مقاتل : لما نزلت قرأها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ على أصحابه : ومنهم أبو بكر وعمر وسعد بن أبى وقاص ، ففرحوا واستبشروا وبكى العباس ، فقال له النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ « ما يبكيك يا عم » ؟ قال : نعيت إليك نفسك . قال : « إنه لكما تقول » فعاش بعدها ستين يوماً ما رئى فيها ضاحكاً مستبشرا . وقيل : نزلت فى منى بعد أيام التشريق فى حجة الوداع ، فبكى عمر والعباس ، فقيل لهما : أن هذا يوم فرح . فقالا : بل فيه نعى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ « صدقتما نعيت إلىَّ نفسى » .

وفى البخارى وغيره عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كان عمر بن الخطاب يأذن لأهل بدر ويأذن لى معهم . قال فوجد بعضهم من ذلك فقالوا : يأذن لهذا الفتى معنا ومن أبنائنا من هو مثله فقال لهم عمر : إنه مَن قد علمتم . قال : فأذن لهم ذات يوم وأذن لى معهم ، فسألهم عن هذه السورة ﴿ **إذا جاء نصر الله** ﴾ فقالوا : أمر الله عز وجل نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا فتح عليه أن يستغفره وأن يتوب إليه ، فقال : ما تقول يابن عباس ؟ قلت : ليس كذلك ، ولكن أخبر الله نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ حضور أجله ، فقال : ﴿ **إذا جاء نصر الله والفتح** ﴾ فذلك علامة موتك . ﴿ **فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا** ﴾ فقال عمر رضى الله عنه : ما أعلم منها إلا ما تقول »[2] وروى الترمذى قال : كان عمر يسألنى مع أصحاب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال له عبد الرحمن بن عوف : أتسأله ولنا

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه حـ١ ص٧٢ كتاب الايمان باب تفاضل أهل الايمان فيه ورجحان أهل اليمن فيه رقم ٥٢/٨٤
(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه حـ٦ ص ٢٢٠ كتاب التفسير باب سورة إذا جاء نصر الله .
(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه حـ٦ ص ٢٢٠ ، ٢٢١ كتاب التفسير باب سورة إذا جاء نصر الله والفتح .

بنون مثله ؟ فقال له عمر : إنه من حيث نعلم . فسأله عن هذه الآية ﴿ **إذا جاء نصر الله والفتح** ﴾ فقلت : إنما هو أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أعلمه إياه ، وقرأ السورة إلى آخرها . فقال له عمر : والله ما أعلم منها إلا ما تعلم . قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح[1] .

وقوله تعالى : ﴿ **إنه كان تواباً** ﴾ أى على المسبحين والمستغفرين ، يتوب عليهم ويرحمهم ، ويقبل توبتهم .

وإذا كان عليه الصلاة والسلام يؤمر بالاستغفار وهو المعصوم فما الظن بغيره .

روى مسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر من قول « سبحان الله وبحمده ، أستغفر الله وأتوب إليه » قالت : فقلت : يا رسول الله ، أراك تكثر من قول « سبحان الله وبحمده ، أستغفر الله وأتوب إليه » ؟ فقال : « خبَّرنى ربى أنى سأرى علامة فى أمتى ؟ فإذا رأيتها أكثرت من قول سبحان الله وبحمده ، أستغفر الله وأتوب إليه ، فقد رأيتها »[2] ﴿ **إذا جاء نصر الله والفتح** ﴾ ـ فتح مكة ـ ﴿ **ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجاً فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً** ﴾ . وصلى وسلم ربنا على محمد وآله وأصحابه الذين هاجروا وجاهدوا ورابطوا فى سبيل الله .

« لا إله إلا الله وحده ، أعز جنده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، فلا شىء بعده » .

اللهم يا حى ، يا قيوم ، يا مالك الملك ، تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير ، إنك على كل شىء قدير ، نسألك أن تبرم لهذه الأمة أمر رشد ، يعز فيه أهل طاعتك ، ويذل فيه أهل معصيتك ، ويؤمر فيه بالمعروف ، وينهى فيه عن المنكر ، ونسألك أن تطهر بالتوبة النصوح فساد قلوبنا ، وأن تجمع قلوبنا على خشيتك ، وأن تهدينا إلى أقرب الطرق إليك برحمتك يا أرحم الراحمين .

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه جـ٥ ص ٤١٦ ، ٤٢٠ كتاب تفسير القرآن باب من سورة النصر رقم ٣٣٦٢
(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه جـ١ ص ٣٥١
كتاب الصلاة . باب ما يقال فى الركوع والسجود . رقم ٤٨٤/٢٢٠

تفسير سورة
(المســد)

مقدمة عن السورة :

قال صاحب البصائر :

السورة مكية .

عدد آياتها : خمس .

وكلماتها : ثلاث وعشرون .

وحروفها : سبع وسبعون .

فواصل آياتها : (تبٌّ) .

وتسمى سورة تبت ، وسورة المسد لذكرها فيها .

مقصود السورة :

تهديد أبى لهب على الجفاء والإعراض ، وضياع كسبه وأمره ، وبيان ابتلائه يوم القيامة ، وذم زوجه فى إيذاء النبى صلى الله عليه وسلم ، وبيان ما هو مدخر لها من سوء العاقبة .

ومن المتشابه :

قوله تعالى : ﴿ تبت ﴾ وبعده ﴿ وتب ﴾ هذا ليس بتكرار ، لأن الأول جرى مجرى الدعاء ، والثانى خبر ، أى وقد تب .

مناسبة السورة لما قبلها :

أنه ذكر فى السورة السابقة ، أن ثواب المطيع حصول النصر والاستعلاء فى الدنيا ، والثواب الجزيل فى العقبى ، وهنا ذكر أن عاقبة العاصى الخسارة فى الدنيا والعقاب فى الآخرة ، والاتساق بين هذه السورة وسورة (النصر) التى قبلها اتساق تام كامل ، فسورة « النصر » ختمت بذكر المهتدين الذين أحيوا أنفسهم ، ودخلوا فى دين الحق أفواجا ، فبقى الفريق الذى جحد الحق ، وعادى دعوته ، فخسر نفسه وأهلك إنسانيته .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ﴿٥﴾

معانى المفردات

﴿ **التباب** ﴾ الهلاك والخسران . قال تعالى : ﴿ **وما كيد فرعون إلا فى تباب** ﴾[1] .

﴿ **وأبو لهب** ﴾ أحد أعمام النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ واسمه عبد العزى بن عبد المطلب .

﴿ **وتب** ﴾ أى قد تب وخسر .

﴿ **يصلى ناراً** ﴾ أى يجد حرها ويذوقه .

﴿ **ذات لهب** ﴾ لهب النار : ما يسطع منها عند اشتعالها وتوقدها .

﴿ **الجيد** ﴾ العنق .

﴿ **المسد** ﴾ الليف .

التفسـير

قوله تعالى : ﴿ **تبت يدا أبى لهب وتب** ﴾ دعاء بهلاك اليدين ، لأنهما آلة البطش والعدوان ، ثم دعاء بعد ذلك بهلاك شامل لصاحب اليدين ، أو الأولى دعاء ، الثانية إخبار بأن الدعاء قد أجيب فعلاً ، وأن الهلاك قد تحقق . (وأبو لهب) كنية لهذا الطاغية الجبار واسمه (عبد العزى) بن عبد المطلب فهو عم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد امتازت عداوته الشديدة لابن أخيه ، بتكالب واستماتة لفشل الدعوة المحمدية والصد عن سبيل الله .

وهذه الكنية ، إما كانت لهذا الطاغية فى الجاهلية ، لأن فى وجهه التماعاً وسطوعاً ، فذكرها الكتاب الحكيم لا تكرمة له ، ولا تعظيماً لشأنه ، بل تهكماً به ، وسخرية منه . فما تنفع وسامة الطلعة فى سواد القلب ، يوم تقلب وجوههم فى النار .

وأما كنَّاه بها القرآن ، لأول مرة ، ولم يكن له بذلك الكنية عهد فى الجاهلية ، فنسبه إلى اللهب الذى سيتعذب به ، وذلك أسلوب عربى سائغ ، فكما تقول للرجل الخير أبا الخير ، وللبار أبا البر ، وللمحسن أبا الإحسان كذلك ، تقول للشرير أبا الشر ، وللمسىء أبا السوء ، فهذه التكنية حددت مصيره ، فجعلته

(١) غافر آية : ٣٧

رجلاً جهنمياً ملازماً لجهنم ، ملازماً للهب ، لهذا السعير المتأجج . فالكنية ، هنا تهكم وتشهير ، والتوافق بين مصير عبد العزى وبين كنيته القرآنية توافق قد احكم وضعه ، وسمت بلاغته .

ثم يروعنا فى تلك السورة ، أسلوب فريد فى الإرهاب والتشهير ، فالسورة تصب الوعيد صباً ، وتصور العذاب تصويراً ، وتسم الأثيم بوصمة وسبة ، تبقى أبد الآبدين ، عبرة للمعتبرين ، ثم هى تذكر امرأة جامحة آثمة ، جمعت إلى عدواتها للحق ، استشراءها فى تقطيع المودات ، وفصم الوشائج والصلات ، وإشاعة السوء فى المجتمع ، كى يصبح شعلة من نيران العداوة والبغضاء ، بما تبثه من النمائم بين الناس . ذكرت السورة ، فى الأسلوب اللاذع الرهيب ، هاتين الشخصيتين ، عبد العزى ـ أبا لهب ـ وامرأته ـ أم جميل ـ حمَّالة الحطب ، لا لأنهما عدوان لمحمد صلى الله عليه وسلم ، ولا لأنهما أمعنا فى الإساءة الى شخصه الكريم ، فكثير سواهما قد أمعن فى الإيذاء ، وبالغ فى العدوان من أمثال ، أبى جهل بن هشام ، والعاص بن وائل ، وعقبة بن أبى معيط ، والأسود بن المطلب ، والوليد بن المغيرة . فكل هؤلاء عادى محمد صلى الله عليه وسلم وكل هؤلاء آذاه وحسده ، وجحد بنوته ، ومع هذا ، لم يذكر واحد منهم فى الآيات البينات بوضوح وجلاء ، كما ذكر أبو لهب وامرأته موسومان بالسبة الأبدية الرادعة .

فما سر هذا التمييز بين المجرمين والتخصيص بين الآثمين ؟

لعل تخصيص هاتين الشخصيتين ـ أبى لهب وامرأته ـ بهذا الأسلوب الحار المتأجج من الوعيد ، راجع إلى ما انفرد به أبو لهب من العدوان والبغضاء للدعوة الإسلامية ولدين التوحيد فى أصوله ، فلقد تجاوز أبو لهب كراهة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى كراهة دعوته ، كراهة محرمة آثمة طاغية ، فكان جدّ حريص على تعويق الدعوة ، وعلى صد الناس عنها ، لا يهدأ ولا يستقر ، أو يفسد أمر هذا الدين الحنيف ، ويتبدد ضياء الحق المبين .

كان من دأب أبى لهب أنه لا يقتصر عن تكذيب ـ محمد صلى الله عليه وسلم ـ بل لقد كان يتعقبه فى غدوه ورواحه ، فى ليله ونهاره ، منفردا ومجتمعاً . ثم لا يألوا فى صد الناس عن سبيل الحق ، وكلما رأى النور يقتحم اغلاق الصدور ، وينفذ فى ظلمات الشرك ، ذهب يتردى فى سوآته حريصاً جاهداً أن تنطفىء جذوة التوحيد ، وهاكم ما قاله رجل جاهلى ، حضر سوقاً من الأسواق الجاهلية ، وهذا الرجل هو طارق المحاربى ، قال : بينما أنا بسوق ذى المجاز إذ برجل حديث السن يقول : أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا . وإذا خلفه رجل يرميه بالحجارة حتى أدمى ساقيه ، وهو يصيح : أيها الناس : إنه كذّاب فلا تصدقوه . فقلت من هذا ، فقالوا : هو محمد ، يقول : إنه نبى ، وهذا عمه ، عبد العزى يزعم أنه كذاب .

هكذا كان يتبع أبو لهب محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ أينما سار ، وحيثما رحل ، وكلما شاهده ينذر الناس ، ويحذرهم من عذاب الله ، هاج هائجه ، واضطرم غيظه وراح يعقب على أحسن الحديث ، بحديث الحاقد الآفك . إذن لم تكن عدواته لشخص الرسول ، بل لدعوة الرسول ، ولعقيدة الرسول ،

وهو فى حرصه على خذلان الدعوة كالنمر والكلب لا يهدأ ولا يسكن ، لا يستقر ولا يستريح ولا يدع سبيلا لهدى محمد إلى قلوب الناس .

روى أحمد والشيخان والترمذى عن ابن عباس رضى الله عنهما ، قال : كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يكتم أمره فى أول المبعث ، ويصلى فى شعاب مكة ثلاث سنين . إلى أن نزل قوله تعالى : ﴿ **وأنذر عشيرتك الأقربين** ﴾ فصعد الصفا ونادى : « يا آل غالب . يا آل لؤى . يا آل مره ، يا آل كلاب . يا آل قصى . فخرجوا إليه » وجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر الخبر . وخرج معهم (أبو لهب) .

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادى تريد أن تغير عنيكم . أكنتم مصدقى ؟؟ قالوا : نعم ما جربنا عليك كذباً . قال : فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد . فبادر أبو لهب . وقال : تباً لك سائر الأيام . ألهذا جمعتنا ؟ ثم تناول حجراً بيده ليرمى به محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ فنزلت السورة ﴿ **تبت يدا أبى لهب وتب** ﴾[1] .

قوله تعالى : ﴿ **ما أغنى عنه ماله وما كسب** ﴾ .

وقد وقع هذا فعلاً ، فإن (أبا لهب) بعد دعوة القرآن عليه ـ قد ناله الهلاك والتباب على صورة ذليلة حقيرة ، فلا المال أجدى عليه ، ولا أبقى له حنان الأبناء والأقرباء ، (وما كسب) أى شىء وكان كسبه بهذا المال ؟ لقد كسب به آثاما وعقوقاً وكفراً وجحوداً ، ثم مات حليف الهموم والأحزان ، طريداً من عشيرته ، قد أذله الوباء ، وأعوزه من أهله الوفاء .

ويروى (أبو رافع) مولى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حادثة هلاكه فيقول : « لقد تخلف (أبو لهب) عن بدر ، وبعث مكانه العاص بن هشام ، وكان الرجل منهم إذا تخلّف ، بعث مكانه رجلاً آخر ، فبينما نحن جلوس بجوار زمزم ، إذ أقبل أبو سفيان راجعاً من بدر ، فسأله (أبو لهب) عن أنباء الحرب ، فطفق يذكر أنباء الهزيمة التى حلت بالمشركين فى بدر ، وأنه شاهد فى صفوف محمد رجالا لا عهد له بهم ، فوق ظهور خيل مسومة ، فقال أبو رافع : هؤلاء والله الملائكة ، فغضب (أبو لهب) وشج رأس أبى رافع ، فقامت أم الفضل بنت العباس عم محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهى فتاة ناشئة قد أسلمت ، قامت فقذفت بعمود من أعمدة الخيام رأس (أبى لهب) فشجته ، وهى تقول : « والله لقد صدق فيما قال » .

فانصرف (أبو لهب) ذليلاً حزيناً ، وما عاش الا سبع ليال بعد بدر إذ رماه الله بالعدسَه ، فأودت به ، والعدسة (بثرة) خبيثة ، ترى فى ظاهر الجسم ، وهى وباء يتقى منه ، ولهذا تركه أبناؤه وأتباعه وهو

(1) أخرجه مسلم فى صحيحه جـ ١ ص ١٩٣ ، ١٩٤ كتاب الايمان باب قوله تعالى « وأنذر عشيرتك الأقربين » . رقم ٨/٣٥٥ انظر سنن الترمذى حـ ٥ ص ٤٢٠ كتاب التفسير باب ومن سورة تبت يدا . رقم ٣٣٦٣ .

ميت فراراً من العدوى ، فجاء بعض العبيد وحملوه وقذفوا به فى حفرة نائية ، وهالوا عليه الحجارة والتراب ، فحقاً لقد مات ميتة البائسين الأذلاء ، ما أغنى عنه ماله وما كسب .

وقوله تعالى : ﴿ سيصلى ناراً ذات لهب ﴾ السين هنا ـ لتأكيد الوعيد ، والتنوين فى (ناراً) لتعظيم أمرها ، وأنها نار فوق مدارك العقول (ذات لهب) تصوير لما فيها من آلام وعذاب .

وقوله تعالى : ﴿ وامرأته حمّالة الحطب ﴾ ستصلى معه ذلك العذاب المهين ، وامرأته هى (أم جميل) بنت حرب ، أخت أبى سفيان ، وعمة معاوية ، وكانت امرأة جامحة فى عدائها ، فكانت تجمع الشوك والحطب ، وتلقى به فى طريق محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليتأذى ويتألم ، ثم هى أيضاً كانت تمشى بالنميمة ، وتعمل جاهدة على بذر الشقاق ، وبث الكراهية لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والعرب تقول لمن ديدنه النمائم والافساد بين الناس : أنه يحمل الحطب ، أى يوقد بينهم النار ، ويورث الشر ، فالحطب شعار للنميمة ، والمقصود أنها تشعل الفتن ، وتثير النفوس ضد محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

قوله تعالى : ﴿ فى جيدها حبل من مسد ﴾ أى فى عنقها حبل مما مُسد من الحبال ، أى أحكم فتله ، وقد صورها الله تعالى بصورة من تحمل تلك الحزمة من الشوك ، وتربطها فى جيدها ، كبعض الحطّابات المستهنات احتقارا لها ، واحتقاراً لبعلها . حين اختارت ذلك لنفسها .

ويرى بعض العلماء أن المراد بيان حالها ، وهى فى نار جهنم ، إذ تكون على الصورة ، التى كانت عليها فى الدنيا ، حين كانت تحمل الشوك ايذاء لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فهى لا تزال تحمل حزمة من حطب النار ، ولا يزال فى جيدها حبل من سلاسلها ، ليكون جزاؤ ها من جنس عملها ، فقد روى عن سعيد بن المسيب أنه قال : كانت لأم جميل قلادة فاخرة ، فقالت لأنفضنها فى عداوة محمد ، فأعقبها الله حبلاً فى جيدها من مسد النار .

ما أعظم هذا الوعيد ، الذى سجل الله له الخلود ، وعيد الذين يعادون الحق ويجانبون الخير ، ووعيد الذين يمشون بالنمائم ، فيمزقون الأعراض ، ويهدمون الأخلاق ، فكل من وقف فى سبيل الحق ، وكل من عوق عن طريق الخير ، وكل قاطع لما أمر الله به أن يوصل من أخوة ، ومن مودة ، فله مثل هذا الوعيد ، وهو شريك لأبى لهب ، شريك لحمّالة الحطب .

نعوذ بالله من أمثال أبى لهب ، ومن أمثال حمّالة الحطب .

قال العلماء :

فى هذه السورة معجزة ظاهرة ودليل واضح على النبوة ، فإنه منذ نزل قوله تعالى : ﴿ سيصلى ناراً ذات لهب ، وامرأته حمّالة الحطب فى جيدها حبل من مسد ﴾ فأخبر عنهما بالشقاء وعدم الايمان ، لم يقض لهما أن يؤمنا ولا واحد منهما لا باطناً ولا ظاهراً ، لا سراً ولا معلناً ، فكان هذا من أقوى الأدلة الباهرة على النبوة الطاهرة .

تفسير سورة الأخلاص

مقدمة عن السورة :

قال صاحب البصائر .

السورة مكية .

عدد آياتها : أربع .

وكلماتها : احدى عشرة .

وحروفها : سبع وأربعون .

فواصل آياتها : على الدال .

ولها عشرون اسماً :

سورة التوحيد ، وسورة التفريد ، وسورة التجريد ، وسورة الاخلاص ، وسورة النجاة ، وسورة الولاية ، والسابع سورة المعرفة ، الثامن سورة الجمال ، التاسع المقشقشة وقد سبق فى (قل يا أيها الكافرون) العاشر الأمان ، لأنه روى « إذا قال العبد بقلبه لا إله إلا الله دخل حصنى ومن دخل حصنى أمن عذابى »[1] الحادى عشر : المعوذة لما روى أن النبى صلى الله عليه وسلم دخل على عثمان بن مظعون فعوذه بها الثانى عشر سورة الصمد ، الثالث عشر : الأساس ، الرابع عشر : المانعة كما يروى ابن عباس : إذ هى مانعة العذاب عما ينزه الله . الخامس عشر : المُحضرة ، لأن الملائكة تحضر لاستماعها الحق ، وموقظة الضمائر الغافلة ولا مجال للشيطان الا عند غفلة الضمائر . السابع عشر : البراءة أى المنافق . الثامن عشر : المذكرة التاسع عشر الشافية ، العشرون سورة النور ، لما فى الخبر إن لكل شىء نورا ونور القرآن (قل هو الله أحد) .

معظم مقصود السورة :

بيان الوحدانية ، وذكر الصمد ، وتنزيه الحق عن الولد والوالد والولادة ، والبراءة من الشركة والشريك فى المملكة .

---

(١) انظر كنز العمال حـ ١ ص ٥٤ رقم ١٦٧

ومن المتشابه : قوله تعالى : ﴿ الله الصمد ﴾ كرر ليكون كل جملة بها مستقلة بذاتها غير محتاجة إلى ما قبلها ، ثم نفى عنه سبحانه الولد بقوله : ﴿ لم يلد ولم يولد ﴾ والصاحبة بقوله : ﴿ ولم يكن له كفوا أحد ﴾ .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾

فضل السورة الكريمة :

- ثبت فى صحيح البخارى عن أبى سعيد الخدرى أن رجلاً سمع رجلاً يقرأ (قل هو الله أحد » . فلما أصبح جاء إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - فذكر ذلك له ، وكان الرجل يتقالها ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم : « والذى نفسى بيده إنها لتعدل ثلث القرآن »[1] .

- وعنه قال قال النبى - صلى الله عليه وسلم - : « أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن فى ليلة » فشق ذلك عليهم وقالوا : أينا يطيق ذلك يا رسول الله ؟ فقال : « الله الواحد الصمد ثلث القرآن » .

وخرجه مسلم من حديث أبى الدرداء بمعناه[2] .

- وخرج عن أبى هريرة رضى الله عنه قال - رسول الله صلى الله عليه وسلم : « احشدوا فإنى سأقرأ عليكم ثلث القرآن » فحشد من حشد ، ثم خرج نبى الله - صلى الله عليه وسلم - فقرأ « قل هو الله أحد » ثم دخل فقال بعضنا لبعض : إنى أرى هذا خبراً جاءه من السماء ، فذاك الذى أدخله . ثم خرج فقال : « إنى قلت لكم سأقرأ عليكم ثلث القرآن ألا إنها تعدل ثلث القرآن »[3] قال القرطبى : قال بعض العلماء إنها عدلت ثلث القرآن لأجل هذا الاسم الذى هو « الصمد » فإنه لا يوجد فى غيرها من السور وكذلك « أحد » . وقيل : إن القرآن أنزل ثلاثاً ، ثلثاً منه أحكام وثلثاً منه وعد ووعيد ، وثلثاً منه أسماء وصفات ، وقد جمعت (قل هو الله أحد) أحد الأثلاث ، وهو الأسماء والصفات ، ودل على هذا التأويل ما فى صحيح مسلم من حديث أبى الدرداء عن النبى صلى الله عليه وسلم « إن الله عز وجل جزأ القرآن ثلاثة أجزاء فجعل (قل هو الله أحد) جزءاً من أجزاء (القرآن)[4] .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه حـ٦ ص ٢٣٣ كتاب فضائل القرآن فضل سورة قل هو الله أحد .
(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه حـ٦ ص ٢٣٣ كتاب فضائل القرآن .
(٣) أخرجه مسلم فى صحيحه حـ١ ص ٥٥٧ كتاب صلاة المسافرين باب فضل قراءة قل هو الله أحد رقم ٨١٢/٢٦١
(٤) أخرجه مسلم حـ١ ص ٥٥٦ كتاب صلاة المسافرين . باب فضل قراءة قل هو الله أحد رقم ٢٦٠/ ٨١١

ـ وروى الامام مسلم عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث رجلاً على سرية ، وكان يقرأ لأصحابه فى صلاتهم فيختم بـ (قل هو الله أحد) ، فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم فقال : « سلوه لأى شىء يصنع ذلك » ؟ فسألوه فقال : لانها صفة الرحمن ، فأنا أحب أن أقرأ بها ، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « أخبروه أن الله عز وجل يحبه »[١] .

وعند الترمذى . قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « إن حبها أدخلك الجنة » .

ـ وأخرج الترمذى عن أبى هريرة قال : أقبلت مع النبى صلى الله عليه وسلم فسمع رجلاً يقرأ (قل هو الله أحد) فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وجبت » قلت « وما وجبت » قال : « الجنة » قال الترمذى حديث حسن صحيح[٢] .

ـ وأخرج النسائى والترمذى وابن ماجه من حديث عبد الله بن بريدة عن أبيه ، أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ سمع رجلاً يقول : « اللهم إنى أسألك بأنى أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد » فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « لقد سألت الله باسمه الأعظم الذى إذا سئل به أعطى ، وإذا دعى به أجاب »[٣] .

ـ وقال الامام أحمد بسنده عن سهل بن معاذ بن أنس الجهنى عن أبيه عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « من قرأ قل هو الله أحد حتى يختمها عشر مرات بنى الله له قصراً فى الجنة « فقال عمر : إذا نستكثر يا رسول الله ، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم : « الله أكثر وأطيب » . تفرد به أحمد[٤] ورواه الدارمى فى مسنده عن سعيد بن المسيب يقول أن نبى الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : من قرأ قل هو الله أحد عشر مرات بنى الله له قصراً فى الجنة ومن قرأها عشرين مرة بنى الله له قصرين فى الجنة ، ومن

---

(١) أخرجه مسلم حـ ١ ص ٥٥٧ كتاب صلاة المسافرين . باب فضل قراءة قل هو الله أحد رقم ٨١٣/٢٦٣

(٢) أخرجه الترمذى فى سننه حـ ٥ ص ١٥٤ كتاب فضائل القرآن . باب ما جاء فى سورة الاخلاص . رقم : ٩٧

(٣) أخرجه الترمذى فى سننه حـ ٥ ص ٤٨١ كتاب الدعوات . باب جامع الدعوات عند النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ رقم ٤٧٥ انظر النسائى فى الكبرى والنعوت ، وابن ماجه فى الدعاء . باب اسم الله الأعظم .

(٤) أخرجه الامام أحمد فى سنده حـ ٣ ص ٤٣٧

قرأها ثلاثين مرة بنى الله له ثلاثة قصور فى الجنة » فقال عمر بن الخطاب : إذا نكثر قصورنا ، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « الله أوسع من ذلك » قال ابن كثير وهذا مرسل جيد »[1] .

ـ وقال البخارى عن عائشة رضى الله عنها أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم نفث فيهما وقرأ فيهما قل هو الله أحد ، وقل أعوذ برب الفلق ، وقل أعوذ برب الناس ، ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده يبدأ بهما على رأسه ووجهه وما أقبل من جسده يفعل ذلك ثلاث مرات [2] .

مناسبة السورة لما قبلها .

قال السيوطى : قال بعضهم : وضعت ههنا للوزان فى اللفظ بين فواصلها .

ومقطع سورة تبت .

وأقول : ظهر لى هنا غير الوزان فى اللفظ ، أن هذه السورة متصلة بـ (قل يا أيها الكافرون) فى المعنى ، ولهذا قيل : من أسمائها أيضا الأخلاص . وقد قالوا : أنها اشتملت على التوحيد ، وهذه أيضا مشتملة عليه ، ولهذا قرن بينهما القراءة فى الفجر ، والطواف ، والضحى ، وسنة المغرب ، وصبح المسافر ، ومغرب ليلة الجمعة .

وانما فصل بين النظيرتين بالسورتين (أى النصر وتبت) لما تقدم من الحكمة وكان إيلاؤها سورة تبت ورد عليه بخصوصه .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ قل هو الله أحد ﴾ .

قال الامام أحمد عن أبى بن كعب أن المشركين قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم يا محمد أنسب لنا ربك فأنزل الله تعالى ﴿ قل هو الله أحد الله الصمد . لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ﴾[3] . وكذا رواه الترمذى . وقال عكرمة لما قالت اليهود : نحن نعبد عزير ابن الله ، وقالت النصارى : نحن نعبد المسيح ابن الله ، وقالت المجوس : نحن نعبد الشمس والقمر ، وقالت المشركين : نحن نعبد الأوثان ، أنزل الله على رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ (قل هو الله أحد) يعنى هو الواحد الأحد الذى لا نظير له ولا وزير ولا نديد ولا شبيه ولا عديل ، ولا يطلق هذا اللفظ على أحد فى الإثبات إلا على الله عز وجل ، لأنه الكامل فى جميع صفاته وأفعاله .

---

(١) أخرجه الدارمى فى سننه حـ٢ ص ٢٣٠ كتاب فضائل القرآن باب فضل قل هو الله أحد .
(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه حـ٦ ص ٢٣٣ ، ٢٣٤ كتاب فضائل القرآن . باب « فضل المعوذات » .
(٣) أخرجه الترمذى فى سننه حـ٥ ص ١٢١ كتاب تفسير القرآن باب سورة الاخلاص رقم ٣٤٢٣

فهذا الأمر من الله تعالى فى مفتتح السورة ، منبه للنفوس ، مفتح للقلوب ، حتى يتفرغ الانسان لما سيتقرر من اثبات الأحدية والصمدية ، ونفى الولادة والتولد ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

ولقد كانت ضروب الشرك متباينة ، ومذاهب المشركين متعددة ، فهناك عبدة الأصنام ، وعبدة الكواكب والنجوم ، وهناك عبدة النيران ، وهناك من يزعم الها للخير والها للشر ، وللريح إله ، وللجمال إله ، فلجميع هؤلاء الذين يرتدون فى ظلمات الاشراك ، وبذلوا انسانيتهم ، لمن لا يملك لهم ضراً ولا نفعاً ، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ـ لجميع هؤلاء يأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن (قل لهم (هو) أى الأمر والشأن ، والحال ، والواقع (الله أحد) . فهذا أسلوب عربى بليغ وضمير (هو) يسمى ضمير الشأن ، أو القصة ، ويأتى دائماً عندما يراد تقرير حقيقة اختلف فيه الناس ، فهم منها فى أمر مريج ، فيكون فصل الخطاب فى هذا الشأن الخطير ، والأمر العظيم مبدوءاً بـ (هو) فلا مؤثر فى الأكوان سواه ، وكل من فى الوجود يفنى ويتغير وينعدم :

(كل شىء هالك إلا وجهه ، له الحكم وإليه ترجعون)[1] .

وإنك لتنظر فى ملكوت السموات والأرض ، وما خلق الله من شىء ، فتجد نظام الأفلاك ، ودوران الكواكب ، واختلاف الليل والنهار ، وتعاقب الفصول ، وكل ما يقع عليه الحس ، ويدركه العقل ، كل هذا يوحى بأن هذه العوالم المحكمة البناء ، المؤتلفة الحركات ، الموحدة النظام ، تبعث فى الفكر أنها ذات نظام موحد متسق ، وأن حياة كل جزء متمم لحياة الأجزاء الأخرى ، ومرتبط ببعضها ببعض كل الارتباط .

قال تعالى : ﴿ والهكم إله واحد ، لا إله إلا هو ، الرحمن الرحيم ،إن فى خلق السمٰوات والأرض ، واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾[2] .

وقال تعالى :

﴿ إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى ذلكم الله فأنى تؤفكون . فالق الإصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم . وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون . وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون . وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من

---

(١) القصص آية : ٨٨

(٢) البقرة آية : ١٦٤

أعناب ، والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون ﴾[١] .

وقال جل وعلا :

﴿ خلق السموات والأرض بالحق يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ألا هو العزيز الغفار . خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق فى ظلمات ثلاث ذلكم الله ربكم له الملك لا إله إلا هو فأنى تصرفون ﴾[٢] .

وقال تعالى :

﴿ قل من رب السموات والأرض ، قل الله ، قل أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً ، قل هل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور ، أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقة فتشابه الخلق عليهم ، قل الله خالق كل شىء وهو الواحد القهار ﴾[٣] .

سبحانك اللهم أنت الواحد كل الوجود على وجودك شاهد
يا حى يا قيوم أنت المرتجى وإلى علاك عنى الجبين الساجد

أخا الاسلام :

تأمل فى نبات الأرض وانظر إلى آثار ما صنع المليك
عيون من لجين شاخصات بأبصار هى الذهب السبيك
على قضيب الزبرجد شاهدات بأن الله ليس له شريك

قوله تعالى : ﴿ الله الصمد ﴾ نفى لكل معبود سوى الله ، إذ هو سبحانه وحده المقصود فى العالم ، ومنه وحده المدد والعون ، قال ابن عباس رضى الله عنهما : ﴿ الله الصمد ﴾ أى الذى يصمد إليه فى الحاجات ، كما قال عز وجل : ﴿ ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون ﴾[٤] وقال القرطبى : قال أهل اللغة : الصمد السيد الذى يصمد إليه فى النوازل والحوائج .

وقال قوم : الصمد الدائم الباقى ، الذى لم يزل ولا يزال ، وقيل تفسيره ما بعده ﴿ لم يلد ولم يولد ﴾ وهو تفسير جيد .

---

(١) الأنعام الآيات : ٩٥ - ٩٩
(٢) الزمر الآيتان : ٥ ، ٦
(٣) الرعد آية : ١٦
(٤) النحل آية : ٥٣

وقال أبو هريرة : إنه المستغنى عن كل أحد ، والمحتاج اليه كل أحد .

الهى

يا من تحل بذكره	عقد النوائب والشدائد
يا من إليه المشتكى	وإليه أمر الخلق عائد
يا حى يا قيوم يا	صمد تنزه عن مضادد
أنت الرقيب على العبا	د وأنت فى الملكوت واحد
أنت المعز لمن أطا	عك والمذل لكل جاحد
إنى دعوتك والهمـ	ـوم جيوشها نحوى تطارد
فاخرج بحولك كربتى	يا من له حسن العوائد
فخفى لطفك يستعا	ن به على الزمن المعاند
أنت الميسر والمسبـ	ـب والمسهل والمساعد
يسر لنا فرجا قر	يباً يا الهى لا تباعد
كن راحمى فلقد يئست	من الأقارب والأباعد
ثم الصلاة على النبى	وآله الغر الأماجد
وعلى الصحابة كلهم	ما خر للرحمن ساجد

قوله تعالى : ﴿ لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد ﴾ قوله ﴿ لم يلد ﴾ أى لم يتخذ ولداً ، وليس له أبناء وبنات ، فكما هو متصف بالكمالات ، منزه عن النقائص .

قال المفسرون فى الآية : رد على كل من جعل لله ولداً ، كاليهود فى قولهم ﴿ عزير ابن الله) والنصارى فى قولهم ﴿ المسيح ابن الله ﴾ وكمشركى العرب فى زعمهم أن الملائكة بنات الله ، فرد الله تعالى على الجميع فى أنه ليس له ولد ، لأن الولد لابد أن يكون من جنس والده ، والله تعالى أزلى قديم ، ليس كمثله شىء ، فلا يمكن أن يكون له ولد ، ولأنه الولد لا يكون إلا من زوجه وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة ﴾ ؟[1] .

وقوله تعالى : ﴿ ولم يولد ﴾ أى ولم يولد من أب ولا أم ، لأن كل مولود حادث ، وكل من كان كذلك فنهايته إلى الانحلال والفناء ، والله دائم حى سرمدى ، ليس كمثله شىء .

وبعد أن قررت الآية أنه ـ تعالى ـ وحده المقصود من جميع خلقه ، وأنه هو الملجأ ، وهو المستعان ، فلا ينبغى لذى عقل ولا لذى عقيدة ، أن يلجأ فى شؤونه لغير الله ، ولا أن يعول على سواه بعد ذلك ، تقرر الآية الأخيرة من السورة أنه ليس له فى الوجود مماثل ولا مكافىء ، لا فى القدرة ولا فى العمل . قوله : ﴿ ولم يكن له كفواً أحد ﴾ : أى لم يكن له مماثل ولا مكافىء ، وليس شىء من الموجودات يساويه فى صفاته

(١) الأنعام آية : ١٠١

وعظمته ، ولا فى ذاته ووجوده ، فقدرته تعالى سرمدية ووجوده سرمدى ، وعدله سرمدى ، وفضله سرمدى وإحسانه أبدى سرمدى .

وصياغة الآية ، قدمت كلمة (له) فجاءت (ولم يكن له كفواً أحد) ولم تجىء : ولم يكن أحد كفواً له لأن « له » راجعة إلى الله تعالى ، وأن هذه اللفظة التى كان حقها التأخير ، قد شرفها وعظمها ضمير الجلالة ، فصار حقها التقدم والتصدير .

قال ابن كثير : فى هذه الآية الكريمة : هو مالك كل شىء وخالقه ، فكيف يكون له من خلقه نظير يساميه ، أو قريب يدانيه ؟ تعالى وتقدس وتنزه ، وفى الحديث القدسى : « يقول الله تعالى : كذبنى ابن آدم ، ولم يكن له ذلك ، وشتمنى ولم يكن له ذلك ، فأما تكذيبه إياى فقوله ، لن يعيدنى كما بدأنى ، وليس أول الخلق بأهون علىَّ من إعادته ، وأما شتمه إياى فقوله : اتخذ الله ولداً ، وأنا الأحد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد[1] .

عيسى ابن مريم

« لم تصادف خرافة من الرواج فى العالم مثل الخرافة التى تعد عيسى إلهاً لهذا العالم ـ أو شريكاً فيه مع الله ـ !!

وهذه الخرافة تتسع وتضيق ، حسب اختلاف الأهواء والآراء . فتارة تعتبر هذا العالم خاضعاً لإشراف شركة مساهمة من الله ـ تعالى ـ ثم من عيسى ، وأمه والروح القدس .

وتارة تضييق فتعتبر هؤلاء الشركاء شعباً شتى لحقيقة واحدة ، أو مظاهر متعددة لإله واحد ، على نحو يعجز العقل عن تصوره . .

وذلك كله شرود عن الصواب وضلال كبير .

قال تعالى : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم ﴾[2] . .

وقال سبحانه : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد . . ﴾[3] .

وعيسى عليه السلام بشر ، يأكل ويشرب ويقذف من جسمه بالفضلات الحيوانية ، فكيف تنفى عنه صفة الإنسانية ، أو يزعم له ما هو فوقها .

قال سبحانه : ﴿ ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر انى يؤفكون ﴾[4] .

---

(١) أخرجه البخارى حـ ٦ ص ٢٢٣ كتاب التفسير . باب تفسير سورة « قل هو الله أحد » .

(٢) سورة المائدة آية : ١٧

(٣) سورة المائدة آية : ٧٣

(٤) سورة المائدة آية : ٧٥

ثم هو عبد يعنو وجهه لربه الأعلى ، ويذل فى ساحته ، ويسمع ـ فى صمت وإقرار ـ هذا التقرير الخطير .

﴿ قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعاً ولله ملك السموات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كل شىء قدير ﴾[1] .

وعيسى نفسه يعرف أنه وأمه عبدان فقيران لله . ويوم الحساب يقران بذلك ويستنكران غلو الغالين فيهما .

قال تعالى : ﴿ أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ، قال سبحانك ، ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك إنك أنت علام الغيوب ، ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شىء شهيد ﴾[2] .

والواقع الذى يعلو به صوت البديهية : أنه من المستحيل جعل عيسى إلهاً يخلق ويرزق ، ويحيى ويميت ، ويدبر شئون البلاد والعباد ، وأمر السماء والأرض . . إلخ لأنه فى حياته عبد ضعيف ، وبعد مماته رفات موارى فى حفرة من التراب . .

ومؤلهوا عيسى يشعرون بذلك جيداً .

ومن ثم فهم يلتمسون له القوة ـ التى تجعل منه إلهاً ـ من طبيعة أخرى غير طبيعته العاجزة كإنسان ، وذلك بالتحايل على إيجاد نسبة بينه وبين الله ـ سبحانه وتعالى ـ هى نسبة البنوة ـ كأنه ولى عهد !! وزين لهم هذا التخبط أن عيسى ولد من أم فقط .

والحق أن النسبة بين الله وبين خلقه كافة ، هى نسبة الموجد المتفضل بالإيجاد ، المختار فيه أتم اختيار ، على عالم لا يملك لنفسه خيراً ولا نفعاً ، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً . . وإن كل صامت وناطق فى هذا العالم يدين لله بكينونته ، وهو طوعاً أو كرهاً ، يسبح بحمده ، ويذل لربوبيته .

والله سبحانه وتعالى ، قد جعل بعض مخلوقاته أرضاً وبعضها سماء ، بعضها تراباً ، وبعضها ذهباً ، وبعضها نباتاً ، وبعضها حيواناً ، وبعضها إنساً ، وبعضها جناً . .

فما أعلى شأنه من خلقه ، فهو محض فضله ، وما حدد له وضعه فهو محض حكمته .

وقد يمنح بعض البشر والملائكة مواهب تميزهم عن أقرانهم ، ثم يختارون رسلاً لعباده .

وأيًّا ما يفعل ربك بخلقه ، فإن ذلك لا يمس أصل النسبة المقررة بين العالم وموجده الأعظم .

إذا جعل المهندس بعض أحجار البيت دعائم مختفية فى الطين ، وبعضها الآخر شرفات تعلو فى الفضاء ، ظنت الأحجار العالية أنها قد تحولت مهندساً أو شبه مهندس ؟

أى سخف هذا الذى يجعل بعض الخلق شركاء فى الألوهية ، لأية منح فضل احترام ؟

---

(١) سورة المائدة آية : ١٧

(٢) سورة المائدة آية : ١١٧

وكيف يتصور فى بديع السموات والأرض أن يكون والداً لتلك الأجساد التى ذرأها ؟ وما عيسى فى جانب الملكوت الضخم ؟ ﴿ **قالوا اتخذ الله ولداً سبحانه ، هو الغنى ، له ما فى السموات وما فى الأرض ، إن عندكم من سلطان بهذا ، أتقولون على الله مالا تعلمون** ﴾[١] .

﴿ **وقالوا اتخذ الرحمن ولداً ، سبحانه ، بل عباد مكرمون ، لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون** ﴾[٢] .

وشأن الألوهية أعز مما يهرف به الجهلة ، من ولاة ونبوة واتصال انسال (!) .

﴿ **لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار** ﴾[٣] .

ولو كانت ولادة عيسى من أم فقط ، ترشحه للألوهية ـ بصفة النبوة ـ لكان آدم أولى منه بها ، بل لكان الملائكة المقربون أولى بذلك ، فهم من الملأ الأعلى وليس من الحمأ المسنون !!

﴿ **ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون** ﴾[٤] .

(مستفاد من كتاب عقيدة المسلم/ الشيخ محمد الغزالى)

عن عبادة بن الصامت ، رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن عيسى عبد الله ورسوله ، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، والجنة والنار حق ، أدخله الجنة على ما كان من العمل »[٥] متفق عليه .

اللهم إنى أسألك بأنى أشهد أنك الله لا إله إلا أنت ، الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، أن تبرم لهذه الأمة أمر رشد يعز فيه أهل طاعتك ويذل فيه أهل معصيتك ، ويؤمر فيه بالمعروف ، وينهى فيه عن المنكر برحمتك يا أرحم الراحمين .

---

(١) سورة يونس آية : ٦٨
(٢) سورة الأنبياء الآيتان : ٢٦ ، ٢٧
(٣) سورة الزمر آية : ٤
(٤) سورة آل عمران الآيتان : ٥٨ ، ٥٩
(٥) أخرجه البخارى فى صحيحه جـ٤ ص٢٠١ ، كتاب بدء الخلق باب قوله تعالى « إذ قالت الملائكة يا مريم . . » .

تفسير سورة الفلق

مقدمة عن السورة :

قال صاحب البصائر :

السورة مدنية

عدد آياتها : خمس .

وكلماتها : ثلاث وعشرون .

وحروفها : أربع وسبعون .

وفواصل آياتها : (دبق) .

سميت سورة الفلق ، لمفتتحها .

مقصود السورة :

الاستعاذة من الشرور ، ومن مخافة الليل الديجور ، ومن آفات الماكرين والحاسدين فى قوله ﴿ إذا حسد ﴾ .

ومن المتشابهات :

قوله تعالى : ﴿ قل ﴾ نزلت فى ابتداء خمس سور ، وصار متلوّا بها ، لأنها نزلت جواباً ، وكرر قوله : (من شر) أربع مرات ، لأن شر كل واحد منها غير شر الآخر .

فضل السورة :

فيه حديث عقبة أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « ألا أخبرك بأفضل ما تعوذ به المتعوذين ؟ قال : قلت : بلى قال : ﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾ و ﴿ قل أعوذ برب الناس ﴾[1] .

مناسبة السورة لما قبلها :

قال السيوطى رحمه الله : « سورة الفلق ، والناس » : نزلتا معاً ، كما فى الدلائل للبيهقى ، فلذلك قرنتا ، مع ما اشتركتا فيه من التسمية بالمعوذتين ، ومن الافتتاح بقل أعوذ ، وعقب بهما سورة الإخلاص ، لأن الثلاثة سميت فى الحديث بالمعوذات وبالقوافل .

وقدمت الفلق على الناس ـ وإن كانت أقصر منها ـ لمناسبة مقطعها فى الوزن لفواصل الإخلاص مع مقطع تبت .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده جـ٣ ص٤١٧ ، جـ٤ ص١٥٣ انظر النسائى جـ٨ ص ٢٥١ ، ٢٥٢ كتاب الاستعاذة .

وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾

معانى المفردات

أعوذ : أى ألجأ .

الفلق : شق الشىء وفصل بعضه من بعض ، تقول فلقت الشىء فانفلق كما قال تعالى : ﴿ **فالق الحب والنوى** ﴾[1] والشىء المفلوق يسمى فلقاً ، والمراد به كل ما يفلقه الله كالأرض التى تنفلق عن النبات ، والجبال التى تنفلق من عيون الماء ، والسحائب تنفلق عن ماء الأمطار ، والأرحام التى تنفلق عن الأولاد .

غاسق : الغاسق الليل إذا اعتكر ظلامه .

وقب : دخل ظلامه فى كل شىء .

النفاثات : من النفث وهو النفخ من ريق يخرج من الفم .

العقد : واحدها عقدة .

والحاسد : هو الذى يتمنى زوال نعمة المحسود .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **قل أعوذ برب الفلق ، من شر ماخلق ومن شر غاسق إذا وقب** ﴾ .

روى مسلم فى صحيحه عن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « ألم تر آيات أنزلت هذه الليلة لم ير مثلهن قط ﴿ قل أعوذ برب الفلق ، وقل أعوذ برب الناس ﴾[2] .

وروى النسائى عن عقبة بن عامر قال : كنت أمشى مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم قال : « يا عقبة » « قل » قلت ماذا أقول ؟ فسكت عنى ثم قال « قل » قلت ماذا أقول يا رسول الله ؟ قال : « قل أعوذ برب الفلق » فقرأتها حتى أتيت على آخرها ثم قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عند ذلك : « ما سأل سائل بمثلها ولا استعاذ مستعيذ بمثلها »[3] .

فقوله تعالى : ﴿ **قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق** ﴾ أى قل يا محمد ألتجىء واعتصم برب الفلق ، من أى شر فى الكون كائناً ما كان . (والفلق) فعل بمعنى مفعول ، وهو مأخوذ من فلق بمعنى شق وفرق ، فالأرض تنفلق عن النبات ، والنبات (فلق) والحب والنوى ينفلقان عن السنابل والنخيل قال تعالى : ﴿ **إن الله فالق الحب والنوى** ﴾[4] وظلمة الليل الحالكة تنفلق عن الصبح والضياء ، فالصبح والضياء (فلق) قال تعالى : ﴿ **فالق الإصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً** ﴾[5] .

---

(١) سورة الأنعام آية : ٩٥

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه جـ١ ص٥٥٨ . كتاب صلاة المسافرين باب فضل قراءة المعوذتين رقم ٢٦٤ / ٨١٤ .

(٣) أخرجه النسائى فى سننه جـ٨ ص٢٥٣ ، ٢٥٤ كتاب الاستعاذة .

(٤) الأنعام آية : ٩٥

(٥) الأنعام آية : ٩٦

والجبال تنفلق عن العيون الدفاقة ، فالعيون (فلق) والأحجار والصخور ينفلقان عن الأنهار ، فالأنهار (فلق) قال تعالى : ﴿ وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار ﴾ .

والأرحام تنفلق عن الأجنة قال تعالى : ﴿ هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾ [١]

قال العلماء : « إن ظلمة العدم قد انفلقت بنور الوجود ، فظهرت الممكنات وظهرت الكائنات ، ومن قول العلماء يظهر أن كل الموجودات ، وكل الممكنات (فلق) ورب هذا الفلق خالقه ومربيه وراعيه ، فهو الذى جلّى ظلام العدم عن الممكنات ، فوجدت بعد أن لم تكن ، ولا يزال يرعاها ، ويحوطها ويمدها ومن كان كذلك فهو حقيق وجدير وحتم أن يتعوذ به ويقصد إليه دون سواه .

وقوله تعالى : ﴿ من شر ما خلق ﴾ أى من شر جميع المخلوقات من الإنس والجن والدواب والهوام ، ومن شر كل مؤذ خلقه الله سبحانه وتعالى .

وقوله : ﴿ ومن شر غاسق إذا وقب ﴾ أى ومن شر الليل إذا أظلم واشتد ظلامه ، فإن ظلمة الليل ينتشر عندها أهل الشر من الإنس والجن . قال الرازى : وإنما أمر أن يتعوذ من شر الليل ، لأن فى الليل تخرج السباع من آجامها ، والهوام من مكانها ، ويهجم السارق والمكابد ولا يفعله ، فمكث كذلك ما شاء الله أن يمكث ثم قال : « يا عائشة أشعرت أن الله أفتانى فيما أستفتيه فيه . أتانى ملكان فجلس أحدهما عند رأسى والآخر عند رجلى ، فقال (الذى جلس عند رأسى للذى عند رجلى) ما شأن الرجل قال مطبوب قال ومن طبه قال لبيد بن الأعصم قال فيما ذا قال فى مشط ومشاطه وجف طلعة ذكر تحت راعوفة فى بئر ذى أوران فجاء البئر واستخرجه . انتهى[٢] .

وقال ابن عباس : فأنزل الله تعالى هاتين السورتين ، وهما إحدى عشرة آية على عدد تلك العقد ، وأمر أن يتعوذ بهما ، فجعل كلما قرأ آية انحلت عقدة ، ووجد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ خفة ، حتى انحلت العقدة الأخيرة ، فكأنما أنشط من عقال وقام ليس به بأس ، وجعل جبريل يرقى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيقول : « باسم الله أرقيك من كل شىء يؤذيك من شر حاسد وعين والله يشفيك » ، فقالوا يا رسول الله : ألا تقتل الخبيث . فقال : « أما أنا فقد شفانى الله وأكره أن أثير على الناس شراً . .

(والمشط الآلة التى يمشط بها الشعر ، والجف (بضم الجيم وتشديد الفاء) الغشاء الذى يكون على الطلع ويطلق على الذكر والأنثى ، فلذا قيده بقوله : « وجف طلعة ذكر » . (والراعوفة) حجر ناتىء على رأس البئر ، يقوم عليه المتقى ، وقيل : فى أسفلها . (وبئر ذى أروان) وهى بئر بالمدينة فى بستان بنى زريق .

وروى النسائى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر ، ومن سحر فقد أشرك ، ومن تعلق شيئاً وكل إليه »[٣] .

---

(١) آل عمران آية : ٦

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه جـ ٤ ص ١٧١٩ ، ١٧٢٠ . كتاب السلام ، باب السحر . رقم ٤٣/ ٢١٨٩

(٣) أخرجه النسائى فى سننه جـ٧ ص ١١٢ باب الحكم فى السحرة .

وقوله تعالى : ﴿ ومن شر حاسد إذا حسد ﴾ أى ونستعيذ بك ربنا من شر الحاسد إذا أنفذ حسده ، بالسعى والجد فى إزالة نعمة من يحسده .. قال العلماء : الحاسد لا يضر إلا إذا ظهر حسده بفعل أو قول ، وذلك بأن يحمله الحسد على إيقاع الشر ، فالمحسود فيتبع مساوئه ويطلب عثراته . والحاسد عدو نعمة الله قال بعض الحكماء : بارز الحاسد ربه من خمسة أوجه : أحدها ـ إنه أبغض كل نعمة ظهرت على غيره . وثانيها : إنه ساخط لقسمة ربه ، كأنه يقول : لم قسمت هذه القسمة ؟ وثالثها ـ أنه ضاد فعل الله ، أى إن فضل الله يؤتيه من يشاء وهو يبخل بفضل الله . ورابعها ـ أنه خذل أولياء الله أو يريد خذلانهم وزوال النعمة عنهم . وخامسها : أنه أعان عدوه إبليس .

وقيل : الحاسد لا ينال فى المجال إلا ندامة ، ولا ينال من الملائكة إلا لعنة وبغضاء ، ولا ينال فى الخلوة إلا جزعاً وغماً ، ولا ينال فى الآخرة إلا حزناً واحتراقاً ، ولا ينال من الله إلا بعداً ومقتاً .

وقال الفقيه أبو الليث السمرقندى رحمه الله تعالى : يصل إلى الحاسد خمس عقوبات قبل أن يصل حسده إلى المحسود . أولاها غم لا ينقطع الثانية مصيبة لا يؤجر عليها الثالثة مذمة لا يحمد عليها الرابعة : سخط الرب الخامسة يغلق عنه باب التوفيق .

وقال عمر رضى الله عنه : يكفيك من الحاسد أنه يغتم وقت سرورك . وعن أنس رضى الله عنه : قال : « إن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب »[1].

قال الشاعر

أيا حاسداً لى على نعمتى ... أتدرى على من أسأت الأدب

أسأت على الله فى حكمه ... لأنك لم ترض لى ماوهب

فأخزاك ربى بأن زادنى ... وسد عليك وجوه الطلب

وقال الأصمعى : رأيت اعرابياً بلغ عمره مائة وعشرين سنة ، فقلت له ما أطول عمرك ، فقال : تركت الحسد فبقيت .. وقالوا : لا يخلوا السعيد من ودود يمدح وحسود يقدح .

وقال ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ : ألا لا تعادوا نعم الله ، قيل : ومن يعادى نعم الله قال الذين يحسدون الناس على ماآتاهم الله من فضله .

ياطالب العيش فى أمن وفى دعة ... رغداً بلا قتر صفوا بلا رنق

خلص فؤادك من غل ومن حسد ... فالغل فى القلب مثل الغل فى العنق

وقال آخر : أصبر على حسد الحسود فإن صبرك قاتله

كالنار تأكل بعضها ... إن لم تجد ما تأكله

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : نعوذ بالله من كل قدر وافق إرادة حاسده .

(١) اخرجه أبوداود فى سننه ص٢٠٨ ، ص٢٠٩ جـ٥ برقم ٤٩٠٣

تفسير سورة الناس

مقدمة عن السورة :

قال صاحب البصائر :

السورة مدنية .

عدد آياتها : ست .

وكلماتها : عشرون .

وحروفها : تسع وسبعون .

وفواصل أياتها : على السين .

وسميت سورة الناس لتكراره فيها خمس مرات .

معظم مقصود السورة :

الاعتصام بحفظ الحق تعالى وحياطته والحذر والاحتراز من وسواس الشيطان ، ومن تعدى الجن والإنسان ، فى قوله (من الجنة والناس) .

بسم الله الرحمن الرحيم

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴿٦﴾

معانى المفردات

رب الناس : أى مربيهم ومنميهم ومراعى شؤونهم .

الوسواس : أى الموسوس الذى يلقى حديث السوء فى النفس .

الخناس : من الخنوس وهو الرجوع والاختفاء .

والجنة : واحدهم جنىّ ، كنس وإنس .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ قل أعوذ برب الناس ، ملك الناس ، إله الناس ، من شر الوسواس الخناس ﴾ .

سورة الناس ثانية المعوذتين ، أما المعوذة الأولى ﴿ قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق ﴾ فقد اشتملت على التعوذ من شرور ظاهرة ماثلة ، يحسها الإنسان ويدركها ويلمسها ، وهى شرور المخلوقات جميعاً وأما هذه المعوذة (قل أعوذ برب الناس) فإنها قد انفردت بتعليم عباد الله أن يتعوذوا بالله من شرور أخرى خطيرة ، شرور باطنة خافية ، شرور عظيمة الضرر ، بعيدة الأثر ، تتسرب إلى النفوس فى دقة وحيلة ومهارة ، لا يفطن لها ولا يدركها إلا العالمون ، تلك الشرور هى فى وسوسة الأبالسة ، وفى نزع الأرواح الشريرة ، من شياطين الإنس والجن ﴿ يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ﴾[1] وإنما جعلت سورة مخصصة للاستعانة بالله على هذا النوع من الشرور ، لأن تلك الشرور (وسوسة الشياطين) تذل الإنسانية ، وتحطم الكرامة البشرية ، وماهى إلا أن تخضع لها ارادة المرء فيصبح الإنسان ، وقد استهوته الشياطين فى الأرض حيران ، يعيش فى جو من الشكوك والأوهام والخرافات ، ويتنكب سبل السلام ، فكان من رحمة الله بعباده ، أن جعل لهم من هذه السورة ، ومن التعوذ بآياتها ، منبها عن الغفلة ، وحصنا من الشيطان ، وسياجا من التردى فى هوة الطغيان .

﴿ قل أعوذ برب الناس ﴾ قل يامحمد وعلم أمتك أن يقولوا قولا مصحوبا بيقظة الحنان وحضور القلب ، وخشوع الجوارح (أعوذ) الجأ واستعين وأحتمى من مطاردات الهواجس ﴿ برب الناس ملك الناس اله الناس ﴾ وهذه صفات ثلاثة ، وصفت بها الذات العلية ، وهى أنه ـ تعالى ـ رب وملك ، وإله .

ولكل من هذه الصفات معناه ودلالته ، وإن كانت الذات القدسية واحدة ، هو الله الذى لا إله إلا هو .

فمعنى (الرب) الذى يربى مربوبه ، من رب الأمر أصلحه وتعهده ، ورب الصبى ربّاه حتى أدرك ، ورب الناس يربيهم وينبئهم بفيض من النعمة . ويقول أكابر الأطباء : « إن الأجهزة التى يتهيأ الكائن الحى والمراحل التى يربى فيها حتى يتهيأ للوجود ، لتحير الألباب ، وتدهش العقول . فهذه العلقة الواحدة التى يقل قطرها عن (عشر المللى) تجتمع فيها ملايين الصفات ، وملايين الخصائص ، التى شاء الله أن تكون للمخلوق من هذه العلقة ، وأن الفروق المتنوعة بين الإنسان والإنسان والتى تملأ مجلدات ، قد اختزلت وتركزت فى حجم هذه العلقة ، ثم لا تزال تربية الرب تتعهد العلقة حتى تصير مضغة وحتى تتشكل فيها العظام ، وحتى تكسى العظام لحماً ، وحتى يصير الكائن خلقاً آخر ، بشراً سوياً ، ثم يأتى دور تربية أخرى ، هى تنمية الجسم ، وتكميل المدارك وفى كل دور تكتنف الإنسان رعاية الله ، بل فى كل نفس من أنفاسه يتقلب الإنسان فى أنعم الله (إن ربك لذو فضل على الناس ، ولكن أكثرهم لا يشكرون ﴾[2] هذا معنى الرب .

---

(١) الأنعام آية : ١١٢

(٢) سورة النمل آية : ٧٣

﴿ **ملك الناس ، إله الناس** ﴾ أما معنى الملك ، فهو صاحب السلطان والعظمة ، وهو الذى يحكم رعاياه ، ويضبط أعمالهم ، ويحدد الحدود ، ويبين العقوبات ، ويشرع الشرائع ، ويقنن القوانين . (وملك الناس) الذى يحمى وجودهم وحقوقهم ، ويحل لهم الحلال ، ويحرم الحرام ﴿ **أليس الله بأحكم الحاكمين** ﴾[1] ﴿ **قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شىء قدير** ﴾[2] .

وأما الإله ، فهو الذى أفاض على الكون الوجود ، وهو الحق المعبود ، تعنو الوجوه لجلاله ، وتخشع النفوس لعظمته ، والأرض والسموات فى قبضته .

وهناك حكمة بيانية أوصى بها إظهار كلمة (الناس) مرة بعد أخرى ، بدل إضمارها ، فلم يجىء الأسلوب (برب الناس ، وملكهم وآلـهـهم) ، بل جاء (برب الناس ، ملك الناس ، إله الناس) .

إنه لاظهار فى مقام الاضمار ، يرينا كيف يبلغ الأسلوب القرآنى أقصى مراتب الاعجاز ، فلقد نرى الكلمة إذا ما تكررت ظاهرة غير مضمرة ، فى كلام الفصحاء والبلغاء تسبح ، وتقبح ، لكنها هنا فى البيان السماوى ، قد كرمت ولطّفت ومجّدت .

إن هذا الإظهار لكلمة الناس ، قد أفاد تشريف الناس ، وتكريم الناس ، وتمجيد الناس ، بانتسابهم إلى ربهم ، ملكهم ، وإلاههم ، وهى تهيب بالناس ، أن يرتفعوا بإنسانيتهم كما رفعهم الله بالانتساب إليه ، وأن يكرموا أنفسهم ، كما كرمهم الله وفضلهم على خلق كثير ممن خلق تفضيلاً .

قال تعالى : ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون** ﴾[3] .

إلى هنا ، وصلنا فى التفسير إلى الاقتراب من خلال المستعاذ به ، وهو الله ـ تعالى ـ وبقى أن نفسر معانى المستعاذ منه ، وهو مردة الجن ، وشياطين الإنس ، ولقد استبان لنا الآن ، أن التلفظ ، بالاستعانة بالله ، والتعوذ بربوبيته وألوهيته لا تستأهل عون الله ، إلا إذا صاحب النطق بها عرفان المرء جلال ربه ، ثم عرفانه إكرام نفسه وكثير من الناس ، أولئك هم الفاسقون ، لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة ، أصحاب الجنة هم الفائزون .

قوله تعالى : ﴿ **من شر الوسواس الخناس ، الذى يوسوس فى صدور الناس ، من الجنة والناس** ﴾ .

أهل الوسوسة ـ الصوت أو الهمس الخفى ، وأطلق الوسواس فى هذه السورة على إبليس ذاته ، لأنه لما دأب بوسوسته ، ونزغه ، على إثارة الشر ، وإهاجة الفساد ، صارت ذاته وكأنما هى وسوسة ليس غير ، (والخناس) كثير الخنوس ، من خنس يخنس ، إذا انقبض وتراجع وتقهقر ، وإنما سمى (إبليس) خناساً لأنه كثير ما ينقبض وينقطع عن وسوسته ، ويتوارى أمام الحق ، إذا ما سلط الإنسان عليه الاستعاذة بالله ، وأحضر وسوسته الخوف من الله .

---

(١) سورة التين آية : ٨

(٢) آل عمران آية : ٢٦

(٣) البقرة آية : ٢١

والتعبير بالفعل المضارع (الذى يوسوس) لإثبات ما تفيده صيغة هذا الفعل من التجدد والاستمرار والحدوث ، وإنها لاشارة بليغة تدل على تجدد الوسوسة واستمرارها ، وأن إبليس لا يكف عنها ، ولا يقف دونها إلا ريثما يذكر الإنسان ربه ، فإذا ما عرته غفلة عن ذكر الله ، وثب عليه الشيطان واقتحم نوافذ فكره ، ومسالك رأيه .

روى عن أنس أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « إن الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم فإذا ذكر الله خنس وإذا نسى الله التقم قلبه فوسوس »[١] .

وقال ابن عباس : إذا ذكر الله العبدُ خنس من قلبه فذهب ، وإذا غفل التقم قلبه فحدثه ومنّاه .

وقوله تعالى : ﴿ **الذى يوسوس فى صدور الناس** ﴾ فجعل الوسوسة فى الصدور ، أو فى القلوب التى فى الصدور ، مع أن الوسوسة إنما تكون همساً فى الفكر ، ونزغاً فى العقل ، ذلك على ما جاء فى اللسان العربى من إطلاق القلب ، وإرادة العقل ، يقول تعالى : ﴿ **فإنها لا تعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور** ﴾[٢] .

هذا ، وإن بين الإحساس والإدراك العقلى ، وبين حركة القلب ، وما ينبض به القلب وما يرسله إلى أجزاء الجسم لارتباطاً بل امتزاجاً وثيقاً كاملاً ، فإذا ما طرأت على فكر الإنسان الملمة أو هاجسه ثم زينت له هفوة أو زلة ، فهو واحد عقب الوسوسة حالة من حالتين لا معدى عنهما ، أما انفعال أعصابه واضطراب معاييره وموازينه ، فلا يروِّى فى الأمر ، بل يندفع ، وحينئذ يشتد لذلك خفقان صدره ، وتتوالى دقات قلبه ، ثم تضيق عليه الأرض بما رحبت ، ولا يجد له مخرجاً إلا أن يذهب فى عنان إبليس ، هذه حالة . . والحالة الثانية أن تنفعل أعصابه وتضطرب أفكاره ، فيلوح له برهان ربه ثم يسرى أثر ذلك إلى قلبه ، وإلى صدره ، فإذا هو وقد شرح الله صدره ، ويسر أمره ، وتفتحت أمامه آفاق ، ووجد برد اليقين وحلاوة العصمة . قال تعالى : ﴿ **إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ، وإخوانهم يمدونهم فى الغى ثم لا يقصرون** ﴾[٣] .

قوله تعالى : ﴿ **من الجنة والناس** ﴾ لقد بين لنا سبحانه أن هذا الوسواس الذى يخنس كلما ذكر الله ، هو إما أن يكون من الجنة ، أو من الناس ، فمن بين الجنة أو الجن توجد الأبالسة والشياطين ، ومن بين الإنس توجد أيضاً شياطين . يقول تعالى : ﴿ **وكذلك جعلنا لكل نبى عدواً شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً** ﴾[٤] .

وكما أن شياطين الجن ، هم فساق الجن ، كذلك شياطين الإنس هم فساقهم وخبثاؤهم ، يقول

---

(١) أخرجه الغزالى فى اتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين جـ ٧ صـ ٢٩٨ . باب بيان أن الوسواس هل يتصور أن ينقطع عند الذكر أم لا .

(٢) سورة الحج : ٤٦

(٣) سورة الأعراف آية : ٢٠١

(٤) الأنعام آية : ١١٢

تعالى فى الذين مردوا على النفاق ، وأشاعوه بين الناس : ﴿ **وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون** ﴾[1] فالشياطين هنا هم أئمة النفاق وهم شر البرية .

لقد شاء الله لهذا الشيطان ، أن يتسلط على الإنسان بوسوسته وإن يدأب على معارضة الحق ، والصد عن فعل الخير ، وإنها لمحنة واختبار من الله لعباده ، لا يعلم سر الحكمة فيها إلا الله وحده ، الذى أراد أن تكون الحياة مزيجاً من خير وشر وأن تكون دار ابتلاء واختبار ، ومن رحمته تعالى بعباده أن علمهم علاج أنفسهم إذا مسهم طائف من الشيطان ، أو غشيتهم غاشية من الغفلة والنسيان ، ووصف لهم الدواء الناجع ـ رحمة منه وفضلاً ـ فيراقبوا دائماً خواطرهم ، وليميزوا بين راعى الخير وراعى الشر ، فليبادر إذن إلى العلاج إلى الاستعاذة بالله العظيم ، إلى استحضار عظمة الله ، القائم على كل نفس بما كسبت ، وليتمثل ذل المعصية ، وعزة الطاعة ، يصرف الله عنه السوء ، وتبرأ نفسه مما خالطها وغشيها ، فالوسوسة لا تأخذ غير الغافلين ، الذين لا يحاسبون أنفسهم ، ولا يراقبون خواطرهم .

لقد وصف لسان الشرع تلك الحالة ، فبين أن للنفس الإنسانية الماتين : المامة من ملك وإلمامة من شيطان ، الأول يدعوها إلى الحق والخير ، والثانى يدعوها إلى الباطل وإلى الشر .

روى الترمذى والنسائى أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « إن للشيطان لمة بابن آدم ، وللملك لمة ، فأما لمة الشيطان فإيعاذ بالشر ، وتكذيب بالحق ، وأما لمة الملك ، فإيعاذ بالخير ، وتصديق بالحق ، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله ، فليحمد الله على ذلك ، ومن وجد الأخرى فليتعوذ بالله من الشيطان » ثم قرأ قوله تعالى : ﴿ **الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً** ﴾[2] .

« فإن الله سبحانه وتعالى خلق هذا الآدمى ، واختاره من بين سائر البرية ، وجعل قلبه محل كنوزه من الإيمان والتوحيد والإخلاص ، والمحبة والحياء ، والتعظيم والمراقبة ، وجعل ثوابه إذ قدم عليه أكمل الثواب وأفضله ، وهو النظر إلى وجهه الكريم ، والفوز برضوانه ومجاورته فى جنته ، وكان مع ذلك قد ابتلاه بالشهوة والغضب والغفلة ، وابتلاه بعدوه إبليس لا يفتر عنه ، فهو يدخل عليه من الأبواب التى هى من نفسه وطبعه ، فتميل نفسه معه ، لأنه يدخل عليها بما تحب ، فيتفق هو ونفسه وهواه على العبد ، ثلاثة مسلطون آمرون ، فيبعثون الجوارح فى قضاء وطرهم ، والجوارح آلة منقادة ، فلا يمكنها إلا الانبعاث ، فهذا شأن هذه الثلاثة وشأن الجوارح ، فلا تزال الجوارح فى طاعتهم كيف أمروا وأين يمموا ، هذا مقتضى حال العبد ، فاقتضت رحمة ربه العزيز الرحيم به أن أعانه بجند آخر ، وأمده بمدد آخر ، يقاوم به هذا الجند ، الذى يرد هلاكه ، فأرسل إليه رسوله وأنزل عليه كتابه ، وأيده بملك كريم مقابل عدوه الشيطان ، فإذا أمره الشيطان بأمر أمره الملك بأمر ربه ، وبين له ما فى طاعة العدو من الهلاك ، فهذا يلم به مرة وهذا مرة ، والمنصور من نصره الله عز وجل والمحفوظ من حفظه الله تعالى .

---

(١) البقرة آية : ١٤

(٢) أخرجه الترمذى فى سننه جـ ٥ ص ٢٠٤ كتاب تفسير القرآن ؤ باب ٣ من سورة البقرة : ٢٩٨٨ . أخرجه النسائى فى الكبرى ـ كتاب التفسير ـ سورة البقرة .

وجعل له مقابل نفسه الأمارة بالسوء ، نفساً مطمئنة ، إذا أمرته النفس الأمارة بالسوء ، نهته عنه النفس المطمئنة ، وإذا نهته الأمارة عن الخير ، أمرته به النفس المطمئنة ، فهو يطيع هذه مرة وهذه مرة ، وهو الغالب عليه منهما ، وربما انقهرت إحداهما بالكلية قهراً لا تقوم معه أبداً .

وجعل له مقابل الهوى الحامل له على طاعة الشيطان ، والنفس الأمارة ، نوراً وبصيرة وعقلاً يرده على الذهاب مع الهوى ، فكلما أراد أن يذهب مع الهوى ناداه العقل والبصيرة والنور : الحذر الحذر . فإن المهالك والمتالف بين يديك ، وأنت صيد الحرامية وقطاع الطريق إن سرت خلف هذا الدليل ، فهو يطيع الناصح مرة فيبين له رشده ونصحه ، ويمشى خلف دليل الهوى مرة ، فيقطع عليه الطريق ، ويؤخذ ماله ، ويسلب ثيابه ، فيقول : ترى من أين قطعت عليه وأخذ منها ، ويأبى إلا سلوكها ، لأن دليلها قد تمكن منه وتحكم فيه وقوى عليه ، ولو أضعفه بالمخالفة له وزجره إذا دعاه ، ومحاربته إذا أراد أخذه لم يتمكن منه ، ولكن هو مكنه من نفسه وهو أعطاه يده ، فهو بمنزلة الرجل يضع يده فى يد عدوه فيباشره ، ثم يسومه سوء العذاب ، فهو يستغيث فلا يغاث ، فهكذا يستأثر للشيطان والهوى ولنفسه الأمارة ثم يطلب الخلاص فيعجز عنه . فلما أن بلى العبد بما بلى به أُعين بالعساكر والعدد والحصون ، وقيل : قاتل عدوك وجاهده ، فهذه الجنود خذ منها ما شئت ، وهذه الحصون تحصن بأى حصن شئت منها ورابط إلى الموت ، فالأمر قريب ومدة المرابطة يسيرة جداً ، فكأنك بالملك الأعظم وقد أرسل إليك رسله فنقلوك إلى داره واسترحت من هذا الجهاد ، وفرق بينك وبين عدوك ، وأطلقت فى دار الكرامة تتقلب فيها كيف شئت ، وسجن عدوك فى أصعب الحبوس وأنت تراه ، فالسجن الذى كان يريد أن يودعك فيه قد أدخله وأغلقت عليه أبوابه وأيس من الروح والفرج ، وأنت فيما أشتهت نفسك وقرت عينك ، جزاء على صبرك فى تلك المدة اليسيرة ولزومك الثغر للرباط ، وما كانت إلا ساعة ، ثم انقضت ، وكأن الشدة لم تكن . . والمقصود أن الله عز وجل قد أمد العبد فى هذه المدة اليسيرة بالجنود والعدد والإمداد ، وبين له بماذا يحرز نفسه من عدوه ، وبماذا يفك نفسه إذا أسر » .

لماذا ختم القرآن الكريم بهاتين السورتين الكريمتين ؟

فالجواب : من ثلاثة أوجه :

الأول : قال الشيخ أبو جعفر بن الزبير : لما كان القرآن من أعظم النعم على عباده ، والنعم مظنة الحسد ، فختم بما يطفىء الحسد من الاستعاذه بالله .

الثانى : قال ابن جُزى الأندلسى : يظهر لى أن المعوذتين ختم بهما لأن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال فيهما أنزلت علىَّ آيات لم ير مثلهن قط ، كما قال فى فاتحة الكتاب لم ينزل فى التوراة ولا فى الإنجيل ولا فى الفرقان مثلها ، فافتتح القرآن بسورة لم ينزل مثلها ، واختتم بسورتين لم ير مثلهما ، ليجمع حسن الافتتاح والاختتام ، ألا ترى أن الخطب والرسائل والقصائد وغير ذلك من أنواع الكلام ، إنما ينظر فيها إلى حسن افتتاحها واختتامها .

الوجه الثالث : أنه لما أمر القارىء أن يفتتح قراءته بالتعوذ من الشيطان الرجيم ختم القرآن

بالمعوذتين ، ليحصل الاستعاذه بالله عند أول القراءة ، وعند آخر ما يقرأ من القراءة ، فتكون الاستعاذة قد اشتملت على طرفى الابتداء والانتهاء ، وليكون القارىء محفوظاً بحفظ الله الذى استعاذ به من أول أمره إلى آخره وبالله التوفيق لا رب غيره .

ولما كنا بصدد أن نختم تفسير القرآن العظيم ، ونعيش فى رحابه الطاهرة ، رأينا لكى يكون الختام مسكاً أن نذكر ما قاله العلامة ابن قيم الجوزية ، مما أفاض الله تعالى عليه من العلم النافع فى تفسير هاتين السورتين الكريمتين ، قال رحمه الله : « قد اشتملت السورتان على ثلاثة أصول : وهى أصول الاستعاذة . .

أحدها : نفس الاستعاذة .

والثانية : المستعاذ به .

والثالثة : المستعاذ منه .

فبمعرفة ذلك تعرف شدة الحاجة والضرورة إلى هاتين السورتين .

فنعقد لهما ثلاثة فصول : الفصل الأول : فى الاستعاذة ، والثانى : فى المستعاذ به . والثالث : فى المستعاذ منه .

الفصل الأول (فى الاستعاذة)

أعلم أن لفظة « عاذ » وما تصرف منها تدل على التحرز والتحصن والنجاة ، وحقيقة معناها : الهروب من شيء تخافه إلى من يعصمك منه ، ولهذا يسمى المستعاد به معاذاً ، كما يسمى : ملجأ ووزراً .

فمعنى « أعوذ » ألتجىء ، وأعتصم ، وأتحرز .

وفى أصله قولان . أحدهما : أنه مأخوذ من الستر .

والثانى : أنه مأخوذ من لزوم المجاورة .

فأما من قال : إنه من الستر فقال : العرب تقول للبيت فى أصل الشجرة ، التى قد استتر بها « عُوَّذ » بضم العين وتشديد الواو وفتحها ، فكأنه لما عاذ بالشجرة واستتر بأصلها وظلها ، وسموه عُوَّذا . فكذلك العائذ قد استتر من عدوه بمن استعاذ به منه ، واستجن به منه .

ومن قال : هو لزوم المجاورة قال : العرب تقول للحم إذا لصق بالعظم فلم يتخلص منه « عُوِّذ » لأنه اعتصم به ، واستمسك به . فكذلك العائذ قد استمسك بالمستعاذ به ، واعتصم به ، ولزمه والقولان حق : والاستعاذة تنتظمها معاً ، فإن المستعيذ مستتر بمعاذه مستمسك به ، معتصم به ، قد استمسك قلبه به ولزمه ، كما يلزم أباه إذا أشهر عليه عدوه سيفا وقصده به ، فهرب منه . فعرض له أبوه فى طريق هربه ، فإنه يلقى نفسه عليه ، ويستمسك به أعظم استمساك ، فكذلك العائذ قد هرب من عدوه ، الذى يبغى هلاكه ، إلى ربه ومالكه ، وفر إليه ، والقى نفسه بين يديه ، واعتصم به ، والتجأ إليه .

وبعد . فمعنى الاستعاذة القائم بقلب المؤمن وراء هذه العبارات وإنما هى تمثيل وإشارة وتفهيم ،

والا فما يقوم القلب حينئذ من الالتجاء والاعتصام والانطراح بين يدى الرب والافتقار إليه والتدليل بين يديه أمر لا يحيط به العبارة .

وأصل هذا الفعل «أعوذ» بتسكين العين وضم الواو ثم أعل بنقل حركة الواو إلى العين وتسكين الواو ، فقالوا أعوذ على أصل هذا الباب ، ثم طردوا إعلاله ، فقالوا فى إسم الفاعل عائذ ، وأصله عاوذ . فوقعت الواو بعد ألف فاعل ، فقلبوها همزة كما قالوا : قائم ، وخائف . وقالوا فى المصدر : عياذاً بالله وأصله : عواذاً ، فقلبوا الواو ياء لكسرة ما قبلها ، ولم تحصنها حركتها لأنها قد صنعت بإعلاها فى الفعل ، وقالوا : مستعيذ . وأصله مستعوذ ، كمستخرج ، فنقلوا كسرة الواو إلى العين قبلها ، فلما كسرت العين قلبت قبلها كسرة ، فقلبت ياء على أصل الباب .

فإن قلت : فلم دخلت السين والتاء فى الأمر من هذا الفعل ، كقوله تعالى : ﴿ **فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم** ﴾[1] ولم تدخل فى الماضى والمضارع ، بل الأكثر أن يقال أعوذ بالله ، وتعوذت ، دون أستعيذ واستعذت ؟

قلت : السين والتاء دالة على الطلب ، فقوله أستعيذ بالله ، أى أطلب العياذ به . كما إذا قلت : أستخير الله : أى أطلب خيرته ، وأستغفره . أى أطلب مغفرته . فدخلت فى الفعل إيذاناً بطلب هذا المعنى من المعاذ ، فإذا قال المأمور : أعوذ بالله ، فقد امتثل ما طلب منه ، لأنه طلب منه الالتجاء والاعتصام . وفرق بين نفس الالتجاء والاعتصام ، وبين طلب ذلك ، فلما كان المستعيذ هارباً ملتجئاً معتصماً بالله ، أتى بالفعل الدال على ذلك دون الفعل الدال على طلب ذلك ، فتأمله .

وهذا بخلاف ما إذا قيل : أستغفر الله . فقال أستغفر الله . فإنه طلب منه أن يطلب المغفرة من الله . فإذا قال : أستغفر الله ، كان ممتثلاً . لأن المعنى أطلب من الله أن يغفر لى .

وحيث أراد هذا المعنى فى الاستعاذة فلا خير أن يأتى بالسين والتاء ، فيقول : أستعيذ بالله . أى أطلب منه أن يعيذنى . ولكن هذا معنى غير نفس الاعتصام والالتجاء والهرب إليه .

فالأول : مخبر عن حاله وعياذه بربه وخبره يتضمن سؤاله وطلبه أن يعيذه .

والثانى : طالب سائل من ربه أن يعيذه . كأنه يقول : أطلب منك أن تعيذنى . فحال الأول أكمل . ولهذا جاء عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى امتثال هذا الأمر « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » و « أعوذ بكلمات الله التامات » و « أعوذ بعزة الله وقدرته » دون « أستعيذ » بل الذى علمه الله إياه أن يقول : (أعوذ برب الفلق) (أعوذ برب الناس) دون أستعيذ . فتأمل هذه الحكمة البديعة .

فان قلت : فكيف جاء امتثال هذا الأمر بلفظ الأمر والمأمور به فقال : ﴿ **قل أعوذ برب الفلق** ﴾ و ﴿ **قل أعوذ برب الناس** ﴾ ومعلوم أنه إذا قيل : قل الحمدلله ، وقل : سبحان الله فإن امتثاله أن يقول : الحمدلله ، وسبحان الله ولايقول : قل سبحان الله .

---

(١) سورة النحل آية : ٩٨

قلت : هذا هو السؤال الذى أورده أبى بن كعب على النبى - ﷺ - بعينه ، وأجابه عنه رسول الله - ﷺ - فقد قال البخارى فى صحيحه : حدثنا قتيبة حدثنا سفيان بن عاصم وعبده عن زر بن حبيش قال : « سألت أبى بن كعب عن المعوذتين ؟ فقال : سألت رسول الله - ﷺ - فقال ، قيل لى ، فقلت . فنحن نقول كما قال رسول الله - ﷺ - : « ثم قال . حدثنا على بن عبدالله حدثنا سفيان حدثنا عبده من أبى لبابة عن زر بن حبيش . وحدثنا عاصم عن زر قال : سألت أبى بن كعب قلت : أبا المنذر ، إن أخاك ابن مسعود يقول كذا وكذا . فقال : إنى سألت رسول الله - ﷺ - فقال : وقيل لى ، فقلت قل . فنحن نقول كما قال رسول الله - ﷺ - .[1]

قلت : مفعول القول محذوف ، وتقديره ، قيل لى قل ، أو قيل لى هذا اللفظ فقلت كما قيل لى .

وتحت هذا من السر : أن النبى - ﷺ - ليس له فى القرآن إلا إبلاغه ، لا أنه هو أنشأه من قبل نفسه ، بل هو المبلغ له عن الله ، وقد قال الله له : ﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾ فكان مقتضى البلاغ التام أن يقول : ﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾ كما قال الله .

وهذا هو المعنى الذى أشار النبى - ﷺ - إليه بقوله : « قيل لى ، فقلت » أى أنى لست مبتدئا ، بل أنا مبلغ ، أقول كما يقال لى ، كلام ربى كما انزله إلىَّ .

فصلوات الله وسلامه عليه ، لقد بلغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، وقال كما قيل له ، فكفانا من المعتزلة والجهمية واخوانهم ممن يقول : هذا القرآن العربى ، وهذا النظم كلامه ابتدأ هو به .

ففى هذا الحديث أبين الرد لهذا القول ، وأنه - ﷺ - بلغ القول الذى أمر بتبليغه على وجهه ولفظه ، حتى أنه لما قيل له : « قل » قال هو « قل » لأنه مبلغ محض . وماعلى الرسول إلا البلاغ .

الفصل الثانى (فى المستعاذ به)

فى المستعاذ به وهو الله وحده ، رب الفلق . ورب الناس ، ملك الناس ، إله الناس . الذى لاينبغى الاستعاذة إلا به ، ولايستعاذ بأحد من خلقه ، بل هو الذى يعيذ المستعيذين ، ويعصمهم ، ويمنعهم من شر مااستعاذوا من شره ، وقد أخبر تعالى فى كتابه عمن استعاذ بخلقه : ان إستعاذته زادته طغيانا ورهقا فقال حكاية عن مؤمنى الجن : ﴿ وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا ﴾[2] جاء فى التفسير أنه « كان الرجل من العرب فى الجاهلية إذا سافر فأمسى فى أرض قفر ، قال : أعوذ بسيد هذا الوادى من شر سفهاء قومه . فيبيت فى أمن وجوار منهم ، حتى يصبح ، أى فزاد الإنس الجن باستعاذتهم بسادتهم رهقا أى طغيانا وإثما وشرا ، ويقولون : سُدنا الإنس والجن

(١) أخرجه البخارى جـ٣ ص٢٢٣ كتاب تفسير القرآن باب قل أعوذ برب الفلق .

(٢) سورة الجن آية : ٦

« والرهق » فى كلام العرب : الاثم وغشيان المحارم . فزادوهم بهذه الاستعاذة غشيانا لما كان محظورا من الكبر والتعاظم ، فظنوا أنهم سادوا الإنس والجن .

واحتج أهل السنة على المعتزله ، فى أن كلمات الله غير مخلوقة . بأن النبى - ﷺ - استعاذ بقوله : « أعوذ بكلمات الله التامات » وهو - ﷺ - لايستعيذ بمخلوق أبدا .

ونظير ذلك قوله : « أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك » فدل على أن رضاه وعفوه من صفاته ، وأنه غير مخلوق . وكذلك قوله « أعوذ بعزة الله وقدرته » وقوله « أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات » وماستعاذ به النبى - ﷺ - غير مخلوق ، فإنه لايستعيذ إلا بالله ، أو بصفة من صفاته .

وجاءت الاستعاذة فى هاتين السورتين باسم الرب ، والملك والإله ، وجاءت الربوبية فيهما مضافة إلى الفلق ، وإلى الناس ، ولابد من أن يكون ماوصف به نفسه فى هاتين السورتين ، يناسب الاستعاذة المطلوبة ، ويقتضى دفع الشر المستعاذ منه ، أعظم مناسبة وأبينها .

وقد قررنا فى مواضع متعددة : أن الله سبحانه وتعالى يدعى بأسمائه الحسنى ، فيسأل لكل مطلوب باسم يناسبه ويقتضيه ، وقد قال النبى - ﷺ - فى هاتين السورتين : « إنه ماتعوذ المستعوذون بمثلها »[1] فلابد أن يكون الإسم المستعاذ به مقتضيا للمطلوب ، وهو دفع الشر المستعاذ منه أو رفعه .

وإنما يتقرر هذا بالكلام فى الفصل الثالث ، وهو الشىء المستعاذ منه ، فتتبين المناسبة المذكورة ، فنقول :

الفصل الثالث (المستعاذ منه)

فى أنواع الشرور المستعاذ منها فى هاتين السورتين .

الشر الذى يصيب العبد لايخلو من قسمين :

إما ذنوب وقعت منه يعاقب عليها ، فيكون وقوع ذلك بفعله وقصده وسعيه ، ويكون هذا الشر هو الذنوب وموجباتها ، وهو أعظم الشرين وأدومهما وأشدهما اتصالا بصاحبه .

وإما شر واقع به من غيره ، وذلك الغير إما مكلف أو غير مكلف ، والمكلف إما نظيره وهو الإنسان ، او ليس نظيره ، وهو الجنى . وغير المكلف مثل الهوام وذوات الحُمة وغيرها .

فتضمنت هاتان السورتان الاستعاذة من هذه الشرور كلها بأوجز لفظ وأجمعه ، وأدله على المراد ، وأعمه استعاذة ، بحيث لم يبق شر من الشرور الا دخل تحت الشر المستعاذ منه فيهما .

(١) أخرجه الدرامى فى سننه حـ٢ ص٢٢٩ ، ٢٣٠ كتاب فضائل القرآن . باب فضل قل أعوذ برب الفلق .

فان سورة الفلق تضمنت الاستعاذة من أمور أربعة :

احدهما : شر المخلوقات التى لها شر عموما .

الثانى : شر الغاسق إذا وقب .

الثالث : شر النفاثات فى العقد . .

الرابع : شر الحاسد إذا حسد .

فتتكلم ـ بإذن الله ـ على هذه الشرور الأربعة ومواقعها واتصالها بالعبد ، والتحرز منها قبل وقوعها ، وبماذا تدفع بعد وقوعها ؟

وقبل الكلام فى ذلك لابد من بيان الشر : ماهو؟ وماحقيقته ؟

فنقول : الشر يقال على شيئين : على الألم ، وعلى مايفضى اليه . وليس مسمى سوى ذلك . فالشرور هى الآلام وأسبابها . فالمعاصى والكفر والشرك وأنواع الظلم : هى شرور ، وإن كان لصاحبها فيها نوع غرض ولذة ، ولكنها شرور ، لأنها أسباب للآلام ، ومفضيه اليها كافضاء سائر الأسباب على مسبباتها فترتب الألم عليها كترتب الموت على تناول السموم القاتلة ، وعلى الذبح والإحراق بالنار ، والخنق بالحبل ، وغير ذلك من الأسباب التى تكون مفضية إلى مسبباتها ، ولابد ، مالم يمنع من السببيه مانع ، أو يعارض السبب ماهو أقوى منه وأشد اقتضاء لضده ، كما يعارض سبب المعاصى قوة الإيمان ، وعظم الحسنات الماحية وكثرتها ، فيزيد فى كميتها أو كيفيتها على أسباب العذاب . فيدفع الأقوى الأضعف .

وهذا شأن جميع الأسباب المتضادة ، كأسباب الصحة والمرض ، وأسباب الضعف والقوة .

والمقصود : أن هذه الأسباب التى فيها لذة ماهى شر ، وإن نالت بها النفس مسرة عاجلة . وهى بمنزلة طعام لذيد شهى لكنه مسموم إذا تناوله الآكل لأكله وطاب له مساغه ، وبعد قليل به مايفعل ، فهكذا المعاصى والذنوب ولابد ، حتى لولم يخبر الشارع بذلك لكان الدافع والتجربة الخاصة والعامة من أكبر شهوده .

وهل زالت عن أحد قط نعمة إلا بشؤم معصيته ؟ فإن الله إذا أنعم على عبد نعمة حفظها عليه ، ولايغيرها عنه حتى يكون هو الساعى فى تغييرها عن نفسه قال تعالى : ﴿ **إن الله لايغير مابقوم حتى يغيروا مابأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوء فلامرد له وماهم من دونه من وال** ﴾[١] . وقال تعالى : ﴿ **ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا مابأنفسهم** ﴾[٢] .

---

(١) سورة الرعد آية : ١١

(٢) سورة الأنفال آية : ٥٣

ومن تأمل ماقص الله فى كتابه من أحوال الأمم الذين أزال نعمة عنهم ، وجد سبب ذلك جميعه : إنما هو مخالفة أمره وعصيان رسله ، وكذلك من نظر فى أحوال أهل عصره ومأأزال الله عنهم من نعمة : وجد ذلك كله من سوء عواقب الذنوب ، كما قيل :

إذا كنت فى نعمة فارعها . فإن المعاصى تزيل النعم .

فما حفظت نعمة الله بشىء قط مثل طاعته ، ولاحصلت فيها الزيادة بمثل شكره ، ولازالت عن العبد نعمة بمثل معصيته لربه ، فانها نار النعم التى تعمل فيها كما تعمل النار فى الحطب اليابس ، ومن سافر بفكره فى أحوال العالم استغنى عن تعريف غيره له .

والمقصود : إن هذه الأسباب شرور ولابد .

وأما كون مسبباتها شرورا : فلأنها آلام نفسية وبدنية ، فيجتمع على صاحبها مع شدة الألم الحسى ألم الروح بالهموم والغموم والأحزان والخسران ، ولو تفطن العاقل اللبيب لهذا حق التفطن ، لأعطاه حقه من الحذر والجد فى الهرب ، ولكن قد ضرب على قلبه حجاب الغفلة ، ليقضى الله أمرا كان مفعولا : فلو تيقظ حق التيقظ ، لتقطعت نفسه فى الدنيا ، حسرات على مافاته من حظه العاجل والآجل من الله .

وإنما يظهر له هذا حقيقة الظهور عند مفارقة هذا العالم ، والإشراف والإطلاع على عالم البقاء فحينئذ يقول : ﴿ ياليتنى قدمت لحياتى ﴾[1] ويقول : ﴿ ياحسرتا على مافرطت فى جنب الله ﴾[2] .

ولما كان الشر هو الآلام وأسبابها كانت استعاذات النبى - ﷺ - جميعها مدارها على هذين الأصلين ، فكل ماأستعاذ منه أو أمر بالاستعاذة منه فهو إما مؤلم واما سبب يفضى اليه ، فكان يتعوذ فى آخر الصلاة من أربع ، وأمر بالاستعاذة منهن وهى : عذاب القبر ، وعذاب النار فهذان أعظم المؤلمات ، وفتنة المحيا والممات ، وفتنة المسيخ الدجال » وهذان سبب العذاب المؤلم .

فالفتنة سبب العذاب ، وذكر الفتنة خصوصا ، وذكر نوعى الفتنة ، لأنها إما فى الحياة ، وإما بعد الموت ، ففتنة الحياة : قد يتراخى عنها العذاب مرة ، وأما فتنة بعد الموت ، فيتصل بها للعذاب من غير تراخ .

فعادت الاستعاذة إلى الاستعاذة من الألم والعذاب وأسبابها ، وهذا من آكد أدعية الصلاة ، حتى أوجب بعض السلف والخلف الاعادة على من لم يدع به فى التشهد الأخير . وأوجبه بن حزم فى كل تشهد فان لم يأت به فيه بطلت صلاته .

---

(١) سورة الفجر آية : ٢٤

(٢) سورة الزمر آية : ٥٦

ومن ذلك قوله - ﷺ - : « « اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن والعجز والكسل ، والجبن والبخل ، وَضَلَعِ الدَّين وغلبة الرجال »[١]

فاستعاذ - ﷺ - من ثمانية أشياء : كل اثنين منها قرينان .

فالهم والحزن قرينان ، وهما من آلام الروح ومعذباتها . والفرق بينهما : أن الهم : توقع الشر فى المستقبل ، والحزن : وهو التألم على حصول المكروه فى الماضى ، أو فوات المحبوب ، فكلاهما تألم وعذاب يرد على الروح . فان تعلق بالماضى سمى حزنا ، وإن تعلق بالمستقبل سمى هما .

والعجز والكسل قرينان ، وهما من أسباب الألم ، لأنهما يستلزمان فوات المحبوب ، فالعجز يستلزم عدم القدرة ، والكسل يستلزم عدم ارادته فتتالم الروح لفواته بحسب تعلقها به والتذاذها بادراكه لو حصل .

والجبن والبخل قرينان ، لأنهما عدم النفع بالمال والبدن ، وهما من أسباب الالم ، لأن الجبان تفوته محبوبات ومفرحات وملذ وذات عظيمة ، لاتنال إلا بالبذل والشجاعة . والبخل يحول بينه وبينها ، فهذان الخلقان من اعظم أسباب الآلام .

وضلع الدين ، وقهر الرجال . قرينان . وهما مؤلمان للنفس ومعذبان لها .

احدهما : قهر بحق ، وهو ضلع الدين . والثانى : قهر بباطل وهو غلبة الرجال .

وايضا ؛ ضلع الدين قهر يسبب من العبد فى الغالب ، وغلبة الرجال قهر بغير اختياره .

ومن ذلك تعوذه - ﷺ - : « من المأثم والمغرم »[٢] فانهما يسببان الألم العاجل .

ومن ذلك قوله - ﷺ - : « أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك »[٣] فالسخط : سبب الألم ، والعقوبة : هى الألم ، فاستعاذ من أعظم الآلام وأقوى اسبابها .

فصـــــــل

والشر المستعاذ منه نوعان :

أحدهما : موجود ، يطلب رفعه .

والثانى : معدوم ، يطلب بقاؤه على العدم ، وأن لا يوجد .

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه جـ٥ ص٤٨٦ كتاب الدعوات باب جامع الدعوات عن النبى - ﷺ - رقم ٣٤٨٤

(٢) أخرجه الترمذى فى سننه حـ٥ ص٤٩١ كتاب الدعوات باب ٧٧ رقم ٣٤٩٥

(٣) اخرجه الترمذى فى سننه حـ٥ صـ٤ ، ٥ كتاب الدعوات باب فى دعاء الوتر رقم ٣٥٦٦ .

كما أن الخير المطلق نوعان . أحدهما : موجود فيطلب دوامه . وثباته وأن لايسلبه ، والثانى معدوم فيطلب وجوده وحصوله ، فهذه أربعة هى أمهات مطالب السائلين من رب العالمين ، وعليها مدار طلباتهم .

وقد جاءت هذه المطالب الأربعة فى قوله تعالى حكاية عن دعاء عباده فى آخر آل عمران فى قولهم : ﴿ **ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى للايمان أن آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا ، وكفر عنا سيئاتنا** ﴾ فهذا الطلب لدفع الشر الموجود ، فان الذنوب والسيئات شر ، كما تقدم بيانه . ثم قال : (وتوفنا مع الأبرار) فهذا طلب لدوام الخير الموجود وهو الايمان حتى يتوفاهم عليه . فهذان قسمان .

ثم قال ﴿ **ربنا وآتنا ماوعدتنا على رسلك** ﴾ فهذا طلب للخير المعدوم أن يؤتيهم اياه ، ثم قال : ﴿ **ولاتخزنا يوم القيامة** ﴾[1]فهذا طلب أن لايوقع بهم الشر المعدوم وهو خزى يوم القيامة .

فانتظمت الآيتان المطالب الأربعة أحسن انتظام ، مرتبة أحسن ترتيب ، قدم فيها النوعان اللذان فى الدنيا ، وهما المغفرة ودوام الإسلام إلى الموت ، ثم اتبعا بالنوعين اللذين فى الآخرة وهما أن يعطوا ماوعدوه على السنة رسله ، وأن لايخزيهم يوم القيامة .

فصـــــل

ولما كان الشر له سبب . هو مصدره ، وله مورد ومنتهى . وكان السبب إما من ذات العبد ، وإما من خارج ، ومورده ومنهاه أما نفسه واما غيره : كان هنا اربعة أمور : شر مصدره من نفسه ، ويعود على نفسه تارة وعلى غيره اخرى .

وشر مصدره من غيره ، وهو السبب فيه ويعود على نفسه تارة ، وعلى غيره أُخرى ـ جمع النبى ـ ﷺ ـ هذه المقامات الأربعة فى الدعاء الذى علمه الصديق رضى الله عنه : أن يقوله إذا أصبح واذا أمسى واذا أخذ مضجعه : « اللهم فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، رب كل شيء ومليكه ، أشهد أن لا إله إلا انت ، أعوذ بك من شر نفسى وشر الشيطان وشركه وأن اقذف على نفسى سوءا ، أو أجره إلى مسلم »[2]

فذكر مصدرى الشر ، وهما النفس والشيطان ، وذكر مورد به ونهايته ، وهما عودة على النفس ، أو على أخيه المسلم ، فجمع الحديث مصادر الشر وموارده فى أوجز لفظ وأخصره وأجمعه . وأبينه .

---

(١) سورة آل عمران : ١٩٣ ـ ١٩٤

(٢) أخرجه الترمزى ج٥ ص٥٠٦ كتاب الدعوات باب ٩٥ رقم ٣٥٢٩ .

فصـــــــــل

فاذا عرف هذا فلنتكلم عن الشرور المستعاذ منها فى هاتين السورتين :

الشر الأول : العام فى قوله تعالى : ﴿ من شر ماخلق ﴾ و(ما) هنا موصولة ليس الا ، والشر مسند فى الآية الى المخلوق المفعول لا إلى خلق الرب تعالى الذى هو فعله وتكوينه فانه لاشر فيه بوجه ما ، فإن الشر لايدخل فى شىء من صفاته ولافى افعاله ، كما لايلحق ذاته تبارك وتعالى ، فإن ذاته لها الكمال المطلق الذى لانقص فيه بوجه من الوجوه ، وأوصافه كذلك لها الكمال المطلق والجلال التام ، ولاعيب فيها ولانقص بوجه ما ، وكذلك أفعاله كلها خيرات محضة ، لاشر فيها أصلا ، ولافعل الشر سبحانه لاشتق له منه اسم ولم تكن اسماؤه كلها حسنى ، ولعاد اليه منه حكم ، تعالى ربنا وتقدس عن ذلك .

ومايفعله من العدل بعباده ، وعقوبة من يستحق العقوبة منهم ، هو خير محض ، أو هو محض العدل والحكمة ، وإنما يكون شرا بالنسبة إليهم ، فالشر وقع فى تعلقه بهم وقيامه بهم ، لا فى فعله القائم به تعالى ، ونحن لاننكر أن الشر يكون فى مفعولاته المنفصلة فإنه خالق الخير والشر .

ولكن هنا أمران ينبغى أن يكونا منك على بال .

أحدهما : إن ماهو شر ، أو يتضمن للشر ، فانه لايكون إلا مفعولا منفصلا ، لايكون وصفا له ولافعلا من أفعاله .

الثانى : إن كونه شرا هو أمر نسبى إضافى فهو خير من جهة تعلق فعل الرب وتكوينه به ، وشر من جهة نسب إلى من هو شر فى حقه ، فله وجهان : هو من أحدهما خير ، وهو الوجه الذى نسب منه إلى الخالق سبحانه وتعالى خلقا وتكوينا ومشيئة ، لما فيه من الحكمة البالغة التى استأثر بعلمها ، وأطلع من شاء من خلقه على ماشاء منها ، وأكثر الناس تضيق عقولهم عن مبادىء معرفتها ، فضلا عن حقيقتها ، فيكفيهم الإيمان المجمل بأن الله سبحانه وتعالى هو الغنى الحميد ، وفاعل الشر لايفعله إلا لحاجته المنافية لغناه ، او لنقصه وعيبه المنافى لحمده . فيستحيل صدور الشر من الغنى الحميد فعلا . وإن كان هو الخالق للخير والشر .

فقد عرفت أن كونه شرا هو أمر إضافى ، وهو فى نفسه خير من جهة نسبته إلى خالقه ومبدعه . فلاتغفل عن هذا الموضع ، فانه يفتح لك بابا عظيما من معرفة الرب ومحبته ، ويزيل عنك شبهات حارت فيها عقول اكثر الفضلاء .

وقد بسطت هذا فى كتاب « التحفة المكية » وكتاب « الفتح القدسى » وغيرهما واذا اشكل عليك هذا ، فانا أوضحه لك بأمثلة ·

احدهما : إن السارق إذا قطعت يده ، فقطعها شر بالنسبة له ، وخير محض بالنسبة الى عموم الناس لما فيه من حفظ أموالهم ، ودفع الضرر عنهم ، وخير بالنسبة إلى متولى القطع أمرا وحكما لما فى ذلك من

الإحسان إلى عبيده عموما باتلاف هذا العضو المؤذى لهم المضر بهم ، فهو محمود على حكمه بذلك ، وأمره به مشكور عليه ، يستحق عليه الحمد من عباده ، والثناء عليه والمحبة له .

وكذلك الحكم بقتل من يصول عليهم فى دمائهم وحرماتهم ، وجلد من يصول عليهم فى أعراضهم ، فإذا كان هذا عقوبة من يصول على أديانهم ، ويحول بينهم وبين الهدى الذى بعث الله به رسله وجعل سعادة العباد فى معاشهم ومعادهم منوطه به أفليس فى عقوبة هذا الصائل خير محض وحكمة وعدل ، وإحسان إلى العبيد ، وهى شر بالنسبة إلى الصائل الباغى .

فالشر : ماقام به من تلك العقوبة . وأما مانسب إلى الرب منها من المشئية والإرادة والفعل فهو عين الخير والحكمة .

فلا يغلظ حجابك عن فهم هذا النبأ العظيم والسر الذى يطلعك على مسألة القدر ، ويفتح لك الطريق إلى الله ، ومعرفة حكمته ورحمته وإحسانه إلى خلقه ، وأنه سبحانه : كما أنه البر الرحيم الودود المحسن ، فهو الحكيم الملك العدل ، فلاتناقض حكمته ورحمته . بل يضع رحمته وبره واحسانه موضعه ، ويضع عقوبته وعدله وانتقامه وبأسه موضعه وكلاهما مقتضى عزته وحكمته ، وهو العزيز الحكيم ، فلايليق بحكمته أن يضع برضاه ورحمته موضع العقوبة والغضب ، ولا أن يضع غضبه وعقوبته موضع رضاه ورحمته . . .

فصـــــــل

إذا عرفت هذا ، عرفت معنى قوله - ﷺ - فى الحديث الصحيح : « لبيك وسعديك ، والخير فى يديك ، والشر ليس إليك »[١] وأن معناه أجل وأعظم من قول من قال ، والشر لايتقرب به اليك ، وقول من قال : والشر لايصعد اليك ، وإن هذا الذى قالوه - وإن تضمن تنزيهه عن صعود الشر اليه ، والتقرب به إليه - فلايتضمن تنزيهه فى ذاته وصفاته وأفعاله عن الشر . بخلاف لفظ المعصوم الصادق المصدوق فإنه يتضمن تنزيهه فى ذاته تبارك وتعالى عن نسبة الشر اليه بوجه ما ، لا فى صفاته ولا فى أفعاله ، ولا فى أسمائه . وإن دخل فى مخلوقاته كقوله : ﴿ **قل أعوذ برب الفلق من شر ماخلق** ﴾ .

وتأمل طريقة القرآن فى إضافة الشر تارة إلى سببه ومن قام به ، كقوله تعالى : ﴿ **والكافرون هم الظالمون** ﴾[٢] وقوله : ﴿ **والله لايهدى القوم الفاسقين** ﴾[٣] وقوله : ﴿ **فبظلم من الذين هادوا** ﴾[٤]

---

(١) أخرجه ابوداود فى سننه ح ٢ ص٤٠٤ كتاب المناسك باب كيفية التلبية رقم ١٨١٢ .
وأنظر البخارى حـ٢ ص ١٧٠ كتاب الحج باب التلبية ، مسلم فى الحج باب التلبية رقم ٥٤/ ٢٧٤٨ .
(٢) البقرة آية : ٢٥٤
(٣) المائدة آية : ١٠٨
(٤) النساء آية : ١٦٠

وقوله : ﴿ ذلك جزيناهم ببغيهم ﴾[١] وقوله : ﴿ وماظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين ﴾[٢] وهو فى القرآن أكثر من أن يذكر ههنا عشر معشاره . وإنما المقصود التمثيل .

وتارة يحذف فاعله . . كقوله تعالى حكاية من مؤمنى الجن ﴿ وأنا لاندرى أشر أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا ﴾[٣] فحذفوا فاعل الشر ومريده ، وصرحوا بمريد الشر .

ونظيره فى الفاتحة : ﴿ صراط الذين أنعمت عليهم ، غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ . فذكر النعمة مضافة إليه سبحانه ، والضلال منسوبا إلى من قام به ، والغضب محذوفا فاعله .

ومثله قول الخضر فى السفينة : ﴿ فأردت أن أعيبها ﴾ وفى الغلامين ﴿ فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك ﴾[٤] ومثله قوله : ﴿ ولكن الله حبب اليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق العصيان ﴾[٥] فنسب هذا التزين المحبوب إليه ، وقال : ﴿ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ﴾[٦] فحذف الفاعل المزين ، ومثله قول ابراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم : ﴿ الذى خلقنى فهو يهدين ، والذى هو يطعمنى ويسقين ، وإذا مرضت فهو يشفين ، والذى يميتنى ثم يحيين والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين ﴾[٧] فنسب إلى ربه كل كمال من هذه الأفعال ، ونسب إلى نفسه التقصى منها ، وهو المرض والخطيئة . . وبالجملة فالذى يضاف إلى الله تعالى كله خير وحكمة ، ومصلحة وعدل ، والشر ليس اليه .

فصـــــــل

وقد دخل فى قوله تعالى : ﴿ من شر ماخلق ﴾ الاستعاذة من كل شر فى أى مخلوق قام به الشر . من حيوان ، أو غيره ، إنسيا كان أو جنيا ، أو هامة أو دابة أو ريحا ، أو صاعقة ، أى نوع كان من أنواع البلاء .

فان قلت : فهل فى «ما» ههنا عموم ؟

قلت : فيها عموم تقييدى وضعى ، لاعموم إطلاقى ، والمعنى : من شر كل مخلوق فيه شر . فعمومها من هذا الوجه . وليس المراد الاستعاذة من شر كل ماخلقه الله . فإن الجنة ومافيها ليس فيها شر ، وكذلك الملائكة والأنبياء فانهم خير محض ، والخير كله حصل على أيديهم ، فالاستعاذة من شر

---

(١) الأنعام آية : ١٤٦
(٢) الزخرف آية : ٧٦
(٣) الجن آية : ١٠
(٤) الكهف الآيتان : ٧٩ ، ٨١
(٥) الحجرات الآية : ٧
(٦) آل عمران آية : ١٤
(٧) الشعراء : ٧٨ - ٨٢

ماخلق ، تعم شر كل مخلوق فيه شر ، وكل شر فى الدنيا والآخرة ، وشر شياطين الإنس والجن ، وشر السباع والهوام وشر النار والهواء ، وغير ذلك .

وفى الصحيح عن النبى - ﷺ - أنه قال : « من نزل منزلا فقال : أعوذ بكلمات الله التامات من شر ماخلق ، لم يضره شىء حتى يرتحل منه » رواه مسلم[١]

فصـــــل

الشر الثانى : شر الغاسق إذا وقب

فهذا خاص بعد عام ، وقد قال أكثر المفسرين : إنه الليل .

قال ابن عباس : الليل إذا أقبل بظلمته من المشرق ، ودخل فى كل شىء وأظلم ، والغسق : الظلمة ، يقال غسق اليل ، وأغسق : إذا أظلم ، ومنه قوله تعالى : ﴿ **أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل** ﴾[٢] وكذلك قال الحسن . ومجاهد : الغاسق إذا وقب : الليل إذا أقبل ودخل .

وفى تسمية الليل غاسقا قول آخر : إنه من البرد ، والليل أبرد من النهار ، والغسق : البرد وعليه حمل ابن عباس قوله تعالى : ﴿ **لايذوقون فيها بردا ولا شرابا إلا حميا وغساقا** ﴾[٣]

فقال : هو الزمهرير يحرقهم ببرده ، كما تحرقهم النار بحرها ، وكذلك قال مجاهد ومقاتل : هو الذى انتهى برده .

ولاتنافى بين القولين ، فإن الليل بارد مظلم ، فمن ذكر برده فقط أو ظلمته فقط : اقتصر على أحد وصفيه .

والظلمة فى الآية أنسب لمكان الاستعاذة ، فإن الشر الذى يناسب الظلمة أولى بالاستعاذة من البرد الذى فى الليل ، ولهذا استعاذ برب الفلق ، الذى هو الصبح والنور : من شر الغاسق ، الذى هو الظلمة ، فناسب الوصف المستعاذ به المعنى المطلوب بالاستعاذة ، كما سنزيده تقريرا عن قريب إن شاء الله .

فإن قيل : فما تقولون فيما رواه الترمذى من حديث إبن أبى ذئب عن الحرث بن عبدالرحمن عن أبى سلمة عن عائشة قالت : « أخذ النبى - ﷺ - بيدى ، فنظر إلى القمر ، فقال : (ياعائشة استعيذى بالله

---

(١) اخرجه مسلم : فى صحيحه حـ٤ ص٢٠٨٠ ، ٢٠٨١ كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار باب فى التعوذ من سوء القضاء رقم ٥٤ / ٢٧٨٠

(٢) سورة الاسراء آية : ٧٨

(٣) سورة النبأ الآيتان : ٢٤ ، ٢٥

من شر هذا ، فان هذا هو الغاسق إذا وقب)[١] قال الترمذى فى هذا حسن صحيح ، وهذا اولى من كل تفسير فيتعين المصير اليه ؟

قيل : هذا التفسير حق ، ولايناقض التفسير الأول ، بل يوافقه ويشهدك لصحته ، فإن الله تعالى قال : ﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة ﴾[٢] فالقمر هو آية الليل وسلطانه فيه ، فهو أيضا غاسق إذا وقب ، كما أن الليل غاسق إذا وقب ، والنبى - ﷺ - أخبر عن القمر بأنه غاسق إذا وقب ، وهذا خبر صدق ، وهو أصدق الخبر ، ولم ينف عن الليل اسم الغاسق إذا وقب ، وتخصيص النبى - ﷺ - له بالذكر لاينفى شمول الإسم لغيره .

ونظير هذا : قوله - ﷺ - فى المسجد الذى أسس على التقوى - وقد سئل عنه - فقال : « هو مسجدى هذا » ومعلوم أن هذا لاينفى كون مسجد قباء مؤسسا على التقوى مثل ذاك .

ونظير هذا ، قوله : « ليس الشديد بالصرعة ، إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب »[٣] ، ولكن يقتضى أن ثبوته للذى يملك نفسه عندالغضب أولى ، فكذلك قوله فى القمر « هذا هو الغاسق إذا وقب » لاينفى أن يكون الليل غاسقا ، بل كلاهما غاسق .

فصـــــــل

والشر الذى لأجله أمر الله بالاستعاذة من شر الليل وشر القمر إذا وقب هو : أن الليل إذا أقبل فهو محل سلطان الأرواح الشريرة الخبيثة ، وفيه تنتشر الشياطين وفى الصحيح أن النبى - ﷺ - أخبر أن الشمس إذا غربت انتشرت الشياطين ولهذا قال : « فاكفتوا صبيانكم ، واحبسوا مواشيكم حتى تذهب نجمة العشاء » وفى حديث آخر « فإن الله يبث من خلقه مايشاء »[٤] .

والليل هو محل الظلام وفيه تتسلط شياطين الإنس والجن مالا تتسلط بالنهار ، فإن النهار نور ، والشياطين إنما سلطانهم فى الظلمات ، والمواضع المظلمة ، وعلى أهل الظلمة .

وروى أن سائلا سأل مسليمة الكذاب : كيف يأتيك الذى يأتيك ؟ فقال : فى ظلماء حندس . وسئل النبى - ﷺ - « كيف يأتيك ؟ فقال : فى ضوء النهار » فاستدل بهذا على نبوته ، وأن الذى يأتيه ملك من عند الله ، وأن الذى يأتى مسليمة شيطان .

ولهذا كان سلطان السحر وعظم تأثيره ، إنما هو بالليل دون النهار ، فالسحر الليلى عندهم : هو

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه حـ ٥ ص ٤٢١ ، ٤٢٢ كتاب التفسير باب المعوذتين رقم ٣٣٦٦

(٢) الاسراء آية : ١٢

(٣) أخرجه مسلم فى صحيحه جـ ٤ ص ٢٠١٤ كتاب البر والصلة باب من يملك نفسه عند الغضب رقم ١٠٧ / ٢٦٠٩

(٤) اخرجه البخارى فى صحيحه ح ٤ ص١٥٧ كتاب بدء الخلق باب خمس من الدواب مواسعة يقتلن فى الحرم .

السحر القوى التأثير ، ولهذا كانت القلوب المظلمة هى محال الشياطين وبيوتهم ومأواهم ، والشياطين تجول فيها ، وتتحكم كما يتحكم ساكن البيت فيه ، وكلما كان القلب أظلم ، كان للشيطان أطوع ، وهو فيه اثبت وأمكن .

فصـــــل (الحكمة من الاستفادة برب الفلق)

ومن هنا : تعلم السر فى الاستعاذة برب الفلق فى هذا الموضع .

فإن الفلق هو الصبح الذى هو يبدأ ظهور النور ، وهو الذى يطرد جيش الظلام ، وعسكر المفسدين فى الليل ، فيأوى كل خبيث ، وكل مفسد ، وكل لص ، وكل قاطع إلى سرب أو كن أو غار ، وتأوى الهوام إلى اجحرتها ، والشياطين التى انتشرت بالليل الى أمكنتها ومحالها ، فأمر الله عباده أن يستعيذوا برب النور ، الذى يقهر الظلمة ويزيلها ، ويقهر عسكرها وجيشها ، ولهذا ذكر سبحانه فى كل كتاب : أنه يخرج عباده من الظلمات إلى النور ، ويدع الكفار فى ظلمات كفرهم ، قال الله تعالى : ﴿ **الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور . والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت ، يخرجونهم من النور إلى الظلمات** ﴾[١] وقال تعالى : ﴿ **أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها** ﴾[٢]

وقال فى أعمال الكفار : ﴿ **أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ، ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ، ومن لم يجعل الله له نورا فماله من نور** ﴾[٣] .

وقد قال قبل ذلك فى صفات أهل الأعيان ونورهم : ﴿ **الله نور السموات والأرض ، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح فى زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب درى ، يوقد من شجرة مباركة ، زيتونة لاشرقية ولاغربية ، يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار ، نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شىء عليم** ﴾[٤] .

فالإيمان كله نور ، ومآله إلى نور ، ومستقره فى القلب المضىء المستنير ، والمقترن بأهله الأرواح المستنيرة المضيئة المشرقة ، والكفر والشرك كله ظلمات ، ومآله إلى الظلمات ، ومستقره فى القلوب المظلمة ، والمقترن بأهله الأرواح المظلمة .

فتأمل الاستعاذة برب الفلق من شر الظلمة ، ومن شر مايحدث فيها ، ونزل هذا المعنى على الواقع

---

(١) البقرة آية : ٢٥٧
(٢) الأنعام آية : ١٢٢
(٣) النور آية : ٤٠
(٤) النور آية : ٣٥

يشهد بأن القرآن ، بل هاتان السورتان من أعظم إعلام النبوة ، وبراهين صدق رسالة محمد - ﷺ - ومضادته لما جاء به الشياطين من كل وجه ، وأن ماجاء به ماتنزلت به الشياطين ، وماينبغى لهم ومايستطيعون فما فعلوه . ولايليق بهم ، ولايتأتى منهم ، ولايقدرون عليه .

وفى هذا أبين جواب وأشفاه لما يورده أعداء الرسول ﷺ عليه من الأسئلة الباطلة ، التى قصر المتكلمون غاية التقصير فى دفعها وما شقوا فى جوانبها ، وإنما الله سبحانه وتعالى هو الذى شفى وكفى فى جوانبها ، فلم يحوجنا إلى متكلم ، ولا إلى أصولى ، ولا إلى نظار ، فله الحمد والمنة ، لا نحصى ثناء عليه .

فصـــــل

واعلم أن الخلق كله خلق . وذلك أن « فلقا » فعل بمعنى مفعول ، كقبص وسلب ، وقنص بمعنى مقبوض ومسلوب ومقنوص والله عز وجل يقول فالق الإصباح[1]وكما يقول سبحانه «فالق الحب والنوى[2]» وفالق الأرض عن النبات والجبال عن العيون ، والسحاب عن المطر ، والأرحام عن الأجنة والظلام عن الاصباح ويسمى الصبح المتصدع عن الظلمة ، فلقا وفرقا ، يقال ؛ هو أبيض من فرق الصبح وفلقه .

وكما أن فى خلقته فلقا وفرقا ، فكذلك أمره كله فرقان ، يفرق بين الحق والباطل ، فيفرق ظلام الباطل بالحق ، كما يفرق ظلام الليل بالإصباح ، ولهذا سمى كتابه « الفرقان » ونصره فرقانا ، لتضمنه الفرق بين أوليائه وأعدائه ومنه فلقه البحر لموسى وسماه فلقا ظهرت حكمة الاستعاذة برب الفلق فى هذه المواضع ، وظهر بهذا إعجاز القرآن وعظمته وجلالته ، وأن العباد لايقدرون قدره وإنه ﴿ تنزيل من حكيم حميد ﴾ .

فصـــــل
(قوله تعالى : من شر النفاثات فى العقد)

الشر الثالث : شر النفاثات فى العقد .

وهذا الشر هو شر السحر ، فإن النفاثات فى العقد : هن السواحر اللاتى يعقدن الخيوط ، وينفثن على عقده ، حتى ينعقد مايرون من السحر ، والنفث : هو النفخ مع ريق . وهو دون التفل . وهو مرتبة بينهما .

والنفث : فعل الساحر ، فاذا تكيفت نفسه بالخبث والشر الذى يريده بالمسحور ، ويستعين عليه

---

(١) الأنعام آية : ٩٦

(٢) الأنعام آية : ٩٥

بالأرواح الخبيثة ، نفخ فى تلك العقد نفخا معه ريق ، فيخرج من نفسه الخبيثة نفس ممازج للشر والأذى ، مقترن بالريق الممازج لذلك وقد تساعد هو والروح الشيطانية على أذى المسحور . فيقع فيه السحر باذن الله الكونى القدرى ، لا الأمرى الشرعى .

فان قيل : فالسحر يكون من الذكور والإناث ، فلم خص الاستعاذة من الإناث دون الذكور ؟

قيل فى جوابه : إن هذا خرج على السبب الواقع ، وهو أن بنات لبيدبن الأعصم سحرن النبى صلى الله عليه وسلم .

هذا جواب أبى عبيده وغيره ، وليس هذا بسديد ، فإن الذى سحر النبى ﷺ هو لبيد بن الأعصم لابناته كما جاء فى الصحيح .

والجواب المحقق : أن النفاثات هنا : هن الأرواح والأنفس النفاثات لا النساء النفاثات ، لأن تأثير السحر إنما هو من جهة الأنفس الخبيثة ، والأرواح الشريرة ، وسلطانه إنما يظهر منها ، فلهذا ذكرت النفاثات هنا بلفظ التأنيث ، دون التذكير . والله أعلم .

ففى الصحيح : عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها أن النبى - ﷺ - طُبَّ ، حتى أنه ليخيل إليه أنه صنع شيئا وماصنعه ، وأنه دعا ربه ، ثم قال : أشعرت أن الله أفتانى فيما استفتيه فيه ؟ فقالت عائشة وماذاك يارسول الله ؟ قال : جاءنى رجلان فجلس أحدهما عند رأسى ، والآخر عند رجلى فقال أحدهما لصاحبه . ماوجع الرجل ؟ قال الآخر مطبوب قال : ومن طبه ؟ قال : لبيد بن الأعصم . قال : فيما ذا ؟ قال : فى مشط مشاطه ، وجف طلع ذكر . قال فأين هو ؟ قال : فى ذروان ، بئر فى بنى زريق ، قالت عائشة رضى الله عنها : فأتاها رسول الله - ﷺ - ، ثم رجع إلى عائشة فقال : والله لكأن ماءها نقاعة الحناء ، ولكأن نخلها رؤوس الشياطين قال : فقلت له : يارسول الله ، هلا أخرجته ، قال : أما أنا فقد شفانى الله ، وكرهت أن أثير على الناس شرا . فأمر بها فدفنت »[1] قال البخارى : وقال الليث وابن عيينة عن هشام فى مشط ومشاطه .

ويقال : إن المشاطة : مايخرج من الشعر إذا مشط ، والمشاقة من كشافة الكتان .

قلت : هكذا فى هذه الرواية ، أنه صلى الله عليه وسلم لم يخرجه ، اكتفاء بمعافاة الله له وشفائه إياه .

وقد روى البخارى من حديث ابن عيينه قال : « وممن حدثنا به ابن جريج يقول : حدثنى آل عروة عن عروة . فسألت هشاما عنه ؟ فحدثنا عن أبيه عن عائشة . كان رسول الله - ﷺ - سحر ، حتى كان يرى انه يأتى النساء ولايأتيهن . قال سفيان : وهذا أشد مايكون من السحر ، إذا كان كذا ، فقال :

(١) اخرجه مسلم فى صحيحه حـ٤ ص١٧٢ كتاب السلام . باب السحر رقم ٢١٨٩/٤٣

ياعائشة ، أعلمت أن الله قد أفتانى فيما أستفتيه فيه ؟ أتانى رجلان فقعد أحدهما عند رأسى ، والآخر عند رجلى . فقال الذى عند رأسى للآخر : مابال الرجل ؟ قال : مطبوب . قال : ومن طبه ؟ قال : لبيد بن الأعصم ، رجل من بنى زريق حليف ليهود : وكان منافقا قال : وفيم ؟ قال :فى مشط ومشاطة . قال : وأين ؟ قال فى جف طلع ذكر ، تحت راعونة فى بئر ذروان . قال : فأتى البئر فاستخرجه . فقال : هذه البئر التى أريتها ، وكأن ماءها نقاعة الحناء ، وكأن نخلها رءوس الشياطين . قال : فاستخرج قالت : أفلا ـ أى تنشرت ـ قال : أما الله فقد شفانى ، وأكره أن أثير على أحد من الناس شرا[١] .

ففى هذا الحديث : أنه ـ ﷺ ـ استخرجه . وترجم البخارى عليه بأن هل يستخرج السحر . وقال قتادة : قلت لسعيد بن المسيب : رجل به طب ، ويؤخذ عن امرأته ابجل عنه وينشر ،؟ قال : لابأس به ، إنما يريدون به الإصلاح ، فاماماينفع الناس فلم ينه عنه .

فهذان الحديثان قد يظن فى الظاهر تعارضهما فإن حديث عيسى عن هشام عن أبيه . الأول فيه : أنه لم يستخرجه . وحديث ابن جريج عن هشام فيه أنه استخرجه لاتنافى بينهما . فإنه استخرجه من البئر حتى رآه وعلمه ، ثم دفنه بعد أن شفى . وقول عائشة « هلا استخرجته » أى هلا اخرجته للناس حتى يروه ويعاينوه ؟ فأخبرها بالمانع له من ذلك ، وهو المسلمين لم يكونوا ليسكتوا عن ذلك ، فيقع الانكار ، ويغضب للساحر قومه ، فيحدث الشر وقد حصل المقصود بالشفاء والمعافاة . فأمر بها فدفنت ، ولم يستخرجها للناس ، بالاستخراج الواقع غير الذى سألت عنه السيدة عائشة رضى الله عنها .

والذى يدل عليه : أنه ـ ﷺ ـ إنما جاء إلى البئر ليستخرجها ولم يجىء لينظر اليها ثم ينصرف ، إذ لاغرض له فى ذلك . والله أعلم .

الرد على من أنكر أن النبى صلى الله عليه وسلم سُحر

وهذا الحديث ثابت عند أهل العلم بالحديث ، متلقى بالقبول بينهم ، لايختلفون فى صحته ، وقد اعتاص على كثير من أهل الكلام وغيرهم ، وأنكروا أشد الانكار ، وقابلوه بالتكذيب ، وصنف بعضهم منه مصنفا مفردا ، حمل فيه على هشام ، وكان غاية ماأحسن القول فيه : أن قال : غلط ، واشتبه عليه الأمر ، ولم يكن من هذا شىء ، قال : لأن النبى ـ ﷺ ـ لايجوز أن يسحر . فإنه يكون تصديقا لقول الكفار : ﴿ **إن تتبعون إلا رجلا مسحورا** ﴾[٢] قالوا : وهذا كما قال فرعون لموسى : ﴿ **وإنى لأظنك ياموسى مسحورا** ﴾[٣] وكما قال قوم صالح له : ﴿ **إنما أنت من المسحرين** ﴾[٤] وكما قال قوم شعيب له : ﴿ **إنما أنت من المسحرين** ﴾[٥] .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه حـ٤ ص١٤٨ كتاب بدء الخلق باب . صفة ابليس وجنوده .
(٢) الاسراء آية : ٤٧
(٣) الاسراء آية : ١٠١
(٤) الشعراء آية : ١٥٣
(٥) الشعراء آية : ١٨٥

قالوا : فالأنبياء لايجوز عليهم أن يسحروا ، فإن ذلك ينافى حماية الله لهم وعصمتهم من الشيطان .

وهذا الذى قاله هؤلاء مردود عند أهل العلم فإن هشاما من أوثق الناس وأعلمهم ، ولم يقدح فيه أحد من الأئمة بما يوجب رد حديثه ، فما للمتكلمين وماهذا الشأن ؟ وقد رواه غير هشام عن عائشة ، وقد اتفق أصحاب الصحيحين على تصحيح هذا الحديث ، ولم يتكلم فيه أحد من أهل الحديث بكلمة واحدة . والقصة مشهورة عن أهل التفسير والسنن والحديث والتاريخ والفقهاء ، وهؤلاء أعلم بأحوال رسول الله - ﷺ - من المتكلمين .

قال أبوبكر بن أبى شيبة : حدثنا معاوية عن الأعمش عن يزيد بن حباب عن زيد بن أرقم قال : « سحر النبى - ﷺ - رجل من اليهود فاشتكى لذلك أياما . قال : فأتاه جبريل ، فقال : إن رجلا من اليهود سحرك ، وعقد لك عقدا ، فارسل رسول الله - ﷺ - عليا فاستخرجها ، فجاء بها ، فجعل كلما حل عقدة وجد لذلك خفة فقام رسول الله - ﷺ - كأنما نشط من عقال . فما ذكر ذلك اليهودى ، ولارآه فى وجهه قط » وقال ابن عباس وعائشة « كان غلام من اليهود يخدم رسول الله - ﷺ - فدنت إليه اليهود . فلم يزالوا حتى أخذ مشاطة رأس النبى - ﷺ - وعدة أسنان من مشطه فأعطاها اليهود ، فسحروه فيها ، وتولى ذلك لبيد بن الأعصم رجل من اليهود[1] فنزلت هاتان السورتان .

قال البغوى : وقيل : « كانت مغروزة بالابر ، فأنزل الله عز وجل هاتين السورتين ، وهما احد عشر آية : سورة الفلق خمس آيات وسورة الناس ست آيات ، فكلما قرأ آية ، انحلت عقدة ، حتى انحلت العقد كلها ، فقام النبى - ﷺ - كأنما نشط من عقال » . قال : وروى أنه لبث فيه ستة أشهر ، واشتد عليه ثلاثة أيام فنزلت المعوذتان .

وقالوا :

والسحر الذى أصابه كان مرضا من الأمراض عارضا شفاه الله منه ولانقص فى ذلك ، ولاعيب بوجه ما فإن المرض يجوز على الأنبياء وكذلك الإغماء ، فقد أغمى عليه صلى الله عليه وسلم فى مرضه ، ووقع حين انفكت قدمه وجحش شقه ، وهذا من البلاء الذى يزيده الله به رفعه فى درجاته ، ونيل كرامته . وأشد الناس بلاء الأنبياء . فابتلوا من أممهم مما ابتلوا به . من القتل والضرب والشتم ، فليس ببدع أن يبتلى النبى - ﷺ - من بعض أعدائه بنوع من السحر ، كما ابتلى والذى القى على ظهره السلا وهو ساجد ، وغير ذلك ، فلا نقص عليهم ولاعار فى ذلك بل هذا من كمالهم ، وعلو درجاتهم عند الله تعالى .

قالوا : وقد ثبت فى الصحيح عن أبى سعيد الخدرى أن جبريل أتى النبى - ﷺ - فقال : يامحمد اشتكيت ؟ فقال : نعم . فقال باسم الله ارقيك ، من كل شىء يؤذيك ، من شر كل نفس ، أو عين

---

(١) أخرجه ابن ابى شيبه فى مصنفه حـ٧ ص٣٨٨ كتاب الطب باقى الرجل يسحر ويسم ويعالج . رقم ٣٥٦٩

حاسد ، الله يشفيك ، بسم الله أرقيك »[١] فعوذه جبريل من شر كل نفس وعين حاسد ، لما اشتكى . فدل على أن هذا التعويذ مزيل لشكايته ﷺ ـ وإلا فلايعوذه من شيء وشكايته من غيره .

وقالوا : وأما الآيات التى استدللتم بها فلا حجة لكم فيها .

أما قوله تعالى عن الكفار ، إنهم قالوا : ﴿ **إن تتبعون إلا رجلا مسحورا** ﴾ وقول قوم صالح وشعيب لهما : ﴿ **إنما أنت من المسحرين** ﴾ فقيل المراد به من له سحر ، وهى الرئة ، أى أنه بشر مثلهم ، يأكل ويشرب ليس بملك ، وليس المراد به السحر .

وهذا جواب غير مرضى ، وهو فى غاية البعد ، فإن الكفار لم يكونوا يصبرون عن البشر بمسحور ، ولايعرف هذا فى لغة من اللغات ، وحيث أرادوا هذا المعنى أتوا بصريح لفظ البشر ، فقالوا : ﴿ **ماأنتم إلا بشر مثلنا** ﴾[٢] وقالوا : ﴿ **أنؤمن لبشرين مثلنا** ﴾[٣] وأما المسحور فلم يريدوا به ذا السحر ، وهى الرئة ، وأى مناسبة لذكر الرئة فى هذا الموضع ؟

ثم كيف يقول فرعون لموسى : ﴿ **انى لأظنك ياموسى مسحورا** ﴾[٤] افتراه ماعلم أن له سحرا ، وأنه بشر ؟

ثم كيف يجيبه موسى بقوله : ﴿ **إنى لأظنك يافرعون مثبورا** ﴾[٥] ولو أراد بالمسحور : أنه بشر لصدقه موسى ، وقال : نعم ، أنا بشر أرسلنى الله إليك ، فهذا الجواب غاية الضعف .

والصواب هو جواب صاحب الكشاف وغيره : أن « المسحور » على بابه وهو من سحر حتى جن ، فقالوا : مسحور ، مثل مجنون أى زائل العقل ، لايعقل مايقول ، فإن المسحور الذى لايتبع هو الذى فسد عقله ، بحيث لايدرى مايقول فهو كالمجنون . ولهذا قالوا فيه : ﴿ **معلم مجنون** ﴾[٦] فأما من أصيب فى بدنه بمرض من الامراض يصاب به الناس ، فانه لايمنع ذلك من اتباعه .

وأعداء الرسل لم يقذفوهم بأمراض الأبدان ، وإنما قذفوهم بمايحذرون سفهائهم من أتباعهم ، وهو أنهم قد سحروا ، حتى صاروا لايعلمون مايقولون ، بمنزلة المجانين ، ولهذا قال تعالى : ﴿ **انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلايستطيعون سبيلا** ﴾[٧] مثلوك بالشاعر مرة ، والساحر أخرى ، والمجنون مرة ، والمسحور أخرى . فضلوا فى جميع ذلك ضلال من يطلب فى تيهه وتحيره طريقا يسلكه ، فلايقدر

---

(١) أخرجه الترمذى وسننه حـ٣ ص٣٠٣ كتاب الجنائز باب ماجاء فى التعوذ للمريض رقم ٩٧٢ . وابن ماجة فى كتاب الطب باب مايعوذ به النبى رقم ٣٥٢٣ .

(٢) يس آية : ١٥

(٣) المؤمنون آية : ٤٧

(٤) الإسراء آية : ١٠١

(٥) الاسراء آية : ١٠٢

(٦) الدخان آية : ١٤

(٧) الإسراء آية : ٤٨

عليه ، فإنه أى طريق أخذها فهى طريق ضلال وحيرة ، فهو متحير فى أمره ، لايهتدى سبيلا ، ولايقدر على سلوكها .

فهكذا حال أعداء رسول الله - ﷺ - معه ، حتى ضربوا له أمثالا ، برأه الله منها ، وهو أبعد الناس عنها ، وقد علم كل عاقل أنها كذب وافتراء وبهتان .

وأما قولكم : إن سحر الأنبياء ينافى حماية الله لهم ، فإنه سبحانه كما يحميهم ويصونهم يحفظهم ويتولاهم ، فيبتليهم بما شاء من أذى الكفار لهم ، ليستوجبوا كمال كرامته ، وليتسلى بهم من بعدهم من أممهم وخلفائهم إذا أوذوا من الناس فرأوا ماجرى على الرسل والأنبياء ، صبروا ورضوا ، وتأسوا بهم ، وليمتلىء صاع الكفار فيستوجبون ماأعد لهم من النكال العاجل ، والعقوبة الآجلة ، فيمحقهم بسبب بغيهم وعدوانهم ، فيعجل تطهير الأرض منهم ، فهذا من بعض حكمته تعالى فى ابتلاء أنبيائه ورسله بإيذاء قومهم ، وله الحكمة البالغة ، والنعمة السابغة ، لا إله غيره ، ولا رب سواه .

فصل

وقد دل قوله تعالى : ﴿ من شر النفاثات فى العقد ﴾ وحديث عائشة المذكور على تأثير السحر ، وأن له حقيقة .

وقد أنكر ذلك طائفة من أهل الكلام من المعتزلة وغيرهم .

وقالوا : إنه لا تأثير للسحر ألبتة لا فى مرض ، ولا قتل ، ولا حل ، ولا عقد .

قالوا : وإنما ذلك تخييل لأعين الناظرين ، لا حقيقة له سوى ذلك وهذا خلاف ما تواترت به الآثار عن الصحابة والسلف ، واتفق عليه الفقهاء وأهل التفسير والحديث ، وما يعرفه عامة العقلاء ، والسحر الذى يؤثر مرضا وثقلاً وعقداً وحباً وبغضاً ونزيفاً وغير ذلك من الآثار موجود ، تعرفه عامة الناس ، وكثير منهم قد علمه ذوقاً بما أصيب به منه ، وقوله تعالى : ﴿ ومن شر النفاثات فى العقد ﴾ دليل على هذا النفث يضر المسحور فى حال غيبته عنه ، ولو كان الضرر لا يحصل إلا بمباشرة البدن ظاهراً ، كما يقوله هؤلاء ، لم يكن للنفث ولا للنفاثات شر يستعاذ منه . . . . وبالجملة فبطلان هذا أظهر من أن يتكلف رده فلنرجع إلى المقصود .

فصل قوله تعالى : ﴿ ومن شر حاسد إذا حسد ﴾

الشر الرابع : شر الحاسد إذا حسد

وقد دل القرآن والسنة على أن نفس حسد الحاسد يؤذى المحسود فنفس حسده شر متصل بالمحسود من نفسه وعينه وإن لم يؤذه بيده ولا لسانه ، فإن الله تعالى قال : ﴿ ومن شر حاسد إذا حسد ﴾ فحقق الشر منه صدور الحسد . والقرآن ليس فيه لفظه مهملة .

ومعلوم أن الحاسد لا يسمى حاسدا إلا إذا قام به الحسد ، ولكن قد يكون الرجل فى طبعه الحسد وهو غافل عن المحسود ، لاه عنه ، فإذا خطر على ذكره وقلبه ، انبعثت نار الحسد من قلبه إليه ، وتوجهت إليه سهام الحسد من قبله ، فيتأذى المحسود بمجرد ذلك ، فإن لم يستعذ بالله ويتحصن به ، ويكون له أوراد من الأذكار والدعوات والتوجه إلى الله والإقبال عليه ، بحيث يدفع عنه من شره بمقدار توجهه واقباله على الله ، وإلا ناله شر الحاسد ولابد .

فقوله تعالى : ﴿ إذا حسد ﴾ بيان لأن شره إنما يتحقق إذا حصل منه الحسد بالفعل .

وقد تقدم فى حديث أبى سعيد الصحيح : رقية جبريل النبى - ﷺ - وفيها « بسم الله أرقيك ، من كل شيء يؤذيك ، من شر كل نفس أوعين حاسد ، الله يشفيك » فهذا فيه الاستفادة من شر عين الحاسد .

ومعلوم أن عينه لا تؤثر بمجردها ، إذ لو نظر إلى نظر لاه « ساه » عنه كما ينظر إلى الأرض والجبل وغيره ، لم يؤثر فيه شيئاً ، وإنما إذا نظر اليه نظرة قد تكيفت نفسه الخبيثة واتسمّت ، واحتدت فصارت نفساً غضبية خبيثة حاسدة ، أثرت بها تلك النظرة ، فأثرت فى المحسود تأثيرا بحسب صفة ضعفه ، وقوة نفس الحاسد ، فربما أعطبه وأهلكه ، بمنزلة من صوب سهماً نحو رجل عريان فأصاب منه مقتلاً ، وربما صرعه وأمرضه ، والتجارب عند الخاصة والعامة بهذا أكثر من أن تذكر ، وهذه العين إنما تأثيرها بواسطة النفس الخبيثة ، وهى فى ذلك بمنزلة الحية التى إنما يؤثر سمعها إذا عضت واحتدت ، فإنها تتكيف بكيفية الغضب والخبث ، فتحث فيها تلك الكيفية السم ، فتؤثر فى اللديغ ، وربما قويت تلك الكيفية واشتدت فى نوع منها ، حتى تؤثر بمجرد نظرة ، فتطمس البصر ، وتسقط الجبل ، كما ذكره النبى - ﷺ - فى الأثير ، وذى الطفيتين منها فقال : « اقتلوهما فإنهما يطمسان البصر ، ويسقطان الجبل » فإذا كان هذا فى الحيات ، فما الظن فى النفوس الشريرة الغضبية الحاسدة ، إذا تكيفت بكيفيتها الغضبية ، واتسمت وتوجهت إلى المحسود بكيفيتها ، فـلله كم من قتيل ؟ وكم من سليب ؟ وكم من معافى عاد مضنى على فراشه ، يقول طبيبه لا أعلم داءه ، ما هو؟ فصدق : ليس هذا الداء من علم الطبائع ، هذا من علم الأرواح وصفاتها وكيفياتها ومعرفة تأثيراتها فى الأجسام والطبائع ، وانفعال الأجسام عنها . وهذا علم لا يعرفه إلا خواص الناس ، والمحجوبون منكرون له ولا يعلم تأثير ذلك وارتباطه بالطبيعة وانفعالها عنه ، إلا من له نصيب من ذوقه ، وهل الأجسام إلا كالخشب الملقى ؟ وهل الانفعال والتأثر وحدوث ما يحدث منها من الأفعال العجيبة ، والآثار الغريبة إلا من الأرواح ، والأجسام آلتها بمنزلة الصانع ؟ فالصنعة فى الحقيقة له ، والآلات وسائط فى وصول أثره إلى الصنع ، ومن له أدنى فطنة وتأمل لأحوال العالم وقد لطفت روحه ، وشاهدت أحوال الأرواح وتأثيراتها ، وتحريكها الأجسام وانفعالها عنها ، وكل ذلك بتقدير العزيز العليم ، خالق الأسباب والمسببات - رأى عجائب فى الكون وآيات دالة على وحدانية الله وعظمة ربوبيته ، وأن تتم عالماً آخر تجرى عليه أحكام آخر ، تشهد آثارها ، وأسبابها غيب عن الأبصار .

فتبارك الله رب العالمين ، وأحسن الخالقين ، الذى أتقن ما صنع ، وأحسن كل شيء خلقه .

ولا نسبة لعالم الأجسام إلى عالم الأرواح ، بل هو أعظم وأوسع ، وعجائبه أبهر ، وآياته أعجب .

وتأمل هذا الهيكل الإنسانى إذا فارقته الروح ، كيف يصير بمنزلة الخشبة أو القطعة من اللحم ؟ فأين ذهبت تلك العلوم والمعارف والفعل ؟ وتلك الصنائع الغريبة ، وتلك الأفعال العجيبة ، وتلك الأفكار والتدابير ؟ كيف ذهبت كلها مع الروح وبقى الهيكل سواء هو والتراب وهل يخاطبك من الإنسان أو يراك أو يحبك أو يواليك أو يفاديك ، ويخف عليك أو يثقل ، ويؤنسك أو يوحشك ، إلا ذلك الأمر الذى هو وراء الهيكل المشاهد بالبصر ؟

فرب رجل عظيم الحيولى كبير الجثة . خفيف على قلبك ، حلو عندك وآخر لطيف الخلقة ، صغير الجثة ، أثقل على قلبك من جبل ، وما ذاك إلا للطاقة روح ذاك وخفتها وحلاوتها ، وكثافة هذا وغلظ روحه ومرارتها .

وبالجملة : فالعلق والوُصَل التى بين الأشخاص والمنافرات والبعد ، إنما هى للأرواح أصلاً والأشباح تبعاً

الفرق بين العائـن والحاسد

والعاين والحاسد يشتركان فى شيء ، ويفترقان فى شيء فيشتركان فى أن كل واحد منهما تتكيف نفسه ، وتتوجه نحو من يريد أذاه .

فالعائن : تتكيف نفسه عند مقابلة المعين ومعاينته .

والحاسد : يحصل له ذلك عند غيبة المحسود وحضوره أيضاً ويفترقان فى أن العائن قد يصيب من لا يحسده ، من جماد أو حيوان أو زرع أو مال ، وإن كان لا يكاد ينفك من جسد صاحبه ، وربما أصابت عينه نفسه ، فإن رؤيته للشيء رؤية تعجب وتحديق ، مع تكييف نفسه بتلك الكيفية تؤثر فى المعين .

وقد قال غير واحد من المفسرين فى قوله تعالى ﴿ **وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر** ﴾ إنه الأصابة بالعين ، أرادوا أن يصيبوا بها رسول الله ـ ﷺ ـ فنظر إليه قوم من العائنين ، وقالوا : ما رأينا مثله ، ولا مثل حجبته .

وقال الكلبى : كان رجل من العرب يمكث يومين أو ثلاثة لا يأكل ، ثم يرفع جانب خبائه ، فتمر الأبل ، فيقول : لم أر كاليوم إبلاً ولا غنماً أحسن من هذه ، فما تذهب إلا قليلاً حتى يسقط منها طائفة . فسأل الكفار هذا الرجل أن يصيب رسول الله ـ ﷺ ـ بالعين ، ويفعل به كفعله فى غيره : فعصم الله رسوله وحفظه . وأنزل عليه ﴿ **وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم** ﴾ هذا قول طائفة .

وقالت طائفة أخرى منهم ابن قتيبة : ليس المراد : أنهم يصيبونك بالعين ، كما يصيب العائن بعينه ما يعجبه ، وإنما المراد . أنهم ينظرون إليك إذا قرأت القرآن نظرا شديدا بالعدوان والبغضاء يكاد

---

(١) القلم آية ٥١

يسقطك . قال الزجاج : يعنى من شدة العداوة يكادون بنظرهم نظرا البغضاء أن يصدعوك . وهذا مستعمل فى الكلام: يقول القائل : نظر إلىَّ نظرا كاد يصرعنى .

قال : ويدل على صحة هذا المعنى : أنه قرن هذا النظر بسماع القرآن وهم كانوا يكرهون ذلك أشد الكراهية ، فيحدو إليه النظر بالبغضاء . . . . .

فالكفار كانوا ينظرون إليه نظر حاسد شديد العداوة ، فهو نظر يكاد يزلقه ، لولا حفظ الله وعصمته ، فهذا أشد من نظر العائن ، بل هو جنس من نظر العائن ، فمن قال : أنه من الإصابة بالعين أراد : هذا المعنى . ومن قال : ليس به . أراد : أن نظرهم لم يكن نظر استحسان وإعجاب ، فالقرآن حق .

وقد روى الترمذى من حديث أبى سعيد « أن النبى -ﷺ- كان يتعوذ من عين الإنسان » فلولا أن العين شر لم يتعوذ منها .

وفيه أيضاً من حديث وهيب عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس قال : « كان رسول الله -ﷺ- يقول : لو كان شىء سابق القدر لسبقته العين ، وإذا استغسلتم فاغسلوا » وفى الباب عن عبد الله ابن عمرو . وهذا حديث صحيح .(١)

والمقصود : أن العائن حاسد خاص . وهو أضر من الحاسد ، ولهذا - والله أعلم - أنما جاء فى السورة ذكر الحاسدون العائن ، لأنه أعم فكل عائن حاسد ولابد . وليس كل حاسد عائناً ، فإذا استعاذ من شر الحاسد دخل فيه العائن ، وهذا شمول القرآن وإعجازه وبلاغته .

أصل الحسد

وأصل الحسد : هو بغض نعمة الله على المحسود وتمنى زوالها .

فالحاسد عدو النعم ، وهذا الشر هو من نفسه وطبعها ، ليس هو شيئا اكتسبه من غيرها ، بل هو من خبثها وشرها بخلاف السحر ، فإنه إنما يكون باكتساب أمور أخرى ، واستعانة بالأرواح الشيطانية فلهذا - والله أعلم - قرن فى السورة بين شر الحاسد وشر الساحر ، لأن الأستعاذة من شر هذين تعم كل شىء يأتى من شياطين الأنس والجن ، فالحسد من شياطين الإنس والجن والسحر من النوعين .

وبقى قسم يتفرد به شياطين الجن ، وهو الوسوسة فى القلب فذكره فى السورة الأخرى ، كما سيأتى الكلام عليها إن شاء الله ، فالحاسد والساحر يؤذيان المحسود والمسحور بلا عمل منه ، بل هو أذى من أمر خارج عنه ، ففرق بينهما فى الذكر فى سورة الفلق

والوسواس إنما يؤذى العبد من داخل بواسطة مساكنته له ، وقبوله منه ، ولهذا يعاقب العبد على

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه ج ٤ ص ٣٤٧ كتاب الطب . باب ماجاء أن العين حق والغسل لها . رقم ٢٠٦٢ أنظر مسلم فى كتاب السلام باب الطب والمرض والرقى والنسائى فى الكبرى - الطب باب اعين .

الشىء ، الذى يؤذيه به الشيطان من الوساوس ، التى تقترن بها الأفعال ، والعزم الجازم ، لأنه ذلك بسعيه وإرادته ، إذ لا يضاف إلى كسبه ولا إرادته ، فلهذا أفرد شر الشيطان فى سورة ، وقرن بين شر الساحر والحاسد فى سورة وكثيرا ما يجتمع فى القرآن الحسد والسحر للمناسبة ، ولهذا كان اليهود أسحر الناس وأحسدهم ، فإنهم لشدة خبثهم : فمنهم من السحر والحسد ما ليس فى غيرهم ، وقد وصفهم الله فى كتابه بهذا وهذا فقال تعالى ﴿ **واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ، ولكن الشياطين كفروا ، يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت . وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه . وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ، ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ، ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق ، ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون** ﴾[1]

والكلام على أسرار هذه الآية وأحكامها وما تضمنته من القواعد والرد على من أنكر السحر ، وما تضمنه من الفرقان بين السحر وبين المعجزات الذى أنكره من أنكر السحر خشية الالتباس ، وقد تضمنت الآية أعظم الفرقان بينهما - فى موضع غير هذا . إذ المقصود الكلام على أسرار هاتين السورتين وشدة حاجة الخلق اليهما ، وأنه لا يقوم غيرهما مقامهما .

وأما وصفهم بالحسد فكثير فى القرآن الكريم كقوله تعالى ﴿ **أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله** ﴾[2] وفى قوله ﴿ **ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق** ﴾[3]

والشيطان يقارن الساحر والحاسد ، ويحادثهما ويصاحبهما ، ولكن الحاسد تعينه الشياطين بلا استدعاء منه للشيطان ، لأن الحاسد شبيه بإبليس ، وهو فى الحقيقة من أتباعه ، لأنه يطلب ما يحبه الشيطان من فساد الناس ، وزوال نعم الله عنهم ، كما أن أبليس حسد آدم لشرفه وفضله ، وأبى أن يسجد له حسداً ، فالحاسد من جند إبليس ، وأما الساحر فهو يطلب من الشيطان أن يعينه ويستعينه .

وربما يعبده من دون الله ، حتى يقضى له حاجته ، وربما يسجد له ، وهذا كلما كان الساحر أكفر وأخبث وأشد معاداة لله ولرسوله ولعباده المؤمنين ، كان سحره أقوى وأنفذ وكان سحر عباد الأصنام أقوى من سحر أهل الكتاب ، وسحر اليهود أقوى من سحر المنتسبين إلى الإسلام ، وهم الذين سحروا رسول الله - ﷺ -

وفى الموطأ عن كعب قال « كلمات أحفظهن من التوراة ، لولاها لجعلتنى يهود حماراً : أعوذ بوجه الله

---

(١) البقرة آية : ١٠٢
(٢) النساء آية : ٥٥
(٣) البقرة آية : ١٠٩

العظيم ، الذى لا شىء أعظم منه ، وبكلمات الله التامات التى لا يجاوزهن بر ولا فاجر وبأسماء الله الحسنى ، ما علمت منها وما لم أعلم : من شر ما خلق وذرأ ، وبرأ .

والمقصود : أن الساحر والحاسد كل منهما قصده الشر ، لكن الحاسد بطبعه ونفسه وبغضه للمحسود ، والشيطان يقترن به ويعينه ، ويزين له حسده ، ويأمره بموجبه ، والساحر بعلمه ، وكسبه ، وشركه ، واستعانته بالشياطين .

وقوله تعالى : ﴿ **ومن شر حاسد إذا حاسد** ﴾ يعم الحاسد من الجن والإنس ، فإن الشيطان وحزبه ، يحسدون المؤمنين على ما آتاهم الله من فضله ، كما حسد إبليس أبانا آدم ، وهو عدو لذريته ، كما قال تعالى : ﴿ **إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا** ﴾[1] ولكن الوسواس أخص بشياطين الجن ، والحسد أخص بشياطين الإنس . والوسواس يعميهما ، كما سيأتى بيانهما - إن شاء الله - والحسد يعمهما أيضاً ، فكلا الشياطين حاسد موسوس ، فالاستعاذة من شر الحاسد تتناولهما جميعاً .

فقد أشتملت السورة على الاستعاذة من كل شر فى العالم .

وتضمنت شرورا أربعة يستعاذ منها : شراً عاماً ، وهو شر ما خلق . وشر الغاسق إذا وقب . فهذان نوعان ثم ذكر شر الساحر والحاسد ، وهما نوعان أيضاً لأنهما من شر النفس الشريرة ، وأحدهما يستعين بالشيطان ويعبده ، وهو الساحر وقلما يتأتى السحر بدون نوع عبادة للشيطان ، وتقرب إليه : أما بذبح باسمه ، أو بذبح يقصد به هو ، فيكون ذبحاً لغير الله ، وبغير ذلك من أنواع الشرك والفسوق .

والساحر وإن لم يسم هذا عبادة للشيطان ، فهو عبادة له ، وإن سماه بما سماه به . فإن الشرك والكفر هو شرك وكفر لحقيقته ومعناه ، لا لاسمه ولفظه ، ممن سجد لمخلوق وقال : ليس هذا بسجود له ، هذا خضوع وتقبيل الأرض بالجبهة كما أقبلها بالنعم ، أه هذا إكرام : لم يخرج بهذه الألفاظ عن كونه سجودا لغير الله ، فليسمه بما يشاء .

وكذلك من ذبح للشيطان ودعاه واستعاذ به ، وتقرب إليه بما يجب ، فقد عبده ، وإن لم يسم ذلك عباده ، بل يسميه استخداما وصدق . هو استخدام من الشيطان له ، فيصير من خدم الشيطان وعابديه ، وبذلك يخدمه الشيطان ، لكن خدمة الشيطان له ليست خدمة عبادة ، فإن الشيطان لا يخضع له ولا يعبده ، كما فعل هو به .

والمقصود أن هذا عبادة منه للشيطان ، وإنما سماه استخداما قال تعالى ﴿ **ألم أعهد إليكم يابنى آدم أن**

---

(١) فاطر آية ٦

لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين ﴾[١] وقال تعالى : **﴿ ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون قالوا سبحانك ، أنت ولينا من دونهم ، بل كانوا يعبدون الجن ، أكثرهم بهم مؤمنون ﴾**[٢]

فهؤلاء وأشباههم عباد الجن والشياطين ، وهم فى الدنيا والآخرة ، ولبئس المولى ، ولبئس العشير ، فهذا أحد النوعين

والنوع الثانى من يعينه الشيطان ، وإن لم يستعن هو به وهو الحاسد ، لأنه نائبه وخليفته ، لأن كليهما عدو نعم الله ، ومنغصها على عباده .

وتأمل تقييده سبحانه شر الحاسد بقوله : **﴿ إذا حسد ﴾** لأن الرجل قد يكون عنده حسد ، ولكن يخفيه ، ولا يرتب عليه أذى بوجه ما ، لا يقلبه ولا بلسانه ولا بيده ، بل يجد فى قلبه شيئا من ذلك ولا يعامل أخاه إلا بما يحب الله ، فهذا لا يكاد يخلو منه أحد إلا من عصمه الله .

وقيل للحسن البصرى ، أيحسد المؤمن ؟ قال : ما أنساك لإخوة يوسف لكن الفرق بين القوة التى فى قلبه من ذلك وهو لا يطيعها ولا يأتمر بها ، بل يعصيها طاعة لله وخوفا وحياء منه ، وإجلالا له إن يكره نعمة على عباده ، فيرى ذلك مخالفة لله وبغضاً لما يحب الله ، ومحبة لما يبغضه ، فهو يجاهد نفسه على دفع ذلك ، ويلزمها بالدعاء للمحسود ، وتمنى زيادة الخير له ، بخلاف ما إذا حقق ذلك وحسده ، وربت على جسده مقتضاه : من الأذى بالقلب ، واللسان والجوارح ، فهذا الحسد المذموم ، هذا كله حسد تمنى الزوال .

مراتب الحسد

وللحسد ثلاثة مراتب : إحداهما هذه

والثانية : تمنى استصحاب عدم النعمة ، فهو يكره أن يحسد الله لعبده نعمة ، بل يجب أن يبقى على حاله من جهله ، أو فقره أو ضعفه ، أو شتات قلبه عن الله ، أو قلة دينه ، فهو يتمنى دوام ما هو فيه من نقص وعيب ، فهذا حسد على شئ مقدر ، والأول حسد على شيء محقق ، وكلاهما حاسد ، عدو نعمة الله ، وعدو عباده ، وممقوت عند الله ، وعند الناس ، ولا يسود أبداً ولا يوالى ، فإن الناس لا يسودون عليهم إلا من يريد الإحسان إليهم ، فأما عدو نعمة الله عليهم ، فلا يسودنه باختيار أبداً إلا قهراً يعدونه من البلاء والمصائب التى ابتلاهم الله بها ، فهم يبغضونه وهو يبغضهم .

والحسد الثالث : حسد الغبطة ، وهو تمنى أن يكون له مثل حال المحسود من غير أن تزول النعمة عنه . فهذا لا بأس به ، ولا يعاب صاحبه ، بل هذا قريب من المنافسة . وقد قال تعالى **﴿ وفى ذلك**

---

(١) يس آية ٦٠

(٢) سبأ الآيتان : ٤٠ ، ٤١

فليتنافس المتنافسون ﴾[١] وفى الصحيح عن النبى - ﷺ - أنه قال : لا حسد إلا فى اثنتين : رجل آتاه الله مالا ، وسلطه على هلكته فى الحق . ورجل آتاه الله الحكمة ، فهو يقضى بها ويعلمها الناس »[٢] فهذا الحسد بمعنى الغبطة الحامل عليه حب خصال الخير ، والتشبه بأهلها ، والدخول فى جملتهم ، وأن يكون من سبَّاقهم وعليتهم ومصليهم لا من فساقهم بتحدث له من هذه الهمة المنافسة والمسابقة والمسارعة ، مع محبته لمن يغبطه ، وتمنى دوام نعمة الله عليه ، فهذا لا يدخل فى الآية بوجه ما .

فهذه السورة من أكبر أدوية الحسد ، فإنها تتضمن من التوكل على الله ، والالتجاء إليه ، والاستعاذة به من شر حاسد النعمة ، فهو مستعيذ بولى النعم ومولِيها . كأنه يقول : يامن أولانى نعمته وأسداها إلىَّ ، أنا عائذ بك من شر من يريد أن يستلها منى ، ويزيلها عنى ، وهو سبحانه حسب من توكل عليه ، وكافى من لجأ إليه ، وهو الذى يؤمن خوف الخائف ويجير المستجير ، وهو نعم المولى ونعم النصير ، فمن تولاه واستنصر به ، وتوكل عليه ، وانقطع بكليته إليه ، تولاه وحفظه وحرسه وصانه ، ومن خافه واتقاه أمَّنه مما يخاف ويحذر ، وجلب إليه كل ما يحتاج إليه من المنافع ﴿ **ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه** ﴾[٣] فلا تستبطىء نصره ورزقه وعافيته ، فإن الله بالغ أمره وقد جعل الله لكل شىء قدراً ، لا يتقدم عنه ولا يتأخر . ومن لم يخفه اخافه من كل شىء ، قال تعالى ﴿ **فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ، إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ، إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون** ﴾[٤] . وقال : ﴿ **إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياؤه . فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين** ﴾[٥] أى يخوفكم بأوليائه ، ويعظمهم فى صدوركم . فلا تخافوهم ، وأفردونى بالمخافة أكفكم أياهم .

فصل
فى الأسباب التى يندفع بها شر الحاسد والعائن والباغى

ويندفع شر الحاسد عن المحسود بعشرة أسباب !

أحدها : التعوذ بالله من شره ، والتحصن به واللجوء إليه وهو المقصود بهذه السورة ، والله تعالى سميع لاستعاذته ، عليم بما يستعيذ منه ، والسمع هنا المراد به . سمع الإجابة ، لا السمع العام . فهو

---

(١) المطففين آية ٢٦

(٢) أخرجه الترمذى فى سننه ج ٤ ص ٢٩١ كتاب البر والصلة باب ما جاء فى الحسد رقم ١٩٣٦ البخارى كتاب التوحيد فى قول النبى ﷺ رجل أتاه الله قرآنا فهو يقوم به أناء الليل وآناء النهار . مسلم فى كتاب صلاة المسافرين وقصرها باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه .

(٣) الطلاق آية ٢ ، ٣

(٤) النحل الآيات : ٩٨ـ ١٠٠

(٥) آل عمران الآية : ١٧٥

مثل قوله « سمع الله لمن حمده » وقول الخليل : ﷺ - (إن ربى لسميع الدعاء)[١] ومرة يقرنه بالعلم ، ومرة بالبصر ، لاقتضاء حال المستعيذ ذلك ، فإنه يستعيذ به من عدو يعلم أن الله يراه ، ويعلم كيده وشره ، فأخبر الله تعالى هذا المستعيذ أنه سميع لاستعاذته ، أى مجيب ، عليكم بكيد عدوه ، يراه ويبصره ، لينبسط أمل المستعيذ ، ويقبل بقلبه على الدعاء .

وتأمل حكمة القرآن كيف جاء فى الاستعاذة من الشيطان الذى نعلم وجوده ولا نراه بلفظ (السميع العليم) فى ﴿ حم السجدة ﴾ وبلفظ ﴿ إنه سميع عليم ﴾ فى الأعراف وجاءت الإستعاذة من شر الإنس الذين يؤنسون ويرون بالأبصار بلفظ ﴿ السميع البصير ﴾ فى سورة حم المؤمن فقال تعالى : ﴿ **إن الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم إن فى صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير** ﴾[٢] لأن أفعال هؤلاء معاينة ترى بالبصر وأما نزع الشيطان فوساوس وخطرات يلقيها فى القلب ، يتعلق بها العلم ، فأمر بالاستعاذة بالسميع العليم فيها ، وأمر بالاستعاذة بالسميع البصير فى باب ما يرى بالبصر ويدرك بالرؤية والله أعلم .

السبب الثانى : تقوى الله ، وحفظه عند أمره ونهيه ، فمن اتقى الله تولى الله حفظه ، ولم يكله إلى غيره .. قال تعالى : ﴿ **وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً** ﴾[٣]

وقال النبى ﷺ لعبد الله بن عباس « احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك[٤] » فمن حفظ الله حفظه الله ، ووجده أمامه أينما توجه ومن كان الله حافظه وأمامه فمن يخاف ؟ ومن يحذر ؟

السبب الثالث : الصبر على عدوه ، وأن لا يقاتله ولا يشكوه ، ولا يحدث نفسه بأذاه أصلاً ، فما نصر على حاسده وعدوه بمثل الصبر عليه ، والتوكل على الله ، ولا يستطل تأخيره وبغيه ، فإنه كلما بغى عليه كان بغيه جنداً وقوة للمبغى عليه المحسود ، يقاتل به الباغى نفسه ، وهو لا يشعر ، فبغيه سهام يرميها من نفسه إلى نفسه ، ولو رأى المبغى عليه ذلك لسره بغيه عليه ، ولكن لضعف بصيرته لا يرى إلا صورة البغى ، دون آخره ومآله ، وقد قال تعالى ؛ ﴿ **ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغى عليه لينصرنه الله** ﴾[٥]فإذا كان الله سبحانه قد ضمن له النصر مع أنه قد أستوفى حقه أولاً ، فكيف بمن لم يستوف شيئاً من حقه ، بل بغى عليه وهو صابر ؟ وما من الذنوب ذنب أسرع عقوبة من البغى وقطيعة الرحم ، وقد سبقت سنة الله : أنه لو بغى جبل على جبل لجعل الباغى منهما دكاً .

السبب الرابع : التوكل على الله ، فمن يتوكل على الله فهو حسبه ، والتوكل من أقوى الأسباب التى يدفع بها العبد مالا يطيق من أذى الخلق وظلمهم وعدوانهم ، وهو من أقوى الأسباب فى ذلك ، فإن الله

---

(١) ابراهيم آية ٣٩
(٢) غافر آية ٥٦
(٣) آل عمران : ١٢٠
(٤) أخرجه الترمذى فى سننه جـ ٤ ص ٥٧٥ ، ٥٧٦ كتاب صفة القيامة والرقائق والورع . باب ما جاء فى وصفه الحوض رقم ٢٥١٦
(٥) الحج آية : ٦٠

حسبه ، أى كافيه ، ومن كان الله كافيه وواقيه ، فلا مطمع فيه لعدوه ، ولا يضره إلا أذى لابد منه ، كالحر والبرد ، والجوع والعطش ، وأما أن يضيره بما يبلغ منه مراده ، فلا يكون أبداً .

وفرق بين الأذى الذى هو فى الظاهر إيذاء له ، وهو فى الحقيقة إحسان إليه وإضرار بنفسه ، وبين الضرر الذى يتشفى به منه ، قال بعض السلف : جعل الله لكل عمل جزاء من جنسه ، وجعل جزاء التوكل عليه نفس كفايته لعبده ، فقال ﴿ **ومن يتوكل على الله فهو حسبه** ﴾[1] ولم يقل نؤته كذا وكذا من الأجر ، كما قال فى الأعمال بل جعل نفسه سبحانه كافى عبده المتوكل عليه وحسبه ، وواقيه ، فلو توكل العبد على الله حق توكله وكادته السموات والأرض ومن فيهن لجعل له ربه مخرجاً من ذلك ، وكفاه ونصره .

السبب الخامس : فراغ القلب من الاشتغال به والفكر فيه وأن يقصد أن يمحوه من باله كلما خطر له ، فلا يلتفت إليه ، ولا يخافه ، ولا يملأ قلبه بالفكر فيه ، وهذا من أنفع الأدوية ، وأقوى الأسباب المعينة على اندفاع شره فإن هذا بمنزلة من يطالبه عدوه ليمسكه ويؤذيه ، فإذا لك ينعرض له ولا تماسك هو واياه ، بل انعزل عنه لم يقدر عليه فإذا تماسكا وتعلق كل منهما بصاحبه ، حصل الشر وهكذا الأرواح متعلقة به يقظة ومناما ، لا يفتر عنه ، وهو يتمنى أن يتماسك الروحان ويتشبثا ، فإذا تعلقت كل روح منهما بالأخرى عدم القرار ، ودوام الشر ، حتى يهلك أحدهما . فإذا جبذ روحه منه ، وصانها عن الفكر فيه والتعلق به وأن لا يخطره بباله فإذا خطر بباله بادر إلى محو ذلك الخاطر ، والاشتغال بما هو أنفع له وأولى به بقى الحاسد الباغى يأكل بعضه بعضا ، فإن الحسد كالنار ، فإذا لم تجد ما تأكله أكل بعضها بعضاً .

وهذا باب عظيم النفع لا يلقاه إلا أصحاب النفوس الشريفه والهمم العالية وبين الكيس الفطن وبينه حتى يذوق حلاوته وطيبه ونعيمه كأنه يرى من أعظم عذاب القلب والروح أشتغاله بعدوه وتعلق روحه به ، ولا يرى شيئاً آلم لروحه من ذلك ، ولا يصدق بهذا إلا النفوس المطمئنة الوادعة اللينة ، التى رضيت بوكالة الله لها ، وعلمت أن نصره لها خير من انتصارها هى لنفسها فوثقت بالله ، وسكنت إليه ، واطمأنت به ، وعلمت أن ضمانه حق ، ووعده صدق ، وأنه لا أوفى بعهده من الله ، ولا أصدق منه قيلا ، فعلمت أن نصره أقوى وأثبت وأدوم ، وأعظم فائدة من نصرها هى لنفسها ، أو نصر مخلوق مثلها لها ولا يقوى على هذا إلا بالسبب السادس .

السبب السادس

وهو الاقبال على الله تعالى ، والإخلاص له ، وجعل محبته ورضاه والإنابة إليه فى كل خواطر نفسه ، وأمانيها تدب فيها دبيب تلك الخواطر شيئا فشيئاً ، حتى يقهرها ويغمرها ويذهبها بالكلية ، فتبقى خواطره وهواجسه وأمانيه كلها فى محاب الرب ، والتقرب إليه وتملقه وترضيه ، واستعطافه وذكره ، كما يذكر المحب

---

(١) الطلاق اية ٩

التام المحبة محبوبه المحسن إليه ، الذى قد امتلأت جوانحه من حبه ، فلا يستطيع قلبه انصرافا عن ذكره ، ولا روحه انصرافا عن محبته ، فإذا صار كذلك ، فكيف يرضى لنفسه أن يجعل بيت أفكاره وقلبه معمورا بالفكر فى حاسده والباغى عليه ، والطريق إلى الانتقام منه ، والتدبير عليه ؟ وهذا ما لا يتسع له إلا قلب خراب لم تسكن فيه محبة الله وإجلاله ، وطلب مرضاته ، بل إذا مسّه طيف من ذلك واجتاز ببابه من خارج ، ناداه حرس قلبه : إياك وحمى الملك ، اذهب إلى بيوت الخانات التى كل من جاء حل فيها وترك بها ما لك وليت السلطان الذى أقام عليه اليزك وأدار عليه الحرس ، وأحاطه بالسور ، قال تعالى عن عدوه ابليس أنه قال : ﴿ **فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين** ﴾[1] وقال ﴿ **إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ، إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون** ﴾[2] وقال فى حق الصديق يوسف - ﷺ - ﴿ **كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين** ﴾[3]

فما أعظم سعادة من دخل هذا الحصن ، وصار داخل اليزك ، لقد آوى إلى حصن لا خوف على من تحصن به ، ولا ضيعة على من آوى إليه ، ولا مطمع للعدو فى الدنو إليه منه **وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم** .

السبب السابع :

تجريد التوبة إلى الله تعالى من الذنوب التى سلطت عليه أعداءه ، فإن الله تعالى يقول ﴿ **وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم**)[4] وقال لخير الخلق ، وهم أصحاب نبيه - ﷺ - ﴿ **أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم** ﴾[5]

فما سلط على العبد من يؤذيه ، إلا بذنب يعلمه أو لا يعلمه ، وما لا يعلمه العبد من ذنوبه أضعاف ما يعلمه منها ، وما ينساه مما عمله أضعاف ما يذكره .

وفى الدعاء المشهور « اللهم إنى أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم وأستغفرك لما أعلم »
فما يحتاج العبد إلى الاستغفار منه مما لا يعلمه ، أضعاف ما يعلمه ، فما سلط عليه مؤذ إلا بذنب .
ولقى بعض السلف رجل فأغلظ له ونال منه ، فقال له قف حتى أدخل البيت ، ثم أخرج إليك ، فدخل فسجد لله وتضرع إليه وتاب ، وأناب إلى ربه . ثم خرج إليه فقال له ما صنعت فقال : تبت إلى الله من الذنب الذى سلطك به علىّ ، وسنذكر إن شاء الله تعالى أنه ليس فى الوجود شر إلا الذنوب وموجباتها ، فإذا عوفى وأوذى وتسلط عليه خصومه شىء انفع له من التوبة النصوح .

---

(١) (ص) الآيتان : ٨٢ - ٨٣

(٢) النحل الآيتان : ٩٩ - ١٠٠
(٣) يوسف آية : ٢٤
(٤) الشورى آية ٣٠
(٥) آل عمران : ١٦٥

وعلامة سعادته ، أن يعكس فكره ونظره على نفسه وذنوبه وعيوبه ، فيشتغل بها ، وبإصلاحها وبالتوبة منها . فلا يبقى فيه فراغ لتدبر ما نزل به ، بل يتولى هو التوبة وإصلاح عيوبه ، والله يتولى نصرته وحفظه ، والدفع عنه ولابد ، فما أسعده من عبد ، وما أبركها من نازلة نزلت به وما أحسن أثرها عليه ، ولكن التوفيق الرشد بيد الله ،لا مانع لما أعطى ، ولا معطى لما منع ، فما كل أحد يوفق لهذا . لا معرفة به ولا إرادة له ، ولا قدرة عليه ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

السبب الثامن : الصدقة والإحسان ما أمكنه ، فإن لذلك تأثيرا عجيباً فى دفع البلاء ، ودفع العين وشر الحاسد ، ولو لم يكن فى هذا الا بتجارب الأمم قديما وحديثا لكفى به ، فما تكاد العين والحسد والأذى يتسلط على محسن يتصدق ، وإن أصابه شىء من ذلك ، كان معاملا فيه باللطف والمعونة والتأييد ، وكانت له فيه العاقبة الحميدة ، والمحسن المتصدق فى خفارة أحسانه وصدقته ، عليه من الله جنة واقية ، وحصن حصين .

وبالجملة فالشكر حارس النعمة من كل ما يكون سبباً لزوالها ، ومن أقوى الأسباب : حسد الحاسد والعائن ، فإنه لا يفتر ولا ينى ولا يبرد قلبه حتى تزول النعمة عن المحسود ، فحينئذ يبرد أذينه وتنطفىء ناره لا أطفأها الله ، فما خرس العبد نعمة الله عليه بمثل شكرها ، ولا عرضها للزوال بمثل العمل فيها بمعاصى الله ، وهو كفران النعمة ، وهو باب إلى كفران النعم فالمحسن المتصدق ، يستخدم جنداً وعسكراً ، يقاتلون عنه ، وهو نائم على فراشه ، فمن لم يكن له جند ولا عسكر ، وله عدو فإنه يوشك أن يظفر به عدوه ، وإن تأخرت مدة الظفر ، والله المستعان .

السبب التاسع : وهو من أصعب الأسباب على النفس ، وأشقها عليه ، ولا يوفق له إلا من عظم حظه من الله ـ وهو إطفاء نار الحاسد والباغى والمؤذى بالاحسان إليه ، فكلما ازداد اذى وشراً وبغياً وحسداً ، ازددت اليه إحسانا وله تصيحة ، وعليه شفقة ، وما أظنك تصدق بأن هذا يكون ، فضلا عن أن تتعظاه ، فاسمع الآن قوله عز وجل : ﴿ **ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم وما يلقاها إلا الذين صبروا ، وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم ، وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله ، إنه هو السميع العليم** ﴾[١] وقال تعالى ﴿ **أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرؤون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون** ﴾[٢]

وتأمل حال النبى ـ ﷺ ـ إذ ضربه قومه حتى أدموه ، فجعل يسلت الدم عنه ، ويقول : « اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون » كيف جمع فى هذه الكلمات أربع مقامات من الاحسان ، قابل بها اساءتهم العظيمة إليه .

أحدها : عفوه عنهم ، والثانى استغفاره لهم ، والثالث : اعتذاره عنهم بأنهم لا يعلمون ، والرابع :

---

(١) فصلت الآيات : ٣٤ ـ ٣٦
(٢) القصص آية : ٥٤

استعطافه لهم بإضافتهم إليه فقال « اغفر لقومى » كما يقول الرجل لمن يشفع عنده فيمن يتصل به هذا ولدى : هذا غلامى ، هذا صاحبى . فهبه لى .

واسمع الآن ما الذى يسهل هذا على النفس ويطيبه اليها وينعمها به اعلم أن لك ذنوباً بينك وبين الله ، تخاف عواقبها ، وترجوه أن يعفو عنها ويغفر لك ويهبها لك . ومع هذا لا يقتصر على مجرد العفو والمسامحة ، حتى ينعم عليك ويكرمك ، ويجلب اليك من المنافع والإحسان فوق ما تؤمله ، فإذا كنت ترجو هذا من ربك ، وتحب أن يقابل به إساءتك ، فما أولاك وأجدرك أن تعامل به خلقه ، وتقابل به أساءتهم ؟ ليعاملك الله تلك المعاملة ، فإن الجزاء من جنس العمل ، فكما تعمل مع الناس فى اساءتهم فى حقك يفعل الله معك فى ذنوبك وإساءتك ، جزاء وفاقاً ، فانتقم بعد ذلك أو اعف وأحسن أو اترك ، فكما تدين تدان ، وكما تفعل مع عباده يفعل معك .

فمن تصور هذا المعنى ، وشغل به فكره . هان عليه الإحسان إلى من أساء إليه .

وهذا مع ما يحصل له بذلك من نصر الله ومعيته الخاصة ، كما قال النبى - ﷺ - للذى شكى إليه قرابته ، وأنه يحسن اليهم وهم يسيئون إليه . فقال « لايزال معك من الله ظهير ، ما دمت على ذلك »[(١)]

هذا مع ما يتعجله من ثناء الناس عليه ، ويعبرون كلهم معه على خصمه ، فإن كل من سمع أنه محسن إلى ذلك الغير ، وهو مسىء إليه ، وجد قلبه ودعاءه وهمته مع المحسن على المسىء ، وذلك أمر فطرى ، فطر الله عليه عباده ، فهو بهذا الإحسان ، قد استخدم عسكرا لا يعرفهم ولا يعرفونه ، ولا يريدون منه إقطاعا ولا خبزا .

هذا مع أنه لابد له من عدوه وحاسده من أحدى حالتين إما أن يملكه بإحسانه فينقاد له ، ويذل له ، ويبقى الناس إليه ، وإما أن يفتت كبده ، ويقطع دابره ، إن أقام على إساءته اليه ، فإنه يزيفه بإحسانه أضعاف ما ينال منه بانتقامه ، ومن جرب هذا عرفه حق المعرفة ، والله هو الموفق والمعين .

بيده الخير كله ، لا إله غيره ، وهو المسئول أن يستعملنا وإخواننا فى ذلك بمنه وكرمه .

وفى الجملة : ففى هذا المقام من الفوائد مايزيد على مائة منفعة للعبد عاجله وآجله سنذكرها فى موضع آخر إن شاء الله تعالى .

السبب العاشر : وهو الجامع لذلك كله ، وعليه مرار هذه الاسباب ، وهو تجريد التوحيد ، والترحل بالفكر فى الأسباب إلى المسبب العزيز الحكيم ، والعلم بأن هذه الآلات بمنزلة حركات الرياح ، وهى بيد محركها ، وفاطرها وبارئها ، ولا تضر ولا تنفع إلا بإذنه ، فهو الذى يحسن عبده بها وهو الذى يصرفها عنه وحده لا أحد سواه . قال تعالى ﴿ **وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يردك**

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه جـ ٤ ص ١٩٨٢ كتاب ... والصلة والاداب باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها رقم ٢٢/٢٥٥٨

بخير فلا راد لفضله ﴾[1] وقال النبي - ﷺ - لعبد الله بن عباس رضى الله عنهما « واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك »[2]

فإذا جرد العبد التوحيد ، فقد خرج من قلبه خوف ما سواه ، وكان عدوه أهون عليه من أن يخافه مع الله ، بل يفرد الله بالمخافة وقد أمنه منه ، وخرج من قلبه اهتمامه به ، واشتغاله به وفكره فيه ، وتجرد لله محبة وخشية وإنابة وتوكلا واشتغالا به عن غيره ، فيرى أن إعماله فكرة فى أمر عدوه وخوفه منه واشتغاله به من نقض توحيده ، وإلا فلو جرد توحيده لكان له فيه شغل شاغل ، والله يتولى حفظه ، والدفاع عنه ، فإن الله يدافع عن الذين آمنوا ، فإن كان مؤمناً فالله يدافع عنه ولابد ، وإن مزج ، مزج له ، وإن كان مرة ومرة فالله له مرة ومرة ، كما قال بعض السلف : من أقبل على الله بكليته ، أقبل الله عليه جملة ، ومن أعرض عن الله بكليته ، أعرض الله عنه جملة ، ومن كان مرة ومرة ، فالله له مرة ومرة .

فالتوحيد حصن الله الأعظم ، الذى من دخله كان من الآمنين قال بعض السلف : من خاف الله خافه كل شىء ، ومن لم يخف الله أخافه من كل شىء .

هذه عشرة أسباب فيدفع بها شر الحاسد والعائن والساحر ، وليس له أنفع من التوجه إلى الله وإقباله عليه ، وتوكله عليه ، وثقته به ، وأن لا يخاف معه غيره بل يكون خوفه منه وحده ، ولا يرجو سواه ، بل يرجوه وحده ، فلا يعلق قلبه بغيره ، ولا يستغيث بسواه ، ولا يرجو إلا إياه . ومعنى علق قلبه بغيره ورجاه وخافه ، وكل إليه وخذل من جهته ، فمن خاف شيئا غير الله سلط عليه ، ومن رجا شيئا سوى الله ، خذل من جهته ، وحرم خيره ، هذه سنة الله فى خلقه ، ولن تجد لسنة الله تبديلا .

فصـــل

فقد عرفت بعض ما اشتملت علية هذه السورة الكريمة من القواعد النافعة المهمة ، التى لا غنى للعبد عنها فى دينه ودنياه ، ودلت على أن نفوس الحاسدين وأعينهم لها تأثير ، وعلى أن الأرواح الشيطانية لها تأثير بواسطة السحر والنفث فى العقد .

وقد افترق العالم فى هذا المقام أربع فرق .

ففرقة : أنكرت تأثير هذا وهذا وهم فرقتان :

فرقة اعترفت بوجود النفوس الناطقة والجن ، وأنكرت تأثيرهما البته وهذا قول طائفة من المتكلمين ممن أنكر الأسباب والقوى والتأثيرات .

وفرقة : أنكرت وجودهما بالكلية ، وقالت : لا وجود لنفس الآدمى سوى هذا الهيكل المحسوس ،

---

(١) يونس آية ١٠٧

(٢) رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح

وصفاته وأعراضه فقط ، ولا وجود للجن والشياطين سوى أعراض قائمة به ، وهذا قول كثير من ملاحدة الطبائعين وغيرهم من الملاحدة المنتسبين إلى الاسلام ، وهو قول شذاذ من أهل الكلام الذين ذمهم السلف ، وشهدوا عليهم بالبدعة والضلالة .

الفرقة الثانية : أنكرت وجود النفس الانسانية المفارقة للبدن ، وأقرت بوجود الجن والشياطين وهذا قول كثير من المتكلمين من المعتزلة وغيرهم .

الفرقة الثالثة : بالعكس ، أقرت وجود النفس الناطقة المفارقة للبدن ، وأنكرت وجود الجن والشياطين ، وزعمت أنها غير خارجة عن قوى النفس وصفاتها ، وهذا قول كثير من الفلاسفة الاسلاميين وغيرهم .

وهؤلاء يقولون إن ما يوجد فى العالم من التأثيرات الغريبة والحوادث الخارقة ، فهو من تأثيرات النفس ، ويجعلون السحر والكهانة كله من تأثير النفس وحدها ، بغير واسطة شيطان منفصل ، وابن سينا وأتباعه على هذا القول ، حتى أنهم يجعلون معجزات الرسل من هذا الباب .

ويقولون : إنما هى تأثيرات النفس فى هيولى العالم .

وهؤلاء كفار بإجماع أهل الملة ، ليسوا من أتباع الرسل جملة

الفرقة الرابعة : وهم أتباع الرسل ، وأهل الحق : أقروا بوجود النفس الناطقة المفارقة للبدن ، واقروا بوجود الجن والشياطين ، وأثبتوا ما أثبته الله تعالى من صفاتها وشرهما ، واستعاذة بالله منه ، وعلموا أنه لا يعيذهم منه ، ولا يجبرهم ، فهؤلاء أهل الحق ومن عداهم مفرط فى الباطل ، أو معه باطل وحق ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

قال ابن القيم : فهذا ما يسر الله من الكلام على سورة الفلق

ثم قال :

قول الله تعالى ذكره :

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قل أعوذ برب الناس ملك الناس إله الناس من شر الوسواس الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس من الجنة والناس ﴾ .

قد تضمنت أيضا استعاذة ، ومستعاذاً به ، ومستعاذاً منه فالاستعاذة تقدمت .

وأما المستعاذ به : فهو الله ﴿ رب الناس ، ملك الناس ، إله الناس ﴾ فذكر ربوبيته للناس ، وملكه اياهم ، والهيته لهم ، ولابد من مناسبة فى ذكر ذلك فى الاستعاذة من الشيطان كما تقدم فذكر أولاً معنى هذه الاضافات الثلاث ، ثم وجه مناسبتها لهذه الاستعاذة فنقول . . وبالله التوفيق .

الاضافة الأولى : إضافة الربوبية المتضمنة لحقهم وتدبيرهم ، وتربيتهم وإصلاحهم ، وجلب

مصالحهم ، وما يحتاجون إليه ، ودفع الشر عنهم ، وحفظهم مما يفسرهم هذا معنى ربوبيته لهم ، وذلك فيتضمن قدرته التامة . ورحمته الواسعة ، وإحسانه وعلمه بتفاصيل أحواله ، وإجابة دعواتهم ، وكشف كرباتهم .

الاضافة الثانية : إضافة الملك : فهو ملكهم المتصرف فيهم ، وهم عبيده ومماليكه ، وهو المتصرف لهم المدبر كما يشاء النافذ القدرة فيهم ، الذى له السلطان التام عليهم فهو ملكهم الحق ، الذى إليه مفزعهم عند الشدائد والنوائب ، وهو مستغاثهم ومعاذهم وملجأهم ، فلا صلاح لهم ولا قيام إلا به وبتدبيره ، فليس لهم ملك غيره ويهربون إليه إذا دهمهم العدو ، ويستصرخون به إذا نزل العدو بساحتهم .

الاضافة الثالثة : إضافة الالهية ، فهو إلههم الحق ، ومعبودهم الذى لا إله لهم سواه ، ولا معبود لهم غيره ، فكما أنه وحده هو ربهم ومليكهم لم يشركه فى ربوبيته ولا فى ملكه أحد ، فكذلك هو وحده إلههم ومعبودهم ، فلا ينبغى أن يجعلوا معه شريكاً فى الهيته ، كما لا شريك معه فى ربوبيته وملكه .

وهو طريقه القرآن يحتج عليهم ما فرارهم بهذا التوحيد على ما أنكروه من توحيد الالهية والعبادة .

وإذا كان وحده هو ربنا وملكنا وإلهنا ، فلا مفزع لنا فى الشدائد سواه ، ولا ملجأ لنا منه إلا إليه ، ولا معبود لنا غيره ، فلا ينبغى أن يدعى ولا يخاف ولا يرجى ، ولا يجب سواه ، ولا يذل غيره ، ولا يخضع لسواه ، ولا يتوكل إلا عليه ، لأن من ترجوه وتخافه وتدعوه وتتوكل عليه : إما أن يكون مربيك والقيم بأمورك ومتولى شأنك وهو ربك ، فلا رب سواه ، أو تكون مملوكه وعبده الحق ، فهو ملك الناس حقاً ، وكلهم عبيده ومماليكه ، أو يكون معبودك وإلهك الذى لا تستغنى عنه طرفة عين ، بل حاجتك إليه أعظم من حاجتك إلى حياتك وروحك ، وهو الإله الحق إله الناس الذى لا إله لهم سواه .

فمن كان ربهم وملكهم وإلههم ، فهم جديرون أن لا يستعيذوا بغيره ، ولا يستنصروا بسواه ، ولا يلجأوا إلى غير حماه ، فهو كافيهم وحسبهم وناصرهم ووليهم ، ومتولى أمورهم جميعا بربوبيته وملكه وإلهيته لهم ، فكيف لا يلتجىء العبد عند النوازل ونزول عدوه به إلى ربه ومالكه وإلهه ؟

فظهرت مناسبة هذه الإضافات الثلاث للاستعاذة : من أعدى الاعداء وأعظمهم عداوة ، وأشدهم ضرراً ، وابلغهم كيداً .

ثم إنه سبحانه كرر الاسم الظاهر ، ولم يوقع المضمر موقعه فيقول : رب الناس وملكهم وإلههم ، تحقيقا لهذا المعنى وتقوية له ، فأعاد ذكرهم عند كل اسم من أسمائه ، ولم يعطف بالواو لما فيها من الإيذان بالمعايرة .

والمقصود : الاستعاذة بمجموع هذه الصفات حتى كأنها صفة واحدة ، وقدم الربوبية لعمومها وشمولها لكل مربوب ، وآخر الإلهية لخصوصها ، لأنه سبحانه إنما هو إله من عبده ووحده واتخذ دون غيره إلهاً ، فمن لم يعبده ويوحده فليس بإلهه ، وإن كان فى الحقيقة لا إله له سواه ، ولكن المشرك ترك إلهه الحق ، واتخذ إلـهاً غيره باطلاً .

ووسط صفة الملك من الربوبية والإلهية ، لأن الملك هو المتصرف بقوله وأمره ، فهو المطاع إذا أمر ، وملكه له تابع لخلقه إياهم ، فملكه من كمال ربوبيته ، وكونه إلههم وملكه يستلزم إلهيته ويغصبها ، فهو الرب الحق ، الملك الحق ، الإله الحق ، وخلقهم بربوبيته ، وقهرهم بملكه ، واستعبدهم بإلهيته .

فتأمل هذه الجلالة ، وهذه العظمة ، التي تضمنتها الألفاظ الثلاثة على أبدع نظام ، وأحسن سياق ﴿رب الناس ملك الناس ، إله الناس﴾ .

وقد اشتملت هذه الاضافات الثلاث على جميع قواعد الإيمان ، وتضمنت معانى أسمائه الحسنى .

أما تضمنها لمعانى أسمائه الحسنى . فإن الرب هو القادر الخالق ، البارىء والمصور ، الحى ، القيوم ، العليم السميع البصير ، المحسن المنعم الجواد المعطى المانع ، الضار ، النافع ، المقدم ، المؤخر ، الذى يضل من يشاء ويعز من يشاء ، ويسعد من يشاء ، ويشقى من يشاء ، ويعز من يشاء ، ويذل من يشاء ، إلى غير ذلك من معانى ربوبيته التي له منها ما يستحقه من الأسماء الحسنى يصرف أمور عباده كما يحب ، ويقلبهم كما يشاء وله من معنى الملك ما يستحقه من الأسماء الحسنى ، كالعزيز ، الجبار ، المتكبر ، الحكم العدل ، الخافض الرافع ، المعز المذل ، العظيم الجليل الكبير ، الحسيب المجيد ، الوالى المتعالي ، مالك الملك المقسط الجامع وإلى غير ذلك من الأسماء العائدة إلى الملك .

وأما الإله : فهو الجامع لجميع صفات الكمال ونعوت الجلال فيدخل فى هذا الاسم جميع الأسماء الحسنى . ولهذا كان القول الصحيح . أن « الله » أصله الإله . كما هو قول سيبويه وجمهور العلماء ، إلا من شذ منهم ، وإن اسم الله تعالى هو الجامع لجميع معانى الأسماء الحسنى والصفات العلى ، فقد تضمنت هذه الأسماء الثلاثة جميع معانى أسمائه الحسنى ، فكان المستعيذ بها جديراً بأن يعاذ ويحفظ ، ويمنع من الوسواس الخناس ولا يسلط عليه .

وأسرار كلام الله أجل وأعظم من أن يدركها عقول البشر ، وإنما غاية أولى العلم الاستدلال بما ظهر منها على ما وراءه ، وأن نسبة باديه إلى الخافى يسير .

فصل (فى الاستعاذة)

وهذه السورة الكريمة مشتملة على الاستعاذة من الشر الذى هو سبب الذنوب والمعاصى كلها ، وهو الشر الداخل فى الإنسان الذى هو منشأ العقوبات فى الدنيا والآخرة .

فسورة الفلق : تضمنت الاستعاذة من الشر الذى هو ظلم الغير له بالسحر والحسد . وهو شر خارج عنه .

وسورة الناس : تضمنت الاستعاذة من الشر الذى هو سبب ظلم العبد نفسه وهو شر من داخل .

فالشر الأول : لا يدخل تحت التكليف ، ولا يطلب منه الكف عنه لأنه ليس من كسبه .

والشر الثانى فى سورة الناس : يدخل تحت التكليف ، ويتعلق بالنهى ، فهذا شر المعائب ، والأول شر المصائب ، والشر كله يرجع إلى العيوب والمصائب ولا ثالث لهما .

فسورة الفلق تتضمن الاستعاذة من شر المصيبات ، وسورة الناس تتضمن الاستعاذة من شر العيوب التى أصلها الوسوسة

فصل المستعاذ منه

إذا عرف هذا ، فالوسواس : فعلال : من وسوس وأصل الوسوسة ، الحركة أو الصوت الخفى ، إما بصوت خفى لا يسمعه إلا من القي إليه ، وإما بغير صوت كما يوسوس الشيطان إلى العبد . ومن هذا : وسوسة المحل ، وهو حركته الخفية فى الأذن والظاهر - والله أعلم - أنها سميت وسوسة لقربها ، وشدة مجاورتها لمحل الوسوسة شياطين الإنس . وهو الأذن الكلام الذى يلقيه الشيطان فى أذن من يوسوسه له .

ولما كانت الوسوسة كلاماً يكرره الموسوس ، ويؤكد عند من يلقيه إليه كرروا لفظها بإزاء تكرير معناها ليفهم منه تكرير مسماه .

ونظير هذا : ما تقدم من متابعتهم حركة اللفظ بإزاء متابعة حركة معناه ، كالدوران ، والغليان ، وبابه .

ونظير ذلك : زلزل ، ودكوك ، وكبكب ، لأن الزلزلة حركة متكررة ، وكذلك الدكدكة ، والقلقلة . وكذلك كبكب الشىء : إذا كبه فى مكان بعيد ، فهو يكب فيه كباً بعد كب كقوله تعالى ﴿ فكبكبوا فيها هم والغاوون ﴾[1]

وقد علم بهذا أن من جعل هذا الرباعى بمعنى الثلاثى المضاعف لم يصب ، لأن الثلاثى لا يدل على تكرار ، بخلاف الرباعى المكرر ، فإذا قلت ذر الشىء ، وصر الباب ، وكف الثوب ، ورضى الحب ، لم يدل على تكرار الفعل ، بخلاف ذرذر ، وصرصر ، ورضرض ونحوه .

فتأمل : فإنه مطابق للقاعدة العربية فى الحذو بالألفاظ حذو المعانى والمقصود أن الموسوس لما كان يكرر وسوسته ويتابعها ، قبل وسوس .

فصل
فى « الخناس »

وأما الخناس : فهو فعّال ، من خنس يخنس : إذا توارى واختفى ، ومن قول أبى هريرة « لقينى النبى صلى الله عليه وسلم فى بعض طرق المدينة وأنا جنب فانخنست منه »[2] .

وحقيقة اللفظ اختفاء بعد ظهور ، فليست لمجرد الاختفاء ، ولهذا وصفت بها النجوم فى قوله تعالى : ﴿ فلا أقسم بالخنس ﴾[3] قال قتادة : هى النجوم تبدو بالليل وتخنس بالنهار ، فتختفى ولا ترى . وقالت طائفة الخنس : هى الراجعة التى ترجع كل ليلة إلى جهة المشرق ، وهى السبعه السيارة .

---

(١) الشعراء آية ٩٤

(٢) رواه البخارى (كتاب الفل) باب الجنب يخرج ويمشى فى السوق وغيره ٩٢/١ طبع دار احياء الكتب العربية ، وأخرجه مسلم فى كتاب (الحيض) باب الدليل على أن المؤمن لا يتجسس وأخرجه النسائى فى سننه (كتاب الطهارة) باب مماسة الجنب ومجالسته ١٤٥/١ وابن ماجه فى (كتاب الطهارة وسنتها) باب مصافحة الجنب ١٧٨/١ رقم ٥٣٤ ، والترمذى فى سننه برقم ١٢١ تحقيق الشيخ شاكر ، واللفظ له . والامام أحمد فى مسنده ٢٣٥/٢ ، ٣٨٢

(٣) سورة التكوير ، الآية : ١٥

قالوا : وأصل الخنوس الرجوع إلى وراء ، والخناس هو مأخوذ من هذين المعنيين ، فهو من الاختفاء والرجوع والتأخر ، فإن العبد إذا غفل عن ذكر الله ، جثم على قلبه الشيطان ، وانبسط عليه ، وبذر فيه أنواع الوساوس ، التي هي أصل الذنوب كلها ، فإذا ذكر العبد ربه واستعاذ به انخنس وانقبض ، كما ينخنس الشيء ليتوارى ، وذلك الانخناس والانقباض هو أيضاً تجمع ورجوع وتأخر عن القلب إلى خارج ، فهو تأخر ورجوع معه اختفاء ، وخنس وانخنس يدل على الأمرين معاً . قال قتادة : الخناس له خرطوم كخرطوم الكلب فى صدر الإنسان ، فإذا ذكر العبد ربه خنس . ويقال : رأسه كرأس حية ، وهو واضع رأسه على ثمرة القلب يمنيه ويحدثه ، فإذا ذكر الله خنس ، وإذا لم يذكره عاد ووضع رأسه يوسوس إليه ويمنيه ، وجيء من هذا الفعل يوزن فعّال الذى للمبالغة دون الخانس والمنخنس إيذاناً بشدة هروبه ورجوعه وعظم نفوره عند ذكر الله وأن ذلك دأبه وديدنه لا أنه يعرض له ذلك عند ذكر الله أحياناً ، بل إذا ذكر الله هرب وانخنس وتأخر ، فإن ذكر الله هو مقمعته التى يقمع بها ، كما يقمع المفسد والشرير بالمقامع التى تردعه من سياط وحديد وعصى ونحوها . فذكر الله يقمع الشيطان ويؤلمه ويؤذيه كالسياط والمقامع التى تؤذى من يضرب بها ، ولهذا يكون شيطان المؤمن هزيلاً ضئيلاً مضنى ، مما يعذبه المؤمن ويقمعه به من ذكر الله وطاعته .

وفى أثر عن بعض السلف : أن المؤمن ينضى شيطانه كما ينضى الرجل بعيره فى السفر ، لأنه كلما اعترضه صب عليه سياط الذكر والتوحيد والاستغفار والطاعة ، فشيطانه معه فى عذاب شديد ليس بمنزلة شيطان الفاجر الذى هو معه فى راحة ودعة ، ولهذا يكون قوياً عاتياً شديداً .

فمن لم يعذب شيطانه فى هذه الدار بذكر الله تعالى وتوحيده واستغفاره وطاعته ، عذبه شيطانه فى الآخرة بعذاب النار ، فلابد لكل أحد أن يعذب شيطانه أويعذبه شيطانه .

وتأمل كيف جاء بناء الوسواس مكرراً لتكريره الوسوسة الواحدة مراراً ، حتى يعزم عليها العبد ، وجاء بناء الخناس على وزن الفعال الذى يتكرر منه نوع الفعل ، لأنه كلما ذكر الله انخنس ، ثم إذا عقل العبد عاوده بالوسوسة ، فجاء بناء اللفظين مطابقاً لمعنيهما .

فصل

وقوله تعالى : ﴿ **الذى يوسوس فى صدور الناس** ﴾ صفة ثالثة للشيطان ، فذكر وسوسته أولا ثم ذكر محلها ثانياً وأنها فى صدور الناس .

وقد جعل الله للشيطان دخولاً فى جوف العبد ونفوذاً إلى قلبه وصدره ، فهو يجرى منه مجرى الدم ، وقد وكل بالعبد فلا يفارقه إلى الممات .

وفى الصحيحين من حديث الزهرى عن على بن حسين عن صفية بنت حيى قالت : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم معتكفا فأتيته أزوره ليلاً فحدثته ثم قمت فانقلبت ، فقام معى ليقلبنى ، وكان مسكنها فى دار أسامة بن زيد ، فمر رجلا من الأنصار فلما رأيا النبى صلى الله عليه وسلم أسرعا فقال

النبى صلى الله عليه وسلم على رسلكما إنها صفية بنت حيى ، فقالا سبحان الله يا رسول الله ، فقال إن الشيطان يجرى من الإنسان مجرى الدم ، وإنى خشيت أن يقذف فى قلوبكما سوءاً ـ أو قال شيئا »(١) .

وفى الصحيح أيضاً عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا نودى بالصلاة أدبر الشيطان وله ضراط ، فإذا قضى أقبل ، فإذا ثوب بها أدبر ، فإذا قضى أقبل حتى يخطر بين الانسان وقلبه فيقول : اذكر كذا اذكر كذا ، حتى لا يدرى أثلاثا صلى أم أربعاً ، فإذا لم يدر أثلاثاً صلى أم أربعاً سجد سجدتى السهو »(٢) .

ومن وسوسته ما ثبت فى الصحيح عن أبى هريرة رضى الله عنه قال « يأتى الشيطان أحدكم فيقول من خلق كذا ، من خلق كذا حتى يقول من خلق الله ، فمن وجد ذلك فليستعذ بالله ولينته »(٣) .

وفى الصحيح أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا : « يا رسول الله إن أحدنا ليجد فى نفسه ما لأن يخر من السماء إلى الأرض أحب إليه من أن يتكلم به . قال (الحمد الله الذى رد كيده إلى الوسوسة)(٤) .

ومن وسوسته أيضاً أن يشغل القلب بحديثه حتى ينسيه ما يريد أن يفعله ولهذا يضاف النسيان إليه اضافته إلى سببه ، قال تعالى حكاية عن صاحب موسى أنه قال : ﴿ إنى نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره ﴾(٥) وتأمل حكمة القرآن وجلالته كيف أوقع الاستعاذة من شر الشيطان الموصوف بأنه الوسواس الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس ، ولم يقل من شر وسوسته لتعم الاستعاذة شره جميعه ، فإن قوله : ﴿ من شر الوسواس ﴾ يعم كل شره ، ووصفه بأعظم صفاته وأشدها شراً وأقواها تأثيراً وأعمها فساداً ، وهى الوسوسة التى هى مبادىء الإرادة ، فإن القلب يكون فارغاً عن الشر والمعصية ، فيوسوس إليه ويخطر الذنب بباله ، فيصوره لنفسه ويمنيه ويشهيه فتصير شهوة ، ويزينها له ويحسنها ويخيلها له فى خيال تميل نفسه إليه ، فيصير إرادة ، ثم لا يزال يمثل ويخيل ويمنى ويشهى وينسى علمه بضررها ، ويطوى عنه سوء عاقبتها ، فيحول بينه وبين مطالعته ، فلا يرى إلا صورة المعصية والتذاذه بها فقط ، وينسى ما وراء ذلك ، فتصير الإرادة عزيمة جازمة ، فيشتد الحرص عليها من القلب ، فيبعث الجنود فى الطلب ، فيبعث الشيطان معهم مدداً لهم وعوناً ، فإن فتروا حرّكهم ، وإن ونوا أزعجهم كما قال تعالى : ﴿ ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً ﴾(٦) أى تزعجهم إلى

---

(١) رواه فى الؤلؤ والمرجان فيما أتفق عليه الشيخان (كتاب السلام) باب بيان أنه يستحب لمن رؤى خاليا بامرأة .... الخ ص ٥٦٣ رقم ١٤٠٤ طبع الكويت ـ

(٢) رواه فى اللؤلؤ والمرجان (كتاب الصلاة) باب فضل الأذان وهرب الشيطان عند سماعه ص ٧٩ رقم ٢١٦ .

(٣) رواه فى اللؤلؤ والمرجان (كتاب الايمان) باب الوسوسة فى الايمان وما يقوله من وجدها ص ٢٦ رقم ٨٢ .

(٤) رواه الامام أحمد فى مسنده ٢٣٥/١

(٥) من الآية : ٦٣ من سورة الكهف .

(٦) سورة مريم آية : ٨٣

المعاصى إزعاجاً كلما فتروا أو ونوا أزعجتهم الشياطين وأزتهم وأثارتهم ، فلا تزال بالعبد تقوده إلى الذنب ، وتنظم شمل الاجتماع بألطف حيلة وأتم مكيدة ، قد رضى لنفسه بالقيادة لفجرة بنى آدم ، وهو الذى استكبر وأبى أن يسجد لأبيهم ، فلم تمنعه النخوة والكبر أن يصير قوّاداً لكل من عصى الله ، فأصل كل معصية وبلاء إنما هو الوسوسة ، فلهذا وصفه بها ، لتكون الاستعاذة من شرها أهم من كل مستعاذ منه ، وإلا فشره بغير الوسوسة حاصل أيضاً ، فمن شره أنه لص سارق لأموال الناس ، فكل طعام أو شراب لم يذكر اسم الله عليه فله فيه حظ بالسرقة والخطف ، وكذلك يبيت فى البيت إذا لم يذكر فيه اسم الله ، فيأكل طعام الإنس بغير إذنهم ، ويبيت فى بيوتهم بغير أمرهم ، فيدخل سارقاً ويخرج مغيراً ، ويدل على عوراتهم ، فيأمر العبد بالمعصية ، ثم يلقى فى قلوب الناس يقظة ومناماً أنه فعل كذا وكذا .

ومن هذا أن العبد يفعل الذنب لا يطلع عليه أحد من الناس فيصبح والناس يتحدثون به ، وما زال إلا أن الشيطان زينه له وألقاه فى قلبه ، ثم وسوس إلى الناس بما فعل وألقاه إليهم ، فأوقعه فى الذنب ثم فضحه به . فالرب تعالى يستره ، والشيطان يجهد فى كشف ستره وفضيحته ، فيغتر العبد ويقول هذا ذنب لم يره إلا الله ولم يشعر بأن عدوه ساع فى إذاعته وفضيحته ، وقل من يتفطن من الناس لهذه الدقيقة .

ومن شره أنه إذا نام العبد عقد على رأسه عقداً تمنعه من اليقظة ، كما فى صحيح البخارى عن سعيد ابن المسيب عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نائم ثلاث عقد ، يضرب على كل عقدة مكانها عليك ليل طويل فارقد ، فإن استيقظ فذكر الله انحلت عقدة ، فإن توضأ انحلت عقده ، فإن صلى انحلت عقده كلها فأصبح نشيطا طيب النفس ، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان »[1] .

ومن شره أنه يبول فى أذن العبد حتى ينام إلى الصباح كما ثبت عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه ذكر عنده رجل نام ليلة حتى أصبح قال : « ذاك رجل بال الشيطان فى أذنيه أو قال فى أذنه » رواه البخارى[2] .

ومن شره أنه قعد لابن آدم بطرق الخير كلها ، فما من طريق من طرق الخير الا والشيطان مرصد عليه يمنعه بجهده أن يسلكه ، فإن خالفه وسلكه ثبطه فيه وعوقه وشوش عليه بالمعارضات والقواطع ، فإن عمله وفرغ منه قيض له ما يبطل أثره ويرده على حافرته .

ويكفى من شره أنه أقسم بالله ليقعدن لبنى آدم صراطه المستقيم ، وأقسم ليأتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم .

---

(١) الحديث متفق عليه ، أخرجه فى اللؤلؤ والمرجان (كتاب صلاة المسافرين وقصرها ص ١٤٨ رقم ٤٤٤

(٢) متفق عليه ، أخرجه فى اللؤلؤ والمرجان (كتاب صلاة المسافرين وقصرها) باب ما روى فيمن نام الليل أجمع حتى أصبح ص ١٤٨ رقم ٤٤٢ من رواية عبد الله بن مسعود رضى الله عنه .

ولقد بلغ شره أن أعمل المكيدة وبالغ فى الحيلة حتى أخرج آدم من الجنة ، ثم لم يكفه ذلك حتى استقطع من أولاده شرطة للنار من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين ثم لم يكفه ذلك حتى أعمل الحيلة فى إبطال دعوة الله من الأرض ، وقصد أن تكون الدعوة له ، وأن يعبد من دون الله ، فهو ساع بأقصى جهده على اطفاء نور الله وإبطال دعوته وإقامة دعوة الكفر والشرك ومحو التوحيد وأعلامه من الأرض .

ويكفى من شره أنه تصدى لابراهيم خليل الرحمن حتى رماه قومه بالمنجنيق فى النار ، فرد الله كيده عليه ، وجعل النار على خليله برداً وسلاماً .

وتصدى للمسيح صلى الله عليه وسلم حتى أراد اليهود قتله وصلبه ، فرد الله كيده ، وصان المسيح ورفعه إليه . وتصدى لزكريا ويحيى حتى قتلا .

واستثار فرعون حتى زين له الفساد العظيم فى الأرض ودعوى أنه ربهم الأعلى .

وتصدى للنبى صلى الله عليه وسلم وظاهر الكفار على قتله بجهده . والله تعالى يكبته ويرده خاسئاً .

وتفلت على النبى صلى الله عليه وسلم بشهاب من نار يريد أن يرميه به وهو فى الصلاة ، فجعل النبى صلى الله عليه وسلم يقول : « ألعنك بلعنة الله »

وأعان اليهود على سحرهم للنبى صلى الله عليه وسلم .

فإذا كان هذا شأنه وهمته فى الشر فكيف الخلاص منه إلا بمعونة الله وتأييده وإعاذته .

شرور الشيطان

ولا يمكن حصر أجناس شره فضلا عن آحادها ، إذ كل شر فى العالم ، فهو السبب فيه ، ولكن ينحصر شره فى ستة أجناس ، لا يزال بابن آدم حتى ينال منه واحداً منها أو أكثر .

الشر الأول : شر الكفر والشرك ومعاداة الله ورسوله ، فإذا ظفر بذلك من ابن آدم برد أنينه واستراح من تعبه معه ، وهو أول ما يريد من العبد ، فلا يزال به حتى يناله منه ، فإذا نال ذلك صيره من جنده وعسكره ، واستنابه على أمثاله وأشكاله ، فصار من دعاة إبليس ونوابه . فإن يئس منه من ذلك ، وكان ممن سبق له الإسلام فى بطن أمه ، نقله إلى المرتبة الثانية من الشر وهى البدعة ، وهى أحب إليه من الفسوق والمعاصى ، لأن ضررها فى نفس الدين ، وهو ضرر متعد ، وهى ذنب لا يتاب منه ، وهى مخالفة لدعوة الرسل ، ودعا إلى خلاف ما جاءوا به ، وهى باب الكفر والشرك ، فإذا نال منه البدعة وجعله من أهلها بقى أيضاً نائبه وداعيا من دعاته .

فإن أعجزه من هذه المرتبة ، وكان العبد ممن سبقت له من الله موهبة السنة ، ومعاداة أهل البدع والضلال ، نقله إلى المرتبة الثالثة من الشر ، وهى الكبائر على اختلاف أنواعها ، فهو أشد حرصاً على أن

يوقعه فيها ، ولا سيما إن كان عالماً متبوعاً ، فهو حريص على ذلك ، لينفر الناس عنه ثم يشيع من ذنوبه ومعاصيه فى الناس ، ويستنيب منهم من يشيعها ويذيعها تديناً وتقرباً بزعمه إلى الله تعالى ، وهو نائب إبليس ولا يشعر ، فإن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم ، هذا إذا أحبوا إشاعتها واذاعتها ، فكيف إذا تولوا هم إشاعتها وإذاعتها لا نصيحة منهم ولكن طاعة إبليس ونيابة عنه ، كل ذلك لينفر الناس عنه وعن الانتفاع به . وذنوب هذا ولو بلغت عنان السماء أهون عند الله من ذنوب هؤلاء ، فإنها ظلم منه لنفسه ، إذا استغفر الله وتاب إليه ، قبل الله توبته وبدل سيئاته حسنات ، وأما ذنوب أولئك فظلم للمؤمنين ، وتتبع لعورتهم ، وقصد لفضيحتهم ، والله سبحانه وتعالى بالمرصاد ، لا تخفى عليه كمائن الصدور ودسائس النفوس ، فإن عجز الشيطان عن هذه المرتبة ، نقله إلى المرتبة الرابعة ، وهى الصغائر التى إذا اجتمعت فربما أهلكت صاحبها .

كما قال النبى صلى الله عليه وسلم « اياكم ومحقرات الذنوب فإن مثل ذلك مثل قوم نزلوا بفلاة من الأرض »[١] وذكر حديثاً معناه أن كل واحد منهم جاء بعود حطب حتى أوقدوا ناراً عظيمة فطبخوا واشتووا ، ولا يزال يسهل عليه أمر الصغائر حتى يستهين بها ، فيكون صاحب الكبيره الخائف منها أحسن حالاً منه .

فإن أعجزه العبد من هذه المرتبة ، نقله إلى المرتبة الخامسة ، وهى اشغاله بالمباحات التى لا ثواب فيها ولا عقاب بل عاقبتها فوت الثواب الذى ضاع عليه باشتغاله بها ، فإن أعجزه العبد من هذه المرتبة وكان حافظا لوقته شحيحاً به ، يعلم مقدار أنفاسه وانقطاعها وما يقابلها من النعيم والعذاب ، نقله إلى المرتبة السادسة ، وهو أن يشغله بالعمل المفضول عما هو أفضل منه ، ليزيح عنه الفضيلة ويفوته ثواب العمل الفاضل ، فيأمره بفعل الخير المفضول ، ويحضه عليه ويحسنه له ، إذا تضمن ترك ما هو أفضل وأعلى منه ، وقلّ من يتنبه لهذا من الناس ، فإنه إذا رأى فيه داعيا قوياً ومحركا إلى نوع من الطاعة لا يشك أنه طاعة وقربة ، فإنه لا يكاد يقول إن هذا الداعى من الشيطان ، فإن الشيطان لا يأمر بخير ، ويرى أن هذا خير ، فيقول هذا الداعى من الله ، وهو معذور ، ولم يصل علمه إلى أن الشيطان يأمر بسبعين باباً من أبواب الخير ، إما ليتوصل بها إلى باب واحد من الشر ، وأما ليفوت بها خيراً أعظم من تلك السبعين باباً وأجل وأفضل ، وهذا لا يتوصل إلى معرفته إلا بنور من الله يقذفه فى قلب العبد ، يكون سببه تجريد متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وشدة عنايته بمراتب الأعمال عند الله وأحبها إليه ، وأرضاها له ، وأنفعها للعبد ، وأعمها نصيحة لله ولرسوله ولكتابه ولعباده المؤمنين خاصتهم وعامتهم ، ولا يعرف هذا الا من كان من ورثة الرسول صلى الله عليه وسلم ونوابه فى الأمة وخلفائه فى الأرض . وأكثر الخلق محجوبون عن ذلك ، فلا يخطر بقلوبهم والله يمن بفضله على من يشاء من عباده .

---

(١) أخرجه الامام أحمد فى مسنده (مسند عبد الله بن مسعود رضى الله عنه) ٤٠٢/١

فإذا أعجزه العبد من هذه المراتب الست ، وأعيى عليه سلط عليه حزبه من الإنس والجن بأنواع الأذى والتكفير والتضليل والتبديع والتحذير منه ، وقصد اخماله واطفاءه ، ليشوش عليه قلبه ، ويشغل بحربه فكره ، وليمنع الناس من الانتفاع به ، فيبقى سعيه فى تسليط المبطلين من شياطين الإنس والجن عليه لا يفتر ولا ينى ، فحينئذ يلبس المؤمن لأمة الحرب ولا يضعها عنه إلى الموت ، ومتى وضعها أسر أو أصيب ، فلا يزال فى جهاد حتى يلقى الله .

فتأمل هذا الفصل وتدبر موقعه وعظيم منفعته ، واجعله ميزانك تزن به الناس ، فإنه يطلعك على حقائق الوجود ومراتب الخلق ، والله المستعان وعليه التكلان ، ولو لم يكن فى هذا التعليق الا هذا الفصل لكان نافعا لمن تدبره ووعاه .

فصــل

وتأمل السر فى قوله تعالى : ﴿ **يوسوس فى صدور الناس** ﴾ ولم يقل فى قلوبهم ، والصدر هو ساحة القلب وبيته ، فمنه تدخل الواردات إليه فتجتمع فى الصدر ثم تلج فى القلب ، فهو بمنزلة الدهليز له ، ومن القلب تخرج الأوامر والإرادات إلى الصدر ، ثم تتفرق على الجنود .

ومن فهم هذا فهم قوله تعالى : ﴿ **وليبتلى الله ما فى صدوركم وليمحص ما فى قلوبكم** ﴾[1] فالشيطان يدخل إلى ساحة القلب وبيته ، فيلقى ما يريد القاءه إلى القلب ، فهو موسوس فى الصدر ، ووسوسته واصلة إلى القلب ، ولهذا قال تعالى : ﴿ **فوسوس إليه الشيطان** ﴾[2] ولم يقل فيه ، لأن المعنى أنه ألقى إليه ذلك وأوصله فيه فدخل فى قلبه .

وقوله تعالى : ﴿ **من الجنة والناس** ﴾ بيان للذى يوسوس ، وأنهم نوعان : إنس وجن ، فالجنى يوسوس فى صدور الناس ، والإنسى أيضا يوسوس إلى الإنسى ، فالموسوس نوعان : إنسى وجنى ، فإن الوسوسة هى الإلقاء الخفى فى القلب ، وهذا مشترك بين الجن والإنس ، وإن كان إلقاء الإنس ووسوسته إنما هى بواسطة الإذن والجنى لا يحتاج إلى تلك الواسطة ، لأنه يدخل فى ابن آدم ويجرى منه مجرى الدم .

على أن الجن قد يتمثل له ويوسوس إليه فى أذنه كالإنسى ، كما فى البخارى عن عروة عن عائشة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن الملائكة تحدث فى العنان ـ والعنان الغمام ـ بالأمر يكون فى الأرض ، فتستمع الشياطين الكلمة فتقرها فى أذن الكاهن كما تقر القارورة ، فيزيدون معها مائة كذبة من عند أنفسهم ، فهذه وسوسة والقاء من الشيطان بواسطة الأذن .

---

(١) آل عمران آية : ١٥٤

(٢) طه ـ آية : ١٢٠

ونظير اشتراكهما فى هذه الوسوسة اشتراكهما فى الوحى الشيطانى . قال تعالى : ﴿ **وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً** ﴾ فالشيطان يوحى الانس باطله . ويوحيه الإنسى إلى إنسى مثله . فشياطين الإنس والجن يشتركان فى الوحى الشيطانى ، ويشتركان فى الوسوسة . وتدل الآية على الاستعاذة من شر نوعى الشياطين ، شياطين الإنس والجن .

قاعدة نافعة

فيما يعتصم به العبد من الشيطان ويستدفع به شره ويحترز به منه .

قال ابن القيم : ونختم الكلام على السورتين بذكر قاعدة نافعة فيما يعتصم به العبد من الشيطان ، ويستدفع به شره ويحترز به منه .

وذلك عشرة أسباب :

(الحرز الأول) :

أحدها : الاستعاذة بالله من الشيطان . قال تعالى : ﴿ **وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله ، إنه هو السميع العليم** ﴾[1] .

وفى موضع آخر : ﴿ **إنه سميع عليم** ﴾[2] وقد تقدم أن السمع المراد به ههنا سمع الإجابة لا مجرد السمع العام .

وتأمل سر القرآن كيف أكد الوصف بالسميع العليم بذكر صيغة (هو) الدال على تأكيد النسبة واختصاصها ، وعرف الوصف بالألف واللام فى سورة (حم) لاقتضاء المقام لهذا التأكيد ، وتركه فى سورة الأعراف لاستغناء المقام عنه ، فإن الأمر بالاستعاذة فى سورة : (حم) وقع بعد الأمر بأشق الأشياء على النفس ، وهو مقابلة إساءة المسىء بالإحسان إليه ، وهذا أمر لا يقدر عليه إلا الصابرون ولا يلقاه إلا ذو حظ عظيم كما قال تعالى فى الآية السابقة لها : ﴿ **ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن . . . الخ الآية** ﴾ والشيطان لا يدع العبد يفعل هذا ، بل يريه أن هذا ذل وعجز ويسلط عليه عدوه فيدعوه إلى الانتقام ويزينه له ، فإن عجز عنه دعاه إلى الإعراض عنه وأن لا يسىء إليه ولا يحسن ، فلا يؤثر الإحسان إلى المسىء إلا من خالفه وآثر الله تعالى وما عنده على حظه العاجل ، فكان المقام مقام تأكيد وتحريض فقال فيه : ﴿ **وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم** ﴾[3] .

---

(١) فصلت آية : ٣٦
(٢) الأعراف آية : ٢٠
(٣) فصلت آية : ٣٦

وأما فى سورة الأعراف فإنه أمره أن يعرض عن الجاهلين وليس فيها الأمر بمقابلة إساءتهم بالإحسان ، بل بالاعراض ، وهذا سهل على النفوس غير إساءتهم بالإحسان ، بل بالاعراض ، وهذا سهل على النفوس غير مستعصى عليها ، فليس حرص الشيطان وسعيه فى دفع هذا كحرصه على دفع المقابلة بالإحسان فقال : ﴿ وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم ﴾[1] وقد تقدم ذكر الفرق بين هذين الموضعين وبين قوله فى (حم) المؤمن ﴿ فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير ﴾[2] .

وفى صحيح البخارى عن عدى بن ثابت عن سليمان بن صرد قال : « كنت جالسا مع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ورجلان يستبان فأحدهما احمّر وجهه وانتفخت أوداجه ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : إنى لأعلم كلمة لو قالها ذهب عنه ما يجد ، لو قال : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ذهب عنه ما يجد »[3] .

الحرز الثانى : قراءة هاتين السورتين ، فإن لهما تأثيراً عجيباً فى الاستعاذة بالله من شره ودفعه والتحصن منه ، ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم : « ما تعوذ المتعوذون بمثلهما » .

وقد تقدم أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يتعوذ بهما كل ليلة عند النوم ، وأمر عقبة أن يقرأ بهما دبر كل صلاة .

وتقدم قوله صلى الله عليه وسلم : « إن من قرأهما مع سورة الأخلاص ثلاثا حين يمسى وثلاثاً حين يصبح كفته من كل شىء »[4] .

الحرز الثالث : قراءة آية الكرسى .

ففى الصحيح من حديث محمد بن سيرين عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : « وكلنى رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفظ زكاة رمضان فأتى آت فجعل يحثو من الطعام ، فأخذته فقلت لأرفعنك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ فذكر الحديث . فقال : إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسى ، فإنه لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « صدقك وهو كذوب ، ذاك الشيطان»[5] .

الحرز الرابع : قراءة سورة البقرة .

---

(١) الأعراف آية : ٢٠٠

(٢) غافر آية : ٥٦

(٣) أخرجه أبو داود فى سننه برقم ٤٧٨٠ والحاكم فى المستدرك ٤٤١/٢ والطبرانى فى المعجم الكبير ١١٦/٧ ، والبخارى فى الأدب المفرد برقم ٤٣٤ وابن السنى فى عمل اليوم والليلة برقم ٤٤٨

وأخرجه البخارى فى صحيحه طبع الشعب ١٥١/٤ ، ١٩/٨ ، ٣٥

(٤) أخرجه ابن كثير فى تفسيره من رواية صدى بن عجلان ٥٧٢/٤ طبع دار الفكر .

(٥) أخرجه البخارى فى صحيحه ١٤٩/٤ وانظر الفتح ٥٥/٩ وسلسلة الأحاديث الصحيحة للألبانى رقم ١٥٥٩

ففى الصحيح من حديث سهل عن عبد الله عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا تجعلوا بيوتكم قبورا ، وإن البيت الذى تقرأ فيه سورة البقرة لا يدخله الشيطان »[١] .

الحرز الخامس : خاتمة سورة البقرة .

فقد ثبت فى الصحيح من حديث أبى موسى الأنصارى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة فى ليلة كفتاه »[٢] . وفى الترمذى عن النعمان بن بشير عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله كتب كتابا قبل أن يخلق السموات والأرض بألفى عام ، أنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة فلا يقرآن فى دار ثلاث ليال.. فيقربها شيطان »[٣]

الحرز السادس : أول سورة (حم) المؤمن ، إلى قوله : (إليه المصير) مع آية الكرسى .

ففى الترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ (حم) المؤمن إلى (اليه المصير) وآية الكرسى حين يصبح حفظ بهما حتى يمسى ، ومن قرأهما حين يمسى حفظ بهما حتى يصبح »[٤] قال ابن القيم وعبد الرحمن المليكى ـ أحد رواة الحديث ـ وإن كان قد تكلم فيه من قبل حفظه فالحديث له شواهد فى قراءة آية الكرسى وهو محتمل على غرابته .

الحرز السابع : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير .

ففى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير فى يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب ، وكتبت له مائة حسنة ، ومحيت عنه مائة سيئة ، وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسى ، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر من ذلك »[٥] فهذا حرز عظيم النفع ، جليل الفائدة ، يسير سهل على من يسره الله عليه .

الحرز الثامن : وهو من أنفع الحروز من الشيطان : كثرة ذكر الله عز وجل .

---

(١) أخرجه الترمذى فى كتاب التفسير من سننه باب ما جاء فى سورة البقرة وآية الكرسى جـ ٤ ص ٢٣٢ برقم ٣٠٣٧ وقال : هذا حديث حسن صحيح .

(٢) أخرجه الترمذى فى سننه كتاب التفسير باب ما جاء فى آخر سورة البقرة جـ ٤ ص ٢٣٤ برقم ٣٠٤٣ وقال : هذا حديث حسن صحيح .

(٣) أخرجه الترمذى فى سننه كتاب التفسير جـ ٤ ص ٢٣٥ برقم ٣٠٤٤ وقال : هذا حديث غريب .
وانظر الكامل لابن عدى جـ ٧ ص ٢٤٩٩

(٤) أخرجه الترمذى فى سننه كتاب التفسير جـ ٤ ص ٢٣٢ برقم ٣٠٣٩
وقال : هذا حديث غريب .

(٥) أخرجه مسلم فى صحيح كتاب الذكر والدعاء جـ ٤ ص ٢٠٧١ برقم ٢٨/٢٦٩١
والبخارى فى كتاب الدعوات جـ ٨ ص ١٠٦

ففى الترمذى من حديث الحارث الأشعرى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « إن الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بها ويأمر بنى اسرائيل أن يعملوا بها وإن كاد أن يبطىء بها ، فقال عيسى إن الله أمرك بخمس كلمات فتعمل بها وتأمر بنى اسرائيل أن يعملوا بها فإما أن تأمرهم وإما أن آمرهم . فقال يحيى : أخشى إن سبقتنى بها أن يخسف بى أو أعذب ، فجمع الناس فى بيت المقدس فامتلأ وقعدوا على الشرف فقال : إن الله أمرنى بخمس كلمات أن أعمل بهن وآمركم أن تعملوا بهن : أولهن أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وإن مثل من أشرك بالله كمثل رجل اشترى عبداً من خالص ماله بذهب أو ورق فقال هذه دارى وهذا عملى فاعمل وأدّ إلىَّ ، فكان يعمل ويؤدى إلى غير سيده ، فأيكم يرضى أن يكون عبده كذلك ؟ وإن الله أمركم بالصلاة ، فإذا صليتم فلا تلتفتوا ، فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده فى صلاته ما لم يلتفت . وأمركم بالصيام ، فإن مثل ذلك كمثل رجل فى عصابة معه صرة فيها مسك ، فكلهم يعجب أو يعجبه ريحها ، وإن ريح الصائم أطيب عند الله من ريح المسك . وأمركم بالصدقة فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو فأوثقوا يده إلى عنقه وقدموه ليضربوا عنقه ، فقال أنا افتدى منكم بالقليل والكثير ففدى نفسه منهم . وأمركم أن تذكروا الله ، فإن مثل ذلك كمثل رجل خرج العدو فى أثره سراعاً حتى إذا أتى على حصن حصين فأحرز نفسه منهم ، كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله . قال النبى صلى الله عليه وسلم وأنا أمركم بخمس الله أمرنى بهن : السمع والطاعة ، والجهاد والهجرة والجماعة ، فإن من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه إلا أن يراجع ، ومن ادعى دعوى الجاهلية فإنه من جثاء جهنم . فقال رجل يا رسول الله وإن صلى وصام ؟ قال وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم ، فادعوا بدعوى الله الذى سماكم المسلمين المؤمنين عباد الله[1] .

قال الترمذى : هذا حديث حسن غريب صحيح . وقال البخارى :

الحارث الأشعرى له صحبة وله غير هذا الحديث .

فقد أخبر النبى صلى الله عليه وسلم فى هذا الحديث أن العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله ، وهذا بعينه هو الذى دلت عليه سورة ﴿ **قل أعوذ برب الناس ملك الناس ، إله الناس من شر الوسواس الخناس** ﴾فإنه وصفَ الشيطان فيها بأنه الخناس ، والخناس الذى إذا ذكر العبد الله انخنس وتجمع وانقبض ، وإذا غفل عن ذكر الله التقم القلب وألقى إليه الوساوس التى هى مبادىء الشر كله . فما أحرز العبد نفسه من الشيطان بمثل ذكر الله عز وجل .

الحرز التاسع : الوضوء والصلاة ، وهذا من أعظم ما يتحرز به منه ، ولا سيما عند توارد قوة الغضب والشهوة ، فإنها نار تغلى فى قلب ابن آدم كما فى الترمذى من حديث أبى سعيد الخدرى عن النبى

---

(١) أخرجه أحمد فى سنده جـ ٤ ص ١٣
وأخرجه الترمذى فى سننه برقم ٢٨٦٣ والحاكم جـ١ ص ١١٧ ، ص ١١٨ وابن حبان برقم ١٢٢٢ ، ١٥٥٠ والطبرانى جـ٣ ص ٣٢٤

صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ألا وإن الغضب جمرة فى قلب ابن آدم . أما رأيتم إلى حمرة عينيه وانتفاخ أوداجه فمن أحس بشىء من ذلك فليتصق بالأرض[١]

وفى أثر آخر « إن الشيطان خلق من نار ، وإنما تطفأ النار بالماء » .

فما أطفأ العبد جمرة الغضب والشهوة بمثل الوضوء والصلاة ، فإنها نار والوضوء يطفئها . والصلاة إذا وقعت بخشوعها والإقبال فيها على الله أذهبت أثر ذلك كله . وهذا أمر تجربته تغنى عن إقامة الدليل عليه .

الحرز العاشر : إمساك فضول النظر ، والكلام ، والطعام ، ومخالطة الناس ، فإن الشيطان إنما يتسلط على ابن آدم وينال منه غرضه من هذه الأبواب الأربعة .

فإن فضول النظر يدعو إلى الاستحسان ، ووقوع صورة المنظور إليه فى القلب ، والاشتغال به ، والفكرة فى الظفر به ، فمبتدأ الفتنة من فضول النظر كما فى المسند عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « النظرة سهم مسموم من سهام إبليس ، فمن غض بصره لله أورثه الله حلاوة يجدها فى قلبه إلى يوم يلقاه »[٢] . أو كما قال صلى الله عليه وسلم . فالحوادث العظام إنما كلها من فضول النظر . فكم نظرة أعقبت حسرات لا حسرة كما قال الشاعر :

كل الحوادث مبداها من النظر . ومعظم النار من مستصغر الشرر .

كم نظرة فتكت فى قلب صاحبها   فتك السهام بلا قوس ولا وتر

وقال الآخر :

وكنت متى أرسلت طرفك رائداً   لقلبك يوماً أتعبتك المناظر
رأيت الذى لا كله أنت قادر   عليه ولا عن بعض أنت صابر

والمقصود أن فضول النظر أصل البلاء .

وأما فضول الكلام فإنها تفتح للعبد أبوابا من الشر كلها مداخل للشيطان . فإمساك فضول الكلام يسد عنه تلك الأبواب كلها . وكم من حرب جرتها كلمة واحدة .

وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم لمعاذ : « وهل يكب الناس على مناخرهم فى النار إلا حصائد ألسنتهم »[٣] .

---

(١) أخرجه أحمد فى سنده جـ٣ ص ١٩ ضمن حديث طويل .

(٢) أخرجه الهيثمى فى مجمع الزوائد جـ ٨ ص ٦٣ والترغيب والترهيب جـ ٣ ص ٣٤ والعراقى فى تخريج أحاديث الاحياء جـ ٢٣٥/١ وبنحوه الحاكم جـ ٤ ص ٣١٤

(٣) أخرجه الترمذى فى سننه جـ ٤ ص ١٢٤ ، ص ١٢٥ برقم ٢٧٤٩ وقال : هذا حديث حسن صحيح .

وفى الترمذى « أن رجلاً من الأنصار توفى ، فقال بعض الصحابة طوبى له ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « فما يدريك فلعله تكلم بما لا يعنيه ، أو بخل بما لا ينقصه »[١] .

وأكثر المعاصى إنما تولدها من فضول الكلام والنظر ، وهما أوسع مداخل الشيطان ، فإن جارحتيهما لا يملان ولا يسأمان بخلاف شهوة البطن ، فإنه إذا امتلأ لم يبق فيه إرادة للطعام ، وأما العين واللسان فلو تركا لم يفترا من النظر والكلام ، فجنايتهما متسعة الأطراف ، كثيرة الشعب عظيمة الآفات .

وكان السلف يحذرون من فضول النظر كما يحذرون من فضول الكلام ، وكانوا يقولون : ما شىء أحوج إلى طول السجن من اللسان .

وأما فضول الطعام فهو داع إلى أنواع كثيرة من الشر ، فإنه يحرك الجوارح إلى المعاصى ، ويثقلها عن الطاعات ، وحسبك بهذين شراً . فكم من معصية جلبها الشبع وفضول الطعام ، وكم من طاعة حال دونها . فمن وقى شر بطنه فقد وقى شراً عظيماً ، والشيطان أعظم ما يتحكم من الإنسان إذا ملأ بطنه من الطعام ، ولهذا جاء فى بعض الآثار « ضيقوا مجارى الشيطان بالصوم » .

وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « ما ملأ آدمى وعاء شراً من بطن »[٢] .

ولو لم يكن فى الامتلاء من الطعام إلا أنه يدعو إلى الغفلة عن ذكر الله عز وجل ، وإذا غفل القلب عن الذكر ساعة واحدة ، جثم عليه الشيطان ووعده ومنّاه وشهّاه وهام به فى كل واد ، فإن النفس إذا شبعت تحركت وجالت وطافت على أبواب الشهوات ، وإذا جاعت سكنت وخشعت وذلت .

وأما فضول المخالطة فهى الداء العضال الجالب لكل شر ، وكم سلبت المخالطة والمعاشرة من نعمة ، وكم زرعت من عداوة ، وكم غرست فى القلب من حزازات تزول الجبال الراسيات وهى فى القلوب لا تزول ، ففضول المخالطة فيه خسارة الدنيا والآخرة ، وإنما ينبغى للعبد أن يأخذ من المخالطة بمقدار الحاجة ، ويجعل الناس فيها أربعة أقسام ، متى خلط أحد الأقسام بالآخر ولم يميز بينهما دخل عليه الشر .

أحدهما : من مخالطته كالغذاء لا يستغنى عنه فى اليوم والليلة ، فإذا أخذ حاجته منه ترك الخلطة ، ثم إذا احتاج إليه خالطه ، هكذا على الدوام .

وهذا الضرب أعز من الكبريت الأحمر ، وهم العلماء بالله وأمره ومكايد عدوه ، وأمراض القلوب وأدويتها ، الناصحون لله ولكتابه ولرسوله ولخلقه ، فهذا الضرب فى مخالطتهم الربح كله .

---

(١) أخرجه الهيثمى فى مجمع الزوائد جـ ١٠ ص ٣٠٣ عن أبى هريرة .

قال الهيثمى : رواه أبو يعلى وفيه عصام بن طليق وهو ضعيف وأورده رواية أنس ثم قال : قلت روى الترمذى بعضه ، رواه أبو يعلى وفيه يحيى بن يعلى الاسلامى وهو ضعيف .

(٢) أخرجه الترمذى فى جامعة الصحيح برقم ٢٣٨٠ والحاكم فى المستدرك ٣٣١/٤ وابن حبان فى صحيحه برقم ١٣٤٨

القسم الثانى : من مخالطته كالدواء يحتاج إليه عند المرضى ، فما دمت صحيحا فلا حاجة لك فى خلطته ، وهم من لا يستغنى عن مخالطتهم فى مصلحة المعاش ، وقيام ما أنت محتاج إليه من أنواع المعاملات والمشاركات والاستشارة والعلاج للأدواء ونحوها ، فإذا قضيت حاجتك من مخالطة هذا الضرب فلا حاجة لك به .

القسم الثالث : وهم من مخالطته كالداء على اختلاف مراتبه وأنواعه ، وقوته وضعفه . فمنهم من مخالطته كالداء العضال والمرض المزمن ، وهو من لا تربح عليه فى دين ولا دنيا ، ومع ذلك فلابد من أن نخسر عليه الدين والدنيا أو أحدهما ، فهذا إذا تمكنت مخالطته واتصلت ، فهى مرض الموت المخوف . ومنهم من مخالطته كوجع الضرس يشتد ضرباً عليك فإذا فارقك سكن الألم . ومنهم من مخالطته حمى الروح ، وهو الثقيل البغيض العقل ، الذى لا يحسن أن يتكلم فيفيدك ولا يحسن أن ينصت فيستفيد منك ، ولا يعرف نفسه فيضعها فى منزلتها ، بل إن تكلم فكلامه كالعصى تنزل على قلوب السامعين ، مع إعجابه بكلامه وفرحه به ، فهو يحدث من فيه كلما تحدث ، ويظن أنه مسك يطيب به المجلس ، وإن سكت فأثقل من نصف الرحا العظيمة التى لا يطاق حملها ولا جرها على الأرض . .

وبالجملة فمخالطة كل مخالف حمى للروح فعرضية ولازمة ومن نكد الدنيا على العبد أن يبتلى بواحد من هذا الضرب وليس له بد من معاشرته ومخالطته ، فليعاشره بالمعروف حتى يجعل الله له فرجاً ومخرجاً .

القسم الرابع : من مخالطته الهلك كله ، ومخالطته بمنزلة أكل السم ، فإن اتفق لآكله ترياق وإلا فأحسن الله فيه العزاء . وما أكثر هذا الضرب فى الناس لاكثرهم الله وهم أهل البدع والضلالة ، الصادون عن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الداعون إلى خلافها ، الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا ، فيجعلون البدعة سنة ، والسنة بدعة ، والمعروف منكرا ، والمنكر معروفا . إن جردت التوحيد بينهم قالوا تنقصت جناب الأولياء والصالحين ، وإن جردت المتابعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالوا أهدرت الأئمة المتبوعين ، وإن وصفت الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير غلو ولا تقصير ، قالوا أنت من المشبهين ، وإن أمرت بما أمر الله به ورسوله من المعروف ، ونهيت عما نهى الله عنه ورسوله من المنكر ، قالوا أنت من المفتنين ، وإن اتبعت السنة وتركت ما خالفها ، قالوا أنت من أهل البدع المضلين ، وأن انقطعت إلى الله تعالى وخليت بينهم وبين جيفة الدنيا ، قالوا أنت من الملبسين ، وإن تركت ما أنت عليه ، واتبعت أهواءهم ، فأنت عند الله من الخاسرين وعندهم من المنافقين .

فالحزم كل الحزم التماس مرضاة الله تعالى ورسوله بإغضابهم ، وأن لا تشتغل باعتابهم ولا باستعتابهم ، ولا تبالى بذمهم ولا بغضهم ، فإنه عين كمالك كما قال :

وإذا أتتك مذمتى من ناقص ... فهى الشهادة لى بأنى فاضل

فمن كان بواب قلبه وحارسه من هذه المداخل الأربعة ، التى هى أصل بلاء العالم ، وهى فضول النظر والكلام والطعام والمخالطة ، واستعمل ما ذكرناه من الأسباب التسعة التى تحرزه من الشيطان ، فقد أخذ بنصيبه من التوفيق ، وسد على نفسه أبواب جهنم ، وفتح عليها أبواب الرحمة وانغمر ظاهره وباطنه ، ويوشك أن يحمد عند الممات عاقبة هذا الدواء ، فعند الممات يحمد القوم التقى ، وفى الصباح يحمد القوم السرى .

والله الموفق ، لارب غيره ، ولا إله سواه .

ا . هـ (من كتاب بدائع الفوائد جـ ٢)

لما فرغت بحول من الله وقوته من تفسير القرآن الكريم وختمت ذلك بتفسير المعوذتين ، لما كان ذلك كذلك ، رأيت من باب تتمه الفائدة أن أبين هنا الآداب التى لابد منها لحملة القرآن الكريم ، فهدانى الله تعالى إلى بيان ذلك من كتاب الامام الحجة الامام النووى عليه سحائب الرحمة وشآبيب المغفرة ، وقد ذكر ذلك مفصلا فى كتابه (التبيان فى آداب حملة القرآن) سائلا المولى تبارك وتعالى أن ينفع به حملة القرآن الكريم .

آداب حملة القرآن

الباب الأول (فى أطراف من فضيلة تلاوة القرآن وحملته)

قال الامام النووى رحمه الله فى كتابه « التبيان فى آداب حملة القرآن » .

قال الله عز وجل : ﴿ إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية يرجون تجارة لن تبور ، ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله إنه غفور شكور ﴾[1] .

وروينا عن عثمان بن عفان رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خيركم من تعلم القرآن وعلمه »[2] رواه أبو عبد الله محمد بن اسماعيل بن ابراهيم البخارى فى صحيحه الذى هو أصح الكتب بعد القرآن ، وعن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الذى يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السفرة الكرام البزرة ، والذى يقرأ القرآن وهو يتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران »[3] رواه البخارى وأبو الحسن مسلم بن مسلم القشيرى النيسابورى فى صحيحهما ، وعن

---

(١) سورة فاطر الايتان : ٢٨ ، ٢٩

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه ٢٣٦/٦ وأبو داود وفى سننه برقم ١٤٥٢ والترمذى فى جامعه الصحيح برقم ٢٩٠٧ ، ٢٩٠٨ ، ٢٩٩ والامام أحمد فى المسند ٥٨/١ ، ٦٩

(٣) أخرجه ابن أبى شيبة فى مصنفه ٤٩/١٠

وبلفظ : « الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة . . . الخ » أخرجه مسلم فى صحيحه (كتاب صلاة المسافرين وقصرها) باب فضل الماهر بالقرآن والذى يتتعتع فيه ١/٥٥٠ رقم ٧٩٨/٢٤٤

وأورده البخارى باختصار فى (كتاب التوحيد) فى ترجمة باب قول النبى صلى الله عليه وسلم : « الماهر بالقرآن مع الكرام البررة » و « زينو القرآن بأصواتكم ١٩٣/٩ ولم يذكر الحديث . وأخرجه بلفظ قريب ٢٠٦/٦

أبي موسى الاشعرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن مثل الأترجة ريحها طيب وطعمها طيب ، ومثل المؤمن الذى لا يقرأ القرآن مثل التمرة لا ريح لها وطعمها طيب حلو ، ومثل المنافق الذى يقرأ القرآن مثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر ، ومثل المنافق الذى لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة ليس لها ريح وطعمها مر » رواه البخارى ومسلم(١) .

وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله تعالى يرفع بهذا الكلام أقواما ويضع به آخرين » رواه مسلم(٢) .

وعن أبي أمامة الباهلى رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « اقرءوا القرآن فإنه يأتى يوم القيامة شفيعا لأصحابه » رواه مسلم(٣) .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لا حسد إلا فى اثنتين : رجل آتاه الله القرآن ، فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار ، ورجل آتاه الله مالا فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار » رواه البخارى ومسلم(٤) .

وروينا أيضا من رواية عبد الله بن مسعود رضى الله عنه بلفظ « لا حسد إلا فى اثنتين : رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق ، ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضى بها ويعلمها »(٥) .

وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قرأ حرفاً من كتاب الله تعالى فله حسنة والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول الم حرف ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف » رواه أبوعيسى محمد بن عيسى الترمذى ، وقال حديث حسن صحيح .

وعن أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى صلى ا لله عليه وسلم قال « يقول الله سبحانه وتعالى : « من شغله القرآن وذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين ، وفضل كلام الله سبحانه وتعالى على سائر الكلام كفضل الله تعالى على خلقه » رواه الترمذى وقال حديث حسن(٦) .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (باب فضل القرآن على سائر الكلام) ٢٣٥/٦ مع اختلاف يسير فى اللفظ .
وأخرجه مسلم فى صحيحه (كتاب صلاة المسافرين وقصرها) باب فضيلة حافظ القرآن ٥٤٩/١ رقم ٧٩٧/٢٤٣ واللفظ له .
(٢) أخرجه : مسلم فى صحيحه (كتاب صلاة المسافرين وقصرها) باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه ... الخ ٥٥٩/١ رقم ٨١٧/٢٦٩
(٣) أخرجه : مسلم فى صحيحه (كتاب صلاة المسافرين وقصرها) ٥٥٣/١ رقم ٨٠٤/٢٥٢ وهو جزء حديث .
(٤) أخرجه البخارى فى صحيحه (كتاب فضائل القرآن) بابب اغتباط صاحب القرآن ٢٣٦/٦ ومسلم فى صحيحه (كتاب صلاة المسافرين وقصرها) باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه ... الخ ٥٥٨/١ رقم ٨١٥/٢٦٦
(٥) أخرجه البخارى فى صحيحه (كتاب العلم) باب الاغتباط فى العلم والحكمة ٢٢٨/١ وانظر نفس المرجع ١٣٤/٢ ، ٧٨/٩ ، ١٢٦
ومسلم فى صحيحه (كتاب صلاة المسافرين وقصرها) ٥٥٩/١ رقم ٨١٦/٢٦٨ وابن ماجه برقم ٤٢٠٨
(٦) أخرجه الترمذى فى جامعه الصحيح (أبواب فضائل القرآن) باب ما جاء من قرأ حرفا من القرآن ماله من الأجر ٢٤٨/٤ رقم ٣٠٧٥ طبع دار الفكر .
قال الترمذى : هذا حديث حسم صحيح غريب من هذا الوجه .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الذى ليس فى جوفه شىء من القرآن كالبيت الخرب » رواه الترمذى ، وقال حديث حسن صحيح[١] .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنه ـ عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « يقال لصاحب القرآن : اقرأ وارق ، ورتل كما كنت ترتل فى الدنيا ، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤ ها » رواه أبو داود ، والترمذى ، والنسائى . وقال الترمذى : حديث حسن صحيح »[٢] .

وعن معاذ بن أنس ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من قرأ القرآن وعمل بما فيه ألبس الله والديه تاجاً يوم القيامة ضوؤه أحسن من ضوء الشمس فى بيوت الدنيا ، فما ظنكم بالذى عمل بهذا ؟ رواه أبو داود[٣] .

وروى الدارمى بإسناده عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « اقرأوا القرآن فإن الله تعالى لا يعذب قلباً وعى القرآن ، وإن هذا القرآن مأدبة الله فمن دخل فيه فهو آمن ، ومن أحب القرآن فليبشر »[٤] وعن الحميدى الجمالى قال : سألت سفيان الثورى عن الرجل يغزو أحب اليك أو يقرأ القرآن ؟ » فقال يقرأ القرآن ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم قال « خيركم من تعلم القرآن وعلمه »[٥] .

الباب الثانى
فى ترجيح القراءة والقارىء
على غيرهما

ثبت عن أبى مسعود الأنصارى البدرى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « يؤم القوم اقرؤ هم لكتاب الله تعالى » رواه مسلم[٦] .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « كان القراء أصحاب مجلس عمر رضى الله عنه ومشاورته كهولا وشبابا » رواه البخارى فى صحيحه وسيأتى فى الباب بعد هذا أحاديث تدخل فى هذا الباب ، واعلم

---

(١) أخرجه الترمذى فى جامعه الصحيح (أبواب فضائل القرآن) ٢٥٠/٤ رقم ٣٠٨٠ طبع دار الفكر وقال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح .

(٢) أخرجه أبو داود فى سننه (كتاب الصلاة) باب استحباب الترتيل فى القراءة ١٥٣/٢ رقم ١٤٦٤ والترمذى فى جامعه (كتاب فضائل القرآن) ٢٥٠/٤ رقم ٣٠٨١ وقال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح . وابن ماجه برقم ٣٧٨٠ (كتاب الأدب) .

(٣) أخرجه أبو داود فى سننه (كتاب الصلاة) باب فى ثواب قراءة القرآن ١٤٨/٢ رقم ١٤٥٣ قال المنذرى : سهل بن معاذ ، وزيان بن فائد كلاهما ضعيف .

(٤) أخرجه الدارمى فى سننه فى (كتاب فضائل القرآن) باب فضل من قرأ القرآن ٣١١/٢ وهو مركب من أربعة أحاديث بأرقام ٣٣٢٢ ، ٣٣٢٥ ، ٣٣٢٦ ، ٣٣٢٧

(٥) أخرجه الدارمى فى سننه (كتاب فضائل القرآن) باب خياركم من تعلم القرآن وعلمه ٣١٤/٢ رقم ٣٣٤٠ عن على رضى الله عنه . وأخرجه الامام أحمد فى مسنده (مسند على بن أبى طالب رضى الله عنه) ٥٨/١ ، ٦٩

(٦) أخرجه أبو داود فى سننه (كتاب الصلاة) باب من أحق الامامة ٣٩٠/١ رقم ٥٨٢ بأطول مما معنا . والنسائى ٧٦/٢ وأحمد ١٦٣/٣ ، ١١٨/٤

أن المذهب الصحيح المختار الذى عليه من يعتمد من العلماء أن قراءة القرآن أفضل من التسبيح والتهليل وغيرهما من الأذكار ، وقد تظاهرت الأدلة على ذلك والله أعلم .

الباب الثالث
فى اكرام أهل القرآن والنهى عن أذاهم

قال الله عز وجل : ﴿ ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب ﴾(١) .

وقال الله تعالى : ﴿ ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه ﴾(٢) .

وقال تعالى : ﴿ واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ﴾(٣) .

وقال تعالى : ﴿ والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا وإثما مبيناً ﴾(٤) .

وفى الباب حديث أبى مسعود الأنصارى وحديث ابن عباس المتقدمان فى الباب الثانى ، وعن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن من إجلال الله تعالى اكرام ذى الشيبة المسلم وحامل القرآن غير الغالى فيه والجافى عنه ، واكرام ذى السلطان المقسط » رواه أبو داود ، وهو حديث حسن(٥) . وعن عائشة رضى الله عنها قالت « أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ننزل الناس منازلهم » رواه أبو داود فى سننه والبزار فى مسنده . قال الحاكم أبو عبد الله فى علوم الحديث : هو حديث صحيح(٦) .

عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه « أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يجمع بين الرجلين من قتلى أحد ثم يقول : أيهما أكثر للقرآن فإن أشير إلى أحدهما قدمه فى اللحد » رواه البخارى(٧) .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم « إن الله عز وجل قال : من آذى لى وليًا فقد آذنته بالحرب » رواه البخارى(٨) .

---

(١) الحج آية : ٣٢
(٢) الحج آية : ٣٠
(٣) الشعراء آية : ٢١٥
(٤) الأحزاب : ٥٨
(٥) أخرجه أبو داود فى سننه (كتاب الأدب) باب فى تنزيل الناس منازلهم ١٧٤/٥ رقم ٤٨٤٣
(٦) أخرجه أبو داود فى سننه (كتاب الأدب) باب فى تنزيل الناس منازلهم ١٧٣/٥ رقم ٤٨٤٢ بلفظ : « أنزلوا الناس منازلهم »
(٧) أخرجه ابن ماجه فى سننه (كتاب الجنائز) باب ما جاء فى الصلاة على الشهداء ودفنهم ٤٨٥/١ رقم ١٥١٤ والنسائى فى سننه ٦٢/٤ والبخارى فى صحيحه ١١٤/٢ ، ١١٥ ، ١١٧
(٨) أخرجه الزبيدى فى اتحاف السادة المتقين شرح احياء علوم الدين ٢٩٥/٥ ، ٤٧٧/٨ ، ٦١٠/٩

وثبت فى الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : من صلى الصبح فهو فى ذمة الله فلا يطلبنكم الله بشىء من ذمته »[١] وعن الامامين الجليلين أبى حنيفة والشافعى رضى الله عنهما قالا : إن لم يكن العلماء أولياء الله فليس لله ولى . قال الامام الحافظ أبو القاسم بن عساكر رحمه الله : اعلم يا أخى وفقنا الله واياك لمرضاته ، وجعلنا ممن يخشاه ويتقيه حق تقاته ، أن لحوم العلماء مسمومة ، وعادة الله فى هتك أستار منتقصيهم معلومة ، وأن من أطلق لسانه فى العلماء بالثلب ابتلاه الله تعالى قبل موته بموت القلب ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ﴾[٢] .

الباب الرابع
فى آداب معلم القرآن ومتعلمه

قال النووى رحمه الله : هذا الباب مع البابين بعده هو مقصور الكتاب ، وهو طويل منتشر جداً فإنى أشير إلى مقاصده مختصرة فى فصول ليسهل حفظه وضبطه إن شاء الله تعالى .

(فصـل)

أول ما ينبغى للمقرىء والقارىء أن يقصدا بذلك رضى الله تعالى ، قال الله تعالى : ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة ﴾[٣] . أى الملة المستقيمة .

وفى الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنما الأعمال بالنيات ، وانما لكل امرىء ما نوى »[٤] وهذا الحديث من أصول الإسلام ، وروينا عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : إنما يعطى الرجل على قدر نيته ، وعن غيره انما يعطى الناس على قدر نياتهم .

وروينا عن الأستاذ أبى القاسم القشيرى رحمه الله تعالى قال : الاخلاص إفراد الحق فى الطاعة بالقصد ، وهو أن يريد بطاعته التقرب إلى الله تعالى دون شىء آخر من تصنع لمخلوق ، أو اكتساب محمدة عند الناس أو محبة أو مدح من الخلق ، أو معنى من المعانى سوى التقرب إلى الله تعالى .

قال ويصح أن يقال : الإخلاص تصفية الفعل عن ملاحظة المخلوقين .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (كتاب المساجد ومواضع الصلاة) باب فضل صلاة العشاء والصبح فى جماعة ٤٥٤/١ رقم ٦٥٦/٢٦١ ، ٦٥٦/٢٦٢ والترمذى فى الصلاة باب ما جاء فى فضل العشاء والفجر فى جماعة ١٤٢/١ رقم ٢٢٢ وابن ماجه فى سننه (كتاب الفتن) باب المسلمون فى ذمة الله عز وجل ١٣٠٧/٢ رقم ٣٩٤٦ وانظر رقم ٣٩٤٥

(٢) النور آية : ٦٣

(٣) البينة آية : ٥

(٤) أخرجه البخارى فى صحيحه ٢/١ ، ١٧٥/٨ ، ٢٩/٩ ومسلم فى صحيحه (كتاب الامارة) باب قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : انما الأعمال بالنية ... الخ ١٥١٥/٣ رقم ١٩٠٧/١٥٥

والترمذى برقم ١٦٤٧ وابن ماجه برقم ٤٢٢٧ وأبو داود برقم ٢٢٠١

وعن حذيفة المرعشى رحمه الله تعالى قال : « الإخلاص استواء أفعال العبد فى الظاهر والباطن .

وعن ذى النون رحمه الله تعالى . قال : ثلاث من علامات الإخلاص استواء المدح والذم من العامة ، ونسيان رؤية العمل فى الأعمال ، واقتصاء ثواب الأعمال فى الآخرة وعن الفضل ابن عياض رحمه الله عنه قال : ترك العمل لأجل الناس رياء والعمل لأجل الناس شرك ، والإخلاص أن يعافيك الله منهما .

وعن سهل التسترى رحمه الله تعالى قال : نظر الأكياس فى تفسير الإخلاص فلم يجدوا غير هذا أن تكون حركته وسكوته فى سره وعلانيته لله تعالى وحده لا ينازعه شىء لا نفس ولا هوى ولا دنيا .

وعن القشيرى قال : أفضل الصدق استواء السر والعلانية وعن الحارث المحاسبى رحمه الله قال : الصادق هو الذى لا يبالى ، ولو خرج عن كل قدر له فى قلوب الخلائق من أجل صلاح قلبه ، ولا يحب اطلاع الناس على مثاقيل الذر من حسن عمله ، ولا يكره اطلاع الناس على السىء من عمله ، فإن كراهيته لذلك دليل على أنه يحب الزيادة عندهم ، وليس هذا من أخلاق الصديقين ، وعن غيره ، إذا طلبت الله تعالى بالصدق أعطاك الله مرآة تبصر فيها كل شىء من عجائب الدنيا والآخرة ، وأقاويل السلف فى هذا كثيرة أشرنا إلى هذه الأحرف منها تنبيهاً على المطلوب ، وقد ذكرت جملاً من ذلك مع شرحها فى أول شرح المهذب وضممت إليها من آداب العالم والمتعلم والفقيه والمتفقه ما لايستغنى عنه طالب العلم ، والله أعلم .

(فصـــل)

وينبغى أن لاَّ يقصد به توصلا إلى غرض من أغراض الدنيا من مال أو رياسة أو وجاهة ، أو ارتفاع على أقرانه ، أو ثناء عند الناس ، أو صرف وجوه الناس إليه ، أو نحو ذلك ، ولا يشوب المقرىء اقراءه بطمع فى رفق يحصل له من بعض من يقرأ عليه سواء كان الرفق مالا أو خدمة ، وإن قل ، ولو كان على صورة الهدية التى لولا قراءته عليه لما أهداها إليه ، قال تعالى : ﴿ **من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله فى الآخرة من نصيب** ﴾ [١] وقال تعالى : ﴿ **من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد** ﴾ [٢] الآية .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : من تعلم علماً مما يبتغى به وجه الله تعالى لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا ، لم يجد عرف الجنة يوم القيامة . رواه أبو داود باسناد صحيح [٣] ومثله أحاديث كثيرة ، وعن أنس وحذيفة وكعب بن مالك رضى الله عنهم أن رسول الله ﷺ قال : « من

---

(١) الشورى آية : ٢٠

(٢) الاسراء آية : ١٨

(٣) أخرجه : أبو داود فى سننه (كتاب العلم) باب فى طلب العلم لغير الله تعالى ٧١/٤ رقم ٣٦٦٤ .

طلب العلم ليمارى به السفهاء ، أو يكاثر به العلماء ، أو يصرف به وجوه الناس اليه ، فليتبوأ مقعده من النار » رواه الترمذى من رواية كعب بن مالك ، وقال : « أدخله النار »[١] .

(فصــل)

ويحذر كل الحذر مَن قصده التكثر بكثرة المشتغلين عليه والمختلفين اليه ، وليحذر من كراهة قراءة أصحابه على غيره ممن ينتفع به ، وهذه مصيبة يبتلى بها بعض المعلمين الجاهلين ، وهى دلالة بنية من صاحبها على سوء نيته وفساد طويته ، بل هى حجة قاطعة على عدم إرادته بتعليمه وجه الله تعالى الكريم ، فإنه لو أراد الله بتعليمه لما كره ذلك ، بل قال لنفسه أنا أردت غيرى زيادة علم ، فلا عتب عليه ، وقد روينا فى مسند الامام المجمع على حفظه وإمامته إلى محمد الدارمى أنه قال عن على : « يا حملة القرآن ـ أو قال : يا حملة العلم اعملوا به ، فإنما العالم من عمل بما علم ، ووافق علمه عمله ، وسيكون أقوام يحملون العلم لا يجاوز تراقيهم يخالف عملهم علمهم ، وتخالف سريرتهم علانيتهم يجلسون حلقاً يباهى بعضهم بعضا حتى أن الرجل ليغضب على جليسه أن يجلس إلى غيره ويدعه . أولئك لا تصعد أعمالهم فى مجالسهم تلك إلى الله تعالى :[٢] .

وقد صح عن الامام الشافعى رضى الله عنه أنه قال : وددت أن الخلق تعلموا هذا العلم ـ يعنى علمه وكتبه ـ أن لاَّ ينسب إلى حرف منه .

(فصــل)

وينبغى للمعلم أن يتخلق بالمحاسن ، التى ورد الشرع بها ، والخصال الحميدة والشيم المرضية ، التى أرشده الله إليها من الزهادة فى الدنيا والتقلل منها ، وعدم المبالاة بها وبأهلها والسخاء والجود ، ومكارم الاخلاق ، وطلاقة الوجه من غير خروج إلى حد الخلاعة ، والحلم والصبر والتنزه عن دنىء المكاسب ، وملازمة الورع والخشوع والسكينة والوقار والتواضع والخضوع ، واجتناب الضحك ، والإكثار من المزاح ، وملازمة الوظائف الشرعية كالتنظيف بازالة الأوساخ والشعور التى ورد الشرع بازالتها ، كقص الشارب ، وتقليم الظفر ، وتسريح اللحية ، وازالة الروائح الكريهة والملابس المكروهة ، وليحذر كل الحذر من الحسد والرياء والعجب واحتقار غيره ، وإن كان دونه ، وينبغى أن يستعمل الأحاديث الواردة فى التسبيح والتهليل ، ونحوهما من الأذكار والدعوات وأن يراقب الله تعالى فى سره وعلانيته ، ويحافظ على ذلك ، وأن يكون تعويله فى جميع أموره على الله تعالى .

---

(١) أخرجه : الترمذى فى جامعه الصحيح (أبواب العلم) باب فيمن يطلب بعلمه الدنيا ٤/١٤٠ ، ١٤١ رقم ٢٧٩٢ طبع دار الفكر قال الترمذى : هذا حديث غريب .

(٢) أخرجه فى سننه (كتاب العلم) باب التوبيخ لمن يطلب العلم لغير الله ١/٨٩ رقم ٣٨٨

(فصـــل)

وينبغى له أن يرفق بمن يقرأ عليه ، وأن يرحب به ويحسن إليه بحسب حاله ، فقد روينا عن أبى هارون . العبدى قال : كنا نأتى إلى سعيد فيقول : بوصية رسول الله ﷺ أن النبى - ﷺ - قال : « إن الناس لكم تبع ، وإن رجالا يأتونكم من أقطار الأرض يتفقهون فى الدين ، فإذا أتوكم فاستوصوا بهم خيراً » رواه الترمذى ، وابن ماجه ، وغيرهما[١] ، وروينا نحوه فى سند الدارسى عن أبى الدرداء رضى الله عنه .

(فصـــل)

وينبغى أن يبذل لهم النصيحة ، فإن رسول الله ﷺ قال : « الدين النصيحة لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم » رواه مسلم[٢] ومن النصيحة لله تعالى ولكتابه إكرام قارئه وطالبه ، وارشاده إلى مصلحته ، والرفق به ومساعدته على طلبه بما أمكن ، وتأليف قلب الطالب ، وأن يكون سمحاً بتعليمه فى رفق ، متلطفاً به ومحرضا له على التعلم ، وينبغى أن يذكره فضيلة ذلك ليكون سبباً فى نشاطه وزيادة فى رغبته ، ويزهده فى الدنيا ، ويصرفه عن الركون إليها ، والاغترار بها ، ويذكره فضيلة الاشتغال بالقرآن وسائر العلوم الشرعية ، وهو طريق العارفين وعباد الله الصالحين ، وأن ذلك رتبة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . وينبغى أن يشفق على الطالب ، ويعتنى بمصالحه كاعتنائه بمصالح ولده ومصالح نفسه ، ويجرى المتعلم مجرى ولده فى الشفقة عليه ، والصبر على جفائه وسوء أدبه ويعذره فى قلة أدبه فى بعض الأحيان ، فإن الإنسان معرض للنقائص ، لا سيما إن كان صغير السن . وينبغى أن يحب له ما يحب لنفسه من الخير ، وأن يكره ما يكره لنفسه من النقص مطلقاً ، فقد ثبت فى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »[٣] وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : أكرم الناس علىّ جليسى الذى يتخطى الناس حتى يجلس إلىَّ ، لو استطعت أن لا يقع الذباب على وجهه لفعلت ، وفى رواية : إن الذباب ليقع عليه فيؤذينى .

وينبغى أن لا يتعاظم على المتعلمين ، بل يلين لهم ويتواضع معهم فقد جاء فى التواضع لآحاد الناس أشياء كثيرة معروفة ، فكيف بهؤلاء الذين هم بمنزلة أولاده مع ما هم عليه من الاشتغال بالقرآن

---

(١) أخرجه الترمذى فى جامعه الصحيح (كتاب العلم) باب ما جاء فى الاستيصاء بمن يطلب العلم ١٣٨/٤ رقم ٢٧٨٨ طبع دار الفكر . وكذلك برقم ٢٧٨٩ بنحوه .

وقال الترمذى : وهذا حديث لا نعرفه الا من حديث أبى هارون العبدى عن أبى سعيد الخدرى - وأخرجه ابن ماجه فى سننه (المقدمة) باب الوصاة بطلبة العلم ٩١/١ رقم ٢٤٩

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (كتاب الايمان) باب أن الدين النصيحة ٧٤/١ رقم ٥٥/٩٥

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه (كتاب الايمان) ١٠/١ طبع الشعب . ومسلم فى صحيحه برقم ٧١ والترمذى بتحقيق الشيخ شاكر رقم ٢٥١٥ ، والنسائى ١١٥/٨ ، ١٢٥ والامام أحمد فى سنده ١٧٦/٣ ، ٢٧٦ ، ٢٧٨ وغيرهم .

ومع ماهم عليه من حق الصحبة وترددهم اليه ، وقد جاء عن النبى ﷺ أنه قال : « لينوا لمن تعلمون ولمن تتعلمون منه »(١) وعن أبى أيوب السختيانى رحمه الله ، قال ينبغى للعالم أن يضع التراب على رأسه تواضعاً لله عز وجل .

وينبغى أن يؤدب المتعلم على التدريج بالآداب السنية ، والشيم المرضية ، ورياضة نفسه بالدقائق الخفية ، ويعوده الصيانة فى جميع أموره الباطنة والجلية ، ويحرضه بأقواله وأفعاله ، المتكررات على الإخلاص والصدق وحسن النيات ، ومراقبة الله تعالى فى جميع اللحظات ، ويعرفه أن لذلك تنفتح عليه أنوار المعارف ، وينشرح صدره ، ويتفجر من قلبه ينابيع الحكم واللطائف ، ويبارك له فى علمه وحاله ويوفق فى أفعاله وأقواله .

(فصـــل)

تعليم المتعلمين فرض كفاية ، فان لم يكن من يصلح إلا واحد فعين ، وإن كان هناك جماعة يحصل التعليم ببعضهم سقط الحرج عن الباقين ، وإن طلب من أحدهم وامتنع فأظهر الوجهين أنه لا يأثم لكن يكره له ذلك إن لم يكن عذر .

(فصـــل)

يستحب للمعلم أن يكون حريص على تعليمهم مؤثراً ذلك على مصالح نفسه الدنيوية التى ليست بضرورية ، وأن يفرغ قلبه فى حال جلوسه لأقرائهم من الأسباب الشاغلة كلها ، وهى كثيرة معروفة ، وأن يكون حريصاً على تفهيمهم وأن يعطى كل إنسان منهم ما يليق به ، فلا يكثر على من لا يحتمل الاكثار ، ولا يقصر لمن يحتمل الزيادة ، ويأخذهم باعادة محفوظاتهم ، ويثنى على من ظهرت نجابته ما لم يخش عليه فتنة باعجاب أو غيره ، ومن قصر عنقه تعنيفاً لطيفاً ما لم يخش عليه تنفيره ، ولا يحسد أحداً منهم لبراعة تظهر منه ، ولا يستكثر فيه ما أنعم الله به عليه ، فإن الحسد للأجانب حرام شديد التحريم ، فكيف للمتعلم الذى هو بمنزلة الولد ويعود من فضيلته إلى معلمه فى الآخرة الثواب الجزيل ، وفى الدنيا الثناء الجميل ، والله الموفق .

(فصـــل)

ويقوم فى تعليمهم إذا ازدحموا الأول فالأول ، فإن رضى الأول بتقديم غيره قدمه . وينبغى أن يظهر لهم البشر وطلاقة الوجه ويتفقد أحوالهم ، ويسأل عمن غاب عنهم .

---

(١) أخرجه الخطيب البغدادى فى (الفقيه والمتفقة) ١١٣/٢ والتربيدى فى (إتحاف السادة المتقين : شرح احياء علوم الدين) ٢٧/٨ .

(فصـــل)

قال العلماء رضى الله عنهم : ولا يمتنع من تعليم أحد لكونه غير صحيح النية . فقد قال سفيان وغيره طلبهم للعلم نية . وقالوا : طلبنا العلم لغير الله فإبى أن يكون إلا الله ، معناه كانت غايته أن صار لله تعالى .

(فصـــل)

ومن آدابه المتأكدة وما يعتنى به أن يصون يديه فى حال الاقراء عن العبث وعينيه عن تفريق نظرهما من غير حاجة ويقعد على طهارة مستقبل القبلة ويجلس بوقار وتكون ثيابه بيضاء نظيفة ، وإذا وصل إلى موضع جلوسه صلى ركعتين قبل الجلوس ، سواء كان الموضع مسجداً أو غيره ، فان كان مسجداً كان أكد فإنه يكره الجلوس فيه قبل أن يصلى ركعتين ، ويجلس متربعا إن شاء أو غير متربع ، روى أبو بكر بن أبى داود السجستانى باسناده عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه كان يقرىء الناس فى المسجد جاثيا على ركبتيه .

(فصـــل)

ومن آدابه المتأكدة وما يعتنى بحفظه أن لا يذل العلم فيذهب إلى مكان ينسب إلى من يتعلم منه ليتعلم منه فيه وأن كان المتعلم خليفة فمن دونه بل يصون العلم عن ذلك كما صانه عنه السلف رضى الله عنهم ، وحكاياتهم فى هذا كثيرة مشهورة .

(فصـــل)

وينبغى أن يكون مجلسه واسعاً ليتمكن جلساؤه فيه ، ففى الحديث عن النبى ﷺ : « خير المجالس أوسعها » . رواه أبو داود فى سننه فى أوائل كتاب الآداب بإسناد صحيح من رواية أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه[1] .

فصـــل

فى آداب المتعلم . جميع ما ذكرناه من آداب المعلم فى نفسه آداب للمتعلم ، ومن آدابه أن يجتنب الأسباب الشاغلة عن التحصيل الا سبباً لابد منه للحاجة ، وينبغى أن يطهر قلبه من الأدناس ليصلح الأدناس لقبول القرآن وحفظه واستثماره ، فقد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال : «ألا إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب »[2] ، وقد أحسن القائل

(١) أخرجه أبو داود فى سننه (كتاب الأدب) باب فى سنة المجلس ٥/١٦٢ رقم ٤٨٢٠

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه ١/٢٠ ومسلم فى المساقاة ٣/١٢١٩ ، ١٢٢٠ رقم ١٥٩٩/١٠٧ وهو جزء حديث طويل عن النعمان بن بشير ، أوله : « إن الحلال بين ، وإن الحرام بين » الحديث .

بقوله : يطيب القلب للعلم كما تطيب الأرض للزراعة ، وينبغى أن يتواضع لمعلمه ويتأدب معه وان كان أصغر منه سناً وأقل شهرة ونسباً وصلاحاً وغير ذلك ويتواضع للعلم فبتواضعه يدركه وقد قالوا نظماً .

العلم حرب للفتى المتعالى . كالسيل حرب للمكان العالى . وينبغى أن ينقاد لمعلمه ويشاوره فى أموره ويقبل قوله كالمريض العاقل يقبل قول الطبيب الناصح الحاذق وهذا أولى .

فصل

ولا يتعلم الا ممن تكملت أهليته ، وظهرت ديانته ، وتحققت معرفته ، واشتهرت صيانته ، فقد قال محمد بن سيرين ومالك بن أنس وغيرهما من السلف : هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم ، وعليه أن ينظر معلمه بعين الاحترام ويعتقد كمال أهليته ورجحانه على طبقته فإنه أقرب إلى انتفاعه به ، وكان بعض المتقدمين إذا ذهب إلى معلمه تصدق بشىء وقال : اللهم استر عيب معلمى عنى ولا تذهب بركة علمه منى . وقال الربيع صاحب الشافعى رحمهما الله : ما أجترأت أن أشرب الماء والشافعى ينظر إلىَّ هيبة له ، وروينا عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : من حق المعلم عليك أن تسلم على الناس عامة وتخصه دونهم بتحية ، ولا تقولن قال فلان خلاف ما تقول ، ولا تغتابن عنده أحداً ، ولا تشاور جليسك فى مجلسه ، ولا تأخذ بثوبه إذا قام ، ولا تلح عليه إذا كسل ، ولا تعرض أى تشبع من طول صحبته ، وينبغى أن يتأدب بهذه الخصال التى أرشد اليها علىٌّ كرم الله وجهه وأن يرد غيبة شيخه إن قدر . فإن تعذر عليه ردها فارق ذلك المجلس .

فصل

ويدخل على الشيخ كامل الخصال متصفاً بما ذكرناه فى العلم متطهراً مستعملا للسواك فارغ القلب من الأمور الشاغلة وأن لا يدخل بغير استئذان إذا كان الشيخ فى مكان يحتاج فيه إلى استئذان ، وأن يسلم على الحاضرين إذا دخل ويخصه دونهم بالتحية ، وأن يسلم عليه وعليهم إذا أنصرف كما جاء فى الحديث ، فليست الأولى أحق من الثانية ، ولا يتخطى رقاب الناس بل يجلس حيث ينتهى به المجلس إلا أن يأذن له الشيخ فى التقدم أو يعلم من حالهم إيثار ذلك ، ولا يقيم أحداً من موضعه . فإن آثره غيره لم يقبل اقتداء بابن عمر رضى الله عنهما إلا أن يكون فى تقديمه مصلحة للحاضرين أو أمره الشيخ بذلك ، ولا يجلس فى وسط الحلقة إلا لضرورة ولا يجلس بين صاحبين بغير أذنهما ، وإن فسحا له قعد وضم نفسه .

فصل

وينبغى أيضا أن يتأدب مع رفقته وحاضرى مجلس الشيخ فإن ذلك تأدب مع الشيخ وصيانة لمجلسه ، ويقعد بين يدى الشيخ قعدة المتعلمين لا قعدة المعلمين ولا يرفع صوته رفعاً بليغاً من غير

حاجة ، ولا يضحك ، ولا يكثر الكلام من غير حاجة ، ولا يعبث بيده ولا بغيرها ، ولا يلتفت يميناً ولا شمالاً من غير حاجة بل يكون متوجها إلى الشيخ مصغياً إلى كلامه .

(فصــل)

ومما يتأكد الاعتناء به أن لايقرأ على الشيخ حال شغل قلب الشيخ ومله واستيفازه وروعه وغمه وفرحه وعطشه ونعاسه وقلقه نحو ذلك بما يشق عليه أن يمنعه من كمال حضور القلب والنشاط ، وإن يغتنم أوقات نشاطه ، ومن آدابه أن يتحمل جفوة الشيخ وسوء خلقه ولا يصده ذلك عن ملازمته واعتقاد كماله ، ويتأول لأفعاله وأقواله التى ظاهرها الفساد تأويلات صحيحة فما يعجز عن ذلك إلا قليل التوفيق وعديمه ، وإن جفاه الشيخ ابتدأ هو بالاعتذار إلى الشيخ وأظهر له الذيف له والعتب عليه فذلك أنفع له فى الدنيا والآخرة وأنقى لقلب الشيخ ، وقد قالوا : من لم يصبر على ذل التعليم ، بقى عمره فى عماية الجهالة ، ومن صبر عليه آل أمره إلى عز الآخرة والدنيا ، ومنه الأثر المشهور عن ابن عباس رضى الله عنهما : ذللت طالبا فعززت مطلوباً .

وقد أحسن من قال :

من لم يذق طعم المذلة ساعة   قطع الزمان بأسره مذلولاً

فصــل

ومن آدابه المتأكدة أن يكون حريصاً على التعلم مواظباً عليه فى جميع الأوقات التى يتمكن منه فيها ولا يقنع بالقليل مع تمكنه من الكثير ، ولا يحمل نفسه ما لايطيق مخافة الملل وضياع ما حصل . وهذا يختلف باختلاف الناس والأحوال ، وإذا جاء إلى مجلس الشيخ فلم يجده انتظر ولازم بابه ، ولا يفوت وظيفته إلا أن يخاف كراهة الشيخ لذلك بإن يعلم من حاله الاقراء فى وقت بعينه ، وأنه لا يقرىء فى غيره ، وإذا وجد الشيخ نائماً أو مشتغلاً بمهم لم يستأذن عليه بل يصبر إلى استيقاظه أو فراغه أو ينصرف ، والصبر أولى كما كان ابن عباس رضى الله عنهما وغيره يفعلون ، وينبغى أنّ يأخذ نفسه بالاجتهاد فى التحصيل فى وقت الفراغ والنشاط وقوة اليدين ونباهة الخاطر وقلة الشاغلات قبل عوارض البطالة وارتفاع المنزلة ، فقد قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه : تفقهوا قبل أن تسودوا : معناه اجتهدوا فى كمال أهليتكم وأنتم أتباع قبل أن تصيروا سادة ، فإنكم إذا صرتم سادة متبوعين امتنعتم من التعلم لارتفاع منزلتكم وكثرة شغلكم وهذا معنى قول الشافعى رضى الله عنه : تفقه قبل أن ترأس فإذا رأست فلا سبيل إلى التفقه .

فصــل

وينبغى أن يبكر بقراءته على الشيخ أول النهار لحديث النبى ﷺ « اللهم بارك لأمتى فى بكورها »[1] وينبغى أن يحافظ على قراءة محفوظه وينبغى أن لا يؤثر بنوبته غيره فإن الإيثار مكروه فى القرب بخلاف الإيثار بحظوظ النفس فإنه محبوب . فإن رأى الشيخ المصلحة فى الإيثار فى بعض الأوقات لمعنى شرعى فأشار عليه بذلك امتثل أمره ، ومما يجب عليه ويتأكد الوصية به أن لا يحسد أحداً من رفقته أو غيرهم على فضيلة رزقه الله إياها ، وإن لا يعجب بنفسه بما خصه الله ، وقد قدمنا ايضاح هذا فى آداب الشيخ ، وطريقه فى نفى العجب أن يذكر نفسه أنه لم يحصل ما حصله بحوله وقوته ، وإنما هو فضل من الله ؟ ولا ينبغى أن يعجب بشىء لم يخترعه بل أودعه الله تعالى فيه ، وطريقه فى نفى الحسد أن يعلم أن حكمة الله تعالى اقتضت جعل هذه الفضيلة فى هذا ، فينبغى أن لا يعترض عليها ولا يكره حكمة أرادها الله تعالى ولم يكرها .

الباب الخامس
فى آداب حامل القرآن

قد تقدم جمل منه فى الباب الذى قبل هذا ، ومن آدابه أن يكون على أكمل الأحوال وأكرم الشمائل ، وأن يرفع نفسه عن كل ما نهى القرآن عنه اجلالا للقرآن ، وأن يكون مصوناً عن دنىء الاكتساب شريف النفس مرتفعا على الجبابرة والجفاة عن أهل الدنيا ، متواضعا للصالحين وأهل الخير والمساكين ، وأن يكون متخشعاً ذا سكينة ووقار ، فقد جاء عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، أنه قال : « يا معشر القراء ارفعوا رؤوسكم فقد وضح لكم الطريق فاستبقوا الخيرات ولا تكونوا عيالا على الناس ، وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : ينبغى لحامل القرآن أن يعرف بليله إذا الناس نائمون ، وبنهاره إذا الناس منطرون ، وبحزنه إذا الناس يفرحون ، وببكائه إذا الناس يضحكون ، وبصمته إذا الناس يخوضون ، وبخشوعه إذا الناس يختالون . وعن الحسن بن على رضى الله عنه قال : إن من كان قبلكم رأوا القرآن وسائل ربهم فكانوا يتدربونها بالليل ويتفقدونها فى النهار . وعن الفضيل بن عياض قال : ينبغى لحامل القرآن أن لا تكون له حاجة إلى أحد من الخلفاء فمن دونهم ، وعنه أيضا قال حامل القرآن حامل راية الاسلام لا ينبغى أن يلهو مع من يلهو ، ولا يسهو مع من يسهو ، ولا يلغو مع من يلغو تعظيما لحق القرآن .

---

(١) أخرجه الترمذى فى جامعه الصحيح (أبواب البيوع) باب ماجاء فى التبكير بالتجارة ، من رواية صخر الغامدى ٢/٣٤٣ رقم ١٢٣٠ طبع دار الفكر

وقال الترمذى : حديث صخر الغامدى حديث حسن .

وأبوداود برقم ٢٦٠٦ وابن ماجه ٢٢٣٦ ، ٢٢٣٧ ، ٢٢٣٨ وأحمد ٣/٤١٦ ، ٤١٧ وغيرهم .

(فصــل)

ومن أهم ما يؤثر به أن يحذر كل الحذر من اتخاذ القرآن معيشته ليكتسب بها ، فقد جاء عن عبد الرحمن بن شبيل رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « اقرأوا القرآن ولا تأكلوا به ولا تجفوا عنه ، ولا تغلوا فيه »[١] .

وعن جابر رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : اقرؤ وا القرآن من قبل أن يأتى قوم يقيمونه اقامة لقدح يتعجلونه ولا يتأجلونه »[٢] رواه بمعناه من رواية سهل بن سعد : معناه يتعجلون أجره إما بمال وإما سمعة ونحوها ، وعن فضيل بن عمرو رضى الله عنه قال : دخل رجلان من أصحاب رسول الله ﷺ مسجداً فلما سلم الامام قام رجل فتلا آيات من القرآن ثم سأل فقال أحدهما : إنا لله وإنا اليه راجعون سمعت رسول الله ﷺ يقول : « سيجىء قوم يسألون بالقرآن فمن سأل بالقرآن فلا تعطوه »[٣] وهذا الاسناد منقطع ، فإن الفضيل بن عمرو لم يسمع الصحابة .

وأما أخذه الأجرة على تعليم القرآن فقد اختلف العلماء فيه ، فحكى الامام أبو سليمان الخطابى منع أخذ الأجرة عليه من جماعة من العلماء منهم الزهرى وأبو حنيفة ، وعن جماعة أنه يجوز إن لم يشترطه ، وهو قول الحسن البصرى والشعبى وابن سيرين ، وذهب عطاء ومالك والشافعى وآخرون إلى جوازها إن شارطه واستأجره إجارة صحيحة ، وقد جاء بالجواز الأحاديث الصحيحة ، وأحتج من منعها بحديث عبادة ابن الصامت « انه علم رجلا من أهل الصفة قرأ القرآن فأهدى له قوساً . فقال النبى ﷺ : « إن سرك أن تطوق بها طوقاً من نار فأقبلها »[٤] وهو حديث مشهور رواه أبو داود وغيره وبآثار كثيرة من السلف .

وأجاب المجوزون عن حديث عبادة بجوابين : أحدهما أن فى اسناده مقالا . والثانى أنه كان تبرع بتعليمه فلم يستحق شيئا . ثم أهدى اليه على سبيل العوض فلم يجز له الأخذ بخلاف من يعقد معه اجارة قبل التعليم والله اعلم .

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (زيادة فى حديث عبد الرحمن بن شبل رضى الله عنه) ٤٢٨/٣ ـ وأنظر مجمع الزوائد ١٦٧/٧ وقال الهيثمى : رواه احمد والبزار بنحوه ، ورجال أحمد ثقات وزادا : « ولا تستأثروا به » .

(٢) أخرجه البغوى فى شرح السنة (باب ما يجزه الأمى والعجمى من القراءة) ٨٨/٣ رقم ٦٠٩
وقال محققه : اسناده حسن ، وهو فى سنن أبى داود برقم ٨٣٠ فى الصلاة ، وله شاهد من رواية سهل بن سعد الشاعدى .

(٣) أخرجه الامام أحمد فى مسنده (مسند عمران بن حصين رضى الله عنه) ٤٣٢/٤ ، ٤٣٩ بنحوه .

(٤) أخرجه ابن ماجه فى سننه (كتاب التجارات) باب الأجر على تعليم القرآن ٧٣٠/٢ رقم ٢١٥٧ قال السيوطى : الأولى أن يدعى أن الحديث منسوخ بحديث الرقية الذى فعله وحديث : « إن أحق ما أخذتم عليه أجرا كتاب الله » وأيضا فى سنده الأسود بن ثعلبة وهو لا نعرفه . قال ابن المدينى كما فى الميزان للذهبى .
وأخرجه أحمد فى مسنده ٣١٥/٥

فصــل

ينبغي أن يحافظ على تلاوته ويكثر منها ، وكان السلف رضى الله عنهم لهم عادات مختلفة فى قدر ما يختمون فيه ، فروى ابن أبي داود عن بعض السلف رضى الله عنهم أنهم كانوا يختمون فى كل شهرين ختمة واحدة ، وعن بعضهم فى كل شهر ختمة ، وعن بعضهم فى كل عشر ليال ختمة ، وعن بعضهم فى كل ثمان ليال ، وعن الأكثرين فى كل سبع ليال ، وعن بعضهم فى كل ست ، وعن بعضهم فى كل خمس ، وعن بعضهم فى كل أربع ، وعن كثيرين فى كل ثلاث ، وعن بعضهم فى كل ليلتين ، وختم بعضهم فى كل يوم وليلة ختمة ، ومنهم من كان يختم فى كل يوم وليلة ختمتين ، ومنهم من كان يختم ثلاثاً ، وختم بعضهم ثمان ختمات أربعا باالليل وأربعاً بالنهار ، فمن الذين كانوا يختمون ختمة فى الليل واليوم عثمان بن عفان رضى الله عنه وتميم الدارى وسعيد بن جبير ومجاهد والشافعى وآخرون . ومن الذين كانوا يختمون ثلاث ختمات سليم بن عمر رضى الله عنه وقاضى مصر فى خلافة معاوية رضى الله عنه . وروى أبوبكر بن أبي داود أنه كان يختم فى الليلة أربع ختمات ... وروى أبو داود وباسناده الصحيح أن مجاهداً كان يختم القرآن من المغرب والعشاء وأما الذى يختم فى ركعة فلا يحصون لكثرتهم فمن المتقدمين عثمان بن عفان وتميم الدارى وسعيد بن جبير رضى الله عنهم ختمه فى كل ركعة فى الكعبة

وأما الذين ختموا فى الأسبوع مرة فكثيرون نقل عن عثمان بن عفان رضى الله عنه ، وعبد الله بن مسعود ، وزيد بن ثابت ، وأبى بن كعب رضى الله عنهم ، وعن جماعة من النابعين كعبد الرحمن بن يزيد وعلقمة وابراهيم رحمهم الله ، والاختيار أن ذلك يختلف باختلاف الأشخاص ، من كان يظهر له بدقيق الفكر لطائف ومعارف فليقتصر على قدر ما يحصل له كمال فهم ما يقرؤه ، وكذا من كان مشغولا بنشر العلم أوغيره من مهمات الدين ومصالح المسلمين العامة ، فليقتصر على قدر لا يحصل بسببه اخلال بما هو مرصد له وإن لم يكن من هؤلاء المذكورين ، فليستكثر ما أمكنه من غير خروج إلى حد الملل والهذرمة ، وقد كره جماعة من المتقدمين الختم فى يوم وليله ، ويدل عليه الحديث الصحيح عن عبد الله بن عمرو بن العاصى رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « لا يفقه من قرأ القرآن فى أقل من ثلاث » رواه أبو داود والترمذى والنسائى وغيرهم . قال الترمذى حديث حسن صحيح والله أعلم [1] .

وأما وقت الابتداء والختم لمن يختم فى الأسبوع ، فقد روى أبو داود أن عثمان بن عفان رضى الله عنه كان يفتتح القرآن ليلة الجمعة ويختمه ليلة الخميس . وقال الإمام أبو حامد الغزالى رحمه الله تعالى فى الإحياء : الأفضل أن يختم ختمة بالليل وأخرى بالنهار ، ويجعل ختمة النهار يوم الأثنين فى ركعتى الفجر أو بعدهما ، ويجعل ختمة الليل ليلة الجمعة فى ركعتى المغرب أو بعدهما ليستقبل أول النهار وآخره .

---

(١) أخرجه أبو داود فى سننه (كتاب الصلاة) باب تحزيب القرآن ١١٧/٢ رقم ١٣٩٤ وأخرجه الترمذى فى (أبواب القراءات) ضمن الحديث رقم ٤٠١٦ وابن ماجه رقم ١٣٤٧

وروى ابن أبى داود عن عمر بن مرة التابعى : قال : كانوا يحبون أن يختم القرآن من أول الليل أو من أول النهار ، وعن طلحة بن مصرف التابعى الجليل . قال : من ختم القرآن أية ساعة كانت من النهار صلت عليه الملائكة حتى يمسى واية ساعة كانت من الليل صلت عليه الملائكة حتى يصبح وعن مجاهد مثله .

فصل : فى المحافظة على القراءة بالليل

ينبغى أن يكون اعتناؤه بقراءة القرآن فى الليل أكثر ، قال الله تعالى : ﴿ **من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون ، يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون فى الخيرات وأولئك من الصالحين** ﴾[١] وثبت فى الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « نعم عبد الله لو كان يصلى من الليل »[٢] وفى الحديث الآخر من الصحيح أنه ﷺ قال : « يا عبد الله لا تكن مثل فلان كان يقوم الليل ثم تركه »[٣] .

وروى القطاعى وغيره عن سهل بن سعد رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : « شرف المؤمن قيام الليل »[٤] .

والأحاديث والآثار فى هذا كثيرة ، وقد جاء عن أبى الأحوص الحبشى قال : إن كان الرجل ليطرق الفسطاط طروقاً : أى يأتيه ليلا فسمع لأهله دويا كدوى النحل ، قال فما بال هؤلاء يأمنون ما كان أولئك يخافون ؟

وعن ابراهيم النخعى كان يقول : اقرأوا من الليل ولو حلب شاة . وعن يزيد الرقاشى قال : إذا أنا نمت ، ثم استيقظت ثم نمت فلا نامت عيناى . قلت : وإنما رجحت صلاة الليل وقراءته لكونها أجمع للقلب ، وأبعد عن الشاغلات والملهيات والتصرف و الحاجات ، وأصون من الرياء وغيره من المحبطات مع ما جاء الشرع به من ايجاد الخيرات فى الليل . فإن الاسراء برسول الله ﷺ كان ليلا ، وحديث « ينزل ربكم كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يمضى شطر الليل فيقول : هل من داع فأستجيب له » الحديث[٥] .

وفى الحديث أن رسول الله ﷺ قال : « فى الليل ساعة يستجيب الله فيها الدعاء كل ليلة »[٦] .

---

(١) آل عمران الآيتان : ١١٣ ، ١١٤

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (فضل قيام الليل) ٢/٦١ طبع الشعب بلفظ : « نعم الرجل عبد الله لو كان يصل من الليل » فكان بعد لا ينام من الليل الا قليلا .

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه (فضل باب ما يكره من ترك قيام الليل لمن كان يقومه) ٦٨/١

(٤) أخرجه القضاعى فى مسند الشهاب برقم ١٥١ عن سهل بن سعد ١٢١/١

(٥) أخرجه البخارى فى صحيحه (كتاب الجنة) باب الدعاء ٦٦/٢ بنحوه .

ومسلم فى صحيحه (كتاب صلاة المسافرين وقصرها) ٥٢١/١ رقم ٧٥٨/١٦٨ وأبو داود برقم ١٣١٥

(٦) أخرجه الشجرى فى أماليه ٢٠٨/١

وروى صاحب بهجة الأسراء باسناده عن سليمان الأنماطى قال رأيت علىَّ بن أبى طالب رضى الله عنه فى المنام يقول :

لولا الذين لهم ورد يقومونا وآخرون لهم سرد يصومونا
لدكدكت أرضكم من تحتكم سحراً لأنكم قوم سوء لا تطيعونا

وأعلم أن فضيلة القيام بالليل : والقراءة فيه تحصل بالقليل والكثير ، وكلما كثر كان أفضل ، إلا أن يستوعب الليل كله فإنه يكره الدوام عليه والا أن يضر بنفسه ، ومما يدل على حصوله بالقليل حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين ، ومن قام بمائة آية كتب من القانتين ، ومن قام بألف آية كتب من المقنطرين » رواه أبو داود وغيره[1] وحكى الثعلبى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « من صلى بالليل ركعتين فقد بات لله ساجداً وقائماً » .

فصل : فى الأمر بتعهد القرآن والتحذير من تعريضه للنسيان

ثبت عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « تعاهدوا هذا القرآن ، فوالذى نفسى بيده لهو أشد تفلتا من الإبل فى عقلها »[2] رواه البخارى ومسلم .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « إنما مثل صاحب القرآن كمثل الابل المعقَّلَة إن عاهد عليها أمسكها وان أطلقها ذهبت »[3] رواه مسلم والبخارى .

وعن سعد بن عبادة عن النبى ﷺ قال : « ما من امرىء يقرأ القرآن ثم ينساه إلا لقى الله عز وجل يوم القيامة أجزم » رواه أبو داود[4] .

فصل : فيمن نام عن ورده

عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « من نام عن حزبه من الليل أو عن شىء منه فقرأه ما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر كتب له كأنه قرأه من الليل » رواه مسلم[5] .

---

(١) أخرجه أبو داود فى كتاب الصلاة ـ باب ـ تحريب القرآن ص ١١٨ برقم ١٣٩٨
(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه ٦/٢٣٨ ومسلم فى صحيحه كتاب صلاة المسافرين وقصرها جـ١ ص ٥٤٥ برقم ٧٩١/٢٣١
(٣) أخرجه مسلم فى كتاب صلاة المسافرين وقصرها جـ١ ص ٥٤٣ برقم ٧٨٩/٢٢٦
(٤) أخرجه أبو داود فى كتاب الصلاة جـ٢ ص ١٥٨ برقم ١٤٧٤ قال المنذرى : فى اسناده يزيد بن أبى زياد ولا يحتج بحديثه .
(٥) أخرجه مسلم فى كتاب صلاة المسافرين وقصرها جـ١ ص ٥١٥ برقم ٧٤٧/١٤٢

وعن سليمان بن يسار قال : قال أبو أسيد رضى الله عنه ، نمت البارحة عن وردى حتى أصبحت ، فلما أصبحت استرجعت وكان وردى سورة البقرة فرأيت فى المنام كأن بقرة تنطحنى رواه ابن أبى داود .

وروى ابن أبى الدنيا عن بعض حفاظ القرآن : انه نام ليلة عن حزبة فأرى فى منامه كأن قائلاً يقول له :

عجبت من جسم ومن صحة ومن فتى نام إلى الفجر
والموت لا يؤمن خطفاته فى ظلم الليل إذا يسري

الباب السادس
فى آداب القرآن

هذا الباب هو مقصود الكتاب وهو منتشر جداً ، وأنا أسير إلى أطراف من مقاصده كراهة الإطالة وخوفاً على قارئه من الملالة ، فأول ذلك يجب على القارىء الإخلاص كما قدمناه ومراعاة الأدب مع القرآن ، فينبغى أن يستحضر فى نفسه أنه يناجى الله تعالى ويقرأ على حال من يرى الله تعالى ، فإنه إن لم يكن يراه فإن الله تعالى يراه .

(فصل)

وينبغى إذا أراد القراءة أن ينظف فاه بالسواك وغيره ، والاختيار فى السواك أن يكون بعود من أراك ، ويجوز بسائر العيدان وبكل ما ينظف كالخرقة الخشنة والأشنان وغير ذلك ، وفى حصوله بالأصبع الخشنة ثلاثة أوجه لأصحاب الشافعى رحمهم الله تعالى : أشهرها أنه لا يحصل ، والثانى يحصل إن لم يجد غيرها ، ولا يحصل إن وجد ، ويستاك عرضاً مبتدئا بالجانب الأيمن من فمه وينوى به الإتيان بالسنة قال بعض العلماء : يقول عند الاستياك ، اللهم بارك لى فيه يا أرحم الراحمين . قال الماوردى من أصحاب الشافعى ويستحب أن يستاك فى ظاهر الأسنان وباطنها ، ويمر السواك على أطراف أسنانه وكراسى أضراسه وسقف حلقه امراراً رفيقاً . قالوا وينبغى أن يستاك بعود متوسط لا شديد اليبوسة ولا شديد الرطوبة . قال فإن اشتد يبسه لينه بالماء ، ولا بأس باستعمال سواك غيره بإذنه ، وأما إذا كان فمه نجسا بدم أو غيره فإنه يكره له قراءة القرآن قبل غسله ، وهل يحرم ؟

قال الرويانى من أصحاب الشافعى عن والده يحتمل وجهين والأصح لا يحرم .

(فصل)

يستحب أن يقرأ وهو على طهارة فإن قرأ محدثا جاز باجماع المسلمين ، والأحاديث فيه كثيرة معروفة .

قال امام الحرمين : ولا يقال ارتكب مكروها بل هو تارك للأفضل ، فإن لم يجد الماء تيمم ، والمستحاضة فى الزمن المحكوم بأنه طهر حكمها حكم المحدث ، وأما الجنب والحائض فإنه يحرم عليها قراءة القرآن ، سواء كان آية أو أقل منها ، ويجوز لهما اجراء القرآن على قلبهما من غير تلفظ به ، ويجوز لهما النظر فى المصحف وامراره على القلب ، وأجمع المسلمون على جواز التسبيح والتهليل والتحميد والتكبير والصلاة على النبى ﷺ وغير ذلك من الأذكار للجنب والحائض . قال أصحابنا : وكذا إن قالا لإنسان خذ الكتاب بقوة ، وقصدا به غير القرآن فهو جائز ، وكذا ما أشبهه ، ويجوز لهما أن يقولا عند المصيبة : إنا لله وإنا إليه راجعون ، إذا لم يقصداً القرآن . قال أصحابنا الخراسانيون : ويجوز أن يقولا عند ركوب الدابة : سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ، وعند الدعاء : ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ، إذا لم يقصد القرآن قال إمام الحرمين : فإذا قال الجنب بسم الله والحمد لله فإن قصد القرآن عصى ، وإن قصد الذكر أم لم يقصد شيئا لم يأثم ، ويجوز لهما قراءة ما نسخت تلاوته : كالشيخ والشيخة إذا زينا فارجموهما البتة .

(فصـــل)

إذا لم يجد الجنب أو الحائض ماء تيمم ، ويباح له القراءة والصلاة وغيرهما ، فإن أحدث حرمت عليه الصلاة ولم تحرم القراءة والجلوس فى المسجد وغيرهما مما لا يحرم على المحدث كما لو اغتسل ثم أحدث ، وهذا مما يسأل عنه ويستغرب . فيقال : جنب يمنع من الصلاة ولا يمنع من قراءة القرآن والجلوس فى المسجد من غير ضرورة كيف صورته ؟ فهذا صورته ، ثم الأقرب لا فرق مما ذكرناه بين تيمم الجنب فى الحضر والسفر . وذكر بعض أصحاب الشافعى أنه إذا تيمم فى الحضر استباح الصلاة ، ويقرأ بعدها ، ولا يجلس فى المسجد ، والصحيح جواز ذلك كما قدمناه ، ولو تيمم ثم صلى وقرأ ثم رأى ماء يلزمه استعماله ، فإنه يحرم عليه القراءة وجميع ما يحرم على الجنب حتى يغتسل ، ولو تيمم وصلى وقرأ ثم أراد التيمم لحدث أو لفريضة أخرى أو لغير ذلك ، فإنه لا يحرم عليه القراءة على المذهب الصحيح المختار ، وفى وجه لبعض أصحاب الشافعى أنه لا يجوز والمعروف الأول ، أما إذا لم يجد الجنب ماء ولا ترابا فإنه لا يصلى لحرمة الوقت على حسب حاله ، ويحرم عليه القراءة خارج الصلاة ، ويحرم عليه أن يقرأ فى الصلاة مازاد على فاتحة الكتاب ، ويحرم عليه قراءة الفاتحة ؟ فيه وجهان : الصحيح المختار أنه لا يحرم بل يجب فإن الصلاة لا تصح إلا بها ، وكلما جازت الصلاة لضرورة مع الجنابة يجوز القراءة . والثانى لا يجوز ، بل يأتى بالأذكار التى يأتى بها العاجز الذى لا يحفظ شيئا من القرآن لأن هذا عاجز شرعاً فصار كالعاجز حساً ، والصواب الأول ، وهذه الفروع التى ذكرناها يحتاج اليها فلهذا أشرت اليها بأوجز العبارات ، وإلا فلها أدلة وتتمات كثيرة معروفة فى كتب الفقه ، والله أعلم .

(فصــل)

ويستحب أن تكون القراءة فى مكان نظيف مختار ، ولهذا استحب جماعة من العلماء القراءة فى المسجد ، لكونه جامعاً للنظافة وشرف البقعة ومحصلاً لفضيلة أخرى وهى الاعتكاف ، فإنه ينبغى لكل جالس فى المسجد الاعتكاف سواء أكثر فى جلوسه أو أقل ، بل ينبغى أول دخوله المسجد أن ينوى الاعتكاف ، وهذا الأدب فينبغى أن يعتنى به ويشاع ذكره ويعرفه الصغار والعوام ، فإنه مما يغفل عنه .

وأما القراءة فى الحمام ، فقد اختلف السلف فى كراهيتها : فقال أصحابنا : لا يكره ، ونقله الامام المجمع على جلالته أبو بكر بن المنذر فى الاشراف عن ابراهيم النخعى ومالك . وهو قول عطاء ، وذهب إلى كراهته جماعات منهم على بن أبى طالب رضى الله عنه ، رواه عنه ابن أبى داود ، وحكى ابن المنذر عن جماعة من التابعين منهم أبو وائل شقيق بن سلمه والشعبى والحسن البصرى ومكحول ورويناه أيضا عن ابراهيم النخعى ، وحكاه أصحابنا عن أبى حنيفة رضى الله عنهم أجمعين قال الشعبى : تكره القراءة فى ثلاثة مواضع : فى الحمامات ، والحشوش ، وبيوت الرحى وهى تدور وعن أبى ميسره قال : لا يذكر الله الا فى مكان طيب ، وأما القراءة فى الطريق ، فالمختار أنها جائزة غير مكروهة إذا لم يتلهّ صاحبها ، فإن التهى عنها كرهت ، كما كره النبى ﷺ القراءة للناس مخافة من الخلط .

وروى عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله أنه أذن فيها .

قال ابن أبى داود : حدثنى أبو الربيع قال : أخبرنا ابن وهب قال : سألت مالكا عن الرجل يصلى من آخر الليل فيخرج إلى المسجد وقد بقى من السورة التى كان يقرأ فيها شىء ، قال ما أعلم القراءة تكون فى الطريق ، وكره ذلك ، وهذا إسناد صحيح عن مالك رحمه الله .

(فصــل)

يستحب للقارىء فى غير الصلاة أن يستقبل القبلة ، فقد جاء فى الحديث « خير المجالس ما استقبل به القبلة »[١] ويجلس متخشعاً بسكينة ووقار ، مطرقاً رأسه ويكون جلوسه وحده فى تحسين أدبه وخضوعه كجلوسه بين يدى معلمه فهذا هو الأكمل ، ولو قرأ قائماً ، أو مضطجعا ، أو فى فراشه ، أو على غير ذلك من الأحوال جاز ، وله أجر ، ولكن دون الأول . قال الله عز وجل : ﴿ **إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ، الذين يذكرون الله قياما وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض** ﴾[٢] ، وثبت فى الصحيحين عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : « كان رسول الله ﷺ يتكىء فى حجرى وأنا حائض ويقرأ القرآن »[٣] رواه مسلم وأحمد .

---

(١) أخرجه أبو نعيم فى تاريخ أصبهان ٢١٧/١ وأنظر اتحاف السادة المتقين جـ ٤ ص ٣٧١

(٢) آل عمران الآيتان : ١٩٠ ، ١٩١

(٣) أخرجه أحمد ٨٢/١ ، ١٩٧/٦ ومسلم كتاب الحيض ٣٠٢/١٥ جـ ١ ص ٢٤٦

وعن أبي موسى الأشعرى رضى الله عنه قال : إنى أقرأ القرآن فى صلاتى وأقرأ على فراشى ، وعن عائشة رضى الله عنها : قالت : إنى لأقرأ حزبى وأنا مضجعة على السرير .

(فصـل)

فإن أراد الشروع فى القراءة استعاذ فقال : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، هكذا قال جمهور من العلماء .

وقال بعض العلماء : يتعوذ بعد القراءة ، لقوله تعالى : ﴿ **فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم** ﴾ ، وتقدير الآية عند الجمهور : إذا أردت القراءة فاستعذ ، ثم صيغة التعوذ كما ذكرناه ، وكان جماعة من السلف يقولون أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، ولا بأس بهذا ، ولكن الاختيار هو الأول ، ثم أن التعوذ مستحب وليس بواجب وهو مستحب لكل قارىء ، سواء كان فى الصلاة أو فى غيرها ، ويستحب فى الصلاة فى كل ركعة على الصحيح من الوجهين عند أصحابنا ، وعلى الوجه الثانى إنما يستحب فى الركعة الأولى فإن تركه فى الأولى أتى به فى الثانية ، ويستحب التعوذ فى التكبيرة الأولى فى صلاة الجنازة على أصح الوجهين قال : وينبغى أن يحافظ على قراءة بسم الله الرحمن الرحيم فى أول كل سورة سوى براءة ، فإن أكثر العلماء قالوا إنها آية ، حيث تكتب فى المصحف وقد كتبت فى أوائل السور سوى براءة فإذا قرأها كان متيقناً قراءة الختمة أو السورة ، فإذا أخل بالبسملة كان تاركاً لبعض القرآن عند الأكثرين ، فاذا كانت القراءة فى وظيفة عليها جعل كالأسباع والأجزاء التى عليها أوقاف وأرزاق كان الاعتناء بالبسملة أكثر لتيقن قراءة الختمة ، فإنه إذا تركها لم يستحق شيئاً من الوقف عند من يقول البسملة آية من أول السورة ، وهذه دقيقة نفيسة يتأكد الاعتناء بها واشاعتها .

(فصـل)

فإذا شرع فى القراءة ، فليكن شأنه الخشوع والتدبر عند القراءة ، والدلائل عليه أكثر من أن تحصر ، وأشهر وأظهر من أن تذكر ، فهو المقصود المطلوب ، وبه تنشرح الصدور وتستنفر القلوب ، قال الله عز وجل : ﴿ **أفلا يتدبرون القرآن** ﴾(١) وقال تعالى : ﴿ **كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب** ﴾(٢) والأحاديث فيه كثيرة ، وأقاويل السلف فيه مشهورة .

وقد بات جماعة من السلف يتلون آية واحدة يتدبرونها ويرددونها إلى الصباح ، وقد حقق جماعة من السلف عند القراءة ، ومات جماعات حال القراءة ، ورويناه عن بهز بن حكيم أن زرارة بن أوفى التابعى الجليل ـ رضى الله عنه ـ أمهم فى صلاة الفجر فقرأ حتى بلغ : ﴿ فإذا نقر فى الناقور فذلك يومئذ يوم

---

(١) النساء آية : ٨٢ ، محمد آية : ٢٤

(٢) سورة (ص) آية : ٢٩

عسير ﴾[١] خر ميتا . قال بهز : وكنت فيمن حمله . وقال السيد الجليل ذو المواهب والمعارف ابراهيم الخواص رضى الله عنه ، دواء القلب خمسة اشياء قراءة القرآن بالتدبر وخلاء البطن ، وقيام الليل ، والتضرع عند السحر ، ومجالسة الصالحين .

فصل : فى استحباب ترديد الآية للتدبر

وقد قدمنا فى الفصل قبله الحث على التدبر ، وبيان موقعه وتأثر السلف ، وروينا عن أبى ذر رضى الله عنه قال : « قام النبى ﷺ بآية حتى أصبح ، يرددها والآية : (إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم) رواه النسائى وابن ماجه[٢] .

وعن تميم الدارى رضى الله عنه أنه كرر هذه الآية حتى أصبح ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون ﴾[٣] وعن عبادة بن حمزة قال : دخلت على أسماء رضى الله عنها ـ وهى تقرأ : ﴿ فمنَّ الله علينا ووقانا عذاب السموم ﴾[٤] فوقفت عندها فجعلت تعيدها وتدعو ، فطال علىَّ ذلك ، فذهبت إلى السوق ، فقضيت حاجتى ثم رجعت وهى تعيدها وتدعو . ورويت هذه القصة عن عائشة رضى الله عنها ، وردد ابن مسعود رضى الله عنه : ﴿ رب زدنى علماً ﴾[٥] وردد سعيد بن جبير ﴿ واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ﴾[٦] الآية وردد أيضا ﴿ فسوف يعلمون إذ الاغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون فى الحميم ثم فى النار يسجرون ﴾[٧] وردد أيضا ﴿ يا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم ﴾[٨] وكان الضحاك إذا تلا قوله تعالى : ﴿ لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ﴾[٩] . رددها إلى السحر .

(فصـــل)
فى البكاء عند قراءة القرآن

قد تقدم فى الفصلين المتقدمين بيان ما يحمل على البكاء فى حال القراءة وهو صفة العارفين ، وشعار عباد الله الصالحين . قال الله تعالى : ﴿ ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً ﴾[١٠] وقد وردت فيه

---

(١) المدثر الآيتان : ٨ ، ٩

(٢) أخرجه ابن ماجه فى كتاب اقامة الصلاة والسنة فيها جـ ١ ص ٤٢٩ برقم ١٣٥٠ فى الزوائد أسناده صحيح ورجاله ثقات . . ثم قال رواه النسائى فى الكبرى وأحمد فى المسند وابن خزيمة فى صحيحه والحاكم وقال : صحيح .

(٣) الجاثية آية : ٢١

(٤) الطور آية : ٢٧

(٥) طه آية : ١١٤

(٦) البقرة آية : ٢٨١

(٧) غافر الآيتان : ٧٠ ، ٧١

(٨) الانفطار آية : ٦

(٩) الزمر آية : ١٦

(١٠) الاسراء آية : ١٠٩

أحاديث كثيرة وآثار السلف . فمن ذلك عن النبى ﷺ « اقرؤوا القرآن وابكوا ، فإن لم تبكوا فتباكوا » وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ـ أنه صلى بالجماعة الصبح فقرأ سورة يوسف فبكى حتى سالت دموعه على ترقوته . وفى رواية : أنه كان فى صلاة العشاء فتدل على تكريره منه ، وفى رواية : أنه بكى حتى سمعوا بكاءه من وراء الصفوف ، وعن أبى رجاء قال : رأيت ابن عباس وتحت عينيه مثل الشراك البالى من الدموع .

وعن هشام قال : ربما سمعت بكاء محمد بن سيرين فى الليل وهو فى الصلاة والآثار فى هذا كثيرة لا يمكن حصرها ، وفيما أشرنا اليه ونبهنا عليه كفاية ، والله أعلم .

قال الامام أبو حامد الغزالى : البكاء مستحب مع القراءة وعندها . وطريقه فى تحصيله أن يحضر قلبه الحزن بأن يتأمل ما فيه من التهديد والوعيد الشديد والمواثيق والعهود ، ثم يتأمل تقصيره فى ذلك ، فإن لم يحضره حزن وبكاء كما يحضر الخواص فليبك على فقد ذلك فإنه من أعظم المصائب .

(فصــل)

وينبغى أن يرتل قراءته . وقد اتفق العلماء رضى الله عنهم على استحباب الترتيل قال تعالى : ﴿ ورتل القرآن ترتيلا ﴾[1] وثبت عن أم سلمة رضى الله عنها : « إنها نعتت قراءة رسول الله ﷺ قراءة مفسرة حرفاً حرفاً » رواه أبو داود والنسائى والترمذى . قال الترمذى حديث حسن صحيح[2]

وعن معاوية بن قرة رضى الله عنه عن عبد الله بن مغفل رضى الله عنه قال : « رأيت رسول الله ﷺ يوم فتح مكة على ناقته يقرأ سورة الفتح يرجع فى قراءته » رواه البخارى ومسلم[3] .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : لأن اقرأ سورة أرتلها أحب إلىَّ من أن اقرأ القرآن كله .

وعن مجاهد أنه سئل عن رجلين قرأ أحدهما البقرة وآل عمران والآخر البقرة وحدها وجزء منهما وركوعهما وسجودهما وجلوسهما واحد سواء ؟ فقال : الذى قرأ البقرة وحدها أفضل ، وقد نهى عن الأفراط فى الأسراع ، ويسمى الهندمة . فثبت عن عبد الله بن مسعود أن رجلاً قال له إنى اقرأ المفصل فى ركعة واحدة ، فقال عبد الله بن مسعود هذا كهذ الشعر ، إن أقواماً يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم ، ولكن إذا وقع فى القلب فرسخ فيه نفع ، رواه البخارى ومسلم ، وهذا لفظ مسلم فى احدى رواياته[4] .

---

(١) المزمل آية : ٤

(٢) أخرجه أبو داود فى كتاب الصلاة باب استحباب الترتيل فى القراءة عن أم سلمه جـ٢ ص ١٥٤ برقم ١٤٦٦
والترمذى فى أبواب فضائل القرآن باب ما جاء كيف كانت قراءة النبى ـ ﷺ ـ جـ ٤ ص ٢٥٤ رقم ٣٠٩١ ط دار الفكر وقال الترمذى هذا حديث حسن صحيح غريب .

(٣) أخرجه أبو داود فى كتاب الصلاة باب استحباب الترتيل فى القراءة جـ١ ص ١٥٤ برقم ١٤٦٧
ومسلم فى كتاب صلاة المسافرين باب ذكر قراءة النبى ـ ﷺ ـ سورة الفتح يوم فتح كله جـ١ ص ٥٤٧ رقم ٧٩٤/٢٣٨
والبخارى فى صحيحه جـ٦ ص ٢٣٨ باب القراءة على الدابة وبلفظه جـ٦ ص ٢٤٦

(٤) أخرجه مسلم فى صحيحه فى كتاب صلاة المسافرين وقصرها جـ١ ص ٥٦٣ برقم ٧٢٢/٢٧٥
والبخارى جـ٦ ص ٢٤٠ باب الترتيل فى القراءة

قال العلماء : والترتيل مستحب للتدبر ولغيره . قالوا : يستحب الترتيل للعجمى الذى لا يفهم معناه ، لأن ذلك أقرب إلى التوقير والاحترام ، وأشد تأثيراً فى القلب .

(فصــل)

ويستحب إذا مر بآية رحمة أن يسأل الله تعالى من فضله ، وإذا مر بآية عذاب أن يستعيذ بالله من الشر ومن العذاب ، أو يقول : اللهم إنى أسألك العافية ، أو اسألك المعافاة من كل مكروه ، أو نحو ذلك ، وإذا مر بآية تنزيه لله تعالى نزهه فيقول : تبارك وتعالى ، أوجلت عظمة ربنا ، فقد صح عن حذيفة ابن اليمان ـ رضى الله عنهما ـ قال : « صليت مع النبى ﷺ ذات ليلة فافتتح البقرة ، فقلت يركع عند المائة ثم مضى فقلت يصلى بها فى ركعة فمضى ، فقلت يركع بها ، ثم افتتح النساء فقرأها ، ثم افتتح آل عمران فقرأها يقرأ مترسلا إذا مر بآية فيها تسبيح سبح ، وإذا مر بسؤال سأل ، وإذا مر بتعوذ تعوذ » رواه مسلم فى صحيحه[1] ، وكانت سورة النساء مقدمة على آل عمران . قال أصحابنا رحمهم الله تعالى : ويستحب هذا السؤال والاستعانة والتسبيح لكل قارىء سواء كان فى الصلاة أو خارجاً منها قالوا : ويستحب ذلك فى صلاة الإمام والمنفرد والمأموم لأنه دعاء فاستووا فيه كالتأمين عقب الفاتحة ، وهذا الذى ذكرناه من استحباب السؤال والاستعانة ، هو مذهب الشافعى ـ رضى الله عنه ـ وجماهير العلماء ـ رحمهم الله ـ قال أبو حنيفة رحمه الله تعالى : ولا يستحب ذلك بل يكره فى الصلاة ، والصواب قول الجماهير لما قدمناه .

(فصــل)

ومما يعتنى به ويتأكد الأمر به احترام القرآن من أمور قد يتساهل فيها بعض الغافلين القارئين مجتمعين .

فمن ذلك اجتناب الضحك واللغط والحديث فى خلال القراءة إلا كلاما يضطر اليه ، وليتمثل قول الله تعالى : ﴿ وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون ﴾[2] وليقتد بما رواه ابن أبى داود عن ابن عمر رضى الله عنهما أنه كان إذا قرأ القرآن لا يتكلم حتى يفرغ منه .

ومن ذلك العبث باليد وغيرها فإنه يناجى ربه سبحانه وتعالى فلا يعبث بين يديه ، ومن ذلك النظر إلى ما يلهى ويبدد الذهن ، وأقبح من هذا كله النظر إلى ما لايجوز النظر اليه كالأمرد وغيره ، فإن النظر إلى الأمرد الحسن من غير حاجة حرام ، سواء كان بشهوة أو بغيرها ، سواء أمن الفتنة أو لم يأمنها ، هذا هو المذهب الصحيح المختار عند العلماء ، وقد نص على تحريمه الإمام الشافعى ومن لا يحصى من العلماء

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه كتاب صلاة المسافرين وقصرها باب استحباب تطويل القراءة فى صلاة الليل جـ ١ ص ٥٣٦ رقم ٧٧٢/٢٠٣
(٢) الأعراف آية : ٢٠٤

ودليله قوله تعالى : ﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ﴾[١] ولأنه فى معنى المرأة ، بل ربما كان بعضهم أو كثير منهم أحسن من كثير من النساء ، ويتمكن من أسباب الريبة فيه ، ويتسهل من طرق الشر فى حقه ما لا يتسهل فى حق المرأة فكان تحريمه أولى ، وأقاويل السلف فى التنفير منهم أكثر من أن تحصى ، وقد سموهم الأنتان ، لكونهم مستقذرين شرعا . وأما النظر إليه فى حال البيع والشراء والأخذ والعطاء ، والتطبيب والتعليم ونحوها من مواضع الحاجة فجائز للضرورة ، لكن يقتصر الناظر على قدر الحاجة ، ولا يديم النظر من غير ضرورة ، وكذا المعلم إنما يباح له النظر الذى يحتاج اليه ، ويحرم عليهم كلهم فى كل الأحوال النظرة بشهوة ولا يختص هذا بالأمرد ، بل يحرم على كل مكلف النظر بشهوة إلى كل أحد رجلاً كان أو امرأة ، محرما كانت المرأة أو غيرها الا الزوجة أو المملوكة التى يملك الاستمتاع بها حتى قال أصحابنا : يحرم النظر بشهوة إلى محارمه كأخته وأمه والله أعلم .

وعلى الحاضرين مجلس القراءة إذا رأوا شيئاً من هذه المنكرات المذكورة أو غيرها أن ينهوا عنه حسب الامكان باليد لمن قدر ، وباللسان لمن عجز عن اليد وقدر على اللسان ، والا فلينكر بقلبه ، والله أعلم .

(فصــل)

قال العلماء : الاختيار أن يقرأ على ترتيب المصحف فيقرأ الفاتحة على ترتيب المصحف فيقرأ الفاتحة ، ثم البقرة ، ثم آل عمران ، ثم ما بعدها على الترتيب وسواء قرأ فى الصلاة أو فى غيرها ، حتى قال بعض أصحابنا : إذا قرأ فى الركعة الأولى سورة قل أعوذ برب الناس يقرأ فى الثانية بعد الفاتحة من البقرة . قال بعض أصحابنا : ويستحب إذا قرأ سورة أن يقرأ بعدها التى تليها ، ودليل هذا أن ترتيب المصحف إنما جعل هكذا لحكمة ، فينبغى أن يحافظ عليها إلا فيما ورد المشرع باستثنائه كصلاة الصبح يوم الجمعة تقرأ فى الأولى سورة السجدة ، وفى الثانية ﴿ هل أتى على الانسان ﴾ وصلاة العيد فى الأولى قاف ، وفى الثانية ﴿ اقتربت الساعة ﴾ وركعتى سنة الفجر فى الأولى : ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ وفى الثانية ﴿ قل هو الله أحد ﴾ وركعات الوتر فى الأولى ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ وفى الثانية : ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ وفى الثالثة ﴿ قل هو الله أحد ﴾ والمعوذتين ، ولو خالف الموالاة فقرأ سورة لا تلى الأولى وخالف الترتيب فقرأ سورة ، ثم قرأ سورة قبلها جاز ، فقد جاءت بذلك آثار كثيرة ، وقد قرأ عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى الركعة الأولى من الصبح بالكهف ، وفى الثانية بيوسف ، وقد كره جماعة مخالفة ترتيب المصحف ، وروى ابن أبى داود عن الحسن : أنه كان يكره أن يقرأ القرآن لا على تأليفه فى المصحف ، وبإسناده الصحيح عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أنه قيل له : إن فلاناً يقرأ القرآن منكوساً ؟ فقال ذلك منكوس القلب . وأما قراءة السورة من آخرها إلى أولها فممنوع منعاً متأكداً فإنه يذهب بعض ضروب الاعجاز ويزيل حكمة ترتيب الآيات ، وقد روى ابن أبى داود عن ابراهيم النخعى الامام التابعى الجليل والامام مالك بن أنس

---

(١) النور آية : ٣٠

أنهما كرها ذلك ، وأن مالكا كان يعيبه ، ويقول هذا عظيم . وأما تعليم الصبيان من آخر المصحف إلى أوله فحسن ليس هذا من هذا الباب فإن ذلك قراءة متفاضلة فى أيام متعددة مع ما فيه من تسهيل الحفظ عليهم ، والله أعلم .

(فصـــل)

قراءة القرآن من المصحف أفضل من القراءة عن ظهر قلب ، لأن النظر فى المصحف عبادة مطلوبة فتجتمع القراءة والنظر هكذا . قاله القاضى حسين من أصحابنا وأبو حامد الغزالى وجماعات من السلف ، ونقل الغزالى فى الاحياء أن كثيرين من الصحابه رضى الله عنهم كانوا يقرءون من المصحف ويكرهون أن يخرج يوم ولم ينظروا فى المصحف ، وروى ابن أبى داود القراءة فى المصحف عن كثيرين من السلف ولم أر فيه خلافاً ، ولو قيل أنه يختلف باختلاف الأشخاص فيختار القراءة فى المصحف لمن استوى خشوعه وتدبره فى حالتى القراءة فى المصحف وعن ظهر القلب ، ويختار القراءة عن ظهر القلب لمن لم يكمل بذلك خشوعه ، ويزيد على خشوعه وتدبره لو قرأ من المصحف لكان هذا قولا حسنا ، والظاهر أن كلام السلف وفعلهم محمول على هذا التفصيل .

فصل : فى استحباب قراءة الجماعة مجتمعين ، وفضل القارئين من الجماعة والسامعين وبيان فضيلة من جمعهم عليها وحرصهم وندبهم اليها

أعلم أن قراءة الجماعة مجتمعين مستحبة بالدلائل الظاهرة وأفعال السلف والخلف المتظاهرة . فقد صح عن النبى ﷺ من رواية أبى هريرة رضى الله عنه وأبى سعيد الخذرى رضى الله عنهما أنه قال : « ما من قوم يذكرون الله الا حفت بهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده » .

قال الترمذى : حديث حسن صحيح (١) .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « ما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله تعالى يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم الا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده » رواه مسلم وأبو داود باسناد صحيح على شرط البخارى ومسلم (٢) .

وروى الدارمى باسناده عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « من استمع إلى آية من كتاب الله كانت له نوراً » .

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه أبواب الدعوات باب ما جاء فى القوم يجلسوم فيذكرون الله ما لهم من الفضل جـ ٥ ص ١٢٨ رقم ٣٤٣٨ ط دار الفكر

قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار جـ ٤ ص ٢٠٧٤ رقم ٣٩/٢٧٠٠
وأبو داود فى سننه فى كتاب الصلاة باب فى ثواب قراءة القرآن جـ ٢ ص ١٤٨ رقم ١٤٥٥

وروى ابن أبى داود : أن أبا الدرداء رضى الله عنه كان يدرس القرآن معه نفر يقرءون جميعاً . وروى ابن أبى داود فعل الدراسة مجتمعين عن جماعات أفاضل السلف والخلف وقضاة المتقدمين . لكن القراءة فى حال الاجتماع لها شروط قدمناها ينبغى أن يعتنى بها ، والله أعلم .

وأما فضيلة من يجمعهم على القراءة ففيها نصوص كثيرة كقوله ﷺ « الدال على الخير كفاعله »(١) وقوله ﷺ « لأن يهدى الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم »(٢) .

والأحاديث فيه كثيرة مشهورة ، وقد قال الله تعالى ﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ﴾(٣) ولاشك فى عظم أجر الساعى فى ذلك .

(فصل : فى الإدارة بالقرآن)

وهو أن يجتمع جماعة يقرأ بعضهم عشرا أو جزءا أو غير ذلك ثم يسكت ويقرأ الآخر من حيث انتهى الأول ، ثم يقرأ الآخر وهذا جائز حسن ، وقد سئل مالك رحمه الله تعالى عنه فقال : لابأس به .

(فصل : فى رفع الصوت بالقراءة)

هذا فصل مهم ينبغى أن يعتنى به . اعلم أنه جاءت أحاديث كثيرة فى الصحيح وغيره دالة على استحباب رفع الصوت بالقراءة . وجاءت آثار كثيرة على استحباب الإخفاء وخفض الصوت وسنذكر منها طرفا يسيرا اشارة إلى أصلها إن شاء الله تعالى .

قال الامام أبوحامد الغزالى وغيره من العلماء : وطريق الجمع بين الأحاديث والآثار المختلفة فى هذا إن الإسرار أبعد من الرياء فهو أفضل فى حق من يخاف ذلك ، فإن لم يخف الرياء فالجهر ورفع الصوت أفضل ، لأن العمل فيه أكثر ، ولأن فائدته تتعدى إلى غيره ، والمتعدى أفضل من اللازم ، ولأنه يوقظ قلب القارىء ، ويجمع همه إلى الفكر فيه ، ويصرف سمعه إليه ويطرد النوم ويزيد فى النشاط ويوقظ غيره من نائم وغافل وينشطه . قالوا : فمهما حضره شىء من هذه النيات فالجهر أفضل ، فإن اجتمعت هذه النيات تضاعف الأجر .

قال الغزالى : ولهذا قلنا القراءة فى المصحف أفضل ، فهذا حكم المسألة ، وأما الآثار المنقولة فكثيرة ، وأنا أشير الى أطراف من بعضها . ثبت فى الصحيح عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه أبواب العلم جـ ٤ ص ١٤٧ رقم ٢٨٠٩ عن أنس بن مالك .
وقال الترمذى وفى الباب عن أبى مسعود وبريده . هذا حديث غريب من هذا الوجه وانظر رق ٢٨١٠/٢٨١١

(٢) أخرجه أحمد ى مسنده : ٣٣٣/٥ البخارى ٥٨/٤ ، ٢٣/٥
ومسلم فى فضائل الصحابة رقم ٣٤

(٣) المائدة آية : ٢

رسول الله ﷺ يقول : « ماأذن الله لشىء ماأذن لنبى حسن الصوت يتغنى بالقرآن يجهر به » رواه البخارى ومسلم[١] . ومعنى أذن أستمع ، وهو إشارة إلى الرضا والقبول .

وعن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لقد أوتيت مزمارا من مزامير آل داود » رواه مسلم والبخارى[٢] . . .

وعن أبى موسى أيضا قال : قال رسول الله ﷺ : « إنى لأعرف أصوات رفقة الأشعريين بالقرآن حين يدخلون بالليل ، وأعرف منازلهم من أصواتهم بالقرآن بالليل وإن كنت لم أر منازلهم حين نزلوا بالنهار » رواه البخارى ومسلم[٣] .

وعن البراء بن عازب رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « زينوا القرآن بأصواتكم » رواه أبو داود والنسائى وغيرهما[٤] .

وروى ابن أبى داود عن على رضى الله عنه : أنه سمع ضجة فى المسجد يقرءون القرآن ، فقال : طوبى لهؤلاء كانوا أحب الناس لرسول الله ﷺ .

وفى اثبات الجهر أحاديث كثيرة : وأما الآثار عن الصحابة والتابعين من اقوالهم وأفعالهم فاكثر من أن تحصر وأشهر من أن تذكر ، وهذا كله فيمن لايخاف رياء ولاإعجابا ، ولانحوهما من النتائج ، ولايؤذى جماعة يلبس عليهم صلاتهم ويخلطها عليهم . وقد نقل عن جماعة السلف اختيار الاخفاء لخوفهم مما ذكرناه . فعن الأعمش قال دخلت على ابراهيم وهو يقرأ بالمصحف فاستأذن عليه رجل فغطاه ، وقال : كنت جالسا مع أصحاب رسول الله ﷺ ورضى الله عنهم ، فقال رجل منهم قرأت الليلة كذا ، فقالوا هذا حظك منه ، ويستدل لهؤلاء بحديث عقبة بن عامر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة ، والمسر القرآن كالمسر بالصدقة » رواه أبوداود والترمذى والنسائى وقال الترمذى حديث حسن قال[٥] : ومعناه ان الذى يسر بقراءة القرآن أفضل من الذى يجهر بها . لأن صدقة السر أفضل عند أهل العلم من صدقة العلانية قال : وإنما معنى هذا الحديث عند أهل العلم لكى يأمن الرجل من العجب ، لأن الذى يسر بالعمل لايخاف عليه من العجب كما يخاف عليه من علانيته . قلت : وكل هذا

---

(١) أخرج البخارى فى صحيحه باب من لم يتغنَّ بالقرآن جـ ٦ ص ٢٣٦ ومسلم فى صحيحه كتاب صلاة المسافرين وقصرها باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن جـ ١ ص ٥٤٥ رقم ٩٢/٢٣٣ ن

(٢) أخرجه : البخارى فى صحيحه حـ٦ ص٢٤١ باب حسن الصوت بالقراءة وأخرجه مسلم فى كتاب صلاة المسافرين وقصرها حـ١ ص٥٤٦ باب استحباب تحسين الصوت برقم ٧٩٣/٢٣٦ وانظر أحاديث الباب

(٣) أخرجه مسلم فى صحيحه كتاب فضائل الصحابة باب من فضائل الاشعرين حـ٤ ص١٩٤٤ رقم ٢٤٩٩/١٦٦ ، والبخارى ١٧٥/٥ ط الشعب

(٤) أخرجه النسائى فى كتاب الافتتاح باب تزيين القرآن بالصوت حـ٢ ص١٧٩ ص١٨٠ - وأبو داود فى كتاب الصلاة باب استحباب الترتيل فى القراءة حـ٤ ص١٥٥ رقم ١٤٦٨ وابن ماجة فى اقامة الصلاة والسنة فيها باب حسن الصوت بالقرآن حديث رقم ١٣٤٢

(٥) أخرجه أبو داود فى كتاب الصلاة باب رفع الصوت بالقراءة فى صلاة الليل حـ٢ ص٨٣ ، ص٨٤ رقم ١٣٣٣ والترمذى فى سننه فى ابواب فضائل القرآن حـ٤ ص٢٥٢ رقم ٣٠٨٦ وقال هذا حديث حسن غريب .

موافق لما تقدم تقريره فى أول الفصل من التفصيل ، وأنه إن خاف بسبب الجهر شيئا مما يكره لم يجهر ، وان لم يخف استخف الجهر ، فان كانت القراءة من جماعة مجتمعين فاكد استحباب الجهر لما قدمناه ، ولما يحصل فيه من نفع غيرهم والله أعلم .

(فصل فى استحباب تحسين الصوت بالقراءة)

أجمع العلماء رضى الله عنهم من السلف والخلف من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من علماء الأمصار أئمة المسلمين على استحباب تحسين الصوت بالقرآن ، وأقوالهم وأفعالهم مشهورة نهاية الشهرة فنحن مستغنون عن نقل شيء من أفرادها ودلائل هذا من حديث رسول الله ﷺ مستفيضة عند الخاصة والعامة كحديث « زينوا القرآن بأصواتكم » وحديث « لقد أوتى هذا مزمارا » وحديث « ماأذن » وحديث « لله أشد أذنا » وقد تقدمت كلها فى الفصل السابق ، وتقدم فى فصل الترتيل حديث عبدالله بن مغفل فى ترجيع النبى ﷺ القراءة ،

وكحديث سعد بن أبى وقاص ، وحديث أسامة رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال : « من لم يتغن بالقرآن فليس منا » رواه ابو داود باسنادين جيدين وفى اسناد سعد اختلاف لايضر . قال جمهور العلماء : معنى لم يتغن لم يحسن صوته .

وحديث البراء رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ قرأ فى العشاء بالتين والزيتون ، فما سمعت أحدا أحسن صوتا منه » رواه البخارى ومسلم[٢] .

قال العلماء رحمهم الله يستحب تحسين الصوت بالقراءة وترتيلها مالم يخرج عن حد القراءة بالتخطيط ، فان أفرط حتى زاد حرفا أو اخفاه فهو حرام . وأما القراءة بالألحان فقد قال الشافعى رحمه الله فى موضع : أكرهها . قال أصحابنا لسنت على قولين بل فيه تفصيل . ان أفرط فى التمطيط فجاوز الحد فهو الذى كرهه ، وان لم يجاوز فهو الذى لم يكرهه .

وقال أقضى القضاة الماردى فى كتاب الحاوى . القراءة بالألحان الموضوعة إن أخرجت لفظ القرآن عن صيغته بإدخال حركات فيه أو اخراج حركات منه أو قصر ممدود أو مقصور او تمطيط يخفى به بعض اللفظ ويتلبس المعنى فهو حرام يفسق به القارىء ، ويأتم به المستمع لأنه عدل به عن نهجه القويم الى الاعوجاج ، والله تعالى يقول : ﴿ قرآنا عربيا غير ذى عوج لعلهم يتقون ﴾[١] قال : وإن لم يخرجه اللحن عن لفظه وقراءته على ترتيله كان مباحا لأنه زاد على ألحانه فى تحسينه هذا كلام أقضى القضاة ، وهذا

---

(١) الزمر آية : ٢٨

(٢) أخرجه : أبو داود فى سننه كتاب الصلاة باب استحباب الترتيل فى القراءة جـ٢ ص١٥٧ رقم ١٤٧١

القسم الأول من القراءة بالألحان المحرمة مصيبة ابتلى بها بعض الجهلة الطغاة الغشمة الذين يقرءون على الجنائز وبعض المحافل ، وهذه بدعة محرمة ظاهرة يأثم كل مستمع لها كما قاله أقضى القضاة الماوردى ، ويأثم كل قادر على ازالتها أو على النهى عنها اذا لم يفعل ذلك ، وقد بذلت فيها بعض قدرتى وأرجو من فضل الله الكريم أن يوفق لازالتها من هو أهل لذلك ، وأن يجعله فى عافية .

قال الشافعى فى مختصر المزنى : ويحسن صوته بأى وجه كان . قال وأحب مايقرأ حدرا وتحزينا قال أهل اللغة : يقال حذرت بالقراءة اذا أدرجتها ولم تمططها ، ويقال فلان يقرأ بالتحزين اذا رقق صوته ، وقد روى ابن ابى داود باسناده عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قرأ ﴿ إذا الشمس كورت ﴾ يحزنها شبه الرثاء ، وفى سنن أبى داود قبل لابن ابى مليكه : أرأيت إذا لم يكن حسن الصوت ؟ فقال يحسنه ما استطاع .

(فصل : فى استحباب طلب القراءة الطيبة من حسن الصوت)

اعلم أن جماعات من السلف كانوا يطلبون من أصحاب القراءة بالأصوات الحسنة أن يقرءوا وهم يستمعون ، وهذا متفق على استحبابه وهو عادة الأخيار والمتعبدين وعباد الله الصالحين ، وهو سنة ثابتة عن رسول الله ﷺ ، فقد صح عن عبدالله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال لى رسول الله ﷺ « اقرأ علىّ القرآن ، فقلت : يارسول الله أقرأ عليك وعليك أنزل ، قال إنى أحب أن أسمعه من غيرى ، فقرأت عليه سورة النساء حتى إذا جئت إلى هذه الآية ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد ، وجئنابك على هؤلاء شهيدا ﴾ قال حسبك الآن فالتفت اليه فاذا عيناه تذرفان » رواه البخارى ومسلم(١) . .

والآثار فى هذا كثيرة معروفة ، وقد مات جماعات من الصالحين بسبب قراءة من سألوه القراءة ، والله أعلم ، وقد استحب العلماء أن يستفتح مجلس حديث النبى ﷺ ويختم بقراءة قارىء حسن الصوت ماتيسر من القرآن .

ثم إنه ينبغى للقارىء فى هذه المواطن أن يقرأ مايليق بالمجلس ويناسبه ، وأن تكون قراءته فى آيات الرجاء والخوف والمواعظ والتزهيد فى الدنيا والترغيب فى الآخرة والتأهب لها وقصر الأمل ومكارم الأخلاق .

(فصل)

ينبغى للقارىء إذا ابتدأ من وسط السورة أو وقف على غير آخرها أن يتبتدىء من أول الكلام المرتبط

(١) اخرجه : البخارى فى صحيحه حـ٦ ص٢٤١ ، ص٢٤٢ ومسلم فى صحيحه حـ١ ص٥٥١ رقم ٨٠٠/٢٤٧ كتاب صلاة المسافرين وقصرها

بعضه ببعض وأن يقف على الكلام المرتبط ولايتقيد بالاعشار والاجزاء فانها قد تكون فى وسط الكلام المرتبط كالجزء الذى فى قوله تعالى : ﴿ وما أبرىء نفسى ﴾ وفى قوله تعالى : ﴿ فما كان جواب قومه ﴾ وقوله : ﴿ ومن يقنت منكن لله ورسوله ﴾ وفى قوله : ﴿ وماأنزلنا على قومه من بعده من جند ﴾ وفى قوله تعالى : ﴿ إليه يرد علم الساعة ﴾ وفى قوله تعالى : (وبدا لهم سيئات ﴾ وفى قوله : ﴿ قال فما خطبكم أيها المرسلون ﴾ وكذلك الأحزاب كقوله تعالى : ﴿ واذكروا الله فى أيام معدودات) وقوله تعالى : ﴿ قل هل أنبئكم بخير من ذلكم ﴾ فكل هذا وشبيهه ينبغى ان يبتدأ به ولايوقف عليه فإنه متعلق بماقبله ولايقترن بكثرة الغافلين له من القراء الذين لايراعون هذه الأداب ولايفكرون فى هذه المعانى ، وامتثل ماروى الحاكم ابو عبدالله باسناده عن السيد الجليل الفضيل بن عياض رضى الله عنه . قال : لاتستوحش طرق الهدى لقلة أهلها . ولاتقترن بكثرة الهالكين ولايضرك قلة السالكين ، ولهذا المعنى قالت العلماء : قراءة سورة قصيرة بكاملها أفضل من قراءة بعض سورة طويلة بقدر القصيرة ، فانه قد يخفى الارتباط على بعض الناس فى بعض الأحوال .

(فصل : فى أحوال تكره فيها القراءة)

اعلم أن قراءة القرآن على الإطلاق مطلوبة إلا فى أحوال مخصوصة ، جاء الشرع بالنهى عن القراءة فيها ، وأنا أذكر الآن ماحضرنى منها مختصره بحذف الادلة فانها مشهورة ، منكرة القراءة فى حالة الركوع والسجود والتشهد وغيرها من أحوال الصلاة سوى القيام ، وتكره القراءة بما زاد على الفاتحة للمأموم فى الصلاة الجهرية إذا سمع قراءة الإمام وتكره على الخلاء وفى مسألة النعاس ، وكذا إذا استعجم عليه القرآن ، وكذا فى حالة الخطبة لمن يسمعها ، ولاتكره لمن لم يسمعها بل تستحب ، هذا هو المختار الصحيح ، وجاء عن طاووس كراهيتها ، وعن ابراهيم عدم الكراهة ، ويجوز أن يجمع بين كلاميهما بما قلنا كما ذكره أصحابنا ، ولاتكره القراءة فى الطواف ، هذا مذهبنا وبه قال اكثر العلماء ، وحكاه ابن المنذر عن عطاء ومجاهد وابن المبارك وأبى ثور وأصحاب الرأى ، وحكى عن الحسن البصرى وعروة بن الزبير ومالك كراهتها فى الطواف والصحيح الأول ، وقد تقدم بيان الاختلاف فى القراءة فى الحمام ، وفى الطريق ، وفيمن فيه نجس .

(فصـــل)

من البدع المنكرة فى القراءة مايفعله جهلة المصلين بالناس فى التراويح من قراءة سورة الأنعام فى الركعة الأخيرة من الليلة السابعة معتقدون أنها مستحبة ، فيجمعون أمورا منكرة منها اعتقادها مستحبة ومنها ايهام العوام ذلك ومنها تطويل الركعة الثانية على الأولى ، وإنما السنة تطويل الأولى ومنها التطويل على المأمومين ، ومنها هندمة القراءة ، ومن البدع المشابهة لهذا قراءة بعض جهلتهم فى الصبح الجمعة بسجدة غير سجدة ألم تنزيل ، قاصدا ذلك ، وأما السنة قراءة (ألم تنزيل) فى الركعة الأولى (وهل أتى) فى الثانية .

(فصل : فى مسائل غريبة تدعو الحاجة اليها)

منها اذا كان يقرأ فعرض له ريح فينبغى أن يمسك عن القراءة ، حين يتكامل خروجها ، ثم يعود الى القراءة ، كما رواه ابن أبى داود وغيره عن عطاء ، وهو أدب حسن ، ومنها أنه إذا تثاءب أمسك عن القراءة حتى ينقضى التثاؤب ثم يقرأ ، قال مجاهد وهو حسن ، ويدل عليه ماثبت عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إذا تثاءب أحدكم فليمسك يده على فيه فإن الشيطان يدخل » رواه مسلم[(١)]

ومنها أنه إذا قرأ قول الله عز وجل : ﴿ **وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله** ﴾[(٢)] ﴿ **وقالت اليهود يد الله مغلولة** ﴾[(٣)] ﴿ **وقالوا اتخذ الرحمن ولدا** ﴾[(٤)] ونحو ذلك من الآيات ينبغى أن يخفض بها صوته ، كذا كان ابراهيم النخعى رضى الله عنه يفعل ، ومنها مارواه ابن أبى داود باسناد ضعيف عن الشعبى أنه قيل له : إذا قرأ الإنسان ﴿ **إن الله وملائكته يصلون على النبى** ﴾[(٥)] يصلى على النبى ﷺ قال نعم ، ومنها أنه يستحب له أن يقول مارواه أبوهريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال : « من قرأ والتين والزيتون فقال : ﴿ **أليس الله بأحكم الحاكمين** ﴾ فليقل : بلى وأنا على ذلك من الشاهدين » رواه أبوداود[(٦)] والترمذى باسناد ضعيف عن رجل عن أعرابى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال الترمذى : هذا الحديث إنما يروى بهذا الاسناد عن الاعرابى « من قرأ آخر ، لاأقسم بيوم القيامة ، (أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى) فليقل ، بلى ، ومن قرأ فبأى آلاء ربكما تكذبان ، أو فبأى حديث بعده يؤمنون ، فليقل آمنت بالله » وعن ابن عباس رضى الله عنهما وابن الزبير وأبى موسى الأشعرى رضى الله عنهم أنهم كانوا إذا قرأ أحدهم ، سبح اسم ربك الأعلى ، قال سبحان ربى الأعلى ، وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه انه كان يقول فيها سبحان ربى الأعلى ثلاث مرات وعن عبدالله بن مسعود رضى الله عنه أنه صلى فقرأ : آخر سورة بنى اسرائيل ، ثم قال : الحمدلله الذى لم يتخذ ولدا ، وقد نص أصحابنا على أنه يستحب أن يقال فى الصلاة ماقدمناه ، وفى حديث أبى هريرة فى السور الثلاث ، وكذلك يستحب أن يقال باقى ماذكرناه وماكان فى معناه والله أعلم .

---

(١) اخرجه : مسلم فى صحيحه كتاب الزهد والرقائق باب تشمست العاطس وكراهة التثائب حـ٤ ص٢٢٩٣ رقم ٥٧/٢٩٩٥ وانظر حديث ٥٨ ، ٥٩

(٢) التوبة آية : ٣٠

(٣) المائدة آية : ٦٤

(٤) مريم آية : ٨٨

(٥) الأحزاب آية : ٥٦

(٦) أخرجه الترمذى فى سننه فى تفسير سورة التين والزيتون حـ٥ ص١١٣ ، ص١١٤ رقم ٣٤٠٥

(فصل)

وإذا ورد على القارىء من فيه فضيلة من علم أو شرف أو سن مع صبيانة ، أوله حرمة بولاية أو ولادة او غيرها فلا بأس بالقيام له على سبيل الاحترام والاكرام لا للرياء والإعظام بل ذلك مستحب وقد ثبت القيام للاكرام من فعل النبى ﷺ وفعل أصحابه رضى الله عنهم بحضرته وبأمره ، ومن فعل التابعين ومن بعدهم من العلماء الصالحين ، وقد جمعت جزءا فى القيام وذكرت فيه الأحاديث والاثار الواردة باستحبابه وبالنهى عنه وبينت ضعف الضعيف منها وصحة الصحيح والجواب مما يتوهم منه النهى وليس فيه نهى ، وأوضحت ذلك كله بحمد الله تعالى ، فمن تشكك فى شىء من أحاديثه فليطالعه يجد مايزول من شكه إن شاء الله تعالى .

(فصل)

إذا كان يقرأ ماشيا فمر على قوم ، يستحب أن يقطع القراءة ويسلم عليهم ، ثم يرجع إلى القراءة ولو أعاد التعوذ كان حسنا ولو كان يقرأ جالسا فمر عليه غيره ، فقد قال الامام أبوالحسن الواحدى : الأولى ترك السلام على القارىء لاشتغاله بالتلاوة قال : فإن سلم عليه إنسان كفاه الرد بالاشارة ، قال : فإن أراد الرد باللفظ رده ، ثم استأنف الاستعاذة وعاود التلاوة ، وهذا الذى قاله ضعيف ، والظاهر وجوب الرد باللفظ . . وأما إذا عطس فى حال القراءة فإنه يستحب أن يقول : الحمدلله ، وكذا لو كان فى الصلاة ، ولو عطس غيره وهو يقرأ فى غير الصلاة ، وقال الحمدلله يستحب للقارىء أن يشمته فيقول : يرحمك الله ، ولو سمع المؤذن قطع القراءة ، وأجابه بمتابعته فى ألفاظ الأذان والإقامة ، ثم يعود إلى قراءته . وهذا متفق عليه عند أصحابنا ، وأما إذا طلبت منه حاجة فى حال القراءة وأسكنه جواب السائل بالإشارة المفهمة ، وعلم أنه لاينكسر قلبه ، ولايحصل عليه شىء من الأذى للأنس الذى بينهما ونحوه ، فالأولى أن يجيبه بالاشارة ولايقطع القراءة ، فإن قطعها جاز والله أعلم .

(فصل)
(فى أحكام نفيسة تتعلق بالقراءة فى الصلاة أبالغ فى اختصارها فإنها مشهورة فى كتب الفقه)

منها أنه يجب القراءة فى الصلاة المفروضة باجماع العلماء ، قال مالك والشافعى وأحمد وجماهير العلماء : تتعين قراءة الفاتحة فى كل ركعة .وقال أبو حنيفة وجماعة : لا تتعين الفاتحة أبدا قال ولا تجب قراءة الفاتحة فى الركعتين الأخيرتين والصواب الأول ، فقد تظاهرت عليها الأدلة من السنة ، ويكف من ذلك قوله عليه الصلاة والسلام من الحديث الصحيح « ولا تجزىء صلاة لا يقرأ فيها بأم القرآن »[1] .

---

(١) أخرجه البيهقى فى السنن الكبرى بلفظ « لاتجزى صلاة إلا بفاتحة الكتاب » حـ٢ ص٣٨٠ وفى مجمع الزوائد للبهيمى عن عائشة رضى الله عنها ان الرسول صلى الله عليه وسلم قال : « كل صلاة لايقرأ فيها بأم الكتاب فهى خراج ، فهى خراج ، فهى خراج » رواه الطبرانى فى الصغير ومنه لابن الهيعه ، وفيه كلام ١١/١

وأجمعوا على استحباب قراءة السورة بعد الفاتحة فى ركعتى الصبح ، والأوليتين من باقى الصلوات وهل تطول الأولى على الثانية ؟ منها وجهان : أصحهما عند جمهور أصحابنا أنها لاتطول ، والثانى وهو الصحيح عند المحققين أنها تطول ، وهو المختار للحديث الصحيح « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يطول فى الأولى مالا يطول فى الثانية »[1] وفائدته أن يدرك المتأخر الركعة الأولى ، والله أعلم

قال الشافعى رحمه الله : وإذا أدرك المسبوق مع الإمام الركعتين الأخيرتين من الظهر وغيرها ثم قام إلى الأتيان بما بقى عليه استحب أن يقرأ السورة . قال الجماهير من أصحابنا : هذا على القولين . وقال بعضهم : هذا على قوله يقرأ السورة فى الأخيرتين ، أما على الآخر فلا ، والصواب الأول لئلا تخلو صلاته من سورة والله أعلم . هذا حكم الإمام والمنفرد ، أما المأموم فإن كانت صلاته سرية وجبت عليه الفاتحة واستحب له السورة ، وإن كانت جهرية فإن كان يسمع قراءة الإمام كره له قراءة السورة ، فى وجوب الفاتحة قولان : أصحهما تجب ، والثانى لاتجب . وإن كان لايسمع القراءة فالصحيح وجوب الفاتحة واستحباب السورة ، وقيل تجب ، ولاتجب ولاتستحب السورة ، والله أعلم .

وقراءة الفاتحة فى صلاة النافلة فلابد منها .

والعاجز عن الفاتحة فى هذا كله يأتى ببدلها فيقرأ بقدرها من غيرها من القرآن ، فإن لم يحسن أتى بقدرها من الاذكار كالتسبيح والتهليل ونحوهما ، فان لم يحسن شيئا وقف بقدر القراءة والله اعلم .

(فصـــل)

لا بأس بالجمع بين سورتين فى ركعة واحدة ، فقد ثبت فى الصحيحين من حديث عبدالله بن مسعود رضى الله عنه قال : لقد عرفت النظائر التى كان رسول الله ﷺ يقرب بينهن فذكر عشرين سورة من المفصل كل سورتين فى ركعة ، وقد قدمنا عن جماعة من السلف قراءة الختمة فى ركعة واحدة .

(فصـــل)

أجمع المسلمون على استحباب الجهر بالقراءة فى الصبح والجمعة والعيدين ، والأوليتين من المغرب والعشاء ، وفى صلاة التراويح والوتر عقبها ، وهذا مستحب للإمام والمنفرد بما ينفرد به منها ، وأما المأموم فلايجهر بالاجماع ، ويسن الجهر فى صلاة كسوف القمر ، ولايجهر فى كسوف الشمس ، ويجهر فى الاستسقاء ، ولايجهر فى الجنازة إذا صليت بالنهار ، وكذا فى الليل على المذهب الصحيح المختار ، ولايجهر فى نوافل النهار غير ماذكرناه من العيد والاستسقاء ، واختلف أصحابنا فى نوافل الليل ، فالأظهر أنه

---

(١) اخرجه البيهقى فى سننه بلفظ « كان يطول فى الركعة الأولى ، ويقصر فى الثانية » حـ٢ ص٩٥ .
وفى البخارى بمعناه فى صلاة الظهر ١٩٨/١ وفى مسلم فى الصلاة رقم ١٥٤

لايجهر ، والثانى أنه يجهر ، والثالث وهو الأصح وبه قطع القاضى حسين والبغوى يقرأ بين الجهر والإسرار ، ولو فاته صلاة بالليل فقضاها بالنهار ، أو بالنهار فقضاها بالليل ، **فهل يعتبر فى الجهر والإسرار وقت الفوات أم وقت القضاء ؟ فيه وجهان لأصحابنا : أظهرها الاعتبار بوقت القضاء ولو جهر فى موضع** الاسرار أو أسر فى موضع الجهر ، فصلاته صحيحة ، ولكنه ارتكب المكروه ولايسجد للسهو .

واعلم أن الإسرار فى القراءة والتكبيرات وغيرها من الأذكار ، هو أن يقوله بحيث يسمع نفسه ، ولابد من نطقه بحيث يسمع نفسه إذا كان صحيح السمع ولاعارض له ، فإن لم يسمع نفسه لم تصح قراءته ، ولاغيرها من الأذكار بلا خلاف .

(فصــل)

قال أصحابنا : يستحب للامام فى الصلاة الجهرية أن يسكت أربع سكتات فى حال القيام ، أحداها ان يسكت بعد تكبيرة الإحرام ليقرأ دعاء التوجه ، وليحرم المأمومون ، والثانية سكتة لطيفة جدا بين آخر الفاتحة وبين آمين ، لئلا يتوهم ان أمين من الفاتحة ، والثالثة بعد آمين سكتة طويلة بحيث يقرأ المأمومون الفاتحة ، والرابعة بعد الفراغ من السورة يفصل بها بين القراءة وتكبير الهوى إلى الركوع .

(فصــل)

يستحب لكل قارىء كان فى الصلاة أو فى غيرها إذا فرغ من الفاتحة أن يقول آمين ، والأحاديث بذلك مشهورة ، وقد قدمنا فى الفصل قبله أنه يستحب أن يفصل بين آخر الفاتحة وآمين بسكتة لطيفة ، ومعناها اللهم استجب .

وفى آمين لغات ، قال العلماء : أنصحها آمين بالمد وتخفيف الميم ، والثانية بالقصر ، وهاتان مشهورتان ، والثالثة آمين بالامالة مع المد حكاها الواحدى عن حمزة والكسائى ، والرابعة بتشديد الميم مع المد ، حكاها عن الحسن والحسين بن الفضيل قال : ويحقق ذلك ماروى عن جعفر الصادق رضى الله عنه ، قال : معناه قاصدين نحوك ، وأنت أكرم من أن تخيب قاصدا ، هذا كلام الواحدى ، وهذه الرابعة غريبة جدا ، فقد عدها أكثر أهل اللغة من لحن العوام ، وقال جماعة من أصحابنا : من قالها فى الصلاة بطلت صلاته ، قال أهل العربية : حقها فى العربية الوقف ، لأنها بمنزلة الأصوات فاذا وصلها فتح النون لالتقاء الساكنين كما فتحت فى اين وكيف فلم تكسر لثقل الكسرة بعد الياء فهذا مختصر مما يتعلق بلفظ آمين .

قال العلماء : ويستحب التأمين فى الصلاة للإمام والمأموم والمنفرد ، ويجهر الإمام والمنفرد بلفظ آمين فى الصلاة الجهرية . . واختلفوا فى جهر المأموم والصحيح أنه يجهر ، والثانى : لايجهر والثالث يجهر إن كان جمعا كثيرا وإلا فلا ، ويكون تأمين المأموم مع تأمين الإمام ، لاقبله ولابعده ، لقول النبى ﷺ فى الصحيح

« إذا قال الإمام ولاالضالين فقولوا : آمين ، فمن وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر الله له ماتقدم من ذنبه »[١] وأما قوله ﷺ فى الصحيح « إذا أمن الامام فأمنوا »[٢] فمعناه إذا أراد التأمين قال أصحابنا وليس فى الصلاة موضع يستحب أن يقترن قول المأموم بقول الإمام إلا فى قوله آمين ، وأما فى الأقوال الباقية فيتأخر قول المأموم .

(فصل فى سجود التلاوة)

وهو مما يتأكد الاعتناء به ، فقد أجمع العلماء على الأمر بسجود التلاوة ، واختلفوا فى أنه أمر استحباب أم ايجاب فقال الجماهير ليس بواجب بل مستحب وهذا قول عمر بن الخطاب رضى الله عنه وابن عباس وعمران بن حصين ومالك والأوزاعى والشافعى وأحمد واسحق وأبى ثور وداود وغيرهم ، وقال أبوحنيفة رحمه الله هو واجب واحتج بقوله تعالى : ﴿ فمالهم لايؤمنون واذا قرىء عليهم القرآن لايسجدون ﴾[٣] واحتج الجمهور بما صح عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه « أنه قرأ على المنبر يوم الجمعة سورة النحل حتى اذا جاء السجدة نزل فسجد وسجد الناس ، حتى إذا كانت الجمعة القابلة قرأ بها حتى جاء السجدة قال : ياأيها الناس انما أمرنا بالسجود فمن سجد فقد أصاب ، ومن لم يسجد فلاإثم عليه . ولم يسجد عمر » رواه البخارى [٤] وهذا بالفعل والقول عن عمر رضى الله عنه فى هذا المجمع دليل ظاهر ، وأما الجواب عن الآية التى احتج بها أبوحنيفة رضى الله عنه فظاهر ، لأن المراد ذمهم على ترك السجود تكذيبا كما قال تعالى : ﴿ بل الذين كفروا يكذبون ﴾ وثبت فى الصحيحين أنه قرأ على النبى ﷺ والنجم فلم يسجد » وثبت فى الصحيحين « أنه صلى الله عليه وسلم سجد فى النجم » فدل على أنه ليس بواجب[٥] .

(فصل : فى بيان عدد السجدات ومحلها)

أما عددها المختار الذى قاله الشافعى رحمه الله والجماهير أنها اربع عشر سجدة ، فى الأعراف ، والرعد ، والنحل ، وسبحان ، ومريم ، وفى الحج سجدتان ، وفى الفرقان والنمل وألم تنزيل ، وحم

---

(١) اخرجه البخارى فى صحيحه ١/١٨٨ وأبوداود رقم ٩٣٥ والنسائى ٢/١٤٤ وأحمد ٢/٢٧٠ والدرامى ١/٢٨٤ وغيرهم عن ابى هريرة رضى الله عنه .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه ١/١٨٧ ومسلم فى صحيحه (كتاب الصلاة) رقم ٧٢ وأبوداود فى سننه رقم ٩٣٦ والترمذى فى جامعه الصحيح برقم ٢٥٠ والنسائى فى سننه ٢/١٤٤ وابن ماجه فى سننه برقم ٨٥٢

(٣) الانشقاق الآيتان ٢٠ ، ٢١

(٤) اخرجه البخارى فى صحيحه فى (كتاب الجمعة) باب ما جاء فى سجود القرآن وسنتها : باب من رأى ان الله عزوجل لم يوجب السجود ٢/٥٢

(٥) أخرجه البخارى فى صحيحه (ماجاء فى سجود القرآن وسنتها) باب من قرأ السجدة ولم يسجد ٢/٥١

وأما سجوده صلى الله عليه وسلم ـ فى النجم فقد رواه البخارى فى نفس المصدر عن عبدالله بن عمر رضى الله عنهما ٢/٥٠ ، ٥١

السجدة ، والنجم (واذا السماء انشقت) ، واقرأ باسم ربك ، وأما سجدة ص فمستحبة ، فليست من عزائم السجود : أى متأكد أنه ثبت فى صحيح البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : هى ليست من عزائم السجود ، وقد رأيت النبى ﷺ سجد فيها » هذا مذهب الشافعى ومن قال مثله ، وقال أبوحنيفة . هى أربع عشرة أيضا ، لكن سقط الثانية من الحج واثبت سجدة ص وجعلها من العزائم ،

وعن أحمد روايتان : إحداهما كالشافعى . . والثانية خمس عشرة زاد ص ، وهو قول أبى العباس ابن شريح وابى اسحق المروزى من أصحاب الشافعى ، وعن مالك روايتان : أحداهما كالشافعى وأشهرها احدى عشرة ،- أسقط النجم ، وإذا السماء انشقت ، واقرأ ، وهو قول قديم للشافعى ، والصحيح ماقدمناه .

وأما محلها فسجدة الأعراف فى آخرها ، والرعد عقيب قوله عزوجل ﴿ بالغدو والآصال ﴾ والنحل ﴿ ويفعلون مايؤمرون ﴾ وفى سبحانه ﴿ ويزيدهم خشوعا ﴾ وفى مريم ﴿ خروا سجدوا وبكيا ﴾ والأولى من سجدتى الحج ﴿ إن الله يفعل مايشاء ﴾ ، والثانية ﴿ وافعلوا الخير لعلكم تفلحون ﴾ ، والفرقان ﴿ وزادهم نفورا ﴾ ، والنمل ﴿ رب العرش العظيم ﴾ ، وألم تنزيل ﴿ وهم لايستكبرون ﴾ وحم ﴿ لايسأمون ﴾ ، والنجم فى آخرها ، وإذا السماء انشقت ﴿ لايسجدون ﴾ واقرأ فى آخرها . .

(فصل)

حكم سجود التلاوة حكم صلاة النافلة فى اشتراط الطهارة من الحدث ، ومن النجاسة ، وفى استقباله القبلة ، وستر العورة ، فتحرم على من ببدنه أو ثوبه نجاسة غير معفو عنها ، وعلى المحدث إلا إذا يتيمم فى موضع يجوز فيه التيمم ، وتحرم إلى غير القبلة إلا فى السفر حيث تجوز النافلة إلى غير القبلة ، وهذا كله متفق عليه .

(فصل : فيمن يسن له السجود)

أعلم أنه يسن للقارىء المطهر بالماء أو التراب حيث يجوز سواء كان فى الصلاة أوخارجا عنها ، ويسن للمستمع ويسن أيضا للسامع غير المستمع ، ولكن قال الشافعى : لا يؤكد فى حقه كما يؤكد فى حق المستمع ، وهذا هو الصحيح .

وقال إمام الحرمين من أصحابنا : لايسجد السامع والمشهور الأول وسواء كان القارىء فى الصلاة أو خارجا عنهايسن للسامع والمستمع السجود ، وسواء سجد القارىء أم لا هذا هو الصحيح المشهور عند أصحاب الشافعى لايسجد المستمع لقراءة من فى الصلاة ، وقال الصيدلانى من أصحاب الشافعى : لايسن السجود إلا أن يسجد القارىء والصواب الأول .

(فصـــل)

إن كان مصليا منفردا سجد لقراءة نفسه ، فلو ترك سجود التلاوة وركع ، ثم أراد أن يسجد للتلاوة لم يجز ، فإن فعل مع العلم بطلت صلاته ، وإن كان قد هوى لسجود التلاوة ثم بدأ له ورجع الى القيام جاز ، اما اذا اصغى المنفرد بالصلاة لقراءة قارىء فى انصلاة أو غيرها فلايجوز له أن يسجد ، ولو سجد مع العلم بطلت صلاته . أما المصلى فى جماعة ، فإن كان إماما فهو كالمنفرد ، وإذا سجد الإمام لتلاوة نفسه وجب على المأموم أن يسجد معه فإن لم يفعل بطلت صلاته ، فإن لم يسجد الإمام لم يجز للمأموم السجود فإن سجد بطلت صلاته ، ولكن يستحب أن يسجد إذا فرغ من الصلاة ولايتأكد ولو سجد الإمام ولم يعلم المأموم حتى رفع الإمام رأسه من السجود ، فهو معذور فى تخلفه ، ولايجوز أن يسجد ، ولو علم والإمام بعد فى السجود وجب السجود ، فلو هوى إلى السجود فرفع الإمام رأسه وهو فى الهوى ، يرفع معه ولم يجز السجود وكذا الضعيف الذى هوى مع الإمام إذا رفع الإمام قبل بلوغ الضعيف إلى السجود الامام وبطء المأموم يرجع معه ولايسجد ، وأما إن كان المصلى مأموما فلايجوز ان يسجد لقراءة نفسه ولا لقراءة غير إمامه فان سجد بطلت صلاته ، وتكره له قراءة غير إمامه .

(فصل : فى وقت السجود للتلاوة)

قال العلماء : ينبغى أن يقع عقيب آية السجود التى قرأها أو سمعها ، فان أخر ولم يطل الفصل سجد ، وإن طال فقد فات السجود ، فلايقضى على المذهب الصحيح المشهور ، كما لاتقضى صلاة الكسوف ، أما إذا كان القارىء أو المستمع محدثا عند تلاوة السجدة ، فإن تطهر عن قرب سجد وإن تأخر طهارته حتى طال الفصل ، فالصحيح المختار الذى قطع به الأكثرون أنه لايسجد ، وقيل يسجد ، وهو اختيار البقوى من أصحابنا ، كما يجيب المؤذن بعد الفراغ من الصلاة ، والاعتبار فى طول الفصل فى هذا بالعرف على المختار ، والله أعلم .

(فصـــل)

إذا قرأ السجدات كلها أو سجدات منها فى مجلس واحد سجد لكل سجدة بلاخلاف ، فان كرر الآية الواحدة فى مجالس سجد لكل مرة بلاخلاف ، فان كررها فى المجلس الواحد نظر فإن لم يسجد للمرة الأولى كفاه سجدة واحدة عن الجميع ، وإن سجد للأولى ففيه ثلاثة أوجه . أصحها يسجد لكل مرة سجدة ، لتجدد السبب بعد توفيه حكم الأول والثانى : يكفيه سجدة الأولى عن الجميع ، وهو قول ابن سريج ، وهو مذهب أبى حنيفة رحمه الله .

قال صال صاحب العدة من أصحابنا ، وعليه الفتوى ، واختاره الشيخ نصر المقدسى الزاهد من

أصحابنا ، والثالث إن طال الفصل سجد ، والا فتكفيه الأولى ، أما إذا كرر السجدة الواحدة فى الصلاة ، فإن كان فى ركعة فهى كالمجلس الواحد ، فيكون فيه الأوجه الثلاثة ، وإن كان فى ركعتين فكالمجلسيين فيعيد السجود بلا خلاف .

(فصل)

اذا قرأ آية السجدة فى الصلاة قبل الفاتحة ، سجد بخلاف ما إذا قرأ فى الركوع أو السجود ، فإنه لايجوز أن يسجد ، لأن القيام محل القراءة ، ولو قرأ السجدة فهوى ليسجد ، فشك هل قرأ الفاتحة ، فإنه يسجد للتلاوة ، ثم يعود إلى القيام فيقرأ الفاتحة ، لأن سجود التلاوة لايؤخر .

(فصل)

لاتكره قراءة آية السجدة للإمام عندنا ، سواء كانت الصلاة سرية أو جهرية ، ويسجد إذا قرأها ، وقال مالك يكره ذلك مطلقا ، وقال أبوحنيفة يكره فى السرية دون الجهرية .

(فصل)

لايكره عندنا سجود التلاوة فى الأوقات التى نهى عن الصلاة فيها ، وبه قال الشعبى والحسن البصرى وسالم بن عبدالله والقاسم وعطاء وعكرمة وأبوحنيفة وأصحاب الرأى ومالك فى احدى الروايتين ، وكرهت ذلك طائفة من العلماء منهم عبدالله بن عمرو سعيد بن المسبب ومالك فى الرواية الأخرى واسحق ابن راهويه وأبو ثور

(فصل)

لايقوم الركوع مقام سجدة التلاوة فى حال الاختيار ، وهذا مذهبنا ومذهب جماهير العلماء من السلف والخلف ، وقال أبوحنيفة رحمه الله : يقوم مقامه ، ودليل الجمهور القياس على سجود الصلاة ، العاجز عن السجود فيومىء إليه كما يومىء لسجود الصلاة .

(فصل : فى صفة السجود)

أعلم أن الساجد للتلاوة له حالان : احدهما أن يكون خارج الصلاة ، والثانى أن يكون فيها ، أما الأول فإن أراد السجود نوى سجود التلاوة وكبر للأحرام ورفع يديه حذو منكبيه ، كما يفعل فى تكبيرة الاحرام للصلاة ، ثم يكبر تكبيرة أخرى للهوى إلى السجود ، ولايرفع فيها اليد ، وهذه التكبيرة الثانية

مستحبة ليست بشرط كتكبيرة الصلاة ، وأما التكبيرة الأولى تكبيرة الأحرام ففيها ثلاثة أوجه لأصحابنا : أظهرها وهو قول الأكثرية منهم أنها ركن ولايصح السجود إلا بها ، والثانى أنها مستحبة ، ولو تركت صح السجود ، وهذا قول الشيخ أبى محمد الجوينى ، والثالث ليست مستحبة ، والله أعلم . ثم إن كان الذى يريد السجود قائما كبر للاحرام فى حال قيامه ، ثم يكبر للسجود فى انحطاطه إلى السجود ، وإن كان جالسا فقد قال جماعات من أصحابنا : يستحب له أن يقوم ، فيكبر للاحرام قائما ، ثم يهوى للسجود ، كما إذا كان فى الابتداء قائما ، ودليل هذا القياس على الإحرام والسجود فى الصلاة ، وممن نص على هذا وجزم به من أئمة أصحابنا الشيخ أبومحمد الجوينى والقاضى حسين وصاحباه(النقمة والتهذيب)والإمام المحقق أبوالقاسم الرافعى وحكاه إمام الحرمين عن والده الشيخ أبى محمد ، ثم أنكره وقال لم أر لهذا أصلا ولاذكر ، وهذا الذى قاله إمام الحرمين ظاهر فلم يثبت فيه شىء من النبى ﷺ ولا عمن يقتدى به من السلف ولاتعرض له الجمهور من أصحابنا ، والله أعلم .

إذا سجد فينبغى أن يراعى آداب السجود فى الهيئة والتسبيح ، أما الهيئة فينبغى أن يضع يديه حذو منكبيه على الأرض ، ويضم أصابعه وينشرها إلى جهة القبلة ، ويخرجها من كمه ، ويباشر المصلى بها ، ويجافى مرفقيه عن جنبيه ، ويرفع بطنه عن فخذيه إن كان رجلا ، فإن كانت امرأة أوخنثى لم يجاف ، ويرفع الساجد أسافله على رأسه ، ويمكن جبهته وأنفه من المصلى ، ويطمئن فى سجوده ، وأما التسبيح فى السجود ، فقال أصحابنا يسبح بما يسبح به فى سجود الصلاة ، فيقول ثلاث مرات سبحان ربى الأعلى ، ثم يقول : اللّهم لك سجدت وبك آمنت ولك أسلمت ، سجد وجهى للذى خلقه وصوره ، وشق سمعه وبصره بحوله وقوته تبارك الله أحسن الخالقين ، ويقول : سبوح قدوس رب الملائكة والروح ، فهذا كله مما يقوله المصلى فى سجود الصلاة ، قالوا : ويستحب أن يقول : اللهم اكتب لى بها عندك أجرا واجعلها لى عندك ذخرا وضع عنى وزرا واقبلها منى كما قبلتها من عبدك داود ﷺ ، وهذا الدعاء خصيص بهذا السجود ، فينبغى أن يحافظ عليه ، وذكر الاستاذ اسماعيل الضرير فى كتابه (التفسير) أن اختيار الشافعى رضى الله عنه فى دعاء سجود التلاوة أن يقول (سبحان ربنا ، إن كان وعد ربنا لمفعولا) وهذا النقل عن الشافعى غريب جدا ، وهو حسن ، فإن ظاهر القرآن ، يقتضى مدح قائله فى السجود ، فيستحب أن يجمع بين هذه الأذكار كلها ، ويدعو بما يريد من أمور الآخرة والدنيا ، وإن اقتصر على بعضها ، حصل اصل التسبيح ، ولو لم يسبح بشىء أصلا وحصل السجود كسجود الصلاة ، ثم إذا فرغ من التسبيح والدعاء رفع رأسه مكبرا وهل يفتقر إلى السلام ؟ فيه قولان منصوصان للشافعى مشهوران : أصحهما عند جماهير أصحابه أنه يفتقر لافتقاره إلى الاحرام ، ويصير كصلاة الجنازة ، ويؤيد هذا مارواه ابن أبى داود باسناده الصحيح عن عبدالله ابن مسعود رضى الله عنه أنه كان إذا قرأ السورة سجد ثم سلم ، والثانى لايفتقر كسجود التلاوة فى الصلاة ولأنه لم ينقل عن النبى ﷺ ذلك ، فعلى الأول هل يفتقر إلى التشهد ؟ فيه وجهان : أصحهما لايفتقر كما لايفتقر إلى القيام وبعض أصحابنا يجمع بين المسألتين ويقول فى التشهد والسلام ثلاثة أوجه ، أصحها أنه لابد من السلام دون التشهد ، والثانى لايحتاج إلى واحد منهما ، والثالث

لابد منها ، وممن قال من السلف يسلم محمد بن سيرين وأبوعبدالرحمن السلمى وابوالأخوص وأبوقلابة واسحاق ابن راهوية ، وممن قال لايسلم الحسن البصرى وسعيد بن جبير وابراهيم النخعى ويحيى بن وتاب وأحمد ، وهذا كله فى الحال الأول وهو السجود خارج الصلاة ، والحال الثانى أن يسجد للتلاوة فى الصلاة ، فلايكبر للاحرام ، ويستحب أن يكبر للسجود ، ولايرفع يديه ، ويكبر للرفع من السجود ، هذا هو الصحيح المشهور الذى قاله الجمهور .

وأما الآداب فى هيئة السجود والتسبيح فعلى ماتقدم فى السجود خارج الصلاة ، إلا أنه إذا كان الساجد إماما ، فينبغى أن لايطول التسبيح ، إلا أن يعلم من حال المأمومين أنهم يؤثرون التطويل ، ثم إذا رفع من السجود قام ولايجلس للاستراحة بلا خلاف ، وهذه مسألة غريبة قل من نص عليها ، ومن نص عليها القاضى حسين واليغوى والرافعى .

هذا بخلاف سجود الصلاة ، فإن القول الصحيح المنصوص للشافعى المختار وغيره ، استحباب جلسته للاستراحة عقب السجدة الثانية من الركعة الأولى فى كل الصلوات ، ومن الثالثة فى الرباعيات ، ثم إذا رفع من سجدة التلاوة ، فلابد من الانتصاب قائما ، والمستحب إذا انتصب أن يقرأ شيئا ، ثم يركع ، فان انتصب ثم ركع من غير قراءة جاز .

(فصل : فى الأوقات المختارة للقراءة)

اعلم أن أفضل القراءة ماكان فى الصلاة ، ومذهب الشافعى وغيره ، أن تطويل القيام فى الصلاة أفضل من تطويل السجود وغيره ، وأما القراءة فى غير الصلاة ، فأفضلها قراءة الليل ، والنصف الأخير من الليل أفضلها من النصف الأول ، والقراءة بين المغرب والعشاء محبوبة ، وأما القراءة فى النهار فأفضلها بعد صلاة الصبح ولاكراهية فى القراءة فى وقت من الأوقات لمعنى فيه ، وأما ماروواه ابن ابى داود عن معاذ ابن رفاعه عن مشايخه أنهم كرهوا القراءة بعد العصر وقالوا هى دراسة اليهود ، فغير مقبول ولا أصل له ، ويختار من الأيام الجمعة والاثنين والخميس ويوم عرفة ، ومن الأعشار العشر الأخير من رمضان ، والعشر الأول من ذى الحجة . ومن الشهور رمضان .

(فصـــل)

اذا ارتج على القارىء ولم يدر مابعد الموضع الذى انتهى اليه ، فسأل عنه غيره ، فينبغى أن يتأدب بما جاء عن عبدالله بن مسعود وابراهيم النخعى وبشير بن ابى سعود رضى الله عنهم . قالوا : اذا سأل أحدكم أخاه عن آية فليقرأ ماقبلها ثم يسكت ولايقول كيف كذا وكذا فانه يلبس عليه .

(فصـــل)

وإذا أراد أن يستدل بآية فله أن يقول : قال الله تعالى كذا ، وله أن يقول : الله تعالى يقول كذا ، ولاكراهة فى شىء من هذا ، ، هذا هو الصحيح المختار الذى عليه عمل السلف والخلف .

(فصل فى أداب الختم ومايتعلق به)

فيه مسائل : الأولى فى وقفه ، قد تقدم أن الختم للقارىء وحده يستحب أن يكون فى ركعتى سنة الفجر وركعتى سنة المغرب ، وفى ركعتى الفجر أفضل ، وأنه يستحب أن يختم ختمه فى أول النهار فى دور ، ويختم ختمه أخرى فى آخر النهارفى دور آخر ، وأما من يختم فى غير الصلاة والجماعة الذين يختمون مجتمعين ، فيستحب أن تكون ختمتهم أول النهار أو فى أول الليل كما تقدم ، وأول النهار أفضل عند بعض العلماء .

المسألة الثانية : يستحب صيام يوم الختم إلا أن يصادف يوما نهى الشرع عن صيامه ، وقد روى ابن ابى داود باسناده الصحيح : أن طلحة بن مطرف وحبيب بن أبى ثابت والمسيب بن رافع التابعين الكوفيين رضى الله عنهم أجمعين كانوا يصبحون فى اليوم الذى يختمون فيه القرآن صياما .

المسألة الثالثة : يستحب حضور مجلس ختم القرآن استحبابا متأكدا ، فقد ثبت فى الصحيحين « أن رسول الله ﷺ أمر الحيض بالخروج يوم العيد ليشهدن الخير ودعوة المسلمين »[1] وروي الدرامى وابن أبى داود باسنادهما عن ابن عباس رضى الله عنهما انه كان يجعل رجلا يراقب رجلا يقرأ القرآن . فإذا أراد أن يختم اعلم ابن عباس فيشهد ذلك . وروى ابن ابى داود باسنادين صحيحين عن قتادة التابعى الجليل صاحب أنس بن مالك رضى الله عنه ، قال كان أنس بن مالك رضى الله عنه اذا ختم القرآن جمع أهله ودعا . وروى باسانيده الصحيحة عن الحكم بن عيينه التباعى الجليل . قال : أرسل إلى مجاهد وعتبة بن لبابة فقالا إنا أرسلنا إليك لأنا أردنا أن نختم القرآن ، والدعاء يستجاب عند ختم القرآن ، وفى بعض الروايات الصحيحة وأنه كان يقال : إن الرحمة تنزل عند خاتمة القرآن .

وروى باسناده الصحيح عن مجاهد قال : كانوا يجتمعون عند ختم القرآن يقولون تنزل الرحمة .

المسألة الرابعة : الدعاء مستحب عقب الختم استحبابا متأكدا ، لما ذكرناه فى المسألة التى قبلها ، وروى الدارمى باسناده عن حميد الأعرج من قرأ القرآن ثم دعا أمن على دعائه أربعة آلاف ملك ، وينبغى أن يلح فى الدعاء ، وأن يدعو بالأمور المهمة ، وأن يكثر فى ذلك فى صلاح المسلمين وصلاح سلطانهم وسائر ولاة أمورهم ، وقد روى الحاكم أبوعبدالله النيسابورى باسناده أن عبدالله بن المبارك رضى الله عنه

---

(١) اخرجه البخارى فى صحيحه فى (صلاة العيدين والتجمل فيها) ٢/٢٨ عن ام عطية وأخرجه مسلم فى صحيحه (كتاب صلاة العيدين) باب ذكر اباحة خروج النساء فى العيدين الى المصلى وشهود الخطبة .. الخ ٦٠٥/١ رقم ٨٩٠/١٠

كان إذا ختم القرآن ، كان أكثر دعائه للمسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات ، وقد قال نحو ذلك غيره فيختاره الداعى الدعوات الجامعة كقوله : اللهم اصلح قلوبنا ، وأزل عيوبنا وتولنا بالحسنى ، وزينا بالتقوى ، وأجمع لنا خير الآخرة والأولى ، وارزقنا طاعتك ماأبقيتنا ، اللهم يسرنا لليسرى ، وجنبنا العسرى ، وأعذنا من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، وأعذنا من عذاب النار وعذاب القبر ، وفتنة المحيا والممات ، وفتنة المسيح الدجال ، اللهم انا نسألك الهدى والتقوى والعفاف والغنى ، اللهم إنا نستودعك ديننا وأبداننا وخواتيم أعمالنا وأنفسنا وأهلينا وأحبابنا وسائر المسلمين ، وجميع ما أنعمت علينا وعليهم من أمور الآخرة والدنيا ، اللهم إنا نسألك العفو والعافية فى دار كرامتك بفضلك ورحمتك ، اللهم أصلح ولاة المسلمين ، ووفقهم للعدل فى رعاياهم ، والإحسان إليهم ، والشفقة عليهم ، والرفق بهم والاعتناء بمصالحهم ، وحببهم إلى الرعية ، وحبب الرعية اليهم ، ووفقهم لصراطك المستقيم ، والعمل بوظائف دينك القويم ، اللهم أصلح أحوال المسلمين وأرخص أسعارهم ، وأمنهم فى أوطانهم واقض ديونهم ، وعاف مرضاهم وانصر جيوشهم ، وسلم غيابهم ، وفك أسرهم ، وأشف صدورهم ، واذهب غيظ قلوبهم ، وألف بينهم واجعل فى قلوبهم الإيمان والحكمة الذى عاهدتم عليه ، وانصرهم على عدوك وعدوهم ، إله الحق ، واجعلنا منهم ، اللهم اجعلهم آمرين بالمعروف ، فاعلين له ، ناهين عن المنكر مجتنبين له ، محافظين على حدودك ، قائمين على طاعتك متناصفين متناصحين ، اللهم صفهم فى أقوالهم وأفعالهم ، وبارك لهم فى جميع أحوالهم. ويفتح دعاءه ويختمه بقوله : الحمدلله رب العالمين حمدا يوافى نعمه ، ويكافىء مزيده ، اللهم صلى وسلم على سيدنا محمد وعلى آل محمد كما صليت على ابراهيم وعلى آل اراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم فى العالمين انك حميد مجيد .

المسألة الخامسة : يستحب إذا فرغ من الختمة أن يشرع فى أخرى عقيب الختمة فقد استحبه السلف ، واحتجوا فيه بحديث أنس رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « خير الأعمال الحل والرحلة ، قيل : وماهما ؟ قال : افتتاح القرآن وختمه »[1] .

(١) أخرجه النووى فى الاذكار برقم ٩٨

الباب السابع
فى آداب الناس كلهم مع القرآن

ثبت فى صحيح مسلم رضى الله عنه عن تميم الداری رضى الله عنه قال : « إن النبى ﷺ قال : « الدين النصيحة ، قلنا لمن ؟ قال لله ولكتابه ولرسوله ولائمة المسلمين وعامتهم »[1] قال العلماء رحمهم الله : النصيحة لكتاب الله تعالى هى : الإيمان بأنه كلام الله تعالى وتنزيله لايشبهه شيء من كلام الخلق ولايقدر على مثله الخلق بأسرهم ثم تعظيمه وتلاوته حق تلاوته وتحسينها ، والخشوع عندها ، وإقامة حروفه فى التلاوة ، والذب عنه لتأويل المحرفين وتعرض الطاغين ، والتصديق بما فيه ، والوقوف مع أحكامه وتفهم علومه وامثاله ، والاعتناء بمواعظه ، والتفكير فى عجائبه ، والعمل بمحكمه ، والتسليم بمتشابهه والبحث عن عمومه وخصوصه وناسخه ومنسوخه ، ونشر علومه والدعاء إليه وإلى ماذكرناه من نصيحته .

(فصـــل)

أجمع المسلمون على وجوب تعظيم القرآن العزيز على الإطلاق وتنزيهه وصيانته وأجمعوا على أن من جحد منه حرفا مما أجمع عليه أو زاد حرفا لم يقرأ به أحد ، وهو عالم بذلك ، فهو كافر . قال الإمام الحافظ أبوالفضل القاضى عياض رحمه الله : اعلم أن من استخف بالقرآن ، أو بالمصحف ، أو بشيء منه ، أو سبهما ، أو جحد حرفا منه أو كذب بشيء مما صرح به فيه من حكم أو خبر ، أو أثبت مانفاه ، أو نفى ما أثبته ، وهو عالم بذلك ، أو يشك فى شيء من ذلك فهو كافر بإجماع المسلمين ، وكذلك إذا جحد التوراة والإنجيل ، أو كتب الله المنزلة ، أو كفر بها ، أو سبها ، أو استخف بها ، فهو كافر .

قال : وقد أجمع المسلمون على أن القرآن المتلو فى الأقطار المكتوب فى الصحف ، الذى بأيدى المسلمين مما جمعه الدفتان من أول الحمدلله رب العالمين إلى آخر قل أعوذ برب الناس ، كلام الله ووحيه المنزل على نبيه محمد ـ ﷺ ـ وأن جميع مافيه حق ، وأن من نقص منه حرفا قاصدا لذلك ، أو بدله زاد فيه حرفا قاصدا لذلك ، أو بدله بحرف آخر مكانه ، أو زاد فيه حرفا مما لم يشتمل عليه المصحف ، الذى وقع فيه الإجماع وأجمع على أنه ليس بقرآن عامدا لكل هذا ، فهو كافر . قال أبو عثمان بن الحذاء ، جميع أهل التوحيد متفقون على أن الجحد بحرف من القرآن كفر ، وقد اتفق فقهاء بغداد على استتابة ابن شنبوذ المقرء احد أئمة المقرئين المتصدرين بها مع ابن مجاهد لقراءاته واقرانه بشواذ من الحروف مما ليس فى المصحف ، وعقدوا عليه للرجوع عنه والتوبة سجلا اشهدوا فيه على نفسه فى مجلس الوزير أبى بن مقلة سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة ، وأفتى محمد بن ابى زيد فيمن قال لصبى : لعن الله معلمك وما علمك ، قال : أردت سوى الأدب ولم أرد القرآن قال يؤدب القائل .

---

(١) اخرجه البخارى فى الايمان حـ١ ص٢٢ ومسلم فى صحيحه (كتاب الايمان) برقم ٦٥

قال : وأما من لعن المصحف فإنه يقتل هذا آخر كلام القاضى عياض رحمه الله .

(فصـــل)

ويحرم تفسيره بغير علم ، والكلام فى معانيه لمن ليس من أهلها ، والأحاديث فى ذلك كثيرة ، والاجماع منعقد عليه ، وأما تفسيره للعلماء فجائز حسن والإجماع منعقد عليه ، فمن كان أهلا للتفسير ، جامعا للأدوات التى يعرف بها معناه وغلب على ظنه المراد ، فسره إن كان مما يدرك بالاجتهاد ، كالمعانى والاحكام الجلية والخفية ، والعموم والخصوص ، والإعراب ، وغير ذلك ، وإن كان مما لايدرك بالاجتهاد ، كالأمور التى طريقها النقل ، وتفسير الألفاظ اللغوية ، فلايجوز الكلام فيه ، إلا بنقل صحيح من جهة المعتمدين من أهله ، وأما من كان ليس من أهله لكونه غير جامع لأدواته ، فحرام عليه التفسير ، لكن له أن ينقل التفسير عن المعتمدين من أهله .

ثم المفسرون برأيهم من غير دليل صحيح أقسام ، منهم من يحتج بأنه على تصحيح مذهبه وتقوية خاطره مع أنه لايغلب على ظنه أن ذلك هو المراد بالآية ، وإنما يقصد الظهور على خصمه ، ومنهم من يقصد الدعاء إلى خير ويحتج بآية من غير أن تظهر له دلالة لما قاله ، ومنهم من يفسر الفاظه العربية ، من غير وقوف على معانيها عند أهلها ، وهى مما لايؤخذ إلا بالسماع من أهل العربية وأهل التفسير ، كبيان معنى اللفظ واعرابها ومافيها من الحذف والاختصار ، والإضمار والحقيقة والمجاز ، والعموم والخصوص ، والتقديم والتأخير ، والاجمال والبيان وغير ذلك مما هو خلاف الظاهر ، ولايكفى مع ذلك معرفة العربية وحدها ، بل لابد معها من معرفة ماقاله أهل التفسير فيها ، فقد يكونون مجتمعين على ترك الظاهر ، أو على إرادة الخصوص ، أو الاخبار وغير ذلك ، مما هو خلاف الظاهر ، وكما اذا كان اللفظ مشتركا فى معان ، فعلم فى موضع أن المراد أحد المعانى ، ثم فسر كل ماجاء به ، فهذا كله تفسير بالرأى ، وهو حرام ، والله اعلم . .

(فصـــل)

يحرم المراء فى القرآن والجدال فيه بغير حق ، فمن ذلك أن يظهر فيه دلالة الآية على شىء ، يخالف مذهبه ، ويحتمل احتمالا ضعيفا موافقة مذهبه ، فيحملها على مذهبه ، ويناظر على ذلك مع ظهورها فى خلاف مايقول . وأما من لايظهر له ذلك فهو معذور ، وقد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال « المراء فى القرآن كفر »[(١)] قال الخطابى المراد بالمراء الشك . وقيل : الجدال المشكك فيه ، وقيل وهو الجدال الذى يفعله أهل الأهواء فى آيات القدر ونحوها .

---

(١) أخرجه أبو داود فى سننه (كتاب السنة) باب النهى عن الجدال فى القرآن ٥/٩ رقم ٤٦٠٣ وأحمد فى مسنده ٣٠٠/٢ والبهيقى فى مجمع الزوائد ١٥٧/١

(فصـــل)

وينبغى لمن أراد السؤال عن تقديم آية على آية فى المصحف ، أو مناسبة هذه الآية فى هذا الموضع ، ونحو ذلك ، أن يقول : مالحكمة فى كذا .

(فصـــل)

يكره أن يقول نسيت آية كذا ، بل يقول أنسيتها أو اسقطتها ، فقد ثبت فى الصحيحين عن عبدالله ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « لا يقول أحدكم نسيت آية كذا وكذا ، بل هو شىء » نسى » وفى رواية فى الصحيحين أيضا « بئسما لأحدكم أن يقول نسيت آية كيت وكيت ، بل هو نسى » وثبت فى الصحيحين أيضا عن عائشة رضى الله عنها » « أن النبى ﷺ سمع رجلا يقرأ فقال : « رحمه الله لقد ذكرنى آية كنت أسقطتها » وفى رواية فى الصحيح « كنت أنسيتها »[1] .

(فصـــل)

ويجوز أن يقال سورة البقرة ، وسورة آل عمران ، وسورة النساء ، وسورة المائدة ، وسورة الأنعام ، وكذا الباقى ولاكراهية فى ذلك ، وكره بعض المتقدمين هذا وقال : يقال السورة التى يذكر فيها آل عمران ، والسورة التى يذكر فيها النساء ، وكذا البواقى ، والصواب الأول ، فقد ثبت فى الصحيحين عند رسول الله ﷺ قوله سورة البقرة وسورة الكهف وغيرهما مما لايحصى ، وكذلك من الصحابة رضى الله تعالى عنهم . قال ابن مسعود ، هذا مقام الذى أنزلت عليه سورة البقرة وعنه فى الصحيحين « قرأنا على رسول الله ﷺ سورة النساء » والأحاديث وأقوال السلف فى هذا أكثر من أن تحصر » .

(فصـــل)

ولايكره أن يقال هذه ، قراءة أبى عمرو أو قراءة نافع أو حمزة أو الكسائى أو غيرهم ، هذا هو المختار الذى عليه السلف والخلف من غير إنكار .

(فصـــل)

لايمنع الكافر من سماع القرآن لقول الله تعالى ﴿ وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ﴾[2] .

---

(١) اخرجه البخارى فى صحيحه ٩١/٨ بنحوه ومسلم فى صحيحه فى (صلاة المسافرين وقصرها) حـ١ ص٥٤٣ رقم ٧٨٨/٢٢٥

(٢) سورة التوبة آية : ٦

ويمنع من مس المصحف ، وهل يجوز تعليمه القرآن ، قال أصحابنا : إن كان لا يرجى إسلامه لم يجز تعليمه وإن رجى إسلامه فوجهان : أصحهما يجوز رجاء إسلامه ، والثانى لا يجوز ، كما لا يجوز بيع المصحف منه وإن رجى اسلامه ، وأما إذا رأيناه يتعلم فهل يمنع فيه وجهان .

(فصل)

اختلف العلماء فى كتابة القرآن فى إناء ثم يغسل ويسقى المريض ، فقال الحسن ومجاهد وأبو قلابة والأوزاعى لا بأس به ، وكرهه النخعى . قال القاضى حسين والبغوى وغيرهما من أصحابنا ولو كتب القرآن على الحلوى وغيرها من الأطعمة فلا بأس بأكلها قال العاصى ولو كان خشبة كره إحراقها .

(فصل)

فذهبنا أنه يكره نقش الحيطان والثياب بالقرآن وبأسماء الله تعالى قال عطاء : لا بأس بكتب القرآن فى قبلة المسجد ، وأما كتابة الحروف من القرآن ، فقال مالك لا بأس به إذا كان فى قصبة أو جلد وخرز عليه وقال أصحابنا : إذا كتب فى الخرز قرآنا مع غيره فليس بحرام . ولكن الأولى تركه ، لكونه يحمل فى حال الحدث ، وإذا كتب يصان بما قاله الامام مالك رحمه الله ، وبهذا افتى الشيخ أبو عمرو بن الصلاح رحمه الله

(فصل : فى النفث مع القرآن للرقبة)

روى ابن أبى داود عن أبى جحيفة الصحابى رضى الله عنه واسمه دهب بن عبد الله وقيل غير ذلك وعن الحسن البصرى وإبراهيم النخعى أنهم كرهوا ذلك ، والمختار أن ذلك غير مكروه بل هو سنة مستحبة ، فقد ثبت عن عائشة رضى الله عنها « أن النبى ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم نفث فيهما فقرأ فيهما قل هو الله أحد ، وقل أعوذ برب الفلق ، وقل أعوذ برب الناس ، ثم مسح بهما ما استطاع من جسده يبدأ بهما على رأسه ووجهه ، وما أقبل من جسده يفعل ذلك ثلاث مرات » رواه البخارى ومسلم فى صحيحيهما وفى روايات فى الصحيحين زيادة على هذا ، ففى بعضها قالت عائشة رضى الله عنها « فلما اشتكى كان يأمرنى أن أفعل ذلك به » وفى بعضها « كان النبى ﷺ ينفث على نفسه فى المرض الذى مات فيه بالمعوذات قالت عائشة رضى الله عنها فلما ثقل كنت أنفث عليه بهن وامسح بيد نفسه لبركتها »[١] قال أهل اللغة : النفث عليه بهن لطيف بلا ريق ، والله أعلم .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه ١٧٠/٧ ، ١٧٤ وأحمد ١٦٦/٦ والنووى فى الأذكار برقم ١٢٢

الباب الثامن
فى الآيات والسور المستحبة فى أوقات وأحوال مخصوصة

اعلم أن هذا الباب واسع جدا ، لا يمكن حصره ، لكثرة ماجاء فيه ، ولكن نشير إلى أكثره ، أو كثير منه بعبارات وجيزة فإن أكثر الذى نذكره فيه معروف للخاصة والعامة ، ولهذا لا أذكر الأدلة فى أكثره ، فمن ذلك كثرة الأعتناء بتلاوة القرآن فى شهور رمضان ، وفى العشر الأخير آكد ، وليالى الوتر منه آكد، ومن ذلك العشر الأولى من ذى الحجة ، ويوم عرفة ، ويوم الجمعة ، وبعد الصبح ، وفى الليل ، وينبغى أن يحافظ على قراءة يس والواقعة وتبارك (الملك) .

(فصل)

السنة أن يقرأ فى صلاة الصبح يوم الجمعة بعد الفاتحة فى الركعة الأولى سورة الم تنزيل بكمالها ، وفى الثانية هل أتى على الانسان بكمالها ، ولا يفعل ما يفعله كثير من أئمة المساجد من الاقتصار على آيات من كل منهما ، ويدرج واحدة منهما مع تمطيط القراءة ، بل ينبغى أن يقرأهما بكمالهما ، ويدرج قراءته مع ترتيل ، والسنة أن يقرأ فى صلاة الجمعة فى الركعة الأولى سورة الجمعة بكمالها ، وإن شاء (سبح اسم ربك الأعلى) ، وفى الثانية (هل أتاك حديث الغاشية) ، فكلاهما صحيح عن رسول الله ﷺ ، وليجتنب الاقتصار على البعض ، وليفعل ما قدمناه ، والسنة فى صلاة العيد فى الركعة الأولى سورة ق ، وفى الثانية سورة اقتربت الساعة بكمالها ، وإن شاء سبح ، وهل أتاك ، فكلاهما صحيح عن رسول الله ﷺ وليجتنب الاقتصار على البعض .

(فصل)

ويقرأ فى ركعتى سنة الفجر بعد الفاتحة ، قل يا أيها الكافرون وفى الثانية قل هو الله أحد ، وإن شاء قرأ فى الأولى ﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا ﴾ الآية ، وفى الثانية : ﴿ قل ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ﴾ الآية فكلاهما صحيح من فعل رسول الله ﷺ ويقرأ فى سنة المغرب (قل يا أيها الكافرون) (وقل هو الله أحد) ويقرأ بهما فى ركعتى الطواف ، وركعتى الاستخارة ، ويقرأ من أوتر بثلاث ركعات فى الركعة الأولى (سبح اسم ربك الأعلى) وفى الثانية (قل ياأيها الكافرون) وفى الثالثة (قل هو الله أحد) والمعوذتين .

(فصل)

ويستحب أن يقرأ سورة الكهف يوم الجمعة لحديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه وغيره فيه . قال الإمام الشافعى فى الأم ويستحب أن يقرأها أيضا ليلة الجمعة ، ودليل هذا مارواه أبو محمد الدارمى بإسناده عند أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال « من قرأ سورة الكهف ليلة الجمعة أضاء له النور فيما بينه

وبين البيت العتيق » وذكر الدارمى حديثا فى استحباب قراءة سورة هود يوم الجمعة ، وعن مكحول التابعى الجليل استحباب قراءة آل عمران يوم الجمعة .

(فصل)

ويستحب الاكثار من تلاوة آية الكرسى فى جميع المواطن ، وأن يقرأها كل ليلة إذا أوى إلى فراشه ، وأن يقرأ المعوذتين عقب كل صلاة ، فقد صح عن عقبة بن عامر رضى الله عنه قال « أمرنى رسول الله ﷺ أن أقرأ المعوذتين دبر كل صلاة » رواه أبو داود والترمذى والنسائى قال الترمذى : حديث صحيح[1]

يستحب أن يقرأ عند النوم آية الكرسى ، وقل هو الله أحد ، ، والغسق وآخر سورة البقرة ، فهذا مما يهتم له ، ويتأكد الاعتناء به ، فقد ثبت فيه أحاديث صحيحة عن أبى سعيد البدرى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « الآيتان من آخر سورة البقرة من قرأ بهما فى ليلة كفتاه » قال جماعة من أهل العلم كفتاه عن قيام الليل وقال آخرون : كفتاه المكروه فى ليلته وعن عائشة رضى الله عنها « أن النبى ﷺ كان كل ليلة يقرأ قل هو الله أحد والمعوذتين[2]

وعن إبراهيم النخعى قال « كانوا يستحبون أن يقرءوا هذه السور كل ليلة ثلاث مرات قل هو الله أحد ، والمعوذتين » اسناد صحيح على شرط مسلم عن عائشة رضى الله عنها « كان النبى ﷺ لا ينام حتى يقرأ الزمر وبنى إسرائيل » رواه الترمذى ، وقال حسن . ويستحب أن يقرأ إذا استيقظ من النوم كل ليلة آخر آل عمران من قوله تعالى : ﴿ إن فى خلق السموات ﴾ إلى آخرها ، فقد ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ كان يقرأ خواتيم آل عمران إذا استيقظ »[3]

(فصل : فيما يقرأ عند المريض)

يستحب أن يقرأ عند المريض بالفاتحة لقوله ﷺ فى الحديث الصحيح فيها « وما أدراك أنها رقية » ويستحب أن يقرأ عنده قل هو الله أحد ، وقل أعوذ برب الفلق ، وقل أعوذ برب الناس مع النفث فى اليدين ، فقد ثبت فى الصحيحين من فعل رسول الله ﷺ وقد تقدم بيانه فى فصل النفث فى آخر الباب الذى قبل هذا ، وعن طلحة بن مطرف قال : كان المريض إذا قرىء عنده القرآن وجد لذلك خفة ، فدخلت على خثيمة وهو مريض فقلت إنى أراك اليوم صالحا ، فقال إنى قرىء عندى القرآن ، وروى الخطيب أبو بكر البغدادى رحمه الله بإسناده : أن الرمادى رضى الله عنه كان إذا اشتكى شيئاً قال هاتوا أصحاب الحديث فإذا حضروا قال : اقرءوا علىَّ الحديث ، فهذا الحديث فالقرآن أولى .

---

(١) أخرجه أبو داود فى سننه (كتاب الصلاة) باب فى الاستغفار ٢/١٨١ رقم ١٥٢٣ والنسائى فى سننه (الافتتاح) باب الأمر بقراءة المعوذات والترمذى فى سننه فى (ثواب القرآن وفضائله) برقم ٢٩٠٥ وقال : حسن قريب

(٢) سبق تخرجه

(٣) أخرجه البخارى عن ابن عباس (فضائل القرآن) كتاب التفسير : تفسير سورة آل عمران ٦/٥١ بنحوه

(فصل : فيما يقرأ عند الميت)

قال العلماء من أصحابنا وغيرهم : يستحب أن تقرأ عنده يس لحديث معقل بن يسار رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال « اقرأوا يس على موتاكم » رواه أبو داود والنسائى[1] فى عمل اليوم والليلة وابن ماجه بإسناد ضعيف ، وروى مجالد عن الشعبى قال : كانت الأنصار إذا حضروا عند الميت اقرءوا سورة البقرة ، ومجالد ضعيف ، والله أعلم .

الباب التاسع
فى كتابة القرآن وإكرام المصحف

اعلم أن القرآن العزيز كان مرتبا فى زمن النبى ﷺ على ما هو فى المصاحف اليوم ، ولكن لم يكن مجموعا فى مصاحف بل كان محفوظاً فى صدور الرجال ، فكان طوائف من الصحابة يحفظونه كله وطوائف يحفظونه أبعاضاً منه ، فلما كان زمن أبو بكر الصديق رضى الله عنه وقتل كثير من حملة قرآن خاف موتهم واختلاف من بعدهم فيه فاستشار الصحابة رضى الله عنهم فى جمعه فى مصحف فأشاروا بذلك فكتبه فى مصحف وجعله فى بيت حفصة أم المؤمنين رضى الله عنها ، فلما كان زمن عثمان رضى الله عنه ، وانتشر الاسلام خاف عثمان وقوع الاختلاف المؤدى إلى ترك شىء من القرآن أو الزيادة فيه فنسخ من ذلك المجموع الذى عند حفصة الذى أجمعت الصحابة عليه مصاحف وبعث بها إلى البلدان وأمر بإتلاف ما خالفها ، وكان فعله هذا باتفاق منه ومن على بن أبى طالب وسائر الصحابة وغيرهم رضى الله عنهم : وإنما لم يجعله النبى ﷺ فى مصحف واحد لما كان يتوقع من زيادته ونسخ بعض المتلو ، ولم يزل ذلك التوقع إلى وفاته ﷺ فلما أمن أبو بكر وسائر الصحابة ذلك التوقع ، واقتضت المصلحة جمعه فعلوه رضى الله عنهم ، واختلفوا فى عدد المصاحف التى بعث بها عثمان فقال الإمام أبو عمر الدانى أكثر العلماء على أن عثمان كتب أربع نسخ فبعث إلى البصرة إحداهن ، وإلى الكوفة أخرى ، وإلى الشام أخرى ، وحبس عنده أخرى ، وقال أبو حاتم السجستانى . كتب عثمان سبعة مصاحف بعث واحدا إلى مكة ، وآخر إلى الشام ، وآخر إلى اليمن ، وآخر إلى البحرين ، وآخر إلى البصرة ، وآخر إلى الكوفة ، وحبس بالمدينة واحداً ، وهذا مختصر ما يتعلق بأول جمع المصحف وفيه أحاديث كثيرة فى الصحيح وفى المصحف ثلاث لغات ضم الميم وكسرها وفتحها ، فالضم والكسر مشهوران ، والفتح ذكرها أبو جعفر النحاس وغيره .

---

(١) أخرجه أبو داود فى سننه (كتاب الجنائز) باب القراءة عند الميت ٤٨٩/٣ رقم ٣١٢١ . والنسائى فى عمل اليوم والليلة برقم ١٠٨٢ وابن ماجه فى سننه (كتاب الجنائز) برقم ١٤٤٨

(فصل)

اتفق العلماء على استحباب كتابة المصحف وتحسين كتابتها وتبينها وإيضاحها ، وتحقيق الخط دون مشقة ، وتعليقه قال العلماء ويستحب نقط المصحف وشكله فإنه صيانة من اللحن فيه وتصحيفه ، وأما كراهة الشعبي والنخعى النقط فإنما كرهاه ، فى ذلك الزمان خوفاً من التغيير فيه ، وقد أمن ذلك اليوم فلا منع ، ولا يتمتع من ذلك لكونه محدثاً فإنه من المحدثات الحسنة ، فلم يمنع منه كنظائره مثل تصنيف العلم وبناء المدارس والرباطات وغير ذلك والله اعلم .

(فصل)

لا تجوز كتابة القرآن بشىء بخس ، وتكره كتابته على الجدران عندنا ، وبقية مذهب عطاء الذى قدمناه ، وقد قدمنا أنه إذا كتب على الأطعمة ، نلا بأس بأكلها وأنه إذا كتب على خشبة كره احراقها .

(فصل)

أجمع المسلمون على وجوب صيانة المصحف واحترامه قال أصحابنا وغيرهم : ولو ألقاه مسلم فى القاذورات والعياذ بالله صار الملقى كافراً ، قالوا ويحرم توسده ، بل توسد آحاد كتب العلم حرام ، ويستحب أن يقوم للمصحف إذا قدم به عليه ، لأن القيام مستحب للفضلاء من العلماء والأخبار ، فالمصحف أولى ، وقد قررت دلائل استحباب القيام فى الجزء الذى جمعته فيه ، وروينا فى مسند الدارمى بإسناد صحيح عن ابن أبى مليكة « أن عكرمة بن أبى جهل رضى الله عنه كان يضع المصحف على وجهه ، ويقول : كتاب ربى كتاب ربى » .

(فصل)

تحرم المسافرة بالمصحف إلى أرض العدو إذا خيف وقوعه فى أيديهم للحديث المشهور فى الصحيحين « أن رسول الله نهى أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو » ويحرم بيع المصحف إلى الذمى ، فإن باعه ففى صحة البيع قولان للشافعى : أصحهما لا يصح ، والثانى يصح ويؤمر فى الحال بإزالة ملكه عنه ، ويمنع المجنون والصبى الذى لا يميز من مس المصحف مخافة انتهاك حرمته ، وهذا المنع واجب على الولى وغيره ممن رآه يتعرض لحمله .

(فصل)

يحرم على المحدث مس المصحف وحمله ، سواء حمله بعلاقته أو بغيرها ، سواء مس نفس الكتابة أو الحواشى أو الجلد ويحرم مس الخريطة والغلاف والصندوق اذا كان فيهما المصحف هذا هو المذهب المختار ، وقيل لاتحرم هذه الثلاثة وهو ضعيف ولو كتب القرآن فى لوح فحكمه حكم المصحف سواء قل المكتوب أو كثر حتى لو كان بعض آية كتب للدراسة حرم مس اللوح .

(فصل)

إذا تصفح المحدث أو الجنب أو الحائض أوراق المصحف بعود أو شبهه ، ففى جوازه وجهان لأصحابنا : أظهرهما جوازه ، وبه قطع العراقيون من أصحابنا ، لأنه غير ماس ولا حامل ، والثانى تحريمه لأنه يعد حاملا للورقة والورقة كالجميع وأما إذا لف كمه على يده وقلب الورقة فحرام بلا خلاف وغلط بعض أصحابنا فحكى فيه وجهين ، والصواب القطع بالتحريم لأن القلب يقع باليد لا بالكم .

(فصل)

إذا مس المحدث أو الجنب أو الحائض أو حمل كتابا من كتب الفقه أو غيره من العلوم وفيه آيات من القرآن أو ثوباً مطرزاً بالقرآن ، أو دراهم أو دنانير منقوشة به ، أو حمل متاعاً فى جملته مصحف ، أو لمس الجدار أو الحلوى أو الخبز المنقوش به ، فالمذهب الصحيح جواز هذا كله لأنه ليس بمصحف . . . وأما كتب تفسير القرآن ، فإن كان القرآن فيها أكثر من غيره حرم مسها وحملها ، وإن كان غيره أكثر كما هو الغالب ففيها ثلاثة أوجه : أصحها لا يحرم ، والثانى يحرم والثالث أن كان القرآن بخط متميز بغلظ أو حمرة أو غيرها حرم ، وإن لم يتميز لم يحرم قلت : ويحرم المس إذا استويا قال صاحب التتمه واذا قلنا لا يحرم فهو مكروه ، وأما كتب حديث رسول الله ﷺ فإن لم يكن فيها آيات من القرآن لم يحرم مسها ، والأولى ألا تمس إلا على طهارة وإن كان فيها آيات من القرآن لم يحرم على المذهب وفيه وجه أنه يحرم وهو الذى فى كتب الفقه .

(فصل)

إذا كان فى موضع من بدن المتطهر نجاسة غير معفو عنها ، حرم عليه مس المصحف بموضع النجاسة بلا خلاف ، ولا يحرم بغيره على المذهب الصحيح المشهور الذى قاله جماهير أصحابنا وغيرهم من العلماء .

(فصل)

من لم يجد ماء فتيمم حيث يجوز التيمم له مس المصحف ، سواء كان تيممه للصلاة ، أو لغيرها مما يجوز التيمم له ، وأما من لم يجد ماء ولا تراباً ، فإنه يصلى على حسب حاله ، ولا يجوز له مس المصحف لأنه محدث جوزنا له الصلاة للضرورة ، ولو كان معه مصحف ولم يجد من يودعه عنده وعجز عن الوضوء جاز له حمله للضرورة .

أما إذا خاف على المصحف من حرق ، أو غرق ، أو وقوع فى نجاسة ، أو حصوله فى يد كافر ، فإنه يأخذه ولو كان محدثاً للضرورة .

(فصل)

يصح بيع المصحف وشراؤه ، ولا كراهة فى شرائه ، وفى كراهة بيعه وجهان لأصحابنا أصحهما وهو نص الشافعى أنه يكره ، وممن قال لا يكره بيعه وشراؤه الحسن البصرى وعكرمة والحكم بن عيينه ، وهو مروى عن ابن عباس وكرهت طائفة من العلماء بيعه وشراؤه ، وحكاه ابن المنذر عن علقمة وابن سيرين والنخعى وشريح ومسروق وعبد الله بن زيد . وروى عن عمرو بن موسى الأشعرى التغليظ فى بيعه ، وذهبت طائفة إلى الترخيص فى الشراء وكراهة البيع ، حكاه ابن المنذر عن ابن عباس وسعيد بن جبير وأحمد بن حنبل واسحق بن راهوية والله اعلم . ا . هـ

القواعد الذهبية لحفظ القرآن الكريم

يقول الاستاذ/ عبد الرحمن بن عبد الخالق :

القرآن الكريم كتاب الله الخالد المعجز المنزل على عبده ورسوله وخاتم رسله محمد ﷺ والذى أذن الله بحفظه من أن يغير أو يبدل ، أو يزاد فيه ، أو ينقص منه .

﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾

وهو الكتاب الذى بين أيدينا فى مشارق الأرض ومغاربها : الكتاب الذى تلقاه الرسول من جبريل ، وجبريل من رب العزة تبارك وتعالى ، والذى بلغه رسول الله ﷺ إلى أصحابه الأطهار ، وحملة الدين السفرة الكرام والذى جمعه الصديق بإشارة الفاروق ، ودونه ذو النورين عثمان ، وأجمعت الأمة المسلمة عليه ، هذا الكتاب هو دستور المسلمين وشريعتهم ، وصراطهم المستقيم ، وحبل الله المتين ، وهدايته الدائمة ، وموعظته إلى عباده ، آية صدق رسوله الباقية إلى آخر الدنيا ، وهو سبيل عز المسلمين فى كل العصور والدهور .

ولما كان القرآن كذلك تعبدنا الله بتلاوته ، وجعل خيرنا من تعلمه وعلمه ، وأخبر النبى ﷺ أن من قرأ حرفا واحدا منه كان له به عشر حسنات وأن من قرأه وهو يتعتع فيه فله أجران ، ومن كان ماهراً به كان من السفرة الكرام البررةمن الملائكة يوم القيامة ، وأن قارىء القرآن الحافظ له يقال له يوم القيامة : اقرأ ورتل وارق كما كنت ترتل فى الدنيا ، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤ ها . فلايزال يرقى فى منازل الجنة حتى ينتهى آخر حفظة وهذه منزلة عظيمة ليست لأحد إلا لحافظ القرآن .

ولما كان هذا فضل حفظ القرآن ، فإنى أحببت أن أضع بين يدى إخوانى بعض القواعد العامة التى تساعدهم فى حفظ القرآن ، ولينالوا هذه المنزلة العظيمة ، أو بعضا منها ، وما لا يدرك كله فلا بأس بادراك بعضه أوجله وعلى قدر أهل العزم تأتى العزائم .

القاعدة الأولى

الإخلاص : وجوب إخلاص النية ، وإصلاح القصد ، وجعل حفظ القرآن والعناية به من أجل الله سبحانه وتعالى ، والفوز بجنته ، وحصول مرضاته ، ونيل تلك الجوائز العظيمة لمن قرأ القرآن وحفظه ، قال تعالى : ﴿ فاعبد الله مخلصا له الدين ، ألا لله الدين الخالص ﴾[1]

وقال رسول الله ﷺ : قال الله تعالى « أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك معى فيه غيرى تركته وشكره » متفق عليه[2]

فلا أجر ولا ثواب لمن قرأ القرآن وحفظه رياء ، أوسمعه ولا شك أن من قرأ القرآن ، مريداً الدنيا ، طالباً به الأجر الدنيوى فهو آثم .

القاعدة الثانية

تصحيح النطق والقراءة :

أول خطوة فى طريق الحفظ بعد الإصلاح ، هى وجوب تصحيح النطق بالقرآن ، ولا يكون ذلك إلا بالسماع من قارىء مجيد ، أوحافظ متقن ، والقرآن لا يؤخذ إلا بالتلقى ، فقد أخذه الرسول ﷺ وهو أفصح العرب لسانا من جبريل شفاها ، وكان الرسول نفسه يعرض القرآن على جبريل كل سنة مرة واحدة فى رمضان ، وعرضه ﷺ فى العام الذى توفى فيه عرضتين (البخارى) ، وكذلك علمه الرسول ﷺ لأصحابه شفاها ، وسمعه منهم بعد أن أخذوه جيلاً بعد جيل ، وهذا هو الواجب الآن أخذ القرآن مشافهة من قارىء مجيد ، وتصحيح القراءة أولاً بأول ، وعدم الاعتماد على النفس فى قراءة القرآن ، حتى ولو كان الشخص ملماً بالعربية وعليما بقواعدها ، وذلك أن فى القرآن آيات كثيرة قد تأتى على خلاف المشهور من قواعد العربية

القاعدة الثالثة

تحديد نسبة الحفظ كل يوم .

يجب على مريد حفظ القرآن أن يحدد ما يستطيع حفظه فى اليوم عدداً من الآيات مثلاً ، أو صفحة أو صفحتين من المصحف ، أو ثمناً للجزء وهكذا . فيبدأ بعد تحديد مقدار حفظه وتصحيح قراءته بالتكرار والترداد ، ويجب أن يكون هذا التكرار مع التغنى ، وذلك لدفع السآمة أولاً ، وليثبت الحفظ ثانياً ، وذلك أن التغنى بإيقاع محبب إلى السمع يساعد على الحفظ ، ويعود اللسان على نغمة معينة فيتعرف بذلك على الخطأ رأسا عندما يختل وزن القراءة والنغمة المعتادة للآية ، فيشعر القارىء أن لسانه لا يطاوعه عند

---

(١) سورة الزمر الآيتان : ٢ ، ٣

(٢) أخرجه الزبيدى فى اتحاف السادة المتقين شرح إحياء علوم الدين ٢٦٣/٨

الخطأ ، وإن اختلت النغمة فيعاود التذكر ، هذا إلى جانب أن التغنى بالقرآن لا يجوز مخالفته ، لقوله ﷺ : « من لم يتغن بالقرآن فليس منا »[١]

القاعدة الرابعة

لا تجاوز مقررك اليومى حتى تجيد حفظه تماماً :

لا يجوز للحافظ أن ينتقل إلى مقرر جديد فى الحفظ إلا إذا أتم تماما حفظ المقرر القديم ، وذلك ليثبت ما حفظه تماما فى الذهن ، ولا شك أن مما يعين على حفظ المقرر ، أن يجعله الحافظ شغله طيلة ساعات النهار والليل ، وذلك بقراءته فى الصلاة السرية ، وإن كان إماماً ففى الجهرية ، وكذلك فى النوافل ، وكذلك فى أوقات انتظار الصلوات ، وفى ختام الصلاة ، وبهذه الطريقة يسهل الحفظ جداً ، ويستطيع كل أحد أن يمارسه ولو كان مشغولا باشغال كثيرة ، لأنه لن يجلس وقتا مخصوصا لحفظ الآيات ، وإنما يكفى فقط تصحيح القراءة على قارىء ثم مزاولة الحفظ فى أوقات الصلوات وفى القراءة فى النوافل والفرائض ، وبذلك لا يأتى الليل إلا وتكون الآيات المقرر حفظها ، قد ثبتت تماما فى الذهن وإن جاء ما يشغل فى هذا اليوم ، فعلى الحافظ ألا يأخذ مقررا جديدا ، بل عليه أن يستمر يومه الثانى مع مقرره القديم حتى يتم حفظه تماماً .

القاعدة الخامسة

حافظ على رسم واحد لمصحف حفظك :

مما يعين تماماً على الحفظ أن يجعل الحافظ لنفسه مصحفاً خاصاً لا يغيره مطلقاً ، وذلك أن الانسان يحفظ بالنظر ، كما يحفظ بالسمع ، وذلك أن صور الآيات ومواضعها فى المصحف تنطبع فى الذهن مع كثرة القراءة والنظر فى المصحف ، فإذا غير الحافظ مصحفه الذى يحفظ فيه ، أو حفظ من مصاحف شتى متغيرة المواضع فإن حفظه يتشتت ويصعب عليه الحفظ جداً ، ولذلك فالواجب أن يحافظ حافظ القرآن على رسم واحد للآيات لا يغيره

القاعدة السادسة

الفهم طريق الحفظ :

من أعظم ما يعين على الحفظ ، فهم الآيات المحفوظة ، ومعرفة وجه ارتباط بعضها ببعض ، ولذلك يجب على الحافظ أن يقرأ تفسيرا للآيات التى يريد حفظها ، وأن يعلم وجه ارتباط بعضها ببعض وأن يكون حاضر الذهن فى القراءة وذلك ليسهل عليه استذكار الآيات ، ومع ذلك فيجب أيضا عدم الاعتماد فى الحفظ على الفهم وحده للآيات ، بل يجب أن يكون التزويد للآيات هو الأساس ، وذلك

(١) أخرجه الهيثمى فى مجمع الزوائد ٢٦٧/٢ والبيهقى فى سننه ٢٣٦/١٠

حتى ينطبق اللسان بالقراءة ، وان تشتت الذهن احيانا عن المعنى ، واما من اعتمد على الفهم وحده فإنه ينسى كثيرا وينقطع فى القراءة بمجرد شتات ذهنه ، وهذا يحدث كثيرا وبخاصة عند القراءة الطويلة .

القاعدة السابعة

لا تجاوز سورة حتى تربط أولها بآخرها :

بعد إتمام سورة ما من سور القرآن ، لا ينبغى للحافظ أن ينتقل إلى سورة أخرى ، إلا بعد إتمام حفظها تماماً ، وربط أولها بآخرها ، وأن يجرى لسانه بها بسهولة ويسر ، ودون إعنات فكر وكد فى تذكر الآيات ، ومتابعة القراءة ، بل يجب أن يكون الحافظ كالماء ، ويقرأ الحافظ السورة دون تلكؤ حتى ولو شت ذهنه عن متابعة المعانى أحيانا كما يقرأ القارىء منا الفاتحة دون عناء واستحضار ، وذلك من كثرة تردادها وقراءتها ، ومع أن الحفظ لكل سور القرآن لن يكون كالفاتحة إلا نادراً ، ولكن القصد هو التمثيل ، والتذكير بأن السورة ينبغى أن تكتب فى الذهن وحدة مترابطة متماسكة ، وألا يجاوزها الحافظ إلى غيرها إلا بعد إتقان حفظها .

القاعدة الثامنة

التسميع الدائم : يجب على الحافظ ألا يعتمد على حفظه بمفرده ، بل يجب أن يعرض ما حفظه دائما على حافظ آخر ، أو متابع فى المصحف ، وحبذا لو كان هذا مع حافظ متقن ، وذلك حتى ينبه الحافظ عما يمكن أن يدخل فى القراءة ، من خطأ وما يمكن أن يكون مريد الحفظ قد نسيه من القراءة ورردده دون وعى ، فكثيراً ما يحفظ الفرد منا السورة خطأ ، ولا ينتبه لذلك حتى مع النظر فى المصحف لأن القراءة كثيرا ما تسبق النظر فينظر مريد الحفظ فى المصحف ولا يرى بنفسه موضع الخطأ من قراءته ولذلك فيكون تسميعه القرآن لغيره وسيلة لاستدراك هذه الأخطاء وتنبيهاً لذهنه وحفظه

القاعدة التاسعة

المتابعة الدائمة :

يختلف القرآن فى الحفظ عن أى محفوظ آخر من الشعر أو النثر ، وذلك أن القرآن سريع الهروب من الذهن ، بل قال رسول الله ﷺ « والذى نفسى بيده لهو أشد تفلتاً من الأبل فى عقلها (متفق عليه)[(١)]

فلا يكاد حافظ القرآن يتركه قليلا حتى يهرب منه القرآن وينساه سريعا ، ولذلك فلابد من المتابعة الدائمة والسهر الدائم على المحفوظ من القرآن ، وفى ذلك يقول الرسول ﷺ « إنما مثل صاحب القرآن كمثل صاحب الإبل المعقلة إن عاهد عليها أمسكها ، وإن أطلقها ذهبت »[(٢)]

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده ٤١٧/١ والطبرانى فى الكبير ٢٩١/١٧ وبمعناه أخرجه البخارى ٢٣٨/٦ ومسلم برقم ٧٩١/٢٣١

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (كتاب التفسير) باب استذكار والقرآن وتعاهد ٢٣٧/٦٥ ومسلم فى صحيحه ٥٤٣/١ رقم ٧٨٩/٢٢٦

وقال أيضا « تعهدوا القرآن ، والذى نفسى بيده لهو أشد تفصياً من الأبل فى عقلها » (أخرجها البخارى ومسلم)[١] وهذا يعنى أنه يجب على حافظ القرآن أن يكون له ورد دائم أقله جزء من الثلاثين جزءاً من القرآن كل يوم ، وأكثر قراءة عشرة أجزاء لقوله ﷺ « من قرأ القرآن فى أقل من ثلاث لم يفقهه »[٢]

وبهذه المتابعة الدائمة ، والرعاية المستمرة يستمر الحفظ ويبقى وبدونه يتفلت القرآن .

القاعدة العاشرة

العناية بالمتشابهات : القرآن متشابه فى معانيه والفاظة وآياته قال تعالى : ﴿ **الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله** ﴾[٣] وإذا كان القرآن فيه نحو من ستة آلاف آية ونيف ـ فإن هناك نحو من ألفى آية فيها تشابه بوجه ما ، قد يصل أحيانا حد التطابق ، أو الاختلاف فى حرف واحد ، أو كلمة واحدة أو اثنين أو أكثر .

لذلك يجب على قارىء القرآن المجيد ، أن يعتنى عناية خاصة بالمتشابهات من الآيات ، ونعنى بالتشابه هنا التشابه اللفظى وعلى مدى العناية بهذا المتشابه ، تكون إجادة الحفظ ، ويمكن الاستعانة على ذلك بكثرة الاطلاع فى الكتب ، التى اهتمت بهذا النوع من الآيات المتشابهه ومن أشهرها :

١ ـ درة التنزيل وغرة التأويل ، فى بيان الآيات المتشابهات فى كتاب الله العزيز ـ للخطيب الاسكافى

٢ ـ أسرار التكرار فى القرآن ـ لمحمود بن حمزة بن نصر الكرمانى

القاعدة الحادية عشرة

اغتنم سنى الحفظ الذهبية :

الموفق حتماً من اغتنم سنوات الحفظ الذهبية وهى من سن الخامسة إلى الثالثة والعشرين تقريبا فالإنسان فى هذه السن ، تكون حافظته جيدة جدا ، بل هى سنوات الحفظ الذهبية ، فدون الخامسة يكون الإنسان دون ذلك ، وبعد الثالثة والعشرين تقريبا يبدأ الخط البيانى للحفظ بالهبوط ، ويبدأ خط الفهم والاستيعاب فى الصعود ، وعلى الانسان أن يستغل سنوات الحفظ الذهبية فى حفظ كتاب الله أو ما استطاع من ذلك ، والحفظ فى هذه السن يكون سريعا جدا ، والنسيان يكون بطيئاً جداً بعكس ما وراء ذلك ، حيث يحفظ الانسان ببطء وصعوبة ، وينسى بسرعة كبيرة ولذلك صدق من قال « الحفظ فى الصغر ، كالنقش على الحجر ، والحفظ فى الكبر كالنقش على الماء ، فعلينا أن نغتنم سنوات الحفظ الذهبية ، إن لم يكن فى أنفسنا ففى أبنائنا وبناتنا تمت .القواعد الذهبية لحفظ القرآن الكريم .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (كتاب صلاة المسافرين وقصرها) باب فضائل القرآن وما يتعلق به : تعاهد القرآن . . . . ١/٥٤٥ رقم ٧٩١/٢٣١ والبخارى فى صحيحه (باب استذكار القرآن وتعاهده) ٦/٢٣٨

(٢) أخرجه ابن أبى شيبة فى مصنفه ٢/٥٠١ وأحمد فى مسنده ٢/١٦٤ ، ١٩٣ ، ١٩٥ والهيثمى فى مجمع الزوائد ٢/٢٦٩

(٣) سورة الزمر آية : ٢٣

دعاء ختم القرآن

صدق الله العظيم الذى لا إله إلا هو ، المتوحد فى الجلال بكمال الجمال تعظيما وتكبيرا . المتفرد بتعريف الأحوال على التفصيل والإجمال تقديرا وتدبيرا المتعالى بعظمته ومجده ﴿ الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا ﴾

وصدق رسوله الذى أرسله إلى جميع الثقلين الإنس والجن بشيرا ونذيرا ﴿ وداعيا إلى الله بإذنه وسراجاً منيرا ﴾

صدق الله العظيم ، وصدق رسوله النبى الكريم .

صدق الله ﴿ ومن أصدق من الله قيلاً)

ونحن على ما قال ربنا وخالقنا ورازقنا من الشاهدين ، ولما أوجب وألزم غير جاحدين ، والحمد لله رب العالمين ، وصلوات الله وسلامه على خاتم النبيين ، وعلى أبويه آدم وإبراهيم ، وعلى أخوته من النبيين ، وعلى أزواجه الطاهرات أمهات المؤمنين ، وعلى آله وأصحابه والتابعين وعنا معهم بفضلك وكرمك يا أكرم الأكرميين

اللهم انفعنا وارفعنا بالقرآن العظيم ، الذى رفعت مكانه ، وأيدت سلطانه ، وقلت يا أعز من قائل سبحانه ﴿ فإذا قرناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه ﴾

● أحسن كتبك نظاما ، وأفصحها كلاما ، وأبينها حلالا وحراما . محكم البيان ، ظاهر البرهان ، محروس من الزيادة والنقصان . فيه وعد ووعيد ، وتخويف وتهديد ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد ﴾[1]

اللهم إنا عبيدك ، بنو عبيدك ، بنوا اماثك ، نواصينا بيدك ، ماضى فينا حكمك ، عدل فينا قضاؤك ، نسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو انزلته فى كتابتك أو علمته أحداً من خلقك ، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك ، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا ، ونور صدورنا ، وجلاء أحزاننا ، وذهاب همومنا وغمومنا وسائقنا ودليلنا إليك وإلى جناتك النعيم .

اللهم ألبسنا به الحلل ، وأسكنا به الظلل ، وادفع به عنا النقم ، واجعلنا به عند الجزاء من الفائزين ، وعند النعماء من الشاكرين ، وعند البلاء من الصابرين ، ولا تجعلنا ممن استهوته الشياطين ، فشغلته فى الدنيا عن الدين ، فأصبح من النادمين ، وفى الآخرة من الخاسرين .

اللهم انفعنا بالقرآن العظيم ، وبارك لنا فى الآيات والذكر الحكيم .

---

(١) سورة فصلت آية : ٤٢

● اللهم ذكرنا منه ما نسينا ، وعلمنا منه ما جهلنا ، وارزقنا تلاوته آناء الليل وأطراف النهار على الوجه الذى يرضيك عنا .

● اللهم اجعلنا ممن يحل حلاله ، ويحرم حرامه ، ويعمل بمحكمه ويؤمن بمتشابهه ويتلوه حق تلاوته .

● اللهم اجعلنا ممن اتبع القرآن مقاده إلى رضوانك والجنة ، ولا تجعلنا ممن تبعه القرآن فَزُجَّ فى قفاه إلى النار .

● اللهم اجعلنا ممن يقيم حروفه وحدوده ، ولا تجعلنا ممن يقيم حروفه ويضيع حدوده .

● واجعلنا من أهل القرآن الذين هم أهلك وخاصتك يا ارحم الراحمين .

● اللهم اغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات ، وألف بين قلوبهم وأصلح ذات بينهم ، وانصرهم على عدوك وعدوهم ، واهدهم سبل السلام ، وأخرجهم من الظلمات إلى النور ، وبارك لهم فى أسماعهم وأبصارهم وذرياتهم وأزواجهم أبداً ما أبقيتهم واجعلهم شاكرين لنعمتك ، مثنين بها عليك ، وأتمها عليهم برحمتك ياأرحم الراحمين

● اللهم اغفر لجميع المسلمين الذين شهدوا لك بالوحدانية ولنبيك بالرسالة وماتوا على ذلك .

● اللهم اغفر لهم وارحمهم ، وعافهم واعف عنهم ، وأكرم نزلهم وأوسع مدخلهم وأغسلهم بالماء والثلج والبرد ، ونقهم من الذنوب والخطايا ، كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس برحمتك ياأرحم الراحمين .

اللهم ارحمنا إذا صرنا إلى ما صاروا إليه تحت الجنادل والتراب وحدنا .

اللهم آنس وحشتنا ، وارحم غربتنا ، برحمتك ياأرحم الراحمين .

لا إله إلا أنت ، يامن بيده مفاتيح الفرج ، إذا أغلقت الأبواب ، يارجانا إذا انقطعت الأسباب ، وحيل بيننا وبين الأهل والأصحاب .

● اللهم إنا نسألك الإيمان ، والعفو عما سلف وكان من الذنوب والعصيان .

● اللهم لا تجعل بيننا وبينك فى رزقنا أحداً سواك ، واجعلنا أغنى خلقك بك ، وأفقر عبادك اليك ، وهب لنا غنى لا يطغينا ، وصحة لا تلهينا ، واغننا عمن أغنيته عنا ، واجعل آخر كلامنا من الدنيا شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وتوفنا وأنت راض عنا غير غضبان ، واحشرنا فى زمرة المساكين يا أرحم الراحمين .

● ﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾[(١)] .

● اللهم إنا نسألك الخير كله عاجله وآجله ما علمنا منه وما لم نعلم ونعوذ بك من الشر كله ما علمنا منه وما لم نعلم . ونسألك من خير ما سألك منه عبدك ورسولك محمد ﷺ وعبادك الصالحون .

● اللهم إنا نسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل ، ونعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل ، ونسألك رضاك والجنة ونعوذ بك من سخطك والنار .

---

(١) سورة الحشر آية : ١٠

● اللهم لا تدع لنا ذنباً إلا غفرته ، ولا همّاً إلا فرجته ، ولا دينا إلا قضيته ، ولا مريضا إلا شفيته ، ولا ضالا إلا هديته ، ولا حاجة من حوائج الدنيا والآخرة هى لك رضاً ولنا فيها صلاح ، إلا قضيتها برحمتك ياأرحم الراحمين .

● اللهم إنا نعوذ بك من علم لا ينفع ، وقلب لا يخشع ، وعين لا تدمع ، ونفس لا تشبع ، ودعوة لا يستجاب لها .

● اللهم إنا نسألك حبك ، وحب من يحبك ، وحب العمل الذى يقربنا إلى حبك .

● اللهم إنا نسألك موجبات رحمتك ، وعزائم مغفرتك ، والغنيمة من كل بر ، والسلامة من كل إثم والفوز بالجنة والنجاة من النار .

● اللهم اهدنا لصالح الأعمال والأخلاق لا يهدى لأحسنها إلا أنت وأصرف عنا سيئها لا يصرف سيئها إلا أنت .

● اللهم أصلح لنا ديننا الذى هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التى فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التى إليها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا فى كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر .

● اللهم إنا نسألك بأسمائك الحسنى ، وصفاتك العلى ، ياواحد أحد فرد صمد لم يلد ولم يكن له كفواً أحد ، أن تطهر قلوبنا من النفاق وأعمالنا من الرياء ، وألسنتنا من الكذب وأعيننا من الخيانة ، فإنك تعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور .

● اللهم إنا نسألك خشيتك فى السر والعلن ونسألك كلمة الحق فى الغضب والرضى ، ونسألك القصد فى الفقر والغنى ، ونسألك نعيما لا ينفد ، وقرة عين لا تنقطع ، ونسألك الشوق إلى لقائك والنظر إلى وجهك الكريم ، فى غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة .

اللهم يابديع السموات والأرض ، ياذا الجلال والإكرام ، والعزة التى لا ترام ، يارحيم ، يارحمن ، إنك قلت وقولك الحق ﴿ ادعونى استجب لكم ﴾ وإنك لا تخلف الميعاد ، وقد دعوناك كما أمرتنا فاستجب لنا كما وعدتنا ، فهذا الدعاء ومنك الاجابة ، وهذا الجهد وعليك التكلان . **﴿ ربنا اغفر لنا ذنوبنا ، وإسرافنا فى أمرنا ، وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ﴾**

﴿ ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب ﴾

﴿ ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ، ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به واعف عنا ، واغفر لنا وارحمنا ، أنت مولانا ، فانصرنا على القوم الكافرين ﴾

﴿ ربنا آتنا فى الدنيا حسنة ، وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ﴾

﴿ ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ﴾

﴿ سبحان ربك ، رب العزة عما يصفون ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين ﴾

خاتمة نسأل الله حسنها .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلاة وسلاماً على أشرف انبيائه ورسله مبعوث العناية الآلهية وشمس الهداية الربانية ، صلى الله عليه ما هبت النسائم وما ناحت على الأيك الحمائم .

وبعد

فلا يسعنى إلا أن أشكر المولى تبارك وتعالى على نعمة توفيقه ومزيد فضله حيث وفقنى لتفسير الكتاب العزيز ، أسأله سبحانه أن ينفع به ، وأن يقبله ، فالعمل لا يقبل إلا إذا كان صوابا خالصاً ، فإن أحسنت فذلك من فضل ربى ، وإن كانت الآخرى فمن نفسى وما أبرىء نفسى ، كما أسأله تعالى أن يجعل كتابه الكريم شاهدا لنا لا علينا ، وأن يجعله شفيعاً لنا إلى الجنة ، وما استطعت أن اقتحم هذه الأسوار المنيعة وأنزل تلك البحار الطاهرة ، إلا بعد أن صحبت هذا الكتاب ثلاثين عاماً وكأنى أقول له حيائى منك يمنعنى وحبى فيك يدفعنى ، وألقى الله السكينة فى قلبى فتوكلت عليه واستعنت به واستخرته فكان ذلك التفسير قال الشاطبى رحمه الله فى القرآن الكريم .

شعر :

وخير جليس لا يمل حديثه ... وترداده تزداد فيه تجملا
وحيث الفتى يرتاع فى ظلماته ... من القبر يلقاه سناً متهللا
هنالك يهنيه مقبلا وروضة ... ومن أجله فى ذروة العز يجتلى
يناشد فى إرضائه لحبيبه ... وأجدر به سؤلاً إليه موصلا
فيا أيها القارىء به متمسكا ... مجلا له فى كل حال مبجلا
هنيئاً مريئا والدال عليهما ... ملابس أنوار من التاج والحلى

تم بحمد الله طبع الجزء الثلاثون
من رحاب التفسير

بسم الله الرحمن الرحيم

ملوي - البريد البحري
في ١٠/١٢/١٩٩٥

الأستاذ المحترم أحمد يحيى . مدير المكتب المصري الحديث - القاهرة

سلام الله عليك ورحمته وبركاته . وبعد

الله أسأل أن يبارك لك في ذاتك وولدك وعملك أيضا . نظير ما تقدمه من جهد جبار . وعرفت عزيزي في إخراج "في رحاب التفسير" لفضيلة مولانا الكبير الشيخ عبد الحميد كشك .

حقا ونحن ندرك تماما غلاء الأسعار وارتفاع تكاليف الطباعة ومع هذا فقد خرج هذا "الرحاب" في رحاب الدنيا . وسيراه الجميع وبين أيدي محبي ومريدي شيخنا الفذ الشيخ عبد الحميد كشك .

فجزاكم الله خيرا نظير ما تقدمه في سبيل الله والإسلام والقرآن .

أما شيخنا العظيم :-

فإننا من صعيد مصر نزف آيات الضراعة إلى المولى تعالى أن يحفظه ويبارك لنا فيه . فقد توج حياته بإخراج "رحاب التفسير" استطاع خلاله أن يغوص في معالجة مواضيع شتى . وعلوم مختلفة .

الفقه الإسلامي بفروعه وجذوره وخطوطه العريضة والدقيقة

الأحاديث النبوية - المصطلحات العلمية - الحقائق التاريخية

اللغة العربية والبلاغة بفروعها والأدب العربي شعرا ونثرا .

التوحيد بمذاهبه وفرقه .

حتى العلوم الكونية والتكنولوجيا الحديثة -- الخ

لقد نال "في رحاب التفسير" ما لم ينله من سبقوه في تفاسير الأعلام . [illegible] الشيخ عبد الحميد الماهر . بارك الله فيه وأعطاه صحة وعافية

الأستاذ الكريم / أحمد يحيى

وصلتني في اقتنائي "في رحاب التفسير" حتى المجلد السابع الذي ينتهي عند سورة الممتحنة

لذلك : أرجو أن تتكرم مشكورا بإخطاري عن ثمن المجلد اللاحق أو ربما كلمة الباقي في مجلد جديد . ما ثمنها . وما تكاليف إرسالها . حتى يكتمل عندي [illegible]

وأكون شاكرا لو تكرمت بالرد . وبلغت تحياتي لفضيلة شيخنا الكبير وإمام العصر الحاضر . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته)

عبد العزيز عبد المطلب العريف
مدير التعليم [illegible]
[illegible]

من الجزء التاسع والعشرين

سورة الملك وسورة القلم وسورة الحاقة وسورة نوح وسورة الجن حتى الآية (١٥)

* سورة الملك

الآيات	الموضوع	الصفحة
	ـ مقدمة السورة	٧٢٩٧
الآيات ١ ـ ١١	ـ أول سورة الملك	٧٢٩٨
الآيات ١٢ ـ ١٥	ـ وعد ووعيد	٧٣٠٣
الآيات ١٦ ـ ٣٠	ـ عظمة الله تعالى المطلقة	٧٣٠٦
	ـ سياحة مباركة فى سورة الملك	٧٣١٢
	ـ خسف الأرض آية من ايات الله	٧٣٢٠
	ـ عالم الطير	٧٣٢٦

* سورة القلم

الآيات	الموضوع	الصفحة
	ـ مقدمة السورة	٧٣٣١
الآيات ١ ـ ٧	ـ أول سورة القلم	٧٣٣٢
	ـ من أخلاق النبى ﷺ	٧٣٣٩
الآيات ٨ ـ ١٦	ـ تفسير الآيات	٧٣٨٤
الآيات ١٧ ـ ٣٣	ـ قصة أصحاب الجنة	٧٣٨٧
	ـ الصراع بين النفس والمال	٧٣٩٢
الآيات ٣٤ ـ ٥٢	ـ أحكام إلهية عادلة	٧٤٠٢

* سورة الحاقة

الآيات	الموضوع	الصفحة
	ـ مقدمة السورة	٧٤٠٨
الآيات ١ ـ ١٢	ـ أول السورة	٧٤٠٩
الآيات ١٣ ـ ٣٧	ـ مقدمات القيامة وشواهدها	٧٤١٢
الآيات ٣٨ ـ ٥٢	ـ قسم صادق	٧٤١٩

* سورة المعارج

الآيات	الموضوع	الصفحة
	ـ مقدمة السورة	٧٤٢٥
الآيات ١ ـ ١٨	ـ أول السورة	٧٤٢٦
الآيات ١٩ ـ ٣٥	ـ من طبائع النفس الإنسانية وذكر أصحاب الجنة	٧٤٣٠
الآيات ٣٦ ـ ٤٤	ـ من أحوال المعاندين	٧٤٣٥

* سـورة نـوح

	ـ مقدمـة السـورة	٧٤٤٠
الآيـات ١ ـ ٢٠	ـ أول سـورة نـوح	٧٤٤١
الآيـات ٢١ ـ ٢٨	ـ موقف قوم نوح ـ عليه السلام ـ منه	٧٤٤٦

* سـورة الجـن

	ـ مقدمـة السـورة	٧٤٦٤
الآيـات ١ ـ ١٥	ـ أول سـورة الجن	٧٤٦٥

إنتهى المجلد الثامن ويليه المجلّد التاسع إن شاء الله

محتويات المجلد التاسع

الجزء التاسع والعشرون

باقى سورة الجن حتى آخر سورة الناس
مع آداب قراءة وتعلم وحفظ ودعاء ختم القرآن

الصفحة

* سورة الجن
تابع الآيات ١ ـ ١٥ .... ٧٤٧٣
- التفسير ٧٥٧٧
الآيات ١٦ ـ ٢٨ .... ٧٥٨٠
- معانى المفردات ٧٥٨١
- التفسير ٧٥٨٣

* سورة المزمل
الآيات ١ ـ ١٩ - أول سورة المزمل ٧٥٨٩
- معانى المفردات ٧٥٩٠
- التفسير ٧٥٩٣
الآية ٢٠ .... ٧٧٠٦
- التفسير ٧٧٠٧

* سورة المدثر - بين يدى السورة ٧٧١٠
الآيات ١ ـ ١٠ - أول السورة ٧٧١١
- التفسير ٧٧١٣
الآيات ١١ ـ ٣١ - مصير زعماء الضلال ٧٧١٦
- التفسير ٧٧١٩
الآيات ٣٢ ـ ٥٦ - آخر سورة المدثر، الحديث عن أهل سقر ٧٧٦٠
- التفسير ٧٧٦٣

* سورة القيامة
- مقدمة ٧٧٧٥
الآيات ١ ـ ٢٥ - أول سورة القيامة ٧٧٧٦
- التفسير ٧٧٧٧
الآيات ٢٦ ـ ٤٠ - صورة من مشاهد الموت ٧٧٨٣
- التفسير ٧٧٨٤

* سـورة الإنســان

الآيات	الموضوع	الصفحة
الآيـات ١ ـ ٢٢	ـ أول سورة الإنسان	٧٧٩٤
	ـ التفســير	٧٧٩٥
الآيـات ٢٣ ـ ٣١	ـ توجيهات ربانيـة	٧٨٠٢
	ـ التفســير	٧٨٠٣

* سـورة المرسـلات

الآيات	الموضوع	الصفحة
	ـ مقدمــة	٧٨١٠
الآيـات ١ ـ ٢٨		٧٨١١
	ـ التفســير	٧٨١٢
الآيـات ٢٩ ـ ٥٠	ـ من صور الوعيد والوعد	٧٨١٩
	ـ التفســير	٧٨٢٠

* ســورة النبــأ

الآيات	الموضوع	الصفحة
	ـ مقدمــة	٧٨٢٥
الآيـات ١ ـ ٣٠		٧٨٢٦
	ـ التفســير	٧٨٢٨
الآيـات ٣١ ـ ٤٠		٧٨٣٥
	ـ التفســير	٧٨٣٦

* سـورة النازعـات

الآيات	الموضوع	الصفحة
	ـ مقدمــة	٧٨٤٦
الآيـات ١ ـ ٢٦		٧٨٤٧
	ـ التفســير	٧٨٤٨
الآيـات ٢٧ ـ ٤٦		٧٨٥٤
	ـ التفســير	٧٨٥٥

* ســورة عـبـس

الآيات	الموضوع	الصفحة
	ـ مقدمــة	٧٨٦٢
الآيـات ١ ـ ٢٣		٧٨٦٣
	ـ التفســير	٧٨٦٤
الآيـات ٢٤ ـ ٤٢	ـ الكرم الإلهى الواسع	٧٨٦٩
	ـ التفســير	٧٨٧٠

* سورة التكوير
- مقدمة ٧٨٧٤
الآيات ١ - ١٤ .... ٧٨٧٥
الآيات ١٥ - ٢٩ .... ٧٨٧٩

* سورة الإنفطار
- مقدمة ٧٨٨٥
الآيات ١ - ٨ .... ٧٨٨٥
الآيات ٩ - ١٩ .... ٧٨٨٧

* سورة المطففين
- مقدمة ٧٨٩٠
الآيات ١ - ١٧ .... ٧٨٩١
الآيات ١٨ - ٣٦ .... ٧٩٢٢

* سورة الإنشقاق
- مقدمة ٧٩٢٦
الآيات ١ - ١٥ .... ٧٩٢٧
الآيات ١٦ - ٢٥ .... ٧٩٢٩

* سورة البروج
- مقدمة ٧٩٣٣
الآيات ١ - ١١ .... ٧٩٣٣
الآيات ١٢ - ٢٢ .... ٧٩٤٢

* سورة الطارق ٧٩٤٦

* سورة الأعلى ٧٩٥٣

* سورة الغاشية ٧٩٦٠

* سورة الفجر ٧٩٧٤

* سورة البلد ٧٩٨٥

* سورة الشمس ٨٠٠٤
* سورة الليل ٨٠١٠
* سورة الضحى ٨٠٢٠
* سورة الشرح ٨٠٢٤
* سورة التين ٨٠٣٠
* سورة العلق ٨٠٣٤
* سورة القدر ٨٠٤٠
* سورة البينة ٨٠٥٠
* سورة الزلزلة ٨٠٥٥
* سورة العاديات ٨٠٦١
* سورة القارعة ٨٠٦٥
* سورة التكاثر ٨٠٦٩
* سورة العصر ٨٠٧٩
* سورة الهُمَزة ٨٠٨٢
* سورة الفيل ٨٠٨٧
* سورة قريش ٨١٠٢
* سورة الماعون ٨١٠٥
* سورة الكوثر ٨١١٠
* سورة الكافرون ٨١١٧
* سورة النصر ٨١٢٤
* سورة المسد ٨١٢٨
* سورة الإخلاص ٨١٣٣
* سورة الفلق ٨١٤٣
* سورة الناس ٨١٤٧
- آداب حملة القرآن ٨٢٠٣
- القواعد الذهبية لحفظ القرآن الكريم ٨٢٥٥
- دعاء ختم القرآن ٨٢٦٠

بسم الله الرحمن الرحيم

الشيخ عبد الحميد كشك الداعية الاسلامى قدم إلى مريديه ومحبيه فى العالم الاسلامي العديد من الأحاديث المسجلة التى تحمل الدعوة الاسلامية الخالصة الصادقة الجريئة .

والعصر الذى نعيشه والأجيال الصاعدة التى تمزقها الحيرة بين الخطأ والصواب يدعونا الى أن نعيش الدعوة الاسلامية تاريخها وحقائقها بقدر ما نعيش واقعها ومسيرتها .

واسهاما فى ملء فراغ يشعر به الجميع فى هذا المجال نقدم مكتبة الشيخ عبد الحميد كشك فى :

١ - طريق النجاة .
٢ - البطولة فى ظل العقيدة .
٣ - رياض الجنـــة .
٤ - نفحات من الدراسات الاسلامية .
٥ - بناء النفوس .
٦ - أصحاب النفوس المطمئنة .
٧ - حياة الانسان .
٨ - مع التوحيد والأخلاق .
٩ - اليوم الحـــق .
١٠ - صور من عظمة الاسلام .
١١ - ارشاد العباد .
١٢ - أضواء من الشريعة الغراء .
١٣ - البعث والجزاء .
١٤ - شفاء القلوب .
١٥ - حقائق وحديث عن الروح .
١٦ - حديث من القلب .
١٧ - الصلاة رأس العبادات .
١٨ - الاسلام واصول التربية .
١٩ - الوصايا العشر فى القرآن الكريم .
٢٠ - ورثة الفردوس .
٢١ - الهدى والنور .
٢٢ - جدد السفينة .
٢٣ - أعد الزاد .
٢٤ - الفتوحات الربانية .
٢٥ - رحلة الى الدار الآخرة .
٢٦ - صم عن الدنيا وافطر على الموت .
٢٧ - الصراع بين النفس والمال .
٢٨ - اخلص العمل فان الناقد بصير .
٢٩ - صاحب الرسالة العصماء .
٣٠ - سياحة مباركة .
٣١ - فضل القرآن يوم الحشر .
٣٢ - مصارع الظالمين .
٣٣ - الصلح مع الله .
٣٤ - الناس بخير ما تناصحوا .
٣٥ - الوقوف بين يدى الله تعالى .
٣٦ - على مائدة الاسلام .
٣٧ - غذاء الروح .
٣٨ - هالات من نور .
٣٩ - ساعة صفاء على النفس .
٤٠ - فى رحاب السكينة .
٤١ - الاسلام شجرة طيبة .
٤٢ - اذا ذكر الله نزلت الطمأنينة .
٤٣ - رسائل رحمانية النفحات .
٤٤ - من جوار الخلق الى رحاب الحق .
٤٥ - منطق الحق المبين .
٤٦ - فى ساحة الحساب .
٤٧ - يارب كيف اشكرك .
٤٨ - حديث عن الصالحين .
٤٩ - الخوف والرجاء .
٥٠ - شعاع من نور الايمان .
٥١ - قصة البشرية .
٥٢ - سحائب الرحمة .
٥٣ - الأمن فى ظل الاسلام .

احمد يحيى